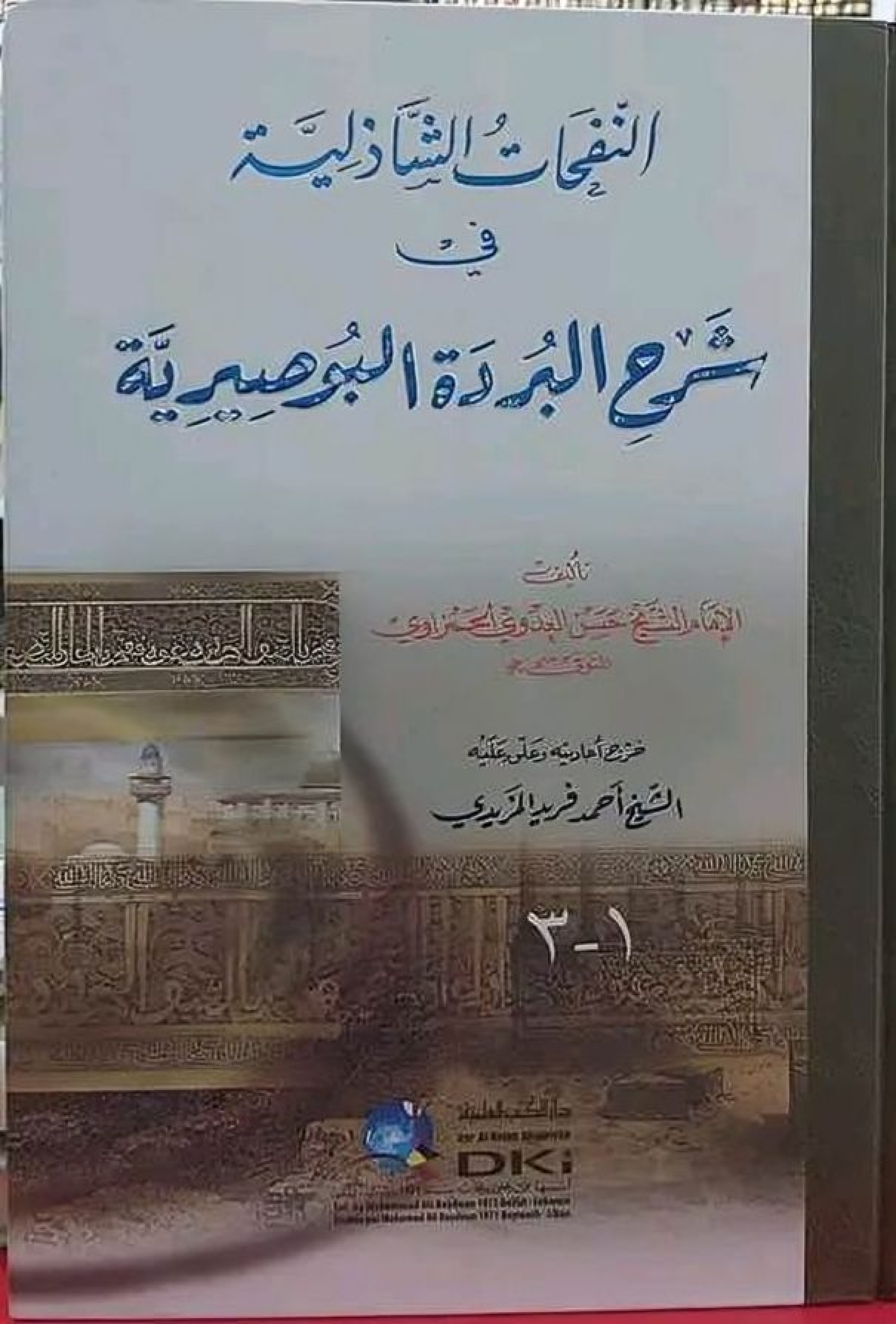

النفحات الشاذلية
في
شرح البردة البوصيرية
تأليف
الإمام الشيخ حسن العدوي الحمزاوي
خرج أحاديثه وعلق عليه
الشيخ أحمد فريد المزيدي
١-٣
دار الكتب العلمية
Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah
DKi

النفحات الشاذلية

في

شرح البردة البوصيرية

تأليف

الإمام الشيخ حسن العدوي الحمزاوي

المتوفى ١٣٠٣هـ

خرج أحاديثه وعلق عليه

أحمد فريد المزيدي

١-٢-٣

منشورات محمد علي بيضون

دار الكتب العلمية بيروت لبنان

منشورات محمد علي بيضون



دار الكتب العلمية بيروت لبنان

الطبعة الأولى
٢٠٠٥ م - ١٤٢٦ هـ

منشورات محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

Mohamad Ali Baydoun Publications Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah

الإدارة : رمل الظريف، شارع البحتري، بناية ملكارت
Ramel Al-Zarif, Bohtory Str., Melkart Bldg., 1st Floor
هاتف وفاكس: ٣٦٤٣٩٨ - ٣٦٦١٣٥ (١ ٩٦١)

فرع عرمون، القبة، مبنى دار الكتب العلمية
Aramoun Branch - Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.
هاتف: ١٢/١١/٠٥/٨٠٤٨١٠ +٩٦١
فاكس: ٠٥/٨٠٤٨١٣ +٩٦١
ص.ب: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان
رياض الصلح - بيروت ١١٠٧٢٢٩٠

http://www.al-ilmiyah.com
e-mail: sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun-ilmiyah.com

الكتاب: النفحات الشاذلية في شرح البردة البوصيرية
AN-NAFAHĀT AŠ-ŠĀḎILIYAH
FĪ ŠARḤ AL-BURDAH AL-BŪṢĪRIYAH
المؤلف: الشيخ حسن العدوي الحمزاوي
المحقق: أحمد فريد المزيدي
الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت
عدد الصفحات: 560
سنة الطباعة: 2005 م
بلد الطباعة: لبنان
الطبعة: الأولى



ISBN 2-7451-4577-0
9 782745 145772

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير وتقريظ

قال الشيخ، عقد الكمال الفريد، ودرّ الجمال الثمين النضيد، خزانة الأدب وريحانة العرب، الفاضل الشيخ عبد المجيد الشرنوبي:

بسم الله الرحمن الرحيم

يا مَنْ توفيقك العباد لحمدك من باهر النفحات، وإرشادك المستهام لشكر أفضالك من وافر الهبات، وفّقنا لحمد ذاتك على جميل آلائك، وجمّلنا بشكر أفضالك وجميع نعمائك، وأسبغ جلابيب صلات الصلاة على الخيرة من خلقك، من اطلع بعلمك على مكنون غيبك وجلس على بساط أنسك، سيّدنا محمد الذي آتيته سبعاً من المثاني والقرآن العظيم، وجبلته على محاسن الأخلاق، فجاء وهو بالمؤمنين رؤوف رحيم، صلّى الله عليه وعلى آله وصحبه السادة الأعلام وجميع التابعين ومن تبعهم بإحسان على تعاقب الأيام. وبعد:

فلما كان الحبيب المختار هو الواسطة لنا في كل نعمة، والوسيلة العظمى في دفع كل كربة وغمة، وكانت شجرة محبّته تنبت ثمر الوصال، وتقرّب المحب من الحبيب، حتى يبلغ بقربه الآمال، تمسك بغصن هذه الشجرة التي أصلها ثابت وفرعها في السماء، حضرة ذي المجد والإفضال، حسن الاسم والأفعال، من طاب أصله وسما، وسقاها من ينابيع صفات الحبيب المحبوب بماء غير آسن، وألّف هذا الكتاب في شمائل إنسان العيون، فعدّ من أبهج المحاسن، وكان جديراً بما قلت فيه، وإن كنت أضعف واصفيه:

جاد الزمان وقد تحلّى جيدنا ... بفرائد فاقت عقود جمان

وتطاولت أيدي المعارف وازدهت ... أنوار طه السيد العدناني

حيث الإمام ابن الهمام أخوالها ... حسن الثنا قد جاد بالإحسان

وأجاد في سير البشير محمد ... وصفاته وكماله الإنساني
وأفادنا بجوامع الكلم التي ... منه بدت كقلائد العقيان
لله يا عدويّ يا بحر الندى ... ما قد وصلت به إلى الرضوان
فاهنأ بما تهوى فقد نلت المنى ... حاشا يفوتك سيِّد الأكوان
ولقد نسبت لإله بمحبّة ... ظهرت بشائرها بكلِّ لِسان
لا غرو أن ألّفت في أوصافه ... وسموت في شرف رفيع الشان
فهي العناية صادفتك فعندها ... ظهرت عليك مواهب الرحمٰن
لا زلت في الإرشاد تبصرة الورى ... كنز المطالب في رِضَى المنان

وإنه لكتاب تعطّرت المطابع بنفحاته الشاذليّة، وتجمّلت المحافل بما اشتمل عليه من البردة البوصيرية، وقرّت به أعين هذا العام[1]، لما ظهر عليه من بشائر النفع العامّ. فإنه جمع من الأحاديث النبويّة ما يقرب من ثلاثة آلاف، واشتمل على السيرة المصطفويّة من النور المحمدي إلى النهاية مع ما فيه من كمال الأوصاف، وتلقته الأفاضل بحسن القبول، وصبا إليه نسيم الصبا والقبول، فصاح العندليب، وأنشد قول الحبيب:

لعمر أبيك قد لاحت عليه ... من المختار أنوار القبول

وقد تحلّى بذكر مناقب آل بيت النبوّة الذين تنزل بذكرهم الرحمات، وتفصيل البراهين المتعلقة بكرامات الأولياء في الحياة وبعد الممات.

فكان كالروضة الغنّاء قد جمعت ... من زاهر الزهر باهي الحُسْن أنواعاً

ولعمري إنه الشرح الشارح للصدور، المغني عن النظر لما سواه إذ هو من أهمّ الأمور، فإنه جمع الفرائد في عقد النظام، فكان فريداً في المحاسن كالبدر التمام، به يتذكر من تذكّر أو قرا، كل الصيد في جوف الفرا، ولما لاح بدر تمامه، وفاح مسك خِتامه، قلت مؤرخاً عام الطبع والتأليف، بقدر ما خطر على الخاطر الضعيف:

نبهت الناظر من وسني ... إذ وافاني باهٍ وسني
وأجَلْتُ الفكرة مجتلياً ... نوراً في البصرة أطمعني
وخلعت عذاري حيث بدا ... عذري وعذولي يعذرني
وأمطت الوهم عن الأذها ... ن وملت بعزمي عن وهني

---

(١) طبعه سنة يعني عام ١٢٩٧هـ، وقلت: وكذلك العام، عام ٢٠٠٤ وكل عامٍ على الدّوام.

وكلفت بتهيامي لأرى رأيا من خلٍ يسعفني
وأتيت أسائل من نجدٍ وأجوب الشأم مع اليمن
وأقول علام أرى الأنوا ر علت وزهت في ذا الزمن
وثغور الأكوان ابتسمت وتباهت أرجاء الوطن
ورياض الأنس شدت فيها ورق الإسعاد على فنن
فأجاب العارف قد ظهرت نفحات للمولى الحسن
وبها نور المختار بدا وشمائله أصل المنن
فاسعد وانشق رياه تفز بكمال السعد بلا محن

وأدر كأساً مُزِجَتْ بحديث جميل الخلق لتسكرني

فحديث رسول الله له كأس في حان الصفو هني
ومن استحلاه وكرّره فسيمنع من محن الفتن
وأنا الراجي في منهاجي يوم الإفضال يكلّمني
ويوافيني بالحب كما وافى العدويّ على علن
حسن الإرشاد أبو الأمدا د ابن الأسعاد أخو الفطن
بحر الأفضال محب الآ لِ أصيل الخال بلا وهنِ
ذخر الرَّاجين لينجدهم ويدير الجاه بلا ثمن
ويرى جدوى الإحسان لهم وبهم ينحو أبهى سنن
ويقوم بواجبهم حتى يأتي بالنفل مع السنن
وعليه من التقوى حلل وجمال العلم عليه سنىٰ
لله محاسنه الغرا منها روض الآمال جنى

عمَّت وزهت في هذا العصر فكانت روحاً في البدن

وله التأليف به صارت أرجاء الكون تجاوبني
حتى عمَّت منه النفحا ت فقلّدنا أبهى المنن
وسرور الأنس به أضحى بين الفضلاء يخامرني
لله كتاب منه بدا عن كثرة مدحي فيه غنى
جلّت أوصاف محاسنه وأزالت أنواع الحزن

وزهى بالطبع على الأكوا ن فحنّ إليه ذوو الشجن
وبآل البيت سما وعلا إذ صار على أعلى فنن
ونسين الفضل أبو الإسعا د أفاض الجود على السكن
ولسان الحال يؤرّخ لي نفحات عمّت من حسن

وصلّى الله على سيّدنا محمدٍ وعلى آله وصحبه وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

ترجمة مختصرة للمصنف

هو العلاَّمة الفقيه، المحدِّث المتكلِّم، الواعظ الصوفيّ الكبير: حسن العدوي الحمزاوي، الأزهري المصري.

وُلِدَ سنة ١٢٢٠هـ، وقيل: ١٢٢١هـ بعَدوة من قرى مصر، ودرّس بالجامع الأزهر، وتوفي ٢٧ رمضان سنة ١٣٠٣هـ، وضريحه الشريف بحي الحمزاوي قرب مسجد سيِّدنا الحسين رضي الله عنهم جميعاً.

والشيخ رضي الله عنه له باع كبير في علم الشريعة والحقيقة. فمن تصانيفه:

١ ـ النور الساري على صحيح البخاري ـ يسّر الله لنا تحقيقه.

٢ ـ حاشية على شرح الزرقاني على العزية في فروع المالكية.

٣ ـ المسرات على دلائل الخيرات، يسَّر الله لنا تحقيقه.

٤ ـ تبصرة القضاة والإخوان في وضع اليد وما يشهد له من البرهان.

٥ ـ مشارق الأنوار في فوز أهل الاعتبار، قيد التحقيق.

٦ ـ الجوهر الفريد على شرح إرشاد المريد في خلاصة علم التوحيد.

٧ ـ النفحات الشاذليّة شرح البردة البوصيريّة ـ كتابنا هذا.

وانظر: معجم المؤلفين لكحالة (١/ ٥٦٣)، وهدية العارفين للبغدادي (١/ ٣٠٢)، وإيضاح المكنون (١/ ٦٣، ٢٢٢، ٢٣٩، ٣٨٧، ٢/ ٤٥٥، ٤٨٤، ٦٦٧).

النفحات الشاذلية

في

شرح البردة البوصيرية

تأليف

الإمام الشيخ حسن العدوي الحمزاوي

المتوفى ١٣٠٣هـ

خرج أحاديثه وعلق عليه

أحمد فريد المزيدي

الجزء الأول

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه أستعين ولا حول ولا قوَّة إلاَّ بالله العلي العظيم

الحمد لله الذي أبرز من نور جمالهِ نوراً اقْتُبِسَت منه حقائقُ الكائنات، وكسَا أهل صفوته من حُلل جمال ذلك النور ما سبق لهم من بدائع المعارف والهبات، والصلاة والسلام على إنسان عين الرحمة المهداة لسائر المخلوقات، المشرف بخطابه تعالى له بقوله: «لولاك لولاك لما خلقت الأفلاك ولا أرضاً ولا سموات»، وعلى آله وأصحابه الذين أحرزوا قصبات السبق بمشاهدة جماله، وشربوا من كؤوس محبّته ففازوا بأعلى الدرجات، وعلى أنصاره الذين بذلت أطفالهم مهجَهُمْ في محبّته وإظهار دينه القويم لنيل السعادات، فانتدبوا بالسيوف أبا جهل وهو في صف الكفر حتى نظموه في سلك الأموات ففازوا بأقصى الغايات.

وبعد، فيقول أسير الشهوات، وكثير الهفوات، حسن العدوي المالكي الحمزاوي: لمَّا كان من أعظم المنن الربَّانيَّة والمواهب الرحمانيَّة التوفيق لخدمة سنّة خير البرية، عليه أفضل الصلاة وأزكى التحيّة، وكنت مولعاً من ابتداء مجاورتي سنة ست وثلاثين بعد الألف والمائتين، بزيارة أهل بيت الصفوة النبويَّة بمصر المحميّة، وكنت أتطفل على موائد الكرام بجلوسي في بعض الأوقات مع إخواني الذين يقرؤون دلائل الخيرات وبعض الأحزاب الشاذليَّة ومتن البردة البهيّة في هاتيك الأماكن السّنية، وبعد ذلك بنحو خمس سنوات حصل التفضل الرحمانيّ بالإذن لنا بقراءة الأحزاب الشاذليَّة من حضرة شيخنا وشيخ مشايخنا وحيد الدهر العارف بالله تعالى، الشيخ محمد البهيّ وكذلك حضرة الأستاذ الأوحد سيدي محمد الجوهري خليفة الشاذليّة بمصر النديّة.

فاتفق لي في هذا العام في أواخر سنة خمس وتسعين، أني كنت بثغر الإسكندرية في مقام سيِّد المحبِّين للحضرة النبويّة، الإمام البوصيري، فطلب مني بعض الأفاضل الصالحين أن أخدم البردة بشرح يكون لجملة من الأحاديث النبويّة جامعاً، ولنقاب مخدراتها كاشفاً ورافعاً، لا سيما أحاديث الخصائص والمعجزات، فإن أغلب الشرّاح لم يكونوا على هذه الصفات، وتكرر الطلب مني أيضاً وأنا متشرّف بالجلوس ليلاً في

رحاب القطب الربّاني والعارف الصمداني سيّدي أبي العباس المرسي شيخ البُوصيري متضرّعاً إلى الله تعالى بلسان الذلّ والانكسار، متوسّلاً إليه سبحانه وتعالى بحضرة هذا الأستاذ وبشيخه قطب الأقطاب الإمام الشاذلي، فبادرني بالطلب السابق بعض أفاضل الإخوان من أعز خواص شيخنا، الشيخ البهيّ، فانشرح صدري لذلك وأجبته معتمداً على السيد المالك وقلت: لعل ذلك أن يكون إذناً من صاحب المقام ويمنّ ربّي بالإتمام وأنتسب في سلك نسبتنا للعصابة الشاذليّة.

وأعانني على تلك النيّة ما كنت رأيته بعيد تشرُّفي بالإذن السابق أني جالس على شاطىء بحر كالمحيط وبيدي نسبة مربوطة بحبل وثيق متصل برأس سلسبيل في وسط ذلك البحر المحيط منسوب ذلك السلسبيل للقطب الشاذلي، فأراد شخص على شاطىء البحر أن يأخذ تلك النسبة مني، فانزعجت انزعاجاً شديداً وقبضت بكلتا يديّ عليها واضعاً لها على صدري. فلما رأى شغفي بها حنّ قلبه عليَّ وقال لي: طَيِّبْ تركتها لك. فبعد أن أمنت على نفسي منه فتحتها لأنظر ما فيها، فإذا أول سطر فيها:

إذا ما بَدَتْ لَيْلَى فكلِّي أعْيُن وإن هي ناجَتْني فكُلّي مسَامِعُ

فاستيقظت وهجاً مَسْروراً بما وَقر في قلبي من فرحي بتلك النسبة، ومن حينها للآن يحنّ قلبي إذا سمعت ذلك من منشد من حلاوة ما سبق، فشرعت الآن في ذلك معتمداً على السيد المالك وإن كنت لست أهلاً لما هنالك مبتدأ قبل الشروع في المقصود بذكر أربعمائة حديث من جوامع كلمه ﷺ وخصائصه وأوامره ونواهيه، ترغيباً وترهيباً للإخوان، وبيان أن الخير كلّه في الاقتداء والعمل بسنّة سيّد الأنام، ولعلي بذلك أن أدرج في ضمن دعائه الفخيم بقوله عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم: «اللهُمَّ ارحم خلفائي، قيل: ومن خلفاؤك يا رسول الله؟ قال: الذين يروون أحاديثي ويعلمونها الناس»[١] رواه الترمذي.

وفي رواية أيضاً عنه عليه الصلاة والسلام: «رحم الله امْرَأً سمع مقالتي فأداها كما سمعها».

وفي رواية: «نضر الله امْرَأً سمع مقالتي فوعَاها فأداها كما سمعها»[٢].

قال الإمام ابن حجر الهيتمي في «شرح الأربعين» وهو حديث حسن صحيح، قال:

---

(١) رواه الطبراني في الأوسط (٦/ ٧٧)، عن ابن عباس، وفيه رجل كذاب كما في المجمع (١/ ١٢٦).

(٢) رواه أبو نعيم في المسند المستخرج على مسلم (١/ ٤١)، والحاكم في المستدرك (١/ ١١٢، ١١٤)، والترمذي (٥/ ٣٤)، والدارمي (١/ ٨٦)، وابن ماجه (١/ ٨٤، ٨٥، ٨٦)، والشافعي في مسنده (١/ ٢٤٠)، وأحمد في المسند (٣/ ٢٢٥) (٤/ ٨٠، ٨٢) عن أنس، عن جبير بن مطعم مرفوعاً.

وفي رواية صحيحة أيضاً: «نضّر الله امْرأً سمع منّا حديثاً فأداه كما سمعه فربَّ مُبَلّغ أوعى من سَامع ومبلغ»[١] بفتح اللام المشددة، ونضر بالتخفيف والتشديد، قال: وهو الكثير من النضارة، وهي حسن الوجه وبريقه اهـ.

وفي البخاري أيضاً عنه عليه الصلاة والسلام: «بلغوا عنّي ولو آية فرُبّ مبلَّغ أوعى من سامع»، راجياً أن يكون ذلك مني تشبّهاً بخدمة أهل السّنة الأعلام، فلعلَ وعسى ببرَكتهم والاقتداء بهم يكرَّم الطفيلي مثلي في ساحة الكرام.

فقد روى الحافظ العسقلاني شارح البخاري في كتابه بلوغ المرام عنه عليه الصلاة والسلام: «من تشّبه بقوم فهو منهم»، قال: رواه أبو داود وصححه ابن حبان[٢].

وفي البخاري أيضاً عنه عليه الصلاة والسلام: «يحشر المرء مع من أحب»[٣].

وفي رواية أخرى: «من أحبَّ قوماً حشر معهم»[٤].

ولغير البخاري: «من أحب قوماً حشر معهم وإن لم يعمل بعملهم»[٥].

وفي صحيح الإمام مسلم عنه عليه الصلاة والسلام: «من دلّ على خير فله مثل أجر فاعله»[٦].

وحديث مسلم أيضاً وأصحاب السنن الأربع عنه ﷺ: «من دعا إلى هدًى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً»[٧].

قال الإمام القسطلاني في المواهب اللدنيّة: ولما كان عمل الأمة المحمديّة من فيض ساحة الحضرَة النبويّة كان له مثل أجورهم خلفاً وسلَفاً متضاعفاً، قال: ولذا قال سلطان العارفين سيد علي وفا رضي الله عنه:

ولا حسْن إلاّ من محاسن حسنه ... ولا محسن إلا له حَسَناته

---

(١) رواه البخاري (١/ ٣٧)، (٢/ ٦٢٠) عن أبي بكرة مرفوعاً.

(٢) رواه أبو داود (٤/ ٤٤)، وأحمد بن حنبل في الورع ص ١٧٨. وانظر: الفتح (٦/ ٩٨)، وتغليق التعليق (٣/ ٤٤٦).

(٣) رواه البخاري (٥/ ٢٢٨٣)، ومسلم (٤/ ٢٠٣٢)، عن عبد الله بن مسعود مرفوعاً.

(٤) و(٥) رواه الحاكم في المستدرك (٣/ ١٩)، وصححه ووافقه الذهبي، والبيهقي في الكبرى (٩/ ٢٣٤)، وفي الشعب (٧/ ٤٣) وهو صحيح.

(٦) رواه مسلم (٣/ ١٥٠٦)، وأبو داود (٤/ ٣٣٣)، والترمذي (٥/ ٤١)، وأحمد في المسند (٤/ ١٢٠)، (٥/ ٢٧٢، ٢٧٣)، والطيالسي (١/ ٨٥)، والبخاري في الأدب المفرد (١/ ٩٤)، (٢٤٢) عن أبي مسعود البدري وغيره مرفوعاً.

(٧) رواه مسلم (٤/ ٢٠٦٠)، (٢٦٧٤) عن أبي هريرة مرفوعاً.

ومن هذا المعنى قالت السيدة عائشة الصديقيّة تغزُّلاً في بديع جمال الحضرة المحمديّة، مشيرة لمن ثملت ـ أي سكرت ـ عقولهن فقطعن أيديهنّ عند مشاهدة الطلعة اليوسفيّة كما في شرح المواهب اللدنيّة:

ولو علموا في مصر أوصاف خدّه لما بذلوا في سوم يوسف من نقد

لوَامَى زليخا لو رأين جبينه لآثرْن بالقطع القلوب على الأيدي

اهـ. ومن فرط المحبة انعطف القلم لذكر محاسن المحبوب، كيف لا وهو صفوة علاّم الغيوب الآخذ باليد في وقت الشدائد والخطوب. وأذكر الأحاديث المحكى عنها محذوفة الأسانيد غير راوي الحديث اعتماداً على ذكر محل مأخذها من الكتب الصحيحة المعتبرة المعول عليها بين أئمة السنّة والحفّاظ مصرّحاً باسم الكتاب بعينه عند ذكري للحديث كصحيح البخاري، وصحيح مسلم، وصحيح الترمذي، وأبي داود، والنسائي، وابن ماجه، والشفاء للقاضي عياض، والمواهب اللدنيّة للإمام القسطلاني، وبلوغ المرام للحافظ العسقلاني، والقول البديع في فضل الصلاة على الحبيب الشفيع للحافظ السخاوي، والمقاصد الحسنة له أيضاً، ومنهاج[١] الصالحين للإمام النووي، والترغيب والترهيب للحافظ المنذري، ومختصره للقطب الشعراني مع كشف الغمة والبدر المنير له أيضاً، والإحياء للإمام الغزالي، والجامع والخصائص كلاهما للحافظ السيوطي، والمصابيح.

وسميته «النفحات الشاذليّة في شرح البردة البوصيريّة» أسأل الله الكريم متوسّلاً إليه بوجاهة وجه نبيّه العظيم أن ينفع به كلّ قاصر وعليم، وأن يكون شافعاً نافعاً لنا عند سيد المحبين صلّى الله عليه وعلى آله وأصحابه وأزواجه وذريّته وأهل بيته كلما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون.

ولنبدأ قبل الشروع في المقصود بمقدمة تتعلق بسيرة صاحب الحوض المورود من ابتداء نور طلعته إلى انتهاء هجرته ﷺ وما بين ذلك من تشريف الله تعالى له عليه السلام بسبق نبوّته في سابق أزليته، ونشره منشور رسالته في مجلس مؤانسته وطهارة نسبه وبراهين أعلام آيات حمله وولادته ورضاعه وحضانته وشقّ صدره الشريف إذ ذاك ﷺ وغير ذلك من المواهب الرحمانية والآداب الربانيّة والأخلاق الكماليّة التي لا تحصى، أمدنا الله من فيض تلك المواهب مع ذكري لجملة من الأحاديث النبويّة والخصائص المحمديّة والأخلاق المرضية حكم الطلب السابق، وذكر أزواجه وأولاده وذريّته وأهل بيته، أمدنا الله من تلك المواهب بجاههم عنده. وخاتمة تتعلق بقطب الواصلين الإمام

---

(١) هو رياض الصالحين بشهرته الواسعة.

الشاذلي ونسبه وطريقته وخلفائه لا سيما وليّ نعمتي الإمام الصّديقي السلطان الحنفي صاحب الهمم العالية والتصرفات النافذة، كما سمعت مضمون ذلك من شيخي ومربي روحي شيخ الدنيا على الإطلاق في وقته الشيخ القويسني رضي الله عنه. وأختم بالمؤلف البوصيري نفعنا الله وأمدنا بمدده فأقول وبالله التوفيق.

أما ما يتعلق بابتداء النور المحمديّ فقد قال الإمام القسطلاني في المواهب اللدنيّة: اعلم يا دائم التسليم والمتصف بأوصاف الكمال والتتميم، وفّقني الله وإياك بالاهتداء إلى الصراط المستقيم، أنه لما تعلّقت إرادة الحق تعالى بإيجاد خلقه، وتقدير رزقه، أبرز الحقيقة المحمدية من الأنوار الصّمدية في الحضرة الأزلية، ثم سلخ منها العوالم كلها، علوها وسفلها على صورة حكمه كما سبق في سابق إرادته وعلمه، ثم أعلمه تعالى بنبوّته وبشّره برسالته، هذا وآدم لم يكن إلاّ كما قال: «بين الروح والجسد» ثم انبجست منه ﷺ عيون الأرواح، قال الشارح الإمام الزرقاني: أي تفجّرت منه ﷺ عيون الأرواح ـ أي خالصها كأرواح الأنبياء ـ والمراد بالعيون: الكمالات المفرغة من نوره على أرواح الأنبياء عبر عنها بالعيون مجازاً لمشابهتها لعيون الإنسان للكمال اهـ. فظهر بالملأ الأعلى وهو بالمنظر الأجلى، فكان لهم المورد الأحلى، قال: فهو ﷺ الجنس العالي على جميع الأجناس والأب الأكبر لجميع الموجودات والناس.

قال الإمام الشعراني: من حيث إن الجميع خلقوا من نوره ﷺ اهـ.

قال: ولما انتهى الزمان بالاسم الباطن في حقه ﷺ إلى وجود جسمه وارتباط الروح به، انتقل حكم الزمان إلى الاسم الظاهر، قال الشارح: الاسم الباطن هو عالم الملكوت المشار إليه بقوله: «أبرز الحقيقة» الخ، والاسم الظاهر يعني عالم الملك وهو الموجود في العناصر اهـ. قال: فظهر محمد ﷺ بكليته جسماً وروحاً فهو ﷺ وإن تأخرت طينته فقد عرفت قيمته وهو خزانة السّر وموضع نفوذ الأمر فلا ينفذ أمر إلا منه.

قال الشعراني: الموضع الذي تظهر منه الكمالات التي تفاض على خاصة خلقه اهـ. قال: ولا ينقل خير إلاّ عنه. قال: ولله در القائل:

ألا بأبي من كان مَلكاً وسيّداً ... وآدم بين الماء والطين واقف

فذاك الرسول الأبطحي محمّد ... له في العلا مجد تليد وطارف

أتى بزمان السعد في آخر المدى ... وكان له في كل عصر مواقف

أتى لانكسار الدهر يجبر صدعه ... فأثنت عليه ألسن وعوارف

إذا رام أمراً لا يكون خلافه ... وليس لذاك الأمر في الكون صارف

اهـ. ويشهد لهذا قوله ﷺ: «أوتيت مفاتيح خزائن الأرض ووُضِعَتْ في يدي»[١] فلا يصل لمخلوق نعمة إلاّ بواسطته ﷺ. ولذا أنشأ بعض العارفين:

وأنْتَ بابُ اللّه أيُّ امْرِىءٍ أتاهُ مِنْ غيرِكَ لا يَدْخُلِ

وفي صحيح مسلم من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله عزَّ وجلَّ كتب مقادير الخلق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء»[٢]. وكان من جملة ما كتب في الذكر ـ وهو أمّ الكتاب ـ: «أن محمداً خاتم النبيين».

وروى الإمام أحمد والإمام البخاري في تاريخه عن ميسَرة الضبِّي، قلت: يا رسول الله متى كنت نبيّاً؟ قال: «وآدم بين الروح والجسد».

وفي رواية للإمام الترمذي عن أبي هريرة: أنهم قالوا: يا رسول الله متى وجبت لك النبوّة؟ قال: «وآدم بين الروح والجسد»[٣] أي لا روح ولا جسد.

قال الشهاب الخفاجي في شرح الشفاء: والظاهر أن المراد بالبينية في هذا الحديث عدم الطرفين الروح والجسد كما يقال: لون بين الحمرة والبياض ومزاج بين الصحة والمرض.

وقال شيخ الإسلام الشبراملسي: لعل المراد أن آدم على حال كائن بين الروح والجسد وتلك الحال هي الهيئة التي هو عليها حال كونه طيناً فإنها حال بين خلق روحه وكونه جسداً اهـ.

وفي المواهب عن نبهان بن صالح الهمداني قال: سألت أبا جعفر محمد بن علي: كيف صار محمد ﷺ يتقدم الأنبياء وهو آخر من بُعث؟ قال: إن الله تعالى لما أخذ الميثاق من بني آدم من ظهورهم ذرياتهم. قال النبهان: أخرج بعضهم من صلب بعض من صلب آدم نسلاً بعد نسل كنحو ما يتوالدون كالذر بنعمان ـ بفتح النون ـ يوم عرفة، ونصب لهم دلائل على ربوبيّته وركب فيهم عقلاً. قال: والأخبار والآثار شاهدة بهذا، فتعسف من جعل الآية للتمثيل اهـ.

---

(١) رواه أحمد في المسند (٣/ ٤٨٩)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (١/ ٣٤٣)، والطبراني في الكبير (١٢/ ٣٦٠)، وابن إسحاق في السيرة النبوية (٦/ ٥٥) بنحوه.

(٢) رواه ابن وهب في القدر (١٧) (ص ١٠١)، والحاكم في المستدرك (١/ ٤٥)، نحوه، وحديث الكتاب رواه مسلم (٢٦٥٣)، (٤/ ٢٠٤).

(٣) رواه الترمذي (٥/ ٥٨٥)، والحاكم (٢/ ٦٦٥)، والضياء المقدسي في المختارة (٩/ ١٤٢، ١٤٣)، وأحمد في المسند (٤/ ٦٦)، (٥/ ٥٩، ٣٧٩)، والخلال في السنة (١/ ١٨٨)، وابن أبي عاصم (١/ ١٧٩)، وعبد الله بن أحمد (٢/ ٣٩٨) وهو صحيح.

قال قطب الواصلين الإمام الشعراني: فإن قلت: هل الإجابة ببلى حصلت من جميع بني آدم المخاطبين أو من البعض، فإذا كانت من الكل فلماذا حصل من بعضهم الكفر والنفاق في عالم الأشباح، قال: قلت الإجابة ببلى من الجميع غير أن من سبقت له السعادة الأزليّة تجلّى عليه الحق جلّ شأنه عند الخطاب بصفة الجمال فأجاب باطناً وظاهراً، ومن سبقت عليه الشقاوة تجلّى له بصفة العظمة والجلال فأجاب ظاهراً لا باطناً اهـ.

نسأل الله العفو والعافية والمعافاة الدائمة في الدين والدنيا والآخرة، ولذا قال الإمام اللقاني:

فوز السعيد عنده في الأزل كذا الشقيّ ثم لم ينتقل

وإنما توفيق الله العبد للطاعة مع الإخلاص هو دليل وبرهان على ما سبق له من السعادة الأزليّة وبضدها تتميز الأشياء. ولذا قال عليه الصلاة والسلام: «اعمَلوا فكلٌّ مُيَسَّرٌ لما خُلِقَ له» وأشهدهم على أنفسهم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: الآية ١٧٢]؟ كان محمد ﷺ أوّل من قال: بلى، ولذلك صار يتقدّم على الأنبياء.

قال: وعن الشعبي: قال رجل: يا رسول الله متى استُنْبِئْتَ؟ قال: «وآدم بين الروح والجسد حين أخذ مني الميثاق»، قال: رواه ابن سعد من رواية جابر الجعفي[1].

قال الإمام الغزالي في معنى هذا وعن معنى قوله عليه السلام: «كنت أوّل الأنبياء خلقاً وآخرهم بعثاً»: إن المراد بالخلق هنا التقدير دون الإيجاد فإنه قبل أن ولدته أمه لم يكن موجوداً مخلوقاً ولكن الغايات والكمالات سابقة في التقدير لاحقة في الوجود. قال: وهو معنى قولهم: أول الفكر آخر العمل اهـ.

وتعقب هذا الجواب إمام المحققين، بقيّة المجتهدين، الإمام السبكي بأنه قد جاء أن الله خلق الأرواح قبل الأجساد، فقد تكون الإشارة بقوله ﷺ: «كنت نبيّاً» إلى روحه الشريفة أو إلى حقيقة من الحقائق فيكون لنبوّته محل قامت به، فحقيقة النبي ﷺ تقصر عقولنا عن معرفتها وإنما يعلمها خالقها ومن أمدّه الله بنور إلٰهي، فحقيقة النبي ﷺ قد تكون من حين خلق آدم آتاها الله ذلك الوصف بأن يكون خلقها الله متهيئة لذلك، أي لقبول النبوّة وإفاضة ذلك الوصف عليها من ذلك الوقت، فصار نبيّاً وكتب اسمه على العرش وأخبر عنه بالرسالة ليُعلم ملائكته وغيرهم كرامته عنده، فحقيقته موجودة من ذلك الوقت وإن تأخر جسده الشريف المتصف بها، واتصاف حقيقته بالأوصاف الشريفة

(١) انظر: طبقات ابن سعد الكبرى (١/١٤٨)، وكشف الخفاء (٢/١٧٠)، فقد ذكر العجلوني فوائداً عن السبكي وغيره.

المفاضة عليه من الحضرة الإلهيّة حاصل من ذلك الوقت. قال: وكذلك استنباؤه وإيتاؤه الكتاب والحكم والنبوّة، وإنما المتأخر تكوُّنُهُ وتنقلُه إلى أن ظهر ﷺ ومن فسّره بعلم الله بأنه سيصير نبيّاً لم يصل إلى هذا المعنى لأن علم الله تعالى محيط بجميع الأشياء قبل وجودها.

قال: ووصف النبي ﷺ بالنبوة في ذلك الوقت ينبغي أن يفهم منه أنه أمر ثابت له في ذلك الوقت، ولو كان المراد بذلك مجرد العلم بما سيصير في المستقبل لم يكن له خصوصية بأنه نبي وآدم بين الروح والجسد لأن جميع الأنبياء يعلم الله تعالى نبوّتهم في ذلك الوقت ولا بد من خصوصية للنبي ﷺ، لأجلها أخبر بهذا الخبر لأمته ليعرفوا قدره عند الله تعالى اهـ كلام الإمام السبكي.

قال الإمام الزرقاني: وفيه أن الإمام الغزالي إنما عبّر بالتقدير وهو مرتبة فوق العلم فيجوز أنه أمر اختصّ به ﷺ قبل خلق آدم دون بقيّة الأنبياء فلا يتم الرد بذلك عليه اهـ.

فإن قلت: إن استخراج ذريّة آدم منه كان بعد نفخ الروح فيه كما دلّ عليه أكثر الأحاديث والذي تقرّر هنا أنه استخرج ونبّىء وأخذ منه الميثاق قبل نفخ الروح في آدم عليه السلام، قال الإمام القسطلاني: وأجاب بعضهم عن هذا بأنه عليه الصلاة والسلام خصّ باستخراجه من ظهر آدم قبل نفخ الروح فيه فإن محمداً ﷺ هو المقصود من خلق النوع الإنساني وهو عينه وخلاصته وواسطة عقده، والأحاديث السابقة صريحة في ذلك.

قال: وروي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: لم يبعث الله تعالى نبيّاً من آدم فمن بعده إلاّ أخذ عليه العهد في محمد ﷺ: لئن بعث وهو حي ليؤمننّ به ولينصُرَنَّهُ ويأخذ العهد بذلك على قومه. وهو مروي عن ابن عباس أيضاً.

قال: ذكرهما العماد ابن كثير في تفسيره، قال: وقيل: إن الله تعالى لما خلق نور محمد ﷺ أمره أن ينظر إلى أنوار الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فغشيهم من نوره ما أنطقهم الله به، وقالوا: يا ربنا من غشيَنا نوره؟ فقال الله تعالى: «هذا نور محمد بن عبد الله إن آمنتم به جعلتكم أنبياء» قالوا: آمنا به وبنبوّته، فقال الله تعالى: «أشهدُ عليكم» قالوا: نعم، فذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾ [آل عِمرَان: الآية ٨١] إلى قوله: ﴿وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عِمرَان: الآية ٨١].

قال المحقق السبكي: في هذه الآية الشريفة من التنويه بالنبي ﷺ وتعظيم قدره العلي ما لا يخفى، وفيه مع ذلك أنه على تقدير مجيئه في زمانهم يكون مرسلاً إليهم فتكون نبوّته ورسالته عامة كلهم من أمته.

قال الشعراني: مع بقاء الأنبياء على نبوّتهم، ويكون قوله ﷺ في أثناء حديث رواه الشيخان: «وبعثت إلى الناس كافة» لا يختص به الناس الكائنون من زمنه إلى يوم القيامة بل يتناول الجن إجماعاً والملائكة في أحد القولين اهـ.

ووافق الإمام السبكي على عموم الإرسال من آدم إلى يوم القيامة، الإمام الجليل البارزي وخاتمة الحفاظ السيوطي.

قال الإمام الزرقاني نقلاً عن شيخه، شيخ الإسلام الشبراملسي: إن ما قاله السبكي وبعض المحققين القائلين بعموم الإرسال لا ينافي كلام الجمهور إلا إذا أُريد التبليغ بالفعل، أما إذا أُريد بالبعث اتصافه ﷺ بكونهم مأمورين في الأزل بتبعيته إذا وجد كما هو صريح كلامه، فلا يخالفه واحد فضلاً عن الجمهور اهـ.

ثم قال الإمام السبكي في رسالته التي سماها «التعظيم والمنة في لتؤمنن به ولتنصرنه» فإذا عرف هذا فالنبي ﷺ نبيّ الأنبياء، أي مرسل إلى الجميع مع بقائهم على نبوّتهم، قال: ولهذا ظهر في الآخرة أن جميع الأنبياء تحت لوائه. قال الشهابي في حديث أنس عند أحمد: «وبيدي لواء الحمد آدم فمن دونه تحت لوائي» اهـ.

وفي الدنيا كذلك، ليلة الإسراء صلّى بهم إماماً. ولو اتفق مجيئه في زمن آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى صلوات الله عليهم أجمعين، وجب عليهم وعلى أممهم الإيمان به ونصرته وبذلك أخذ الله عليهم الميثاق.

ومن جملة كلامه في الرسالة المذكورة: أن الأنبياء نواب له بشرائعهم لأولئك القوم اهـ ما في الرسالة.

وتعسف صاحب نسيم الرياض في قوله: إن هذا يخالف صريح بعض الآيات كقوله: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [النساء: الآية ١٦٣] وقوله تعالى: ﴿أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النحل: الآية ١٢٣] وأن الأنبياء غير مكلفين بأحكام شرعية وإلاّ لم يكونوا أصحاب شرع اهـ.

قال الإمام الزرقاني: وتعسفه لا يخفى، فإن قوله ذلك من جملة مدخول لو في قوله: لو اتفق مجيئه الخ، كما هو صريح كلامه في رسالته، فسقط جميع ما قاله هذا المتعسف. ومن أقوى تعسفه قوله: غير مكلفين بأحكام شرعه، فإن لم يدّع تكليفهم به، بل إن شرائعهم على تقدير وجوده في أزمانهم، شرع له فيهم قال: ﴿فَٱعْتَبِرُوا۟ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ﴾ [الحشر: الآية ٢] اهـ.

قلت: وما ألطف هذا التحقيق والانتصار من الشر لهذا المحقق الإمام، فجزاهما الله على هذا التحقيق أحسن الجزاء وأمدنا بمددهما بالهداية لأقوم طريق. ويشهد لهذا صريح قوله ﷺ: «لو جئت في زمن موسى ما وسعه إلاّ اتباعي، ولو أدركني عيسى ما

وسعه إلا اتباعي»(١) كيف وقد أجمع علماء السنة والحفّاظ أن عيسى عليه السلام حين ينزل في آخر الزمان يكون متّبعاً لشريعة النبي ﷺ دون شرع جديد، فكيف لم يتأمل هذا المتعسف في هذا وفي صريح الأحاديث الناطقة بذلك، وعلى تسليم مخالفة الجمهور للسبكي فمرادهم البعث بلا واسطة ومراد الإمام السبكي ومن بعده القائلين بعموم البعث لرسالته ﷺ ولو بواسطة الرّسل وبذلك يظهر أن الخُلف لفظي لما سبق في حديث أخذ الميثاق من أمر الرسل بأن يأخذوا على أممهم العهد والميثاق بالإيمان به ونصرته ﷺ على فرض مجيئه في زمانهم.

فحاصل ما نقله أهل التحقيق عن الإمام السبكي: أن الله لما أوجد النور المحمدي وأفاض عليه من أنواع الكمال الذي لا يساوى، وألهمَه من المعارف ما لا تحيط به العقول، أعلمه بالنبوّة وعموم الرسالة ثم أخذ العهد والميثاق على أرواح الأنبياء والرسل بالإيمان به ﷺ.

ثم بعد كتبي هذا تسويداً وجدته منصوصاً للإمام الجليل سيدي عبد الرحمٰن العيدروس في شرحه لصيغة قطب الأقطاب السيد البدوي نقلاً عن الإمام الغوث ابن العربي في الأنوار القدسيّة، فللّه الحمد، ونصه: واعلم أن محمداً ﷺ هو الذي أعطى جميع الأنبياء والرسل مقاماتهم في عالم الأرواح حتى بعث بجسمه ﷺ فأولياء الأنبياء الذين سبقوا يأخذون عن أنبيائهم وهم يأخذون عن محمد ﷺ اهـ.

وفي الفتوحات زيادة على هذا بأتم توضيح ونصه مُستمد جميع الأنبياء والمرسلين من روح محمد ﷺ إذ هو قطب الأقطاب فهو مُمِدّ لجميع الناس أوّلاً وآخراً، فهو مُمِدّ كلّ نبيّ وولي سابق على ظهوره حال كونه في الغيب ومُمِدّ أيضاً لكل وليّ لاحق فيوصله بذلك إلى مرتبة كماله في حال كونه موجوداً في عالم الشهادة وفي حال كونه منتقلاً إلى الغيب الذي هو البرزخ والدار الآخرة، فإن أنوار رسالته ﷺ غير منقطعَة عن العالم من المتقدمين والمتأخرين، فكل نبي تقدم على زمان ظهوره فهو نائب عنه في بعثته لتلك الشريعة اهـ.

فاغتنم هذا التحقيق أيها المحبّ لهذا النبيّ الكريم وصفوة ربّ العالمين فالله سبحانه وتعالى يحشرنا في زمرته وتحت لوائه ويسقينا من كأس محبّته بجاهه عنده.

وفي المواهب اللدنيّة يروى أنه لما خلق الله تعالى آدم ألهمه أن قال: «يا رب لِمَ كنيتني أبا محمد، قال الله تعالى: يا آدم ارفع رأسك، فرفع رأسه فرأى نور محمد ﷺ في سرادق العرش، فقال: يا رب ما هذا النور، قال: هذا نور نبي من ذرّيتك اسمه في

(١) رواه البيهقي في الشعب (١/ ٢٠٠)، وانظر: فيض القدير للمناوي (٥/ ٥٨).

السماء أحمد وفي الأرض محمد لولاه ما خلقتك ولا خلقت سماء ولا أرضاً»[١].

قال الشيخ: وتسميته في السّماء أحمد لشهرته بهذا الاسم بين الملائكة في السماء فلا ينافي كتابة محمد على قوائم العرش واطلاعُ الملائكة عليها صريح في تسميته في السماء بمحمد أيضاً اهـ.

وفي صحيح الحاكم: أن آدم عليه الصلاة والسلام رأى اسم محمد مكتوباً على العرش وأن الله تعالى قال لآدم: «لولا محمد ما خلقتك».

قال الشيخ الزرقاني: وروى أبو الشيخ والحاكم عن ابن عباس: أوحى الله إلى عيسى: «آمن بمحمد ومُرْ أمّتك أن يؤمنوا به، فلولا محمد ما خلقت آدم ولا الجنة ولا النار، ولقد خلقت العرش على الماء فاضطرب فكتبت عليه لا إلٰه إلاّ الله محمد رسول الله فسَكن»[٢].

قال: صححه الحاكم وأقره السبكي في شفاء السقام والإمام البُلقيني في فتاويه اهـ، وهذا الحديث صريح في تأييد ما ذكرناه آنفاً ومؤيد للقول الراجح: إن الماء خلق قبل العرش. ولله درّ من قال:

وكان لدى الفردوس في زمن الصبا ... وأثواب شمل الأُنس محكمة السدا
يشاهد في عدن ضياء مشعشعاً ... يزيد على الأنوار في الضوء والهدى
فقال إلٰهي ما الضياء الذي أرى ... جنود السما تعشو إليه تردُّدا
فقال نبي خير من وطىء الثرى ... وأفضل من في الخير راح أو اغتدى
تخيّرته من قبل خلقك سيداً ... وألبسته قبل النبيّين سؤددا

قال الإمام الشيخ وبقي من القصيدة أبيات، وهي:

وأعددته يوم القيامة شافعاً ... مطاعاً إذا ما الغير حادَ وحَيَّدَا
فيشفع في إنقاذ كلّ موحّد ... ويدخله جنّات عدن مخلّدا
وأن له أسماء سميّته بها ... ولكنني أحببت منها محمّدا
فقال إلٰهي امننّ عليّ بتوبة ... تكون على غسل الخطيئة مسعدا
بحرمة هذا الاسم والزلفة التي ... خصَصْتَ بها دون الخليقة أحمدا
أقلني عثاري يا إلٰهي فإن لي ... عدواً لعينا جار في القصد واعتدى

(١) انظر: كشف الخفاء (١/ ٣١٢).
(٢) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٦٧)، والخلال في السنة (١/ ٢٦١).

فتاب عليه ربّه وحماه من جناية ما أخطأه لا متعمّدا

قال: ذكرها بتمامها صاحب مصباح الظلام. قال الإمام القسطلاني: إن قلت إن مذهب الأشاعرة أن أفعال الله تعالى ليست معلّلة بالأغراض فكيف تكون خلقة محمد ﷺ علّة في خلقة آدم وغيره ﷺ قال: وأجيب بأن العلّة من الأدلة تعليل بعض الأفعال بالحكم والمصالح التي هي غايات ومنافع لأفعاله تعالى لا بواعث على إقدامه ولا علل مقتضية لفاعليته لأن ذلك محال في حقه تعالى لما فيه من استكماله بغيره، والنصوص شاهدة بذلك، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات: الآية ٥٦] انتهى.

والحاصل: أن فعل الإله في عبيده لا يخلو عن حكمة وإلا كان عبثاً تنزّه الله عن ذلك.

وفي المواهب أيضاً من حديث سلمان عند ابن عساكر قال: هبط جبريل على النبي ﷺ فقال: إن ربك يقول: إن كنت اتخذت إبراهيم خليلاً فقد اتخذتك حبيبًا وما خلقت خلقاً أكرم عليّ منك، ولقد خلقت الجنة وأهلها لأعرفهم كرامتك ومنزلتك عندي، ولولاك ما خلقت الدنيا.

قال: وما أحسن قول سيدي علي وفا سلطان العارفين وقطب الواصلين تولهاً وتهنئة لنفسه ببلوغ الوصال بحضرة سيّد الأنام عليه الصلاة والسلام:

سكن الفؤاد فعش هنيئاً يا جسد هذا النعيم هو المقيم إلى الأبد
أصبحت في كنف الحبيب ومن يكن جار الحبيب فعيشه العيش الرغد
عش في أمان اللّه تحت لوائه لا خوف في هذا الجناب ولا نكد
لا تخش من فقر وعندك بيت من كلّ المنى لك من أياديه مدد
ربّ الجمال ومرسل الجدوث ومن هو في المحاسن كلها فرد أحد
قطب النهى غيث العوالم كلّها أعلى عَلِيٍّ فهو أحْمَدُ مَنْ حَمَدْ
روح الوجود حياة من هو واجد لولاه ما تَمَّ الوجود لمنْ وُجِد
عيسَى وآدم والصدور جميعهم هم أعين هو نورها لما وَرَدْ

إلى أن قال:

فابشر بمن سكن الجوانح منك يا أنا قد ملئتُ من المنى عيناً ويَد

قال شارحها سيدي محمد الزرقاني: وقول العارف: روح الوجود حياة من هو واجد، أي: هو ﷺ سبب لحياة من وجدهم من الخلق، أي علمهم من الخلق موجودين.

قال: وروى عبد الرزاق بسنده عن جابر بن عبد الله الأنصاري قال: «قلت: يا رسول الله بأبي أنت وأمي أخبرني عن أول شيء خلقه الله تعالى قبل الأشياء، قال: يا جابر إن الله تعالى خلق قبل الأشياء نور نبيّك من نوره، فجعَل ذلك النور يدور بالقدرة حيث شاء الله تعالى ولم يكن في ذلك الوقت لوح ولا قلم ولا جنة ولا نار ولا ملَك ولا سماء ولا أرض ولا شمس ولا قمر ولا جن ولا أنس، فلما أراد الله أن يخلق الخلق قسم ذلك النور أربعة أجزاء». قال الشارح: أي زاد فيه لا أنه قسم ذلك النور الذي هو نور المصطفى إذ الظن أنه حيث صوره بصورة مماثلة لصورته التي سيصير عليها لا يقيسه إليه وإلى غيره اهـ.

قلت: أي فالتقسيم من النور المفاض لا المفاض عليه الذي تكوَّنت منه الذات المحمدية، وقد لاح في فكري القاصر جواب آخر وهو أن هذا التقسيم ليس حقيقياً بل بمعنى اقتباس الكائنات من نوره ﷺ كشمعة اقتبس منها ألف شمعة مثلاً مع بقاء النور الأصلي الذي تكوَّنت منه الذات المحمديّة.

وبعد كتبي لهذا الجواب تسويداً رأيت الإمام العيدروس نص عليه واستحسنه عن الجواب الأول الذي اقتصر عليه الإمام الزرقاني في شرح المواهب، فللّه الحمد ومن في من نوره للابتداء لا للتبعيض وإضافة الضمير للتشريف أي من ذاته من غير واسطة مادة لا كبقية المخلوقات المحتاجة للمادة، فخلق من الجزء الأول القلم، ومن الثاني اللوح، ومن الثالث العرش، ثم قسم الجزء الرابع أربعة أجزاء فخلق من الجزء الأول حملة العرش، ومن الثاني الكرسي، ومن الثالث باقي الملائكة، ثم قسم الجزء الرابع أربعة أجزاء، فخلق من الأول السماوات، ومن الثاني الأرضين، ومن الثالث الجنة والنار، ثم قسم الرابع أربعة أجزاء فخلق من الأول نور أبصار المؤمنين، أي ولعل التقييد بهم لشرفهم وإلا فنور أبصار غيرهم كذلك لأن كل شيء مخلوق من نوره ﷺ كما قرره شيخنا، ومن الثاني نور قلوبهم وهي المعرفة بالله، ومن الثالث نور أنسهم وهو التوحيد لا إله إلاّ الله محمد رسول الله الحديث.

قال الشارح: ولم يذكر الرابع من هذا الجزء فليراجع من مصنف عبد الرزاق. قال: وقد رواه البيهقي ببعض مخالفة.

وفي رواية أخرى لعبد الرزاق أيضاً ذكرها شيخنا وشيخ مشايخنا العارف بالله تعالى وحيد الدهر الشيخ محمد البهي في شرحه للصيغة المنسوبة لقطب الأقطاب شيخ الإسلام سيدي إبراهيم الدسوقي رضي الله عنه ونفعنا بمدده، وهي: اللهم صلِّ على الذات المحمديّة، عند قوله: ونور فلك الجمال، وهو حجة في النقل، وقد لازمته مدة طويلة وانتفعت منه نفعاً كثيراً وكان يهرع إليه أكابر علماء الأزهر في وقت ذلك ومنهم شيخي

وولي نعمتي في الفقه الشيخ الأبطح وشيخه سيدي محمد الأمير الصغير وأضرابهم فللّه الحمد على ذلك.

ونصه عن جابر: أنه قال: سألت النبي ﷺ عن أول شيء خلقه الله تعالى فقال: «هو نور نبيك يا جابر، خلقه الله ثم خلق منه كل خير وحين خلقه الله أقامه في مقام القرب اثني عشر ألف سنة ثم جعله أربعة أقسام، فخلق العرش من قسم والكرسي من قسم وحملة العرش من قسم، وأقام القسم الرابع في مقام الحب اثني عشر ألف سنة ثم جعله أربعة أقسام فخلق القلم من قسم واللوح من قسم والجنة من قسم، وأقام القسم الرابع في مقام الخوف اثني عشر ألف سنة ثم جعله أربعة أقسام فخلق الملائكة من قسم والشمس من قسم والكواكب من قسم، وأقام القسم الرابع في مقام الرجاء اثني عشر ألف سنة ثم جعله أربعة أقسام فخلق العقل من قسم والعلم والحلم من قسم والعصمة والتوفيق من قسم، وأقام القسم الرابع في مقام الحياء اثني عشر ألف سنة ثم نظر إليه فترشح النور عرقاً فقطرت منه مائة ألف قطرة وعشرون ألفاً وأربعة آلاف قطرة فخلق الله من كل قطرة روح نبي ورسول ثم تنفست أرواح الأنبياء فخلق الله من أنفاسهم نور أرواح الأولياء والسعداء والشهداء والمطيعين من المؤمنين إلى يوم القيامة فالعرش والكرسي من نوري، والكروبيون والروحانيّون من نوري، والجنة وما فيها من النعيم من نوري، والشمس والكواكب من نوري، والعقل والعلم والتوفيق من نوري، وأرواح الأنبياء والرسل من نوري، والسعداء والصالحون نتائج نوري. ثم خلق الله آدم من الأرض وركب فيه النور وهو الجزء الرابع، ثم انتقل منه إلى شيث وكان ينتقل من طاهر إلى طيب إلى أن وصل صلب عبد الله بن عبد المطلب ومنه إلى وجه أمي آمنة ثم أخرجني إلى الدنيا فجعلني سيد المرسلين وخاتم النبيين وقائد الغر المحجَّلين. هكذا بدء خلق نبيك يا جابر»[1] اهـ.

قال في المواهب اللدنية نقلاً عن الإمام ابن مرزوق عن علي بن الحسين عن أبيه عن جدّه: أن النبي ﷺ قال: «كنت نوراً بين يدي ربي قبل خلق آدم بأربعة عشر ألف عام». قال: وفي الخبر: لما خلق الله تعالى آدم جعل ذلك النور في ظهره فكان يلمع في جبينه فيغلب على نوره، ثم رفعه الله على سرير مملكته وحمله على أكتاف ملائكته وأمرهم فطافوا في السماوات والأرض ليرى عجائب ملكوته اهـ.

ورواية الشفاء عن ابن عباس: أن قريشاً كانت نوراً بين يدي الله تعالى قبل أن يخلق آدم بألفي عامٍ يسبِّح ذلك النور وتسبيح الملائكة بتسبيحه فلما خلق الله آدم ألقى

(١) انظر: كشف الخفاء للعجلوني (١/ ٣١١).

ذلك النور في صلبه فقال رسول الله ﷺ: «فأهبطني الله إلى الأرض في صلب آدم وجعلني في نوح وقذف بي في صلب إبراهيم ثم لم يزل الله تعالى ينقلني من الأصلاب الكريمة والأرحام الطاهرة حتى أخرجني من بين أبوين لم يلتقيا على سفاح قط».

ويشهد بصحة هذا الخبر شعر العباس المشهور في مدح النبي ﷺ اهـ، وقد ذكره في المواهب، ونصّه:

وأنت لما ولدت أشرقت　　الأرض وضاءت بنورك الأفق

فنحن في ذلك الضياء وفي　　النور وسبل الرشاد نخترق

قال: واختلف في أول المخلوقات بعد النور المحمدي. فقال الحافظ أبو يعلى: الأصح أن العرش قبل القلم لما ثبت في الصحيح عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «قدر الله مقادير الخلق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء»، قال: فهذا صريح أن التقدير وقع بعد خلق العرش والتقدير وقع عند أول خلق القلم لحديث عبادة بن الصامت مرفوعاً: أول ما خلق الله القلم قال له: اكتب، قال: ربي وما أكتب، قال: اكتب مقادير كل شيء» رواه أحمد والترمذي وصححه.

وروي أيضاً من رواية أبي رزين العقيلي مرفوعاً: «أن الماء خلق قبل العرش»[1].

وروى السُّدِّي بأسانيد متعددة أن الله لم يخلق شيئاً مما خلق قبل الماء فجمع بينه وبين ما قبله بأن أولية القلم بالنسبة إلى ما عدا النور المحمدي والماء والعرش اهـ.

وقيل: الأولية في كل شيء بالإضافة إلى جنسه، أي أول ما خلق الله من الأنوار نوري وكذا باقيها. والذي عليه التحقيق: أن أول شيء خلق بعد النور المحمدي الماء ثم العرش ثم القلم، قال تعالى: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [هود: الآية ٧] ويستدل عليه بما روي عن ابن عباس: لما أراد الله أن يخلق الماء خلق من النور ياقوتة خضراء غلظها غلظ السماوات السبع والأرضين وما بينهما ثم خاطبها فذابت وصارت ماء من هيبة الله سبحانه وتعالى وصار الماء يرعد ويضطرب إلى يوم القيامة، فخلق الله الريح ووضع الماء عليه ثم خلق العرش فوضعه على الماء. وعلى ذلك النظم المشهور، وهو قول بعضهم:

نور النبيّ محمَّد مقدّم　　فالماء ثم العرش ثم القَلَمُ

قال في المواهب: قال جعفر بن محمد: مكثت الروح في رأس آدم مائة عام، وفي ساقيه وقدميه مائة عام، ثم علمه الله تعالى أسماء جميع المخلوقات، ثم أمر الله الملائكة

---

(١) تقدم تخريجه. وانظر: كشف الخفاء (١/ ٣١١).

بالسجود له فسجدوا إلاّ إبليس فطرده الله وأبعده وأخزاه وكان السجود لآدم سجود تعظيم وتحية لا سجود عبادة كسجود إخوة يوسف، فالمسجود له في الحقيقة هو الله تعالى، وآدم كالقبلة اهـ. وقوله: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ [البَقَرَة: الآية ٣١] علّمه ما كان وما يكون إلى يوم القيامة حتى القصعة والقُصَيْعَة والفَسْوَةَ والفُسَيَّة، وقد عرض الله على حقيقة سيدنا محمد ﷺ جميع ما أراد الله خلقه حتى آدم فمن بعده، ولا يخفى أن هذا أبلغ في صورة الاعتناء من تعليم آدم الأسماء، كما أشار لذلك صاحب الهمزيّة بقوله:

نك ذات العلوم من عالم الغـ ـيب ومنها لآدم الأسماء

وهل علم آدم لها بإلهام أو خلق علم ضروري، قولان. وقال القرطبي: كان ذلك على لسان ملك وهو جبريل. واختلف في استثناء إبليس من الملائكة هل هو متصل وأصله من الملائكة، وهو قول الإمام النووي، أو من الجن وهو قول الأكثر. ورجحه السيوطي قال: وهو الذي دلت عليه الآثار وإنما استثني من الملائكة لأنه نشأ بين أظهرهم فغلّبوا عليه. وقيل: إن الجن كانوا مأمورين أيضاً بالسجود مع الملائكة لكن اقتصر في الخطاب على الأشرف.

٥ وفي المواهب عن جعفر الصادق أنه قال: كان أول من سجد لآدم جبريل ثم ميكائيل ثم إسرافيل ثم عزرائيل ثم الملائكة المقرّبين.

قال: وعن ابن عباس: كان ـ أي وقت السجود لآدم ـ يوم الجمعة من وقت الزوال إلى العصر، أي بالنسبة لفرضه لو فرض من أيام الدنيا فلا ينافي رواية خلقه في آخر ساعة من يوم الجمعة المقدّر بألف سنة. قال: ثم خلق الله تعالى له حواء زوجته من ضلع من أضلاعه اليسرى. قال الحافظ في الفتح: أي أخرجت منه كما تخرج النخلة من النواة[1]. وقوله في الحديث: وهو نائم، قال القرطبي: أي لم يشعر بذلك ولا تألم وهو نائم. وما ورد من عدم النوم في الجنة فاعتبار ما يستقر عليه الأمر. وقال بعضهم:

وستة خصت بأهل الجنة لا بول لا غائط لا أجنة

ولا لحى فيها ولا أسنانا والنوم منفي كذا أتانا

وسمّيت حواء لأنها خلقت من حيّ[2]. وقال في الفتح: لأنها أمُّ كلّ حيّ، فلما استيقظ ورآها سكن إليها ومد يده إليها، أي بإلهام من الله تعالى له وهل كان ذلك قبل دخول الجنة؟ روي هذا عن ابن عباس وقطع به السيوطي في التوشيح، والذي عليه

---

(١) انظر: الفتح (٦/ ٣٦٨)، وفيض القدير (١/ ٥٠٣).

(٢) انظر: تاريخ الطبري (١/ ٦٩)، والطبقات الكبرى لابن سعد (١/ ٣٩)، والفردوس للديلمي (٣/ ٤٢٢)، وشرح مسلم للنووي (١٠/ ٥٩)، وفيض القدير (٥/ ٣٤٣).

الأكثر أن ذلك في الجنة، فقالت الملائكة: مه يا آدم، قال: ولم وقد خلقها الله لي. فقالوا: حتى تؤدي مهرها، قال: وما مهرها، قالوا: تصلي على محمد ﷺ ثلاث مرات. وذكر ابن الجوزي في كتابه سلوة الأحزان: أنه لما رام القرب منها طلبت منه المهر، فقال: يا رب وماذا أعطيها؟ قال: يا آدم صلِّ على حبيبي محمد بن عبد الله عشرين مرة. ففعل.

قال الشارح: وكأنه رام زيادة البيان من الله تعالى فسأله يعطيها ماذا، فلا ينافي أخبار الملائكة ما يعطيها أو أن الثلاث مرات كانت مقدمة لحصول الإلفة من قول الملائكة اجتهاداً، ورواية العشرين بأمر إلٰهي حيث أراد القرب منها.

قال بعض المحققين: والقصد بذلك إظهار شرف المصطفى ﷺ والمزوج هو الله فلا يرد كيف تكون الصلاة مهراً لعدم عود نفعها على الزوجة فزوجه الله إياها وجه الكل عبيده يفعل ما يشاء. وخطب، فقال: الحمد لله والعظمة إزاري والكبرياء ردائي والخلق كلهم عبيدي وإمائي، اشهدوا يا ملائكتي وحملة عرشي وسكان سماواتي أني زوّجت حواء أمتي عبدي آدم بديع فطرتي وصنيع يدي على صداق تقديسي وتسبيحي وتهليلي ﴿يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ [البَقَرَة: الآية ٣٥] الآية، كذا في الخميسي.

ثم إن الله تعالى أباح لهما نعيم الجنة ونهاهما عن شجرة الحنطة، وقيل: شجرة العنب، وقيل: شجرة التّين، وقال بعض المحققين والأسلم: الوقف عن تعيين عينها فحسدهما إبليس فهو أول من حسد وتكبر فأتى إلى باب الجنة فاحتال حتى دخل باب الجنة، أي وهذا الذي دلّت عليه الروايات.

قال السيوطي: الوارد عن ابن مسعود وابن عباس وأبي العالية ومحمد بن قيس أنه دخل في فم الحيّة، ودخوله بعد الأمر بالإخراج للوسوسة ابتلاء والممنوع دخول التكرمَة، وأتى إلى آدم وحواء فوقف وناح نياحة أحزنهما فهو أول من ناح، فقالا: ما يبكيك؟ قال: عليكما تموتان وتفقدان النعيم ألا أدلكما على شجرة الخلد فكلا منها، وحلف لهما بالله أنه ناصح وهو أول من حلف كاذباً وأول من غشّ. فأكلت حواء منها ثم زينت لآدم حتى أكل وظنّا أن أحداً لا يتجاسر أن يحلف بالله تعالى، يا آدم ألم يكن فيما أبحته لك من الجنة مندوحة عن الشجرة، قال: بلى يا ربّ وعزتك ولكن ظننت أن أحداً لا يحلف بك كاذباً. قال الله تعالى: وعزّتي وجلالي لأهبطنك إلى الأرض لا تنال العيش إلا كدأ. فاهبط من جنتي.

وعن ابن عباس: قال الله تعالى: يا آدم ما حملك على ما صنعت؟ قال: زيّنته لي حواء، قال: فإني أعاقبها أن لا تحمل إلاَّ كرهاً ولا تضع إلاَّ كرهاً ولأدمينها في الشهر

مرتين[١]. وفي صحيح الحاكم وابن المنذر بإسناد صحيح عن ابن عباس: أن ابتداء الحيض كان على حواء بعد أن أهبطت من الجنة[٢].

وروى عبد الرزاق بسند صحيح عن ابن مسعود قال: كان الرجال والنساء في بني إسرائيل يصلّون جميعاً، فكانت المرأة تتشوق للرجل فألقى الله عليهن الحيض ومنعهن المساجد.

قال الحافظ في الفتح جامعاً بين الروايتين: إن المرسل على بنات بني إسرائيل طول مكثه بهن عقوبة لهن لا ابتداء وجوده[٣] اهـ.

قلت: ويؤيد هذا ما روي في البخاري عنه ﷺ خطاباً للسيدة عائشة حين رأت الحيض قبل الوقوف بعرفة فبكت ظنّاً منها أنه مانع لها من الوقوف فقال لها ﷺ: «إن هذا أمر كتبه الله على بنات آدم»[٤] أي فهو لا يمنع من الوقوف.

قال وهب بن منبه: لما أهبط آدم إلى الأرض مكث يبكي ثلاثمائة سنة لا يرقأ له دمع. وقال المسعودي: لو أن دموع أهل الأرض جمعت لكانت دموع آدم أكثر حيث أخرجه الله من جنّته.

وقال مجاهد: بكى آدم مائة سنة لا يرفع رأسه إلى السماء، وأنبت الله من دموعه العود الرطب والزنجبيل والصندل وأنواع الطيب. وبكت حواء حتى أنبت الله من دموعها القرنفل والأفاوية بالفاء، نوع من الطيب، ويطلق كما في المصباح على توابل الطعام.

قال الشارح: وعند خروجه بكى وودّع كل من في الجنة حتى بكت عليه أشجارها إلا العود، فقيل له: لم لا تبكي؟ قال: لا أبكي على عاصٍ. فنودي: كما عظمت أمرنا عظمناك ولكن هيأناك للإحراق لكونك لم يحترق قلبك على محبّنا. قال: فلما انتهى لباب الجنة ووضع إحدى رجليه خارج الباب قال: بسم الله الرحمٰن الرحيم، فقال له جبريل: تكلمت بكلمة عظيمة فقف ساعة فربما يظهر من الغيب لطف، فنودي أن: دعه يخرج، فقال: إلٰهي دعاك رحيماً فارحمه فقال: إن أرحمه لا ينقص من رحمتي وإن يذهب لا يعاب عليه شيء فخل عنه يذهب ثم يرجع في مئات ألوف من أولاده عصاة حتى يشاهد فضلنا على أولاده ويعلم سعة رحمتنا.

قال: واختلف في قدر مكثه في الجنّة، فعن ابن عباس: مكث فيها نصف يوم من

---

(١) رواه أبو الشيخ في العظمة (٥/ ١٥٩٣)، والبيهقي في الشعب (٥/ ٦٤)، والديلمي في الفردوس (٣/ ٤٢٥).

(٢) انظر: الفتح (١/ ٤٠٠)، وشرح السيوطي للبخاري (١/ ١٨٠).

(٣) انظر: الفتح (١/ ٤٠٠)، وشرح السيوطي (١/ ١٨٠).

(٤) رواه البخاري (١/ ١١٣، ١١٧) ومسلم (٢/ ٩٧٣).

الآخرة وهي خمسمائة عام. قال: وهذا قول الكلبي. وقال الضحاك: دخلها ضحوة وخرج بين الصلاتين اهـ. والأرجح أن المراد بها جنة الخلد التي هي محل الاستقرار لا جنة ابتلاء واختبار لآدم.

قال في المواهب: فإن قلت هذه الفعلة الذي أهبط بها آدم من الجنة إن كانت كبيرة فالكبيرة لا تجوز على الأنبياء وإن كانت صغيرة فلم جرى عليه ما جرى بسببها من نزع اللباس والإخراج من الجنة وغير ذلك، قال: وأجاب الزمخشري بأنها ما كانت إلاّ صغيرة مغمورة بأعمال قلبيّة من الإخلاص والأفكار الصالحة التي هي أجل الطاعات وأعظم الأعمال وإنما جرى عليه ما جرى تعظيماً للخطيئة وتفظيعاً لشأنها وتهويلاً لأن يكون ذلك لطفاً له ولذريّته في اجتناب الخطايا واتقاء المآثم اهـ(١).

قلت: وهذا منه بحسب ظاهره يفيد جواز وقوع الصغيرة من الأنبياء وعدم عصمتهم منها، وهذا قول مرجوح والذي حققه الإمام السعد والسيد والخيالي على العقائد عصمتهم منها كما نبه على ذلك خاتمة التحقيق الإمام الأمير علي عبد السلام والقطب الدردير في شرح خريدته وعليه أصحاب مالك والشافعي وأبي حنيفة وجمهور أهل السنّة كما في الشفاء للقاضي عياض. وقد ذكرنا في كتابنا النفحات النبويّة في الفضائل العاشوريّة تحقيق ذلك المقام بما يشفي الغليل ويذهب الصدى عن القلب العليل ونصها: عند قول الإمام الأمير في متنه من حديث عاشوراء وفيه تيب على آدم ثم اعلم أن مما ينبغي التنبه له أن ما وقع من آدم ليس بمعصيَة حقيقة بل هو صورة معصية وسماه الله عصياناً نظراً لمقام آدم من باب حسنات الأبرار سيئات المقربين.

قال المحقق البيضاوي: والجواب عن أكل آدم من الشجرة من وجوه:

الأول: أنه لم يكن نبيّاً حينها والمدعى مطالب بالبيان.

والثاني: أن النهي لم يكن للتحريم بل كان للتنزيه وسمى الله ذلك عصياناً وظلماً لأنه ظلم نفسه بترك الأولى له.

الثالث: أنه فعله ناسياً لقوله تعالى: ﴿فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ [طه: الآية ١١٥] ولكنه عوتب بترك التحفظ عن أسباب النسيان، قال: ولعله وإن حط عن الأمة لم يحط عن الأنبياء لعظم قدرهم كما قال عليه الصلاة والسلام: «أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأولياء ثم الأمثل فالأمثل».

الرابع: أنه عليه السلام قدم على الأكل مجتهداً فاهماً أن الإشارة إلى عين تلك

(١) انظر: تفسير الطبري (١/ ٢٣٦)، والقرطبي (١/ ٢٩٦)، وابن كثير (٢/ ٢٠٧)، وتاريخ الطبري (١/ ٧٤)، والفتح (١١/ ٤٤١)، وشرح النووي (٣/ ٥٤).

الشجرة فتناول من غيرها من نوعها وكان المراد بها الإشارة إلى النوع. كما روي أنه عليه الصلاة والسلام أخذ حريراً أو ذهباً بيده، وقال: هذان حرامان على ذكور أمتي حل لأناثها، قال: وإنما جرى عليه ما جرى تفظيعاً لشأن الخطيئة ليجتنبها أولاده اهـ.

أقول: ما أجاب به أولاً من أنه لم يكن نبيّاً حين الأكل يفيد عدم العصمة قبل النبوّة، والذي حققه التفتازاني وكذلك الخيالي في حاشية العقائد وخاتمة المحققين الأمير علي عبد السلام: العصمة لهم قبل النبوة أيضاً حتى قبل البلوغ في حال صغرهم. وما أجاب به ثانياً من أن النهي لم يكن للتحريم بل للتنزيه يفيد عدم العصمة من فعل المكروه لذاته وأنه يجوز لهم الإقدام على فعله مع أنه ليس كذلك لأن فعلهم دائر بين الواجب والجائز بل الواجب والمندوب فقط. نعم يقع منهم المكروه للتشريع، ولذا قال العارف الشعراني في اليواقيت: أكل آدم من الشجرة إنما كان محض نفوذ أقدار لا غير.

قال: قال سيدي إبراهيم المتبولي: إن أكل آدم من الشجرة لم يكن معصية حقيقة وإنما كان صورة ليُرِيَ بنيه كيف يفعلون إذا وقعوا في محذور لأن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ترقبهم دائم فلا ينتقلون قط عن مقام وحال إلاّ لأعلى منه فكان حكم هذه الأكلة منسحباً على بنيه بالأصالة إلى يوم القيامة إلا من شاء الله تعالى، لأن الشجرة كانت مظهراً لارتكاب بنيه النهي فعلاً أو تركاً ولا كفارة للجميع إلاّ التوبة على حسب مقامهم، إلى أن قال: وما ورد من إطلاق اسم المعاصي في حق الأنبياء محمول على غير ظاهره وإن فعلوا مكروهاً بحسب الصورة إنما يفعلونه لبيان الجواز للأمّة توسعة من الله تعالى عليهم، فلهم في ذلك الأجر كما يؤجرون على حال المباح لفعلهم له.

قال: وأما معاصي الأولياء فيحفظون منها إن حفتهم العناية وإن تخلّفت عنهم فقد يقع منهم الحرام ولا يقدح في ولايتهم لعدم عصمتهم اهـ.

والذي تميل إليه النفس وينشرح له الصدر زيادة على هذا التحقيق ما نقله القطب الشعراني عن شيخه الخواص في كتابه البحر المورود في المواثيق والعهود، وكذلك ذكره العارف ابن عطاء الله في تنويره. ولفظ العارف الشعراني: قلت له: يا سيدي ما الحامل لآدم على أكله من الشجرة مع وجوب العصمة له ولسائر الرسل، فقال لي، وهو الجواب الشافي: يا ولدي، إن آدم لما خلقه الله وتمَّمَ عليه نعمته بالنبوّة والرسالة وعلَّمه الأسماء كلها وشرَّفه على ملائكته وقال لهم: إني جاعل في الأرض خليفة، وأمرهم بالسجود له فسجدوا وعلَّم آدم من اللوح المحفوظ علماً باطنياً أنه لا بد له من الهبوط إلى الأرض ويخرج من صلبه سيد العالمين وباقي الأنبياء وأولاده الكرام، وعلم أن ذلك كله مترتب على أكله من الشجرة بادر إلى الأكل من الشجرة تنفيذاً لما سبق له العلم القديم فيكون آدم بالنسبة لباطن الأمر مبادراً لامتثال الأمر الباطني وإن كان بالنسبة لظاهر الأمر مخالفاً

اهـ ملخصاً مع بعض توضيح.

وهذا سرّ قول بعض العارفين: لو كنت بدل آدم لأكلت الشجرة بتمامها.

قال العارف في اليواقيت: واعلم أن حقيقة التوبة هي شهود أن الله هو المقدر على العبد ذلك الذنب قبل أن يخلق. قال: ومعنى حديث: إذا أذنب العبد فعلم أن له ربّاً يغفر الذنب ويأخذ به يقول الله عز وجل في الثانية أو الثالثة: افعل ما شئت فقد غفرت لك، أي افعل ما شئت من المعاصي واندم واستغفرني أغفر لك. ولا يكفيه أن يعرف أن له ربّاً يغفر الذنب من غير ندم فافهم.

ثم قال: واعلم أن توبة الله تعالى على العبد مقطوع بها وتوبة العبد في محل الإمكان لما فيها من العلل وعدم العلم باستيفاء حدودها وشروطها، والجهل بعلم الله تعالى فيها، فكل عارف يسأل ربه أن يتوب عليه وحظه من التوبة الاعتراف والسؤال لا غير. فمعنى قوله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [النُّور: الآية ٣١] أي ارجعوا إلى الاعتراف والدعاء كما فعل أبوكم آدم عليه السلام تعليماً لكم بالفعل والصورة لا بالمعنى لأنه لم يكن قربه من الشجرة عن ميل ولا انتهاك حرمة وإنما كان محض نفوذ أقدار لا غير اهـ.

وهل توبة آدم كانت قبل الخروج من الجنة أو بعد هبوطه إلى الأرض، قد ورد ما يشهد لكل، وللمحقق البيضاوي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال آدم: يا ربّ ألم تخلقني بيدك، قال: بلى، قال: يا رب ألم تنفخ فيّ الروح من روحك، قال بلى، قال: ألم تسكني جنتك، قال بلى، قال: يا ربّ إن تبت وأصلحتُ أراجعي أنت إلى الجنة، قال: نعم. اهـ.

فظاهر هذا يشهد للقول الثاني. وللإمام الزرقاني على المواهب ورد أن آدم قبل خروجه من الجنة أقسم على ربّه بحق محمَّد أن يتوب عليه، فقال له: يا آدم بم عرفت محمداً ولم أخلقه، قال: لما رأيت اسمه مقروناً باسمك على ساق العرش وأبواب الجنة علمت أنه أحب الخلق إليك، فقال: صدقت يا آدم ولقد غفرت لك وتبت عليك. اهـ.

إن قلت: إن ظاهر هذا ينافي ظاهر قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ [البَقَرَة: الآية ٣٧]، قال المحقق البيضاوي: وهو قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ [الأعرَاف: الآية ٢٣] الآية، قال: وقيل: سبحانك اللهمَّ بحمدك تبارك اسمك وتعالى جدك ولا إله إلاَّ أنت ظلمت نفسي فاغفر لي إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت اهـ.

أقول: لم أطلع على نص في الجواب عن ذلك غير أنه لاح بفكري جوابان، فلعل الله أن يرشدنا إلى ما فيه الصواب، أحدهما: أنه لا مانع من تعدد أسباب التوبة لا سيما لأهل الكمال فإنهم على حسب مقامهم يتذكرون ما وقع منهم من أدنى التقصير فيجددون

الابتهال والتضرُّع فيناجون بما فيه الصفح عنهم والترقّي في الدرجات، بل هذا واقع لأصفياء الأمة غير الأنبياء كما يشير لذلك قول العارف ابن عطاء الله في حكمه ربما قضى عليك بالذنب فكان سبباً للوصول وهذا مأخوذ من قوله ﷺ: «أنين المذنبين عند الله أعظم من زجل المسبِّحين».

ثم بعد كتابتي هذا تسويداً رأيت للعارف الشعراني في اليواقيت ما يؤيده ولفظه: وكان في أكل آدم من الشجرة ثم توبة الله عليه واجتبائه واصطفائه فتح باب الذل والانكسار لبنيه، وبيان أنهم كلّهم تحت القضاء والقدَر في كل ما يتحركون ويسكنون فيه من أمر ونهي ومباح ومع كونه خلاف الأولى لأكله من الشجرة بغير إذن صريح من الباري جل وعلا في حال نسيانه وفي حال ظنه أن إبليس لا يحلف بالله كاذباً سمّى الله ذلك عصياناً لعلو مقام آدم ثم بعد توبته عليه زاد في اعتنائه بأن جعل له مذكراً من نفسه لما وقع منه وهو تغيير ما أكله في جوفه بأن صار قذراً منتناً على خلاف ما كان عليه في تلك الجنة، فكان آدم عليه السّلام كلما أخذته البطنة من بول أو غائط أو ريح كره ذلك فيتذكر ما وقع منه فيزيد استغفاراً إجلالاً وتعظيماً لله عز وجل. قال: ولذلك جاءت شريعتنا بطلب الاستغفار إذا خرجنا من الخلاء فهذه حكمته اهـ بلفظه.

ثانيهما: أن تعدد أسباب التوبة يختلف باختلاف الأماكن فيظهر عند قوم ويخفى عند آخرين، فلعل ظهوره في الملأ الأعلى ببعض الأسباب دون بعض وظهوره في الأرض بين أهلها، بما أفاده الإمام البيضاوي عن سبب التوبة كما أخبر الله بذلك نبيه بقوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ﴾ [البقرة: الآية ٣٧] الخ اهـ ما كتبناه هناك في هذا المقام.

نسأل الله العظيم متوسّلاً إليه بجاه نبيّه الكريم أن يتفضّل علينا بعلم الخائفين وتوبة الصدّيقين، ويكرّمنا بالنظر إلى وجهه الكريم وجنات النعيم ووالدينا ومشايخنا وإخواننا وسائر المحبين والمسلمين، وصلّى الله على سيّدنا محمد وعلى آله وأصحابه وأزواجه وذريّته وأهل بيته كلما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون وشرّف وكرّم وعظّم.

قال في المواهب: ولما خلق الله حواء لتسكن إلى آدم ويسكن إليها، فحين وصل إليها فاضت بركاته عليها فولدت له في تلك الأعوام الحُسْنى أربعين ولداً في عشرين بطناً، أي واقتصر عليه البغوي قائلاً: وكان أولهم قابيل وتوأمته أقليما، ووضعت شيثاً وحده كرامة لمن أطلع الله بالنبوّة سعده. قال الإمام الزرقاني: وهو المصطفى ﷺ، فكان في وجه شيث نور نبيّنا ﷺ وجاءت الملائكة مبشّرة لآدم به[1] اهـ.

---

(١) انظر: تاريخ الطبري (١/ ٨٩، ٩٢)، وتفسير القرطبي (١/ ٢٦٤)، (٦/ ١٣٥)، والفتح (١٢/ ١٩٣)، والنووي (١٠/ ٥٩).

قال: ولما توفي آدم عليه السلام، قال الشارح: وسنه ألف سنة، كما في حديث أبي هريرة وابن عباس مرفوعاً. وقيل: إلاَّ سبعين، وقيل: إلاَّ أربعين، بمكة يوم الجمعة وصلّى عليه جبريل واقتدى به الملائكة وبنو آدم قال: وفي رواية: صلى عليه شيث بأمر جبريل ودفن بمكة في غار أبي قبيس قال: ذكرهما الثعلبي وغيره، وكسفت الشمس والقمر عليه أسبوعاً وعاشت حواء بعده سنة، وقيل: ثلاثة أيام ودفنت بجنبه اهـ. قال. وكان شيث عليه الصلاة والسلام وصيّاً لآدم على ولده. قال الشارح: وروي عن ابن عباس: لم يمت آدم حتى بلغ أولاده وأحفاده أربعين ألفاً والصلبية منهم أربعون. وفي مسند الفردوس عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إن آدم عليه الصلاة والسلام قام خطيباً في أربعين ألفاً من ولده وولد ولده، وقال: إن ربي عهد إليَّ فقال: يا آدم أقلل كلامك ترجع إلى جواري وكان شيث أجمل أولاده وأشبههم به وأحبهم إليه وأفضلهم، وعلمه الله الساعات والعبادة في كل ساعة منها وأنزل عليه خمسين صحيفة وزوّجه أخته التي ولدت بعده وكانت جميلة كأمها حواء وخطب جبريل وشهدت الملائكة وكان آدم وليها ورزقه الله أولاداً في حياة أبيه وعمّر تسعمائة واثنتي عشرة سنة، وقيل: عشرين. ومات لمضي ألف واثنتين وأربعين سنة من هبوط آدم ودُفن في غار أبي قَبيس، ثم بعدما أوحى الله إلى شيث أن اتخذ ابنك أنوش صفياً ووصياً علم أنه نُعِيَتْ إليه نفسه فأوصى ولده أنوش ـ بفتح الهمزة فنون مضمومة آخره شين معجمة ـ ويقال: يانش بتحتية فنون مفتوحة فمعجمة ـ بوصية آدم أن لا يضع هذا النور الذي كان في وجه آدم كالشمس إلاَّ في المطهرات من النساء.

قال الشارح نقلاً عن الخميس وغيره: وذلك النور كان يتنقل من جبهة إلى جبهة وكان يؤخذ في كل مرتبة عهد وميثاق أن لا يوضع إلاَّ في المطهرات، فأول من أخذه آدم من شيث وهو من ابنه، وهكذا. قال: فلو لم يظهر في الجميع لما قالوا كان ينتقل من جبهة إلى جبهة اهـ، فطّهر الله هذا النسب الشريف من سفاح الجاهلية كما ورد عنه ﷺ في الأحاديث المرضية.

قال ابن عباس كما في الشفاء أيضاً فيما رواه البيهقي في سننه قال رسول الله ﷺ: «ما ولدني من سفاح الجاهلية شيء ما ولدني إلاَّ نكاح الإسلام» أي نكاح كنكاح الإسلام في كونه مبيحاً للوطء وإن لم يستجمع شرائط الإسلام الآن إذ المقصود نفي الفجور. قال بعض المحققين: وهذا من أعظم العناية به ﷺ حيث أجرى الله سبحانه وتعالى نكاح آبائه من لدن آدم عليه السلام إلى أن أخرجه ﷺ من بين أبويه على نمط واحد وفق شريعته ولذلك قال الإمام السبكي: أن الأنكحة الواقعة في نسبه ﷺ كلها مستجمعة لشروط الصحة كأنكحة الإسلام، قال: فاعتقد هذا بقلبك وتمسك به ولا تتحوّل عنه تخسر الدنيا والآخرة، نسأل الله العفو والعافية.

والسفاح، بكسر السين المهملة: الزنا، والمراد به هنا: أن المرأة تُسافح الرجل مدة ثم يتزوجها بعد ذلك.

وروى ابن سعد وابن عساكر عن هشام بن محمد بن السائب الكلبي عن أبيه قال: كتب للنبي ﷺ خمسمائة أم فما وجدت فيهن سفاحاً ولا شيئاً مما كان من أمر الجاهلية.

وفي الشفاء أيضاً عن علي بن أبي طالب أن النبي ﷺ قال: «خرجت من نكاح ولم أخْرَجْ من سفاح من لَدُنْ آدم إلى أن ولدني أبي وأمي، ولم يُصبني من سفاح الجاهلية شيء». رواه الطبراني في الأوسط وأبو نعيم وابن عساكر[1].

وروى أبو نعيم عن ابن عباس مرفوعاً: «لم يلتق أبواي قط على سفاح لم يزل الله ينقلني من الأصلاب الطيبة إلى الأرحام الطاهرة مصفًّى مهذَّباً لا تتشعب شعبتان إلاَّ كنت في خيرهما».

وعنه في قوله تعالى: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾﴾ [الشُّعَرَاء: الآية ٢١٩] قال: «من نبيّ إلى نبيّ حتى أخرجتك نبيّاً» رواه البزار.

وعنه أيضاً في الآية قال: ما زال النبي ﷺ يتقلّب في الأنبياء حتى ولدته أمه. رواه أبو نعيم. اهـ[2].

وبذلك استدل بعض المحققين على أن آباءه ﷺ وأمهاته إلى آدم وحواء ليس فيهم كافر ولا كافرة لأنه لا يوصف بالطاهر إلاَّ المؤمن والمؤمنة. ولذلك قال بعضهم:

واجزم بإيمان لهم من آدم ... إلى أبيه الأقرب المكرّم

والأمهات مثلهم دليل ذا ... من الكتاب والحديث فخذا

كقوله في الساجدين قد ورد ... فيهم روايات عليّة السند

فلم يزل من ساجد منتقلاً ... لساجد فإنهم نِعْمَ الملا

قال: وما ورد من قوله: أبي وأبوك في النار، فمتكلم فيه وعلى صحته فمؤوّل بأنه أراد بأبيه عمّه لأن العرب تطلق على العم أباً، وعليه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ﴾ [الأنعام: الآية ٧٤] فالصحيح أنه كان عمّه لا أباً له.

قال في المواهب: ثم اعلم أنه عليه الصلاة والسلام لم يَشْركه في ولادته من أبويه أخ ولا أخت لانتهاء صفوتهما إليه وقصور نسبهما عليه ليكون بنسب جعله الله للنبوّة غاية

---

(١) رواه عبد الرزاق في المصنف (٧/ ٣٠٣)، والطبراني في الأوسط (٥/ ٨٠)، والديلمي في الفردوس (٢/ ١٩٠)، وانظر: الفيض القدير (٣/ ٣٧، ٤٣٧)، والبيان والتعريف (ص ٢٩٤).

(٢) انظر: فيض القدير (٣/ ٤٠٣٧).

ولتمام الشرف أنه إذا اختبرت حال نسبه الشريف وعلمت طهارة مولده المنيف تيقنت أنه سلالة آباء كرام فهو ﷺ النبي العربي الأبطحي الحرمي الهاشمي القرشي نخبة بني هاشم المختار المنتخب من خير بطون العرب وأعرقها في النسب وأشرفها في الحسب وأنضرها عوداً وأطولها عموداً وأطيبها أرومة ـ بفتح الهمزة وضمها أي: أصلاً ـ وأعزّها جُرْثومة ـ بضم الجيم أي: أصلاً كما في القاموس ـ وأفصحها لساناً، وأوضحها بياناً، وأرجحها ميزاناً، وأصحها إيماناً، وأعزّها نفراً وأكرمها معشراً من قبل أبيه وأمه ومن أكرم بلاد الله على الله وعلى عباده فهو سيّدنا محمد ﷺ ابن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصيّ بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار بن مَعد بن عدنان، وفيما فوق ذلك خلاف كثير.

وكره الإمام مالك رفع النسب إلى آدم وأمه آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب المذكور، واسم عبد المطلب شيبة الحمد قيل: لأنه ولد وفي رأسه شيبة مع رجاء حمد الناس له. وإنما قيل: عبد المطلب لأن عمه المطلب لما جاء به من عند أخواله بني النجار بالمدينة صغيراً أردفه خلفه بثياب رثة فكان كل من يسأل عنه يقول له: عبدي، حياء من أن يقول: ابن أخي، واسم هاشم عمرو العلاء، لعلو مرتبته، ولقب بهاشم لهشمه الثريد للناس في مجاعة أصابتهم. واسم عبد مناف: المغيرة، ومناف أصله مناة اسم صنم كان من أعظم أصنامهم، وكانت أمه جعلته خادماً لذلك الصنم. واسم قصي: زيد، وقيل: يزيد، ولقب بقصي لأنه قصا أي: بعد عن عشيرته إلى بلاد قضاعة حين احتملته أمه فاطمة إليهم لأنها كانت منهم، وكان يدعى مجمعاً. قال الشاعر:

أبوكم قصيّ كان يدعى مجمعا ... به جمع اللّه القبائل من فهر

واسم كلاب: حكيم، وقيل: عروة، ولقب بكلاب لأنه كان يحب الصيد وكان أكثر صيده بالكلاب. وسأل اعرابي: لم تسمُّون أبناءكم بشر الأسماء نحو: كلب وذئب وعبيدكم بأحسن الأسماء نحو: رزق ورباح وسرور، فقال: إن أبناءنا لأعدائنا وعبيدنا لأنفسنا. يريدون أن الابن عدتنا للأعداء ويتفاءل بأسماء العبيد. ابن مرة بن كعب هو أول من جمع يوم العروبة، قال الزرقاني: هي بفتح العين اسم ليوم الجمعة في الجاهلية اتفاقاً، وكعب هو الذي سماها بذلك كما جزم به بعضهم لاجتماع الناس إليه فيه، وكانت تجتمع إليه قريش في هذا اليوم فيعظهم ويأمرهم بتعظيم الحرم ويخبرهم بأنه سيبعث فيهم النبيّ. قال: أخرجه ابن الزبير ويأمرهم باتباعه والإيمان به. وينشد في ذلك أبياتاً منها قوله:

يا ليتني شاهد فحواء دعوته ... إذا قريش تبغي الحق خذلانا

وتبغي، قال: بضم التاء وفتح الموحدة وكسر الغين المعجمة، قال: وفي نسخة: حين العشيرة تبغي، قال: وجاء علمه بذلك من الوصية المستمرة من آدم أن من كان فيه ذلك النور لا يضعه إلاّ في المطهر، وعلمه أيضاً من الكتب القديمة أن من كان بصفة كذا كان محمد من ولده، ووجد تلك الصفة فيه. قال: رواه أبو نعيم في الدلائل عن كعب الأحبار.

ابن لؤيّ: بضم اللام وبالهمز: ابن غالب بن فهر وأمته قريش، وإليه تنسب قريش، فما كان فوقه فكناني لا قرشي على الصحيح. صححه الدمياطي والعراقي وغيرهما والحجة لهم حديث مسلم والترمذي مرفوعاً: أن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل واصطفى قريشاً من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم فأنا خيار من خيَار من خيار.

قال الشارح: وذهب آخرون إلى أن أصل قريش النضر. وبه قال الشافعي وعزاه العراقي للأكثرين، فقال:

أما قريش فالأصح فهر   جماعها والأكثرون النضر

قال النووي: وهو الصحيح المشهور، ابن مالك بن النضر، واسمه قيس ولقب بالنضر لنضارته وحسنه، واسم مدركة: عمرو، ولقب بمدركة لأنه أدرك كل عز وفخر كان في آبائه. وإلياس بهمزة قطع مكسورة، وقيل: مفتوحة، وقيل: همزة وصل، ونسب للجمهور، وقيل: سمي بذلك لأنه ولد بعد كبر سن أبيه. قال في المواهب: وهو أول من أهدى البدن إلى البيت الحرام. ويذكر أنه كان يسمع في صلبه تلبية النبي ﷺ بالحج.

ابن مضر، وهو أول من سن الحُدَاء للإبل، وكان من أحسن الناس صوتاً.

ابن نزار، قال الشارح: بكسر النون فزاي فألف فراء من النزر، وهو القليل، وقيل: سبب ذلك أنه لما ولد ونظر أبوه إلى نور محمد ﷺ بين عينيه وهو نور النبوّة الذي كان ينتقل في الأصلاب فرح فرحاً شديداً ونحر وأطعم وقال: إن هذا كله نزر، أي قليل لحق هذا المولود. فسمي نزار بذلك. قال: وبهذا القيل جزم السهيلي ومن تبعه.

ابن معد، بفتح الميم وشدّ الدال، قال الشارح: وسمي معدّاً، قال الخميسي لأنه كان صاحب حروب وغارات على بني إسرائيل ولا يحارب أحداً إلاّ رجع بالنصر والظفر.

ابن عدنان، قال في المواهب: قال ابن رقية: أجمع العلماء والإجماع حجة على أن رسول الله ﷺ إنما انتسب إلى عدنان. قال: وعن ابن عباس أنه ﷺ كان إذا انتسب لم يجاوز معد بن عدنان ثم يمسك ويقول: «كذب النسابون» مرتين أو ثلاثاً. قال: رواه في مسند الفردوس[1].

(١) رواه ابن سعد في الطبقات الكبرى (١/ ٥٦) وابن خياط في طبقاته (ص ٣).

واعلم أنه يجب معرفة نسبه ﷺ من جهة أبيه وكذا من جهة أمه، كما نص عليه الإمام الأجهوري في شرح السيرة، ولذلك قال بعض الفضلاء:

عشرون جداً من جدود المصطفى ... يجب علينا حفظهم بلا خفا
خذهم على الترتيب عبد المطلب ... فهاشم عبد مناف افهم تصب
قصيّ مع كلاب ثم مرة ... كعب لؤي غالب ذو مرة
فهر يليه مالك والنضر ... كنانة خزيمة مشتهر
مدركة الياس منهم مع مضر ... نزار مع معدّ جاء في الخبر
وضف لهم عدنان يا فصيح ... لكي يتم النسب الصحيح
من جهة الآبا وأيضاً نسبته ... من جهة الأم تجب معرفته
أم النبي صاحب المفاخر ... آمنة بنت لوهب الطاهر
ابن لعبد مناف عالي القدر ... ابن لزهرة مع كلاب فادر
فأم طه مع أبيه تجتمع ... في جده كلاب يا هذا استمع

واعلم أن لحوقه ﷺ بآبائه المذكورين في هذا النسب الشريف قطعي لا شك فيه لوروده عنه ﷺ وصحة حديثه وكذلك لحوقه ﷺ بسيدنا إسماعيل وإبراهيم وغيرهم من الأنبياء الذين اشتهرت نبوّتهم كنوح وشيث فيكفر منكر ذلك لكن إن وقع منه ذلك مكابرة بعد التعليم، وإلى هنا انتهى ذكر النسب الشريف من المواهب وشارحها، أسأل الله العظيم متوسّلاً إليه بوجاهة وجه نبيّه الكريم أن يتفضّل علينا ببركة هذا النسب الشريف بدرة من إقباله وبسطة من إفضاله بجاه سيد أنبيائه وأحبابه ﷺ وعلى آله وأصحابه وأزواجه وذريته وأهل بيته كلما ذكر الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون.

أما ما يتعلق ببراهين أعلام حمله ﷺ وولادته وما ظهر من العجائب الملكوتية والمواهب الربانية إذ ذاك أمدنا الله من فيض تلك المواهب، فقد قال قطب الواصلين، وليّ نعمتي الإمام الدردير في مولده: ولما أراد الله تعالى إبراز هذا السر المصون الساري في الظهور والبطون من عالم الخفاء إلى عالم الظهور ليتم بذلك كمال الصفاء ومزيد السرور ألهم عبد المطلب بأن يذهب إلى وهب بن عبد مناف بن زهرة وهو يومئذ سيد بني زهرة نسباً وشرفاً فخطب منه بنته آمنة لولده عبد الله وهي يومئذ أفضل امرأة من قريش نسباً وموضعاً، فزوجها له وبنى بها في شعب أبي طالب فحملت برسول الله ﷺ وظهر لحمله عجائب ولوضعه غرائب اهـ.

وقال الإمام القسطلاني في المواهب اللدنية وعند أبي نعيم والخرائطي وابن عساكر

من طريق عطاء عن ابن عباس[١]: لما خرج عبد المطلب بابنه عبد الله ليزوجه مرّ به على كاهنة متهوّدة قد قرأت الكتب يقال لها: فاطمة بنت مرة الخثعمية، فرأت نور النبوّة في وجه عبد الله فقالت له: لك مثل الإبل التي نحِرَتْ عنك وقع عليّ الآن، لما رأت في وجهه من نور النبوّة ورجت أن تحمل بهذا النبي الكريم ﷺ، فقال لها:

أما الحرام فالممات دونه والحلُّ لا حلّ فأستبينه
فكيف بالأمر الذي تبغينه يحمي الكريم عرضه ودينه

ثم خرج به عبد المطلب حتى أتى به وهب بن عبد مناف بن زهرة وهو يومئذ سيد بني زهرة نسباً وشرفاً، فزوَّجه ابنته آمنة وهي يومئذ أفضل امرأة في قريش نسباً وموضعاً ووقع عليها يوم الاثنين أيام منى في شعب أبي طالب عند الجمرة، فحملت برسول الله ﷺ ثم خرج من عندها فأتى المرأة التي عرضت عليه ما عرضت فقال لها: ما لك لا تعرضين عليَّ اليوم ما عرضت بالأمس؟ فقالت: فارقك النور الذي كان معك بالأمس فليس لي بك اليوم حاجة، إنما أردت أن يكون النور فيّ فأبى الله أن يجعله إلاَّ حيث شاء. اهـ.

وسبب الاختيار لهذا النسب الشريف ما روي: أن اليهود لما علموا بعبد الله، خرج منهم سبعون من الشأم وتحالفوا أن لا يرجعوا حتى يقتلوه، فجعلوا يسيرون بالليل ويكمنون بالنهار حتى وصلوا إلى مكة. فلما خرج عبد الله إلى صيده وكان وحده رآه اليهود فعرفوه فأحدقوا به من كل جانب، فلما نظر إليهم وهب بن عبد مناف أدركته الحمية فقال: سبعون رجلاً على رجل واحد يريدون قتله لأنصرنه. فالتفت فإذا هو برجال في الهواء لا يشبهون رجال الدنيا قد نزلوا من السماء فقطعوهم عن آخرهم فهاله ما رأى. ورجع إلى أبيه عبد المطلب وأخبره بذلك فلذلك بادر بالإجابة من غير توقف وسر بذلك. وكون النبأ يوم الاثنين هو الصحيح كما أفاده بعض المحققين. وقيل: كان في يوم الجمعة، والقول بأنه كان في أيام منى لا يوافق المشهور من أن المولد في ربيع الأول.

وروي أن كل امرأة من قريش مرضت حينئذ أسفاً على ما فاتها من ذلك النور الذي كان يتلألأ في جبين عبد الله زيادة على ما فيه من الجمال الذي افتتنت به نساء قريش كما افتتن نساء مصر بجمال يوسف عليه السلام.

قال في المواهب: ولما حملت آمنة برسول الله ﷺ ظهر لحمله عجائب وَوُجد

(١) رواه الطبري في تاريخه (١/ ٥٠٠)، وابن سعد في الطبقات الكبرى (١/ ٩٦)، وأورده ابن الجوزي في صفوة الصفوة (١/ ٤٨).

لإيجاده غرائب، فذكروا أنه لما استقرت نطفته الزكية ودرته المحمدية في صدفة آمنة القرشيّة نودي في الملكوت وعوالم الجبروت أن عطّروا جوامع القدس الأسنى وبخّروا جهات الشرف الأعلى، وافرشوا سجادات العبادات في صفف الصفا الصوفية الملائكة المقربين أهل الصدق والوفا فقد انتقل النور المكنون إلى بطن آمنة ذات العقل الباهر والفخر المصون، وخصّها الله تعالى القريب المجيب بهذا السيد المصطفى الحبيب لأنها أفضل قومها حسباً وأنجبهم، وأزكاهم أصلاً وفرعاً وأطيب اهـ.

وفي مولد قطب الواصلين سيدنا وولي نعمتنا الشيخ الدردير كما في المواهب نقلاً عن كعب الأحبار أنه نودي في تلك الليلة في السماء وصفاحها والأرض وبقاعها أن النور المكنون الذي منه رسول الله ﷺ يستقر الليلة في بطن آمنة فيا طوبى لها ثم يا طوبى، وأصبحت يومئذ أصنام الدنيا منكوسة وكانت قريش في جدب شديد وضيق عظيم فاخضرت الأرض وحملت الأشجار وأتاهم الرفد من كل جانب، فسميت تلك السنة التي حمل فيها برسول الله ﷺ سنة الفتح والابتهاج اهـ، وطوبى الطيب والحسنى كما في القاموس أو فرح وقرة عين، وقال عكرمة: نعم، قال: وفي الحديث: «طوبى للشأم فإن الملائكة باسطة أجنحتها عليها»[١].

قال: وفي حديث ابن إسحٰق: أن آمنة كانت تحدث أنها أتيت حين حملت به ﷺ فقيل لها: إنك قد حملت بسيد هذه الأمة، وقالت: ما شعرت بأني حملت به ولا وجدت ثقلاً ولا وحماً كما تجد النساء إلا أني أنكرت رفع حيضتي وأتاني آت وأنا بين النائمة واليقظانة فقال: هل شعرت بأنك قد حملت بسيد الأنام؟ ثم أمهلني حتى إذا دنت ولادتي أتاني فقال: قولي أعيذه بالواحد من شر كل حاسد، وسمّيه محمداً»[٢].

وقال زكريا يحيى بن عائذ: بقي ﷺ في بطن أمه تسعة أشهر كمّلاً لا تشكو وجعاً ولا ما يعرض لذوات الحمل من النساء، وكانت تقول: والله ما رأيت من حمل هو أخف منه ولا أعظم بركة منه اهـ. وهذا لا ينافي ما رواه شداد بن أوس رضي الله عنه من رواية ثقل الحمل ونص الرواية كما في المواهب: أن رجلاً من بني عامر سأل رسول الله ﷺ: ما حقيقة أمرك، قال: «بدء شأني أني دعوة أبي إبراهيم، وبشرى أخي عيسى، وإني كنت بكر أبي وأمي، وأنها حملت بي كأثقل ما تحمل النساء، وجعلت تشتكي إلى صواحباتها ثقل الحمل لأن الثقل كان في ابتداء علوق الحمل والخفة عند استمراره»، فيكون على الحالين خارجاً عن المعتاد المعروف، وهذا ما جمع به الحافظ أبو نعيم بين

---

(١) رواه أحمد في المسند (٥/ ١٨٤)، وفي فضائل الصحابة (٢/ ٩٠٦)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٢٤٩)، وابن حبان (١٦/ ٢٩٣).

(٢) رواه الطبري في تاريخه (١/ ٤٥٤)، وابن إسحاق في السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٢٩٣).

الروايتين. ولما تمَّ لها من حملها شهران توفي أبوه عبد الله على القول الأشهر، وكان عبد الله رجع من غزة ضعيفاً مع قريش لما رجعوا من تجارتهم ومروا بالمدينة بيثرب فتخلّف عند أخواله، أي أخوال أبيه بني عديّ بن النجار، فأقام عندهم مريضاً شهراً، فلما قدم أصحابه سألهم عبد المطلب عنه فقالوا: خلفناه مريضاً، فبعث إليه أخاه الحارث فوجده قد توفي ودفن. قيل: بالأبواء، وقيل: بدار التابعة، قال: و رثته زوجته آمنة بقولها:

عفا جانب البطحاء من آل هاشم ... وجاوز لحداً خارجاً في الغماغم

دعته المنايا دعوة فأجابها ... وما تركت في الناس مثل ابن هاشم

عشية راحوا يحملون سريره ... تعاوره أصحابه في التزاحم

فإن تك غالته المنايا وريبها ... فقد كان معطاء كثير التراحم

قال: ويذكر عن ابن عباس أنه لما توفي عبد الله قالت الملائكة: إلٰهنا وسيِّدنا بقي نبيّك يتيماً، فقال الله تعالى: أنا له حافظ ومعين. وقيل لجعفر الصادق: لِمَ يُتِّمَ النبي ﷺ من أبويه، قال: لئلا يكون عليه حق لمخلوق. نقله عنه أبو حيان في البحر.

قال: وكانت آمنة تحدِّث وتقول: أتاني آتٍ حين مر بي من حملي ستة أشهر في المنام وقال لي: يا آمنة إنك حملت بخير العالمين فإذا ولدتيه فسميه محمداً واكتمي شأنك. قالت: ثم أخذني ما يأخذ النساء ولم يعلم بي أحد لا ذكر ولا أنثى وإني لوحيدة في المنزل وعبد المطلب في طوافه، فسمعت وجبة عظيمة وأمراً عظيماً هالني، ثم رأيت كأن جناح طائر أبيض قد مسح على فؤادي فذهب عني الروع وكل وجع أجده، ثم التفتُّ فإذا أنا بشربة بيضاء فتناولتها فأصابني نور عالٍ ثم رأيت نسوة كالنخل طوالاً كأنهن من بنات عبد مناف يحدقن بي، فبينما أنا أتعجب وأقول: واغوثاه من أين علمن بي، قال في غير هذه الرواية: فقلن لي: نحن آسية امرأة فرعون ومريم ابنة عمران وهؤلاء من الحور العين. واشتدّ بي الأمر وأنا أسمع الوجبة في كل ساعة أعظم وأهول مما تقدم، فبينا أنا كذلك إذا بديباج أبيض قد مدّ بين السماء والأرض وإذا بقائل يقول: خذوه عن أعين الناس. قالت: ورأيت رجالاً قد وقفوا في الهواء بأيديهم أباريق من فضة، ثم نظرت فإذا أنا بجماعة ـ أي بقطعة من الطير ـ قد أقبلت حتى غطت حجرتي، مناقيرها من الزمرد وأجنحتها من الياقوت، فكشف الله عن بصري فرأيت مشارق الأرض ومغاربها ورأيت ثلاثة أعلام مضروبات علماً بالمشرق وعلماً بالمغرب وعلماً على ظهر الكعبة، فأخذني المخاض فوضعت محمداً ﷺ فنظرت إليه فإذا هو ساجد قد رفع أصبعه إلى السماء كالمتضرِّع المبتهل، ثم رأيت سحابة بيضاء قد أقبلت من السماء حتى غشيته فغيّبته عني فسمعت منادياً ينادي: طوفوا به مشارق الأرض ومغاربها وادخلوه البحار

ليعرفوه باسمه ونعته وصورته ويعلموا أنه سمِّي فيها الماحي لا يبقى شيء من الشرك إلاَّ محي في زمنه، ثم تجلت عنه في أسرع وقت.. الحديث.

وأخرج أبو نعيم عن عبد الرحمن بن عوف عن أمّه الشفاء قالت: لما ولدت آمنة رسول الله ﷺ وقع على يدي فاستهلّ فسمعت قائلاً يقول: رحمك الله، قالت الشفاء: وأضاء لي ما بين المشرق والمغرب حتى نظرت إلى بعض قصور الروم. قالت: ثم ألبسته وأضجعته فلم أنشب أن غشيتني ظلمة ورغب وقشعريرة ثم غيب عني فسمعت قائلاً يقول: أين ذهبت به، قال: إلى المشرق والمغرب، قالت: فلم يزل الحديث مني على بال حتى ابتعثه الله فكنت في أول الناس إسلاماً.

قال في اللطائف: وخروج هذا النور عند وضعه ﷺ إشارة إلى ما يجيء من النور الذي اهتدى به أهل الأرض وزالت به ظلمة الشرك.

ورويّ أنه ﷺ تكلم حين خرج من بطن أمه فقال: «الله أكبر كبيراً والحمد لله كثيراً وسبحان الله بكرة وأصيلا».

ومن عجائب ولادته ﷺ ما روي من ارتجاج إيوان كسرى وسقوط أربع عشرة شرافة منه وغيض بحيرة طبرية وخمود نار فارس وكان لها ألف عام لم تخمد، وما ألطف قول بعضهم في ذلك:

ضاءت لمولده الآفاق واتصلت ... بشرى الهواتف في الإشراق والطفل
وصرح كسرى تداعى من قواعده ... وانقض منكسر الأرجاء ذا ميل
ونار فارس لم توقد وما خمدت ... مذ ألف عام ونهر القوم لم يسل
خرت لمبعثه الأوثان وانبعثت ... ثواقب الشهب ترمي الجن بالشعل

وعن ابن عمر: ولد النبي ﷺ مسروراً مختوناً، قال: رواه ابن عساكر. وقال الحاكم في المستدرك: تواترت الأخبار أنه ﷺ ولد مختوناً[1] اهـ.

ويؤيد هذا ما رواه الطبراني في الأوسط وأبو نعيم والخطيب وابن عساكر من طرق عن أنس أن النبي ﷺ قال: «من كرامتي على ربي أني وُلِدْتُ مختوناً ولم ير أحد سوأتي»، قال: وصححه الضياء في المختارة[2] اهـ.

وإن تعقب ذلك بعض الحفاظ وقيل: ختنه جده عبد المطلب يوم سابع ولادته

(١) انظر: مستدرك الحاكم (٢/ ٦٥٧)، والطبقات الكبرى لابن سعد (١/ ٣٠٢)، والاستيعاب لابن عبد البر (١/ ٥١).

(٢) انظر: الأحاديث المختارة للضياء المقدسي (٥/ ٢٢٣).

وصنع له مأدبة وسماه محمداً، رواه الوليد بن مسلم وحكاه ابن عبد البر في التمهيد. وقيل: ختنه جبريل عليه الصلاة والسلام حين طهّر قلبه وهو عند حليمة السعدية.

قال: وقد اختلف في عام ولادته ﷺ والأكثرون على أنه عام الفيل، بل حكى بعض العلماء الاتفاق عليه وقيل: بعده بخمسين يوماً، وقيل غير ذلك.

واختلف أيضاً في الشهر الذي ولد فيه ﷺ، والمشهور أنه ولد في ربيع الأول، وهو قول الجمهور. ونقل الإمام ابن الجوزي الاتفاق عليه، وقيل: في رجب، وقيل: في رمضان، والمشهور أنه ولد يوم الاثنين ثاني عشر ربيع الأول، وقيل: لثمانية ولم يكن ذلك يوم الجمعة ولا في الأشهر الحرم لأن الزمان يتشرف به عليه الصلاة والسلام وآدم تشرّف بيوم الجمعة ويؤيده حديث مسلم عن أبي قتادة الأنصاري أنه ﷺ سئل عن صيام الاثنين قال: «ذلك يوم ولدت فيه وأنزلت عليَّ فيه النبوّة»، وهذا يدل على أنه ﷺ ولد نهاراً، وقيل: ولد ليلاً، وفي الإبريز للقطب الغوث سيدي عبد العزيز الدَّباغ: أن عبد الله بن المبارك قال له: يا سيدي اختلف أهل السنة في كونه ﷺ ولد نهاراً أو ليلاً فما الصحيح من القولين؟ قال: يا ولدي كل من القولين صحيح لأن أمّه عليه الصلاة والسلام أخذها المخاض في ابتداء الوضع من أول سدس الليل الأخير وكان نزوله ﷺ بعد الفجر، فمن نظر المبدأ قال ليلاً، ومن نظر إلى انتهائه قال نهاراً، وكان ذلك الغوث من الذين أطلعهم الله على مكنون غيبه وكان تلميذه عبد الله بن المبارك يصحح عليه أحاديث السنّة مع أنه كان أمياً كما نقل ذلك في الإبريز اهـ.

وإذا قلنا أنه ولد ﷺ ليلاً فهل ليلة مولده ﷺ أفضل أم ليلة القدر؟ وأجيب: بأن ليلة مولده ﷺ أفضل من ليلة القدر من وجوه ثلاثة:

أحدها: أن ليلة مولده هي ليلة ظهوره رحمة لسائر الكائنات وليلة القدر معطاة له.

ثانيها: أن ليلة القدر شرّفت بنزول الملائكة فيها وليلة المولد شرّفت بظهوره ﷺ فيها.

الثالث: أن التفضيل في ليلة القدر للأمة المحمدية وليلة المولد الشريف التفضيل فيها له ﷺ على سائر الموجودات. فسبحان من جعل مولده للقلوب ربيعاً وحسنه بديعاً.

يقول لنا لسان الحال فيه، وقول الحق يعذب للسميع:

فوجهي والزمان وشهر وضعي ربيع في ربيع في ربيع

هو المقال في عجائب حمله ﷺ وولادته أسأل الله الكريم متوسلاً إليه بوجاهة وجه نبيه الكريم أن يتفضّل علينا بذرة من إقباله وبسطة من أفضاله، ويمتّعنا بالنظر إلى وجهه الكريم مع والدينا ومشايخنا وإخواننا ومن دعا لنا وكافة المسلمين.

وأما ما يتعلق بذكر غرائب رضاعه ﷺ وعجائب حضانته عند حليمة السعدية وشقّ صدره الشريف إذ ذاك، فقد أشار إلى ذلك إمام المحققين وبقية المجتهدين، الإمام السبكي قدس الله سره ونفعنا الله بعلومه في تائيته بقوله:

وفاز بنو سعد بسعد وإنما أضاعَ لهم عَرْقاً رضاع حليمة

فدرّ لها ثديٌ وأزبد شارف وكانت قديماً لا تبضُّ بقطرة

وكانت لها الأغنام تأتين حفلاً بطاناً وأغنامُ المراضع جَفت

قال شارحه الإمام المحلّى رضي الله عنه روى: أن آمنة لما ولدت رسول الله ﷺ ورأت من عجائب مولده ﷺ ما رأت قيل: استرضعيه في بني سعد بن بكر، وكانت من سنة رؤساء قريش أن نساءهن لا ترضعن أولادهن لشرفهم إنما يرضع لهن المراضع. فأول لبن نزل جوف النبي ﷺ لبن ثويبة مولاة أبي لهب أرضعته مع ابنها مسروح، ثم أرضعت معه عمه حمزة بن عبد المطلب وابن عمته أبا سلمة عبد الله بن عبد الأسد الأموي ثم التمست له المراضع وكانت تلك السنة سنة جدب ومحل، وقد خرج نسوة كثيرة من بني سعد لالتماس الرضعاء فأصابت كل امرأة رضيعاً إلاّ حليمة بنت عبد الله بن الحرث بن أبي ذؤيب من بني سعد بن بكر بن هوازن، فذكر لها رسول الله ﷺ وكان أبوه قد مات، فجعلت تقول: يتيم ولا مال له فما عسى أمه تفعل، وإنما تريد البرّ والمعروف، فقالت لزوجها الحارث بن عبد العزى بن رفاعة: ما ترى فلو أخذنا هذا اليتيم ولا نرجع بغير شيء، فقال: خذيه لعلّ الله تعالى أن يجعل لنا فيه خيراً، قالت: فجئت إلى أمه فإذا هي امرأة وضيئة كأن الكوكب الدرّي معصوب بأسارير وجهها فناولتني الولد ملفوفاً في صوف أبيض وريح المسك يفوح منه، فكشفت وجهه فتبسّم ضاحكاً وفتح عينيه فخرج منهما نور حتى دخل خلال السماء وأنا أنظر فبادرت فغطيت وجهه بردائي كي لا ترى أمّه ذلك، وقبّلت بين عينيه وعلمت أنه ميمون الطلعة مبارك الغرة فاحتملته إلى رحلي وكنت قد جئت على أتان قمراء ومعنا شارف عجفاء في سنة شهباء، فلما وضعته في حجري أقبل عليه ثدياي بما شاء من لبن فشرب أحدهما فلما روي عرضته على الثدي الآخر فأبى كأنه أحسّ أن معه شريكاً فتركه له.

قال بعض العلماء: جبله الله على العدل وفطره من أول فطرته على جميل المشاركة والفضل، وهذا يؤيد ما سبق من عصمة الله تعالى له من صغره إلى كبره لما سبق له من العناية والتوفيق ليكون صالحاً لما أزيد به من الكرامة بعموم الرسالة وكمال السيادة.

قالت حليمة: ثم شرب أخوه حتى روِيَ وناما وما كان ولدي ينام قبل ذلك وما كنا ننام معه من كثرة البكاء من الجوع، واسم الولد ضمرة، فقال أبوه: فأقبلت على شارفنا العجفاء انظر إليها فإذا هي قد تحفلت باللبن فحلبت منها ما كفانا بعد أن كانت ما تبض

بقطرة لبن فبتنا بخير ليلة شبعاً ورياً وراحة، فلما أصبحنا قالت حليمة: يقول صاحبي: والله يا حليمة لقد أخذت نسمة مباركة. ثم ركبت أتاني وحملته عليها معي فوالله لقد قطعت الركب تسبقهم وتعدو عليهم بعد أن كانت لا تستطيع النهوض فعادت لا يلحقها شيء من حميرهم حتى قيل لي: ويحك يا حليمة اربعي علينا أليست هذه أتانك التي جئت عليها، فأقول: بلى، فيقال: إن لها شأناً عظيماً. فأتينا بلاد بني سعد وما أعلم من أرض أجدب منها، فكانت غنمي تروح علينا شبعاً ولبناً ولا يجد غيرنا قطرة لبن في ضرع، فأقول: لقد أخذت والله خير مولود وأيمنه وأعظمه بركة. ولم نزل نتعرّف من الله الخير والزيادة حتى مضت سنتاه ففصلته فكان شبابه شباباً زكياً لا يشبه شباب الغلمان، ثم قدمنا به على أمه ونحن أحرص شيء على مكثه عندنا لبركته فقلت لأمه: لو تَركتِهِ عندنا حتى يغلظ فإني أخشى عليه من وباء مكة، ولم أزل بها حتى رجعنا به[1].

وروي: أنها لما رجعت به وقد أخبرتها أمه بصفة حمله وولادته وما شاهدته من العجائب، مرت بيهود فقالت لهم: ألا تخبروني عن ابني هذا، وأخبرتهم عن حمله وعجيب أحواله فقال بعضهم: اقتلوه هذا عدوّ بني إسرائيل الذي هلاكهم على يديه، ثم سألوها: أهو يتيم؟ فخافت عليه، فقالت: هذا أبوه وأنا أمه، فتركوه وقالوا: لو كان يتيماً لقتلناه. فذهبت به وقالت: إن كدْتُ لأخَرِّب أمانتي. وكانت له أخت من الرضاعة واسمها الشيماء، وكانت تحضنه مع أمها.

قال بعض العلماء: إنها أسلمت وهي التي أخذت في سبي هوازن عام حنين فقالت للمسلمين: أنا أخت صاحبكم من الرضاعة، فلم يصدقوها حتى أتوا بها إلى النبي ﷺ فأخبرته فقال: وما علامة ذلك؟ قالت: عضة عضضتها وأما متوركتك في وجهي، فعرف رسول الله ﷺ العلامة فبسط لها رداءه وأجلسها ثم أكرمها وأعطاها جارية وغلاماً اسمه مكحول، فيقال: إنها زوجتهما فبقي نسلهما فيهم، ويقال: إن حليمة قدمت على النبي ﷺ في زمن خديجة فشكت جدب البلاد ثم هلاك الماشية، فكلّم النبي ﷺ خديجة في أمرها فأعطتها أربعين شاة وبعيراً وغير ذلك، وعليه الأكثر.

قال الزرقاني: وقد ألّف الحافظ مغلطاي في إسلام حليمة جزءاً حافلاً سماه التحفة الجسيمة في إثبات إسلام حليمة، وارتضاه علماء عصره، وقد ذكرها في الصحابة ابن أبي خيثمة في تاريخه وابن عبد البر وابن الجوزي في الحداء، والمنذري في مختصر سنن أبي داود، وابن حجر في الإصابة وغيرهم، وحسبك بهم حجة.

قال في الاستيعاب: روى زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار قال: جاءت حليمة بنت عبد الله أم النبي ﷺ من الرضاعة إليه يوم حنين فقام إليها وبسط لها رداءه فجلسَت عليه،

---

(١) رواه ابن حبان (١٤/ ٢٤٥)، وابو يعلى في مسنده (١٣/ ٩٥، ٩٧).

وروت عن النبي ﷺ وروى عنها عبد الله بن جعفر قال في الإصابة: وحديث عبد الله بن جعفر عنها بقصّة إرضاعها أخرجه أبو يعلى وابن حبان في صحيحه وصرّح فيه بالتحديث بين عبد الله وحليمة اهـ.

ولمّا غنم النبي ﷺ غنائم حنين كان فيها من السبي ستة آلاف رأس ومن الإبل أربعة وعشرون ألفاً ومن الغنم أربعون ألف شاةٍ ومن الفضة أربعة آلاف أوقية كل أوقية أربعون درهماً، فلما قسم سباياهم وأموالهم أتاه عمه من الرضاعة يقال له: أبو نزوان، فقال: يا رسول الله إنما هذه الحظائر من كان يكفلك من عماتك وخالاتك وحواضنك وقد رأيتك مرضعاً فما رأيت رضيعاً خيراً منك ورأيتك فطيماً فما رأيت فطيماً خيراً منك ورأيتك شاباً وما رأيت شاباً خيراً منك وأنت والله خير المكفولين وقد تكاملت فيك خلال الخير وخصاله ونحن مع ذلك أهلك وعشيرتك فامنن علينا منَّ الله عليك فقال: إني والله قد استأنيت بكم حتى ظننت أنكم لا تقدمون، وكان قد انتظرهم بضعة عشر ليلة ليأتوا مسلمين ثم قال لهم: قد قسم السبي وجرت فيه السهمان وإن أحسن الحديث أصدقه وعندي من ترون من المسلمين فأبناؤكم ونساؤكم خيراً وأحب إليكم أم أموالكم، فقالوا: ما كنا نعدل بأحسابنا شيئاً، فرد علينا أبناءنا ونساءنا، وأنشد أبياتاً فقال منها:

امنن علينا رسول الله في كرم ... فإنك المرء نرجوه وندخر
امنن على بيضة قد عاقها قدر ... مفرّقٍ شملها في دهرها غير
إن لم تداركهم نعماء تنشرها ... يا أرجح الناس جلًّا حين مختبر
لا تجعلَنا كمن شالت نعامته ... واستبق منا فإنا معشر زهر
إنا لنشكر للنعماء إن كفرت ... وعندنا بعد هذا اليوم مدخر
فالبس العفو من قد كنت ترضعه ... من أمهاتك إن العفو ينتظر
واعف عفا اللّه عما أنت واهبه ... يوم القيامة إذ يهدي لك الظفر

فقال: أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم وسأسأل لكم الناس فإذا صليت الظهر فقولوا: إنا نستشفع بالمسلمين إلى رسول الله وبرسول الله إلى المسلمين فلما صلوا الظهر قاموا فقالوا ما أمرهم به رسول الله ﷺ فرد عليهم رسول الله ﷺ ما كان له ولبني عبد المطلب ورد عليهم المهاجرون ورد عليهم الأنصار وسأل سائل العرب فردوا ما كان بأيديهم إلا نفراً منهم فأمسكوا ما بأيديهم فعوضهم النبي ﷺ فيهم إبلاً إلى آخر ما هو مبسوط في غزوة حنين اهـ[1]. باختصار.

(١) رواه الطبراني في الكبير (٥/ ٢٧١)، وفي الأوسط (٥/ ٤٥)، وابن قانع في معجم الصحابة (١/ ٢٣٨).

وقول المحقق المحلى في صدر عبارته: فأول لبن نزل جوف النبي ﷺ لبن ثويبَة مولاة أبي لهب الخ، لعله بالنسبة لغير أمه ﷺ وقد أوصل بعضهم عدد مراضعه ﷺ إلى عشرة فراجعها إن شئت ولكن لا يخفاك ما فازت به حليمة من كثرة رضاعه وحضانته وتربيته عندهما.

وفي المواهب: وأرضعته ﷺ ثويبَة عتيقة أبي لهب، أعتقها حين بشرته بولادته عليه الصلاة والسلام. وقد رؤي أبو لهب بعد موته في النوم فقيل له: ما حالك؟ فقال: في النار إلاَّ أنه خفّف عني كل ليلة اثنين وامص من بين اصبعي هاتين ماء، وأشار برأس أصبعه، وإن ذلك بإعتاقي ثوبية عندما بشرّتني بولادة النبي ﷺ وبإرضاعها له.

قال ابن الجزري: فإذا كان هذا أبو لهب الكافر الذي نزل القرآن بذمّه جوزي في النار بفرحه ليلة مولد النبي ﷺ فما بال المسلم الموحد من أمّته عليه السلام الذي يسرّ بمولده ويبذل ما تصل إليه قدرته في محبته ﷺ، لعمري إنما يكون جزاؤه من الله الكريم أن يدخله بفضله العميم جنات النعيم، ولا زال أهل الإسلام يحتفلون بشهر مولده عليه السلام ويعملون الولائم ويتصدّقون في لياليه بأنواع الصدقات ويظهرون السرور ويزيدون في الميراث ويعتنون بقراءة مولده الكريم ويظهر عليهم من بركاته كل فضل عميم.

ومما جرب من خواصه أنه أمان في ذلك العام وبشرى عاجلة بنيل البغية والمرام، فرحم الله امرأً اتخذ ليالي شهر مولده المبارك أعياداً ليكون أشد علّة على من في قلبه مرض وأعيا داء.

ولقد أطنب ابن الحاج في المدخل في الإنكار على ما أحدث الناس من الأهواء والغناء بالآلات المحرمة عند عمل المولد الشريف، فالله تعالى يثيبه على قصده الجميل ويسلك بنا وبه سبيل السنّة فإنه حسبنا ونِعم الوكيل اهـ. فمن أشرق الله في سماء قلبه شموس الإيمان حداه حادي الشوق إلى الإقبال بكليته على الاعتناء بمولده الشريف وبذل ماله على قدر الإمكان في التوسعة بالطعام والشراب والصدقة على الفقراء وإظهار البشر فرحاً وسروراً بمولده ﷺ مع ترك كل ما يغضب الله سبحانه وتعالى فعمل المولد الشريف فرحاً وسروراً وإن كان بدعة لكنه اشتمل على محاسن.

قال الإمام الزرقاني في شرح المواهب: فمن تحرى المحاسن واجتنب ضدها كانت بدعة حسنة، ومن لا فلا.

قال الحافظ ابن حجر في جواب سؤال ظهر لي تخريجه على أصل ثابت وهو ما في الصحيحين: إن النبي ﷺ قدم المدينة فوجد اليهود يصومون يوم عاشوراء فسألهم فقالوا: هو يوم أغرق الله فيه فرعون ونجىٰ موسى ونحن نصومه شكراً[1]. قال: فيُستفاد

(١) رواه البخاري (٢/ ٦٧٠)، ومسلم (٢/ ٧٩٢).

منه فعل الشكر على ما منَّ به في يوم معين، وأيُّ نعمة أعظم من بروز نبي الرحمة. والشكر يحصل بأنواع العبادة كالسجود والصيام والصدقة والتِّلاوة. وسبقه إلى ذلك الحافظ ابن رجب اهـ.

قال النجم الغيطي: ومن البدع الحسنة القيام عند ذكر وضعه الشريف إجلالاً له ﷺ حال قراءة المولد، وقد حصل ذلك من الإمام السبكي بحضرة جمع من أفاضل العلماء الأعلام وكفى به حجة.

وقد نقل عن الملك المظفر من التوسعة في ذلك والاعتناء به ما فيه بلاغ والله أعلم.

ثم قال المحقق السبكي رضي الله عنه في شقّ صدره الشريف ﷺ:

وجاءتك أملاك السماء بأرضها فأخرجت القلب الكريم وشقّت

وعنه أزاحت ما أزاحته وانثنت وقد ملأته كل علم وحكمة

قال شارحه الإمام المحلى رضي الله عنه: روي أن أبا هريرة رضي الله عنه سأل النبي ﷺ: ما أول ما رأيت من النبوّة؟ فاستوى جالساً وقال: «بينا أنا في ضحوة وإذا رجل من فوق رأسي يقول لآخر هو هو فاستقبلا بوجوه لم أرها على أحد فانطلقا يمشيان حتى أخذ كل منهما بعضدي لا أجد لأخذهما مسّاً، فأضجعاني بلا قسر ولا قهر فقال أحدهما: افلق الصدر، ففلقه فيما أرى بلا دم ولا وجع، فقال له: اخرج الغلّ والحسد، فأخرج شيئاً شبيهاً بالعلقة فطرحها، فقال: ادخل الرأفة والرحمة، فإذا مثل الذي أخرج شبيه الفضة ثم هزّ إبهام رجلي اليمنى وقال: أُغْدُ واسْلَم. فرجعت بها أغدو رأفة على الصغير ورحمة على الكبير»[1].

وفي رواية خالد بن معدان: أن نفراً قالوا: أخبرنا يا رسول الله عن نفسك، قال: «نعم، بينا أنا مع أخ لي من بني سعد بن بكر خلف بيوتنا نرعى بَهْماً لنا إذ جاءني رجلان ـ وفي رواية ثلاثة رجال ـ بطست من ذهب مملوء ثلجاً، فشقا بطني من نحري».

قال في غير هذه الرواية: «فاستخرجا قلبي فشقاه واستخرجا منه علقة سوداء فقالا: هذا حظ الشيطان منك، ثم غسلا قلبي وبطني بذلك الثلج حتى أنقياه، ثم تناول أحدهما شيئاً فإذا بخاتم في يده من نور يحار الناظر فيه أو دونه فختم به قلبي فامتلأ إيماناً وحكمة وأعاده مكانه وأمرّ الآخر يده على مفرق صدري فالتأم وإني لأجد برد الخاتم في عروقي».

(١) رواه الطبراني كما في مجمع الزوائد للهيثمي (٨/ ٢٢٢)، وقال: وفيه رشدين بن سعد، وضعفه الجمهور وبعضه في الصحيح.

وفي رواية: «فقال جبريل قلب وكيع - أي شديد - فيه عينان تنظران وأذنان تسمعان. ثم قال لأحدهما: زنه بألف من أمّته، فوزنني فرجحتهم، فقال: دعه فلو وزنته بجميع أمّته لرجحها. ثم ضموني إلى صدورهم وقبّلوا بين عيني وقالوا: يا حبيب الله لن تُراع أنك لو تدري ما يراد بك لقرت عيناك ما أكرمك على الله إن الله وملائكته معك».

وقيل: إن أخاه ضمرة لما رأى الملائكة أضجعته ذهب إلى أمه فأخبرها فأتت في نفر تلتمسه فوجدته مقبلاً قد انْتُقِعَ لونه فسألته فأخبرها ببعض الأمر وكان ابن أربع سنين، فقيل لها: سلي الكهان عن أمره، فذهبت به لكاهن من هذيل فأخبرته بأحواله فقال للعرب: إن هذا هو الذي يغيّر دينكم ويسفه أحلامكم ويقتل رجالكم، اقتلوا هذا الصبي. فاختطفته حليمة فغيّبته فجعل الهذلي يقول: اقتلوا هذا الصبي ويلكم. ولا يراه أحد، فذهب الله بأبصارهم عنه ولم يزل الهذلي يصيح حتى ذهب عقله وهلك.

قال في المواهب: قالت حليمة: فلما فصلته قدمنا به إلى أمّه ونحن أحرص شيء على مكثه فينا لما نرى من بركته، فكلمنا أمه وقلنا: لو تركتِهِ عندنا حتى يغلظ فإنّا نخشى عليه وباء مكة. ولم نزل بها حتى ردته معنا فرجعنا به، فوالله إنه بعد مقدمنا بشهرين أو ثلاثة مع أخيه من الرضاعة لفي بَهْم لنا خلف بيوتنا جاء أخوه يشتد فقال: ذلك أخي القرشي قد جاءه رجلان عليهما ثيابٌ بيض فأضجعاه وشقّا بطنه. فخرجت أنا وأبوه نشتد نحوه فنجده قائماً مُنْتَقِعاً لونه، فاعتنقه أبوه وقال: أي بني ما شأنك؟ فقال: جاء رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعاني فشقّا بطني ثم استخرجا منه شيئاً فطرحاه ثم رداه كما كان. فرجعنا به معنا، فقال أبوه: يا حليمة لقد خشيت أن يكون ابني قد أُصيب فانطلقي نرده إلى أهله قبل أن يظهر به ما نتخوف. قالت حليمة: فاحتملناه حتى قدمنا به إلى أمه فقالت: ما ردكما به فقد كنتما حريصين عليه، قلنا: نخشى عليه الإتلاف والأحداث، فقالت: ما ذاك بكما فاصدقاني شأنكما، فلم تدعنا حتى أخبرناها خبره. فقالت: أخشيتما عليه الشيطان، كلا والله ما للشيطان عليه سبيل وإنه لكائن لابني هذا شأن فدعاه عنكما اهـ.

ثم قال: وقد وقع شق صدره الشريف مرة أخرى عند مجيء جبريل بالوحي في غار حراء ومرة أخرى عند الإسراء، وسيأتي كل في موضعه إن شاء الله تعالى.

ورَوَى الشقّ أيضاً، وهو ابن عشر أو نحوها مع قصة له مع عبد المطلب أبو نعيم في الدلائل، وروى خامسة ولا تثبت اهـ والله أعلم[١].

---

(١) روى حادثة شق الصدر البخاري (١/ ١٣٥)، (٢/ ٥٨٩)، ومسلم (١/ ١٤٨، ١٥٠)، والترمذي (٥/ ٤٤٢)، والنسائي (١/ ٢١٧)، وأحمد في المسند (٤/ ٢٠٧)، (٥/ ١٢٢، ١٤٣)، والطبراني في الكبير (١٩/ ٢٧١)، وابن سعد في الطبقات الكبرى (١/ ١٥٠)، وأبو القاسم الأصبهاني في دلائل النبوة (١/ ٣٢)، والطبري في التاريخ (١/ ٤٥٨)، والفاكهي في أخبار مكة (٢/ ٢٤، ٢٥).

وقد انتهى القول في عجائب رضاعه ﷺ وحضانته وشقّ صدره الشريف. أسأل الله العظيم ربّ العرش الكريم أن يمتّعنا بالنظر إلى وجهه الكريم ويجمع بيننا وبينه ﷺ في دار النعيم مع والدينا ومشايخنا وأحبابنا وجميع المسلمين.

وأمّا ما يتعلق بوفاة والدته ﷺ وما يجب اعتقاده من الاحترام وكمال الأدب في نجاة والديه ﷺ من الأحاديث النبوية الواردة في إحيائهما والإيمان به خصوصية وتكريماً له ﷺ والقواعد الأشعرية والأصولية في نجاة أهل الفترة عموماً ولو غيروا وبدلوا وعبدوا الأوثان كما حققه الإمام السبكي وغيره من الأئمة الأعلام وذكر ما حصل من الإرهاص قبل النبوّة من أخبار أحبار اليهود بنبوّته ﷺ لا سيما أخبار بَحِيرًا الراهب حين سافر ﷺ مع عمه أبي طالب إلى الشام عند بلوغه اثنتي عشرة سنة، وكذلك أخبار نَسْطُورَ الميسرة ومن معه في السفرة الثانية وذلك عند بلوغ عمره الشريف خمساً وعشرين سنة وما مع ذلك من تظليل الغمام وتسليم الأحجار والأشجار عليه ﷺ.

فقد قال الإمام القسطلاني في المواهب: ولما بلغ رسول الله ﷺ أربع سنين قال الشارح الزرقاني: وهو الذي صدر به الحافظ العراقي ومغلطاي، وقيل: ستاً، وجزم ابن إسحٰق واقتصر عليه الحافظ ـ يعني ابن حجر ـ ويشهد له ما أخرجه ابن سعد عن ابن عباس وعن الزهري وعن عاصم بن عمر وأبي قتادة دخل حديث بعضهم في بعض قالوا: لما بلغ رسول الله ﷺ ست سنين خرجت به أمه إلى أخواله بني عدي بن النجار بالمدينة تزورهم ومعه أم أيمن، فنزلت به دار التابعة أي بمثناة فوقية فألف بعدها موحدة، رجل من بني عدي ابن النجار فأقامت به عندهم شهراً فكان ﷺ يذكر أموراً كانت في مقامه ذلك، ونظر إلى الدار فقال: هٰهنا نزلت بي أمي وأحسنت العوم في بئر بني عدي بن النجار، وكان قوم من اليهود يختلفون ينظرون إليّ. فقالت أم أيمن: فسمعت أحدهم يقول: هو نبيّ هذه الأمة وهذه دار هجرته، فوعيت ذلك كله من كلامهم.

ثم رجعت به أمه إلى مكة، فلما كانت بالأبواء توفيت، وقيل: خمساً أي تقريباً، فلا ينافي ما قبله ويشهد له ما روى أبو نعيم من طريق الزهري عن أسماء بنت أبي رُهم عن أمها قالت: شهدت آمنة أم النبي ﷺ في علتها التي ماتت بها ومحمد ﷺ غلام يَفَعٌ ـ بفتح الفاء كما في القاموس ـ أي مرتفع له خمس سنين عند رأسها فنظرت أمه إلى وجهه ثم قالت:

بارك فيك الله من غلام ... يا ابن الذي من حَوْمَةِ الحِمَام
نجا بعون الملك العلاَّم ... فُودِي غداة الضرب بالسهام
بمائة من إبل سوام ... إن صح ما أبصرت في المنام
فأنت مبعوث إلى الأنام ... من عند ذي الجلال والإكرام

تُبعث في الحل وفي الحرام تُبعث في التحقيق والإسلام
دين أبيك البرّ إبراهامِ فاللَّه أنْهَاك عن الأصنام
أن لا تواليها مع الأقوام

ثم قالت: كل حيّ ميت وكل جديد بال وكل كبير يفنى وأنا ميتة وذكري باق، وقد تركت خيراً، وولدت طُهراً. ثم ماتت رضي الله عنها.

قال الإمام الزرقاني: وهذا القول منها صريح في أنها موحدة إذ ذكرت دين إبراهيم وبعث ابنها ﷺ بالإسلام من عند الله ونهيه عن الأصنام وموالاتها. وهل التوحيد شيء غير هذا التوحيد الاعتراف بالله وإلهيته وأنه لا شريك له والبراءة من عبادة الأصنام ونحوها، وهذا القدر كاف في التبري من الكفر وثبوت صفة التوحيد في الجاهلية قبل البعثة وإنما يشترط قدر زائد على هذا بعد البعثة اهـ باختصار.

٥ وأما إيمان أبويه ﷺ فقد قال في المواهب: وقد روي أن آمنة آمنت به ﷺ بعد موتها، فروى الطبري بسنده عن عائشة أن النبي ﷺ نزل الحجون كئيباً حزيناً فأقام به ما شاء الله عز وجل، ثم رجع مسروراً، قال: «سألت ربي عز وجل فأحيا لي أمي فآمنت بي ثم ردّها»[١]. ورواه أبو حفص بن شاهين في كتاب الناسخ والمنسوخ له بلفظ: قالت عائشة: حج بنا رسول الله ﷺ حجة الوداع، فمر بي على عقبة الحجون وهو باك حزين مغتم، فبكيت لبكائه ثم إنه نزل فقال: «يا حميراء استمسكي» فاستندت إلى جنب البعير فمكث ملياً ثم عاد إليّ وهو فرح متبسم فقال: «ذهبت إلى قبر أمي فسألت ربي أن يحييها لي فأحياها فآمنت بي وردها الله».

وكذا روي من حديث عائشة أيضاً إحياء أبويه ﷺ حتى آمنا به. أورده السهيلي وكذا الخطيب في السابق واللاحق. وقوله في صدر الحديث السابق: نزل الحجون كئيباً الخ، يفيد بظاهره أنها دفنت هناك كما صرّح به في بعض الروايات. قال بعض الحفاظ: ولعلها نقلت إلى ذلك المكان بعد دفنها بالأبواء جمعاً بين الروايات.

وقد جزم جمع من الأئمة والحفاظ بأن الله أحيا أبويه ﷺ حتى آمنا به تكرمة وخصوصية لجنابه الشريف. وقد ألّف في ذلك خاتمة الحفاظ السيوطي نحو ست مؤلفات منها سبل النجاة، فشكر الله مسعاه وما أحسن ما قاله الإمام الكبير الجليل القرطبي في ذلك رداً على من زعم خلافه متمسكاً بظواهر أحاديث يجب تأويلها أو الحكم بنسخها فإن ذلك كثير واقع في السنة مع صحة الحديث أو حسنه»[٢].

---

(١) رواه الفاكهي في أخبار مكة (٤/ ٣٠).
(٢) انظر في زيارة النبي ﷺ قبر أمه: مصنف ابن أبي شيبة (٣/ ٢٩)، وعبد الرزاق (٣/ ٥٧٢)، والمعجم =

قال في المواهب وتعقبه ـ أي كلام ابن دحية ـ القرطبي في التذكرة بأن فضائله ﷺ وخصائصه لم تزل تتوالى وتتتابع إلى حين مماته، فيكون هذا مما فضّله به وأكرمه. قال: وليس إحياؤهما وإيمانهما بممتنع عقلاً ولا شرعاً، فقد ورد في الكتاب العزيز إحياء قتيل بني إسرائيل وإخباره بقاتله، وكان عيسى عليه السلام يحيي الموتى، وكذا نبينا ﷺ أحيا الله على يده جماعة من الموتى، فإذا ثبت هذا فلا يمتنع إيمانهما بعد إحيائهما ويكون ذلك زيادة في كرامته وفضيلته اهـ.

ولا شك أن الإيمان بعد الإحياء من الموت نافع خلافاً لما زعم خلاف ذلك، ألا ترى أن الله ردّ الشمس على نبيه ﷺ بعد مغيبها، كما ذكره الإمام الطحاوي وقال: إنه حديث ثابت، أي صحيح أو حسن، فلو لم يكن رجوع الشمس نافعاً في أن الصلاة تكون أداء وأنه لا يتجدد الوقت بل استمر عدم تجدده لما ردّها عليه فكذلك يكون إحياء أبويّ النبي ﷺ نافعاً لإيمانهما وتصديقهما النبي ﷺ.

قال السيوطي في التعظيم والمنة: وقد ظفرت باستدلال أوضح من هذا وهو ما ورد أن أصحاب الكهف يبعثون آخر الزمان ويحجّون ويكونون من هذه الأمة تشريفاً لهم بذلك.

وروى ابن مردُويْه عن ابن عباس مرفوعاً: أصحاب الكهف أعوان المهدي، فقد اعتد بما يفعله أهل الكهف بعد إحيائهم عن الموت ولا بدع في أن يكون الله تعالى كتب لأبوي النبي ﷺ عمراً ثم قبضهما قبل استيفائه ثم أعادهما لاستيفاء تلك اللحظة الباقية وآمنا فيها، فيعتدّ به ويكون تأخير اللحظة الباقية بالمدة الفاصلة بينهما لاستدراك الإيمان من جملة ما أكرم الله به نبيه ﷺ كما أن تأخير أصحاب الكهف هذه المدة من جملة ما أكرموا به ليحوزوا شرف الدخول في هذه الأمة اهـ من المواهب وشرحه. فمن أشرق الله في سماء قلبه شموس الإيمان لا يحول عن الاعتقاد والإيمان بنجاة أبويه ﷺ وإن الله أحياهما وآمنا به ﷺ فقد صح الحديث في ذلك عند أهل الكشف والحقيقة، ولله در بعض الأئمة حيث قال:

أيقنت أن أبا النبي وأمه ... أحياهما الربّ الكريم الباري
حتى له شهدا بصدق رسالة ... صدق فتلك كرامة المختار
هذا الحديث ومن يقول بضعفه ... فهو الضعيف عن الحقيقة عار

وعلى تسليم عدم الإحياء فقد أطبقت الأئمة الأشاعرة من أهل الأصول والشافعية

= الكبير (٥/ ٨٢)، (١١/ ٣٧٤)، وناسخ الحديث ومنسوخه لابن شاهين (ص ٤٨٨)، وأخبار مكة للفاكهي (٤/ ٥٦، ٥٧).

والمالكية وغيرهم من أئمة الفقهاء رضي الله عنهم أجمعين على أن من مات ولم تبلغه الدعوة يكون ناجياً ويدخل الجنة.

قال السيوطي: وهذا مذهب لا خلاف فيه بين الشافعية، أي والمالكية في الفقه والأشاعرة في الأصول. ونص على ذلك الشافعي في الأمّ والمختصر وتبعه سائر الأصحاب فلم يشر منهم أحد لخلاف واستدلوا على ذلك بعدّة آيات، منها: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: الآية ١٥] وهي مسألة فقهية مقررة في كتب الفقه وهي فرع من فروع قاعدة أصولية متفق عليها بين الأشاعرة كما هو معروف في كتب الكلام والأصول اهـ مختصراً من شرح المواهب.

قلت: وقد ذكر المحقق شيخ الإسلام زكريا الأنصاري في حاشيته على البيضاوي مضمون ذلك قال: وما ورد من تعذيب بعض أهل الفترة كعمرو بن لحيّ وحاتم الطائي وامرىء القيس، فهي أحاديث آحاد لا تعارض النص القرآني، وقد حقق الإمام الأبي السبكي وغيرهما من أئمة التحقيق أن أهل الفترة ناجون وإن غيروا أو بدلوا وعبدوا الأوثان خلافاً لمن قال بتعذيب من وقع منه الإشراك والكفر منهم.

وفي كتابنا إرشاد المريد تلخيص التحقيق في هذه المسألة ونصه: ويشترط في التكليف بلوغ دعوة رسول خاص وهو الذي يكون المكلف من أمته. فأهل الفترة وهم من وجدوا في الزمن الأول بين رسولين من غير إدراك لها ناجون ولو غيروا وبدلوا وعبدوا الأصنام لقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: الآية ١٥] وذلك لانقطاع بعثة كل رسول بموته أو رفعه كعيسى لعدم عموم البعثة لغير نبينا هذا هو الصحيح عند بعضهم.

قال العلامة الأمير: ولا بد على التحقيق من أن يكون الرسول لهم كما نقله الملّوي عن الأبي في شرح مسلم خلافاً للنووي فالعرب القدماء الذين أدركوا عيسى من أهل الفترة على المعتمد لأنه لم يرسل لهم وإنما أرسل لبني إسرائيل ومن كان صبياً وقت موت الرسل بحيث نشأ وبلغ بعد تغيير الإنجيل، أي لم يبلغه الشرع الصحيح بالغاً، فهو من أهل الفترة ولو كان من طائفة المرسل إليهم لا إن بلغه الشرع الصحيح ولو بعد موت ذلك الرسول.

قال العلامة الملوي: بناء على عدم انقطاع البعثة بالموت فيكون التعويل على بلوغ الشرع الصحيح قبل التغيير وعدم بلوغه. وقوّاه بعضهم.

وإذا علمت نجاة أهل الفترة عموماً على المعتمد، فأولى والديه ﷺ فإنه لا يحلّ إلاّ في شريف عند الله، وأما آزر فكان عماً لإبراهيم لا أباً له وسمّاه الله أباً له على عادة العرب من تسمية العم أباً، ويرحم الله البوصيري حيث قال:

لم تزل في ضمائر الكون تختا ... ر لك الأمهات والآباء

اهـ. وفي الزرقاني: وقد كان أبواه ﷺ على الحنيفية والتوحيد لم يتقدم لهما شرك كما قطع به الإمام السنوسي والتلمساني محشى الشفاء قال: فهذا ما وقفنا عليه من نصوص علمائنا ولم نر لغيرهم ما يخالفه إلا ما يشم من نفس ابن دحية وقد تكفل برده الإمام القرطبي.

قال في المواهب: ولقد أطنب بعض العلماء في الاستدلال لإيمانهما، فالله يثيبه على قصده الجميل.

قال العلاَّمة الزرقاني: ولعل المصدر قصد بذلك الإمام السيوطي، أي فإنه ألّف في ذلك ست مؤلفات حافلة اهـ.

وقد انتقلت أمّه ﷺ إلى دار الكرامة والرضوان وعمره ست سنين كما سبق، فحضنته أم أيمن بركة الحبشية التي ورثها من أبيه، وحملته إلى جده عبد المطلب بمكة فكفله إلى تمام ثمان سنين ثم مرض مرض الموت ومات حينئذ وكان قد أوصى إلى عمه أبي طالب لفخامته وكونه شقيق أبيه، فافتخر بشرف كفالته وتربيته وكان يرى منه الخير والبركة كشبع عياله إذا أكل ﷺ معهم وعدم شبعهم إذا لم يأكل معهم.

قال في المواهب: وقد أخرج ابن عساكر عن جُلْهمَة ـ بضم الجيم وتفتح ـ ابن عُرْفُطة قال: قدمت مكة وهم في قحط فقالت قريش: يا أبا طالب أقحط الوادي واجدب العيال فهلم فاستسق. فخرج أبو طالب ومعه غلام، أي وهو النبي ﷺ كأنه شمس دجن أي بضم الدال والجيم وشد النون كعثُل الغيم المطبق تجلت عنه سحابة قتماء أي بفتح القاف وسكون الفوقية والمد سحابة يعلوها سواد غير شديد وحوله أغَيْلِمَة فأخذه أبو طالب فألصق ظهره بالكعبة ولاذ الغلام باصبعه ـ أي السبابة ـ أي أشار به إلى السماء كالمتضرع المبتهل وما في السماء قزعة ـ بفتح القاف والزاي والعين ـ قطعة من السحاب، فأقبل السحاب من هٰهنا وهٰهنا وأغدق وأغدودق وانفجر له الوادي وأخصب النادي والبادي، وفي هذا يقول أبو طالب:

وابيض يستسقي الغمام بوجهه ... ثمال اليتامى عصمة للأرامل

يلوذ به الهُلاّك من آل هاشم ... وهم عنده في نعمة وفواضل

والثمال ـ بكسر المثلثة ـ الملجأ والغياث، وقيل: المطعم في الشدة وعصمة للأرامل بمنعهم من الضياع والحاجة والأرامل المساكين من رجال ونساء، وهذان البيتان من قصيدة لأبي طالب ذكرها ابن إسحٰق بطولها وهي أكثر من ثمانين بيتاً قالها لما

تمالأت قريش على النبي ﷺ ونَفَّرُوا عنه من يريد الإسلام، وأولها[1]:

لما رأيت القوم لا وُدّ عندهم	وقد قطعوا كلّ العُرى والوسائل
وقد جاهرونا بالعداوة والأذى	وقد طاوعوا أمْر العَدُوِّ المزايلِ
اعبْدَ مَنافٍ أنتُمْ خير قومكم	فلا تشركوا في أمركم كلّ واغل
فقد خفت إن لم يصلح اللّه أمركم	تكونوا كما كانت أحاديث وائل
أعوذ بربّ الناس من كل طاعن	علينا بسوء أو ملح بباطل
وثور ومن أرسى ثبيراً مكانه	ورَاقٍ لبرٍّ في حراءٍ ونازل
وبالبيت حقّ البيتِ في بطن مكة	وباللّه إن اللّه ليس بعاقل
كذبتم وبيت اللّه نُبزي محمّداً	ولما نطاعن دونه ونناضِلِ
ونسلمْهُ حتى نصرّع حوله	ونذهل عن أبنائنا والحلائل

ومعنى نناضل: نجادل ونخاصم وندافع.

قال ابن التين: إن في شعر أبي طالب هذا دليلاً على أنه كان يعرف نبوّة النبي ﷺ قبل البعثة لما أخبره به بحِيرًا وغيره من شأنه اهـ باختصار.

وقد كان أعمامه ﷺ عشرة، وقيل: اثني عشر، اثنان منهما مسلمان بالإجماع وهما: حمزة والعباس رضي الله عنهما، وواحد فيه خلاف في إدراكه البعثة وعدمه. وحال أبي لهب من بينهم معلوم وباقيهم من أهل الفترة.

وأما أبو طالب فقد صح عند أهل الكشف والحقيقة أنه ناج وأن الله أحياه وآمن به ﷺ وقد صح عن العارف بالله تعالى سيدي عبد الوهاب الشعراني رضي الله عنه أنه قال: أنا ندين الله تعالى ونلقاه على ذلك وكفى به حجة، وقلب المؤمن العامر بالتوحيد لا يقبل غير ذلك فإن من أحب قوماً حشر معهم كما هو صريح الحديث الصحيح أنه ﷺ قال: «إنك مع من أحببت» لمن قال: أعددت لها، أي للساعة، حب الله ورسوله وهو حديث الصحيحين ولا يخفى ما بلغه أبو طالب من فرط محبته لرسول الله ﷺ وحياطته عليه السلام له بنفسه وعشيرته ومنعه ممن يريد إيذاءه من كفار قريش ومناضلته عنه ﷺ وكل ذلك كما هو المأمول في جانب الكرم المناسب لجلالته وعظمته ﷺ عند ربّه لا جزاء له إلاّ النجاة والفوز بالسعادة الأبدية، أماتنا الله على حبه ﷺ وحبّ آل بيته ومحبيه أجمعين.

وأمّا والده ﷺ عبد الله، فقد كان أصغر إخوته، وهو الذبيح، وقصته في ذلك كما

---

(١) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ١٠٨).

في المواهب: أن عبد المطلب لما أمر بحفر زمزم نذر لله إن سهل الأمر بها أن ينحر بعض ولده. فأخرجهم فأسهم بينهم، فخرج السهم على عبد الله، فأراد ذبحه فمنعه أخواله من بني مخزوم وقالوا: ارْض ربك وافد ابنك. ففداه بمائة ناقة. فهو الذبيح الأول وإسماعيل الذبيحُ الثاني، والخلاف في أن الذبيح إسماعيل أو إسحق مشهور وقد أجرى الله العادة البشرية أن بكر الأولاد يكون أحب إلى الوالد ممن بعده، وإبراهيم لما سأل ربّه الولد ووهبه له تعلّقت شعبة من قلبه بمحبته، والله تعالى قد اتخذه خليلاً والخلة منصب يقتضي توحيد المحبوب بالمحبّة وأن لا يشارك فيها، فلما أخذ الولد شعبة من قلب الوالد جاءت غيرة الخلة تنزعها من قلب الخليل فأمر بذبح المحبوب، فلما قدم على ذبحه وكانت محبّة الله أعظم عنده من محبّة الولد خلصَت الخلة حينئذ من شوائب المشاركة فلم يبق في الذبح مصلحة إذ كانت المصلحة إنما هي في العزم وتوطين النفس. وقد حصل المقصود فنسخ الأمر وفدى الذبيح وصدق الخليل الرؤيا. وأنشد بعضهم:

إن الذبيح هديت إسماعيل نطق الكتاب بذاك والتنزيل

شرف به خصّ الإله نبينا وأبانه التفسير والتأويل

فانظر أيها الخليل ما في هذه القصة من السر الجليل، وهو أن الله تعالى يري عباده الجبر بعد الكسر، واللطف بعد الشدة، فإنه كان عاقبة صبر هاجر وابنها على البعد والوحدة والقربة والتسليم بذبح الولد أن آلت إلى ما آلت إليه من جعل آثارهما ومواطىء أقدامهما مناسك لعبادة المؤمنين ومتعبدات لهم إلى يوم القيامة، وهذه سنة الله فيمن يريد رفعته من خلقه بعد استضعافه وذلّه وانكساره وصبره وتلقيه القضاء بالرضا فضلاً منه قال الله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ۝ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ [القصص: الآيتان ٥، ٦] ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ۝﴾ [الحديد: الآية: ٢١] اهـ. أسأل الله الكريم متوسّلاً إليه بوجاهة وجه نبيه العظيم أن يتفضّل علينا بالنظر إلى وجهه الكريم والسعادة الأبدية التي لا يلحقها زوال ونحظى بالقرب من سيد الأنام عليه وعلى آله وأصحابه وأحبابه أفضل الصلاة والسلام.

ولما بلغ ﷺ من العمر اثنتي عشرة سنة وهو في كفالة عمه أبي طالب سافر معه إلى الشام، وأبصر أبو طالب من مبادي التشريفات وأخبار بحيرا له بأنه سيد العالمين من أهل الأرض والسماوات، وتظليل الغمام والتفاف أغصان الشجر عليه حين أظلّه من الشمس، وتسليم الحجر والشجر عليه ﷺ وغير ذلك من الغرائب التي تبهر العقول. وقد أشار إلى بعض ذلك الإمام الجليل بقية المجتهدين العلامة السبكي في تائيته بقوله: ٥

وأبصر في بصرى بحيرًا غمامة عليه استوت دون الورى وأظلّت

وشاهد أغصاناً عليك تهصّرت فسُرّ بأوصاف إليك قديمة

قال شارحها الإمام المحلّى يشير إلى قصة بحَيرا وأنه لما شاهد من الصفات المذكورة في الكتب القديمة سرّ لما رآها مطابقة موافقة لها، ويحتمل أن يكون سروره ببلوغ ما تمناه من إدراك رسالته ليتبعه فيفوز بالشرف المرتب على تصديقه والانتظام في سلك السابقين من خواص أمّته لعلمه بذلك في الكتب القديمة.

وأصل قصة بحيرا الراهب المذكورة مذكور في الكتب المعتبرة، وملخصها: أن أبا طالب قصد سفر تجارة للشام في ركب من قريش فتعلّق به رسول الله ﷺ وكان سنه على ما ذكر اثنتي عشرة سنة، وكان هو الذي يكفله لأنه شقيق أبيه عبد الله، فصحبه معه، فلما نزلوا بصرى قريباً من الشام كان هناك صومعة لم يزل فيها راهب يكون أعلم أهل دينه عن كتب يتوارثها كابر عن كابر عن أوصياء عيسى عليه السلام، وفي تلك المدة انتهى العلم إلى بحيرا، وكان لا يكلم أحداً، فلما أقبلوا رأى غمامة تظل رسول الله ﷺ دون القوم، ثم نزلوا إلى شجرة فمالت أغصانها إليه تظلّه والغمامة من فوق الشجرة، فصنع طعاماً كثيراً ودعاهم وقال: أحب أن لا يتخلّف عن طعامي كبير ولا صغير وهذا شيء تكرموني به، فتعجبوا وأقبلوا ولم يتخلّف غير النبي ﷺ لحداثة سنه، فنظر بحيرا فلم ير الصفة ولا العلامة، وهي الغمامة، فقال: هل تخلّف أحد منكم؟ قالوا: غلام هو أحدثنا سناً، فقال: ادعوه. فأحضروه فجلس على الطعام والغمامة على رأسه يراها من له بصيرة، ثم جعل بحيرا يرمقه كثيراً وينظر إلى أشياء فيه يجدها عنده من صفته، حتى إذا تفرّق الناس خلا به ليمتحنه فقال له: أنا أسألك باللات والعزى، فقال رسول الله ﷺ: لا تسألني بهما فما أبغضت شيئاً كبغضي لهما، فسأله عن أشياء من أموره وهو يخبره عنها فيوافق ما عنده، ثم سأله أن يريه كتفيه فرأى خاتم النبوّة في موضعه فقبّله ثم قال لأبي طالب: ما هذا منك؟ قال: هذا ابني، قال: هذا لا ينبغي أن يكون أبوه حيّاً.

قيل: الحكمة في أنه عاش يتيماً لئلا تجب عليه طاعة لغير الله ولا يتوجه عليه حق لمخلوق ولا ينسب إلى مخالفة ولا قطيعة ولا عقوق، فقال: ابن أخي، قال: صدقت ارجع إلى بلدك واحذر عليه اليهود فإنهم إن عرفوا منه الذي عرفته ليُتْبِعنَّه شرّاً فإنه كائن لابن أخيك شأن عظيم. فقالت قريش في أنفسها: إن لمحمد هذا عند الراهب لحظاً عظيماً حيث خلا به يحدثه.

وقيل: إن نفراً ثلاثة، وهم من أهل الكتاب، وهم زريرة وثمامة ودرِيس، أرادوا به كيداً فردهم عن ذلك بحيرا وأخبرهم أنهم لا يقدرون على ذلك ولا يخلصون إليه بمكروه لأن صفته ثابتة في الكتب السابقة وأنه سيعلو قدره ويظهر أمره، فرجعوا عما أرادوه ثم رجع به عمه إلى مكة سالماً. فهذه السفرة الأولى.

وحكى ابن سيد الناس أن في طفولته كانت حليمة لا تدعه أن يذهب مكاناً بعيداً،

فغفلت عنه يوماً في الظهيرة فخرجت تطلبه حتى وجدته مع أخته فقالت أخته: يا أماه ما وجد أخي حراً رأيت غمامة تظلّل عليه إذا وقف وقفت وإذا سار سارت حتى انتهى إلى هذا الموضع. فتقول أمها: أحقاً يا بنية، قالت: نعم والله، فقالت: أعوذ بالله من شر ما يحذر على ابني اهـ ببعض اختصار.

وفي المواهب وشرحه من رواية الترمذي والبيهقي في الدلائل وابن أبي شيبة[1] عن أبي موسى قال: خرج أبو طالب إلى الشام ومعه النبي ﷺ في أشياخ من قريش، فلما أشرفوا على الراهب ـ يعني بحيرا، واسمه جرجيس بياء بعد الجيم الثانية كما في رواية ابن إسحٰق أو جرجس بدون ياء كما عند غيره ـ هبطوا فحلّوا رحالهم فخرج إليهم وكان قبل ذلك يمرون به فلا يخرج إليهم ولا يلتفت، قال: فنزل وهم يحلون رحالهم فجعل يتخللهم حتى جاء فأخذ بيد رسول الله ﷺ فقال: هذا سيد المرسلين، هذا سيد العالمين، هذا يبعثه الله رحمة للعالمين. فقال له الأشياخ وما علمك بذلك؟ قال: إنكم حين أشرفتم من العقبة لم يبق شجر ولا حجر إلاّ خرَّ ساجداً ولا يسجدان إلاّ لنبي، وإني أعرفه بخاتم النبوّة في أسفل من غضروف كتفه مثل التفاحة، وإنا نجده في كتبنا. وسأل أبا طالب أن يرده خائفاً عليه من اليهود.

وخرَّج الترمذي وحسنه والحاكم وصححه أن في هذه السفرة أقبل سبعة من الروم يقصدون قتله عليه الصلاة والسلام، ولفظه بعد قوله السابق: فأقبل وعليه غمامة تظله، فلما دنا من القوم وجدهم قد سبقوه إلى فيء الشجرة، فلما جلس مال فيء الشجرة عليه فقال ـ أي بحيرا ـ: انظروا إلى فيء الشجرة مال عليه. قال: فبينما هو قائم عليهم وهو يناشدهم أن لا يذهبوا به إلى الروم فإن الروم إن عرفوه بالصفة فيقتلونه، فإذا سبعة من الروم، فاستقبلهم بحيرا فقال: ما جاء بكم؟ فقالوا: إن هذا النبيء خارج في هذا الشهر فلم يبق طريق إلاّ بُعِثَ إليها ـ أي بعث ملكهم إليها بأناس ـ وإنّا منذ أخبرنا خبرَهَ بُعِثنا إلى طريقك هذا، فقال: هل خلفكم أحد هو خير منكم، قالوا: إنما أخبرنا نحن فقط خبره بطريقك هذا، فقال: أفرأيتم أمراً أراد الله أن يقضيه هل يستطيع أحد من الناس رده؟ قالوا: لا، قال: فبايعوه وأقاموا معه ـ أي بايعوه على أن لا يأخذوا النبي ﷺ ولا يؤذوه على حسب ما أرسلوا فيه ـ وأقاموا مع بحيرا خوفاً على أنفسهم إذا رجعوا بدونه، ورده أبو طالب[2].

---

(١) رواه الترمذي (٥/ ٥٩٠)، وابن أبي شيبة في المصنف (٦/ ٣١٧)، (٧/ ٣٢٧)، والبزار في مسنده (٨/ ٩٧)، وأبو القاسم الأصبهاني في دلائل النبوة (١/ ٤٥)، والطبري في تاريخه (١/ ٧١٩).

(٢) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٦٧٢)، وابن أبي شيبة في المصنف (٧/ ٣٢٧)، والبزار في مسنده (٨/ ٩٨)، والأصبهاني التيمي في دلائل النبوة (١/ ٤٥)، والطبري في تاريخه (١/ ٥٢٠).

وفي حديث عند البيهقي وأبي نعيم: أن بحيرا رأى وهو في صومعته في الركب المصطفى ﷺ حين أقبلوا وغمامة بيضاء تظلّه من بين القوم، ثم أقبلوا حتى نزلوا بظل شجرة قريباً منه فنظر إلى الغمامة حين أظلّت الشجرة وتهصَّرَتْ ـ بالصاد المهملة المشددة ـ أي مالت وتدلّت الشجرة على رسول الله ﷺ حتى استظلّ تحتها، الحديث. وفيه أن بحيرا قام فاحتضنه وأنه جعل يسأله عن أشياء من حاله ونومه وهيئته وأموره ويخبره ﷺ فيوافق ذلك ما عند بحيرا من صفته ورأى خاتم النبوة بين كتفيه على موضعه من صفته التي عنده.

قال: وتقدم أن أخته الشيماء بنت حليمة رأته في الظهيرة وغمامة تظله إذا وقف وقفت وإذا سار سارت. رواه أبو نعيم وابن عساكر. ولله در القائل:

إن قال يوماً ظللته غمامة ... هي في الحقيقة تحت ظل القائل

اهـ باختصار.

ولمّا بلغ ﷺ من العمر خمساً وعشرين سنة على الصحيح المشهور سار إلى الشام مرة ثانية، وسبب ذلك كما رواه الواقدي وابن السّكن: أن أبا طالب قال: يا ابن أخي أنا رجل لا مال لي وقد اشتدّ الزمان علينا وألحّت علينا سنون منكرَةٌ وليس لنا مادة ولا تجارة، وهذه عِيرُ قومك قد حضر خروجها إلى الشام وخديجة تبعث رجالاً من قومك يتجرون في مالها ويصيبون منافع فلو جئتها لفضلتك على غيرك لما يبلغها عنك من طهارتك وإن كنت أكره أن تأتي الشام، وأخاف عليك من اليهود، ولكن لا نجد من ذلك بدّاً. فقال ﷺ: لعلها ترسل إليّ في ذلك. فقال أبو طالب: إني أخاف أن تولّي غيرك. فبلغ خديجة ما كان من محاورة عمه له وقبل ذلك صِدْق حديثه وعِظَم أمانته وكرم أخلاقه، فقالت: ما علمت أنه يريد هذا. وأرسلت إليه وقالت: دعاني إلى البعثة إليك ما بلَغني من صدق حديثك وعظم أمانتك وكرم أخلاقك وأنا أعطيك ضعف ما أعطي رجلاً من قومك. فذكر ذلك ﷺ لعمه فقال: إن هذا لرزق ساقه الله إليك.

فخرج ومعه ميسرة غلام خديجة بنت خويلد بن أسد حتى بلغ بُصرى لأربع عشرة ليلة بقيت من ذي الحجة فنزل تحت ظلّ شجرة قريباً من صومعة نسْطُورَا الراهب، فاطلع إلى ميسرة وكان يعرفه فقال ـ أي نسطورا الراهب ـ: ما نزل تحت هذه الشجرة إلا نبي. وفي رواية: بعد عيسى، وفي رواية ابن سعد: أن الراهب دنا إليه ﷺ وقبّل رأسه وقدميه وقال: آمنت بك وأنا أشهد أنك الذي ذكره الله في التوراة. فلما رأى الخاتم قبَّله وقال: أشهد أنك رسول الله النبي الأمي الذي بشّر بك عيسى فإنه قال: لا ينزل بعدي تحت هذه الشجرة إلاّ النبي الأمي الهاشمي العربي المكي صاحب الحوض والشفاعة ولواء الحمد.

وعند الواقدي وابن السكن قال له في عينيه حمرة قال ميسرة: نعم لا تفارقه أبداً.

قال الراهب: هو هو وهو آخر الأنبياء ويا ليت أني أدركه حين يؤمر بالخروج. فوعى ذلك ميسرة ثم حضر ﷺ سوق بصرى فباع سلعته التي خرج بها واشترى، وكان بينه وبين رجل اختلاف في سلعة فقال الرجل: احلف باللات والعزى، فقال: ما حلفت بهما قط، فقال الرجل: القول قولك، ثم قال لميسرة وخلا به: هذا نبي والذي نفسي بيده أنه لهو الذي تجده أحبارنا منعوتاً في كتبهم. فوعى ذلك ميسرة ثم انصرف أهل العير جميعاً وكان ميسرة يرى في الهاجرة ملكين يظلانه في الشمس.

ولما رجعوا إلى مكة في ساعة الظهيرة وخديجة في علّيّةٍ لها، رأت رسول الله ﷺ وهو على بعير وملكان يظلان عليه. رواه أبو نعيم. زاد غيره: فأرته نساءها فعجبن لذلك ودخل عليها ﷺ فأخبرها بما ربحوا فسرت، فلما دخل عليها ميسرة أخبرته بما رأت فقال: قد رأيت هذا منذ خرجنا من الشام وأخبرها بقول نسطورا وقول الآخر الذي خالفه في البيع. وقدم ﷺ بتجارتها فربحت ضعف ما كانت تربح وأضعفت له ما كانت سمت له اهـ. من المواهب وشرحه. نسأل الله الكريم ربّ العرش العظيم أن يمنّ علينا بذرة من إقباله وبسطة من إفضاله والقرب من نواله ونحظى بمشاهدة جماله مع والدينا ومشايخنا ومحبّينا ومن دعا لنا وسائر المسلمين بجاه النبي ﷺ وعلى آله وأصحابه وأزواجه أمهات المؤمنين كلما ذكرك الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون.

وإذ قد انتهى بنا القول فيما يتعلق ونجاة والديه ﷺ وسفره إلى الشام المرتين وما شوهد من بديع الكرامات وجليل الإتحافات التي أتحفه الله به اعتناء به ﷺ وإرهاصاً لنبوّته وإظهاراً لتفخيم شرفه ﷺ عند الله ومزيد كرامته فلنتبرك بذكر شيء مما يتعلق بأزواجه الطاهرات أمهات المؤمنين وأولاده وأهل بيته الطيبين الطاهرين خصوصاً أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه والسيدة الزهراء والسبطين والإمام المهدي المنتظر رضي الله عنهم أجمعين. وقد أتينا من ذلك في كتابنا مشارق الأنوار بما يشفي الغليل ويبرىء العليل، ونصّ عبارته:

وأمّا أزواجه ﷺ

فقال في المواهب اللدنية: ويقال لهن: أمهات المؤمنين لما لهن عليهم من وجوب الاحترام وتأبيد حرمة النكاح لا في نظر وخلوة فلا يسوغ ذلك كما لا يسوغ مع الأم، قال تعالى: ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَـٰتُهُمْ﴾ [الأحزاب: الآية ٦] وسواء من مات عنها أو ماتت عنه، وهل هن أمهات الرجال والنساء أم أمهات الرجال فقط.

قال الإمام الزرقاني: ويقوي الثاني ما رواه النسفي عن مسرُوق أن امرأة قالت لعائشة: يا أمّه، فقالت لها: لست لك بأم إنما أنا أم رجالكم. قال: وهذا الخلاف جار على خلاف في الأصول هل يدخل النساء في خطاب الرجال أم لا، والمرجح عدم

الدخول، فقول الله تعالى: ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ [الأحزاب: الآية ٦] حينئذ خاص بالرجال دون النساء وفضلهن على سائر النساء وثوابهن المضعف كما حكاه الباري جل وعلا بقوله: ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ﴾ [الأحزاب: الآية ٣١] الآية.

قال في المواهب: والمتفق عليه أن أزواجه اللاتي دخل بهن ولم يطلقهن إحدى عشرة امرأة، ست من قريش وهن: خديجة بنت خويلد، وعائشة بنت أبي بكر، وحفصَة بنت عمر، وأم حبيبة بنت أبي سفيان، وأمّ سلمة بنت أبي أمية، وسودة بنت زمعة. وأربع عربيات أي من حلفاء قريش وإلاّ فالكل عربيات: زينب بنت جحش، وميمونة بنت الحرث، وزينب بنت خزيمة، وجويرية بنت الحرث، وواحدة إسرائيلية وهي صفية بنت حُيَيّ النضرية اهـ. ولم يذكر ريحانة من الزوجات وذكرها من السراري ثم قوّى كونها من الزوجات بقوله: ريحانة بنت شمعون، وقيل: من بني قريظة، قيل: من بني النضير، وقيل: أعتقها فتزوجها ولم يذكر ابن الأثير غيره اهـ.

وقد اعتمد العلاَّمة الصبان في رسالته نقلاً عن الحافظ ابن حجر هذا حيث قال: وأما أزواجه ﷺ فهن اثنتا عشرة امرأة اللاتي دخل بهن ولم يطلقهن وتوفي عن تسع منهن، وأما غيرهن ممن وهبت نفسها أو خطبها ولم يعقد عليها أو عقد ولم يدخل بها لموت أو طلاق فنحو ثلاثين امرأة ولم يتزوج ﷺ إلاّ بوحي كما قال ابن حجر والعلامة الصبان.

روى عبد الملك بن محمد النيسابوري بسنده عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما تزوجت شيئاً من بناتي إلاّ بوحي جاءني به جبريل عن ربي عزَّ وجل».

فأوّل من تزوَّج بها ﷺ خديجة، وقد جاء أن رسول الله ﷺ أمر أن يبشرها ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب.

قال الحلبي: أي من درّة مجوّفة ليس فيه رفع صوت ولا تعب اهـ.

وقالت عائشة له ﷺ يوماً وقد مدح خديجة: ما تذكر من عجوز حمراء الشدقين قد بدلك الله خيراً منها. فغضب رسول الله ﷺ وقال: «والله ما بدّلني الله خيراً منها، آمنت بي حين كذّبني الناس وواستني بمالها حين حرمني الناس، ورزقت منها الولد وحرمته من غيرها»[١].

ثم سودة بنت زمعة في السنة العاشرة من النبوة كانت تحت ابن عمها السكران بن عمرو وأسلم معها قديماً وهاجر إلى الحبشة الهجرة الثانية فلما مات تزوجها ﷺ ولما

(١) رواه الطبراني في الكبير وأسانيده حسنة، كما في مجمع الزوائد (٩/ ٢٢٤).

كبرت عنده أراد طلاقها فسألته أن لا يفعل وجعلت يومها لعائشة فأمسكها. ماتت في آخر خلافة عمر على المشهور.

ثم عائشة بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما في شوّال سنة اثنتي عشرة من النبوة على قول، وكانت بنت سبع على قول، وبنى بها في شوال على رأس ثمانية أشهر من الهجرة على قول، وهي بنت تسع وقبض عنها وهي بنت ثماني عشرة ولم يتزوج بكراً غيرها، وكانت أحب نسائه إليه، ومناقبها كثيرة، كانت تكنى بابن أختها أسماء عبد الله بن الزبير. توفيت سنة ست أو سبع أو ثمان وخمسين وصلّى عليها أبو هريرة ودفنت بالبقيع ليلاً وقد قاربت سبعاً وستين سنة. ومن الناس من يقول: تزوج عائشة قبل سودة وحمل على أن المراد عقد على عائشة قبل الدخول بسودَة فلا ينافي ما مر.

ثم حفصة بنت عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنهما في شعبان على رأس ثلاثين شهراً من الهجرة على الأشهر، وكان مولدها قبل النبوّة بخمس سنين، توفيت في شعبان سنة خمس وأربعين وصلّى عليها مروان بن الحكم أمير المدينة يومئذ وحمل سريرها بعض الطريق ثم حمل أبو هريرة إلى قبرها، وكان ﷺ طلقها لأنها أفشت أمراً أسرّه إليها لعائشة وكان بينهما مصادقة ومصافاة، فنزل عليه جبريل عليه السلام وقال له: راجع حفصة فإنها صوّامة قوّامة وإنها زوجتك في الجنة. وفي رواية: طلّق ﷺ حفصَة فبلغ ذلك عمر فحثا على رأسه التراب وقال: ما يعبأ الله بعمر وابنته بعدها، فنزل جبريل على النبي ﷺ من الغد وقال: إنّ الله يأمرك أن تراجع حفصة رحمة لعمر. وقال جماعة: لم يطلقها بل همّ بتطليقها فقط وعليه يراد بمراجعتها معالجتها والرضا عنها.

ثم زينب بنت خزيمة سنة ثلاث، كانت تدعى في الجاهلية أم المساكين لإطعامها إياهم ولم تلبث عنده إلاّ شهرين أو ثلاثة ثم ماتت وصلى عليها رسول الله ﷺ ودفنها في البقيع وقد بلغت نحو ثلاثين سنة، ولم يمت من أزواجه ﷺ في حياته إلاّ هي وخديجة وريحانة على القول بأنها زوجته وسيأتي.

ثم أم سلمة بنت أبي أمية بن المغيرة في آخر شوال سنة أربع، ولما أرسل إليها ﷺ يخطبها قالت: مرحباً برسول الله ﷺ ثلاثاً، إلاّ أنَّ فِيَّ خلالاً ثلاثاً، أنا امرأة شديدة الغَيرة، وأنا امرأة مُضْبِيَة أي ذات صبيان، وأنا امرأة ليس هنا أحد من أوليائي. فأتاها رسول الله ﷺ فقال لها: أما ما ذكرت من غيرتك فإني أرجو الله أن يذهبها، وأما ما ذكرت من ضبيتك فإن الله سيكفيهم، وأما ما ذكرت من أوليائك فليس أحد من أوليائك يكرهني، فقالت لابنها: زوّج رسول الله ﷺ. فزوجه بها فاستدل به على أن الابن يلي عقد أمه وهو بخلاف مذهبنا معشر الشافعية ويشهد لمالك ودفع بأنه إنما زوجها بالعصوبة لأنه ابن ابن عمها كما بيّن في السير. توفيت في خلافة معاوية سنة ستين على الصحيح

وقد بلغت أربعاً وثمانين سنة ودفنت بالبقيع وصلّى عليها أبو هريرة.

ثم زينب بنت جحش بنت عمّته ﷺ أمَيْمَة وكان اسمها برة فسماها ﷺ زينب خشية أن تقال: خرج من عند برة، وكانت قبله عند مولاه زيد بن حارثة فطلقها، فلما حلت زوّجه الله إياها سنة أربع على أحد الأقوال، وهي يومئذ بنت خمس وثلاثين سنة بقوله: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا﴾ [الأحزاب: الآية ٣٧] وكانت تفخر على نسائه ﷺ وتقول: إن آباءكن أنكحوكنّ وإن الله تعالى أنكحني إياه من فوق سبع سماوات. وفيها نزل الحجاب، وهي أول نسائه لحوقاً به كما أشار إلى ذلك الصادق المصدوق.

ففي مسلم عن عائشة أن بعض أزواج النبي ﷺ قلن له: أيّنا أسرع بك لحوقاً؟ قال: «أطولكن يداً» فكان أسرعهن لحوقاً به زينب بنت جحش، فعلمن أن طول يدها بسبب أنها كانت تعمل وتتصدّق كثيراً. توفيت سنة عشرين أو إحدى وعشرين وقد بلغت ثلاثاً وخمسين سنة ودفنت بالبقيع وصلّى عليها عمر بن الخطاب. وكانت عائشة تقول: هي التي تساميني في المنزلة عنده ﷺ، وما رأيت امرأة قط خيراً في الدين من زينب، وأتقى لله وأصدق حديثاً، وأوصل للرحم وأعظم صدقة.

وقصة تزويجه ﷺ مشهورة مبسوطة في كتب السير وقد اعتنى بها أئمة التفسير إلا أن بعضهم تساهل إذ نسب إليه ﷺ ما لا يليق بمنصبه الشريف وكمال الأدب في حقه ﷺ، وغفل عما يجب أن يتحلّى به سر كل عاقل لا سيما من أشرق الله في قلبه شموس الإيمان من وجوب اعتقاد تنزهه ﷺ عن كل ما لا يلائم منصب نبوّته وعظيم جلالته ومزيد كرامته ﷺ على ربه، وقد أتينا في كتابنا تبصرة القضاة والإخوان من ذلك بما يشفي الغليل ويبري العليل، ونص عبارته:

(الخاتمة): الموعود بذكرها تتعلق بتزويج النبي ﷺ بأمّ المؤمنين زينب بنت جحش وتحقيق ما ذكره أئمة التفسير في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا﴾ [الأحزاب: الآية ٣٧] إلى آخر الآية، فأقول وبالله التوفيق: اعلم أنه قد وقع لبعض المفسرين في تفسير هذه الآية الشريفة بعض تساهل حيث فسّرها بما لا يليق بكمال منصب النبوة مع أن الواجب غاية التباعد عما يوهم نقصاً في منصب النبوة لا سيما صفوة العالمين فكان الباعث لنا الأوليّ على ختم هذه الرسالة بتفسير هذه الآية الشريفة التشريف بخدمة بيان الواجب من سلوك الأدب لكمال هذا المنصب الشريف بما أفاده أئمة التحقيق في ذلك والثانويّ تطريز آخرها كأولها بخدمة جماله وكماله عليه أفضل الصلاة والسلام لعلّ الله أن يقبل ما بينهما ببركة ذلك ويقضي لنا الأوطار كرامة للسيد المختار وآله وصحبه الأخيار.

وحاصل التحقيق في هذه الآية كما أفاده العلامة الشيخ زادة في حاشية البيضاوي

والإمام القرطبي في تفسيره والإمام القاضي عياض في الشفاء وصاحب الكشاف بعبارات متحدة المعنى متقاربة المبنى فعض عليها بالنواجذ، ولا تلتفت لما درج عليه بعض المفسرين مما يوهم نقصاً في منصب النبوة من أنه عليه الصلاة والسلام هوى زينب ومال إليها وأحب طلاقها فحاشى منصب النبوة أن يميل صاحبه إلى حسن امرأة أو يهواها وهي في عصمة غيره، وإنما الله سبحانه وتعالى أمر نبيه عليه الصلاة والسلام أن يتزوج زينب بعد تطليق زيد لها وأخبره قبل تطليقه إياها أنها ستكون زوجة له، فلما شكا زيد للنبي ﷺ ترفعها عليه وأنها لا تطيعه وأعلمه بأنه يريد طلاقها فقال له رسول الله ﷺ على جهة الأدب والوصيّة: «اتق الله في قولك وامسك عليك زوجك» وهذا الذي أخفاه في نفسه وخشي رسول الله ﷺ أن يلحقه قول الناس إن تزوج حليلة ابنه وهو ينهانا أن نتزوج بنساء أبنائنا، فعاتبه الله على هذا.

قال المحقق الإمام القرطبي: الذي عليه أهل التحقيق من العلماء الراسخين كالزهري والقاضي أبي بكر والإمام القشيري والقاضي أبي بكر بن العربي كما روي عن الإمام زين العابدين علي بن الحسين: أن النبي ﷺ كان قد أوحى الله إليه أن زيداً يطلق زينب وأنه يتزوجها بتزويج الله إياها، فلما شكا زيد للنبي ﷺ خلق زينب وأعلمه بأنه يريد طلاقها قال له رسول الله ﷺ على جهة الأدب والوصية: «اتق الله في قولك وامسك عليك زوجك» وهذا هو الذي اختفى في نفسه وخشي رسول الله ﷺ أن يلحقه قول من الناس في تزوجه زينب بعد زيد وهو مولاه فعاتبه الله على هذا من أنه خشي الناس في شيء قد أباحه الله تعالى له، وقال له: أمسك عليك زوجك، مع علمه بأنه يطلقها، وأعلمه أن الله أحق بالخشية في كل حال.

والمراد بقوله: ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ﴾ [الأحزاب: الآية ٣٧] إنما هو إرجاف المنافقين بأنه نهى عن التزوج بنساء الأبناء وتزوج هو بزوجة ابنه، قال: وأما ما روي أن النبي ﷺ هوى زينب امرأة زيد وأنه عشقها فإن هذا إنما يصدر عن جاهل بعصمة النبي ﷺ أو مستخف بحرمته، ولذا قال الإمام الترمذي الحكيم في نوادر الأصول: إنما عتب الله عليه من أجل أنه قد أعلمه بأنها ستكون من أزواجه فكيف قال بعد ذلك لزيد: امسك عليك زوجك، وأخذته خشية الناس أن يقولوا: تزوج زوجة ابنه والله أحق أن يخشاه اهـ.

ويؤيده ما ذكر المحقق العلامة الشيخ زادة علي البيضاوي ونصه: روي عن ابن مسعود وعائشة وعمر رضي الله عنهم: ما نزل على النبي ﷺ آية أشد من هذه الآية. وقالت عائشة رضي الله عنها: لو كتم النبي ﷺ شيئاً من الوحي لكتم هذه الآية. أرادت من شدّتها عليه.

وروي عن علي بن الحسين زين العابدين رضي الله عنهما أنه قال: في هذه الآية كان الله تعالى قد أعلم نبيه ﷺ أن زينب ستكون من أزواجه وأن زيداً سيطلقها، فلما جاء زيد وقال: إني أريد أن أطلقها، قال له: أمسك عليك زوجك. فعاتبه الله تعالى وقال له: لِمَ قلت أمسك عليك زوجك وقد أعلمتك أنها ستكون من أزواجك. وهذا هو الأولى والأليق بحال الأنبياء. ولعل الحكمة في ذلك أنه كان من حكم العرب أن من تبنى ولداً كان كولده من صلبه في التوريث وحرمة نكاح امرأته على الأب المتبنى، فأراد الله تعالى أن يبطل حكمهم بقول النبي عليه الصلاة والسلام وفعله ليكون أنجع في قلوبهم وأقطع لعاداتهم، وأخبر الله رسوله أن زينب ستكون من أزواجك فزوجها لزيد ثم أنهما يتفرقان بعد مدة فزوجها أنت لنفسك لتقرر عندهم بطلان سنّة العرب، وكان عليه الصلاة والسلام يخفيه في نفسه إلى أن يظهره الله تعالى في وقته. ولما وقع هذا النكاح ومضت مدة وقعت بينهما خشونة فجاء زيد يشكوها إلى النبي عليه الصلاة والسلام ويذكر ترفعها وسوء خلقها عليه فقال له: «أمسك عليك زوجك» أي جاملها وبالخلق الحسن عاملها ولا تطلقها، وكذا يجب على المتوسط بين الزوجين أن يدعوهما إلى حسن المعاشرة، واتق الله يا زيد في رعاية حقوق النكاح وتخفي في نفسك يا محمد ما الله مبديه، أي مظهره، وهو ما أعلمك الله أنك ستتزوجها إن طلقها زيد برضاها واختيارها وانقضت عدّتها، وتخشى الناس ـ أي تكره مقالة الناس أنه تزوج امرأة ابنه ـ والله أحق أن تخشاه، فتفعل ما أباحه لك وأذن لك فيه اهـ.

ونص القاضي عياض في الشفاء: فإن قلت: فما معنى قوله تعالى في قصة زيد: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ [الأحزاب: الآية ٣٧] الآية فاعلم أقامك الله ولا تسترب في تنزيه النبي ﷺ عن هذا الظاهر وأن يأمر زيد بإمساكها وهو يحب تطليقه إياها كما ذكر عن جماعة من المفسرين. وأصح ما في هذا ما حكاه أهل التفسير عن علي بن الحسين: أن الله تعالى كان أعلم نبيه أن زينب ستكون من أزواجه، فلما شكاها إليه زيد قال له: «أمسك عليك زوجك واتق الله»، وأخفى منه في نفسه ما أعلمه الله به من أنه سيتزوجها كما الله مبديه ومظهره بتمام التزويج وطلاق زيد لها.

قال: وعن الزهري: نزل جبريل على النبي ﷺ يعلمه أن الله يزوجه زينب بنت جحش فذلك الذي أخفى في نفسه، قال: ويصحح هذا قول المفسرين في قوله بعد هذا: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾ [النساء: الآية ٤٧] أي لا بد لك أن تتزوجها، ويوضحه أن الله لم يبد من أمره معها غير زواجه لها، فدل أنه الذي أخفاه. وإنما جعل الله طلاق زيد لها وتزويج النبي إياها لإزالة حرمة التبني وإبطال سنّته كما قال: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن

﴿رِجَالِكُمْ﴾ [الأحزاب: الآية ٤٠]، وقال: ﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ﴾ [الأحزاب: الآية ٣٧] في أزواج أدعيائهم. وليس معنى الخشية هنا الخوف وإنما معناه الاستحياء، أي يستحيي منهم أن يقولوا: تزوج زوجة ابنه بعد نهيه عن تزوج حلائل الأبناء وأن خشيته عليه السلام من الناس كانت من إرجاف المنافقين واليهود وتشغيبهم على المسلمين بقولهم: تزوج حليلة ابنه بعد نهيه عن حلائل الأبناء. فعاتبه الله على هذا ونزهه عن الالتفات إليهم فيما أحلّه له اهـ.

إذا علمت هذا التحقيق تبين لك أن ما يقع من بعض جهلة الفقهاء من نسبة جنابه الأكمل الشريف لما يوهم النقص في منصب النبوة ربما أداهم ذلك إلى الكفر أن ذكر منهم على وجه الاستخفاف ويرتد بسبب استخفافه بذلك ولا تقبل منه توبة عند مالك ولقد أفاد وأجاد العلامة خير الدين الرملي في فتاواه ملخصها لما أفاده الإمام القرطبي والشيخ زادة علي البيضاوي ومصرحاً بردة من ذكر شيئاً في هذه الآية يوجب استخفافاً بمنصب النبوة ونصه: روي عن علي بن الحسين أن النبي ﷺ كان قد أوحى الله تعالى إليه أن زيداً يطلق زينب وأنت تتزوجها بتزويج الله إياها، فلما شكا زيد للنبي ﷺ خلق زينب وأنها لا تطيعه وأعلمه بأنه يريد طلاقها، قال له رسول الله ﷺ على جهة الأدب والوصية: «اتق الله في قولك وأمسك عليك زوجك» وهو يعلم أنه يفارقها وهذا الذي أخفى في نفسه ولم يرد أنه يأمره بالطلاق لما علم أنه سيتزوجها، وخشي رسول الله ﷺ أن يلحقه قول من الناس في أن يتزوج بزينب بعد زيد وهو مولاه وقد أمره بطلاقها، فعاتبه الله تعالى على هذا العذر من أنه خشي الناس في شيء قد أباحه الله تعالى له بأن قال: «أمسك عليك زوجك» مع علمه بأنه يطلق. وأعلمه أن الله تعالى أحق بالخشية في كل حال.

ثم قال: قال علماؤنا: وهذا القول أحسن ما قيل في تأويل هذه الآية وهو الذي عليه أهل التحقيق من المفسرين والعلماء الراسخين كالزهري والقاضي بكر بن العلاء والقشيري والقاضي أبي بكر بن العربي وغيرهم.

ثم قال: فأما ما روي أن النبي ﷺ هوى زينب امرأة زيد وربما أطلق بعض المُجّان ـ يعني الفسقة ـ عشق، وهذا إنما يصدر عن جاهل بعصمة النبي ﷺ عن مثل هذا أو مستخف بحرمته ﷺ فاغتنم هذا التحقيق اهـ[1].

---

(١) انظر في هذه المسألة: تفسير الطبري (٢٢/ ١٣)، والقرطبي (١٤/ ١٩٣)، وابن كثير (٣/ ٤٩٢، ٥٠٦)، وفتح الباري (١٣/ ٤١٢)، والتمهيد لابن عبد البر (١٥/ ٢٨١)، (٩/ ١٦٣)؛ وشرح الزرقاني (٢/ ٧٨)، وعون المعبود (٦/ ٤٥)، وتحفة الأحوذي (٩/ ٥٠)، وشرح مسلم للنووي (٩/ ٢٢٨)، =

ثم جويرية بنت الحرث وقعت يوم المريسيع في سهم ثابت بن قيس بن شماس فكاتبها على تسع أواق من الذهب فأداها عنها ﷺ وتزوجها، وكان اسمها برة فسماها ﷺ جُوَيْرِيَة كما تقدم، وكانت ذات جمال، وعندما تزوجها قال الناس في حق بني المصطلق أصهار رسول الله ﷺ وأرسلوا ما بأيديهم من سبايا بني المصطلق. قالت عائشة: فلم نعلم امرأة أكثر بركة على قومها منها. توفيت بالمدينة في ربيع الأول سنة ستة وخمسين وقد بلغت سبعين سنة وصلّى عليها مروان بن الحكم.

ثم ريحانة بنت يزيد من بني النضير لكن كانت تحت رجل من بني قريظة فوقعت في سبي بني قريظة فاصطفاها ﷺ لنفسه وكانت جميلة وسيمة، وخيّرها بين الإسلام ودينها فاختارت الإسلام فأعتقها وتزوجها وأصدقها وأعرس بها في المحرم سنة ست وطلقها ﷺ لشدة غيرتها عليه، فأكثرت البكاء فراجعها ولم تزل عنده حتى ماتت مرجعه من حجّة الوداع، ودفنها بالبقيع، وقيل: كانت موطوأته بملك اليمن.

ثم أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان صخر بن حرب هاجرت مع زوجها عبيد الله بن جحش إلى الحبشة الهجرة الثانية فولدت له حبيبة وتنصّر هو وثبتت هي على الإسلام، فبعث النبي ﷺ عمرو بن أميّة الضمري إلى النجاشي فزوجه إياها وأمهرها عنه أربعمائة دينار وتولى عقد نكاحها خالد بن سعيد بن العاص لكونه ابن عم أبيها وأرسلها النجاشي إليه سنة سبع على خلاف في جميع ذلك. ماتت سنة أربع وأربعين.

ثم صفية بنت حُيَيّ بن أخطب من سبط هارون بن عمران عليه السلام، كان أبوها سيد بني النضير فقتل مع بني قريظة. اصطفاها ﷺ لنفسه من سبي خيبر فأعتقها وتزوجها وجعل عتقها صداقها، وكانت جميلة لم تبلغ سبع عشرة سنة. ماتت في رمضان سنة خمسة أو اثنتين وخمسين ودفنت بالبقيع.

ثم ميمونة بنت الحرث في شوال سنة سبعة وتزوجها ﷺ وهو محرم في عمرة القضاء كما عليه الجمهور، وكان اسمها برة فسماها ﷺ ميمونة لما تقدم. ماتت سنة إحدى وخمسين وقد بلغت ثمانين سنة وقيل غير ذلك. وهي آخر من تزوّج بها ﷺ وآخر من توفي من أزواجه.

وقال ابن شهاب: هي التي وهبت نفسها للنبي ﷺ.

فهؤلاء نساؤه اللاتي دخل بهن ولم يطلقهن وهن اثنتا عشرة امرأة توفي عن تسع

= وفيض القدير (٢/ ٥٦)، والسيرة النبوية (٦/ ٥٨)، وأخبار مكة للفاكهي (٣/ ٢٩٢)، ونوادر الأصول (٣/ ٣٠)، والأم للشافعي (٤/ ١١٥)، (٥/ ٢٥، ٣٧)، والمحلى لابن حزم (٩/ ٤٥٧، ٤٦٤)، والأحكام للآمدي (١/ ٢٣٢، ٢٤٢)، ولابن حزم (٨/ ٥٥٢).

منهن. قال الإمام القسطلاني في المواهب: وقد ذكر أسماءهن الحافظ أبو الحسن بن الفضل المقدسي نظماً، فقال:

توفي رسول الله عن تسع نسوة إليهن تعزى المكرمات وتنسب
فعائشة ميمونة وصفيّة وحفصَة تتلوهنّ هند وزينب
جويرية مع رملة ثم سودة ثلاث وست ذكرهن مهذب

وأما غيرهنّ ممن وهبت نفسها أو خطبها ولم يعقد عليها أو عقد ولم يدخل بها لموت أو طلاق أو دخل وطلقها فنحو ثلاثين امرأة مبينة في السّير.

وأما سراريه ﷺ فأربع: مارية القبطيّة، وكان عليه الصلاة والسلام معجباً بها لأنها كانت بيضاء جميلة وهي أم ولده إبراهيم كما تقدم، جاء أنه ﷺ قال: «ستفتح عليكم مصر فاستوصوا بأهلها خيراً فإن لهم رحماً وصهراً»، والمراد بالرحم أم إسماعيل بن إبراهيم جده ﷺ فإنها كانت قبطية والمراد بالصهر أم ولده إبراهيم فإنها كانت قبطية أيضاً كما علمت، وريحانة على ما تقدم من الخلاف، وجارية وهبتها له زينب بنت جحش. وأخرى اسمها زليخا القرظية.

تتمة: اختلف الناس في أفضل أزواجه ﷺ بل في أفضل النساء مطلقاً والأقرب عند الأكثر أن أفضل النساء مريم ثم خديجة ثم فاطمة ثم عائشة ثم آسية امرأة فرعون.

قال العلامة الصبان: وقال شيخ الإسلام في شرح البهجة الذي اختاره: أن الأفضليّة محمولة على أحوال، فعائشة أفضل من حيث العلم، وخديجة من حيث تقدمها وإعانتها له ﷺ في المهمات، وفاطمة من حيث البضعة والقرابة، ومريم من حيث الاختلاف في نبوّتها وذكرها في القرآن مع الأنبياء، وآسية من حيث الاختلاف في نبوّتها وإن لم تذكر مع الأنبياء اهـ.

ونقل عن الأشعري الوقف، قال صاحب نور النبراس: الذي يظهر أن الأفضل من أزواجه ﷺ بعد خديجة وعائشة زينب بنت جحش والله أعلم اهـ.

قال في المواهب: تزوج ﷺ خديجة وعمره إحدى وعشرون سنة أو خمس وعشرون، وعليه الأكثر، ولها يومئذ من العمر أربعون سنة وكانت قد عرضت نفسها عليه ﷺ فذكر ذلك لأعمامه فخرج معه حمزة حتى دخل على خويلد بن أسد فخطبها إليه، وذلك لما بلغها من حديث غلامها ميسرة حين سافر معه في تجارتها ورأى من الآيات وتظليل الغمام له ﷺ وأخبرها بذلك، وما رأته هي أيضاً من الآيات وكون الخاطب في هذه الرواية حمزة لا ينافي رواية السهيلي عن المبرد: أن الناهض معه أبو طالب لأنهما خرجا معه والخاطب أبو طالب لأنه أسن من حمزة وأصدقها عشرين بكرة. وفي رواية: اثنتا عشرة أوقية ذهباً ورواية مسلم: اثنتا عشرة أوقية ذهباً. ونشاً، أتدري ما النش،

قلت: لا، قال: نصف أوقية، فذلك صداقه لأزواجه ﷺ.

قال الزرقاني: ولعل العشرين بكرة كانت من عند أبي طالب والاثنتا عشرة أوقية كانت من عنده ﷺ والكل صداق أو لعل الإبل قيمتها ما ذكر من الذهب فإحدى الروايتين اعتبرت القيمة والأخرى اعتبرت المقوم كما هو شأن العرب من تعاملهم بالإبل، وكون أبيها هو المزوج لها هو ما جزم به ابن إسحٰق وهو ظاهر الأحاديث. وقيل: أخوها عمرو بن خويلد، وقيل: عمها عمرو بن أسد. قال: لأن أباها كان قد مات. قال السهيلي: وهو الأصح. ولما حضر أبو طالب ومعه رؤساء مضر خطب فقال: الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم وزرع إسماعيل وضِئْضِئِي معَدّ وعُنْصَر مُضَرَ وجعلنا بيته وسُوَّاس حرمة وجعل لنا بيتاً محجوجاً وحرماً آمناً وجعلنا الحكام على الناس، ثم إن ابن أخي هذا محمد بن عبد الله لا يوزن برجل إلاَّ رجح به، فإن كان في المال قُلٌّ فإن المال ظلّ زائل وأمر حائل ومحمد ممن قد عرفتم قرابته وقد خطب خديجة بنت خويلد وبذل لها ما آجله وعاجله من مالي كذا وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم وخطر جليل جسيم فزُوِّجها.

قال الزرقاني: وفي المنتقى: فلما أتمَّ أبو طالب الخطبة تكلّم ورقة بن نوفل فقال: الحمد لله الذي جعلنا كما ذكرت وفضّلنا على ما عدّدت فنحن سادة العرب وقادتُها وأنتم أهل ذلك كله لا تنكر العشيرة فضلكم ولا يرد أحد من الناس فخركم وشرفكم، وقد رغبنا في الاتصال بحبلكم وشرفكم فاشهدوا عليّ معاشر قريش بأني قد زوجت خديجة بنت خويلد من محمد بن عبد الله على أربعمائة دينار، ثم سكت، فقال أبو طالب: قد أحببت أن يشركك عمها، فقال عمها: اشهدوا عليّ معاشر قريش أني قد أنكحت محمد بن عبد الله خديجة بنت خويلد. وشهد على ذلك صناديد قريش.

والضئضىء: بكسر الضادّين المعجمتين وهمزتين الأولى ساكنة الأصل وعنصر بضم العين المهملة وسكون النون وضم الصاد المهملة وقد تفتح الأصل أيضاً. وحضنه: بيته، أي الكافلين له والقائمين بخدمته. وسُوَّاس حرمه: أي مُتَوَلُّو أمره من ساس الرعية اهـ من المواهب وشرحه.

قال القسطلاني: وهي أول من آمن من الناس. قال الشارح: أي على الإطلاق كما حكى ابن عبد البر، وحكى عليه الاتفاق وإنما الخلاف في أول من آمن بعدها. وكفاها شرفاً حديث الصحيحين من حديث أبي هريرة: أن جبريل قال للنبي ﷺ: «يا محمد، هذه خديجة قد أتتك ـ هذا لفظ مسلم، ولفظ البخاري: قد أتت بلا كاف ـ بإناء فيه طعام أو إدام أو بشراب، فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ومني وبشرها

ببيت في الجنة من قصب لا صَخَبَ فيه ولا نَصَبَ»[١]، زاد الطبراني: فقالت: هو السلام ومنه السلام وعلى جبريل السلام.

ورواية النسائي: أن الله هو السلام وعلى جبريل السلام وعليك السلام ورحمة الله وبركاته.

قال الزرقاني: والصخب: بفتح الصاد المهملة والخاء المعجمة: الصياح. والنصب: التعب. والحكمة في كون البيت لا صياح فيه ولا نصب، أنها أجابته للإيمان به ﷺ طوعاً ولم تحوّجه لمنازعة، بل أزالت عنه كل نصب وآنسته من كل وحشة وهوّنت عليه كل عسير. وكونه من قصب لكونها أحرزت قصب السبق لمبادرتها إلى الإيمان دون غيرها، فلم يكن على وجه الأرض في أول يوم بُعِثَ ﷺ بيت إسلام إلاَّ بيتها وهي فضيلة ما شاركها فيها غيرها.

وللحافظ ابن حجر: لما نزل ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ﴾ [الأحزاب: الآية ٣٣] الآية، دعا ﷺ فاطمة وعلياً والحسن والحسين وجلّلهم بكساء فقال: «اللهُمَّ هؤلاء أهل بيتي» الحديث، ومرجع هؤلاء إلى خديجة.

ولما ورد من حديث الإمام أحمد وأبي داود والنسائي والحاكم وصححاه من حديث ابن عباس: أنه ﷺ قال: «أفضل نساء أهل الجنة خديجة وفاطمة ابنة محمد عليه الصلاة والسلام، ومريم ابنة عمران، وآسية امرأة فرعون»[٢].

قال الإمام القسطلاني: وسئل أبو بكر ابن الإمام المجتهد داود: أخديجة أفضل أم عائشة؟ فقال: عائشة أقرأها النبي ﷺ عن جبريل من قبل نفسه، وخديجة أقرأها جبريل السلام من ربها على لسان محمد، فهي أفضل. فقيل له: فمن أفضل خديجة أم فاطمة؟ فقال: إن رسول الله ﷺ قال: «فاطمة بَضْعَة مني» فلا أعدل ببضعة رسول الله ﷺ أحداً.

قال السهيلي: وهذا أتقن وأحسن اهـ. قلت: ويدل لما قاله السهيلي من فضل خديجة على عائشة ما رواه الإمام البخاري عن عائشة قالت: ما عزَّ عليَّ أحد ما عزَّت عليَّ خديجة وما رأيتها ولكن كان ﷺ يكثر ذكرها وربما ذبح الشاة فيقطعها أعضاء ثم يبعثها في صدائق خديجة، فربما قلت له: كأنه لم يكن في الدنيا إلاَّ خديجة، فيقول: «إنها كانت وكانت وكان لي منها الولد».

---

(١) رواه البخاري (٣/ ١٣٨٩)، (٦/ ٢٧٢٣)، ومسلم (٤/ ١٨٨٧)، والحاكم (٣/ ٢٠٤)، وابن حبان (١٥/ ٤٦٩)، وأحمد في المسند (٢/ ٢٣٠)، والطبراني (٢٣/ ٩)، والنسائي في الكبرى (٥/ ١٠٦)، وانظر: الفتح (٧/ ١٣٩)، والنووي على مسلم (١٥/ ١٩٩).

(٢) انظر: فتح الباري (٦/ ٤٧١)، (٧/ ١٠٧، ١٣٥)، ورواه أحمد (١/ ٢٩٣)، والنسائي في الكبرى (٥/ ٩٣)، والحاكم (٢/ ٥٣٩)، (٣/ ٢٠٥).

وروى ابن حبان عن أنس: كان ﷺ إذا أتى بالشيء يقول: «اذهبوا إلى بيت فلانة فإنها كانت صديقة لخديجة».

قال في المواهب: وماتت خديجة رضي الله عنها بمكة قبل الهجرة بثلاث سنين. قال شارحها الزرقاني: وهو الصحيح كما في الفتح والإصابة. وزاد الواقدي: لعشر خلون من شهر رمضان، ودفنت بالحَجُون وهي ابنة خمس وستين سنة ولم يكن يومئذ يُصلّى على الجنازة، وكانت مدة مُقامها مع النبي ﷺ خمساً وعشرين سنة على الصحيح كما في الفتح[١].

فهذا أدل دليل على مزيد فضلها حيث اختصت به ﷺ بقدر ما اشترك فيه غيرها مرتين لأنه ﷺ عاش بعد أن تزوجها ثمانياً وثلاثين عاماً انفردت منها خديجة بخمس وعشرين وهي نحو المثلين اهـ. وبعضهم يقول بأفضلية عائشة.

قال الإمام الزرقاني: واستدل على ذلك بما رواه ابن سعد[٢] عن عائشة: «فضِّلت على نساء النبي ﷺ بعشر: لم ينكح بكراً قط غيري، ولا امرأة أبواها مهاجران غيري، وأنزل الله براءتي من السماء، وجاء جبريل بصُورَتي من السماء في حريرة، وكنت أغتسل أنا وهو في إناء واحد، ولم يصنع ذلك بأحد من نسائه غيري، وكان يصلي وأنا مُعترضة بين يديه دون غيري، وكان ينزل عليه الوحي وهو معي في لحاف واحد ولم ينزل وهو مع غيري، وقبض وهو بين نَحْري وسَحْري ـ أي ورأسه الشريف موضوعٌ على أعلى صدري.

قال في المصباح: السحر: الرقبة، وقيل: ما لصق بالحلقوم. والمريء: من أعلى البطن. وقولها: وجاء جبريل بصورتي من السماء: جاء فيه حديث البخاري ومسلم: رأيتك في المنام ثلاث ليال جاءني بك الملَك في سَرَقَةٍ ـ بفتح السين والراء ـ أي بشُقّة من حرير فيقول: هذه امرأتك. فأكشف عن وجهك فأقول: إن يك من عند الله يُمِضه. قال في المواهب: وفي الترمذي: أن جبريل جاءه عليه الصلاة والسلام بصورتها في خرقة حرير خضراء وقال: هذه زوجتك في الدنيا والآخرة. وحسبها فضلاً قوله ﷺ: «فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على الطعام».

وروى الطبراني والبزار برجال ثقات، وابن حبان عنها: رأيت رسول الله ﷺ طيب النفس ـ أي منشرحاً ـ فقلت: يا رسول الله ادع لي، قال: «اللهم اغفر لعائشة ما تقدَّم من ذنبها وما تأخر وما أسَرَّت وما أعلنت» فضحكت عائشة حتى سقط رأسها في حجرها من الضحك، فقال ﷺ: «أسَرَّك دعائي» فقالت: ما لي لا يسرني دعاؤك، قال: «فوالله

(١) انظر: فتح الباري (١/ ٢٨).
(٢) في الطبقات الكبرى (٨/ ٦٣).

إنها لدعوتي لأمتي في كل صلاة»[١].

وفي الصحيح عن القاسم بن محمد: أن عائشة مرضت فعادها ابن عباس فقال: يا أم المؤمنين تقدمين على فرط صدق. وعن أبي بكر الحديث.

قال في المواهب: وكانت السيدة عائشة فقيهة عالمة فصيحَة كثيرة الحديث عن رسول الله ﷺ عارفة بأيام العرب وأشعارها، روى عنها جماعة كثيرة من الصحابة والتابعين وكان ﷺ يقسم لها ليلتين ليلتها وليلة سودة بنت زمعة لأنها وهبت ليلتها لها لما كبرت.

قال الإمام الزرقاني: قال أبو موسى الأشعري: ما أشكل علينا أصحاب رسول الله ﷺ حديثٌ قطُّ فسألنا عنه عائشة إلاَّ وجدنا عندها منه علماً[٢].

وروى الطبراني والحاكم وغيرهما بسند حسن عن عروة: ما رأيت أحداً أعلم بالقرآن ولا بفريضة ولا بحلال ولا بحرام ولا بفقه ولا بشعر ولا بطب ولا حديث ولا بحديث العرب ولا نسب من عائشة[٣].

وروي عن معاوية قال: سمعت خطبة أبي بكر وعمر وعثمان وعلي والخلفاء فما سمعت من فم أحد منهم كلاماً أفحم ولا أحسن منه من فم عائشة. ومن لطيف شعرها قولها تغزُّلاً في الحضرة المحمّدية:

ولو سمعوا في مصر أوصاف خده لما بذلوا في سوم يوسف من نقد
لوَامَى زليخا لو رأين جبينه لآثرن بالقطع القلوب على الأيدي

وبالجملة، فمناقبها لا تنحصر، كيف وهي بنت الصدّيق أمدنا الله من فيض إمدادها. ومدة إقامتها معه عليه الصلاة والسلام تسع سنين وقد نفع الله بها الأمة بنشر العلوم.

ولذلك روي عن القاسم بن محمد قال: قُصِدَت عائشة بالفتوى زمن أبي بكر وعمر وعثمان وهلم جرّاً إلى أن ماتت رضي الله عنها ونفعنا بها.

وأما المفاضلة بين أبنائه ﷺ فلم يثبت فيها شيء، وكذا بين بناته سوى فاطمة كما سيظهر، وهل هي أفضل من أبنائه بقطع النظر عن الذكورة والأنوثة؟.

قال العلاَّمة الصبان: لم أر من تعرّض لذلك وقد يؤخذ من حديث «أحب أهلي

(١) رواه ابن حبان (١٦/ ٤٨)، والحاكم في المستدرك (٤/ ١٣)، والإسماعيلي في معجم شيوخه (٢/ ٥٤٨).

(٢) رواه الترمذي (٥/ ٧٠٥).

(٣) رواه الحاكم في المستدرك (٤/ ١٢)، والترمذي (٥/ ٧٠٥).

إليَّ فاطمة» أنها أفضل منهم والله أعلم.

وأما ذكر أولاده ﷺ، فقد قال المحقق الصبان: الأصح عند العلماء أن أولاده ﷺ سبعة، ثلاثة ذكور وأربعة أناث، فأول من ولد له القاسم وبه كان يُكنى، ثم زينب ثم رقية ثم فاطمة ثم أم كلثوم واسمها كنيتها، ثم في الإسلام عبد الله وكان يسمى الطيب والطاهر. وقيل: الطيب والطاهر غير عبد الله المذكور، ولدا في بطن قبل البعثة، وقيل غير ذلك، وكل هؤلاء ولدوا بمكة من خديجة إلا إبراهيم فإنه بالمدينة من مارية القبطية.

فأما القاسم فمات بمكة وقد بلغ سنتين، وقيل: أقل، وقيل: أكثر، وهو أول ميت مات من ولده.

ثم عبد الله مات أيضاً بمكة صغيراً ولما مات قال العاص بن وائل: قد انقطع ولده فهو أبتر، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾ [الكوثر: الآية ٣].

وأما إبراهيم فولد له في ذي الحجة سنة ثمان من الهجرة وعق عنه ﷺ يوم سابعه بكبشين وسماه يومئذ وحلق رأسه وتصدّق بزنة شعره فضة ودفنوا شعره في الأرض، ومات سنة عشر وقد بلغ سنة وعشرة أشهر، وقيل: سنة وستة أشهر، ودفن بالبقيع.

وأما زينب فتزوجها ابن خالتها أبو العاص بن الربيع بن عبد العزى بن عبد شمس بن عبد مناف، وأمه هالة بنت خويلد فولدت له علياً وأمامة. فأما علي فأردفه النبي ﷺ وراءه يوم الفتح ومات مراهقاً.

وأما أمامة فتزوجها علي بن أبي طالب بعد خالتها فاطمة بوصية من فاطمة وتزوجها بعد موت علي المغيرة بن نوفل بن الحرث بن عبد المطلب بوصية من علي، فولدت له يحيى بن المغيرة وماتت عنده وكان عليه الصلاة والسلام يحبها كثيراً حتى حملها في الصلاة. ولدت زينب سنة ثلاثين من مولده ﷺ وماتت سنة ثمان من الهجرة.

وأما رقية فتزوجها عثمان بن عفان، قيل: في الجاهلية، وقيل: بعد إسلامه، وهاجر بها هجرة الحبشة، وولدت له عبد الله، مات بعدها وقد بلغ ست سنين نقره ديك في عينه فورم وجهه فمات. ولدت سنة ثلاث وثلاثين من مولده ﷺ وماتت يوم قدوم زيد بن حارثة المدينة بشيراً بقتلى بدر من المشركين، ولما عُزّي فيها ﷺ قال: «الحمد لله، دفن البنات من المكرمات».

قال الإمام الزرقاني: أي من الخصال التي يكرِّم الله بها الميتة لسترها وأهلها أو لضعفهن بالمؤنة وعدم استقلالهن وهذا وارد مورد التسلية عن المصيبة، وحاشاه ﷺ أن يقول ذلك كراهَة للبنات كما يظنه الجهلة.

وأما أم كلثوم فتزوجها عثمان بعد موت رقية، ولهذا يسمى ذا النورين. روى ابن ماجه وابن عساكر عن أبي هريرة قال: أتى النبي ﷺ عثمان عند باب المسجد فقال: «يا

عثمان هذا جبريل قد أمرني أن أزوجك أم كلثوم بمثل صداق رقية وعلى مثل صحبتها». ولم تلد له. ماتت سنة تسع من الهجرة[١]. ولما ماتت قال عليه الصلاة والسلام: «زوِّجوا عثمان، لو كان لي ثالثة لزوجته إياها وما زوجته إلاَّ بوحي من الله تعالى»[٢].

واعلم أن رقية وأم كلثوم تزوج إحداهما عتبة بن أبي لهب والأخرى عتيبة بن أبي لهب الذي أكله الأسد بدعوته ﷺ وطلقاهما قبل أن يدخلا بهما بأمر أبي لهب. قيل: كان المتزوج برقية عتبة والمتزوج بأم كلثوم عتيبة.

وأما فاطمة فهي أفضل أولاده ونساء العالمين كما يشهد له صريح الأخبار الصحيحة، وقد تقدم لك بعضها في رواية الشيخين ويقويه قول الحافظ في الفتح: انعقد الإجماع على أفضلية فاطمة على سائر النساء[٣].

وبقي الخلاف بين عائشة وخديجة، قال في الإصابة: وأخرج ابن عبد البر عن عمر أنه ﷺ قال لفاطمة: «ألا ترضين أنكِ سيدة نساء العالمين» قالت: يا أبت فأين مريم، قال: تلك سيدة نساء عالمها[٤]. اهـ.

قال الإمام الزرقاني في شرح المواهب الذي اختاره الإمام المقريزي والقطب الخضيري والإمام السيوطي بأدلة واضحة: إن السيدة فاطمة أفضل نساء العالمين حتى مريم اهـ.

وقال أيضاً: قال الإمام السبكي: الذي أختاره وأدين به أن فاطمة بنت رسول الله ﷺ أفضل ثم أمها خديجة ثم عائشة. والخلاف شهير، ولكن الحق أحق أن يتبع.

قال في المواهب: واعلم أن جملة ما اتفق عليه من أولاده ﷺ ستة، أربع اناث بالإجماع: زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة، كلهن أدركن الإسلام وهاجرن معه.

قال الإمام الزرقاني: المراد بالمعية المشاركة في الهجرة لا المصاحبة معه حين الهجرة اهـ.

قال القسطلاني: والذكور هم: القاسم، وهو أولهم، وإبراهيم، وهو آخرهم، وزينب وهي أكبر أخواتها، ورقية تليها، ثم أم كلثوم، ثم فاطمة وهي أصغرهن على الأصح. والأصح أن له من الذكور ثلاثة: إبراهيم والقاسم وعبد الله الملقب بالطيب والطاهر.

---

(١) رواه ابن ماجه (١/ ٤٠)، والإمام أحمد في فضائل الصحابة (١/ ٥١٥).
(٢) رواه الطبراني في الكبير (١٧/ ١٨٤).
(٣) انظر: الفتح (٧/ ١٠٩).
(٤) رواه النسائي في كتاب وفاة النبي ﷺ (ص ٢٣).

قال الزرقاني: وهذا هو المعتمد.

قال في المواهب: والقاسم أول ولد وُلِدَ له عليه الصلاة والسلام قبل النبوّة وبه كان يكنى، وعاش سبعة عشر شهراً على الصواب.

قال الزرقاني: وهو أول من مات من ولده، ولما مات قال العاص بن وائل: لقد أصبح محمد أبتر، فنزل: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَـٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝﴾ [الكوثر: الآية ١] عوضاً عن مصيبتك بالقاسم. ووقع الخلاف هل ولد القاسم قبل زينب وهي الأكبر، قال: والذي عليه ابن بكار في طائفة ولد القاسم ثم زينب ثم عبد الله. وقال الكلبي: زينب ثم القاسم ثم أم كلثوم ثم فاطمة ثم رقية ثم عبد الله، وكان يقال له الطيب والطاهر. قال: وهذا هو الصحيح وغيره تخليط اهـ. وأما إبراهيم فلا يخفى عليك أنه كان من مارية القبطية فهو آخر أولاده ﷺ بالإجماع.

قال في المواهب: وكانت سلمى زوج أبي رافع مولاة رسول الله ﷺ فوهب له عبداً وعق عنه لسابعه بكبشين وحلق رأسه أبو هند وسماه النبي ﷺ يومئذ وتصدق بزنة شعره وَرِقاً على المساكين ودفنوا شعره في الأرض.

قال الإمام الزرقاني: أي بأمره ﷺ.

قال: وفي البخاري من حديث أنس بن مالك أنه ﷺ قال: ولد لي الليلة غلام وسميته باسم أبي إبراهيم» ثم دفعه إلى أم أسيف امرأة قين بالمدينة ـ والقين بفتح القاف وسكون التحتية والنون ـ الحداد، وكان ذلك الحداد يقال له أبو سيف. قال: وفيه أنه بقي عندها إلى أن مات. ورواية البخاري هذه صريحة بتسميته صبيحة الولادة فتعارض رواية التسمية يوم السابع.

قال في المواهب: ويجمع بينهما بأن التسمية كانت قبل السابع كما في حديث، ثم ظهرت فيه.

قال: وأما حديث الترمذي مرفوعاً أنه أمر بتسمية المولود يوم سابعه فيحمل على أنها لا تؤخر عن السابع إلاَّ أنها لا تكون إلاَّ فيه بل هي مشروعة من الولادة إلى السابع.

قال: وتنافست نساء الأمصار فيمن ترضع إبراهيم عليه السلام، فأعطاه لأم بردة بنت المنذر، وهذا يخالف رواية البخاري من كونه أعطاه لأم سيف وبقي عندها إلى أن مات، قال فيحتمل أن يكون أعطاه أولاً أم بردة ثم أعطاه أم سيف ثانياً وبقي عندها إلى أن توفي[1]. قال: لكن ورد أنه توفي عند أم بردة. قال: فالتعويل على حديث البخاري.

---

(١) انظر: الفتح (٣/ ١٧٣)، (٩/ ٥٥٩)، وشرح مسلم للنووي (١٥/ ٧٥، ٧٧).

وقال القاضي عياض والحافظ ابن حجر باتحاد أم بردة مع أم سيف وأنهما امرأة واحدة تكنى بهذين اللفظين.

قال: وفي رواية أنس: ما رأيت أحداً أرحم بالعيال من رسول الله ﷺ، كان إبراهيم مسترضعاً في عوالي المدينة فكان ينطلق ونحن معه فيدخل البيت وكان ظئره قيناً فيأخذه فيقبّله ثم يرجع.

والظئر: بكسر الظاء: المرضع. والمراد منه هنا زوج المرضعة.

قال: وفي حديث جابر: أخذ ﷺ بيد عبد الرحمٰن بن عوف فأتى به النخلة فإذا ابنه إبراهيم يجود بنفسه ـ أي ينازع الموت ـ فأخذه ﷺ فوضعه في حجره ثم ذرفت عيناه، ثم قال: «إنا بك يا إبراهيم لمحزونون، تبكي العين ويحزن القلب ولا نقول ما يسخط الرب». ولما كان له من المكانة عند رسول الله ﷺ زيادة عن أخويه السابقين كان جديراً بقول أنس: لو بقي إبراهيم بن النبي ﷺ لكان نبياً ولكن لم يبق لأن نبيكم آخر الأنبياء.

وقال الإمام النووي: وما روي عن بعض المتقدمين: لو عاش إبراهيم لكان نبيّاً، باطل، وجسارة وهجوم على عظيم. وتعقّب ذلك الحافظ ابن حجر في الفتح متعجباً من قوله هذا مع وروده عن ثلاثة من أفاضل الصحابة، قال: وكأنه لم يظهر له وجه تأويله، فقال في إنكاره ما قال. وجوابه أن القضية الشرطية لا تستلزم الوقوع ولا يظن بالصحابي الهجوم على مثل هذا بالظن لا سيما وأحد الطرق رواه البخاري(١) عن ابن أبي أوفى قال: قلت لعبد الله بن أبي أوفى: رأيت إبراهيم بن النبي ﷺ، قال: مات صغيراً ولو قضي أن يكون بعد محمد نبي لعاش ابنه إبراهيم ولكن لا نبي بعده.

وقوله في الحديث: «مات صغيراً» أي في زمن الرضاع. واختلف هل بلغ سنة وعشرة أشهر وستة أيام أو سنة وعشرة أيام، وقد كمل رضاعه في الجنة كما في رواية ابن ماجه(٢) عنه ﷺ: «أن له مرضعاً في الجنة». ورواية الذهبي مرضعين في الجنة، ورواية الأكثر لا تنافي الأقل. وقد ورد ما يفيد عموم ذلك الأقل في كافة أولاد المؤمنين.

قال شيخ الإسلام الشبراملسي على المواهب: أخرج ابن أبي الدنيا أن في الجنة لشجرة لها ضروعُ البقر يغذى بها ولدان أهل الجنة. قال: فهذا عامّ في أولاد المؤمنين. قال: ويمكن أن يكون وجه الخصوصية في السيد إبراهيم كونه له مرضعان على خلقة

---

(١) في صحيحه (٥/ ٢٢٨٩)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٥/ ٤٥٢)، وانظر: الفتح (١٠/ ٥٧٨).

(٢) في سننه (١/ ٤٨٤)، وأحمد في المسند (٤/ ٢٩٧)، وانظر شرح مسلم للنووي (١٥/ ٧٦).

الآدميات إما من الحور العين أو غيرهن وذلك خاص به. قال: فإن إرضاع سائر الأطفال إنما يكون من ضرع شجرة طوبى ولا شك أن الذي بالسيد إبراهيم أكمل. قال: ويحتمل خصوصية أخرى أنه يدخل الجنة عقب الموت بروحه وجسده ويرضع بهما وسائر الأطفال إنما يرضعون بأرواحهم لا بأجسادهم اهـ.

قلت: والأظهر الأول، فإن رضاع الروح عائد على الجسم.

قال الإمام المتقدم: وفي الحديث أن في الجنة شجرة يقال لها طوبى كلها ضروع، فمن مات من الصبيان الذي يرضعون رضع من طوبى، وحاضنهم إبراهيم خليل الرحمٰن اهـ.

وفاطمة تزوجها عليّ، وهو ابن إحدى وعشرين سنة وخمسة أشهر، عقب رجوعهم من بدر. كذا في السيرة الحلبية وعليه تكون ولادتها قبل النبوة بنحو سنة، وقيل غير ذلك. وتوفيت بعد أبيها بستة أشهر على الصحيح ليلة الثلاثاء لثلاث خلون من رمضان سنة إحدى عشرة ودفنها علي ليلاً.

وفاطمة، كما قال ابن دريد، مشتقة من الفطم، وهو القطع، أي المنع. يقال: فطمت المرأة الصبي إذا قطعت عنه اللبن. سميت بذلك لأن الله تعالى فطمها عن النار كما وردت به الأخبار، فهي فاطمة بمعنى مفطومة، وقد كان خطبها أبو بكر ثم عمر فأعرض ﷺ عنهما، فلما خطبها علي أجابه وجعل صداقها درعه ولم يكن له غيرها وبيعت بأربعمائة وثمانين درهماً وجعل لها ﷺ وسادة من أدم حشوها ليف وملأ البيت رملاً مبسوطاً وأعطاها اهاب كبش تفرشه كما جاءت بذلك الروايات.

وفي حديث مسلم عن جابر قال: حضرنا عرس علي بن أبي طالب وفاطمة بنت رسول الله ﷺ فما رأينا عرساً أحسن منه، هيأ لنا رسول الله ﷺ زبيباً وتمراً.

وروى الطبراني من حديث أسماء قالت: لما أهديت فاطمة إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه، لم نجد في بيته إلاّ رملاً مبسوطاً ووسادة حشوها ليف وجرّة وكوزاً، فأرسل ﷺ يقول له: «لا تقربن أهلك حتى آتيكما» فجاء فدعا بإناء من ماء فسمى فيه وقال ما شاء الله أن يقول ثم مسح صدر علي ووجهه ثم دعا فاطمة فقامت تعثر في مرطها من الحياء فنضح عليها من ذلك[1].

وفي حديث بريرة: فدعا رسول الله ﷺ بماء فتوضأ منه فأفرغه على عليّ ثم قال:

---

(١) رواه الطبراني في الكبير (٢٤/ ١٣٧)، وعبد الرزاق في المصنف (٥/ ٤٨٥)، والإمام أحمد في فضائل الصحابة (٢/ ٥٦٨).

«اللهم بارك فيهما وبارك لهما في نسلهما»[١]. وفي رواية: فنضح الماء على رأسها وبين ثدييها وقال: «اللهم إني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم»[٢]. ولم يتزوج عليها حتى ماتت، وقد كان خطب عليها بنت أبي جهل فأنكر ذلك رسول الله ﷺ وقال: «والله لا تجتمع بنت رسول الله وبنت عدو الله عند رجل واحد أبداً» فترك علي الخطبة. وقد ولدت فاطمة من علي رضي الله عنهما ستة، ثلاثة ذكور وثلاثة إناث، فالذكور: الحسن والحسين والمحسِّن ـ بضم الميم وفتح الحاء وتشديد السين مكسورة ـ. والإناث: زينب وأم كلثوم ورقية، كذا زاد الليث بن سعد: رقية. قال: وماتت ولم تبلغ. نقله ابن الجوزي.

وأما الحسن والحسين فأعقبا الكثير الطيب وسيأتي الكلام عليهما.

وأما المحسِّن فأدرج سقطاً.

وأما زينب فتزوجها ابن عمها عبد الله بن جعفر بن أبي طالب فولدت له علياً وعوناً الأكبر وعباساً ومحمداً وأم كلثوم وذريتها موجودون إلى الآن بكثرة، وسيأتي الكلام عليها.

وأما أم كلثوم فتزوجها عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه وكان قد اعتذر إليه علي حين خطبها منه بصغرها فخطب عمر خطبة يقول فيها: إن الحامل لي على ذلك دخولي في قوله عليه الصلاة والسلام: «كل سبب ونسب منقطع يوم القيامة إلاَّ سببي ونسبي» فأجابه علي لذلك وزوجه إياها، وولدت له زيداً ورقية ولم يعقبا، وتزوجها بعده ابن عمها عون بن جعفر بن أبي طالب، فمات عنها ثم تزوجها بعده أخوه عبد الله فماتت عنده ولم تلد لأحد من الثلاثة شيئاً. ذكره السيوطي في رسالته الزينبية.

وفي المواهب: أنها ولدت للثاني بنتاً ماتت صغيرة، وهذا النسل المستمر لعلي وفاطمة ببركة دعائه لهما ﷺ عند خطبة التزويج بحضرة الصحابة.

قال الإمام ابن حجر في كتابه الصواعق: روي عن أبي الخير القزويني الحاتمي: أنه خطب علي فاطمة من رسول الله ﷺ بعد أن خطبها أبو بكر ثم عمر رضي الله عنهما فقال: «قد أمرني ربي بذلك». قال أنس: ثم دعاني النبي ﷺ بعد أيام فقال: «ادع لي أبا بكر وعمر وعثمان وعدّة من الأنصار» فلما اجتمعوا وأخذوا مجالسهم وكان عليّ غائباً قال ﷺ: «الحمد لله المحمود بنعمته المعبود بقدرته المطاع بسلطانه المرهوب من عذابه

---

(١) رواه الروياني في مسنده (١/ ٧٧).

(٢) رواه البخاري (٣/ ١٢٦٥)، (٤/ ١٦٥٥)، ومسلم (٤/ ١٨٣٨).

وسطوته النافذ أمره في سمائه وأرضه الذي خلق الخلق بقدرته وميّزهم بأحكامه وأعزهم بدينه وأكرمهم بنبيه محمد ﷺ، إن الله تبارك اسمه وتعالت عظمته جعل المصاهرة سبباً لاحقاً وأمراً مفترضاً أوشج به في الأرحام ـ أي ألّف بينها ـ وجعلها مختلطة مشتبكة، وألزم الأنام فقال عزّ من قائل: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾﴾ [الفُرقان: الآية ٥٤] فأمره تعالى يجري إلى قضائه وقضاؤه يجري إلى قدره، ولكل قضاء قدر، ولكل قدر أجل، ولكل أجل كتاب ﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ ﴿٣٩﴾﴾ [الرّعد: الآية ٣٩]. ثم إن الله عز وجل أمرني أن أزوّج فاطمة من علي بن أبي طالب، فاشهدوا أني قد زوجته على أربعمائة مثقال فضة إن رضي بذلك علي»، ثم دعا ﷺ بطبق من بسر ثم قال: «انتهبوا» فانتهبنا ودخل علي فتبسم النبي ﷺ في وجهه ثم قال: «إن الله عز وجل أمرني أن أزوجك فاطمة على أربعمائة مثقال فضة أرضيت بذلك» قال: رضيت بذلك يا رسول الله، فقال ﷺ: «قد جمع الله شملكما وأعزّ جدّكما وبارك عليكما وأخرج منكما كثيراً طيباً». فقال أنس: فوالله لقد أخرج الله منهما الكثير الطيب، كيف لا وهي سيدة نساء العالمين.

قال الإمام الزرقاني في شرح المواهب: وقول أنس في صدر الحديث وكان علي غائباً، ولعل غيبة علي كانت قريبة جداً، فلا يضر التفريق اليسير بين الإيجاب والقبول عند المالكية. قال: وأجاز أبو حنيفة التفريق مطلقاً ومنعه الشافعي مطلقاً اهـ.

قلت: ولا حاجة إلى هذا، فإن ذلك بالنسبة للأمة بعضها في بعض. وأما سيدها ﷺ فهو أولى بالمؤمنين من أنفسهم فمن خصوصياته ﷺ أن يتولى الطرفين سيما وقد أمره الله بتزويج فاطمة من علي كما هو صريح قوله ﷺ لعلي حين طلب منه ذلك، على أنه مصرح بإجابة علي نفسها في آخر الخطبة حين دخل علي في آخرها وتبسّم في وجهه ﷺ.

ويؤيد ذلك ما ذكره الإمام الزرقاني: أنه لما زوّج النبي ﷺ علياً فاطمة وهو غائب، قال: «جمع الله شملهما وأطاب الله نسلهما وجعل نسلهما مفاتيح الرحمة ومعدن الحكمة وأمن الأمة». فلما حضر علي تبسّم ﷺ وقال: «إن الله تعالى أمرني أن أزوجك بفاطمة على أربعمائة مثقال فضة»، فقال: رضيتها يا رسول الله. ثم خرّ علي ساجداً شكراً لله فلما رفع رأسه قال ﷺ: «بارك الله لكما وبارك فيكما وأعزّ جدّكما وأخرج منكما الكثير الطيب»[1].

---

(١) انظر: تحفة الأحوذي (٤/ ٢١٦).

وقد أخرج الشيخان عنها: أن النبي ﷺ قال لها: «يا فاطمة ألا ترضين أن تكوني سيدة نساء المؤمنين»[١].

وأخرج الحاكم عن سعيد: أن النبي ﷺ قال: «فاطمة سيدة نساء أهل الجنة إلا مريم ابنة عمران»[٢]. وقد سبق لك عن الإمام الجليل بقية المجتهدين الإمام السبكي: أنها أفضل نساء العالمين حتى مريم. وقال: هذا الذي أدين الله عليه وهذا الذي ينشرح له الصدر ولا يعدل عنه، كيف وهي بضعة رسول الله ﷺ وقد أجمعوا على أن التراب الّذي ضم أعظمه أفضل بقاع الأرض والسماء حتى الجنة.

وصريح رواية البخاري: «مريم سيدة نساء عالمها وأنت سيدة نساء العالمين». برهان قاطع في ذلك، أمدنا الله من فيض إمداداتها وسقانا من كأس شراب محبتها وذريتها.

وعن أبي هريرة: أن النبي ﷺ قال لعلي: «فاطمة أحب إليّ منك وأنت أعزّ عليّ منها».

وأخرج أبو بكر في الغيلانيات عن أبي أيوب: أن النبي ﷺ قال: «إذا كان يوم القيامة نادى مناد من بُطْنَانِ العرش: يا أهل الجمع نكسوا رؤوسكم وغضُّوا أبصاركم حتى تمر فاطمة بنت محمد ﷺ على الصراط، فتمر مع سبعين ألف جارية من الحور العين كمر البرق»[٣]. وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم كلما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون.

وأما بيان ما ورد في فضل أهل بيته على العموم ﷺ وذرّيتهم وبيان أن صلتهم تكون صلة لرسول الله ﷺ، فاعلم، وفقّنا الله وإياك لخدمة أهل بيته ﷺ، أن الله قد أمرنا على لسان نبيه بالمودة لأهل بيته بقوله: ﴿قُل لَّا أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: الآية ٢٣]. ومن إفراد المودّة والصلة زيارتهم مقدماً لهم على غيرهم متوسّلاً إليهم بشفاعة جدّهم.

قال المحقق ابن حجر: أخرج الديلمي مرفوعاً: «من أراد التوسل وأن يكون له عندي يد أشفع له بها يوم القيامة فليصل أهل بيتي ويدخل السرور عليهم».

قال: وأخرج الإمام أحمد في مسنده عنه ﷺ: «إني أوشك أن أُدعى فأُجيب، وإني

(١) تقدم تخريجه.
(٢) رواه البخاري (٣/١٢٦٦)، والحاكم (٤/٤٧).
(٣) رواه أبو الشيخ في العظمة (٤/١١٥٨)، والبيهقي في شعب الإيمان (٦/٤٤)، والفاكهي في أخبار مكة (١/٤٦٩).

تارك فيكم الثقلين كتاب الله عز وجل حبل ممدود من السماء إلى الأرض وعترتي أهل بيتي، وإن اللطيف أخبرني أنهما لن يتفرقا حتى يردا على الحوض فانظروا بماذا تخلفوني فيهما»[(١)].

وفي رواية: «إنما أهل بيتي فيكم كمثل سفينة نوح من ركب فيها نجا ومن تخلّف عنها غرق»[(٢)].

قال: وفي رواية صححها الحاكم على شرط الشيخين: «النجوم أمان لأهل الأرض من الغرق وأهل بيتي أمان لأمّتي من الاختلاف، فإذا خالفتها قبيلة من العرب اختلفوا فصاروا حزب إبليس»[(٣)]. اهـ. ولعل المراد من الغرق ما يلحقهم من العذاب لولا وجودهم كما يدل عليه ما في بعض الروايات، فإذا ذهب أهل بيتي جاء أهل الأرض من العذاب ما كانوا يوعدون. ويحتمل أن المعنى: أن من أحبهم وعمل بمقتضى سنّة جدهم نجا من ظلمة الأغيار والطغيان، ومن تخلف عنها غرق في بحر كفر النعمة والبهتان.

قال: وأخرج أبو سعيد عن علي: أخبرني رسول الله ﷺ: «أن أول من يدخل الجنة أنا وفاطمة والحسن والحسين»، فقلت: يا رسول الله فمحبونا؟ قال: «من ورائكم».

قال: وأخرج أحمد أنه ﷺ أخذ بيد الحسنين وقال: «من أحبني وأحب هذين وأمهما وأباهما كان معي في درجتي يوم القيامة»[(٤)]. والمراد معية القرب والمشاهدة لا معية المكان والمنزل.

قال: وأخرج الطبراني مرفوعاً: «من اصطنع لأحد من ولد عبد المطلب يداً فلم يكافئه بها في الدنيا فعليّ مكافأته غداً يوم القيامة إذا لقيني». وفي خبر عنه ﷺ: «أربعة أنا لهم شفيع يوم القيامة: المكرم لذريتي، والقاضي لهم حوائجهم، والساعي لهم في أمورهم عندما اضطروا إليه، والمحب لهم بقلبه ولسانه».

ومن مزيد فضلهم أن الله قد وكّل بعض الملائكة بمعونتهم كما ورد عنه ﷺ: أنه أرسل أبا ذرّ ينادي علياً، فرأى رحى تطحن في بيته وليس معها أحد فأخبر النبي ﷺ بذلك فقال: «يا أبا ذر أما علمت أن لله ملائكة سياحين في الأرض قد وكّلوا بمعونة آل محمد ﷺ».

---

(١) رواه أحمد في المسند (٣/ ١٤، ١٧، ٢٦، ٥٩).

(٢) رواه البزار (٩/ ٣٤٣)، والطبراني (٣/ ٤٥، ٤٦)، (١٢/ ٣٤)، والقضاعي (٢/ ٢٧٣)، والدارقطني في العلل (٦/ ٢٣٦).

(٣) رواه الحاكم (٢/ ٤٨٦)، (٣/ ١٦٢)، والروياني في مسنده (٢/ ٢٥٣)، وابن المبارك في الزهد (ص ٢٠٠).

(٤) رواه أحمد في المسند (١/ ٧٧)، والضياء في المختارة (٢/ ٤٥).

ومما ينبغي لك زيادة الأدب مع كل شريف وإجلاله وإكرامه بقدر الطاقة تعظيماً لجدهم عليه الصلاة والسلام.

وأخرج الخطيب عنه ﷺ: «يقوم الرجل للرجل إلا بني هاشم فإنهم لا يقومون لأحد».

وفي رواية عن أنس قال: بينما النبي ﷺ في المسجد إذ أقبل عليّ فسلّم ثم وقف، فنظر النبي ﷺ في وجوه الصحابة أيهم يفسح له وكان أبو بكر رضي الله عنه عن يمين رسول الله ﷺ فتزحزح له عن مجلسه وقال له: ها هنا يا أبا الحسن. فجلس بين النبي ﷺ وبين أبي بكر، فعرف البشر في وجه رسول الله ﷺ وقال: «يا أبا بكر إنما يعرف الفضل من الناس ذوو الفضل»[١].

وأخرج أبو نعيم وابن عساكر عن ابن أبي ليلى: أن النبي ﷺ قال: «الصديقون ثلاثة: حبيب النجار وهو مؤمن من آل يس الذي قال: يا قوم اتبعوا المرسلين وحزقيل: مؤمن آل فرعون، قال: أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله وعليّ بن أبي طالب»[٢].

وأخرج الخطيب عن البزار والديلمي عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: «علي مني بمنزلة رأسي من بدني»[٣].

وأخرج ابن سعد عنه قال: «والله ما نزلت آية إلاً وقد علمت فيما أُنزلت وأين نزلت وعلى من أُنزلت، إن ربي وهب لي قلباً عقولاً ولساناً ناطقاً»[٤]. وكفاه شرفاً قوله ﷺ: «عنوان صحيفة المؤمن حبُ علي بن أبي طالب وجعل ذرية النبي في صلبه»[٥].

كما أخرجه الطبراني والخطيب عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: «الزموا مودّتنا أهل البيت فإن من لقي الله عز وجل وهو يودّنا دخل الجنة بشفاعتنا، والذي نفسي بيده لا ينفع عبداً عمله إلاّ بمعرفة حقّنا»[٦]. أخرجه الطبراني في الأوسط.

واعلم أنه حيث صح النسب إليه ﷺ لشخص ولو بتحسين الظن فلا ينبغي التفتيش بالبحث عن الأنساب، فالناس مأمونون على أنسابهم، فينبغي سلوك الأدب معهم وإجلالهم أدباً مع جدّهم ولو كان ظاهر أحدهم غير مرضي فإن ذلك لا يقطع نسبه. وما ورد من الأحاديث التي تفيد بُعْدَه فذلك من باب الحث والزجر، ولذلك حكى المحقق

---

(١) أورده الحسيني في البيان والتعريف (ص ٢٧٤).
(٢) رواه أحمد في فضائل الصحابة (٢/ ٦٢٧، ٦٥٥)، والديلمي في الفردوس (٢/ ٤٢١).
(٣) رواه ابن الجوزي في العلل المتناهية (١/ ٢١٢).
(٤) رواه ابن سعد في الطبقات الكبرى (٢/ ٣٣٨).
(٥) رواه ابن الجوزي في العلل (١/ ٢٤٥).
(٦) أورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٩/ ١٧٢).

ابن حجر في كتابه الصواعق عن التقي الفارسي عن بعض الأئمة أنه كان يبالغ في تعظيم الأشراف، فسئل عن سبب تلك المبالغة فقال: إن شخصاً من الأشراف يقال له مطيرٌ قد مات، وكان كثير اللعب واللهو فتوقف الأستاذ عن الصلاة عليه فرأى النبي ﷺ في المنام ومعه فاطمة الزهراء فأعرضت عنه فاستعطفها حتى أقبلت عليه وعاتبته وقالت له: أما يسع جاهنا مطيراً.

وكذلك ذكر العارف بالله سيدي محمد الفارسي: أنه كان يرى من بعض الأشراف أولاد الحسين ما يخالف ظاهره السنة، فقال لي النبي مناماً: يا فلان باسمي ما لي أراك تبغض أولادي؟ قلت: حاشى لله ما أكرههم يا رسول الله وإنما كرهت ما رأيت من فعلهم، فقال لي مسألة فقهية: أليس الولد العاق يلحق بالنسب؟ قلت: بلى يا رسول الله، قال: هذا ولد عاق. اهـ.

وقد قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ﴾ [الطُور: الآية ٢١] الآية، إن الله يرفع ذرية المؤمن معه في درجته يوم القيامة وإن كانت دونه في العمل، وقد أكرم الله اليتيمين بصلاح أبيهما. وقد قيل: إنه كان سابع جد لهما، فقال تعالى: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾ [الكهف: الآية ٨٢] فما بالك بسيد الأنام بالنسبة لذريته الكرام.

قال الإمام ابن حجر: وقد قيل إن سبب إكرام حمام الحرم أنه من ذرية الحمامتين اللتين عششتا على غار ثور الذي اختفى فيه ﷺ عند خروجه للهجرة، وقد علمت أن حسن الظن يكفينا فليس لنا البحث على صحة أنسابهم اهـ.

ومما يدل له على وجه الاستئناس ما ذكره أبو الفرج ابن الجوزي في كتابه الملتقط قال: كان رجل ببلخ من العلويين نازلاً بها وكان له زوجة وبنات، فتوفي الرجل، قالت المرأة: فخرجت بالبنات إلى سمرقند خوفاً من شماتة الأعداء فوصلت في شدة البرد فأدخلت البنات مسجداً ومضيت لأحتال لهن في القوت، فرأيت الناس مجتمعين على شيخ فسألت عنه فقالوا: هذا شيخ البلد، فتقدمت إليه وشرحت حالي له فقال: أقيمي عندي البيِّنة أنك علوية ولم يلتفت إليّ، فعدت إلى المسجد فرأيت في طريقي شيخاً جالساً على دكة وحوله جماعة، فقلت: من هذا؟ فقالوا: ضامن البلد وهو مجوسي، فقلت: عسى أن يكون عنده الفرج. فتقدمت إليه وحدثته حديثي وما جرى لي مع شيخ البلد وأن بناتي في المسجد ما لهن شيء يقتتن به، فصاح بخادم له فخرج فقال: قل لسيدتك تلبس ثيابها، فلبست وخرجت ومعها جوار فقال لها: اذهبي مع هذه إلى المسجد الفلاني واحملي بناتها إلى الدار. فجاءت معي وحملت بناتي إلى الدار وقد أفرد لنا داراً في بيته وأدخلنا الحمام وكسانا ثياباً فاخرة وأرغد علينا بألوان الأطعمة. فلما كان نصف الليل رأى شيخ البلد المسلم كأن القيامة قد قامت وأن اللواء على رأس

محمد ﷺ فأعرض عنه فقال: يا رسول الله تعرض عني وأنا رجل مسلم؟ فقال له: أقم البيّنة عندي أنك مسلم. فتحيّر الرجل، فقال له رسول الله ﷺ: أنسيت ما قلت للعلوية، وهذا القصر للشيخ الذي هي في داره الآن. فانتبه الرجل وهو يبكي ويلطم وبعث غلمانه في البلد وخرج بنفسه يدور على العلوية فأخبر أنها في دار المجوسي، فجاء إليه فقال: أين العلوية، فقال عندي، فقال: إني أريدها، قال: ما إلى هذا سبيل، قال: هذه ألف دينار وتسلمها إليّ، فقال: لا والله ولا بمائة ألف دينار. فلما ألحّ عليه قال له ـ يعني المجوسي ـ: المنام الذي أنت رأيته أنا رأيته أيضاً والقصر الذي رأيته لي حق وأنت تتعزز عليّ بإسلامك والله ما دخلت بيتنا إلاّ وقد أسلمنا كلنا على يديها وعادت بركاتها علينا ورأيت رسول الله ﷺ فقال لي: هذا القصر لك ولأهلك بما فعلت مع العلوية وأنتم من أهل الجنة خلقكم الله مؤمنين اهـ.

وكفاهم شرفاً أن الصلاة المفروضة لا تقبل على وجه الكمال إلاّ بانضمام الصلاة عليهم معه ﷺ.

ففي الحديث عن أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه كما أخرجه الدارقطني والبيهقي عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من صلّى صلاة لم يصل فيها عليّ وعلى أهل بيتي لم تُقبل»[1].

وأخذ الإمام الشافعي بظاهره وحكم بوجوبها على النبي وسنها على آله ولذلك قال رضي الله عنه في هذا المعنى مشيراً إلى وصفهم ومنبّهاً على ما خصّهم الله تعالى به من رعاية فضلهم ووجوب محبتهم وتحريم بغضهم التحريم الغليظ بقوله:

يا أهل بيت رسول اللّه حبكمو فرض من اللّه في القرآن أنزله

كفاكمو من عظيم الأجر أنكمو من لم يُصلّ عليكم لا صلاة له

قال العلامة الصبان في إسعاف الراغبين في سيرة المصطفى وفضائل أهل بيته الطاهرين، وذكر الفخر الرازي: أن أهل بيته ﷺ ساووه في خمسة أشياء: في الصلاة عليه وعليهم في التشهد وفي السلام، يقال في التشهد: السلام عليك أيها النبي، وقال تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلۡ يَاسِينَ﴾ [الصافات: ١٣٠]. وفي الطهارة، قال تعالى: ﴿طه ①﴾ [طه: الآية ١] أي: يا طاهر، وقال تعالى: ﴿وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا﴾ [الأحزاب: الآية ٣٣]. وفي تحريم الصدقة، وفي المحبة قال تعالى: ﴿فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: الآية ٣١]، وقال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ [الشورى: الآية ٢٣]. ومما نسب إلى الشيخ الأكبر محيي الدين ابن العربي قدس سره:

(١) رواه الدارقطني (١/ ٣٥٥)، وفي العلل له (٦/ ١٩٧)، وانظر: نيل الأوطار للشوكاني (٢/ ٣٢٢).

رأيـت ولائـي آل طٰـه فـريـضـة على رغم أهل البعد يورثني القربا
فما طلب المبعوث أجراً على الهدى بتبليغه إلاّ المودة في القربى

ومما قاله الإمام اللغوي أبو عبد الله محمد بن علي بن يوسف الأنصاري الشاطبي لزيد بن إسحٰق النصراني:

عـديّ وتَـيْـم لا أحـاول ذكـرهـم بـسـوء ولـكـنـي مـحـب لـهـاشـم
ومـا يـعـتـريـنـي فـي عـلـيّ ورهـطـه إذا ذكـروا فـي الـلّـه لـوْمَـةُ لائـم
يقولون ما بال النصارى تحبهم وأهل النُّهى من أعْرُب وأعاجِم
فقلت لهم إني لأحسب حبهم سرى في قلوب الخلق حتى البهائم

وقال إمامنا الشافعي رضي الله عنه:

يا راكباً قف بالمحصب من منى واهتف بساكن خيفها والناهض
سحراً إذ أفاض الحجيج إلى منى فيضاً كملتطم الفرات الفائض
إن كـان رفـضـاً حـب آل مـحـمّـد فـلـيـشـهـد الـثـقـلان أني رافـضـي

قال البيهقي: إنما قال الشافعي ذلك من نسبة الخوارج له إلى الرافضة حسداً وبغياً.

ولبعضهم:

هم القوم من أصفاهم الود مخلصا تمسك في أخراه بالسبب الأقوى
هم القوم فاقوا العالمين مناقبا محاسنهم تحكى وآياتهم تُروى
مـوالاتـهـم فـرض وحـبـهـم هـدى وطـاعـتـهـم ودّ وودّهـم تـقـوى

فالزم يا أخي محبتهم ومودتهم واحذر عداوتهم وأن تقع فيهم بشيء مخافة أن تقع فيما تقدم من الوعيد.

واعلم أن المحبة المعتبرة الممدوحة هي ما كانت مع اتباع سنّة المحبوب، إذ مجرّد محبتهم من غير اتّباع لسنتهم كما تزعمه الشيعة والرافضة من محبتهم مع مجانبتهم للسنة لا تفيد مدعيها شيئاً من الخير بل تكون عليه وبالاً وعذاباً في الدنيا والآخرة، على أن هذه ليست محبة في الحقيقة، إذ حقيقة المحبة الميل إلى المحبوب وإيثار محبوباته ومرضياته على محبوبات النفس ومرضياتها والتأدب بأخلاقه وآدابه. ومن ثم قال علي كرَّم الله وجهه: «لا يجتمع حبي وبغض أبي بكر وعمر» أي لأنهما ضدان وهما لا يجتمعان.

وأخرج الدارقطني مرفوعاً: «يا أبا الحسن أما أنت وشيعتك في الجنة وإن قوماً

يزعمون أنهم يحبونك يصغرون الإسلام ثم يلفظونه يمرقون منه كما يمرق السّهم من الرمِيّة لهم نبز يقال لهم: الرافضة، فإذا أدركتهم فقاتلهم فإنهم مشركون». قال الدارقطني: ولهذا الحديث عندنا طرقات كثيرة[١]. اهـ.

وروي عن سيدي جعفر بن محمد عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ أنه قال لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: «إذا هالك أمر فقل اللهُمَّ صلِّ على محمد وعلى آل محمد، أسألك أن تكفيني ما أخاف وأحذر، فإنك تكفى ذلك الأمر».

وأخرج الحافظ أبو محمد عبد العزيز بن الأخضر في معالم العترة النبوية من طريق أبي نعيم قال: أخبرنا محمد قال: حدثنا محمد بن الحرث قال: أخبرنا سويد قال: ثنا معاوية بن عمار عن جعفر بن محمد قال: «من صلّى على محمد وعلى آل بيته مائة مرة قضى الله له مائة حاجة ـ وفي رواية عن جابر مرفوعاً: ـ سبعين منها لآخرته وثلاثين منها لدنياه» أخرجه ابن منده. وقال الحافظ أبو موسى المديني: إنه غريب حسن.

وقال المحقق ابن حجر في الصواعق: روى أبو داود: من سرّه أن يكتال بالمكيال الأوفى إذا صلى علينا أهل البيت فليقل: اللهمَّ صلِّ على سيدنا محمد النبي وأزواجه وذريته وأهل بيته كما صليت على إبراهيم إنك حميد مجيد».

ثم اختلف في المراد من قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ [الأحزاب: الآية ٣٣] هل هو خصوص ذريّة علي وفاطمة أو يعمهم وغيرهم من آل العباس وآل جعفر وآل عقيل وهو ما يفيده كلام المحقق السيوطي في رسالته الزينبية في تعريف الأشراف ولفظه.

اعلم أن اسم الشريف يطلق في الصدر الأول على كل من كان من أهل البيت سواء كان حسنياً أو حسينياً أو علوياً من ذرية محمد ابن الحنفية أو غيره من أولاد علي أو جعفرياً أو عقيلياً أو عباسياً، قال: ولهذا نجد تاريخ الحافظ الذهبي مشحوناً في التراجم بـ: يقول الشريف العباسي، يقول الشريف العَقِيلي، يقول الشريف الجعفري، يقول الشريف الزينبي. فلما تولى الخلافة الفاطميون بمصر قصروا الشريف على ذرية الحسن والحسين فقط واستمر ذلك بمصر إلى الآن.

قال المحقق الصبان: وقد يقال على اصطلاح مصر: الشرف أنواع، نوع عام لجميع أهل البيت ونوع خاص بالذريّة، فيدخل فيه الزينبيون وجميع أولاد بناته وأخص منه وهو شرف النسبة وهذا مختصر بالحسن والحسين اهـ.

واستدل القائل على عدم العموم بما روي من طرق صحيحة أن رسول الله ﷺ جاء

(١) رواه عبد الله بن أحمد في السنة (٢/ ٥٤٨)، والطبراني في الأوسط (٧/ ٣٤٣).

ومعه علي وفاطمة والحسن والحسين قد أخذ كل واحد منهما بيده ﷺ حتى دخل، فأدنى علياً وفاطمة وأجلسهما بين يديه وأجلس حسَناً وحُسَيناً على فخذيه، ثم لفّ عليهما كساء ثم تلا هذه الآية: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: الآية ٣٣] وفي رواية: «اللهم هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً»، وفي رواية: «اللهمَّ هؤلاء آل محمد فاجعل صلواتك وبركاتك على آل محمد كما جعلتها على إبراهيم إنك حميد مجيد»[١].

قال المحقق البيضاوي مؤيداً للقول بالعموم: التخصيص لا يناسب ما قبل الآية وما بعدها، والحديث إنما يقتضي أنهم أهل البيت لا أنه ليس غيرهم اهـ.

قلت: على أن التخصيص لزيادة النسبة الخاصة بهم لما لهم من تمام المكانة والرتبة عنده، ولا ينافي ذلك العموم. ويحتمل أن التخصيص بالكساء لهؤلاء الأربع لأمر إلهي يدل له حديث أم سلمة، قالت: فرفعت الكساء لأدخل معهم فجذبه من يدي، فقلت: وأنا معكم يا رسول الله، فقال: «إنك من أزواج النبي ﷺ على خير». وفي رواية: أنه أدرج معهم جبريل وميكائيل.

قال المحقق ابن حجر: روى أحمد والطبراني عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «أنزلت هذه الآية في خمسة: فيّ وفي علي وحسن وحسين وفاطمة».

وروى ابن أبي شيبة وأحمد والترمذي والطبراني والحاكم وصححه عن أنس: أن رسول الله ﷺ كان يمر ببيت فاطمة إذا خرج إلى صلاة الفجر فيقول: «الصلاة أهل البيت إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً»[٢] اهـ.

وقد صرّح في بعض الروايات بما يفيد العموم كما رواه مسلم والنسائي[٣] عن زيد بن أرقم قال: قام فينا رسول الله ﷺ خطيباً فقال: «أذكركم الله في أهل بيتي» ثلاثاً، فقيل لزيد بن أرقم: ومن أهل بيته؟ فقال: أهل بيته من حرم عليه الصدقة بعده. قيل: ومن هم؟ قال: آل علي وآل عقيل وآل جعفر وآل عباس وبالجملة فهذه الذرية الطاهرة النبوية قد خصوا بمزيد التشريف وعموا بواسطة السيدة فاطمة بفضل منيف وألبسوا رداء الشرف، ومنحوا بمزيد الإكرام والتحف. وقد وقع الاصطلاح على اختصاصهم من بين ذوي الشرف كالعباسيين والجعافرة بالشطفة الخضراء لمزيد شرفهم فاتخذ لهم المأمون بن هارون الرشيد شعاراً أخضر وألبسهم ثياباً خضراً لكون السواد شعار العباسيين والبياض

---

(١) رواه الترمذي (٥/ ٣٥١)، والطبراني في الكبير (٩/ ٢٥)، وفي الأوسط (٧/ ٣١٩).

(٢) رواه أحمد (٣/ ٢٥٩)، وابن أبي شيبة في المصنف (٦/ ٣٨٨)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٥/ ٣٦٠)، والطبراني في الكبير (٣/ ٥٦)، (٢٢/ ٤٠٢).

(٣) رواه مسلم (٤/ ١٨٧٣)، وأحمد (٤/ ٣٦٦)، والدارمي (٢/ ٥٢٤)، والنسائي في الكبرى (٥/ ٥١).

شعار سائر المسلمين في الجمع والأعياد ونحوها، والأحمر مختلف في كراهته وغيرها، والأصفر شعار اليهود في آخر أمرهم، وبقي ذلك شعار الأشراف العلويين من السيدة الزهراء لكنهم اختصروا الثياب إلى قطعة من ثوب أخضر توضع على عمائمهم ثم انقطع ذلك إلى أواخر القرن الثامن، فأمر السلطان الأشرف شعبان بن حسن بن الناصر محمد بن المنصور قلاوون في سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة بإعادة الطراز الأخضر للأشراف ليمتازوا عن الناس اعتناء بشأنهم، ففعل ذلك بمصر والشام وغيرهما. وفي ذلك يقول الأديب أبو عبد الله محمد بن جابر الأندلسي نزيل حلب الشهير بالأعمى والبصير:

جعلوا لأبناء الرسول علامة ... إن العلامة شأن من لم يشهر

نور النبوّة في كريم وجوههم ... يغني الشريف عن الطراز الأخضر

اهـ من المواهب وشرحه. جعلنا الله من جملة خدمهم الداخلين في ساحة كرمهم بجاه جدّهم عليه الصلاة والسلام وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم كلما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون.

وأما ما يتعلق بذكر أمير المؤمنين سيِّدنا علي كرَّم الله وجهه ورضى عنه وأمدنا بمدده، فاعلم أن فضائله الجليلة لا تحصيها الأقلام، وعلمه وفصاحته ونجدته وشجاعته لا تحيط بها الأوهام، وناهيك بما ظهر له يوم خيبر مما يبهر العقول. قال الإمام تقي الدين السبكي رضي الله عنه في تائيته:

وقلتَ عليّ سَوْفَ تَفتح في غدٍ ... لخيبر حصناً فارتقاهُ بغُدْوَة

وأذهب عنه الحرَّ والبَرد دعوَةً ... كما عوفيَتْ عيْناهُ منك بتفْلة

قال شارحها جلال الدين المحلى رضي الله عنه: أما الإمام علي كرَّم الله وجهه فهو بدر الأولياء وصدر الأصفياء وعلم الأتقياء وزين الأقرباء، ختمت الخلافة بأبي الحسنين كما ختمت النبوّة بسيد الكونين، فهو أمير المؤمنين رابع الخلفاء الراشدين، معدن المعارف والعلوم، وموطن الحقائق والفهوم، يعسوب الدين ونور المطيعين، وولي المتقين، ومبيد المشركين، أقدم الأمة إجابة وإيماناً وأقوم الأمراء قضية وإتقاناً، ذو الفريقين وأبو الروحانتين، فاز من المصطفى بالإخاء، وفاق بالمصاهرة على سيدة النساء، لم يسجد لصنم، ولم يقسم بزَلَم، قد اشتهرت في مهامه الحروب شجاعته، وظهرت في دقائق العلوم براعته، وعرفت عن شبهات الأمور نزاهته، وكبرت عن شهوات النفوس زهادته، كنّاه رسول الله ﷺ بأبي تراب فكانت أحب ما ينادى به إليه، ولما آخى النبي ﷺ بين أصحابه ضمّ كل شكل إلى شكله حتى آخى بين أبي بكر وعمر، ثم ادّخر علياً لنفسه واستخلفه ليلة الهجرة في فرشه وكان يعطيه رايته العظمى ويقدمه بها نحو الأعداء.

أبوه أبو طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، شقيق عبد الله والد النبي ﷺ، وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف، أسلمت وهاجرت إلى المدينة وماتت بها، فخلع رسول الله ﷺ قميصه فألبسها إياه واضطجع في قبرها، فسئل عن ذلك فقال: «ألبستها لتلبس من ثياب أهل الجنة واضطجعت في قبرها لأخفف عنها من ضغطة القبر إنها كانت أحسن خلق الله إليّ صنيعاً بعد أبي طالب»[١].

وأما مناقبه من شجاعة وعلم وسخاء وزهد وخشوع وتواضع، فأكثر من أن تحصر.

روي أن أبا النّياح جاءه فقال: إن بيت المال قد امتلأ من بيضاء وصفراء. فأتى بيت المال فجمع المستحقين وقسم جميع ما فيه وهو يقول: «يا بيضاء ابيضّي ويا صفراء اصفرّي غرّي غيري» حتى لم يترك ديناراً ولا درهماً، ثم أمر بنضحه وصلى فيه ركعتين راجياً أن يشهد له يوم القيامة.

وعن ابن المسيب قال: لم يكن من الصحابة من يقول: «سلوني سلوني» غير علي.

وورد في مجمع الأحباب ما معناه: بينا علي يخطب عرض له أعرابي فقال: أين جبريل الآن؟ فنظر يميناً وشمالاً ورفع رأسه ثم أطرقها ثم قال: «فتشت الدائرة السفلى والدائرة العليا والمشرق والمغرب فلم أر جبريل في شيء منها فإن تكن الفراسة حقاً فأنت جبريل»، فقال: صدقت، ولم يُخْلَق بَعْدَك مثلُكَ. ثم غاب عن أعين الناس وذلك بعد قوله: «سلوني سلوني» رضي الله عنه.

وعنه رضي الله عنه أنه قال: «ليس الخير أن يكثر مالك وولدك ولكن الخير أن يكثر علمك ويعظم حلمك فإن أحسنت حمدت الله وإن أسأت استغفرت الله تعالى ولم يزل رضي الله عنه في خدمة رسول الله ﷺ وطاعته حتى شهد معه المشاهد كلها غير أنه استخلفه في تبوك على المدينة ولم يحصل تبوك وله في سائر المشاهد آيات مشهورة وخصوصاً في خيبر.

روي أن النبي ﷺ حصل له في خيبر شقيقة بصداع فأعطى الراية أبا بكر فقاتل قتالاً شديداً ثم أعطاها لعمر ثانياً فقاتل قتالاً أشد من الأول غير أن خيبر لم تفتح فقال: «لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله يفتح الله على يده» فبات الناس ليلتهم يَدُوكون أيهم يعطاها[٢] ـ أي يخوضون في الحديث في ذلك كما سيأتي تفسيره في حديث ابن حجر ـ فلما أصبح قال: «أين علي؟» قالوا: رمد يشتكي عينيه، قال: «فادعوه» فأتوه به يقودونه فبصق في عينيه ودعا له فشفي لوقته حتى كأن لم يكن به

(١) رواه الطبراني في الأوسط (٧/ ٨٧).
(٢) رواه البخاري (٣/ ١٠٧٧، ١٠٨٦)، (٤/ ١٥٤٢)، ومسلم (٣/ ١٤٤٠)، (٤/ ١٨٧١).

وجع. وإلى ذلك أشار محب الحضرة النبوية الإمام البوصيري في همزيته بقوله:

وعليّ لما تفلت بعينيه ... وكلتاهما معار مداء

فغدا ناظراً بعيني عقاب ... في غزاة لها العُقاب لواء

فأعطاه الراية فقال: يا رسول الله، أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا، فقال: «انفُذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من أن يكون لك حمر النعم». فأتى خيبر فخرج إليه مَرْحَبٌ صاحب الحصن وعليه مغفر وحجر قد نقره على رأسه مثل البيضة وهو يرتجز ويقول:

قد علمت خيبر أني مرْحَبُ ... شاكي السلاح بطل مجرب

إذ الحروب أقبلت تلتهب

فخرج إليه عليٌّ كرَّم الله وجهه فقال:

أنا الذي سمتني أمي حَيْدَرَة ... كليث غابات كريهِ المَنْظَره

أكِيلُهم بالسيف كيل السندرة

ثم ضرب مرحباً فقدَّ الحجر والمغفر وفلق رأسه حتى أخذ في الأضراس وحمل يومئذ باب الحصن على ظهره حتى صعد المسلمون عليه فدخلوها وأرادوا بعد ذلك حمله فلم يحمله إلاّ أربعون رجلاً[1].

وعن أبي رافع قال: ضرب يهودي علياً فطرح ترسه فتناول علي باباً كان عند الحصن فكان ترسه، فما زال في يده حتى فتح الله عليه فألقاه من يده، قال أبو رافع: فلقد رأيتني أنا وسبعة معي نجهد أن نقلب الباب فلم نستطع. اهـ باختصار وزيادة.

وقد ذكر الإمام ابن حجر في الصواعق نبذة من مآثره وأربعين حديثاً في فضائله، ولنذكرها تبرُّكاً بهذه الآثار. ونص عبارته:

الفصل الثاني

في فضائله رضي الله عنه وكرَّم الله وجهه

وهي كثيرة عظيمة شهيرة، حتى قال أحمد: ما جاء لأحد من الفضائل ما جاء لعليّ.

(١) رواه مسلم (٣/ ١٤٤٠)، والحاكم (٣/ ٤١، ٤٩٤)، وأبو عوانة في مسنده (٤/ ١٠٥، ١٠٦)، وابن حبان (١٥/ ٣٨٠، ٣٨٢)، والنسائي في الكبرى (٥/ ١٠٩، ١٧٨)، وأحمد في المسند (٣/ ٣٨٥)، (٤/ ٥١)، (٥/ ٣٥٨).

وقال إسماعيل القاضي والنسائي وأبو علي النيسابوري: لم يرد في حق أحد من الصحابة بالأسانيد الحسان أكثر مما جاء في علي.

وقال بعض المتأخرين من ذرية أهل البيت النبوي: وسبب ذلك والله أعلم أن الله أطلع نبيه على ما يكون بعده مما ابتلي به علي ما وقع من الاختلاف، ولما آل إليه أمر الخلافة فاقتضى ذلك نصح الأمة باشتهاره بتلك الفضائل لتحصل النجاة لمن تمسك به ممن بلغته، ثم لما وقع ذلك الاختلاف والخروج عليه نشر من سمع من الصحابة تلك الفضائل وبثها نصحاً للأمة أيضاً، ثم لما اشتد الخطب واشتغلت طائفة من بني أمية بتنقيصه وسبه على المنابر ووافقهم الخوارج لعنهم الله، بل قالوا بكفره. اشتغلت جهابذة الحفاظ من أهل السنة ببث فضائله حتى كثرت نصحاً للأمة ونصرة للحق.

ثم اعلم أنه سيأتي في فضائل أهل البيت أحاديث مستكثرة من فضائل عليّ فلتكن منك على ذكر وإنه مرّ في كثير من الأحاديث السابقة في فضائل أبي بكر جمل من فضائل علي واقتصرت هنا على أربعين حديثاً لأنها من غرر فضائله.

الحديث الأول: أخرج الشيخان عن سعد بن أبي وقاص وأحمد والبزار عن أبي سعيد الخدري والطبراني عن أسماء بنت عميس وأم سلمة وحبيش بن جنادة وابن عمر وابن عباس وجابر بن سمرة وعلي والبراء بن عازب وزيد بن أرقم رضي الله عنهم: أن رسول الله ﷺ خلف علي بن أبي طالب في غزوة تبوك فقال: يا رسول الله تخلفني مع النساء والصبيان، فقال: «أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هٰرون من موسى غير أنه لا نبي بعدي»[1]. ومر الكلام على هذا الحديث مستوفى في الثاني عشر من الشبه.

الحديث الثاني: أخرج الشيخان أيضاً عن سهل بن سعد والطبراني عن ابن عمر وابن أبي ليلى وعمران بن حصين والبزار عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال يوم خيبر: «لأعطين الراية غداً رجلاً يفتح الله على يديه يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله». فبات الناس يَدُوكُون أي يخوضون ويتحدثون ليلتهم أيُّهم يعطاها. فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله ﷺ كلهم يرجو أن يعطاها، فقال: «أين علي بن أبي طالب»، فقيل: يشتكي عينيه، قال: «فأرْسِلُوا إليه» فأتي به فبصق رسول الله ﷺ في عينيه ودعا له فبرىء حتى كأن لم يكن به وجع، فأعطاه الراية[2].

---

(١) رواه البخاري (٣/ ١٣٥٩)، (٤/ ١٦٠٢)، ومسلم (٤/ ١٨٧٠)، ١٨٧١)، والترمذي (٥/ ٦٤١)، وابن ماجه (١/ ٤٢)، وأحمد في المسند (١/ ١٧٠، ١٧٣، ١٧٤، ١٧٧)، والطيالسي (١/ ٢٨، ٢٩)، والطبراني في الكبير (٤/ ١٨٤)، (٥/ ٢٠٣)، والبزار في مسنده (٣/ ٢٧٦)، والبخاري في التاريخ الكبير (٧/ ٣٠١)، وأبو نعيم في الحلية (٤/ ٣٤٥)، (٧/ ١٩٤، ١٩٥)، وابن أبي عاصم في السنة (٢/ ٥٦٥).

(٢) تقدم تخريجه.

وأخرج الترمذي عن عائشة رضي الله عنها: كانت فاطمة أحب النساء إلى رسول الله ﷺ وزوجها علي أحب الرجال إليه[١].

الحديث الثالث: أخرج مسلم عن سعد بن أبي وقاص قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ﴾ [آل عِمرَان: الآية ٦١] دعا رسول الله ﷺ علياً وفاطمة وحسناً وحسيناً فقال: «اللهم هؤلاء أهلي»[٢].

الحديث الرابع: قال ﷺ يوم غدِير خُمّ: «من كنت مولاه فعليّ مولاه، اللهمّ والِ من والاه وعاد من عاداه» الحديث[٣].

وقد مرّ في حادي عشر الشبه وأنه رواه عن النبي ﷺ ثلاثون صحابياً وأن كثيراً من طرقه صحيح أو حسن، ومر الكلام على معناه مستوفى. وروى البيهقي أنه ظهر عليَ من البعد فقال ﷺ: «هذا سيد العرب» فقالت عائشة رضي الله عنها: ألسْتَ بسيد العرب، فقال: «أنا سيد المرسلين وهو سيد العرب»[٤]. رواه الحاكم في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما بلفظ: «أنا سيد ولد آدم وعلي سيد العرب» وقال إنه صحيح[٥].

الحديث الخامس: أخرج الترمذي والحاكم وصححه عن بريدة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله أمرني بحب أربعة، وأخبرني أنه يحبهم»، قيل: يا رسول الله سمهم لنا، قال: «علي منهم - يقول ذلك ثلاثاً -، وأبو ذر والمقداد وسلمان».

الحديث السادس: أخرج أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجه عن حُبْشِي بن جُنادة قال: قال رسول الله ﷺ: «عليّ مني وأنا من علي ولا يؤدّي عني إلاَّ علي»[٦].

الحديث السابع: أخرج الترمذي عن ابن عمر قال: آخى النبي ﷺ بين أصحابه، فجاء علي تدمع عيناه فقال: يا رسول الله آخيت بين أصحابك ولم تؤاخ بيني وبين أحد، فقال ﷺ: «أنت أخي في الدنيا والآخرة»[٧].

الحديث الثامن: أخرج مسلم عن علي قال: «والذي فلق الحبة وبرأ النسمة إنه

---

(١) رواه الترمذي (٥/ ٢٢٥).
(٢) رواه مسلم (٤/ ١٨٧١).
(٣) رواه الحاكم (٣/ ١١٨، ١١٩).
(٤) رواه الحاكم في المستدرك (٣/ ١٣٣، ١٣٤).
(٥) رواه مسلم (٤/ ١٧٨٢)، والحاكم (٢/ ٦٦٠)، والترمذي (٥/ ٣٠٨).
(٦) رواه أحمد في المسند (٤/ ١٦٥)، والترمذي (٥/ ٦٣٦)، وابن ماجه (١/ ٤٤)، وابن أبي شيبة في المصنف (٦/ ٣٦٦، ٣٧٢)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٣/ ١٨٣)، (٤/ ٢٧٨)، والطبراني في الكبير (٤/ ١٦).
(٧) رواه الترمذي (٥/ ٦٣٦)، والحاكم في المستدرك (٣/ ١٥، ١٦).

لعَهد النبي الأمي إليّ أنه لا يحبّني إلاّ مؤمن ولا يبغضني إلاّ منافق»[١]. وأخرج الترمذي عن أبي سعيد الخدري قال: كنا نعرف المنافقين ببغضهم علياً.

الحديث التاسع: أخرج البزار والطبراني في الأوسط عن جابر بن عبد الله والطبراني والحاكم والعقيلي في الضعفاء وابن عدي عن ابن عمر والترمذي والحاكم عن علي قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا مدينة العلم وعلي بابها»[٢]. وفي رواية: «من أراد العلم فليأت الباب». وفي أخرى عن الترمذي عن علي: «أنا دار الحكمة وعلي بابها». وفي أخرى عند ابن عدي: «علي باب علمي». وصوّب بعض محققي المتأخرين المطلعين من المحدثين أنه حديث حسن، ومر الكلام عليه.

الحديث العاشر: أخرج الحاكم وصححه عن علي قال: بعثني رسول الله ﷺ إلى اليمن فقلت: يا رسول الله بعثتني وأنا شاب أقضي بينهم ولا أدري ما القضاء، فضرب صدري بيده ثم قال: «اللهمَّ اهد قلبه وثبّت لسانه» فوالذي فلق الحبة ما شككت في قضاء بين اثنين[٣].

قيل: وسبب قوله ﷺ: «أقضاكم علي» السابق في أحاديث أبي بكر أن رسول الله ﷺ كان جالساً مع جماعة من الصحابة فجاءه خصمان فقال أحدهما: يا رسول الله إن لي حماراً وإن لهذا بقرة وإن بقرته قتلت حماري فبدأ رجل من الحاضرين فقال: لا ضمان على البهائم. فقال ﷺ: «اقض بينهما يا علي» فقال علي لهما: كانا مرسلين أم مشدودين أم أحدهما مشدود والآخر مرسلاً، فقال: كان الحمار مشدود والبقرة مرسلة وصاحبها معها، فقال: على صاحب البقرة ضمان الحمار. فأقرّ رسول الله ﷺ حكمه وأمضى قضاءه.

الحديث الحادي عشر: أخرج ابن سعد عن علي أنه قيل له: مالك أكثر أصحاب رسول الله ﷺ حديثاً، قال: إني كنت إذا سألته أنبأني وإذا سكت ابتدأني»[٤].

الحديث الثاني عشر: أخرج الطبراني في الأوسط بسند ضعيف عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ «الناس من شجر شتى وأنا وعلي من شجرة واحدة»[٥].

---

(١) رواه مسلم (١/ ٨٦).

(٢) رواه الحاكم في المستدرك (٣/ ١٣٧، ١٣٨)، والترمذي (٥/ ٦٣٧)، وانظر: تخريجنا له في «جواب معنى حديث: أنا مدينة العلم...» للشوكاني.

(٣) رواه ابن ماجه (٢/ ٧٧٤)، والنسائي في الكبرى (٥/ ١١٦).

(٤) رواه ابن سعد في الطبقات الكبرى (٢/ ٣٣٨).

(٥) رواه الطبراني في الأوسط (٤/ ٢٦٣).

الحديث الثالث عشر: أخرج البزار عن سعد قال: قال رسول الله ﷺ لعلي: «لا يحل لأحد أن يُجْنِبَ في هذا المسجد غيري وغيرك»[١].

الحديث الرابع عشر: أخرج الطبراني والحاكم وصححه عن أم سلمة قالت: «كان رسول الله ﷺ إذا غضب لم يجترىء أحد أن يكلمه إلاَّ علي»[٢].

الحديث الخامس عشر: أخرج الطبراني والحاكم عن ابن مسعود رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «النظر إلى علي عبادة»[٣]. وإسناده حسن.

الحديث السادس عشر: أخرج أبو يعلى والبزار عن سعد بن أبي وقاص قال: قال رسول الله ﷺ: «من آذى علياً فقد آذاني»[٤].

الحديث السابع عشر: أخرج الطبراني بسند حسن عن أم سلمة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من أحب علياً فقد أحبني ومن أحبني فقد أحب الله ومن أبغض علياً فقد أبغضني ومن أبغضني فقد أبغض الله»[٥].

الحديث الثامن عشر: أخرج أحمد والحاكم وصححه عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من سبّ علياً فقد سبني»[٦].

الحديث التاسع عشر: أخرج أحمد والحاكم بسندٍ صحيح عن أبي سعيد الخدري: أن رسول الله ﷺ قال لعلي: «إنك تقاتل على القرآن كما قاتلت على تنزيله»[٧].

الحديث العشرون: أخرج البزار وأبو يعلى والحاكم عن علي قال: دعاني رسول الله ﷺ فقال: «إن فيك مثلاً من عيسى أبغضته اليهود حتى بَهَتُوا أمَّه وأحبَّته النصارى حتى نزّلوه بالمنزل الذي ليس به، ألا وإنه يهلك فيَّ اثنان: محب مفرط يُطريني بما ليس فيَّ، ومبغض يحمله شنآني على أن يَبْهتَني»[٨].

---

(١) رواه البزار في مسنده (٤/ ٣٦).

(٢) أورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٩/ ١١٦)، وعزاه للطبراني في الأوسط.

(٣) رواه الحاكم (٣/ ١٥٢).

(٤) رواه الحاكم (٣/ ١٣١)، وابن حبان (١٥/ ٣٦٥)، والضياء في المختارة (٣/ ٢٦٧)، والبزار (٣/ ٣٦٦)، وأحمد (٣/ ٤٨٣)، والروياني (٢/ ٤٥١)، والشاشي (١/ ١٣٤).

(٥) رواه الطبراني في الكبير (٢٢/ ٤١٥)، (٢٣/ ٣٨٠).

(٦) رواه الحاكم في المستدرك (٣/ ١٣٠)، وأحمد في المسند (٦/ ٣٢٣)، والنسائي في الكبرى (٥/ ١٣٣).

(٧) رواه الحاكم (٣/ ١٣٢)، وابن حبان (١٥/ ٣٨٥)، والنسائي في الكبرى (٥/ ١٥٤)، وأحمد في المسند (٣/ ٣٣).

(٨) رواه الحاكم (٣/ ١٣٢)، وأحمد في المسند (١/ ١٦٠).

الحديث الحادي والعشرون: أخرج الطبراني في الأوسط والصغير عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: «علي مع القرآن والقرآن مع علي لا يفترقان حتى يردا علي الحوض»[١].

الحديث الثاني والعشرون: أخرج أحمد والحاكم بسند صحيح عن عمار بن ياسر رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال لعليّ: «أشقى الناس رجلان أُحَيْمر ثمود الذي عقر الناقة والذي يضربك يا علي على هذه ـ يعني قرنه ـ حتى يبلّ منها هذه ـ يعني لحيته»[٢]. وقد ورد ذلك من حديث علي وصهيب وجابر بن سمرة وغيرهم.

وأخرج أبو يعلى عن عائشة رضي الله عنها قالت: رأيت رسول الله ﷺ التزم علياً وقبّله وهو يقول: «بأبي الوحيدُ الشهيد بأبي الوحيدُ الشهيد»[٣].

وروى الطبراني وأبو يعلى بسند رجاله ثقات إلاَّ واحداً منهم فإنه مُوثق أيضاً أنه ﷺ قال له يوماً: «من أشقى الأولين؟ قال: الذي عقر الناقة يا رسول الله، قال: صدقت، قال: فمن أشقى الآخرين؟ قال: لا أعلم يا رسول الله، قال: الذي يضربك على هذه ـ وأشار ﷺ إلى يافوخه فكان علي رضي الله عنه يقول لأهل العراق ـ أي عند تضجره منهم ـ: وددت أن قد انبعث أشقاكم فخضب هذه ـ يعني لحيته ـ من هذه ـ ووضع يده على مقدم رأسه»[٤].

وصح أيضاً أن ابن سلام قال له: لا تقدم العراق فإني أخشى أن يصيبك بها ذباب السيف، فقال علي: وأيم الله لقد أخبرني به رسول الله ﷺ».

قال أبو الأسود: فما رأيت كاليوم قط محارب يخبر بذا عن نفسه[٥].

الحديث الثالث والعشرون: أخرج الحاكم وصححه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: اشتكى الناس علياً، فقام رسول الله ﷺ فينا خطيباً فقال: «لا تشكوا علياً فوالله إنه لأُخَيْشِنٌ في ذات الله أو في سبيل الله»[٦].

الحديث الرابع والعشرون: أخرج أحمد والضياء عن زيد بن أرقم أن رسول الله ﷺ قال: «إني أمرت بسد هذه الأبواب غير باب علي فقال فيه قائلكم وإني والله ما سددت

---

(١) رواه الطبراني في المعجم الصغير (٢/ ٢٨).
(٢) رواه الحاكم (٣/ ١٥١)، وأحمد في المسند (٤/ ٢٦٣).
(٣) رواه أبو يعلى (٨/ ٥٥).
(٤) رواه أحمد (٤/ ٢٦٣)، والطبراني في الكبير (٢/ ٢٤٧)، والحاكم في المستدرك (٣/ ١٥١).
(٥) رواه أحمد (٤/ ٤٧)، والحميدي (١/ ٣٠)، وأبو يعلى (١/ ٣٨١)، والبزار (٢/ ٢٩٦).
(٦) رواه الحاكم (٣/ ١٤٤)، وأحمد (٣/ ٨٦).

شيئاً ولا فتحته ولكني أمرت بشيء فاتبعته»[١].

ولا يشكل هذا الحديث بما مرّ في أحاديث خلافة أبي بكر من أمره ﷺ بسدّ الخوخ جميعها إلاَّ خوخة أبي بكر لأن[٢] ذلك فيه التصريح بأن أمره بالسّد كان في مرض موته وهذا ليس فيه ذلك فيحمل هذا على أمر متقدم على المرض فلأجل ذلك اتضح قول العلماء أن ذاك فيه إشارة إلى خلافة أبي بكر على أن ذاك الحديث أصح من هذا وأشهر.

الحديث الخامس والعشرون: أخرج الترمذي والحاكم عن عمران بن حصين أن رسول الله ﷺ قال: «ما تريدون من علي، ما تريدون من علي، ما تريدون من علي، إن علياً مني وأنا منه وهو ولي كل مؤمن بعدي»[٣]. ومرّ الكلام في حادي عشر الشبه على هذا الحديث في بيان معناه وما فيه.

الحديث السادس والعشرون: أخرج الطبراني عن ابن مسعود أن النبي ﷺ قال: «إن الله تبارك وتعالى أمرني أن أزوج فاطمة من علي»[٤].

الحديث السابع والعشرون: أخرج الطبراني عن جابر والخطيب عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: «إن الله جعل ذرية كل نبي في صلبه، وجعل ذريتي في صلب علي بن أبي طالب»[٥].

الحديث الثامن والعشرون: أخرج الديلمي عن عائشة أن النبي ﷺ قال: «خير إخوتي علي وخير أعمامي حمزة ذِكْرُ علي عبادة».

الحديث التاسع والعشرون: أخرج الديلمي أيضاً عن عائشة والطبراني وابن مردويه عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: «السُّبَّق ثلاثة: فالسابق إلى موسى يوشع بن نون، والسابق إلى عيسى صاحب يٰس، والسابق إلى محمد علي بن أبي طالب»[٦].

الحديث الثلاثون: أخرج ابن النجار عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: «الصديقون ثلاثة: حبيب النجار مؤمن آل يس، قال: يا قوم اتبعوا المرسلين، وحزقيل مؤمن آل فرعون الذي قال: أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله، وعلي بن أبي طالب وهو أفضلهم»[٧].

---

(١) رواه أحمد (١/ ٣٣٠)، والروياني (١/ ٢٧٧، ٢٧٨)، والحاكم (٣/ ١٣٥).
(٢) رواه البخاري (١/ ١٧٨)، ومسلم (٤/ ١٨٥٤).
(٣) رواه الترمذي (٥/ ٦٣٢)، والحاكم (٣/ ١٧٩)، والروياني (١/ ١٢٥)، وأبو يعلى (١/ ٢٩٣).
(٤) رواه الطبراني في الكبير (١٠/ ١٥٦)، (٢٢/ ٤٠٧).
(٥) رواه الطبراني في الكبير (٣/ ٤٣).
(٦) رواه الطبراني في الكبير (١١/ ٩٣).
(٧) رواه الديلمي في الفردوس (٢/ ٤٢١).

الحديث الحادي والثلاثون: أخرج أبو نعيم وابن عساكر عن ابن أبي ليلى أن رسول الله ﷺ قال: «الصديقون ثلاثة: حزقيل مؤمن آل فرعون، وحبيب النجار صاحب يٰس، وعلي بن أبي طالب».

الحديث الثاني والثلاثون: أخرج الخطيب عن أنس أن النبي ﷺ قال: «عنوان صحيفة المؤمن حب علي بن أبي طالب».

الحديث الثالث والثلاثون: أخرج الحاكم عن جابر أن النبي ﷺ قال: «علي إمام البررة وقاتل الفجرة منصور من نصره مخذول من خذله»(١).

الحديث الرابع والثلاثون: أخرج الدارقطني في الأفراد عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: «علي باب حطة من دخل منه كان مؤمناً ومن خرج منه كان كافراً».

الحديث الخامس والثلاثون: أخرج الخطيب عن البزار والديلمي عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: «علي مني بمنزلة رأسي من بدني»(٢).

الحديث السادس والثلاثون: أخرج البيهقي والديلمي عن أنس أن النبي ﷺ قال: «علي يزهو في الجنة ككوكب الصبح لأهل الدنيا»(٣).

الحديث السابع والثلاثون: أخرج ابن عدي عن علي أن النبي ﷺ قال: «علي يعسوب المؤمنين والمال يعسوب المنافقين»(٤).

الحديث الثامن والثلاثون: أخرج البزار عن أنس أن النبي ﷺ قال: «علي يقضي ديني».

الحديث التاسع والثلاثون: أخرج الترمذي والحاكم أن النبي ﷺ قال: «إن الجنة لتشتاق إلى ثلاثة: علي وعمار وسلمان»(٥).

الحديث الأربعون: أخرج الشيخان عن سهل أن النبي ﷺ وجد علياً مضطجعاً في المسجد وقد سقط رداؤه عن شقه فأصابه تراب فجعل النبي ﷺ يمسحه عنه ويقول: «قم أبا تراب»(٦)، فلذلك كانت هذه الكنية أحب الكنى إليه لأنه ﷺ كناه بها. ومرّ أن النبي ﷺ قال: «أربعة لا يجتمع حبهم في قلب منافق ولا يحبهم إلاّ مؤمن: أبو بكر

---

(١) رواه الحاكم (٣/ ١٤٠).
(٢) رواه ابن الجوزي في العلل المتناهية (١/ ٢١٢).
(٣) رواه الطبراني في الكبير (١١/ ٣١٣)، وفي الأوسط (٢/ ١٨٠).
(٤) رواه ابن عدي في الكامل (٥/ ٢٤٤).
(٥) رواه الترمذي (١/ ٢٦٧)، والحاكم (٣/ ١٤٨).
(٦) رواه البخاري (١/ ١٦٩)، (٥/ ٢٣١٦)، ومسلم (٤/ ١٨٧٤).

وعمر وعثمان وعلي».

وأخرج النسائي والحاكم عن علي أن النبي ﷺ قال: «إن كل نبي أعطي سبعة نجباء رفقاء، وأعطيت أنا أربعة عشر: علي والحسن والحسين وجعفر وحمزة وأبو بكر وعمر»[1] الحديث، انتهى.

وقد أخرج ابن سعد عنه رضي الله عنه أنه قال: «والله ما نزلت آية إلاّ وقد علمت فيما نَزَلَتْ وأين نزلت وعلى من نزَلَتْ، إن ربي وهب لي قلباً عقولاً ولساناً ناطقاً»[2].

وأخرج ابن سعد وغيره عن أبي الطفيل قال: قال علي: «سلوني عن كتاب الله فإنه ليس من آية إلاّ وقد عرفت بليل نزلت أم نهار أم في سهل أم جبل»[3].

ومن كراماته رضي الله عنه: ما روى عبد الرزاق عن حجر المرادي قال: قال لي علي: «كيف بك إذا أمرتَ أن تلعنني؟ قلت: أو كائن ذلك؟ قال: نعم، قلت: فكيف أصنع، قال: العَني ولا تبرأ مني. قال: فأمرني محمد بن يوسف أخو الحجاج وكان أميراً من قبل عبد الملك بن مروان على اليمن أن ألعن علياً فقلت: إن الأمير أمرني أن ألعن علياً فالعنوه لعنه الله فما فطن لها إلاّ رجل - أي لأنه إنما لعن الأمير ولم يلعن علياً». فهذا من كرامات علي وإخباره بالغيب.

ومن كراماته أيضاً أنه حدّث بحديث فكذّبه رجل فقال له: أدعو عليك إن كنت كاذباً، قال: ادع، فدعا عليه فلم يبرح حتى ذهب بصره.

ومن حكمه رضي الله عنه وغرائب كلمه: «الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا، ولو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً، ما هلك امرؤ عرف قدره، قيمة كل امرىء ما يحسنه، من عذبَ لسانه كثر إخوانه، بالبرّ يستعبد الحر، لا ظفر مع البغي، لا ثناء مع الكبر، لا شرف مع سوء الأدب، لا راحة مع الحسد، لا مروءة للكذوب، لا كرم أعز من التقى، لا شفيع أنجح من التوبة، لا لباس أجمل من العافية، لا داء أعيى من الجهل، رحم الله امرءاً عرف قدره ولم يتعد طوره، إعادة الاعتذار تذكر بالذنب، النصح بين الملأ تقريع، نعمة الجاهل كروضة على مزبلة، الجزع أتعب من الصبر، أكبر الأعداء أخفاهم مكيدة، الحكمة ضالة المؤمن، البخل جامع لمساوىء العيوب، إذا حلت المقادير ضاعت التدابير، عبد الشهوة أذلّ من عبد الرق، الحاسد مغتاظ على من لا ذنب له، كفى بالذنب شنيعاً للمذنب، السعيد من عظ بغيره، الإحسان يقطع اللسان، أفقر الفقر

(١) رواه الترمذي (٥/ ٦٦٢).
(٢) رواه ابن سعد في الطبقات الكبرى (٢/ ٣٣٨).
(٣) رواه ابن سعد في الطبقات الكبرى (٢/ ٣٣٨).

الحمق، أغنى الغنى العقل، الطامع في وثاق الذلّ، إذا قدرت على عدوك فاجعل العفو عنه شكر القدرة عليه، ما أضمر أحد شيئاً إلاّ ظهر في فلتات لسانه وعلى صفحات وجهه، البخيل يستعجل الفقر ويعيش في الدنيا عيش الفقراء ويحاسب في الآخرة حساب الأغنياء، لسان العاقل وراء قلبه، وقلب الأحمق وراء لسانه، العلم يرفع الوضيع والجهل يضع الرفيع، العلم خير من المال، العلم يحرسك وأنت تحرس المال. وحكمه رضي الله عنه كثيرة شهيرة وفي هذه القدرة كفاية.

ومن كلامه: يا حملة القرآن اعملوا به فإن العالم من عمل بما علم ووافق علمه عمله. وسيكون أقوام يحملون العلم لا يجاوز تراقيهم تخالف سريرتهم علانيتهم ويخالف عملهم علمهم، يجلسون حلقاً فيباهي بعضهم بعضاً حتى إن الرجل يغضب على جليسه أن يجلس إلى غيره ويدعه أولئك لا تصعد أعمالهم في مجالسهم تلك إلى الله.

وقال معاوية رضي الله عنه لضرار بن حمزة: صف لي علياً، فقال: اعفني يا أمير المؤمنين، فقال: أقسمت عليك بالله إلا وصفته، فقال: كان والله بعيد المدَى، شديد القوى، يقول فصلاً ويحكم عدلاً، يتفجر العلم من جوانبه وتنطق الحكمة من لسانه، يستوحش من الدنيا وزهرتها ويأنس بالليل ووحشته، وكان غزير الدمعة، طويل الفكرة، يعجبه من اللباس ما قصُر ومن الطعام ما خشن، وكان فينا كأحدنا يجيبنا إذا سألناه ويأتينا إذا دعوناه ونحن والله مع تقريبه إيانا وقربه منا لا نكاد نكلمه هيبة له، يعظّم أهل الدين ويقرِّب المساكين، لا يطمع القوي في باطله ولا ييأس الضعيف من عدله، وأشهد لقد رأيته في بعض مواقفه وقد أرخى الليل سدوله وغارت نجومه قابضاً على لحيته يتململ تململ السليم ـ أي اللديغ ـ ويبكي بكاء الحزين ويقول: يا دنيا غري غيري إليَّ تشوقت هيهات هيهات قد باينتك ثلاثاً لا رجعة فيها، فعمرك قصير وخطرك قليل آه آه من قلّة الزاد وبُعْد السفر ووحشة الطريق. فبكى معاوية وقال: رحم الله أبا الحسن كان والله كذلك.

ولما وصل إليه افتخار معاوية، قال لغلامه: اكتب إليه، ثم أملى عليه:

محمد النبيّ أخي وصهري ... وحمزة سيِّد الشهداء عمي
وجعفرٌ الذي يمسي ويضحي ... يطير مع الملائكة ابن عمي
وبنت محمد سكني وعرسي ... منوط لحمها بدمي ولحمي
وسبطا أحمد أبنائي منها ... فأيكم له سهم كسهمي
سبقتكم إلى الإسلام طرّاً ... غلاماً ما بلغت أوان حُلم

قال البيهقي: إن هذا الشعر مما يجب على كل واحد متوان في علي حفظه ليعلم

مفاخره في الإسلام. ومن كلام الشافعي رضي الله عنه فيه:

إذا نحن فضلنا علياً فإننا روافض بالتفضيل عند ذوي الجهل
وفضل أبي بكر إذا ما ذكرته رُميتُ بنصب عند ذكري للفضل
فلا زلت ذا رفض ونصب كلاهما بحبهما حتى أوسد في الرمل

اهـ أمدنا الله من فيض إمداده وجعلنا من المنتظمين في سلك أحبابه وأهل وداده بجاه سيدنا محمد ﷺ وآله وصحبه وذريته وأهل بيته كلما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون.

ولما أنهينا الكلام على ما يتعلق به رضي الله عنه أردنا أن نتبرك بذكر بعض ما ورد من الآثار الصحيحة في بيان فضل ولي نعمتنا الإمام الحسن وعلو قدره ومنزلته في الكمال الذي لا يساوى اقتداء بالأئمة الأعلام فنقول:

قال الإمام ابن حجر في الصواعق:

الفصل الثاني

في فضائله رضي الله عنه

الحديث الأول: أخرج الشيخان عن البراء قال: رأيت رسول الله ﷺ والحسن على عاتقه وهو يقول: «اللهم إني أحبه فأحبّه»[١].

الحديث الثاني: أخرج البخاري عن أبي بكرة قال: سمعت النبي ﷺ على المنبر والحسن إلى جنبه ينظر إلى الناس مرة وإليه مرة ويقول: «إن ابني هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين»[٢].

الحديث الثالث: أخرج البخاري عن ابن عمر قال: قال النبي ﷺ: «هما ريحانتاي من الدنيا ـ يعني الحسن والحسين»[٣].

الحديث الرابع: أخرج الترمذي والحاكم عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «الحسن والحسين سيّدا شباب أهل الجنة»[٤].

الحديث الخامس: أخرج الترمذي عن أسامة بن زيد قال: رأيت النبي ﷺ

---

(١) رواه البخاري (٣/ ١٣٧٠)، (٥/ ٢٢٠٧)، ومسلم (٤/ ١٨٨٢).
(٢) رواه البخاري (٢/ ٩٦٢)، (٣/ ١٣٢٨)، (٦/ ٢٦٠٢).
(٣) رواه البخاري (٣/ ١٣٧١)، (٥/ ٢٢٣٤).
(٤) رواه الحاكم (٣/ ١٨٢)، والضياء (١/ ٩٩)، وابن حبان (١٥/ ٤١١)، والترمذي (٥/ ٦٥٦، ٦٦٠).

والحسن والحسين على وركيه فقال: «هذان ابناي وابنا ابنتي، اللهمَّ إني أحبهما فأحبهما وأحب من يحبهما»(١).

الحديث السادس: أخرج الترمذي عن أنس قال: سئل رسول الله ﷺ: أي أهل بيتك أحب إليك، قال: «الحسن والحسين»(٢).

الحديث السابع: أخرج الحاكم عن ابن عباس قال: أقبل النبي ﷺ وقد حمل الحسن على رقبته فلقيه رجل فقال: نِعم المركب ركبت يا غلام، فقال رسول الله ﷺ: «ونِعْمَ الراكب هو»(٣).

الحديث الثامن: أخرج ابن سعد عن عبد الله بن الزبير قال: أشبه أهل بيت النبي ﷺ به وأحبهم إليه الحسن، رأيته وهو ساجد فيركب رقبته، أو قال: ظهره، فما ينزله حتى يكون هو الذي ينزل، ولقد رأيته وهو راكع فيفرج له بين رجليه حتى يخرج من الجانب الآخر»(٤).

الحديث التاسع: أخرج ابن سعد عن أبي سلمة بن عبد الرحمٰن قال: كان رسول الله ﷺ يدفع لسانه للحسن بن علي فإذا رأى الصبي حمرة اللسان يهش إليه.

الحديث العاشر: أخرج الحاكم عن زهير بن الأرقم قال: قام الحسن بن علي يخطب فقام رجل من أزدِ شنوْءَة فقال: أشهد لقد رأيت رسول الله ﷺ واضعه على حبوته وهو يقول: «من أحبني فليحبَّه وليُبلِّغ الشاهدُ الغائب» ولولا كرامة النبي ﷺ ما حدَّثت به أحداً(٥).

الحديث الحادي عشر: أخرج أبو نعيم في الحلية عن أبي بكر قال: كان النبي ﷺ يصلي بنا فيجيء الحسن وهو ساجد وهو إذ ذاك صغير فيجلس على ظهره ومرة على رقبته فيرفعه النبي ﷺ رفعاً رقيقاً، فلما فرغ من الصلاة قالوا: يا رسول الله إنك تصنع بهذا الصبي شيئاً لا تصنعه بأحد، فقال النبي ﷺ: «إن هذا ريحانتي وإن هذا ابني سيد وحسبي أن يصلح الله تعالى به بين فئتين من المسلمين».

الحديث الثاني عشر: أخرج الشيخان عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «اللهمَّ إني أحبّه وأحبُّ من يحبّه» يعني الحسن، وفي رواية: «اللهمَّ إني أحبُّه فأحِبَّهُ وأحِبَّ من يحبُّهُ»، قال أبو هريرة: فما كان أحد أحبَّ إليَّ من الحسن بعد أن قال رسول الله ﷺ ما قال.

---

(١) رواه الترمذي (٥/ ٦٥٦).

(٢) رواه الترمذي (٥/ ٦٥٧).

(٣) رواه الحاكم (٣/ ١٨٦).

(٤) أورده الحافظ ابن حجر في الإصابة (٢/ ٧٠).

(٥) رواه الحاكم في المستدرك (٣/ ١٩٠).

وفي حديث أبي هريرة أيضاً عند الحافظ السلفي قال: ما رأيت الحسن بن علي قط إلاَّ فاضت عيناي دموعاً وذلك أن رسول الله ﷺ خرج يوماً وأنا في المسجد فأخذ بيدي واتكأ عليّ حتى جئنا سوق بني قينقاع فنظر فيه ثم رجع حتى جلس في المسجد، ثم قال: «ادع ابني» قال: فأتى الحسن بن علي يشتد حتى وقع في حجره فجعل رسول الله ﷺ يفتح فمه ثم يدخل فمه في فمه ويقول: «اللهمَّ إني أحبه فأحبه وأحب من يحبه» ثلاث مرات.

وروى أحمد: «من أحبني وأحب هذين ـ يعني حسناً وحسيناً ـ وأباهما وأمهما كان معي في درجتي يوم القيامة» ورواه الترمذي: «كان معي في الجنة» وقال حديث غريب[1].

وليس المراد بالمعية هنا المعية من حيث المقام بل من جهة رفع الحجاب نظير ما في قوله تعالى: ﴿فَأُولَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُولَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: الآية ٦٩]، وقد كان رضي الله عنه سيداً كريماً حليماً زاهداً ذا سكينة ووقار وحشمة، جواداً ممدوحاً رضي الله عنه.

ومن مآثره ما أخرج أبو نعيم في الحلية أنه قال: «إني لأستحي من ربي أن ألقاه ولم أمش إلى بيته» فمشى عشرين حجة.

وأخرج الحاكم عن عبد الله بن عمر قال: لقد حجّ الحسن خمساً وعشرين حجة ماشياً وإن النجائب لتقاد بين يديه[2].

وأخرج أبو نعيم أنه خرج من ماله مرتين وقاسَم الله تعالى ماله ثلاث مرات حتى إنه كان ليعطي نعلاً ويمسك نعلاً، ويعطي خفاً ويمسك خفاً، وسمع رجلاً يسأل ربه عز وجل عشرة آلاف درهم فبعث بها إليه.

وأخرج ابن عساكر أنه قيل له: إن أبا ذر يقول: الفقر أحبّ إليّ من الغنى والسقم أحبّ من الصحة إليّ. فقال: رحم الله أبا ذرّ، أما أنا فأقول: من اتكل إلى حسن اختيار الله لم يتمنّ أنه في غير الحالة التي اختار الله له.

وكان عطاؤه كل سنة مائة ألف، أي بعد نزوله لمعاوية عن الخلافة حقناً لدماء المسلمين، وبهذا تحققت معجزة جده عليه الصلاة والسلام حيث قال: «إن ابني هذا سيد وسيصلح الله به بين فئتين من المسلمين» فحبسها عنه معاوية في بعض السنين فحصل

(١) رواه الترمذي (٥/ ٦٤١)، وابن أبي الدنيا في الأولياء (ص ١٨)، والضياء في المختارة (٢/ ٤٥)، وأحمد في المسند (١/ ٧٧).
(٢) انظر: الاستيعاب (١/ ٣٩٧).

له إضاقة شديدة قال: فدعوت بدواة لأكتب إلى معاوية لأذكره بنفسي ثم أمسكت فرأيت رسول الله ﷺ في المنام فقال: كيف أنت يا حسن، فقلت: بخير يا أبت وشكوت إليه تأخر المال عني، فقال: أدعوت بدواة لتكتب إلى مخلوق مثلك تذكره ذلك، قلت: نعم يا رسول الله فكيف أصنع؟ فقال: قل اللهمَّ اقذف في قلبي رجاءك واقطع رجائي عمن سواك حتى لا أرجو أحداً غيرك، اللهمَّ وما ضعفت عنه قوتي وقصر عنه عملي ولم تنته إليه رغبتي ولم تبلغه مشيئتي ولم يجر على لساني مما أعطيت أحداً من الأولين والآخرين من اليقين فخصني به يا أرحم الراحمين. قال: فوالله ما أنجحت فيه أسبوعاً حتى بعث إليّ معاوية بألف ألف وخمسمائة ألف، فقلت: الحمدُ لله الذي لا ينسى من ذكره ولا يخيّب من دعاه. فرأيت النبي ﷺ في المنام فقال: يا حسن كيف أنت؟ فقلت: بخير يا رسول الله، وحدّثته بحديثي فقال: يا بني هكذا من رجا الخالق ولم يرج المخلوق اهـ. نسأل الله تعالى أن يمدنا بمدده ويسعدنا بمحبته ويذيقنا كأس شراب مودته بجاه جده عند ربه صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وأزواجه وذريته وأهل بيته كلما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون.

وأما سيّدنا مولانا ووليّ نعمتنا الإمام أبو عبد الله الحسين رضي الله عنه وأمدنا بمدده فقد ذكرنا في كتابنا مشارق الأنوار نقلاً عن الأئمة الحفّاظ جملاً من الأحاديث الصحيحة والآثار الواردة في فضله رضي الله عنه، ونصه:

الفصل السادس

في بيان جملة من أهل بيت النبي ﷺ المدفونين بمصر تبركاً بذكرهم واعتناء ببيان محلهم لزيارتهم كما حققه القطب الشعراني في منه وطبقاته والعلامة المناوي وإمام المحدثين جلال الدين السيوطي في رسالته الزينبية والعلامة الأجهوري والعلامة الصّبّان وإن من نعمة الله على العبد المسلم توفيقه لزيارتهم مقدماً لهم عن غيرهم ولا عبرة بالاختلاف في دفن بعضهم فيها لثبوته عند أرباب البصائر.

ولقد قال سيدي عبد الوهاب الشعراني في منه: مما منَّ الله تعالى به عليّ زيارة أهل البيت الذين دفنوا بمصر، أي رؤسائهم، فأزورهم في السنة ثلاث مرات بقصد صلة رحم رسول الله ﷺ ولم أر أحداً من أقراني يعتني بذلك إما لجهلهم بمقاديرهم وإما لدعوى عدم ثبوت دفنهم في مصر وهذا جحود منهم فإن الظن يكفينا في مثل ذلك اهـ.

فأولهم: سيّدنا ووليّ نعمتنا الحسين سبط رسول الله وريحانته، ولد لخمس خلون من شعبان سنة أربع على الأصح، وكانت فاطمة قد علقت به بعد ولادة الحسن بخمسين ليلة وحنكه ﷺ بريقه وأذّن في أذنه وتفل في فمه ودعا له وسماه حسيناً يوم السابع وعقّ عنه.

كان شجاعاً مِقدَاماً من حين كان طفلاً، وهذه جملة من الأحاديث الواردة في حقه مع أخيه الحسن وفيه بالخصوص.

قال الإمام ابن حجر في الصواعق: وأخرج الطبراني عن فاطمة أن النبي ﷺ قال: «أما حسَن فله هيبتي وسؤددي، وأمّا حسين فله جراءتي وجودي»[١].

قال: وأخرج الترمذي عن ابن عمر أن النبي ﷺ قال: «إن الحسَن والحسين هما ريحانتاي في الدنيا»[٢].

وأخرج الترمذي والطبراني عن أسامة بن زيد أن النبي ﷺ قال: «الحسن والحسين سيّدا شباب أهل الجنة إلاَّ ابني الخالة عيسى ابن مريم ويحيى بن زكريا، وفاطمة سيدة أهل الجنة إلاَّ ما كان من مريم»[٣].

وأما ما يتعلق بالحسين بالخصوص فأحاديث شتى، فمنها ما أخرجه البغوي في معجمه من حديث أنس أن النبي ﷺ قال: استأذن ملك القطر ربه أن يزور النبي ﷺ فأذن له وكان في يوم أم سلمة، فقال ﷺ: «يا أم سلمة احفظي علينا الباب لا يدخل أحد»، فبينما هي على الباب إذ دخل الحسين فاقتحم فوثب على رسول الله ﷺ فجعل رسول الله ﷺ يلثمه ويقبّله فقال له الملك: أتحبه، قال: نعم، قال: إن أمتك ستقتله وإن شئت أريك المكان الذي يُقتل فيه. فأراه بسهْلَةٍ أو تراب أحمر فأخذته أم سلمة فجعلته في ثوبها قال ثابت: كنا نقول إنها كربلا» اهـ. والسهلة ـ بكسر أوله ـ رمل خشن.

وأخرج الحاكم وصححه عن يعلى العامري أن النبي ﷺ قال: «حسين مني وأنا من حسين اللهمّ أحب من أحبّ حسيناً، حسين سبط من الأسباط»[٤].

وروى ابن حبان وأبو يعلى وابن عساكر عن جابر بن عبد الله قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من سره أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة ـ وفي لفظ: إلى سيّد شباب أهل الجنة ـ فلينظر إلى الحسين بن علي».

وروى خيثمة بن سليمان عن أبي هريرة أن النبي ﷺ جلس في المسجد فقال: «أين لكع» فجاء الحسين يمشي حتى سقط في حجر النبي ﷺ فجعل أصابعه في لحية رسول الله ﷺ، ففتح ﷺ فمه ـ أي الحسين ـ فأدخل فاه في فيه ثم قال: «اللهم إني أحبه وأحبّ من يحبه».

وروى أبو الحسن بن الضحاك عن أبي هريرة قال: رأيت رسول الله ﷺ يمتص لعاب الحسين كما يمتص الرجل التمرة، وكان ابن عمر جالساً في ظل الكعبة فرأى الحسين مقبلاً فقال: «هذا أحب أهل الأرض إلى أهل السماء اليوم».

---

(١) تقدّم. (٢) تقدّم. (٣) تقدّم. (٤) تقدّم.

وجاء رجل إلى الحسن يستعين به في حاجة فوجده معتكفاً في خلوة فاعتذر إليه، فذهب إلى آخيه الحسين فاستعان به فقضى حاجته وقال: «لقضاء حاجة في الله عز وجل أحبّ إليّ من اعتكافي شهراً».

ومن كلامه رضي الله عنه: «اعلموا أن حوائج الناس إليكم من نِعم الله عليكم، فلا تملوا من تلك النِعم فتعود عليكم نقماً، واعلموا أن المعروف يكسب حمداً ويعقب أجراً، فلو رأيتم المعروف رجلاً لرأيتموه رجلاً حليماً يسرّ الناظرين، ولو رأيتم اللؤم رجلاً لرأيتموه رجلاً قبيح المنظر تنفر منه القلوب وتغض دونه الأبصار».

ومن كلامه: «من جادَ ساد ومن بخل ذلّ ومن تعجل لأخيه خيراً وجده إذا قدم على ربه غداً».

قال العلامة الأجهوري: قال المناوي في طبقاته: ذكر لي بعض أهل الكشف والشهود أنه حصل له اطلاع على دفن الحسين بكربلا، ثم ظهر بعد ذلك بالمشهد القاهري لأن حكم الحالّ بالبرزخ حكم الإنسان الذي تدلى في تيار جار فيطفو بعد ذلك في مكان آخر.

قال العلامة الأجهوري المذكور، قلت: الذي تواتر من أهل الكشف أنه في مشهده القاهري بلا شك لوجود هذه الروحانية والأنوار التي تبهر العقول.

قال: قال لي الشيخ عبد الفتاح بن أبي بكر الشهير بالرسام الشافعي الخلوتي في رسالة له تسمى نور العين في مدفن الرأس الشريف في هذا المقام المنيف: ولأهل الكشف والاطلاع في مقره ما ذكره خاتمة الحفاظ والمحدثين شيخ الإسلام والمسلمين، الشيخ نجم الدين الغيطي نفعنا الله به بسنده عن شيخ الإسلام شمس الدين اللقاني المالكي شيخ السادة المالكية في عصره من أنه كان يوماً جالساً بالأزهر مع القطب الكبير الشيخ أبي المواهب التونسي نفعنا الله ببركاته، يتحدث معه، فإذا بالشيخ أبي المواهب قام مستعجلاً وذهب إلى باب المدرسة الجوهرية التي بالجامع الأزهر فظهر منها فتبعه الشيخ شمس الدين المذكور وهو لا يشعر به إلى أن وصل المشهد المبارك وهو خلفه، فلما دخل المسجد وجد إنساناً واقفاً على باب الضريح الشريف ويداه مبسوطتان وهو يدعو، فوقف الشيخ أبو المواهب خلفه كذلك يدعو ووقف اللقاني خلفهما، فلما فرغ ذلك الرجل من الدعاء ومسح على وجهه بيديه رجع الشيخ اللقاني إلى الجامع الأزهر ورجع الشيخ أبو المواهب، فقال له اللقاني: يا مولانا الشيخ رأيتك قد ذهبت مستعجلاً من باب الجوهرية وها أنت قد رجعت، فقال: كنت في مصلحة. وكتم عنه القضية، فقال له: لعلك ذهبت إلى المشهد الحسيني، قال: نعم، فما الذي أعلمك بذلك، قال: كنت فيه معك، قال: فما رأيت، قال: رأيت إنساناً واقفاً على باب الضريح يدعو

ووقفت أنت خلفه ووقفت أنا خلفك فدعوت أيضاً، فقال: ابشر يا شمس الدين بأن جميع ما دعوت به وقت ذلك استجيب لك، قال: يا سيدي ومن هذا الرجل؟ قال: الغوث الجامع يأتي كل يوم ثلاثاً فيزور هذا المشهد فلما وقع عندي مجيئه في هذا الوقت قمت إليه فحضرت معه الزيارة وقبّلت يده فالزم ذلك يحصل لك خير. قال: فما زال اللقاني يزور هذا المحل إلى أن مات رحمه الله ونفعنا به اهـ لفظ الأجهوري بعينه.

أقول: ولعل الشمس اللقاني أخبر بذلك شيخ الإسلام الغيطي ونقله الإمام الغيطي عنه ولو كان الغيطي شيخاً للقاني في الحديث فإخباره بتلك الجزئية ونقل شيخه لها عنه لا ينافي كون اللقاني يروي الحديث عن الإمام الغيطي وكل منهما كان إماماً في زمن الآخر.

قال الإمام الأجهوري في رسالته في فضائل عاشوراء: ومن ذلك ما نقل عن الشيخ الجليل أبي الحسن التمار رحمه الله ونفعنا به آمين، أنه كان يأتي إلى هذا المكان للزيارة، ثم إذا دخل إلى الضريح يقول: السلام عليكم، فيسمع الجواب: وعليك السلام يا أبا الحسن. فجاء يوماً من الأيام ثم سلم فلم يسمع جواباً لرد السلام فزار ورجع مرة أخرى فسمع الجواب برد السلام فقال: يا سيدي جئت بالأمس فسلمت فما سمعت جواباً فقال: يا أبا الحسن لك المعذرة كنت أتحدث مع جدي المصطفى ﷺ فلم أسمع كلامك. قال: وهذه كرامة جليلة لأبي الحسن التمار.

قال: ومن ذلك أيضاً ما أخبر به الشيخ العالم فتح الدين أبو الفتح الغمري الشافعي أنه كان يتردد إلى الزيارة غالباً فجلس يوماً يقرأ الفاتحة ثم دعا، فلما وصل في الدعاء إلى قوله: واجعل ثواباً مثل ذلك، أراد أن يقول في صحائف سيدنا الحسين ساكن هذا الرسن، فحصلت له حالة فنظر فيها إلى شخص جالس على الضريح وقع عنده أنه السيّد الحسين فقال: في صحائف هذا، وأشار بيده إليه فلما أتمّ الدعاء ذهب إلى الشيخ الجليل العارف الكبير سيدي عبد الوهاب الشعراني فأخبره بذلك فقال له: صدقت وأنا وقع لي مثل ذلك. قال: ثم ذهب إلى مولانا الأستاذ كريم الدين الخلوتي فذكر له ذلك فقال له الآخر: صدقت وأنا ما زرت هذا المكان إلاّ بإذن من النبي ﷺ. ثم أنشد فقال:

حبّ آل النبيّ خالط قلبي ... فاعذروني في حبّهم فاعذروني
أنا والله مغرم بهواهم ... علّلوني بذكرهم علّلوني

اهـ. ولبعض العارفين تشطير ذلك:

حبّ آل النبيّ خالط قلبي ... كاختلاط الضيا بنور العيون
وسرى في أعضاء جسمي كروحي ... فاعذروني في حبّهم فاعذروني

أنـا والـلَّـه مـغـرم بـهـواهـم ... خـالـع فـيـهـم عـذار شـجـونـي

يـا رفـاقـي إنـي عـلـيـل هـواهـم ... عـلـلـونـي بـذكـرهـم عَـلـلـونـي

قال بعض الأشياخ: إن الأستاذ الخرشي كان يقوم على بغتة وهو بالمسجد الحسيني واضعاً يده على صدره ويرد السلام ولم ير الحاضرون معه شخصاً فكان يخبرهم أن رسول الله ﷺ قد مرّ علينا وهو داخل المقام الحسيني.

قال العارف الشعراني في كتابه مختصر التذكرة: قد ثبت أن طلائع بن رزيك الذي بنى المشهد الحسيني بالقاهرة نقل الرأس إلى هذا المشهد، يعني القديم غير الذي جدده جناب عبد الرحمٰن كُتْخُدا فإنه تحته، وقد بنى فوقه حكم أخبار أهل المقام الحسيني لنا.

قال العارف: وذلك بعد أن بذل في نقلها أربعين ألف دينار وخرج هو وعسكره فتلقاها من خارج مصر حافياً مكشوف الرأس هو وعسكره وهي في برنس حرير أخضر في القبر الذي في المشهد موضوعة على كرسي من خشب الأبنوس مفروش هناك نحو نصف أردب من الطيب كما أخبرني بذلك خادم المشهد.

ومما وقع لي أنني قلت لسيدي الشيخ شهاب الدين الحنفي مفتي المسلمين رضي الله عنه: أترى أن تزور معنا رأس الحسين في المشهد بخان الخليلي فقال: إنه لم يثبت كون الرأس هناك، فقلت له: زره بالنيّة على تقدير صحة ذلك. فقال: نعم. فلما دخلنا مقصورته بالمشهد قلت للشيخ: اجلس مراقباً بقلبك للرأس الشريفة فجلس متخيلاً لها في ذهنه فحصل له ثقل رأس فنام، فرأى نقيباً مشدود الوسط قد خرج من القبر فما زال بصره يتبعه حتى دخل مقصورة رسول الله ﷺ وقال له: يا رسول الله إن الشيخ شهاب الدين بن الشلبي وعبد الوهاب الشعراني زار رأس ولدك الحسين، فقال رسول الله ﷺ: تقبّل الله منهما، قال: فاستيقظ الشيخ شهاب الدين وتواجد حتى وقعت عمامته من فوق رأسه، وقال: آمنت وصدقت بأن الرأس هنا. وحكى الواقعة ولم يزل يزوره حتى مات.

قال العارف: فزر يا أخي هذا المشهد بالنيّة الصالحة إن لم يكن عندك كشف.
قال: فقول الإمام القرطبي رحمه الله أن دفن الرأس في مصر باطل صحيح في أيام القرطبي فإن الرأس إنما نقلها طلائع بن رزيك بعد موت القرطبي، فافهم، والله تعالى يرشدنا وإياك لما فيه رضاه. اهـ.

قال الأستاذ الحفني في رسالته: كان بعض العارفين يهيم في مقام الحسين الذي عليه أعلام السعادة من الجانبين سنى من أنوار النبوّة لاح وأنشد فقال:

وبـنـاء أعـرب عـن فـلاح ... وشـذا مـاجـد قـد فـاح

مـنـزل كـمـل الإلٰـه سـنـاه ... تـتـوارى الـبـدور عـنـد لـقـاه

خصّه ربنا بما شاء في الأر ض تعالى مَن في السماء إلٰه
صانه زانه حماهُ وقَاه وكساه بمنّه ورضاه
إذ غدا مسكناً لعزة آل الـ ـبيت من تمّ قدره وعلاه
الإمام الحسين أشرف مولى أيد الدين سره ووقاه
مدحته آي الكتاب وجاءت سنة الهاشمي طرز حلاه

اهـ. وكان واسع العطاء والمجد ولذلك قال بعض الحواشي علي المغني عند قوله: وقد يخرم بلن نيابة عن لم كقول بعض العرب، يعني خطاباً للحسين رضي الله عنه:

لن يخب الآن من رجائك من حرك من دون بابك الحلقة

فأنعم عليه بألف دينار واعتذر إليه.

واعلم أنه ينبغي كثرة الزيارة لهذا المشهد العظيم متوسلاً به إلى الله، ويطلب من هذا الإمام ما كان يطلب منه في حياته فإنه باب تفريج الكروب، فبزيارته تزول عن القلب الخطوب ويصل إلى الله بأنواره والتوسل به كل قلب محجوب. ومن ذلك ما وقع لسيدي العارف بالله تعالى سيدي محمد شلبي شارح العزية الشهير بابن الست، وهو أنه قد سرقت كتبه جميعها من بيته قال: فتحيّر عقله واشتد كربه فأتى إلى مقام وليّ نعمتنا الإمام الحسين منشداً لأبيات استغاث بها فتوجه إلى بيته بعد الزيارة ومكثه في المقام مدة فوجد كتبه في محلها قد حضرت من غير نقص لكتاب منها. وها هي الأبيات:

أيحوم حولي من التجى لكمُو أذى أو يشتكي ضيماً وأنتم سادته
حاشى يرد من التجى لجنابكم يا آل أحمد أو تسرّ شوامته
لكم السيادة من الست بربّكم ولكم نطاق العز دارت هالته
هل ثمّ بابٌ للنبيّ سواكمُ مَنْ غيرُكم مِن ذِرى الورَى ريحانته
تبّاً لطرف لا يشاهد مشهَداً يحوي الحسين وتستلمه سُلامَتُه
فالزم رحاباً ضم سبط محمّد ما أمَّه راج وعيقت ساحته
ها خادم للحبّ يرفع حاجَة مما يلاقي من بلايا هالَتُه

وفي رسالتنا النفحات النبوية في الفضائل العاشورية ما نصه: قال العلامة الأجهوري: فعليك في هذا اليوم، أي يوم عاشوراء، بزيارة أهل بيت النبوة لا سيما سيّد شباب أهل الجنة في الجنة الإمام الحسين، فإنه الوسيلة العظمى لقاصده والراحة الكبرى لميمّمه ولا عبرة بما يقع من أهل الرفض والبدع في هذا اليوم من اتخاذه مأتماً.

قال: وقال الإمام الغزالي: يحرم على الواعظ وغيره رواية مقتل الإمام الحسين وحكاية ما جرى بين الصحابة من التشاجر والتخاصم فإن ذلك يهيج قلوب العامة على بغض الصحابة والطعن فيهم وهم أعلام الدين الذين تتلقى عنهم أئمة الدين وتلقينا عنهم، والطاعن فيهم طاعن في نسبه.

قال الإمام الشافعي وجماعة من السلف: تلك دماء طهر الله منها أيدينا فنطهر عنها ألسنتنا.

قال الإمام الأجهوري، قلت: ومقتضى مذهبنا أنه لا يجب الإمساك عن ذكر ما وقع في مقتل الإمام الحسين وإنما يجب الإمساك عما صدر بين الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين.

ثم قال الإمام المذكور: واعلم أن مقتل الإمام الحسين من المصائب العظمى التي يطلب عندها الاسترجاع كما دل عليه قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٥٥] الآية.

قال: وعن سعيد بن جبير رضي الله عنه قال: لم يعط الاسترجاع لأمة من الأمم إلاَّ لهذه الأمة، ألا ترى أن يعقوب على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام قال في مقام الاسترجاع: يا أسفاً على يوسف.

قال: وفي الصحيحين قال عليه الصلاة والسلام: ما من مسلم يصاب بمصيبة فيقول: إنا لله وإنا إليه راجعون اللهمَّ أؤجرني في مصيبتي واخلفني خيراً منها، إلاَّ أجره الله في مصيبته وأخلفه خيراً منها. اهـ.

وقال الذهبي في التلخيص على شرح مسلم وفي البدر المنير برواية الحاكم في المستدرك بأسانيد متعددة عن المصطفى ﷺ: «قاتل الحسين في تابوت من نار عليه نصف عذاب أهل الدنيا» اهـ.

أقول: وذلك لتجاسره على انتهاك حرمة صفوة الأمة وتجاهره بفسقه بأذية أهل بيت النبوة.

ولذلك قال الإمام أحمد أورع الأئمة بجواز لعن هذا اللعين.

قال الإمام السعد التفتازاني بعد ذكره نحواً مما قال الإمام أحمد: فالحق أن رضا يزيد بقتل الإمام الحسين وإهانة أهل بيت رسول الله ﷺ مما تواتر معناه وإن كانت تفاصيله آحاداً فنحن لا نتوقف في شأنه بل في إيمانه، قال: لعنة الله عليه وعلى أنصاره وعلى أعوانه.

قال الإمام الأجهوري: مما ظهر يوم قتله من الآيات أن السماء أمطرت دماً واشتد سوادها وانكسفت الشمس حتى خفيت ورؤيت النجوم بأشهار واشتد الظلام حتى ظن أن

القيامة قد قامت وأن الكواكب ضرب بعضها بعضاً وأنه لم يرفع ذلك اليوم حجر إلاّ رؤي تحته دم غليظ وأظلمت الدنيا ثلاثة أيام ثم ظهر بها الحمرة. وقيل: احمرت ستة أشهر.

قال: وعن الإمام ابن سيرين: أخبرنا أن الحمرة التي مع الشفق الآن لم تكن موجودة إلاّ من حين قتل الإمام الحسين اهـ.

أقول: ثم اعلم يا أخي أن ما وقع في هذا اليوم للإمام الحسين وإن كان بحسب ظاهره مصيبة ومحنة هو بحسب باطنه شهادة ودرجات ومنّة يدّخرها الله لمن اختار من عباده كما في الحديث عنه عليه الصلاة والسلام: «أن الله ادّخر البلاء لأحبابه كما ادخر الشهادة لأوليائه». فتوجّه الإمام الحسين للكوفة وإن كان ظاهره لطلب الخلافة الظاهرية حين أرسل إليه أهل الكوفة أن يبايعوه على الخلافة وسار هو وثمانون من أهل بيت النبوة من عشيرته، إلاّ أن باطنه المبادرة لتنفيذ القضاء لسرعة أهل الصفوة لتلقي البلاء طرباً وفرحاً للانتقال إلى دار البقاء ونيل الوصال بالمشاهدة واللقاء.

ويؤيد هذا ما نقله سيدي محمد الزرقاني في شرحه على المواهب عن عمار بن ياسر أنه في يوم قتله كان يلهج كثيراً بقوله: «واطرباه غداً نلقى الأحبة محمداً وحزبه».

وكذلك ما نقل عن بلال عن مرض موته لما سمع زوجته تقول: يا حزناه، فقال: «يا طرباه، غداً نلقى الأحبّة محمداً وحزبه».

ويؤيده أيضاً ما ذكره ولي نعمتي العارف الشعراني: أن الإمام علياً زين العابدين لما كان في السجن ودخل عليه بعض الأحبة ورأى الحديد في رقبته فحزن وكرب عليه فقال له: يا أخي أترى أن هذا يكربني ويحزنني. ثم أمسك الحديد من رقبته وفتته تفتيتاً مثل الخيط ثم أمسكه ثانياً وأرجعه كما كان ووضعه في رقبته وقال: والله ما هو إلاّ تسليم للقضاء اهـ. ألا ترى ما وقع لسيّدنا زكريا من نشره ويحيى من جز رأسه، فما ذاك إلا لعلوّ مراتبهم ودرجاتهم عند ربهم واقتداء لأهل المحن بهم من أهل الإيمان وإن كان فاعل ذلك بهم آثماً ملعوناً، ولذلك ورد في الحديث عن الحاكم في المستدرك عن ابن عباس رضي الله عنهما: أوحى الله إلى محمد ﷺ: أني قتلت بيحيى بن زكريا سبعين ألفاً وإني قاتل بابن بنتك سبعين ألفاً وسبعين ألفاً». وصححه الحاكم المذكور. ولما حملوا عليه مع كثرة عددهم وعُددهم لم يظهر لهم هزيمة بل حمل عليهم وتحدث بما أنعم الله به عليه فرحاً بدار البقاء وفخراً وعزاً بكونه ابن المصطفى، حيث قال:

أنا ابن علي الحبر من آل هاشم	كفاني بهذا مفخراً حين أفخر
وجدي رسول اللّه أكرم من مشى	ونحن سراج اللّه في الأرض يزهر
وفاطمة أمي سلالة أحمد	وعمي يدعى ذا الجناحين جعفر

وفينا كتاب اللّه ينزل صادقاً وفينا الهدى والوحي والخير يُذكر

ولما ظهر نفوذ القضاء بانقضاء الأجل وقطع رأسه الشريف وارتحل إلى دار البقاء وفاز بالوصال واللقاء تكلم رأسه الشريف بأعجب كلام.

روي عن الأعمش قال: والله رأيت الحسين رضي الله عنه حين حمل وأنا بدمشق وبين يديه رجل يقرأ سورة الكهف حتى بلغ ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ۝٩﴾ [الكهف: الآية ٩] فنطق الرأس بلسان فصيح فقال: قتلي وحملي أعجب من أصحاب الكهف اهـ. نسأل الله الكريم من فيض فضله العميم أن يمدنا من فيض إمداده ويمتّعنا بدوام تقبيل أعتابه.

وإذ قد انتهى بنا القول في بعض مآثر الحسَنين رضوان الله عليهما، فلنتعرض لذكر مآثر بعض أولادهما المدفونين بمصر وبيان مدافنهم ليقبل على زيارتهم من عمَّر الله بالإيمان قلبه. وقد أتينا من ذلك في كتابنا مشارق الأنوار[1] بما يسرُّ القلب الحزين، ونص عبارته:

وأما أولاده، فقال العلامة الأجهوري: رزق سيّدنا الحسين من الأولاد خمسة: عليّ الأكبر، وعليّ الأصغر وله العقب، وجعفر، وفاطمة، وسكينة المدفونة بالمراغة بقرب السيدة نفيسة. ذكره المناوي والشعراني وزاد: أن علياً الأصغر هو زين العابدين. وقال الشيخ كمال الدين: إن للأستاذ الحسين من الأولاد الذكور ستة ومن الإناث ثلاثة، فأما الذكور: فعليّ الأكبر وعليّ الأوسط وهو زين العابدين، وعلي الأصغر ومحمد وعبد الله وجعفر.

فأما عليّ الأكبر فإنه قاتل بين يدي أبيه حتى قتل. وأما عليّ الأصغر فجاءه سهم وهو طفل فقتل بكربلا. وأما علي الأوسط فكان مريضاً بكربلا ورجع مريضاً إلى مكة. وأما عبد الله فقتل مع أبيه شهيداً أيضاً. وجعفر مات في حياة أبيه.

وأما البنات، فزينب وفاطمة وسكينة اهـ. وكذا ذكره غيره أيضاً، والذي عليه التحقيق عند أهل الكشف والشهود أن المدفونين من أولاد الحسين مباشرة بمصر ثلاثة من الذكور فقط سيدي علي زين العابدين، ومن الإناث السيدة فاطمة والسيدة سكينة.

فأما سيدي علي زين العابدين فقال القطب الشعراني في طبقاته: توفي رضي الله تعالى عنه سنة أربع وتسعين وهو ابن ثمان وخمسين سنة وحملت رأسه إلى مصر ودفنت بالقرب من مجراة القلعة.

قال الأستاذ المذكور: وهو أبو الحسَنين على الإطلاق.

(١) بفوز أهل الاعتبار ـ يسّر الله لنا تحقيقه ـ وهو تحت قيد التحقيق.

قال: قال الأصمعي رضي الله تعالى عنه: ونسل الحسَين كلهم من قبل زين العابدين.

وقال العلامة المناوي: إن المشهد الذي بقرب مجراة القلعة بني على رأس سيدي زيد بن علي زين العابدين.

قال بعضهم: والدعاء عندهم مستجاب.

وللقطب الشعراني في المنن أيضاً نقلاً عن شيخه الخواص: أن زيداً الذي رأسه في المحل المذكور زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب، وأن فيه زين العابدين أيضاً.

قال العلامة الصبان: والجَمْع بإمكان اجتماع الثلاثة ممكن، ولفظ العلامة الصبان وقد اشتهر أن المشهد القريب بمجراة القلعة بقرب مصر القديمة هو مشهد سيدي علي زين العابدين وجرى عليه الشعراني في طبقاته وهذا على ثبوته لا ينافي ما مر من دفنه بالبقيع، لجواز أن يكون ظهر بهذا المشهد لما علمت سابقاً أن الحال في البرزخ كالحال في التيار.

وقال العارف الشعراني في كتابه الأنوار القدسية: عليك أيها الأخ المؤمن بزيارة أهل بيت النبوة المدفونين بمصر، وقدمهم على زيارة كل وليّ في مصر وكن على عكس ما عليه العامة من اعتنائهم بزيارة بعض المجاذيب والأولياء ولا يعتنون بزيارة أهل بيت النبوة مثل اعتنائهم بمن ذكر. قال: وهذا من شدة جهلهم.

قال: وقد صحح أهل الكشف أن السيدة زينب رضي الله عنها بنت الإمام علي هي المدفونة بقناطر السباع بلا شك، وأن أختها السيدة رقية في المشهد القريب من دار الخليفة أمير المؤمنين بالقرب من جامع ابن طيلون ومعها جماعة من أهل البيت، وأن السيدة سكينة بنت السيد الحسين رضي الله تعالى عنها في الزاوية التي عند الدرب قريباً من مشهد عمتها ومن دار الخليفة، وأن السيدة نفيسة رضي الله عنها في هذا المكان بلا شك، وأن السيدة عائشة ابنة الإمام جعفر الصادق في المسجد الذي له المنارة القصيرة على يسار من يريد الخروج من الرميلة إلى باب القرافة، والسيد محمد الأنور عمّ السيدة نفيسة رضي الله عنه في المشهد القريب من جامع ابن طيلون مما يلي دار الخليفة في الزاوية التي هناك، وأن أخاه السيد حسَن والد السيدة نفيسة في القبة المشهورة القريبة من جامع عمرو، وأن رأس الإمام زين العابدين ورأس السيد زيد الأبلج في القبة التي بين التل قريباً من مجرى القلعة، وأن رأس السيد إبراهيم بن السيد زيد الأبلج في المسجد الخارج من المطرية مما يلي الخانقاه. قال: وهو الذي اختفى من أجله الإمام مالك، وأن رأس السيد الحسين في القبر المعروف في المشهد قريباً من خان الخليلي بلا شك وضعه طلائع بن رزيك، وكان نائباً في مصر، في كيس من حرير أخضر على كرسي

من خشب الأبنوس وفرش تحته المسك والطيب ومشى معه هو وعسكره لما جاء من بلاد العجم حفاة من ناحية الشرقية إلى مصر اهـ نص العارف بلفظه في كتاب الأنوار.

فثق أيها المحبّ لآل بيت النبوّة بكلام العارف وكفى به حجة ولا تلتفت لما في بعض التواريخ أو غيرها مما يخالفه.

وأمّه رضي الله تعالى عنها كانت إحدى بنات كسرى.

قال في السيرة الحلبية: لما جيء ببنات كسرى، وكن ثلاثاً، مع أمواله وذخائره إلى عمر أوقفن بين يديه وأمر المنادي أن ينادي عليهن وأن يزيل نقابهن عن وجوههن ليزيد المسلمون في ثمنهن، فامتنعن من كشف نقابهن ووكزن المنادي في صدره، فغضب عمر رضي الله عنه وأراد أن يعلوهن بالدرة وهن يبكين فقال له عليّ كرَّم الله وجهه: مهلاً يا أمير المؤمنين فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ارحموا عزيز قوم ذل، وغنيّ قوم افتقر» إن بنات الملوك لا يعاملن معاملة غيرهن من بنات السوقة. فقال له عمر: كيف الطريق إلى العمل معهن، فقال: يقوّمن ومهما بلغ ثمنهن يقوم به من يختارهن. فقوّمن فأخذهن عليّ رضي الله تعالى عنه فدفع واحدة لعبد الله بن عمر فجاء منها بولده سالم وأخرى لمحمد بن أبي بكر فجاء منها بولده القاسم والثالثة لولده الحسين فجاء منها بعليّ زين العابدين، وهؤلاء الثلاثة فاقوا أهل المدينة علماً وورعاً فكان أهل المدينة قبل ذلك يتأبون عن التسري فلما نشأ هؤلاء الثلاثة منهن رغبوا فيه اهـ.

وروى علي زين العابدين عن أبيه وعائشة وأبي هريرة وغيرهم وعنه بنوه والزهري وأبو الزناد وغيرهم، قال الزهري وابن عيينة: ما رأينا قرشياً أفضل منه. وقال ابن المسيب: ما رأيت أورع منه. وقد جاء عنه من خشوعه في وضوئه وصلاته ونسكه ما يدهش السامع، وكان يصلي في اليوم والليلة ألف ركعة حتى مات. ولقب بزين العابدين لكثرة عبادته وحسنها، كان شديد الخوف من الله تعالى بحيث إنه إذا توضأ اصفر لونه وارتعد فيقال له: ما هذا، فيقول: أتدرون بين يدين من أقف. وكان إذا هاجت الريح سقط مغمى عليه. ووقع في بيته حريق وهو ساجد فجعلوا يقولون له: النار، فما رفع رأسه حتى طفئت، فقيل له: أشعرت، قال: ألهتني عنها النار الكبرى. وكان إذا أغضبه أحد قال: اللهم إن كان صادقاً فاغفر لي وإن كان كاذباً فاغفر له. وكان يضرب به المثل في الحلم، وله فيه حكايات عجيبة.

منها: أنه خرج يوماً من المسجد، فلقيه رجل فسبه وبالغ وأفرط، فبادر إليه العبيد والموالي فكفهم وأقبل عليه وقال: ما ستر عنك من أمرنا أكثر، ألك حاجة نعينك عليها، فاستحى الرجل فألقى له خميصة وأمر له بخمسة آلاف درهم فقال: أشهد أنك من أولاد المصطفى ﷺ.

ولقيه رجل فسبّه فقال له: يا هذا بيني وبين جهنم عقبة إن أنا جزتها فما أبالي بما قلت وإن لم أجزها فأنا أكثر مما تقول ألك حاجة، فخجل الرجل وكان لا يعينه على طهوره أحد ولا يدع قيام الليل حضراً ولا سفراً.

وقرِّب إليه طهره مرة في وقت برودة فوضع يده في الإناء ليتوضأ ثم رفع رأسه فنظر إلى السماء والقمر والكواكب فجعل يتفكر في خلقها حتى أصبح وأذّن المؤذن ويده في الإناء فلم يشعر. ولما مات وجدوه يقوّت أهل مائة بيت.

ودخل عليه في مرض موته محمد بن أسامة بن زيد فبكى فقال: ما يبكيك، قال: عليّ دين خمسة عشر ألف دينار، فقال: هي عليّ. ووفاها.

ومن كراماته أن زيداً ابنه استشاره في الخروج فنهاه وقال: أخشى أن تكون أنت المقتول المصلوب، أما علمت أنه لا يخرج أحد من ولد فاطمة قبل خروج السفياني إلاّ قتل مكانه. فكان كما قال.

ومنها: أن عبد الملك بن مروان حمله من المدينة مقيّداً مغلولاً في ثقل قيود وأغلال، فدخل عليه الزهري لوداعه فبكى فقال: وددت أني مكانك، فقال: تظن أن ذلك يكربني لو شئت لما كان وأنه ليذكرني عذاب الله. ثم أخرج يديه ورجليه من القيد ثم أعادها.

ومن كلامه أنه: إذا نصح العبد لله في سره اطلعه الله على مساوي عمله فتشاغل بعيوبه عن معايب الناس.

وقال: فقد الأحبة غربة.

وقال: عبادة الأحرار لا تكون إلاّ شكراً لله لا خوفاً ولا رغبة.

وقال: إن قوماً عبدوه رهبة فتلك عبادة العبيد وآخرين عبدوه رغبة فتلك عبادة التجار، وقوماً عبدوه شكراً فتلك عبادة الأحرار.

وقال: عجبت للمتكبر الفخور الذي كان بالأمس نطفة وسيكون جيفة وعجبت كل العجب لمن شك في الله وهو يرى خلقه، وعجبت لمن أنكر النشأة الأخرى وهو يرى النشأة الأولى، وعجبت لمن عمل لدار الفناء وترك دار البقاء.

وقد سماه النبي ﷺ: سيّد العارفين.

قال الإمام ابن حجر: روي عن جابر أنه لقي سيدي محمد الباقر في صغره ابن سيدي علي زين العابدين فقال له: جدك رسول الله يسلم عليك، فقيل له: وكيف ذلك - يعني مع انتقال رسول الله ﷺ إلى دار البقاء -، قال: كنت جالساً عنده ﷺ والحسين في حجره وهو يلاعبه فقال: «يا جابر يولد له مولود اسمه علي إذا كان يوم القيامة نادى مناد

ليقم سيّد العارفين، فيقوم ولده ثم يولد له ولد اسمه محمد الباقر فإذا أدركته يا جابر فأقرئه مني السلام».

وكان سيدي علي زين العابدين شديد المهابة، ولذلك قيل في حقه:

يُغضي حياء ويُغضى من مهابته ... فلا يكلم إلاّ حين يبتسم

قال الإمام ابن حجر: أخرج أبو نعيم: أنه لما حج هشام بن عبد الملك في حياة أبيه لم يمكنه أن يصل الحجر الأسود من الزحام، فنصب له منبر إلى جانب زمزم وجلس ينظر إلى الناس وحوله جماعة من أعيان الشام، فبينما هو كذلك إذ أقبل زين العابدين، فلما انتهى إلى الحجر تنحى الناس له عن الحجر من المهابة والجلالة حتى استلم الحجر، فقال أهل الشام لهشام: من هذا، قال: لا أعرفه، مخافة أن يرغب أهل الشام في زين العابدين، فقال الفرزدق: أنا أعرفه:

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته ... والبيت يعرفه والحلّ والحرم

هذا ابن خير عباد اللّه كلهم ... هذا التقي النقي الطاهر العَلم

إذا رأته قريش قال قائلها ... إلى مكارم هذا ينتهي الكرم

ينمى إلى ذروة العز التي قصُرت ... عن نيلها عرب الإسلام والعجم

هذا ابن فاطمة إن كنت جاهله ... بجده أنبياء اللّه قد ختموا

فليس قولك من هذا بضائره ... العرب تعرف من أنكرت والعجم

من معشر حبّهم دين وبغضهم ... كفر وقربهم منجى ومعتصم

لا يستطيع جواد بعد غايتهم ... ولا يدانيهم قوم وإن كرموا

فلما سمعها هشام غضب وحبس الفرزدق بعسفان. ولما بلغ ذلك سيدي علياً زين العابدين أمر له باثني عشر ألف درهم وقال: اعذر لو كان عندنا أكثر لوصلناك به، فقال: إنما امتدحتك لله لا لعطاء، فقال الأستاذ: إنا أهل البيت إذا وهبنا شيئاً لا نستعيده. فقبلها الفرزدق ثم هجا هشاماً في الحبس فبعث فأخرجه وهذا ببركة الأستاذ رضي الله تعالى عنه.

وفي فضائل عاشوراء للعلامة الأجهوري عن ابن مسعود: حبّ آل محمد يوماً خير من عبادة سنة.

وللإمام السمهودي في جواهر العقدين: أن المأمون قال لعلي زين العابدين بن الإمام الحسين: بأيّ وجه جدّك علي بن أبي طالب قسيم الجنة والنار، فقال: يا أمير المؤمنين ألم تَرْوِ عن أبيك عن عبد الله بن عباس رضي الله عنه قال: سمعت رسول

الله ﷺ يقول: «حبّ عليّ إيمان وبغضه كفر» فقال: بلى، فقال: بهذا ظهر كونه قسيم الجنة والنار. فقال المأمون: لا أبقاني الله بعدك يا أبا الحسن أشهد أنك وارث علوم رسول الله ﷺ.

قال أبو الصلت عبد السلام المهدوي: ما أحسن ما أجبت به أمير المؤمنين. فقال: يا أبا الصلت إنما كلمته من حيث يهوى، ولقد سمعت الحسين يحدث عن أبيه علي رضي الله تعالى عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «أنت قسيم الجنة والنار، فيوم القيامة تقول النار: هذا لي وهذا لك» اهـ. وكراماته وحلمه وفضائله لا تنحصر عجائبها أمدنا الله من فيوض إمداده ومتّعنا بشهود أهل حبّه ووداده.

وأما أخته السيدة سكينة[1]، فهي بنت سيدنا وولي نعمتنا الحسين.

ففي طبقات الشعراني الكبرى: أن السيدة سكينة بنت الحسين مدفونة بقرب السيدة نفيسة، وكذا في طبقات المناوي، وكذا في سيرة الشامي والحلبي.

قال الشعراني: لما دخلت السيدة نفيسة مصر كانت ابنة عمها السيدة سكينة المدفونة قريباً من دار الخلافة مقيمة بمصر قبلها ولها الشهرة العظيمة، فخلعت الشهرة والنذور عليها واختفت رضي الله تعالى عنها.

وفي الفصول المهمة في فضائل الأئمة لابن الصبّاغ: أن الحسن بن الحسن بن علي خطب من عمه الحسين إحدى بنتيه فاطمة أو سكينة، وقال: اختر لي إحداهما، فقال الحسين: قد اخترت لك ابنتي فاطمة فهي أكثرهما شبهاً بأمي فاطمة بنت رسول الله ﷺ، أما في الدين فتقوم الليل كله وتصوم النهار، وأما في الجمال فتشبه الحور العين. وأما سكينة فغالب عليها الاستغراق مع الله فلا تصلح لرجل.

وفي كلام غير واحد: أن سكينة تزوجت بابن عمها عبد الله بن الحسن فقُتِل عنها بالطف، ثم تزوجت بعده بأزواج، وقيل: إنها أخت الحسين. وقوّاه النووي، وقيل: إنها بنت سيدي علي زين العابدين.

قال العلامة الأجهوري: قلت الذي توافر معنا وخلفاً أن سكينة التي بمصر بنت الحسين بلا شك.

قال الأستاذ الحفني: ويشهد لهذا ما ذكره صاحب القاموس حيث قال في حرف السين: سكينة كجهينة بنت الحسين بن علي، ولم يذكر سكينة أخت الحسين، ولو كانت موجودة لذكرها كما هي عادته في نظير ذلك. وقد استفيد من كلامه أنها بضم السين

---

(١) انظر: الثقات لابن حبان (٤/ ٣٥٢)، وكرامات الأولياء للالكائي (١/ ١٤٠)، ومولد العلماء ووفياتهم (ص ٢٧٥)، والتاريخ الصغير للبخاري (١/ ٢٠٥)، وسير أعلام النبلاء (٧/ ٢٩).

وفتح الكاف لأنه قال: كجُهينة.

قال الأستاذ المذكور: ثم رأيت في كتاب الكواكب السيّارة للعلامة محمد بن الزيات أن أول من دخل مصر من أولاد علي كرَّم الله وجهه سكينة بنت الحسين بن علي بن أبي طالب ثم رجعت إلى المدينة، وهذا يؤيد ما ذكره النووي سابقاً.

قال العلامة الصبان: ويمكن الجمع بين هذين القولين بدفن كلتيهما في ذلك المحل اهـ.

وقد سبق لك آنفاً ما نقلناه عن القطب الشعراني في كتابه الأنوار القدسية، عند سرده لمن في مصر من أهل البيت إجمالاً بالقطع منه ببيان أماكن محل دفنهم، حيث قال: والسيدة سكينة بنت الحسين في هذا المحل بلا شك، ولا يخفى عليك ما مر من ظهور من اشتهر بمكان ولو لم يكن به فإن النفحات والبركات طافحة وشاهدة لمن عاين منهم تلك المآثر، فعليك يا أخي بقطف ثمار محبة أنوار أعتابهم متوسلاً بهم في نجاتك من ظلمة الأغيار وعذاب النار. ومن ألطف ما قيل:

هم القوم من أصفاهم الودّ مخلصاً — تمسك في أخراه بالسبب الأقوى

هم القوم فاقوا العالمين مناقبا — محاسنهم تُحكى وآياتهم تُروى

موالاتهم فرض وحبّهم هدى — وطاعتهم ودّ وودّهم تقوى

أمدنا الله من فيض إمداداتهم وجعلنا الله من المنظومين في عقد خدّامهم.

وأما سيدة أهل اليقين ومانحة لواء العز والسؤدد للقاصدين وباب تفريج الكروب للمستغيثين السيّدة فاطمة النبوية[1] بنت ولي نعمتنا الحسين، شقيقة السيدة سكينة، فهي مدفونة خلف الدرب الأحمر.

قال العلاّمة الأجهوري: السيدة فاطمة النبوية بنت الحسين السبط مدفونة خلف الدرب الأحمر في زقاق يعرف بزقاق فاطمة النبوية في مسجد جليل ومقامها عظيم وعليه من المهابة والجلال والوقار ما يسرّ قلوب الناظرين، ولنا فيها أرجوزة عظيمة، ولنا بها زيارات، وما اشتهر من أن فاطمة النبوية بدرب سعادة غير صحيح، وعلى تقدير صحته يحتمل أن يكون معبدها، ويحتمل أن تكون فاطمة أخرى من بيت النبوة اهـ لفظ سيدي عبد الرحمٰن الأجهوري جد سيدي علي الأجهوري وكفى به حجة.

فإن كان شيخ الإسلام في وقته، وفي الفصول المهمة في فضائل الأئمة لابن الصباغ أن الحسَن بن الحسَن بن علي خطب من عمه الحسين إحدى ابنتيه فاطمة أو

(١) انظر: الثقات (٥/ ٣٠٠)، وتاريخ الطبري (٥/ ٣٦٠)، والسيرة النبوية (٦/ ٤٧).

سكينة، وقال: اختر لي إحداهما، فقال الحسين: قد اخترت لك ابنتي فاطمة فهي أكثر شبهاً بأمي فاطمة بنت رسول الله ﷺ، أما في الدين فتقوم الليل وتصوم النهار، وأما في الجمال فتشبه الحور العين، وأما سكينة فغالب عليها الاستغراق مع الله تعالى فلا تصلح لرجل اهـ.

وقد عوهد محلها الأنور ومقامها الأبهر بذهاب العناء عن قاصد هاتيك الأعتاب متوسّلاً بها إلى ربّ الأرباب، وقد سبق لك غير مرة أن البرزخ كالتيار يظهر من انتسب إليه فيه وإن لم يكن مدفوناً به فإن للأولياء في البرزخ الانطلاق والسراح لأرواحهم بل ولأشباحهم كما حققه عمدة المحدثين وليث العارفين الذي كان يجتمع بالنبي يقظة المحقق سيدي عبد الله بن أبي جمرة أفاد تلك الشهادة الأستاذ الحفني في رسالته، وإذا كان هذا للأولياء عموماً فما بالك ببضعة رسول الله ﷺ.

ولفظ العارف ابن أبي جمرة الذي عليه المحققون من الصوفية أن الأمر في عالم البرزخ والآخرة على خلاف عالم الدنيا، فينحصر الإنسان في صورة واحدة، يعني في عالم الدنيا المسمى بعالم الشهادة، إلاَّ الأولياء كما نقل عن قضيب البان أنه رؤي في صور مختلفة وسر ذلك أن روحانيتهم غلبت جسمانيتهم فجاز أن تظهر في صور كثيرة وحمل عليه قوله ﷺ لأبي بكر لما قال: «وهل يدخل أحد من تلك الأبواب كلها» قال: نعم، وأرجو أن تكون منهم.

وقالوا: إن الروح إذا كانت كلية كروح نبينا ﷺ ربما تظهر في سبعين ألف صورة، قال: فإذا جاز لأرواح الأولياء عدم الانحصار في صورة واحدة في عالم الدنيا فترى في صور مختلفة لغلبة روحانيتهم جسمانيتهم فأحرى أن لا تنحصر أرواحهم في صورة واحدة في عالم البرزخ الذي الروح فيه أغلب على الجسمانية.

وقال أيضاً: الولي إذا تحقق في الولاية مكّن من التصور في صور عديدة وتظهر روحانيته في وقت واحد في جهات متعددة، فالصور التي ظهرت لمن رآها حق والصور التي رآها آخر في مكان آخر في ذلك الوقت حق، ولا يلزم من ذلك وجود شخص واحد في مكانين في وقت واحد لأن فيها هنا تعدد الصور الروحانية لا الجسمانية، فإذا جاز للروح أن ترى في صور عديدة في دار الدنيا لمن تحقق في الولاية فأحرى أن ترى في صور عديدة في عالم البرزخ الذي الغلبة فيه للأرواح على الأجسام. ويقوي ذلك ما ثبت في السنة وصح أن النبي ﷺ رأى موسى قائماً يصلي في قبره ليلة الإسراء ورآه في السماء تلك الليلة.

وقد أثبت الصوفية عالماً متوسطاً بين الأجساد والأرواح سموه عالم المثال، وقالوا: هو ألطف من عالم الأجساد وأكثف من عالم الأرواح. وبنوا على ذلك تجسد

الأرواح وظهورها في صور مختلفة من عالم المثال، وقد يستأنس لذلك بقوله تعالى: ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [مريم: الآية ١٧] فتكون الروح كروح جبريل مثلاً في وقت واحد مدبرة لشبحه الأصلي ولهذا الشبح المثالي، فإذا جاز تجسد الأرواح وظهورها في صور مختلفة من العالم المثالي في عالم الدنيا ففي عالم البرزخ أولى، وعلى هذا فالذي يخرج من القبر الشبح المثالي اهـ.

وقال في المواهب نقلاً عن العز بن عبد السلام: فإن قلت: إذا لقي جبريل النبي ﷺ في صورة دحية الكلبي فأين تكون روح جبريل، فإن كانت في الجسد الذي له ستمائة جناح فالذي أتى حينئذ لا روح جبريل ولا جسده، وإن كانت في هذا الذي في صورة دحية فهل يموت الجسد العظيم أو يبقى خالياً من الروح المنتقلة عنه إلى الجسد المشبه جسد دحية.

قال الإمام العيني في شرحه على البخاري: أنه لا يبعد أن لا يكون انتقالها موجباً لموته فيبقى الجسد الأول حياً لا ينتقص من معارفه شيء، ويكون انتقال روحه للجسد الثاني كانتقال أرواح الشهداء إلى أجواف طير خضر وموت الأجساد بمفارقة الأرواح ليس بواجب عقلاً بل بعادة أجراها الله في بني آدم فلا تلزم في غيره اهـ.

وقال سيدي محمد الزرقاني شارح المواهب عن السراج البلقيني: يجوز أن يكون الآتي هو جبريل بشكله الأول، إلا أنه انضم فصار على قدر هيئة الرجل، ومثال ذلك القطن إذا جُمع بعد نفشه، وهذا على سبيل التقريب.

قال: وقال في فتح الباري على البخاري: الحق أن تمثل الملك رجلاً ليس معناه أن ذاته انقلبت رجلاً، بل معناه أنه ظهر بتلك الصورة تأنيساً لمن يخاطبه. والظاهر أن القدر الزائد لا يزول ولا يفنى بل يخفى على الرائي فقط اهـ.

قال سيدي محمد الزرقاني: والذي أختاره ما أجاب به الإمام القزويني بقوله: يجوز أن الله خصه بقوة ملكية بحيث تكون روحه في جسده الأصلي مدبرة له ويتصل أثرها بجسم آخر يصير حياً بما اتصل به من ذلك الأثر.

قال: وقد قيل: إنما سمي الأبدال أبدالاً لأنهم قد يدخلون إلى مكان ويقيمون في مكانهم شبحاً آخر تشبيهاً بشبحهم الأصلي بدلاً عنه.

قال: وأثبت الصوفية عالماً متوسطاً بين عالم الأجساد والأرواح سموه عالم المثال اهـ.

أقول: وإذا أمعنت النظر وجدت ما اختاره الشارح موافقاً لما أجاب به الإمام العيني حيث قال: ويكون انتقال روحه للجسد الثاني كانتقال أرواح الشهداء لأن لا خفاء في حياة الشهداء جسماً وروحاً لا روحاً فقط، فكونها في جوف طير خضر لا ينافي

اتصالها بالجسد الأصلي. ويوافق ما درجنا عليه أولاً عن العارف ابن أبي جمرة نفعنا الله به هذا تحقيق المقام.

ولنرجع إلى ما نحن الآن بصدده عسى أن يكشف عنا حجاب الغفلة وينقذ القلب من تراكم غيّه وتزاحم أوده.

اعلم أن حبّ آل البيت من أعظم الوسائل إلى الله والتودد لهم يزكي النفس ويذهب البأس ويدني العبد من مولاه، أليس وهم سلالة سيد الخلق على الإطلاق الذين أماطت لهم الحضرة العلية جلابيب الأنوار فغرقوا في بحار الأشواق وشاهدوا الحق فأثمرت رياض عزهم اليانعة والتزموا الصدق فساغ لهم التصرف بما شاؤوا وغَدَتْ فضائلهم ذائعة شائعة سيّما غرة وجه الزمان ورفيعة القدر والشان، من تمسكت البركات بأذيال طلعتها البهية وتمسكت النفحات بشذا عرف بهجتها السنيّة، ذات الحسن والجمال والبهجة والجلال، المتصرفة في الملكوت بأمر الله كما تشاء، المنقذة الملهوف إذا هو من كؤوس غياهب صروف الدهر قد انتشا، من عجزت عن حصر فضائلها ألسن الأقلام واعترفت الأولياء بأنها سيدتهم على التمام، السيدة فاطمة بنت الإمام الأعظم ولي نعمتنا الحسين بشهادة ما تقدم لك عن البرهان الأجهوري وصاحب الفصول المهمة.

ويقوي ذلك أيضاً، وإن لم يكن نصا في محلها بالخصوص، ما أفاده الحافظ الكبير الإمام ابن حجر في شرح فتح الباري على البخاري، وكذلك الإمام العيني على قول الإمام البخاري في باب الجنائز: ولما مات الحسن بن الحسن بن علي ضربت امرأته قبة على قبره سنة. ونصّه في الفتح قوله: لما مات الحسن هو ممن وافق اسمه اسم أبيه وكانت وفاته سنة تسع وتسعين وهو من ثقات التابعين روى له النسائي. قال: وله ولد يسمى الحسن أيضاً، فهم ثلاثة في نسق، قال: واسم امرأته المذكورة فاطمة بنت الحسين، قال: وهي ابنة عمه، انتهى. فهذا نص منه على أن للإمام الحسين بنتاً تسمى فاطمة. وعبارة الإمام العيني علي البخاري مثل ذلك وزاد: أنه تزوجها بعد موت الحسن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان فولدت له محمد الديباج اهـ.

ويعجبني مدحاً في حضرتها وآل البيت على العموم الذين شيدوا الدين وصاروا في الاهتداء بهم كالنجوم، قول الهمام الفاضل والإمام الكامل ولدنا الشيخ أحمد المالكي لقباً الشافعي مذهباً، الأبياري بلداً، أفاض الله علي وعليه من سحائب بركاتهم وأمدني وإياه من نفائس إمداداتهم، وسبب نظمه هاتيك الدرر ونشره نفائس عرائس الغرر أن الفاضل المذكور لما اطلع على كتابي هذا عند تأليفه فأعجبه حسن سبكه وتصنيفه حيث رشح بذكر ما لآل البيت من المآثر ورشح بذكر نسبهم وما لهم من المناقب والمفاخر، تشوق إلى مدحهم تشوق المحب إلى الوصال، وتشوف إلى ذكر مآثرهم تشوف الراجي

إلى بلوغ الآمال، وجعل يتخيّل في نظمه أن كتابي هذا عروس في حلل المحاسن يختال، ويصفه بأوصاف حميدة قد نسجت على غير مثال وطفق يسامرها مسامرة المحب للحبيب وقد غابت العواذل ونامت عين الرقيب. وهذا ما قال، أصلح الله لي وله الحال والمآل:

لآل البيت عزٌّ لا يزول ... وفضل لا تحيط به العقول

وإجلال ومجد قد تسامى ... وقدر ما لغايته وصول

وفي التنزيل بالتطهير خصوا ... ومدحتهم بها شهد الرسول

لهم عزّ وسلطنة وجاه ... ودام لهم من اللَّه القبول

سيوف في الأعادي فاتكات ... وسطوتهم لها رعب مهول

بدور الدين مهما قد تجلّت ... تكاد الشمس من خجل تزول

زكوا أصلاً بنسبتهم ولكن ... يطيب الفرع ما طابت أصول

وكيف القول في قوم أبوهم ... له جبريل في الدنيا رسول

معاذ اللَّه أن أخشى نكالاً ... ولي في حبّهم باع طويل

أليس عظيمة المقدار منهم ... وإني في محبيها دخيل

هي النبوية العظمى وتدعى ... بفاطمة إذا همّ يجول

على كل الورى فضلت بعزم ... إليه الغير ليس له سبيل

فإمداداتها في الكون عمت ... ولي منها بها حظ جزيل

عليك بها إذا ما اشتد كرب ... وأسقاك الردى خطب جليل

فإني كلما عظمت خطوبي ... والُ الكَرْبِ عني لا يحول

وناضلني الزمان وراش نبلاً ... ورام به على ضعفي يصول

أؤم رجا بها فيزول ما بي ... ويأتي ما به يشفي الغليل

وليس لفضلها حصر ولكن ... بمدح جنابها يرجى القبول

ولو أني ملأت الكون مدحاً ... لكنت مقصراً فيما أقول

ولكني رأيت عروس فكر ... لأفئدة الأفاضل تستميل

تحاكي الشمس مهما قد تبدت ... وتزري بالقنا مهما تميل

وتكشف عن لثام مخدرات ... مقنعة وليس لها وصول

وتفصح عن ضمير القول مهما ... تحاوله بأبدع ما تقول
وتنشد مدح آل البيت جهراً ... وفي كل العلوم إذا تجول
تخر لها المسامع ساجدات ... وتركع خشية منها العقول
لها في معضلات العلم قول ... له الآيات تشهد والدليل
لها وعظ يذيب اللب رعباً ... ويحنو صبوة منه الملوك
إذا بمشارق الأنوار تدعى ... فحسبك ذلك الذكر الجميل
فقلت لها وقد أسرت فؤادي ... وجسمي من محبتها نحيل
وقد دارت بكأس الراح صرفاً ... علينا فانتشت منا العقول
إلى من تنسبني قالت لمولى ... همامٌ فاضلٌ حبرٌ جليل
هو العلامة العدوي كنز المـ ... ـعارف من له الباع الطويل
توسل بالنبي وآل بيت ... عسى بهمو يكون له القبول
وأهداني لهم فعذبت لفظاً ... وبي للحق قد وضح السبيل
فلا زالت له الأيام طوعاً ... وذاك العز باق لا يزول
على خير الأنام وآل بيت ... صلاة الله ما هبّت شمول

وصلّى الله على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم.

وأما من دفن بمصر من النساء من أولاد الزهراء سيّدة نساء العالمين على الإطلاق كما تقدم لك اعتماده فهما ثنتان، إحداهما صاحبة المواهب الربانية والإمدادات الصمدانية والإشارات الرحمانية سيدتي وملجئي وغوثي السيدة زينب شقيقة الإمام الحسين بالاتفاق، ومحلها كما قال القطب الشعراني في منته وطبقاته وكتابه الأنوار القدسيّة، أخبرني سيدي علي الخواص أن السيدة زينب المدفونة بقناطر السبّاع ابنة الإمام علي وأنها في هذا المكان بلا شك، وكان يخلع نعله في عتبة الدرب ويمشي حافياً حتى يجاوز مسجدها ويقف تجاه وجهها ويتوسل بها إلى الله تعالى في أن الله يغفر له اهـ.

قال الصبّان: وتجاه قبرها الشريف قبر سيدي محمد العتريس أخي سيدي إبراهيم الدسوقي اهـ.

قال إمام المحدثين السيوطي في رسالته الزينبية إن السيدة زينب ولدت لعبد الله بن جعفر، أي ابن عمها الذي تزوج بها، علياً وعوناً الأكبر وعباساً ومحمداً وأم كلثوم وذريتها إلى الآن موجودون بكثرة.

قال العلامة الصبّان: وهم من آل النبي وأهل بيته بالإجماع، لأن آله هم المؤمنون من بني هاشم وبني المطلب ومن ذريته وأولاده بالإجماع، لأن أولاد بنات الإنسان معدودون من ذريته وأولاده حتى لو أوصى لأولاد فلان أو ذريته دخل فيه أولاد بناته، وهذا المعنى أخص من الذي قبله، وتحرم عليهم الصدقة بالإجماع لأن بني جعفر من الآل قطعاً، ويطلق عليهم اسم الأشراف بناء على الاصطلاح القديم من إطلاق اسم الشريف على كل من كان من أهل البيت وإن خص الآن بذرية الحسن والحسين اهـ.

قال في المواهب اللدنية: ولدت الزهراء لعليّ حسَناً وحسَيناً ومحسناً فمات صغيراً وأم كلثوم وزينب.

قال شارحها الزرقاني نقلاً عن ابن الأثير: ولدت زينب في حياة جدها، قال وكانت لبيبة جزلة عاقلة لها قوة جنان.

قال ابن عبد البر: وولدت أم كلثوم قبل وفاة جدها ﷺ اهـ فحينئذ عقب الزهراء ولد قبل وفاته ﷺ فإن الحسن ولد قبل وفاة جدّه بثمان سنين وولد الحسين قبلها بسبع.

قال في المواهب: ولم يكن لرسول الله ﷺ عقب إلاَّ من ابنته فاطمة الزهراء. قال: وانتشر نسله من جهة السبطين الحسن والحسين. قال: ويقال للمنسوب لأولهما حسَنيّ، ولثانيهما حسَينيّ. قال: ويضم لمن كان من ذرية إسحٰق بن جعفر الإسحاقي فيقال: الحسيني الإسحاقي، وذلك لأن إسحٰق بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن الإمام زين العابدين بن الإمام الحسين قال: هو زوج السيدة نفيسة بنت الحسن بن زيد بن الحسن بن علي قال: وأما أم كلثوم فتزوجها عمر بن الخطاب، قال: فولدت له زيداً ورقية ولم يعقبا.

قال الإمام الزرقاني: روى محمد بن أبي عمر شيخ مسلم في مسنده: أن عمر خطب إلى علي بنته أم كلثوم فذكر له صغرها فعاوده، فقال علي: أبعث بها إليك فإن رضيت فهي امرأتك. فأرسلها إليه فكشف عن ساقها فقالت له: مه لولا أنك أمير المؤمنين للطمت عينك.

قال: وذكر ابن سعد أنه خطبها من علي فقال: إنما حبست بناتي على بني جعفر، أي لا يزوجهن إلاَّ لبني عمه جعفر، فقال: زوّجنيها فوالله ما على وجه الأرض رجل يرصد من كرامتها ما أرصد، فقال: فقلت: فجاء عمر إلى المهاجرين فقال: هنوني فهنوه قالوا: تزوجت بمن، قال: بنت علي، سمعت النبي ﷺ يقول: «كل نسب وسبب منقطع يوم القيامة إلاَّ نسبي وسببي» وكنت قد صاهرته ﷺ بتزويجه حفصة فأحببت هذا أيضاً. أمهرها أربعين ألفاً اهـ.

ثم بعد موت عمر تزوجها عون بن جعفر، وبعد موت عون تزوجها محمد أخوه،

وبعد موت محمد تزوجها أخوه عبد الله بن جعفر، وبعد موتها عنده تزوج أختها زينب ولم تعقب أم كلثوم لواحد من الثلاثة سوى الثاني أتت له ببنت توفيت صغيرة.

وأما السيدة زينب فولدت من عبد الله عدة من الأولاد منهم علي وأم كلثوم، وتزوج أم كلثوم هذه ابن عمها القاسم بن محمد بن جعفر بن أبي طالب فولدت له عدة من الأولاد منهم فاطمة زوج حمزة بن عبد الله بن الزبير بن العوام وله منها عقب قال: وبالجملة فعقب عبد الله بن جعفر انتشر من علي وأخته أم كلثوم أولاد زينب بنت الزهراء ويقال لكل من ينسب لهؤلاء جعفري، قال: ولا ريب أن لهؤلاء شرفاً لكنه ليس كشرف من ينسب للحسَنين.

قال: وكم أطلق الذهبي في تاريخه في كثير من التراجم قوله الشريف الزينبي. قال: ولا شك أنهم تحرم عليهم الصدقة إجماعاً لأن بني جعفر من الآل وأنهم يستحقون من سهم ذوي القربى بالإجماع، وأنهم من ذرية النبي وأولاده إجماعاً.

قال الإمام القسطلاني في المواهب: وأما الجعافرة المنسوبون لعبد الله بن جعفر، أي أولاده من غير السيدة زينب، فلهم أيضاً شرف.

قال شارحها الزرقاني: لأنهم من بني هاشم ومن أولاد عمه ﷺ، وتحرم عليهم الزكاة ويستحقون في سهم ذوي القربى وبركة الحبشي وذلك لأن واقفها وقف نصفها على أولاد الحسَن والحسَين والنصف الثاني على الطالبيين وهم ذرية علي من محمد بن الحنفية وإخوته وذرية جعفر وعقيل اهـ.

قال القسطلاني: ذرية جعفر يتفاوتون، فمن كان من ولده من زينب فهم أشرف من غيرهم.

قال الشارح: أي من ولده من غيرها.

قال القسطلاني: مع كونهم لا يوازون شرف المنسوبين للحسن والحسين لمزيد شرفهما.

قال الشارح: أي الذي خصهما به جدهما فينسبون إليه ﷺ حقيقة دون غيرهما، قال: لقوله ﷺ: «لكل بني أم عصبة إلاَّ بني فاطمة فأنا وليهما وعصبتهما». فخصَّ الانتساب والتعصيب بهما دون أختيهما لأن أولاد أختيهما، إنما ينسبون إلى آبائهم ولهذا جرى السلف والخلف على أن ابن الشريفة لا يكون شريفاً.

قال: ولو كانت الخصوصية عامة في أولاد بناته وإن سفلن لكان ابن الشريفة شريفاً تحرم عليه الصدقة وإن لم يكن أبوه كذلك وليس كذلك كما هو معلوم. قال: ذكره الإمام السيوطي في الرسالة الزينبية قال: وهذا هو الحق وهو ما عليه ابن عرفة في قوله: لابن الشريفة شرف ما اهـ.

قلت: والذي رجحه الأجهوري وتلامذته ثبوت الشرف للشخص تبعاً لأمه ولو كان أبوه غير شريف قال: ويشهد له قوله عليه الصلاة والسلام في حديث صحيح: «ابن أخت القوم منهم».

قال في المواهب: وكذا يوصف العباسيون بالشرف لشرف بني هاشم.

قال الزرقاني: وكذا العقيليون ذرية عقيل بن أبي طالب والعلويّون ذرية ابن الحنفية وغيره من أولاد علي.

قال: وقد كان اسم الشريف يطلق في الصدر الأول على من كان من آل البيت سواء كان حسنياً أم حسينياً أم علوياً أم عباسياً أم جعفرياً أم عقيلياً.

قال: ولهذا تجد تاريخ الحافظ الذهبي مشحوناً في التراجم بذلك بقوله: الشريف العباسي، الشريف العقيلي، الشريف الزينبي، الشريف الجعفري.

فلما ولي الفاطميون مصر قصروا اسم الشريف على ذرية الحسن والحسين فقط فاستمر ذلك بمصر إلى الآن.

قال الحافظ ابن حجر في كتابه نزهة الألباب في معرفة الألقاب، وقد لقب به ـ يعني بالشريف ـ كل عباسي ببغداد، قال: لأن الخلفاء من بني العباس كانوا بها وكل علوي بمصر قال لأن الفاطميين الذين كانوا بها من ولد علي من فاطمة بزعمهم.

قال: وفي شيوخ ابن الرفعة شخص يقال له: الشريف العباسي، انتهى.

قال الإمام الزرقاني نقلاً عن السيوطي في رسالته المتقدم ذكرها: ولا شك أن المصطلح القديم أولى وهو إطلاقه على كل علوي وجعفري وعقيلي وعباسي كما صنعه الذهبي وكما أشار إليه الماوردي من الشافعية والقاضي أبو يعلى من الحنابلة، ونحوه قول ابن مالك وآله المستكملين الشرفاء اهـ.

أقول: وحاصل ما أفاده إمام السنة في رسالته المتقدمة: أن السيدة زينب تزوجها سيدي عبد الله بن جعفر الصحابي الجليل ابن الصحابي الجليل فولدت له من الأولاد خمسة: علياً وعوناً الأكبر وعباساً ومحمداً وأم كلثوم.

قال الحافظ في الرسالة[1]: أولاد زينب من عبد الله بن جعفر موجودون بكثرة ونتكلم عليهم من عشرة أوجه:

أحدها: أنهم من آل النبي ﷺ وأهل بيته بالإجماع لأن آله هم المؤمنون من بني هاشم والمطلب.

(١) انظر: نزهة الألباب في الألقاب للحافظ (ص ٣٩٩).

قال: وقد أخرج مسلم والنسائي عن زيد بن أرقم قال: قام فينا رسول الله ﷺ خطيباً فقال: «أذكّركم الله في أهل بيتي - ثلاثاً» فقيل لزيد بن أرقم: ومن أهل بيته؟ فقال: أهل بيته من حرَّم عليهم الصدقة بعده. وقيل: ومن هم، قال: آل علي وآل عقيل وآل جعفر وآل عباس»[1].

الثاني: أنهم من ذريته وأولاده بالإجماع. قال: وهذا المعنى أخص من الذي قبله.

قال: قال البغوي في التهذيب: أولاد بنات الإنسان لا ينسبون إليه وإن كانوا معدودين في ذريته حتى لو أوصى لأولاد أولاد فلان يدخل فيه ولد البنت.

الثالث: أنهم هل يشاركون أولاد الحسن والحسين في أنهم ينسبون إلى النبي ﷺ. قال: والجواب لا، وهذا المعنى أخص من الذي قبله.

قال: وقد فرّق الفقهاء بين من يسمى ولداً للرجل وبين من ينسب إليه. قال: ولهذا قالوا: لو قال وقفت على أولادي دخل ولد البنت ولو قال: وقفت على من ينسب إليّ من أولادي لم يدخل ولد البنت.

قال: وقد ذكر الفقهاء من خصائصه ﷺ أنه ينسب إليه أولاد بناته ولم يذكروا مثل ذلك في أولاد بنات بناته فالخصوصية للطبقة العليا فقط، فأولاد فاطمة الأربعة ينسبون إليه وأولاد الحسن والحسين ينسبون إليهما، فينسبون إليه وأولاد زينب وأم كلثوم ينسبون إلى أبيهم عمر وعبد الله لا إلى الأم ولا إلى أبيها ﷺ لأنهم أولاد بنت بنته فجرى الأمر فيهم على قاعدة أمر الشرع في أن الولد يتبع أباه في النسب لا أمه، وإنما خرج أولاد فاطمة وحدها للخصوصية التي ورد الحديث بها وهو مقصور على ذرية الحسن والحسين.

قال: وأخرج الحاكم في المستدرك عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «لكل بني أم عصبة إلاّ ابني فاطمة فأنا وليهما وعصبتهما»[2]. وأخرجه أبو يعلى في مسنده أيضاً فانظر إلى لفظ الحديث كيف خص الانتساب والتعصيب بالحسن والحسين دون أختيهما. قال: لأن أولاد أختيهما إنما ينسبون إلى آبائهم ولهذا جرى السلف والخلف على أن ابن الشريفة لا يكون شريفاً إذا لم يكن أبوه شريفاً. قال: ولو كانت الخصوصية عامة في أولاد بناته وإن سفلن لكان كل ابن شريفة شريفاً يحرم عليه الصدقة وإن لم يكن أبوه

(١) رواه مسلم (٤/ ١٨٧٣)، والحاكم (٤/ ٥٧٦)، والدارمي (٢/ ٥٢٤)، والبيهقي (٢/ ١٤٨)، وأحمد في المسند (٤/ ٣٦٦)، والنسائي في الكبرى (٥/ ٥١).

(٢) رواه الحاكم في المستدرك (٣/ ١٧٩)، وأورده العجلوني في كشف الخفاء (٢/ ١٥٧).

كذلك وليس كذلك. قال: ولهذا حكم ﷺ لابني فاطمة دون غيرها من بناته لأن أختها زينب بنت رسول الله ﷺ لم تعقب ذكراً يكون كالحسن والحسين في ذلك، وإنما أعقبت بنتاً وهي أمامة بنت أبي العاص بن الربيع، فلم يحكم لها ﷺ بهذا الحكم مع وجودها في زمنه. فدل على أن أولادها لا ينسبون إليه بناء على أن أولاد بناته ينسبون إليه، ولو كان لزينب ابنة رسول الله ﷺ ولد ذكر لكان حكمه حكم الحسن والحسين في أن أولاد أولاده ينسبون إليه ﷺ. قال: هذا تحرير القول في هذه المسألة.

قال: وقد خبط جماعة من أهل العصر في ذلك ولم يتكلموا فيه بعلم الوجه.

الرابع: أنهم هل يطلق عليهم أشراف. الجواب: أن اسم الشريف كان يطلق في الصدر الأول على من كان من أهل البيت سواء كان حسنياً أو حسينياً أو علوياً من ذرية محمد ابن الحنفية وغيره من أولاد علي بن أبي طالب، أو جعفرياً أو عقيلياً أو عباسياً.

قال: ولهذا تجد تاريخ الحافظ الذهبي مشحوناً في التراجم بذلك يقول: الشريف العباسي، الشريف العقيلي، الشريف الجعفري، الشريف الزينبي. فلما ولي الخلفاء الفاطميون مصر قصروا اسم الشريف على ذرية الحسن والحسين فقط واستمر ذلك بمصر إلى الآن.

وقال الحافظ ابن حجر في كتاب الألقاب: الشريف ببغداد لقب كل عباسي وبمصر لقب لكل علوي[١] اهـ.

قال: ولا شك أن المصطلح القديم أولى وهو إطلاقه على كل من تقدم ذكره كما صنعه الذهبي وأشار إليه الماوردي من أصحابنا وأبو يعلى ونحوه قول ابن مالك وآله المستكملين الشرفاء فلا ريب أنه يطلق على ذرية هؤلاء المذكورين أشراف.

قال: وكم أطلق الحافظ الذهبي في تاريخه قوله: الشريف الزينبي. قال: وقد يقال على مصطلح أهل مصر: الشرف أنواع عام لجميع أهل البيت وخاص بالذريّة فيدخل فيه الزينبية وأخص منه شرف النسبة وهو مختص بذرية الحسن والحسين.

قال: **الوجه الخامس**: أنهم تحرم عليهم الصدقة بالإجماع لأن بني جعفر من الآل.

السادس: أنهم يستحقون من سهم ذوي القربى بالإجماع.

السابع: أنهم يستحقون من وقف بركة الحبش بالإجماع، لأن بركة الحبش لم توقف على أولاد الحسن والحسين خاصة بل وقفت نصفين: النصف الأول على الأشراف، وهم أولاد الحسن والحسين. والنصف الثاني على الطالبيين، وهم ذرية

---

(١) انظر: نزهة الألباب للحافظ (ص ٣٩٩).

علي بن أبي طالب من محمد ابن الحنفية وإخوته وذرية جعفر بن أبي طالب وذرية عقيل بن أبي طالب. وثبت هذا الوقف على هذا الوجه على يد قاضي القضاة بدر الدين يوسف السخاوي في ثاني عشر ربيع الآخر سنة أربع وستمائة، ثم اتصل ثبوته على يد شيخ الإسلام عز الدين بن عبد السلام تاسع عشر ربيع الآخر من السنة المذكورة، ثم اتصل ثبوته على يد قاضي القضاة بدر الدين بن جماعة. قال: ذكره في كتاب إيقاظ المتأمل.

الثامن: أنهم هل يلبسون العمامة الخضراء. قال: والجواب: أن هذه العمامة الخضراء ليس لها أصل في الشرع ولا في السنّة ولا كانت في الزمن القديم، وإنما حدثت سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة بأمر الملك الأشرف شعبان بن حسين وقال في ذلك جماعة من الشعراء ما يطول ذكره، من ذلك قول جابر بن عبد الله الأندلسي الأعمى صاحب شرح الألفية المشهور بالأعمى والبصير:

جعلوا لأبناء الرسول علامة ... إن العلامة شأن من لم يشهر

نور النبوة في وسيم وجوههم ... يغني الشريف عن الطراز الأخضر

وقال الأديب شمس الدين محمد بن إبراهيم الدمشقي:

أطراف تيجان أتت من سندس ... خضر بأعلام على الأشراف

والأشرف السلطان خصّهم بها ... شرفاً ليفرقهم من الأطراف

وقد يستأنس فيها بقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ [الأحزاب: الآية ٥٩]، فقد استدل به بعض العلماء على تخصيص أهل العلم بلباس يميزهم عن غيرهم من تطويل الأكمام وإدارة الطيلسان ونحو ذلك ليعرفوا فيجلّوا تكريماً للعلم اهـ.

قال العلامة الصبان: والذي ينبغي اعتماده أنها مستحبة للأشراف مكروهة لغيرهم؛ لأن فيها انتساباً بلسان الحال إلى غير من ينتسب إليه الشخص في نفس الأمر، وانتساب الشخص إلى من ليس ينتسب إليه في نفس الأمر منهي عنه محذور منه. هذا، وقد [illegible] في هذه الأعصار بتلك العلامة بل جعلت العمامة كلها خضراء، وحكمها حكم تلك العلامة اهـ. قال الإمام السيوطي في الرسالة المتقدم ذكرها:

التاسع: هل يدخلون في الوصية للأشراف.

والعاشر: هل يدخلون في الوقف على الأشراف.

قال: والجواب أنه وجد في كلام [illegible] والوقف على آل النبي والأشراف على عرف البلد. قال: وعرف مصر من عهد الخلفاء الفاطميين إلى الآن قصره على ذرية الحسن والحسين اهـ. والله أعلم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم كلما ذكره [illegible].

الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون.

وأما السيدة رقية. فهي أخت السيدة زينب والحسين، وهي مدفونة بمحل قريب من السيدة سكينة، وماتت قبل البلوغ.

قال الشعراني في منته: أخبرني سيدي علي الخواص أن السيدة رقية ابنة الإمام علي كرّم الله وجهه في المشهد القريب من دار الخليفة ومعها جماعة من أهل البيت منهم سيدي محمد المرتضى والسيدة عاتكة من عماته ﷺ وهو بقيع مصر.

قال العلامة الأجهوري: ومن كراماتها أنها لما جاءت من المدينة اعترضها رجل من آل يزيد وأراد قتلها، فوقفت يده في الهواء ومات في ركابه.

وقريباً من القبة المذكورة بجوار السيدة سكينة قبّة سيدي محمد الأنور بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب، فهو عمّ السيدة نفيسة.

قال الشعراني في منته: أخبرني سيدي علي الخواص أن الإمام محمد الأنور عمّ السيدة نفيسة في المشهد القريب من عطفة جامع ابن طالون.

قال الصبان: وهذه كانت الصفة القديمة وأما الآن فقد بدلت تلك الزاوية بمكان مرتفع ومقام عظيم وأنواره ساطعة.

وأما أخوه السيد حسن والد السيدة نفيسة، ففي طبقات المناوي نقلاً عن الذهبي أنه كان من أعيان العلويين وأشرافهم. وفي حسن المحاضرة أن له رواية في سنن النسائي.

وقال الشعراني في منته: أخبرني سيدي علي الخواص أن الإمام حسن والد السيدة نفيسة في التربة المشهورة قريباً من جامع القرافة بين مجراة القلعة وجامع عمرو.

قال الصبان: وقد اشتهرت هذه التربة وبني عليها قبة جليلة حضرة عبد الرحمٰن كَتْخذا الموفق لبنيان مقامات الجميع أسبل الله عليه سحائب رضوانه وكافأه بلطفه وإحسانه.

وأما سيدة أهل الفتوة والتصريف الملقبة بكريمة الدارين السيدة نفيسة[1]:

قال سيدي محمد الزرقاني على قول الإمام القسطلاني: السيد إسحٰق بن السيد جعفر الصادق كان زوجاً للسيدة نفيسة ابنة الحسن بن زيد بن الحسن السبط بن علي. ولدت بمكة سنة خمس وأربعين ومائة ونشأت بالمدينة في العبادة والزهادة، تصوم النهار وتقوم الليل، ثم قدمت مصر مع زوجها فصار لها القبول التام والكرامات الباهرة. ماتت

(١) انظر: تهذيب التهذيب (١/ ٢٠٠).

بها في رمضان سنة ثمان ومائتين وصليّ عليها في مشهد لم ير مثله بحيث امتلأت الفلوات والقيعان، وأراد زوجها نقلها بالبقيع فسأله أهل مصر في تركها للتبرُّك بها. ويقال: إنه رأى المصطفى في المنام فقال له: يا إسحٰق لا تعارض أهل مصر في نفيسة لأن الرحمة تنزل عليهم ببركتها. اهـ.

قال القسطلاني في المواهب: ولإسحٰق من السيدة نفيسة: القاسم وأم كلثوم، ولم يعقبا.

قال العلامة الأجهوري: قد حفرت قبرها بيدها وصارت تنزل فيه وتصلي وقرأت فيه ستة آلاف ختمة، فلما ماتت اجتمع الناس من القرى والبلدان وأوقدوا الشموع تلك الليلة وسمع البكاء من كل دار بمصر وعظم الأسف والحزن عليها وصُلي عليها بمشهد حافل ودفنت بذلك المحل الذي حفرته لكنها اشتهرت بهذا.

واختلف النسّابون هل هي بنت زيد بن الحسن بن علي؟

قال الذهبي - وهو الذي عليه جمهورهم - قال الذهبي: ولدت بمكة سنة خمس وأربعين ومائة، ونشأت بالمدينة في العبادة والزهد، تصوم النهار وتقوم الليل، وكانت ذات مال وكانت تحسن إلى الزمنى والمرضى وعموم الناس. والمشهور الذي عليه السادة الصوفية وخلافهم أنها بنت الحسن بن زيد.

قال القطب سيدي مصطفى البكري في رحلته: أول ما بدأت به في الزيارة عند دخولي مصر السيدة نفيسة بنت سيدي حسن الأنور بن زيد الأبلج بن الحسن السبط.

قال العلامة الصبان: ولما ورد الشافعي مصر كانت تحسن إليه، وربما صلّى بها في رمضان وتزوجت إسحٰق المؤتمن بن جعفر الصادق فولدت منه القاسم وأم كلثوم ولم يعقبا. ثم قدمت مصر وبها بنت عمها السيدة سكينة ولها بها الشهرة التامة بالمعارف والولاية فخلعت عليها الشهرة واختفت فصار للسيدة نفيسة القبول التام بين الخاص والعام إلى أن ماتت في رمضان سنة ثمان ومائتين، واحتضرت وهي صائمة فألزموها الفطر، فقالت: واعجباه لي منذ ثلاثين سنة أسأل الله أن ألقاه وأنا صائمة أفطر الآن، هذا لا يكون. ثم أنشدت تقول:

اصرفوا عنّي طبيبي ودعوني وحبيبي
زاد بي شوقي إليه وغرامي ونحيبي

ثم ابتدأت في سورة الأنعام، فلما وصلت إلى قوله تعالى: ﴿لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام: الآية ١٢٧] خرج السرّ الإلٰهي فاجتمعت لأجل التبرُّك بالصلاة عليها محافل من كل جهة حتى امتلأت الفلوات والقيعان، ثم دفنت في قبرها الذي حفرته في بيتها بدرب السباع بالمراغة محل معروف بينه وبين مشهدها الذي يُزار الآن مسافة، ثم ظهرت

في هذا المكان الذي تزار الآن فيه لأن حكم البرزخ حكم إنسان تدلى في تيار جار فيطفو بعد ذلك في مكان آخر فهي طفت في هذا الموضع الذي هي فيه الآن، خاطبها منه بعض الأولياء وخاطبها بعضهم من الأول أيضاً.

قال الشعراني: وقد دخلت أنا لها مرة فوقفت على باب مشهدها الأول أدباً ودخل أصحابي إلى قبرها، فلما نمت جاءتني وعلى رأسها مئزر صوف أبيض وقالت لي: أنا نفيسة فإذا جئت للزيارة فادخل على قبري فقد أذنت لك. فمن ذلك اليوم أدخل لزيارتها وأجلس تجاه وجهها.

ولها كرامات كثيرة ظاهرة، منها: أن النيل توقف في أوان الوفاء فضجّ الناس وأتوها فأعطتهم قناعاً وقالت: اطرحوه فيه. ففعلوا فوفى من ساعته.

ومنها: أن أمتها جوهرة خرجت ليلة ذات مطر كثير لتأتيها بماء للوضوء فخاضت ماء المطر ولم يبتلّ قدمها.

ومنها: أنها لما قدمت مصر نزلت ببيت يهودي له ابنة مقعدة فذهبوا إلى الحمام وتركوها عندها، فأخذت من فضل وضوئها وجعلته على مكان وجعها فقامت تمشي كأنما نشطت من عقال فلما شاهدوا هذه الكرامة أسلموا كلهم.

وقبرها معروف بإجابة الدعاء.

وقال الشعراني: رأيت في كلام الشيخ أبي المواهب الشاذلي أنه رأى النبي ﷺ فقال: يا محمد إذا كان لك إلى الله حاجة فانذر لنفيسة الطاهرة ولو بدرهم يقض الله تعالى حاجتك اهـ.

وقال بعض العارفين: من كان في شدة وكرب وأراد تفريجه عنه فليتوجه لكريمة الدارين السيدة نفيسة، وليقل عند قبرها بعد قراءة الفاتحة مرة والإخلاص إحدى عشر مرة وسبّح كذلك:

كم حاربتني شدة بجيشها فضاق صدري من لقاها وانزعج
حتى إذا أيست من زوالها جاءتني الألطاف تسعى بالفرج

ثماني عشر مرة، فإن الله سبحانه يفرج عنه كربه ويقضي مصالحه انتهى.

وقال ابن الصلاح الصفدي: ازدحمت الخيل على أمها وهي بنت ستة أشهر فأشارت بردها فردهم الله عنها.

وقال الإمام الأوزاعي: قلت لأمتها جوهرة: هل رأيت من سيدتك كرامة؟ قالت: نعم، كنت في يوم شديد القيظ وإذا بتنّين ـ أي ثعبان ـ قد جاءني وكان معي ماء لها فصار ذلك التنين يمرغ خده على الإبريق. وكان الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه

يزورها ويتردد إليها أي في حياتها ويصلي بها تراويحها في رمضان اهـ.

قال الإمام الزرقاني على المواهب: وأراد زوجها نقلها بعد موتها إلى المدينة ودفنها في البقيع فسأله أهل مصر في تركها عندهم للتبرك وبذلوا له مالاً كثيراً فلم يرض فرأى النبي ﷺ فقال له: يا أبا إسحٰق لا تعارض أهل مصر في نفيسة فإن الرحمة تنزل عليهم ببركتها، فخرج بولديها وسافر إلى المدينة. وقد ذكر لها الإمام ابن حجر نحو مائة وخمسين كرامة وهذا شيء معلوم من سواطع أنوارها، وكيف لا وهي سيدة أهل الفتوة من أهل التصريف كما ذكر ذلك القطب الشعراني وغيره أفاض الله علينا من فيوض إمدادها وجعلنا من المنسوبين لخدمة أعتابها.

قال العلامة الأجهوري: وعند خروجك من السيدة نفيسة من الباب الشرقي تجد حوشاً على يسارك به قبة لطيفة تحتها قبر الشريف محمد بن حسن الحسيني، ويلقب الآن بموفي الدين.

قال العلامة المذكور: قال الحميدي: كان عليّ سبعون درهما، فضيق عليّ فيها فجئت المشهد النفيسي ثم خرجت ودنوت من القبة وقرأت شيئاً وبكيت، وإذا أنا بامرأة قد أقبلت عليّ وبيدها قلادة وقالت لي: خذ هذه أوف بها ما عليك من الدين لأجل هذا الرجل الذي أنت عنده. ومشيت خطوة فوجدت صاحب الدين مبتسماً وقال: رد على المرأة ما أخذت منها فأنا أولى، قلت له: لماذا؟ قال: رأيته عاهدني على قصر من الجنة إن صفحت عنك ثم دفع لي فضة في يدي بقدر هذا وبه وجماعة من الخلفاء العباسيين وطائفة من الأشراف وهو معروف بإجابة الدعاء. انتهى. وصلى الله على سيّدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

وأما السيدة عائشة النبوية[١]، فهي بنت سيدي جعفر الصادق بن سيدي محمد الباقر بن سيدي علي زين العابدين، وأخت سيدي موسى الكاظم.

قال العلامة المناوي: كانت من العابدات المجاهدات، وكانت تقول: وعزتك وجلالك لئن أدخلتني النار لآخذن توحيدي بيدي وأطوف به على أهل النار وأقول: وحدته فعذبني. ماتت سنة خمس وأربعين ومائة. اهـ.

وقال العارف الشعراني في منته: أخبرني سيدي علي الخوّاص: أن السيدة عائشة ابنة جعفر الصادق في المسجد الذي له المنارة القصيرة على يسار من يريد الخروج من الرميلة إلى باب القرافة. اهـ.

وذكر العلامة المناوي أن لسيدي جعفر الصادق ولد اسمه القاسم، وللقاسم بنت

(١) انظر: رسالة السيدة عائشة بنت جعفر للشيخ رمضان عصفور، شيخ مسجد السيدة عائشة بمصر.

اسمها أم كلثوم وهما المدفونان بالقرافة بقرب الليث بن سعد على يسار الداخل من الدرب المتوصل منه إليه.

وذكر بعض النسّابين أن أم كلثوم هذه بنت سيدي جعفر هذا، وكان من كبار المحدثين العارفين.

قال العلامة الصبان: كان سيدي جعفر إماماً نبيلاً، أخذ الحديث عن أبيه وجده لأمه القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق وعروة وعطاء ونافع والزهري وعنه السفيانان ومالك والقطان، وخرَّج له الجماعة سوى البخاري.

قال أبو حاتم ثقة لا يسأل عن مثله، وأمه أم فروة بنت القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق، وأمها أسماء بنت عبد الرحمٰن بن أبي بكر الصديق، فكان يقول: ولدني الصديق مرتين وكان مجاب الدعوة إذا سأل الله شيئاً لا يتم قوله إلاّ وهو بين يديه.

ومن كراماته ما حدّث به الليث بن سعد قال: حججت سنة ثلاث عشرة ومائة، فلما صلّيت العصر رقيت أبا قبيس فإذا رجل جالس يدعو فقال: يا رب يا رب، حتى انقطع نفسه، ثم قال: يا حي يا حي، حتى انقطع نفسه، ثم قال: إلٰهي إني أشتهي العنب فأطعمنيه وإن بردي قد خلقَ. قال الليث: فما تم كلامه حتى نظرت إلى سلة مملوءة عنباً وليس على الشجر يومئذ عنب وإذا ببردين لم أر مثلهما فأراد الأكل فقلت له: أنا شريكك لأنك دعوت وأنا أؤمن، قال: كل ولا تخبىء ولا تدخر. ثم دفع إليّ أحد البردين فقلت: لي عنه غنى، فاتزر بأحدهما وارتد بالآخر ثم أخذ الخلقين ونزل فلقيه رجل فقال: اكسني يا ابن رسول الله، فدفعهما إليه، فقلت: من هذا؟ قال: جعفر الصادق.

ومن كلامه: لا يتم المعروف إلاّ بثلاث: أن تصغره في عينيك، وتستره، وتعجله.

وقال: لا تأكلوا من يد جاعت ثم شبعت.

وقال: أوحى الله إلى الدنيا: من خدمني فاخدميه ومن لم يخدمني فاستخدميه.

وقال: كف عن محارم الله وامتثل أوامره تكن عابداً، وارض بما قسم الله لك تكن مسلماً، واصحب الناس على ما تحب أن يصحبوك عليه تكن مؤمناً، ولا تصحب الفاجر فيعلمك من فجوره، وشاور في أمرك الذين يخشون الله.

وقال: من أراد عزاً بلا عشيرة وهيبة بلا سلطان فليخرج من ذل المعصية إلى عز الطاعة.

وقال: من يصحبْ صاحب السوء لا يسلم ومن يدخل مدخل السوء يتهم، ومن لا يملك لسانه يندم.

وقال: حكمة تحريم الربا أن لا يتمانع الناس المعروف.

مات أيضاً مسموماً سنة ثمان وأربعين ومائة.

وأما أبوه محمد الباقر فهو صاحب المعارف وأخو الدقائق واللطائف، ظهرت كراماته وكثرت في السلوك إشاراته فلقب بالباقر لأنه بقر العلم، أي شقه، فعرف أصله وخفيه، ومن كلامه: الصواعق تصيب المؤمن وغيره ولا تصيب ذاكر الله عز وجل.

وقال: ليس في الدنيا شيء أعون من الإحسان إلى الإخوان.

وقال: بئس الأخ يرعاك غنياً ويقطعك فقيراً.

مات أيضاً مسموماً سنة سبع عشرة ومائة عن نحو ثلاث وسبعين سنة وأوصى أن يكفن في قميصه الذي كان يصلي فيه. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم كلما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون.

وأما سيّدنا وولي نعمتنا الإمام الشافعي[1]، فهو أبو عبد الله محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن عبيد بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب بن عبد مناف القرشي المطلبي ابن عم المصطفى ﷺ. وأمه فاطمة بنت عبد الله بن الحسين بن علي بن أبي طالب كرَّم الله وجهه.

قال الإمام الشعراني في طبقاته: ولد الإمام الشافعي بغزة ثم حمل إلى مكة وهو ابن سنتين وعاش أربعاً وخمسين سنة وأقام بمصر أربع سنين، ثم توفي في عصر ليلة الجمعة بعد المغرب سنة أربع ومائتين.

نشأ رضي الله عنه يتيماً في حجر أمه في قلة عيش وضيق حال وكان يجالس العلماء في صباه ويكتب ما يستفيده في العظام ونحوها لعجزه عن الورق، وتفقه في مكة على مسلم بن خالد الزنجي، ثم وصله خبر الإمام مالك بالمدينة.

قال: فوقع في قلبي أن أذهب إليه، واستقرأت الموطأ من رجل بمكة وحفظته ثم قدمت المدينة فدخلت عليه فقلت. أصلحك الله إني رجل مطلبي من حالتي وقصتي كذا كذا. فلما سمع كلامي نظر إليّ ساعة، وكان لمالك فراسة، قال: ما اسمك، قلت: محمد، فقال: يا محمد اتق الله واجتنب المعاصي فإن يكون لك شأن فإن الله ألقى على قلبك نوراً فلا تطفئه بالمعصية، فقلت: نعم وكرامة. ثم قال: إذا كان الغد نقرأ لك الموطأ، فقلت: إني أقرأه من الحفظ. فلما ابتدأت بالقراءة عليه صرت كلما أردت مضغ القراءة خوفاً من إملاله أعجبه حسن قراءتي فيقول: يا فتى زد، حتى قرأته في أيام

(١) فقد أفرد في مناقبه مصنفات شتى، بل من أكثر من أفرد بذكر مآثره ومناقبه من الأئمة رضي الله عنه وأرضاه.

يسيرة. ثم أقمت بالمدينة إلى أن توفي مالك.

وكان حفظه للموطأ وهو ابن عشر سنين في تسع ليال، وقيل: في ثلاثة، وكان سن الشافعي رضي الله عنه حين أتى مالكاً ثلاث عشرة سنة ثم رحل إلى اليمن حين تولى عمه القضاء بها واشتهر بها، ثم رحل إلى العراق وجدّ في الاشتغال بالعلم وناظر محمد بن الحسن وغيره، ونشر علم الحديث، وأقام مذهب أهله، ونصر السنّة، واستخرج الأحكام منها، ورجع كثير من العلماء عن مذاهب كانوا عليها إلى مذهبه.

ثم خرج إلى مصر آخر سنة تسع وتسعين ومائة، وصنّف كتبه الجديدة بها ورحل الناس له من سائر الأقطار.

قال الربيع بن سليمان: رأيت على باب دار الإمام الشافعي رضي الله عنه سبعمائة راحلة تطلب سماع كتبه، وكان يقول مع ذلك: إن صح الحديث، فهو مذهبي. وكان رضي الله عنه يقول: وددت أن الخلق تعلموا هذا العلم مني على أن لا ينسب إليَّ منه حرف.

وللعلامة الصبان: قال شيخنا شيخ الإسلام أبو يحيى زكريا الأنصاري وقد أجابه الحق إلى ذلك فلا يكاد يسمع في مذهبه إلاَّ مقالات أصحابه.

قال الرافعي: قال النووي: قال الزركشي: ونحو ذلك، وكان يقول: وددت أني إذا ناظرت أحداً أن يظهر الله تعالى الحق على يديه.

وكان يقول: طلب العلم أفضل من صلاة النافلة.

وكان يقول: من أراد الآخرة فعليه بالإخلاص في العلم.

وكان يقول: أظلم الظالمين لنفسه من تواضع لمن لا يكرمه ورغب في مودة من لا ينفعه، وقَبِلَ مدح من لا يعرفه.

وكان يقول: لا شيء أزين بالعلماء من الفقر والقناعة والرضا بهما.

وكان يقول: صحبت الصوفية عشر سنين ما استفدت منهم إلاَّ هذين الحرفين: الوقت سيف وأفضل العصمة أن لا تجد.

وكان يقول: من أحب أن يقضى له بالحسنى فليحسن بالناس الظن.

وكان يقول: أبين ما في الإنسان ضعفه فمن شهد الضعف من نفسه نال الاستقامة مع الله تعالى.

وكان يقول: من طلب العلم بعز النفس لم يفلح ومن طلبه بذل النفس وخدمة العلماء أفلح.

وكان رضي الله عنه يقول: تفقه قبل أن ترأس، فإذا رأست فلا سبيل إلى التفقه.

وكان يقول: دققوا مسائل العلم لئلا تضيع دقائقه.

وكان يقول: جمال العلماء كرم النفس وزينة العلم الورع والحلم.

وكان رضي الله عنه يقول: لا عيب بالعلماء أقبح من رغبتهم فيما زهدهم الله فيه.

وكان يقول: ليس العلم ما حفظ إنما العلم ما نفع.

وكان يقول: فقر العلماء اختيار وفقر الجهلاء اضطرار.

وكان يقول: المراء في العلم يقسي القلب ويورث الضغائن.

وكان رضي الله عنه يقول: الناس في غفلة عن هذه السورة ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢﴾ [العصر: الآيتان ١، ٢].

وكان قد جزّأ الليل ثلاثة أجزاء: الثلث الأول يكتب، والثاني يصلي، والثالث ينام. وفي رواية: ما كان ينام من الليل إلاَّ يسيراً وكان يختم في كل يوم ختمة. وكان يقول: ما كذبت قط ولا حلفت بالله لا صادقاً ولا كاذباً، وما تركت غسل الجمعة قط لا في برد ولا في حر ولا في سفر ولا في حضر، وما شبعت منذ ستة عشر سنة إلاَّ شبعة طرحتها من ساعتي.

وكان يقول: من لم تعزه التقوى لا عزَّ له.

وكان يقول: ما فزعت من الفقر قطّ.

وكان يقول: طلب فضول الدنيا عقوبة عاقب الله بها أهل التوحيد.

وكان يمشي على العصا فقيل له في ذلك فقال: لأذكر أني مسافر من الدنيا.

وكان يقول: من شهد الضعف من نفسه نال الاستقامة.

وكان يقول: من غلبته شدة الشهوة للدنيا ألزمته العبودية لأهلها، ومن رضي بالقنوع زال عنه الخضوع.

قال عبد الله بن الإمام أحمد بن حنبل لأبيه: أي الرجل كان الشافعي فإني سمعتك تكثر الدعاء له، فقال: يا بني كان الشافعي كالشمس في النهار وكالعافية للناس، فانظر هل لهذين من خلف أو عنهما عوض.

وبالجملة، فهو إمام المدينة، عالم الأرض شرقاً وغرباً، جمع الله له من العلوم والمفاخر وكثرة الاتباع لا سيما في الحرمين والأرض المقدسة ما لم يجمع لإمام، ولذلك حمل عليه حديث «عالم قريش يملأ طباق الأرض علماً»[1].

(١) أورده العجلوني في كشف الخفاء (٢/٦٨، ٦٩٢).

قال الإمام أحمد وغيره: هو الإمام الشافعي لأنه لم يحفظ لشخص انتشار العلم في الآفاق ما حفظ للشافعي.

وقال الإمام أحمد بن حنبل: ما أعلم أحداً أعظم منّة على الإسلام في زمن الشافعي من الشافعي، وكان في الكرم كالبحر.

قال المزني: ما رأيت أكرم من الشافعي، خرجت معه ليلة عيد من المسجد وأنا أذاكره في مسألة حتى أتيت باب داره فأتاه غلام بكيس فقال له: سيدي يقرؤك السلام ويقول لك خذ هذا الكيس، فأخذه منه فأتاه رجل فقال: يا أبا عبد الله ولدت امرأتي الساعة وليس عندي شيء، فدفع له الكيس وصعد ليس معه شيء.

وقال الحميدي: قدم الشافعي من صنعاء إلى مكة بعشرة آلاف في منديل فضرب خباءه خارجاً من مكة فكان الناس يأتونه فما برح حتى ذهبت كلها ثم دخل مكة.

ونقل ابن حجر وغيره أنه لم يقع في مدة حياته طاعون لا بمصر ولا بغيرها، وكان رضي الله عنه: جهوري الصوت جداً في غاية من الكرم والشجاعة وجودة الرمي وصحة الفراسة وحسن الأخلاق، وتقدم لك موته سنة أربع ومائتين وله أربع وخمسون سنة، ودفن بالقرافة في القبة المشهورة التي عليها من الرحمات والمهابة ما لا يخفى.

قال المزني: دخلت على الشافعي في علته التي مات فيها فقلت: كيف أصبحت، قال: أصبحت من الدنيا راحلاً ولإخواني مفارقاً ولكأس الموت شارباً ولسوء أعمالي ملاقياً وعلى الله وارداً فلا أدري روحي إلى الجنة تصير فأهنيها أو إلى النار فأعزيها. ثم بكى وأنشأ يقول:

ولما قسا قلبي وضاقت مذاهبي ... جعلت رجائي نحو عفوك سلما

تعاظمني ذنبي فلما قرنته ... بعفوك ربي كان عفوك أعظما

فما زلت ذا عفو عن الذنب لم تزل ... تجود وتعفو منّة وتكرُّما

فلولاك لم يسلم من إبليس عابد ... وكيف وقد أغوى صفيك آدما

قال الشيخ الصبان: ومن كراماته أنه لما احتضر دخل عليه جماعة فقال: أما أنت يا أبا يعقوب فتموت في قيودك، وأما أنت يا مزني فيكون لك في مصر هَنَات وهنيهات، وأنت يا ابن عبد الحكم ترجع إلى مذهب أبيك، وأنت يا ربيع أنفعهم في نشر الكتب، ثم إن أبا يعقوب تسلم الحلقة فكان الأمر كما قال، فإن أبا يعقوب وهو البويطي كان يحسده ابن أبي الليث الحنفي قاضي مصر فسعى به إلى الواثق بالله أيام المحنة بالقول بخلق القرآن فأمر بحمله إلى بغداد مع جماعة آخرين من العلماء فحمل إليها على بغل مغلولاً مقيداً مسلسلاً في أربعين رطلاً من حديد وطلب منه القول بذلك فامتنع فحبس

ببغداد وهو على تلك الحالة إلى أن مات سنة إحدى وثلاثين ومائتين وكان ذلك يوم جمعة.

وأما المزني فعظم شأنه بعد الشافعي عند الملوك، فمن دونهم.

وأما محمد بن عبد الله بن عبد الحكم فانتقل قبل وفاته إلى مذهب مالك لأنه كان يروم أن الشافعي يستخلفه بعده في حلقته فلم يفعل واستخلف البويطي[1].

وكان أبوه عبد الله على مذهب مالك ومن أكابر أصحابه.

وروى عن الشافعي أشياء قليلة. وأما الربيع - والمراد به حيث أطلق الربيع المرادي - فعاش بعد الشافعي قريباً من سبعين سنة ورحلت إليه الناس من أقطار الأرض ليأخذوا عنه مذهب الشافعي ويرووا عنه كتبه.

قال الربيع: رأيت في المنام قبل موت الشافعي أن آدم مات ويريدون أن يخرجوا بجنازته، فسألت أهل العلم فقالوا هذا موت أعلم أهل الأرض لأن الله تعالى علَّم آدم الأسماء كلها، فما كان إلا يسير حتى مات الشافعي.

وقال أحمد بن حنبل: رأيت الشافعي في المنام فقلت: يا سيدي ما فعل الله بك، فقال: غفر لي وتوجني وزوجني، وقال: هذا بما لم تَزْهُ بما أرضيتك ولم تتكبر فيما أعطيتك. وفضائله رضي الله عنه لا تحصى جعلنا الله من زمرة أتباعه والمحسوبين على نفحات أعتابه وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم كلما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون.

وأما سيد أهل الفتوة، والمورد العذب من مناهل سر النبوة، سيدنا وأستاذنا وولي نعمتنا، سيدي أحمد البدوي الشريف الحسيني، فشهرته في جميع أقطار الأرض تغني عن تعريفه، ولكن نذكر جملة من أحواله تبرُّكاً بأعتابه.

قال القطب الشعراني في طبقاته: مولده رضي الله تعالى عنه بمدينة فاس بالمغرب، لأن أجداده رضي الله تعالى عنه انتقلوا أيام الحجاج إليها حين أكثر القتل في الشرفاء، فلما بلغ سبع سنين سمع أبوه قائلاً يقول له في منامه: يا علي انتقل من هذه البلاد إلى مكة المشرفة فإن لكم في ذلك شأناً، وكان ذلك سنة ثلاث وستمائة ٦٠٣.

قال الشريف حسن أخو سيدي أحمد رضي الله تعالى عنه: فما زلنا ننزل على عرب ونرحل عن عرب فيتلقوننا بالترحيب والإكرام ومكثنا عندهم في أرغد عيش حتى توفي والدنا سنة سبع وعشرين وستمائة ودفن بباب المعلى وقبره هناك ظاهر يزار في زاوية.

---

(١) صاحب المختصر - وهو تحت قيد الانتهاء منه تحقيقاً على ثلاثة نسخ وحيدة له - يسّر الله إتمامه ونشره.

قال الشريف حسن: فأقمت أنا وإخوتي وكان أحمد أصغرنا سناً وأشجعنا قلباً، وكان من كثرة ما يتلثم لقبناه بالبدوي، فأقرأته القرآن في المكتب مع ولدي الحسين ولم يكن في فرسان مكة أشجع منه وكانوا يسمونه في مكة العطاب، فلما حدث عليه حادث الوله تغيّرت أحواله واعتزل عن الناس ولازم الصمت، فكان لا يكلم الناس إلاّ بالإشارة، وكان بعض العارفين رضي الله عنه يقول: إنه حصلت له جمعية على الحق تعالى فاستغرقته إلى الأبد. ولم يزل حاله يتزايد إلى عصرنا هذا ثم إنه في شوال سنة ثلاث وثلاثين وستمائة رأى في منامه ثلاث مرات قائلاً يقول له: قم واطلب مطلع الشمس فإذا وصلت إلى مطلع الشمس فاطلب مغرب الشمس وسر إلى طندتا فإن بها مقامك أيها الفتى. فقام من منامه وشاور أهله وسافر إلى العراق فتلقاه أشياخها منهم سيدي عبد القادر وسيدي أحمد بن الرفاعي فقالا: يا أحمد مفاتيح العراق والهند واليمن والروم والمشرق والمغرب بأيدينا فاختر أي مفتاح شئت منها. فقال لهما سيدي أحمد: لا حاجة لي بمفاتيحكما ما آخذ المفتاح إلاّ من الفتاح.

قال سيدي حسن: فلما فرغ سيدي أحمد من زيارة أضرحة أولياء العراق كالشيخ عدي بن مسافر والحلاج وأضرابهما خرجنا قاصدين إلى ناحية طندتا فأحدق الرجال بنا من سائر الأقطار يعارضوننا ويتلقوننا، فأومأ سيدي أحمد إليهم بيده فوقعوا أجمعين، فقالوا: يا أحمد أنت أبو الفتيان، فانكبوا مهرولين راجعين ومضينا إلى أم عبيدة فرجع سيدي حسن إلى مكة وذهب سيدي أحمد إلى فاطمة بنت بري وكانت امرأة لها حال عظيم وجمال بديع وكانت تسلب الرجال أحوالهم فسلبها سيدي أحمد رضي الله عنه حالها وتابت على يديه أنها لا تتعرض لأحد بعد ذلك اليوم، وتفرّقت القبائل التي كانوا اجتمعوا على بنت بري إلى أماكنهم وكان يوماً مشهوداً بين الأولياء.

ثم إن سيدي أحمد رضي الله عنه رأى الهاتف في منامه يقول له: يا أحمد سر إلى طندتا فإنك تقيم بها وترى بها رجالاً وأبطالاً عبد العال وعبد الوهاب وعبد المجيد وعبد المحسن وعبد الرحمٰن وكان إذ ذاك في شهر رمضان سنة أربع وثلاثين وستمائة، فدخل رضي الله عنه مصر ثم قصد طندتا فدخل على الحال مريداً دار شخص من مشايخ البلد اسمه شحيط، فصعد إلى سطح غرفته وكان طول نهاره وليله شاخصاً ببصره إلى السماء وقد انقلب سواد عينيه بحمرة تتوقد كالجمر وكان يمكث الأربعين يوماً وأكثر لا يأكل ولا يشرب ولا ينام، ثم نزل من السطح وخرج إلى ناحية فيشا المنارة فتتبعه الأطفال فكان منهم عبد العال وعبد المجيد، فورمت عين سيدي أحمد فطلب من سيدي عبد العال بيضة يعملها على عينه فقال: وتعطيني الجريدة الخضراء التي معك، فقال سيدي أحمد رضي الله عنه له: نعم، فأعطاها له فذهب إلى أمه، فقال: هنا بدوي توجعه عينه فطلب مني بيضة وأعطاني هذه الجريدة، فقالت: ما عندي شيء، فرجع فأخبر سيدي أحمد

رضي الله تعالى عنه فقال: اذهب فأتني بواحدة من الصومعة، فذهب سيدي عبد العال فوجد الصومعة قد ملئت بيضاً فأخذ له واحدة منها وخرج بها إليه، ثم إن سيدي عبد العال تبع سيدي أحمد رضي الله تعالى عنه من ذلك الوقت ولم تقدر أمه على تخليصه منه فكانت تقول: يا بدوي الشوم علينا، فكان سيدي أحمد رضي الله عنه يقول: لو قالت يا بدوي الخير كانت أصدق. ثم قال لها: إنه ولدي من يوم قرن الثور، وكانت أم عبد العال قد وضعته في معلف الثور وهو رضيع فطأطأ الثور ليأكل فدخل قرنه في القماط فشال عبد العال على قرنيه فلم يقدر أحد على تخليصه منه فمد سيدي أحمد يده وهو بالعراق فخلصه من القرن فتذكرت أم عبد العال الواقعة واعتقدته من ذلك اليوم، فلم يزل سيدي أحمد على السطوح مدة اثنتي عشرة سنة، وكان سيدي عبد العال يأتي إليه بالرجل أو الطفل فيطاطي من السطوح فينظر إليه نظرة فيملؤه مدحاً ويقول لعبد العال: اذهب به إلى بلد كذا أو موضع كذا فكانوا يسمون أصحاب السطوح.

وكان رضي الله عنه لم يزل ملثماً بلثامين فاشتهى عبد المجيد رضي الله عنه يوماً رؤية وجه سيدي أحمد رضي الله عنه فقال: يا سيدي أريد أن أرى وجهك لأعرفه، فقال: يا عبد المجيد كل نظرة برجل، فقال: يا سيدي أرني ولو مت، فكشف له اللثام الفوقاني فضعف ومات في الحال.

وكان في طندتا سيدي حسن الصائغ وسيدي سالم المغربي فلما قرب سيدي أحمد من مصر أول مجيئه من العراق قال سيدي حسن رضي الله عنه: ما بقي لنا إقامة، صاحب البلد قد جاءها. فخرج إلى ناحية أخنا وضريحه بها مشهور إلى الآن ومكث سيدي سالم رضي الله عنه فسلم لسيدي أحمد رضي الله عنه ولم يتعرض له فأقره سيدي أحمد رضي الله عنه وقبره في طندتا مشهور وأنكر عليه بعضهم فسلب وانطفى اسمه وذكره، ومنهم صاحب الإيمان العظيم بطندتا المسمى بوجه القمر كان ولياً عظيماً فثار عنده الحسد ولم يسلم الأمر لقدرة الله تعالى عليه فسلب، وموضعه الآن بطندتا مأوى للكلاب ليس فيه رائحة صلاح ولا مدد.

وكان الخطباء بطندتا انتصروا له وعملوا له وقفاً وأنفقوا عليه أموالاً وبنوا بزاويته مأذنة عظيمة فرفسها سيدي عبد العال برجله فغارت إلى وقتنا هذا.

وكان الملك الظاهر بيبرس أبو الفتوحات يعتقد سيدي أحمد رضي الله عنه اعتقاداً عظيماً وكان ينزل لزيارته.

ولما قدم من العراق خرج هو وعسكره من مصر لملاقاته وأكرموه غاية الإكرام وكان رضي الله عنه غليظ الساقين طويل الذراعين كبير الوجه أكحل العينين طويل القامة قمحي اللون وكان في وجهه ثلاث نقط من أثر جدري في خده اليمين واحدة وفي الأيسر

ثنتان، أقنى الأنف على وجهه شامتان من كل ناحية شامة سوداء أصغر من العدسة، وكان بين عينيه جرح جرحه له ولد أخيه الحسين بالأبطح حين كان بمكة ولم يزل من حين كان صغيراً باللثامين. ولما حفظ القرآن العظيم اشتغل بالعلم مدة على مذهب الإمام الشافعي رضي الله عنه حتى حصل له حادث الوله فترك ذلك وكان إذا لبس ثوباً أو عمامة لا يخلعها لغسل ولا لغيره حتى تذوب فيبدلونها له بغيرها، والعمامة التي يلبسها الخليفة كل سنة في المولد هي عمامة الشيخ بيده.

وأما البشت الأحمر فهو من لباس سيدي عبد العال رضي الله عنه، وكان رضي الله تعالى عنه يقول: وعزَّة ربي سواقي تدور على البحر المحيط لو نفد ماء الدنيا كله لما نفد ماء سواقيّ.

مات رضي الله عنه سنة خمس وسبعين وستمائة، واستخلف بعده على الفقراء سيدي عبد العال، وسار سيرة حسنة، وعمّر المقام والمنارات ورتّب الطعام للفقراء وأرباب الشعائر، وأمر بتصغير الخبز على الحال الذي هو فيه وأمر الفقراء الذين صحت لهم الأحوال بالإقامة في الأماكن التي كانت يعينها لهم فلم يستطع أحد يخالفه، فأمر سيدي يوسف أبا إسماعيل الإنبابي أن يقيم بإنبابة وسيدي أحمد أبا طرطور أن يقيم تجاه الجيزة، وأمر سيدي وهيباً بالإقامة في برشوم الكبرى، فأما سيدي يوسف رضي الله عنه فأقبلت عليه الأمراء والأكابر من أهل مصر وصار سماطه في الأطعمة لا يقدر عليه غالب الأمراء. فقال الشيخ أحمد أبو طرطور يوماً لأصحابه: اذهبوا بنا إلى أخينا يوسف ننظر حاله. فمضوا إليه فقال لهم: كلوا من هذه الماوردية واغسلوا الغش الذي في بطونكم من العدس والبسلة التي في محل سيدي أحمد. فغضب الشيخ أبو طرطور من ذلك الكلام وقال: ما هذا الكلام يا يوسف، فقال: هذه مباسطة، فقال أبو طرطور: ما هو إلاّ محاربة بالسهام. فمضى أبو طرطور إلى سيدي عبد العال رضي الله عنه وأخبره الخبر، فقال: لا تتشوش يا أبا طرطور قد نزعنا ما كان معه وأطفأنا اسمه وجعلنا الاسم لولده إسماعيل، فمن ذلك اليوم انطفى اسم سيدي يوسف إلى يومنا هذا وأجرى الله على يدي سيدي إسماعيل الكرامات وكلمته البهائم، وكان يخبر أنه يرى الأشياء في اللوح المحفوظ ويقول كذا وكذا لفلان فيجيء الأمر كما قال فأنكر عليه شخص من علماء المالكية وأفتى بتعزيره فبلغ ذلك سيدي إسماعيل فقال: ومما رأيته في اللوح المحفوظ أن هذا القاضي يغرق في بحر الفرات. فأرسله ملك مصر إلى ملك الإفرنج ليجادل القسيسين عندهم فإنه وعد بإسلامهم إن قطعهم عالم المسلمين بالحجة فلم يجدوا في مصر أكثر كلاماً ولا جدالاً من هذا القاضي، فأرسلوه فغرق في بحر الفرات.

وأما أمر سيدي الشيخ محمد المسمى بقمر الدولة، فلم يصحب سيدي أحمد زماناً طويلاً إنما جاء من سفر في يوم حر شديد فطلع يستريح في طندتا فسمع بأن سيدي أحمد

ضعيف، فدخل عليه يزوره وكان سيدي عبد العال وغيره غائبين فوجد سيدي أحمد قد شرب ماء بطيخة وتقاياه ثانياً فيها فأخذه سيدي محمد المذكور وشربه، فقال له سيدي أحمد: أنت قمر دولة أصحابي، فسمع بذلك سيدي عبد العال والجماعة فخرجوا لمعارضته وأرادوا قتله بالحال فارتمى بفرسه في البئر التي بالقرب من كوم التربة النفاضة فطلع من البئر التي ناحية نفيا فانتظروه عند البئر التي نزل فيها زماناً، فجاء الخبر أنه طلع من تلك البئر التي من قرب نفيا فرجعوا عنه، فأقام بنفيا إلى أن مات ولم يطلع طندتا من سيدي عبد العال وكان من أجناد السلطان محمد بن قلاوون وعمامته وثوبه وفرسه وجعبته وسيفه معلقات في ضريحه بنفيا.

قال القطب الشعراني رضي الله عنه أيضاً: وسبب حضوري مولده كل سنة أن شيخي العارف بالله تعالى الشناوي رضي الله تعالى عنه كنت أخذت عليه العهد في القبة تجاه وجه سيدي أحمد رضي الله عنه وسلَّمني إليه بيدي فخرجت اليد الشريفة من الضريح وقبضت على يدي، وقال: يا سيدي يكون خاطرك عليه واجعله تحت نظرك. فسمعت سيدي أحمد رضي الله عنه من القبر يقول: نعم، ثم إني رأيته بمصر مرة أخرى هو وسيدي عبد العال وهو يقول: زرنا بطندتا ونطبخ لك ملوخية ضيافتك. فسافرت فضافني غالب أهلها وجماعة المقام مدة إقامتي كلهم بطبيخ الملوخية. ثم رأيته بعد ذلك وقد أوقفني على جسر قحافة تجاه طندتا فوجدته سوراً محيطاً وقال: قف هنا، ادخل عليّ من شئت وامنع من شئت. ولما دخلت بزوجتي فاطمة أم عبد الرحمٰن وهي بكر مكثت خمس شهور ولم أقرب منها فجاءَني وأخذني وهي معي وفرش لي فرشاً فوق القبة التي ليسار الداخل وطبخ حلواً ودعا الأحياء والأموات إليه، وقال: أزل بكارتها هنا. فكان الأمر تلك الليلة. وتخلفت عن ميعاد حضوري للمولد سنة ثمان وأربعين وتسعمائة وكان هناك بعض الأولياء فأخبرني أن سيدي أحمد كان ذلك اليوم يكشف الستر عن الضريح ويقول: أبطأ عبد الوهاب ما جاء. وأردت التخلّف سنة من السنين فرأيت سيدي أحمد رضي الله عنه ومعه جريدة خضراء وهو يدعو الناس من سائر الأقطار والناس خلفه ويمينه وشماله أمم وخلائق لا يحصون، فمر عليّ وأنا بمصر فقال: أما تذهب، فقلت: بي وجع، فقال: الوجع لا يمنع المحب ثم أراني خلقاً كثيراً من الأولياء وغيرهم الأحياء والأموات من الشيوخ والزمني بأكفانهم يمشون ويزحفون معه يحضرون المولد، ثم أراني جماعة من الأسرى جاؤوا من بلاد الإفرنج مقيدين مغلولين يزحفون على مقاعدهم فقال: انظر إلى هؤلاء في هذه الحال ولا يتخلفون. فقوى عزمي على الحضور فقلت له: إن شاء الله تعالى نحضر. فقال: لا بد من الترسيم. فرسم على سبعين عظيمين أسودين كالأفيال وقال: لا تفارقاه حتى تحضرانه. فأخبرت بذلك سيدي الشيخ محمد الشناوي رضي الله عنه فقال: سائر الأولياء يدعون الناس بقصادهم وسيدي أحمد يدعو

الناس بنفسه إلى الحضور. ثم قال: إن الشيخ محمد السروي شيخي تخلّف سنة عن الحضور فعاتبه سيدي أحمد وقال: موضع يحضر فيه رسول الله ﷺ والأنبياء عليهم الصلاة والسلام معه وأصحابهم والأولياء رضي الله عنهم ما تحضره. فخرج الشيخ محمد رضي الله عنه إلى المولد فوجد الناس راجعين من الاجتماع فكان يلمس ثيابهم ويمر بها على وجهه.

قال: وقد اجتمعت مرة أنا وأخي أبو العباس الحريثي رحمه الله تعالى بوليّ من أولياء الهند بمصر المحروسة، فقال رضي الله عنه: ضيفوني فإني غريب. ومعه عشرة أنفس، فصنعت له فطيراً وعسلاً فأكل فقلت له: من أي البلاد؟ فقال: من الهند، فقلت: ما حاجتك في مصر، فقال: حضرنا مولد سيدي أحمد رضي الله عنه، فقلنا له: متى خرجت من الهند، فقال: خرجنا يوم الثلاثاء فنمنا ليلة الأربعاء عند سيد المرسلين ﷺ وليلة الخميس عند الشيخ عبد القادر رضي الله عنه ببغداد، وليلة الجمعة عند سيدي أحمد رضي الله عنه بطندتا. فتعجبنا من ذلك فقال: الدنيا كلها خطوة عند أولياء الله عز وجل. واجتمعنا به يوم السبت انفضاض المولد طلعة الشمس فقلنا له: من عرفكم بسيدي أحمد رضي الله عنه في بلاد الهند، فقال: يا لله العجب أطفالنا الصغار لا يحلفون إلاَّ ببركة سيدي أحمد رضي الله عنه وهو من أعظم إيمانهم وهل أحد يجهل سيدي أحمد رضي الله عنه، إن أولياء الله من وراء البحر المحيط وسائر البلاد والجبال يحضرون مولده رضي الله عنه.

وأخبرني شيخنا الشيخ محمد الشناوي رضي الله عنه أن شخصاً أنكر حضور مولده فسلب الإيمان، فلم يكن فيه شعرة تحن إلى دين الإسلام، فاستغاث بسيدي أحمد، فقال: بشرط أن لا تعود، فقال: نعم، فرد عليه ثوب إيمانه. ثم قال: وماذا تنكر علينا؟ قال: اختلاط الرجال والنساء، فقال له سيدي أحمد: ذلك واقع في الطواف ولم يمنع أحد منه. ثم قال: وعزّة ربي ما عصى أحد في مولدي إلاَّ وتاب وحسنت توبته وإذا كنت أدعو الوحوش والسمك في البحار وأحميهم بعضهم من بعض أفيعجزني الله تعالى عن حماية من يحضر مولدي.

وحكى لي شيخنا أيضاً: أن سيدي الشيخ أبا الغيث بن كبيلة، أحد العلماء بالمحلة الكبرى وأحد الصالحين بها، كان بمصر فجاء إلى بولاق فوجد الناس مهتمين بأمر المولد والنزول في المراكب، فأنكر ذلك وقال: هيهات أن يكون اهتمام هؤلاء بزيارة نبيهم ﷺ كاهتمامهم بأحمد البدوي، فقال له شخص: سيدي أحمد وليّ عظيم، فقال: ثم في المجلس من هو أعلى منه مقاماً. فعزم عليه شخص فأطعمه سمكاً فدخلت حلقه شوكة تعلقت فلم يقدروا على نزولها بدهن عطاس ولا بحيلة من الحيل وورمت رقبته حتى صارت كخلاية النحل تسع شهور وهو لا يتلذذ بطعام ولا شراب وأنساه الله تعالى

السبب، فقال: احملوني إلى قبة سيدي أحمد البدوي رضي الله عنه. فأدخلوه فشرع يقرأ سورة يس فعطس عطسة شديدة فخرجت الشوكة مغمسة دماً فقال: تبت إلى الله تعالى يا سيدي أحمد. وذهب الوجع والورم من ساعته.

وأنكر ابن الشيخ خليفة بناحية أبيار بالغربية حضور أهل بلده إلى المولد فوعظه شيخنا، الشيخ أحمد الشناوي، فلم يرجع فاشتكاه لسيدي أحمد فقال: ستطلع له حية ترعى فاه ولسانه. فطلعت من يومه ذلك وأتلفت وجهه ومات بها.

ووقع ابن اللبّان في حق سيدي أحمد رضي الله عنه فسلب القرآن والعلم والإيمان، فاستغاث ببعض الأولياء فلم يقدر أحد أن يدخل في أمره، فدلوه على سيدي ياقوت العرشي فمضى إلى سيدي أحمد رضي الله عنه وكلّمه في القبر وأجابه وقال له: أنت أبو الفتيان رد على هذا المسكين رسماله، فقال: بشرط التوبة. فتاب ورد عليه رسماله. وهذا كان سبب اعتقاد ابن اللبان في سيدي ياقوت رضي الله تعالى عنه.

وقد زوّجه سيدي ياقوت ابنته ودفن تحت رجليها بالقرافة رحمه الله تعالى.

وواقعة ابن دقيق العيد وامتحانه لسيدي أحمد رضي الله عنه مشهورة، وهي أن الشيخ تقي الدين بن دقيق العيد أرسل إلى الشيخ سيدي عبد العزيز الدبريتي رضي الله عنه وقال له: امتحن لي هذا الرجل الذي اشتغل الناس بأمره عن هذه المسائل فإن أجابك عنها فهو وليّ الله تعالى. فمضى إليه سيدي عبد العزيز وسأله عنها فأجاب عنها بأحسن جواب وقال: هذا الجواب مسطّر في كتاب الشجرة. فوجَدوه في الكتاب كما قال.

وكان سيدي عبد العزيز إذا سئل عن سيدي أحمد يقول: هو بحر لا يُدرك له قرار وأخباره ومجيئه بالأسرى من بلاد الإفرنج وإغاثة الناس من قطاع الطريق وحيلولته بينهم وبين من استنجد به لا تحويها الدفاتر رضي الله عنه.

قال العارف: قلت: وقد شاهدت أنا بعيني سنة خمس وأربعين وتسعمائة أسيراً على منارة سيدي عبد العال رضي الله عنه مقيّداً مغلولاً وهو مخبط العقل فسألته عن ذلك فقال: بينما أنا في بلاد الإفرنج آخر الليل توجهت إلى سيدي أحمد فإذا أنا به فأخذني وطار بي في الهواء فوضعني هنا فمكث يومين ورأسه دائرة عليه من شدة الخطفة رضي الله عنه اهـ من الطبقات للقطب الشعراني رضي الله عنه.

ومن ألطف ما قيل في الحضرة الأحمدية قول الأستاذ سيدي محمد المهدي الكبير متوسّلاً بباب وصوله وأستاذه القطب الحفني إلى الحضرة الأحمدية:

أشموس تلوح وقت الصباح ... أم بدور تحكي وجوه الصباح

أم بروق بالأبرقين أضاءت ... شوقتنا لعرب تلك البطاح

أذكرتني عهود دهر تقضى فبدا الشوق داعياً للنواح
هيجتني وأطلقت قيد صبري يا لقومي من لي برد الجماح
حركت في الحشا سواكن وجد أشعلت في الفؤاد زند اقتداح
يا خليلي هل يعود زمان راح في سرعة كمرّ الرياح
كان قلبي مقلباً في نعيم فيه والصدر دائماً في انشراح
فرمتني أيدي الحوادث قهراً بسهام تفوق سمر الرماح
هكذا الدهر ما يسرّ أناساً في مساء إلاَّ أسى في الصباح
كم ملوك أفنى وكم من جموع فرّقت بعد لمّة وارتياح
لا تثق بالزمان فهو خؤون غادر كاذب قليل النجاح
وتحصن من بأسه وتخلّص بوسيع الرحاب بحر السماح
ملجأ الخائفين غوث البرايا مطلب الزائرين كنز الفلاح
لا تقس جوده بقطر غمام لا ولا بأسه ببيض الصفاح
جود يمناه كم روى من يسار ويسار يروي لنا عن رباح
ورباح يروي لنا عن عطاء وهو عن نائل الندى النضاح
أحمد الأولياء الملثم بالنو ر المصفى من جوهر وصحاح
صفوة الأصفياء نسل كرام برزخ الأتقياء كهف الصلاح
شمس أفق الرشاد قطب اهتداه كوكب السير زائد الإيضاح
عرش جمع الجموع أشرف مولى أوحد الحق عند ثني القداح
وقت أن حل في حمى بنت برى صرخت عند قومها وا صباح
جاءه النصر حين نادى قريشاً وتغاضى عن حسن ذات الوشاح
سيّد دأبه العفاف وحاشى أن يزيل العفاف حسن الملاح
يا له فارساً غزا يوم بدر بحسام يروي عن السفاح
بدويّ كم فكّ قيد أسير وأذاق الكفار طعم الكفاح
خير من أذعنت لهيبته الخلـ ـق وذلّت له ملوك النواحي
عيسوي أحيا الغلام وقد كا ن رميماً وأمّه في صياح
هكذا هكذا الرجال فحدّث عن إمام الهدى أبي الأفراح

ملك زان ملكه بملاك في ليال تفوق عيد الأضاحي
من عليه الإلٰه أثنى صريحاً من قديم فأين أين امتداحي
كم له من مكارم وصفات أعجزت صاحب القوافي الفساح
أي مجد كمجد قطب رجال قصرت عنه مدحة المداح
يا ابن بنت الرسول جئناك نسعى نستقي من نداك هذا المباح
طالبين الغنى بكف افتقار هل على طالب الغنى من جناح
بسكوني في رفع مدحك جد لي فلقد جئت خافضاً للجناح
لا تكلني إلى سواك فإني أرتجيكم في غدوة ورواح
من أراجيه إن رددت وغيري في غَبوق من جودكم واصطباح
فاجبروا كسرنا بخير إمام فاق إشراقه على المصباح
الهمام الحفنيّ أوحدِ مولى ساد بالعلم والتقى والرباح
حاز مجداً وسؤدداً وافتخاراً وحواها بالجدّ لا بالمزاح
سبط طٰه ونسل أزكى البرايا أشرف الأنبياء شمس النجاح
فعليه من الإلٰه صلاة تتوالى ما فاح نشر الأقاح
وعلى آله الكرام وصحب ما اختتام يأتيك بعد افتتاح

وقد أفادني بعض العارفين من مشايخي أن من قال الأبيات الثلاثة المشهورة، وهي:

يا إماماً يرجى لكل ملمّ وهماً ما يرد بأس القويّ
يا حسيباً إنا عليك حسبنا ودخلنا في كهفك المحميّ
وبظل الجناب منك اتقينا من عدوّ وحاسد وبغيّ

ثلاث مرات عند ضريح سيدي أحمد البدوي وعند ضريح سيدنا الإمام الشافعي وسأل الله تعالى حاجته قضاها الله له كائنة ما كانت. أمدنا الله من فيض إمداداتهم ومنحنا بذرة من إحساناتهم وصلّى الله على سيّدنا محمد النبيّ الأمي وعلى آله وصحبه وسلَّم كلما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون.

ومن أهل بيت النبوة قطب دائرة الأفلاك، وغوث أهل الأرض والحضرات، القطب الرباني سيّدنا ووليّ نعمتنا سيّدنا إبراهيم الدسوقي.

قال القطب الشعراني في طبقاته: وكان من صدور المقربين، وكان صاحب

كرامات ظاهرة ومقامات فاخرة وسرائر ظاهرة وبصائر باهرة وأحوال خارقة وأنفاس صادقة وهمم عالية ورتب سنية ومناظرة بهية وإشارات نورانية ونفحات روحانية وأسرار ملكوتية ومحاضرات قدسية، له المعراج الأعلى في المعارف والمنهاج الأسنى في الحقائق والطور الأرفع في المعالي والقدم الراسخ في النهايات واليد البيضاء في علوم الموارد والباع الطويل في التصريف النافذ والكشف الخارق عن حقائق الآيات والفتح المضاعف في معنى المشاهدات، وهو أحد من أظهر الله على الوجود وأبرزه رحمة للخلق وأوقع له القبول التام عند الخاص والعام، وصرفه في العالم ومكّنه في إحكام الولاية وقلب له الأعيان وخرق له العادات وأنطقه بالمغيبات وأظهر على يديه العجائب وصومه في المهد رضي الله عنه. وله كلام كثير عال على لسان أهل الطريق.

ومن كلامه رضي الله عنه: من لم يكن مجتهداً في بدايته لا يفلح له مريد، فإنه إن نام نام مريده وإن قام قام مريده، وإن أمر الناس بالعبادة وهو بطال أو نهاهم عن الباطل وهو يفعله ضحكوا عليه ولم يسمعوا منه.

وكان رضي الله عنه يقول: كم من علم يسمعه من لا يفهمه فيتلفه ولذلك أخذت العهود على العلماء أن لا يودعوا العلم إلاَّ عند من له عقل عاقل وفهم ثاقب.

وكان يقول: الصحيح من قول العلماء أن العقل في القلب لحديث: «إن في الجسَد مضغة» ولكن إذا فكرت في كنه العقل وجدت الرأس يدبر أمور الدنيا ووجدت القلب يدبر أمور الآخرة، فمن جاهد شاهد ومن رقد تباعد.

وكان يقول: ليس أحد يقدم في الطريق بكبره وسنه وتقادم عهده، إنما يقدم بفتحه ومع هذا فمن فتح عليه منكم فلا يرى نفسه على من لم يفتح عليه. وتأمل يا ولدي إلى إبليس لما رأى نفسه على آدم عليه السلام وقال: أنا أقدم منك وأكثر عبادة ونوراً، كيف لعنه الله.

وكان يقول: على حامل القرآن أن لا يملأ جوفه حراماً فإن فعل ذلك لعنه القرآن من جوفه.

وقال: لعنة الله على من لم يجل كلام الله تعالى.

وكان يقول: من أحب أن يكون ولدي فليحبس نفسه في قمقم الشريعة وليختم عليها بخاتم الحقيقة وليقتلها بسيف المجاهدة وتجرع المرارات، ومن رأى أن له عملاً سقط من عين ربه وحرم من ملاحظته.

وكان يقول: العارف يرى حسناته ذنوباً ولو آخذه الله تعالى بتقصيره فيها لكان عدلاً.

وكان يقول: يا أولادي اطلبوا العلم ولا تقفوا ولا تسأموا فإن الله تعالى قال لسيد

المرسلين: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: الآية ١١٤] فكيف بنا ونحن مساكين في أضعف حال وآخر زمان وسبب طلب الزيادة للعلم إنما هي للأدب، يعني أطلب الزيادة من العلم لتزداد معي أدباً حتى أؤدبك ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الأنعام: الآية ٩١].

وكان يقول: أنا موسى الكليم في مناجاته، أنا علي في حملاته، أنا كل وليّ في الأرض خلقته بيدي، البس منهم من شئت أنا في السماء شاهدت ربي وعلى الكرسي خاطبته، أنا بيدي أبواب النار إن أغلقتها أغلقتها وبيدي جنة الفردوس فتحتها، من زارني أدخلته جنة الفردوس.

واعلم يا ولدي أن أولياء الله تعالى ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ١١٢] متصلون بالله وما كان وليّ متصل به تعالى إلاّ وهو يناجي ربّه كما كان موسى عليه السلام يناجي ربه، وما من وليّ إلاّ ويحمل على الكفار كما كان علي بن أبي طالب رضي الله عنه يحمل، وقد كنت أنا وأولياء الله تعالى أشياخاً في الأزل بين يدي قديم الأزل وبين يدي رسول الله ﷺ، وإن الله عز وجل خلقني من نور رسول الله ﷺ وأمرني أن أخلع على جميع الأولياء بيدي فخلعت عليهم بيدي وقال لي رسول الله ﷺ: يا إبراهيم أنت نقيب عليهم، فكنت أنا ورسول الله ﷺ وأخي عبد القادر خلفي وابن الرفاعي خلف عبد القادر، ثم التفت إليّ رسول الله ﷺ وقال لي: يا إبراهيم سر إلى مالك وقل له يغلق النيران وسر إلى رضوان وقل له يفتح الجنان. ففعل مالك ما أمر به ورضوان ما أمر به وأطال في معاني هذا الكلام.

ثم قال رضي الله عنه: وما يعلم ما قلته إلاّ من انخلع من كثافة حجبه وصار مُرَوْحَناً كالملائكة.

قال العارف: قلت: وهذا الكلام من مقام الاستطالة يعطي صاحب الرتبة أن ينطق بما ينطق وقد سبقه إلى نحو ذلك الشيخ عبد القادر الجيلي رضي الله عنه وغيره فلا ينبغي مخالفته إلاّ بنص صريح والسلام.

وهو إبراهيم بن أبي المجد بن قريش بن محمد بن النجا بن عبد الخالق بن القاسم بن جعفر بن عبد الخالق بن أبي القاسم الزكي بن علي بن محمد بن الجواد بن علي الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي الزاهر زين العابدين بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، القرشي الهاشمي رضي الله عنهم أجمعين. تفقّه على مذهب الإمام الشافعي رضي الله عنه ثم اقتفى آثار السادة الصوفية وجلس في مرتبة الشيوخية وحمل الراية البيضاء وعاش من العمر ثلاثاً وأربعين سنة ولم يغفل قط عن المجاهدة للنفس والهوى والشيطان حتى مات سنة ست وسبعين وستمائة رضي الله عنه. ومن نظمه رضي الله عنه ورحمه:

سقاني محبوبي بكأس المحبّة فتهت عن العشاق سكراً بخلوتي
ولاح لنا نور الجلالة لو أضا لصم الجبال الراسيات لدكّت
وكنت أنا الساقي لمن كان حاضراً أطوف عليهم كرّة بعد كرّة
ونادمني سرّاً بسرّ وحكمة وأن رسول اللّه شيخي وقدوتي
وعاهدني عهداً حفظت لعهده وعشت وثيقاً صادقاً لمحبتي
وحكمني في سائر الأرض كلها وفي الجن والأشباح والمرديتي
وفي أرض صين الصين والشرق كلها لأقصى بلاد اللّه صحت ولايتي
أنا الحرف لا أُقْرأ لكل مناظر وكل الورى من أمر ربي رعيتي
وكم عالم قد جاءنا وهو منكر فصار بفضل اللّه من أهل حرفتي
وما قلت هذا القول فخراً وإنما أتى الإذن كي لا يجهلون طريقتي

وكان رضي الله عنه يقول: قرأت كتاب الله تعالى وأنا ابن ست سنين ورأيت في السبع حرفاً معجماً حار فيه الجن والإنس ففهمته وحمدت الله تعالى على معرفته، وحرَّكت ما سُكِّن وسكَّنت ما تحرَّك بإذن الله تعالى وأنا ابن أربع عشرة سنة والحمد لله رب العالمين وصلّى الله على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلَّم كلما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون.

ومن أهل بيت النبوّة السيد الإمام المهدي المنتظر.

ففي كنوز الحقائق للمناوي عن الطبراني عنه ﷺ: «المهدي منَّا يُخْتَمُ به الدين كما فتِحَ بنا».

وفي جواهر العقدين في شرف النسبين للإمام المناوي أيضاً قال: وقال مقاتل بن سليمان ومن تبعه من المفسرين في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ [الزخرُف: الآية ٦١] قال: هو المهدي يكون في آخر الزمان.

قال: وربما يستشهد لهذا بما أخرجه النسائي من قوله ﷺ: «لن تهلك أمة أنا أولها ومهديها وسطها والمسيح ابن مريم آخرها» اهـ.

وفي القرطبي من حديث ابن مسعود وغيره: أنه يخرج في آخر الزمان من المغرب الأقصى يمشي النصر من بين يديه أربعين ميلاً، راياته بيض وصفر فيها رقوم فيها اسم الله الأعظم مكتوب فلا تنهزم له راية فيبعث هذه الرايات مع قوم قد أخذ الله لهم ميثاق النصر والظفر، أولئك حزب الله ﴿أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: الآية ٢٢]» الحديث بطوله، وفيه: «فيأتي الناس من كل جانب ومكان فيبايعونه يومئذ بين الركن

والمقام وهو كاره لهذه المبايعة الثانية بعد البيعة الأولى بالمغرب» اهـ.

وفي رسالة الشيخ الصبان قال: يؤخذ من أحاديث أُخر أنه يخرج - أي المهدي - من المشرق، من بلاد الحجاز، والقول بأنه يخرج من المغرب لا أصل له كما نبَّه عليه العلقمي اهـ.

قلت: ولعل الجمع ممكن عملاً بالروايتين بأن تحمل أحاديث المشرق على الظهور التام بدليل المبايعة الثانية بين الركن والمقام بعد البيعة الأولى كما في رواية القرطبي، وهذا من المحقق الصبان غير لائق بمقامه، فإن رواية القرطبي المفيدة للمبايعة مرتين قد وافقه فيها الإمام ابن حجر وكذلك القطب الشعراني قد أفادها في مختصره ولفظه: روي أنه يخرج في آخر الزمان رجل يقال له: المهدي، من أقصى المغرب يمشي النصر بين يديه أربعين ميلاً راياته بيض وصفر فيها رقوم فيها اسم الله الأعظم مكتوب فلا تُهزم له راية وقيام هذه الرايات وانبعاثها من ساحل البحر بموضع يقال له: ماسة. من جبل المغرب، فيبعث هذه الرايات مع قوم قد أخذ الله تعالى لهم ميثاق النصر والظفر أولئك حزب الله ﴿أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: الآية ٢٢] إلى أن قال: فيأتي الناس من كل جانب ومكان فيبايعونه بمكة بين الركن والمقام وهو كاره لهذه البيعة الثانية بعد المبايعة الأولى التي بايعه الناس بالمغرب عليها. انتهى.

وحيث أمكن الوصل والجمع فسلوكه أولى لا سيما والإمام القرطبي من أكابر المحدثين مع الموافقة من الإمامين المتقدم ذكرهما وهو من ولد فاطمة باتفاق الجمهور. ففي مسلم وأبي داود والنسائي وابن ماجه والبيهقي وآخرين: «المهدي من عترتي من ولد فاطمة». وفي رواية ابن عساكر عن علي بن الحسين عن أبيه: «أبشري يا فاطمة المهديّ منك».

قال في كنوز الحقائق: وما ورد من قوله ﷺ: «يا عباس إن الله بدأ بي هذا الأمر وسيختمه بغلام من ولدك يملؤها عدلاً»(١) الخ، يجمع بينه وبين رواية: «أنه من ذرية الحسن والحسين» بأن يكون له نسبة إلى كل واحد من هؤلاء فيكون رضي الله عنه نجل الحسن وسبط الحسين من جهة أمه وسبط العباس من جهة أبيه. اهـ.

وأخرج أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه: «لو لم يبق من الدهر إلاّ يوم واحد لبعث الله فيه رجلاً من عترتي يملؤها عدلاً كما ملئت جوراً»(٢).

وفي رواية لأبي داود والترمذي: «لو لم يبق من الدنيا إلاّ يوم واحد لطوّل الله ذلك

(١) رواه ابن الجوزي في العلل المتناهية (٢/ ٨٥٨).
(٢) رواه الحاكم في المستدرك (٤/ ٥١٣)، والعقيلي في الضعفاء (٤/ ٢٥٩).

اليوم حتى يبعث الله فيه رجلاً من أهل بيتي يواطىء اسمه اسمي واسم أبيه اسم أبي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً»[١].

وأخرج الحاكم في صحيحه: «يحل بأمتي في آخر الزمان بلاء شديد من سلطانهم لم يسمع بلاء أشد منه حتى لا يجد الرجل ملجأ، فيبعث الله رجلاً من عترتي أهل بيتي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً يحبه ساكن الأرض وساكن السماء وترسل السماء قطرها وتخرج الأرض نباتها لا تمسك شيئاً يعيش فيهم سبع سنين أو ثمانياً أو تسعاً يتمنى الأحياء الأموات مما صنع الله بأهل الأرض من خيره»[٢].

وأخرج أبو نعيم: «ليبعثن الله رجلاً من عترتي أفرق الثنايا أجلى الجبهة ـ أي منحسر الشعر عن جبهته ـ يملأ الأرض عدلاً يفيض المال فيضاً»[٣].

وأخرج الروياني والطبراني وغيرهما: «المهدي من ولدي، وجهه كالكوكب الدريّ اللون لون عربي، والجسم جسم إسرائيلي ـ أي طويل ـ يملأ الأرض عدلاً كما مُلئت جوراً، يرضى لخلافته أهل السماء وأهل الأرض».

وورد أيضاً في حليته: «أنه شاب أكحل العينين أزج الحاجبين أقنى الأنف كث اللحية على خده الأيمن خال».

وقال الشيخ القطب الغوثي سيدي محيي الدين بن العربي في الفتوحات: اعلموا أنه لا بد من خروج المهدي، لكن لا يخرج حتى تملأ الأرض جوراً وظلماً فيملؤها قسطاً وعدلاً وهو من عترة رسول الله ﷺ من ولد فاطمة رضي الله تعالى عنها، جده الحسين بن علي بن أبي طالب ووالده الإمام حسن العسكري ابن الإمام علي النقي ـ بالنون ـ الإمام محمد التقي ـ بالتاء ـ ابن الإمام علي الرضا ابن الإمام موسى الكاظم ابن الإمام جعفر الصادق ابن الإمام محمد الباقر ابن الإمام زين العابدين علي ابن الإمام الحسين ابن الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه، يواطىء اسمه اسم رسول الله ﷺ يبايعه المسلمون بين الركن والمقام يشبه رسول الله ﷺ في الخلق ـ بفتح الخاء ـ وقريباً منه في الخلق، أسعد الناس به أهل الكوفة يقسم المال بالسوية ويعدل به في الرعيّة، يمشي النصر بين يديه، يعيش خمساً أو سبعاً أو تسعاً يقفو أثر رسول الله ﷺ، له ملك يسدده من حيث لا يراه، يفتح المدينة الرومية بالتكبير مع سبعين ألفاً من المسلمين، يعزّ الله به الإسلام بعد ذلّه، ويحييه بعد موته، ويضع الجزية، ويدعو إلى الله بالسيف، فمن أبى قتل ومن نازعه خذل، يحكم بالدين الخالص عن الرأي، ويخالف في غالب أحكامه

(١) رواه الترمذي (٤/ ٥٠٥)، وأبو داود (٤/ ١٠٦)، وابن ماجه (٢/ ٩٢٨).
(٢) رواه الحاكم في المستدرك (٤/ ٥١٣).
(٣) رواه أبو عمرو الداني في السنن الواردة في الفتن (٥/ ١١٠٨).

مذاهب العلماء فينقبضون لذلك لظنهم أن الله تعالى لا يحدث بعد أئمتهم مجتهداً. وأطال في ذكر وقائعه معه.

ثم قال: واعلم أن المهدي إذا خرج يفرح به جميع المسلمين خاصتهم وعامتهم. وله رجال إلهيون يقيمون دعوته وينصرونه هم الوزراء له يتحملون أثقال المملكة عنه ويعينونه على ما قلّده الله به، ينزل عليه عيسى ابن مريم عليه السلام بالمنارة البيضاء شرق دمشق متكئاً على ملكين، ملك عن يمينه وملك عن يساره، والناس في صلاة العصر فيتنحى الإمام من مقامه فيتقدم فيصلي بالناس، يؤم الناس بسنّة سيدنا محمد ﷺ ويكسر الصليب ويقتل الخنزير ويقبض الله إليه المهدي طاهراً مطهراً.

وقال في محل آخر من فتوحاته: قد استوزر الله للمهدي طائفة خبأهم الله تعالى في مكنون غيبه، أطلعهم كشفاً وشهوداً على الحقائق وما هو إلاّ أمر الله في عباده، فلا يفعل المهدي شيئاً إلاّ بمشاورتهم وهم على أقدام رجال من الصحابة الذين صدقوا الله ما دعاهم إليه، وهم من الأعاجم ليس فيهم عربي لكن لا يتكلمون إلاّ بالعربية، لهم رئيس من جنسهم ما عصى الله قط هو أخص الوزراء.

ثم قال: هؤلاء الوزراء لا يزيدون عن تسعة ولا ينقصون عن خمسة لأن رسول الله ﷺ شك في عددهم مدة إقامته من خمس إلى تسع للشك الذي وقع في وزرائه فلكل وزير معه إقامة سنة فإن كانوا خمسة عاش خمسة وإن كانوا تسعاً عاش تسعاً، ولكل سنة أحوال مخصوصة وعلم يختص به وزيره، إلى آخر ما قال.

وقال في محل آخر من فتوحاته: إنه يحكم بما ألقى إليه ملك الإلهام من الشريعة وذلك بأن يلهمه الشرع المحمدي فيحكم به كما أشار إليه حديث المهدي: «يقفو أثري لا يخطىء» فعرفنا رسول الله ﷺ أنه متبع لا مبتدع وأنه معصوم في حكمه فعلم أنه يحرم عليه القياس مع وجود النصوص التي منحه الله إياها على لسان ملك الإلهام بل حرَّم بعض المحققين القياس على أهل الله لكون رسول الله ﷺ مشهوداً لهم، فإذا شكوا في صحة حديث أو حكم رجعوا إليه في ذلك فأخبرهم بالأمر الحق لفظاً ومشافهة، وصاحب هذا الحال والمشهد لا يحتاج إلى تقليد أحد من الأئمة غير رسول الله ﷺ.

قال العلامة الصبان في رسالته لأهل البيت متعقباً للعارف ابن العربي في فتوحاته بقوله: لا يخفى أن ما ذكر العارف ابن العربي من كون جده الحسين مناف لما مر من توجيه بعضهم أن جده الحسن، وأن ما ذكره العارف أيضاً من كون والده الحسن العسكري مناف لما مر في بعض الروايات من كون اسم أبيه مواطئاً لاسم أبي رسول الله ﷺ. وما ذكره أيضاً من كون مدته إما خمساً أو تسعاً مخالف لما مر عن الصواعق أخذاً من الأحاديث السابقة من كون المحقق سبع سنين. وأن ما ذكره أيضاً من كونه

يضع الجزية ويقتل من لم يسلم مناف لما مر من كون ذلك لعيسى وأن ما ذكره من كون عيسى هو الذي يصلّي بالناس حين ينزل مناف لما مر من كون الذي يصلّي بهم المهدي، وإن ما ذكره من أن عيسى ينزل والناس في صلاة العصر مناف لما في السيرة الحلبية من أنه ينزل والناس في صلاة الفجر. اهـ.

قلت: وهذا من مثل هذا الإمام المحقق في غاية الغرابة لا سيما التورك على مثل هذا العارف وذلك لإمكان الجمع والإصلاح في جميع ما رده عليه، فقوله لا يخفى، أن ما ذكره العارف ابن العربي من كون جده الحسين مناف لما مر من توجيه بعضهم أن جده الحسن لا مانع من أن يراد بالحسن في كلام البعض الحسن العسكري وهو من أولاد الحسين، وإنما نسب إليه خاصة لكونه كان أشهر آبائه من قبل أبيه لأنه كان كما ذكره المعترض نفسه في مناقب سيدي الحسن أنه كان من الأئمة الأخيار صاحب الشهرة العظيمة في العلم والمعارف، ولم يكن في الحديث الحسن بن علي على أنه لو قيل ذلك لأمكن ما تقدم أيضاً لما علمت من تمام شهرته وهو وإن كان بعيداً يتقوى برواية كونه من ولد الحسين والسنّة يفسر بعضها بعضاً.

وعلى تسليم ذلك فتوجيه البعض كونه من ولد الحسن لا يصلح أن يكون له حجة في الرد على مثل هذا العارف، وقول المحقق ثانياً ما ذكره العارف أيضاً من كون والده الحسن العسكري مناف لما مر في بعض الروايات من كون اسم أبيه مواطئاً لاسم أبي رسول الله ﷺ لا يصح من مثل هذا الإمام، وذلك أنه من المعلوم أنه يولد في آخر الزمان كما سيذكره العلامة المتعقب نقلاً عن الشعراني ولفظه.

وقال سيدي عبد الوهاب الشعراني في اليواقيت والجواهر: المهدي من ولد الإمام الحسن العسكري ومولده ليلة النصف من شعبان سنة خمس وخمسين ومائتين بعد الألف وهو باق إلى أن يجتمع بعيسى ابن مريم عليه السلام، هكذا أخبرني الشيخ حسن العراقي المدفون فوق كوم الريش المطل على بركة الرطل بمصر المحروسة، ووافقه على ذلك سيدي علي الخواص اهـ بلفظه.

إذا علمت ذلك النقل من هذا المحقق عن القطب الشعراني ظهر لك عدم المنافاة ضرورة ذلك لأن الإمام سيدي الحسن العسكري بينه وبين جده الحسين ستة من الآباء فيعلم من ذلك أن الإمام المذكور ليس والد السيد المهدي مباشرة، وأن والده مباشرة عبد الله كما في بعض الروايات. ويعلم أن تخصيصه الإمام العسكري بالذكر لكونه أول المشاهير من قبل أبيه عبد الله المذكور وبذلك يتقوّى الاحتمال الأول من دفع المنافاة. وقول العلامة المحقق ثالثاً وما ذكره أيضاً من كون مدته إما خمساً أو سبعاً أو تسعاً مخالف لما مر عن الصواعق أخذاً من الأحاديث السابقة من كون المحقق سبع سنين فهو

في غاية الغرابة أيضاً، وذلك أن العارف في المحل الأول من الفتوحات قال: يعيش خمساً أو سبعاً أو ثمانياً أو تسعاً. وقال في محل آخر: له وزراء لا يزيدون عن تسعة ولا ينقصون عن خمسة، فأنت تراه في المحلين لم يقطع بواحد بعينه والشك في ذلك العدد لا ينافي القطع الذي عينه ابن حجر لأن المقطوع به من افراد المشكوك فيه غير أنه لم يعينه بخصوصه احتياطاً لرواية الجميع، ولعل الجزم بالسبع من ابن حجر لما ترجح عنده، وهذا لا ينافي ما ذكره العارف على أن ابن حجر في الصواعق ذكر روايات متعددة موافقة لروايات العارف ابن العربي، ولفظه:

روى الطبراني والبزار بعد أن ذكر حديثاً طويلاً، وفيه: يمكث فيهم سبعاً أو ثمانياً فإن أكثر فتسعاً. قال: وفي رواية للترمذي: «إن في أمتي المهدي يخرج يعيش خمساً أو سبعاً أو تسعاً، فيجيء الرجل إليه فيقول: يا مهدي أعطني، فيحثي له في ثوبه ما استطاع أن يحمله»(١). ثم بعد أن ذكر هذه الأحاديث من غير تضعيف لها ذكر بعد ذلك ما ترجح عنده رواية سبع سنين بقوله: الذي اتفقت عليه الأحاديث سبع سنين من غير شك، وعلى تسليم ذلك فمثل هذا العارف لا يرد عليه بما في الصواعق وإن كان من أكابر الحفاظ، فلا يكون ما فيها حجة في الرد عليه وقول المحقق رابعاً وما ذكره أيضاً من كونه يضع الجزية ويقتل من لم يسلم مناف لما مر من كون ذلك لعيسى لا مانع من إمكان الجمع، فإن اتصاف عيسى بذلك لا ينافي اتصاف المهدي به لأنه من المعلوم أن كلاً منهما إمام متّبع ومقرّر لشريعة رسول الله ﷺ فلا مانع من استوائهما في هذا الأمر. ويؤيد هذا ورود فتح الكنوز في وقته، فلا نفع لأخذ الجزية حينئذ حتى يشرع أخذها لأن الوسيلة إذا لم يترتب عليها مقصدها لا تشرع على أنه لا مانع من كون ذلك على لسان عيسى في آخر ظهور المهدي عند اجتماعه مع عيسى لما ورد من مساعدة المهدي لعيسى على قتل الدجال، وهذا يفيده العارف الشعراني في مختصره جواباً عما رواه ابن ماجه: أن رسول الله ﷺ قال: «لا يزداد الأمر إلاّ شدة ولا الدنيا إلاّ إدباراً، ولا الناس على الدنيا إلاّ شحّاً، ولا تقوم الساعة إلاّ على شرار الناس، ولا مهدي إلاّ عيسى ابن مريم».

قال العارف: قال الإمام القرطبي: وهذا لا ينافي ما تقدم في أحاديث المهدي لأن معناه تعظيم شأن عيسى لعصمته وكماله فلا ينافي وجود المهدي.

قال العارف: ويؤخذ ذلك من حديث: «المهديّ من أهل بيتي يملأ الأرض عدلاً» وأنه يخرج مع عيسى عليه السلام يساعده على قتل الدجال بباب لدّ من أرض فلسطين، وأنه يؤم هذه الأمة ويصلّي خلف عيسى ابن مريم اهـ.

---

(١) رواه الترمذي (٥٠٦/٤)، وابن ماجه (١٣٦٦/٢)، وأحمد في المسند (٣/ ٢١)، وأبو نعيم في الفتن (ص ٣٦٠)، وأبو عمرو الداني في الفتن (١٠٣٦/٥).

فأنت تراه قد ذكر خروجه معه للمساعدة على الدجال فيكون لا مانع من نسبة ما تقدم إليهما جميعاً، وإنما تخصيص عيسى في بعض الروايات بذلك تعظيماً لشأنه كما سمعته عن الإمام القرطبي، وهذا وإن كان تطفلاً منّا على مثل هذا الإمام إلاّ أن سلوك الإصلاح والوصل أولى بالاتباع وقول المحقق في الاعتراض المار، وإن ما ذكره من كون عيسى هو الذي يصلّي بالناس حين ينزل مناف لما مر من كون الذي يصلّي بهم المهدي لا مانع من إمكان الجمع بإمكان تعدد الصلوات عملاً بالروايتين، فإن الحين صادق بالزمن المتسع، وإن كان المتبادر من تقييده بالنزول عدم الاتساع لكن استعماله ظرفاً متسعاً لقرب ما بين الصلاتين يكون فيه عمل بالروايتين فيكون المصلّي أولاً حين النزول في صلاة الصبح هو المهدي وفي صلاة العصر عيسى.

ثم بعد كتبي لتسويد هذا الجواب الأخير رأيت العلامة ابن حجر ذاكراً ما يفيده بقوله: ما ورد أن المهدي هو الذي يصلّي بعيسى هو الذي دلت عليه الأحاديث. قال: وما صححه السعد التفتازاني من أن عيسى هو الإمام بالمهدي لأنه أفضل فإمامته أولى، فلا شاهد له فيما علّل به لأن القصد بإمامة المهدي بعيسى إنما هو إظهار أنه نزل تابعاً لنبينا بشريعته غير مستقل بشيء من شريعة نفسه واقتداؤه ببعض هذه الأمة مع كونه أفضل من ذلك الإمام الذي اقتدى به فيه من إذاعة ذلك وإظهاره ما لا يخفى على أنه يمكن الجمع بأن يقال: إن عيسى يقتدي بالمهدي أولاً لإظهار ذلك الغرض ثم بعد ذلك يقتدي المهدي به على أصل القاعدة من اقتداء المفضول بالفاضل، وبه يجتمع القولان.

وبهذا الجواب يجاب عن الاعتراض الأخير في دفع التنافي بين الصلاتين، وقد تمَّ بهذا الجمع بين كلام العارف وغيره، وإذا أمكن الجمع والوصل فلا ينبغي التورك لا سيما من مثل هذا المحقق على هذا العارف خصوصاً وكلام العارفين حجة في التصحيح للحديث أو ضعفه، وقد سبق للعلامة المعترض نقلاً عن بعض المحققين أن المهدي يحرم عليه القياس وكذلك أهل الله العارفون لشهودهم للنبي يقظة ومشافهة فهم مطلعون على صحة الحديث وضعفه، ولذلك قال سيدي عبد الله بن المبارك في الإبريز: كنا معاشر العلماء نعرض كتب السنّة على سيّدي عبد العزيز الدباغ وهو أمّي ويبين لنا الحديث الصحيح من غيره، فكنا نجد ما يخبر بعدم صحته منصوصاً كذلك للحفاظ. إذا علمت ذلك فكلام الأستاذ حجة لا يعارضه غيره.

وجاء في بعض الروايات أنه ينادي عند ظهوره فوق رأسه ملك: هذا المهدي خليفة الله فاتبعوه، فتقبل عليه الناس ويُشْرَبون حُبَّه وأنه يملك الأرض شرقها وغربها وأن الذين يبايعونه أولاً بين الركن والمقام بعدد أهل بدر ثم تأتيه أبدال الشام ونجباء مصر وعصائب أهل الشرق وأشباههم ويبعث الله له جيشاً من خراسان برايات سود نصرة له ثم يتوجه إلى الشام. وفي رواية: إلى الكوفة، والجمع ممكن، وأن الله تعالى يؤيده بثلاثة

آلاف من الملائكة وأن أهل الكهف من أعوانه.

قال الأستاذ السيوطي: وحينئذ فسرّ تأخيرهم إلى هذه المدة إكرامهم بشرفهم بدخولهم في هذه الأمة، أي وإعانتهم للخليفة الحق، وأن على مقدمة جيشه جبريل وميكائيل على ساقته وأنه يكون المهدي بعد موت القحطاني وهو رجل من أهل اليمن يعدل في الناس ويسير سير المهدي.

أما حديث أنه ﷺ قال: «لا يزداد الأمر إلاَّ شدة ولا الدنيا إلاَّ إدباراً، ولا الناس إلاَّ شحاً، ولا تقوم الساعة إلاَّ على شرار الناس، ولا مهدي إلاَّ عيسى ابن مريم» فتكلم فيه وعلى تقدير صحته فالمعنى: لا مهدي معصوم إلاَّ عيسى، أو لا مهدي على الإطلاق سواه يأتي بعده.

قال ابن حجر في الصواعق: الأظهر أن خروج المهدي قبل نزول عيسى وإن ظهوره بعد أن يكسف القمر في أول ليلة من رمضان وتكسف الشمس في النصف منه، فإن مثل ذلك لم يوجد منذ خلق الله السماوات والأرض اهـ صبان والله أعلم.

وفي شرح الشيخ الشرقاوي على ورد الأستاذ البكري: ينزل عيسى في زمانه بالمنارة البيضاء شرقي مسجد دمشق والناس في صلاة العصر فيتنحى له الإمام فيتقدم فيصلي بالناس يؤم الناس بسنّة محمد ﷺ. قال والمراد بالإمام أمير المهدي على دمشق، وأما هو ففي بيت المقدس، ثم يذهب عيسى إلى بيت المقدس فيقتدي بالمهدي في صلاة الصبح. قال: وقيل: إن مدة المهدي أربعون سنة يجتمع مع عيسى في سبع سنين أو تسع ويتقدم عليه بأكثر من ثلاثين سنة ويتأخر عنه عيسى ببضع وثلاثين سنة لأن مدة مكثه خمس وأربعون سنة. قال: وهذا لا يعارض ما تقدم من أن غاية مكث المهدي تسع سنين، قال: لأن التسع هي التي ينفرد فيها بملك الأرض كلها وإن كان ملكه من ابتداء الأربعين. ومولده بالمدينة، وقيل: ببلاد الغرب، ثم يهاجر من المدينة إلى بيت المقدس. قال: وأحاديثه بلغت مبلغ التواتر المعنوي، فلا معنى لإنكارها. قال: وأما ما ورد من أنه لا مهدي إلاَّ عيسى ابن مريم فهو مع كونه ضعيفاً عند الحفاظ مؤول بأن المعنى لا مهدي معصوم مطلقاً إلاَّ عيسى أو المعنى: لا قول للمهدي إلاَّ بمشورة عيسى بناء على أنه من وزرائه اهـ.

وقال في محل آخر: وتدخل سائر الملوك في طاعته وعند مبايعته في المرة الأولى يكون عمره خمسة وعشرين سنة، وقيل: بل أكثر من سبعمائة سنة.

وقال في محل آخر بعد نقله عبارة العارف ابن العربي المتقدمة وهي قوله: يفرح به عامة المسلمين ويبايعه العارفون بالله من أهل الحقائق، وله رجال إلٰهيون يقيمون دعوته وينصرونه: هم الوزراء إلى أن قال: وهم تسعة على أقدام رجال من الصحابة لهم حافظ

من غير جنسهم ما عصى الله قط هو أخص الوزراء وأفضل الأمناء اهـ. قال: وذلك الحافظ هو عيسى، فيكون هو وزيره الأخص في بعض المدة وإن انفرد بعده وهو ليس من جنس الوزراء لأنهم من الأعاجم - يعني الفرس وعيسى من بني إسرائيل - اهـ.

وللقطب الشعراني في كتابه بهجة النفوس والأسماع قال: أخبرني سيدي حسن العراقي بأنه اجتمع بالإمام المهدي بجامع بني أمية ولقنه الذكر وأمره بصيام يوم وإفطار يوم، وأن يصلي كل ليلة خمسمائة ركعة أبداً ما عاش وأمره أن يسيح في البلاد. قال: فخرجت بعد إلى الشام سائحاً فسحت سبعاً وخمسين سنة حتى وصلت سد الإسكندر ذي القرنين وأمسكت القفل بين يدي إلى أن زال، وقال لي المهدي: عمري الآن مائة وسبع وثلاثون سنة. اهـ فلينظر هذا مع الذي سبق نقله للعلامة الصبان في عمره وكذلك العلامة الشرقاوي.

قال الإمام المقدسي: وقد أنكر قوم ظهور الإمام المهدي محتجين بما شاع عن ألسنة الناس من قولهم: لا مهدي إلاَّ عيسى ابن مريم، وادعوا أنه حديث صحيح، وأصروا على صحته وصمموا على الاحتجاج به على إنكارهم الباطل وادعائهم العاطل مع أنه حديث منكر لا يصح الاستدلال به لمن أمعن في النظر في إسناده وتفكّر. فقد صرَّح بإنكاره الإمام أبو عبد الرحمٰن النسائي وأنه لجدير بذلك، إذ مدار إسناده على محمد بن خالد الجندي عن أبان بن عياش وهو متروك عندهم غير مقبول، وإسناده مقطوع غير موصول، ويؤيد ذلك ما في كتاب العلل المتناهية للإمام أبي الفرج ابن الجوزي في توهين هذا الحديث من كلام الحافظ أبي بكر البيهقي.

وحكى البيهقي عن شيخه الحاكم النيسابوري: وناهيك به معرفة بعلم الحديث وهو على أحوال رواته مطلع أنه قال: الجندي مجهول وابن أبي عياش متروك، وهذا الحديث بهذا الإسناد منقطع.

وقد نقل علماء الحديث في حق الإمام المهدي من الأحاديث ما لا يحصى كثرة وكلها معرضة بذكره ومصرحة، وفي ذلك أدل دليل على ترجيحها على هذا الحديث المنكر عند من كان له بهذا الفن خبرة.

وقد ذكر الإمام الحافظ أبو عبد الله الحاكم في كتابه المستدرك على الصحيحين من ذلك ما فيه غنية. ولما انتهى في كتابه إلى هذه الرواية بيَّن حالها لمن له فهم ودراية فقال: قد ذكرت ما انتهى إليّ من علم هذا الحديث تعجباً لا محتجاً به وهذا غاية في التوهين. ثم قال: فإن أولى من هذا حديث سفيان الثوري وشعبة وزائدة وغيرهم من أئمة المسلمين عن عاصم بن بَهْدَلَة عن زرّ بن حُبَيْش عن أبي مسعود عن النبي الصادق الأمين أنه قال: «لا تذهب الأيام والليالي حتى يملك رجل من أهل بيتي يواطىء اسمه اسمي

واسم أبيه اسم أبي». وهذا تصريح باسمه وتعيين. وقد قال بعض العلماء الأماثل: إن معنى قوله: «يواطىء»: يشابه ويماثل، فقد اتضح أن المهدي من ولد الزهراء لا ابن مريم كما احتج به من تمسك بهذا الحديث، ولئن سلمت صحته فإنه يحمل على التأويل إذ لا يوجد لإلغاء ما يعارضه من الأحاديث الصحيحة سبيل، ولعل تأويله كتأويل: لا صلاة لجار المسجد إلاَّ في المسجد، إذ ألفاظ الحديثين متقاربة أو غير ذلك من التآويل المحتملة. اهـ ملخصاً من عقد الدرر في أخبار المهدي المنتظر.

قال سيدي عبد الرحمٰن الأجهوري في كتابه مشارق الأنوار في آل بيت النبي الأطهار: ووقع اختلاف في كونه يخرج من جهة الشام أو خراسان أو غير ذلك، وأجمعوا على أن الآيات لا تمتد إلى خمسمائة بعد الألف السابع. ثم قال: وفي بعض الآثار أنه يخرج في وتر من السنين سنة إحدى أو ثلاث أو خمس أو سبع أو تسع، وأنه بعد أن تعقد له البيعة بمكة يسير بها إلى الكوفة ثم يفرق الجنود إلى الأمصار وأن السنة من سنيه تكون مقدار عشر سنين ويبلغ سلطانه المشرق والمغرب اهـ.

وقد نقل الإمام المحقق العارف إسماعيل حقي في تفسيره روح البيان ما يفيد تعيين وقت خروجه فقال في تفسير سورة الشورى ما نصه: وقال شَهْرُ بن حَوْشَبٍ رضي الله عنهم: (حٰم عسق) حرب يذل فيه العزيز ويعزّ فيه الذليل من قريش ثم تفضي إلى العرب ثم إلى العجم ثم هي متصلة إلى خروج الدجال.

يقول الفقير: الفتن المتصلة بخروج الدجال بعضها قد مضى وبعضها سيقع فيما بين المائتين بعد الألف، دل عليه (حٰم) وهو ثمان وأربعون والعين وهو سبعون والسين وهو ستون والقاف وهو مائة لأنه قد صح أن الدجال متأخر عن المهدي وأن المهدي يخرج على رأس المائة الثالثة أو على أربعة ومائتين فيقع قبل ظهور المهدي الطامة الكبرى اهـ وفي هذا القدر كفاية والله أعلم.

وآل بيته ﷺ لا يُحْصَون كثرة ومآثرهم وكراماتهم ومكارمهم إلى آخر الزمن فاقت حد الشهرة، وإنما أتينا من فضائلهم على قطرة من بحر تشرّفاً بهم رضي الله عنهم وحبة فيهم وفي جدّهم عليه وعلى آله أفضل الصلاة والسلام، أمدنا الله بإمدادهم وسقانا شربة من صافي شراب ودادهم وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وأزواجه وذريّته كلما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون.

ولما انتهى بنا القول فيما يتعلق بأزواجه ﷺ وذريّته فلنرجع إلى تمام القول في سيرته ﷺ فنقول: ولما بلغ ﷺ خمساً وثلاثين سنة بَنَت قريش الكعبة، فلما وصلوا إلى موضع الحجر الأسود اختلفوا فيمن يضعه موضعه، فرضوا بأن يضعه هو، فوضعه ﷺ بيده. قاله سيدي عبد الرحمٰن الأجهوري في مشارق الأنوار.

من غير جنسهم ما عصى الله قط هو أخص الوزراء وأفضل الأمناء اهـ. قال: وذلك الحافظ هو عيسى، فيكون هو وزيره الأخص في بعض المدة وإن انفرد بعده وهو ليس من جنس الوزراء لأنهم من الأعاجم ـ يعني الفرس وعيسى من بني إسرائيل ـ اهـ.

وللقطب الشعراني في كتابه بهجة النفوس والأسماع قال: أخبرني سيدي حسن العراقي بأنه اجتمع بالإمام المهدي بجامع بني أمية ولقنه الذكر وأمره بصيام يوم وإفطار يوم، وأن يصلي كل ليلة خمسمائة ركعة أبداً ما عاش وأمره أن يسيح في البلاد. قال: فخرجت بعد إلى الشام سائحاً فسحت سبعاً وخمسين سنة حتى وصلت سد الإسكندر ذي القرنين وأمسكت القفل بين يدي إلى أن زال، وقال لي المهدي: عمري الآن مائة وسبع وثلاثون سنة. اهـ فلينظر هذا مع الذي سبق نقله للعلامة الصبان في عمره وكذلك العلامة الشرقاوي.

قال الإمام المقدسي: وقد أنكر قوم ظهور الإمام المهدي محتجين بما شاع عن ألسنة الناس من قولهم: لا مهدي إلاَّ عيسى ابن مريم، وادعوا أنه حديث صحيح، وأصروا على صحته وصمموا على الاحتجاج به على إنكارهم الباطل وادعائهم العاطل مع أنه حديث منكر لا يصح الاستدلال به لمن أمعن في النظر في إسناده وتفكّر. فقد صرَّح بإنكاره الإمام أبو عبد الرحمٰن النسائي وأنه لجدير بذلك، إذ مدار إسناده على محمد بن خالد الجندي عن أبان بن عياش وهو متروك عندهم غير مقبول، وإسناده مقطوع غير موصول، ويؤيد ذلك ما في كتاب العلل المتناهية للإمام أبي الفرج ابن الجوزي في توهين هذا الحديث من كلام الحافظ أبي بكر البيهقي.

وحكى البيهقي عن شيخه الحاكم النيسابوري: وناهيك به معرفة بعلم الحديث وهو على أحوال رواته مطلع أنه قال: الجندي مجهول وابن أبي عياش متروك، وهذا الحديث بهذا الإسناد منقطع.

وقد نقل علماء الحديث في حق الإمام المهدي من الأحاديث ما لا يحصى كثرة وكلها معرضة بذكره ومصرحة، وفي ذلك أدل دليل على ترجيحها على هذا الحديث المنكر عند من كان له بهذا الفن خبرة.

وقد ذكر الإمام الحافظ أبو عبد الله الحاكم في كتابه المستدرك على الصحيحين من ذلك ما فيه غنية. ولما انتهى في كتابه إلى هذه الرواية بيَّن حالها لمن له فهم ودراية فقال: قد ذكرت ما انتهى إليّ من علم هذا الحديث تعجباً لا محتجاً به وهذا غاية في التوهين. ثم قال: فإن أولى من هذا حديث سفيان الثوري وشعبة وزائدة وغيرهم من أئمة المسلمين عن عاصم بن بَهْدَلَة عن زرٌ بن حُبَيْش عن أبي مسعود عن النبي الصادق الأمين أنه قال: «لا تذهب الأيام والليالي حتى يملك رجل من أهل بيتي يواطىء اسمه اسمي

واسم أبيه اسم أبي». وهذا تصريح باسمه وتعيين. وقد قال بعض العلماء الأماثل: إن معنى قوله: «يواطىء»: يشابه ويماثل، فقد اتضح أن المهدي من ولد الزهراء لا ابن مريم كما احتج به من تمسك بهذا الحديث، ولئن سلمت صحته فإنه يحمل على التأويل إذ لا يوجد لإلغاء ما يعارضه من الأحاديث الصحيحة سبيل، ولعل تأويله كتأويل: لا صلاة لجار المسجد إلاَّ في المسجد، إذ ألفاظ الحديثين متقاربة أو غير ذلك من التآويل المحتملة. اهـ ملخصاً من عقد الدرر في أخبار المهدي المنتظر.

قال سيدي عبد الرحمٰن الأجهوري في كتابه مشارق الأنوار في آل بيت النبي الأطهار: ووقع اختلاف في كونه يخرج من جهة الشام أو خراسان أو غير ذلك، وأجمعوا على أن الآيات لا تمتد إلى خمسمائة بعد الألف السابع. ثم قال: وفي بعض الآثار أنه يخرج في وتر من السنين سنة إحدى أو ثلاث أو خمس أو سبع أو تسع، وأنه بعد أن تعقد له البيعة بمكة يسير بها إلى الكوفة ثم يفرق الجنود إلى الأمصار وأن السنة من سنيه تكون مقدار عشر سنين ويبلغ سلطانه المشرق والمغرب اهـ.

وقد نقل الإمام المحقق العارف إسماعيل حقي في تفسيره روح البيان ما يفيد تعيين وقت خروجه فقال في تفسير سورة الشورى ما نصه: وقال شَهْرُ بن حَوْشَب رضي الله عنهم: (حَم عسَق) حرب يذل فيه العزيز ويعزّ فيه الذليل من قريش ثم تفضي إلى العرب ثم إلى العجم ثم هي متصلة إلى خروج الدجال.

يقول الفقير: الفتن المتصلة بخروج الدجال بعضها قد مضى وبعضها سيقع فيما بين المائتين بعد الألف، دل عليه (حَم) وهو ثمان وأربعون والعين وهو سبعون والسين وهو ستون والقاف وهو مائة لأنه قد صح أن الدجال متأخر عن المهدي وأن المهدي يخرج على رأس المائة الثالثة أو على أربعة ومائتين فيقع قبل ظهور المهدي الطامة الكبرى اهـ وفي هذا القدر كفاية والله أعلم.

وآل بيته ﷺ لا يُحْصَون كثرة ومآثرهم وكراماتهم ومكارمهم إلى آخر الزمن فاقت حد الشهرة، وإنما أتينا من فضائلهم على قطرة من بحر تشرّفاً بهم رضي الله عنهم وحبة فيهم وفي جدّهم عليه وعلى آله أفضل الصلاة والسلام، أمدنا الله بإمدادهم وسقانا شربة من صافي شراب ودادهم وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وأزواجه وذريّته كلما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون.

ولما انتهى بنا القول فيما يتعلق بأزواجه ﷺ وذريّته فلنرجع إلى تمام القول في سيرته ﷺ فنقول: ولما بلغ ﷺ خمساً وثلاثين سنة بَنَت قريش الكعبة، فلما وصلوا إلى موضع الحجر الأسود اختلفوا فيمن يضعه موضعه، فرضوا بأن يضعه هو، فوضعه ﷺ بيده. قاله سيدي عبد الرحمٰن الأجهوري في مشارق الأنوار.

وقال في المواهب وشرحه: ولما بلغ ﷺ خمساً وثلاثين سنة خافت قريش أن تنهدم الكعبة من السيول. فأمروا باقوم ـ بموحدة فألف فقاف مضمومة فواو ساكنة فميم ـ ويقال: باقول ـ باللام ـ صحابي، وكان رومياً ثم نسب إلى القبط لحلفٍ ونحوه كما هو ظاهر كلام الإصابة ـ ثم أسلم وصار صحابياً وهو صانع المنبر الشريف على أحد الأقوال، بأن يبني الكعبة المعظمة وذلك أنه كان بسفينة ألقاها الريح بجدة فتحطمت فخرج الوليد بن المغيرة في نفر من قريش إليها فابتاعوا خشبها وأعدّوه لتسقيف الكعبة وكلموا باقوم الرومي في بنائها، فقدم معهم.

وفي التمهيد عن عمرو بن دينار: لما أرادت قريش بناء الكعبة خرجت منها حية فحالت بينهم وبينها فجاء عقاب أبيض فأخذها ورمى بها إلى أجياد اهـ فلما أرادوا أن يضعوا الحجر الأسود اختصموا فيه فقالوا: نحكّم بيننا أول من يخرج من هذه السكة، فكان ﷺ أول من خرج فحكم بينهم أن يجعلوه في ثوب ثم يرفعه من كل قبيلة رجل ـ وذكر الطيالسي: أنهم قالوا نحكم أول من يدخل من باب بني شيبة، فكان ﷺ أول من دخل منه فأخبروه فأمر بثوب فوضع الحجر في وسطه وأمر كل فخذ أن يأخذوا بطائفة من الثوب ـ فرفعوه ثم أخذه فوضعه بيده وحضر ﷺ بناءها وكان ينقل معهم الحجارة اهـ مختصراً من المواهب وشرحه.

وفي كتابنا كنز المطالب في فضل البيت الحرام وفي الحجر والشاذوران وما في زيارة القبر الشريف من المآرب ما نصه:

ونص الإمام القسطلاني على البخاري: وبُنِيَت الكعبة عشر مرات:

الأول: بناء الملائكة، روي أن الله تعالى أمرهم أن يبنوا في كل سماء بيتاً وفي كل أرض بيتاً. قال مجاهد: هي أربعة عشر بيتاً. وروي أن الملائكة حين أسست الكعبة انشقت الأرض إلى منتهاها وقذفت الملائكة فيها حجارة كأمثال الإبل فتلك القواعد من البيت التي وضع عليها إبراهيم وإسماعيل بناءهما.

الثاني: بناء آدم. روي أنه قيل له: أنت أول الناس وهذا أول بيت وضع للناس.

الثالث: بناء ابنه شيث بالطين والحجارة فلم يزل معموراً به وبأولاده ومن بعدهم حتى كان زمن نوح فأغرقه الطوفان وغيَّر مكانه.

الرابع: بناء إبراهيم. وقد كان المبلغ له ببنائه جبريل عن الملك الجليل ومن ثم قيل: ليس في هذا العالم أشرف من الكعبة لأن الآمر ببنائها الملك الجليل والمبلِّغ والمهندس جبريل والباني الخليل والمعين إسماعيل.

الخامس: بناء العمالقة.

السادس: بناء جرهم، والذي بناه منهم الحرث بن مضاض الأصغر.

السابع: بناء قصيّ خامس جد النبي ﷺ.

الثامن: بناء قريش، وحضره النبي ﷺ وهو ابن خمس وثلاثين سنة.

التاسع: بناء عبد الله بن الزبير، وسببه توهين الكعبة من حجارة المنجنيق التي أصابتها حين حوصر ابن الزبير بمكة في أوائل سنة أربع وستين بمعاونة يزيد بن معاوية فهدمها بعد أن استخار واستشار وكان يوم السبت منتصف جمادى الأخرى سنة أربع وستين وبلغ بالهدم قامة ونصفاً حتى وضع قواعد إبراهيم فوجدها كالإبل المسنمة وبعضها متصل ببعض حتى إن من ضرب بالمعول طرف البناء تحرك طرفه الآخر فبناها على قواعد إبراهيم وأدخل فيها ما أخرجته قريش من الحجر ـ بكسر الحاء ـ وجعل لها بابين لاصقين بالأرض أحدهما بابها الموجود الآن، والآخر المقابل له المسدود، وكان ابتداء البناء في جمادى الأخرى وختمه في رجب سنة خمس وستين. ثم ذبح مائة بدنة للفقراء وكساهم.

العاشر: بناء الحجّاج، وكان بناؤه للجدار الذي من جهة الحجر ـ بكسر الحاء ـ والباب الغربي المسدود عند الركن اليماني وما تحت عتبة الباب الشرقي وهو أربعة أذرع وشبر، وترك بقية الكعبة على بناء ابن الزبير واستمر بناء الحجاج إلى الآن.

انتهى ملخصاً، وهذا بحسب ما اطلع عليه رحمه الله تعالى وإلاّ فقد بناه بعد ذلك بعض الملوك سنة ألف وتسع وثلاثين كما نقله بعض المؤرخين. اهـ. وقد نظم العشرة الأولى بعضهم بقوله:

بنى بيت رب العرش عشر فخذهم ... ملائكة الله الكرام وآدم
فشيث فإبراهيم ثم عمالق ... قصيّ قريش قبل هذين جرهم
وعبد الإله ابن الزبير بنى كذا ... بناء الحجّاج وهذا متمم

قال العلامة خليل في مناسكه: ولم يكن للبيت على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر رضي الله عنه محيط به بل فضاء للطائفين وكانت الدور محدقة به وبين الدور أبواب يدخل الناس من كل ناحية، فلما ولي عمر بن الخطاب رضي الله عنه وكثر الناس وسّع المسجد واشترى دوراً هدمها وزاد فيها واتخذ للمسجد جداراً قصيراً دون القامة، وكانت المصابيح توضع عليه فكان عمر رضي الله عنه أول من اتخذ الجدار للمسجد الحرام. فلما تولّى عثمان رضي الله عنه ابتاع منازل ووسّعه بها أيضاً وبنى المسجد والأروقة فكان عثمان رضي الله عنه أول من اتخذ الأروقة. ثم إن ابن الزبير زاد في المسجد زيادة كثيرة واشترى دوراً من جملتها دار الأزرقي بعشرة آلاف دينار ثم عمّره عبد الملك بن مروان ولم يزد فيه لكن رفع جداره وسقفه بالساج، وعمّره عمارة حسنة. ثم إن الوليد بن عبد الملك وسّع المسجد وحمل إليه أعمدة الرخام والحجارة، ثم إن المنصور زاد في

المسجد وبناه وجعل فيه أعمدة الرخام وزاد فيه المهدي بعده مرتين إحداهما بعد سنة ستين ومائة والثانية بعد سنة سبع وستين ومائة، وفيها توفي المهدي. واستمر الأمر على ذلك إلى وقتنا هذا.

وثبت في الصحيحين عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه أنه عليه الصلاة والسلام قال: «إنه أول مسجد وضع في الأرض». قلت: ثم أي؟ قال: «المسجد الأقصى»، قلت: كم بينهما، قال: «أربعون عاماً»[١]. ويستحب إذا جلس فيه أن يتوجّه إلى الكعبة للآثار الكثيرة في فضل النظر إليها اهـ.

وفي الشفاء للقاضي عياض: ولما نظر رسول الله ﷺ إلى الكعبة قال: «مرحباً بك من بيت ما أعظمك وأعظم حرمتك». قال: وفي الحديث عنه عليه الصلاة والسلام: «ما من أحد يدعو الله عند الركن الأسود إلاّ استجاب الله له». قال: «وكذلك عند الميزاب»[٢].

وعنه عليه الصلاة والسلام: «من صلّى خلف المقام ركعتين غفر له ما تقدّم من ذنبه وما تأخر وحُشر يوم القيامة من الآمنين»[٣].

وعن ابن عباس رضي الله عنه: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما دعا أحد بشيء في هذا الملتزم إلاّ استجيب له». قال ابن عباس: فأنا ما دعوت الله بشيء في هذا الملتزم منذ سمعت هذا من رسول الله ﷺ إلاّ استجيب لي[٤].

وذكر الإمام الكرماني في شرحه على البخاري: أن من صلّى ركعتين في حجر إسماعيل ودعا الله وهو واضع جبهته على الحجر المقابل لميزاب الرحمة وكل سجدة خمسة وعشرين مرة، فالجملة مائة، إلاّ استجيب له اهـ والله أعلم. وصلّى الله على سيّدنا محمد كلما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون.

ولما بلغ ﷺ أربعين سنة على الصحيح، كما قال السهيلي: قال النووي: وهو الصواب. بعثه الله تعالى رحمة للعالمين ورسولاً إلى كافة الثقلين أجمعين يوم الاثنين لسبع عشرة خلت من شهر رمضان، وقيل: لأربع وعشرين، وكون البعث في رمضان كما هو قول الأكثر والمشهور عند الجمهور واستدل القائلون بأنه في رمضان وإن اختلفوا في تعيين اليوم، بقوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْءَانُ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٨٥] أي ابتدأ إنزاله فيه، قالوا: أول ما أكرمه الله تعالى بنبوّته أنزل عليه القرآن وهو إنما أُنزل في

(١) رواه البخاري (٣/ ١٢٣١)، ومسلم (١/ ٣٧٠).
(٢) أورده الحسن بن يسار في فضائل مكة (ص ٢٦).
(٣) رواه البخاري (١/ ١٥٤، ٣٩٨)، (٢/ ٥٨٠)، ومسلم (٢/ ٩٠٦)، (٤/ ١٩٢٣).
(٤) رواه عبد الرزاق في المصنف (٥/ ٧٦).

رمضان، فيكون ابتداء نزوله فيه.

وروى أحمد وابن جرير والطبراني والبيهقي عن واثلة مرفوعاً: أنزلت صحف إبراهيم في أول ليلة من رمضان وأنزلت التوراة لست مضين من رمضان، وأنزل الإنجيل لثلاث عشرة خلت من رمضان، وأنزل الزبور لثمان عشرة خلت من رمضان، وأنزل الله القرآن لأربع وعشرين خلت من رمضان»[١].

قال الحافظ في الفتح[٢]: هذا الحديث مطابق لقوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ [البقرة: الآية ١٨٥]، ولقوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١﴾ [القدر: الآية ١] فيحتمل أن تكون ليلة القدر في تلك السنة كانت تلك الليلة فأنزل فيها جملة إلى سماء الدنيا ثم أنزل في اليوم الرابع والعشرين ـ أي صبيحتها ـ إلى الأرض أول ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ [العلق: الآية ١] اهـ ملخصاً من المواهب وشرحه.

قال خاتمة الحفاظ الإمام السيوطي في كتابه الإتقان[٣]: اختلف في أول ما نزل من القرآن على أقوال:

أحدها: وهو الصحيح، ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ [العلق: الآية ١].

روى الشيخان وغيرهما عن عائشة قالت: «أول ما بدىء به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم»[٤] الحديث.

القول الثاني: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١﴾ [المدثر: الآية ١]، قال: روى الشيخان عن أبي سلمة بن عبد الرحمٰن: سألت جابر بن عبد الله: أيّ القرآن أنزل قبل، قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١﴾ [المدثر: الآية ١]، قلت: أو ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ [العلق: الآية ١]، قال: أحدثكم ما حدثنا به رسول الله ﷺ قال رسول الله ﷺ: «إني جاورت بحراء فلما قضيت جواري نزلت فاستبطنت الوادي فنظرت أمامي وخلفي وعن يميني وشمالي ثم نظرت إلى السماء فإذا هو ـ يعني جبريل ـ فأخذتني رجفة، فأتيت خديجة فأمرتهم فدثروني فأنزل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾ [المدثر: الآيتان ١، ٢]»[٥].

وأجاب الأول عن هذا الحديث بأجوبة، **أحدها**: أن السؤال كان عن نزول سورة كاملة فبين أن سورة المدثر نزلت بكمالها قبل نزول تمام سورة (اقرأ) فإن أول ما نزل

---

(١) رواه الطبري في تفسيره (٢٥/١٠٧)، (٣٠/١٥٩)، وأبو يعلى في مسنده (٤/١٣٥)، وأحمد في المسند (٤/١٠٧)، والطبراني في الكبير (٢٢/٧٥)، وفي الأوسط (٤/١١١).

(٢) انظر: فتح الباري (٩/٥)، وفيض القدير (٣/٥٧).

(٣) انظره فيه (١/٧٤).

(٤) رواه البخاري (١/٤)، (٦/٢٥٦١)، ومسلم (١/١٣٩، ١٤٢).

(٥) رواه مسلم (١/١٤٤).

منها صدرها، ويؤيد هذا ما في الصحيحين أيضاً عن أبي سلمة عن جابر: سمعت رسول الله ﷺ وهو يحدث عن فترة الوحي فقال في حديثه: «بينما أنا أمشي سمعت صوتاً من السماء، فرفعت رأسي فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والارض فرجعت فقلت: زملوني زملوني، فدثروني، فأنزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝١﴾ [المدثر: الآية ١]. فقوله: «الملك الذي جاءني بحراء»[1] يدل على أن هذه القصة متأخرة عن قصة حراء التي نزل فيها ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ [العلق: الآية ١].

ثانيها: أن مراد جابر بالأولية أولية مخصوصة بما بعد فترة الوحي لا أولية مطلقة.

ثالثها: أن المراد أولية مخصوصة بالأمر بالإنذار. وعبر بعضهم عن هذا بقوله: أول ما نزل للنبوّة ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ [العلق: الآية ١] وأول ما نزل للرسالة ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝١﴾ [المدثر: الآية ١] اهـ.

قال في المواهب: وقيل كان ابتداء المبعث في رجب. وروى البخاري في كتاب التعبير من صحيحه وفي التفسير وفي بدء الوحي والإيمان، لكن سياق ما في التعبير أتم لأنه ذكر الحزن والتردي إلى آخر الحديث من حديث عائشة رضي الله عنها: «أول ما بديء به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلاَّ جاءت مثل فلق الصبح. وكان يأتي حراء فيتحنث فيه، وهو التعبد، الليالي ذوات العدد ويتزود لذلك ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى فَجِئَهُ الحق وهو في غار حراء فجاءه الملك فيه فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارىء. فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجَهْدُ، ثم أرسلني فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارىء. فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فغطني فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارىء، فأخذني فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١﴾ [العلق: الآية ١] حتى بلغ ﴿مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: الآية ٥] فرجع بها ترجف بوادره حتى دخل على خديجة فقال: زملوني زملوني. فزملوه حتى ذهب عنه الروع فقال: يا خديجة ما لي. وأخبرها الخبر، وقال: قد خشيت عليّ، فقالت له: كلا أبْشِر فوالله لا يخزيك الله أبداً إنك لتصل الرَّحِمَ وتصدق الحديث وتحمل الكَلّ وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق. ثم انطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصيّ وهو ابن عم خديجة أخي أبيها وكان امرءاً تنصّر في الجاهلية وكان يكتب الكتاب العربي فيكتب بالعربية من الإنجيل ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عمي، فقالت له خديجة: أي ابنَ عمّ اسمع من ابن أخيك، فقال ورقة: ابن أخي ماذا ترى، فأخبره النبي ﷺ ما رأى، فقال

---

(١) رواه البخاري (١/ ٤٦٦)، (٣/ ١١٨٠)، (٤/ ١٨٧٤، ١٨٧٥)، ومسلم (١/ ١٤٣).

ورقة: هذا الناموس الذي أنزل على موسى يا ليتني فيها جَذَعاً ليتني أكون حيّاً حين يخرجك قومك. فقال رسول الله ﷺ: أو مُخْرِجيَّ هُمْ، فقال ورقة: نعم لم يأت رجل قط بما جئت به إلاَّ عودي وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً. ثم لم ينشب ورقة أن توفي وفتر الوحي فترة حتى حزن النبي ﷺ فيما بلغنا حزناً غدا منه مراراً كي يتردى من رؤوس شواهق الجبال، فكلما أوفى بذروة جبل لكي يلقي نفسه تبدى له جبريل فقال: يا محمد إنك رسول الله حقاً. فيسكن لذلك جأشُهُ وتقرّ نفسه فيرجع، فإذا طالت عليه فترة الوحي غدا لمثل ذلك فإذا أوفى بذروة جبل تبدى له جبريل فقال له مثل ذلك».

وقد تكلم العلماء في معنى قوله عليه السلام لخديجة: «قد خشيت عليّ» فذهب الإسماعيلي إلى أن هذه الخشية كانت منه قبل أن يحصل له العلم الضروري بأن الذي جاءه ملك من عند الله. وقوله: «ما أنا بقارىء» أي إني أمّي فلا أقرأ الكتب فما نافية لا استفهامية.

قال السهيلي: فلما قال ذلك ثلاثاً قيل له: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ [العلق: الآية ١] أي لا بقوتك ولا بمعرفتك لكن بحول ربك وإعانته.

وقال القاضي عياض وغيره: إنما ابتدىء عليه السلام بالرؤيا لئلا يفجأه الملك ويأتيه صريح النبوة بغتة فلا تحتملها قوى البشر فبدىء بأوائل خصال النبوّة وتباشير الكرامة من المرائي الصادقة الصالحة الدالة على ما يؤول إليه أمره اهـ.

فإن قلت: من أين عرف ﷺ أن جبريل ملك من عند الله وليس من الجن.

فالجواب: من وجهين، أحدهما: أن الله تعالى أظهر على يدي جبريل عليه السلام معجزات عرفه بها كما أظهر الله تعالى على يدي محمد ﷺ معجزات عرفناه بها.

وثانيهما أن الله خلق في محمد ﷺ علماً ضرورياً بأن جبريل من عند الله ملك لا جني ولا شيطان، كما أن الله تعالى خلق في جبريل علماً ضرورياً بأن المتكلم معه هو الله سبحانه وتعالى وأن المرسل له ربه تعالى لا غيره اهـ مختصراً من المواهب وشرحه.

واعلم أنه اختلف هل النبوة والرسالة مقترنتان على رأس الأربعين أو الرسالة متأخرة بعد فترة الوحي، وقد نقلنا في كتابنا الفيض الرحماني على شرح العلامة الزرقاني للعزية في فقه السادة المالكية ما نصه: بدأ الله كتابه بها - أي البسملة - اقتداء بالكتاب العزيز - أعني في اللوح أو بعد جمعه وترتيبه - فلا يرد أنها ليست أول ما أنزل على التحقيق وإن قيل به فإن ابتداء النبوة بنزول الوحي بـ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ [العلق: الآية ١] وابتداء الرسالة بعدها بثلاث سنين. وقيل: بسنتين ونصف، بـ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝١﴾ [المدثر: الآية ١] جرياً على عدم اقتران النبوة والرسالة وأنه كان زمن فترة الوحي نبياً فقط، وهذا الذي يستفاد من العلامة الصبان في سيرته، وشهر العلامة الأمير الاقتران قال بعض

المحققين: وهو المعتمد قال: أي اقرأ على قومك فآية المدثر بيان للمقرأ لا ابتداء إرسال، وأما نهايتها فقال العارف الشعراني في اليواقيت: أما الرسالة فلدخول الجنة أو النار، وأما النبوة فهي اصطفاء وهو لا يقطع في الآخرة. قال: والإرسال يرجع للتكليف وهو ينقطع في الآخرة وتعقبه العلامة الأمير علي عبد السلام بقوله: والنظر الظاهر أنهما باعتبار الإيحاء الشرعي بالفعل ينقطعان بالموت وباعتبار المزايا المترتبة عليهما باقيان اهـ.

قلت: وإذا أمعنت النظر وجدت هذا لا يخالف ما نظر إليه العارف من ارتباط الرسالة بالخلق ولو بعد الموت فإن تعلقها بهم لا ينقطع بمجرد الموت، ألا ترى حديث البخاري من شهادة هذه الأمة للرسل على أممهم الماضية بالتبليغ حين يقع منهم إنكار إرسالهم إليهم كما حكاه الباري لنبيه عنهم في الكتاب العزيز من قولهم: ﴿مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ [المائدة: الآية ١٩] وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ﴾ [البقرة: الآية ١٤٣] الآية.

نعم، بالموت ينقطع طلب التكليف وانقطاع الوحي بالموت عن كل منهما غني عن البيان وثبوت دوام الاصطفاء والمزايا لكلّ جليّ البرهان لا سيما والنبوّة أعم والرسالة أخص والأعم جزء الأخص وحينئذ فدوام الاصطفاء في ضمن الرسالة ثابت. تأمل منصفاً اهـ.

قال الإمام العارف الكبير والقطب الشهير سيدي عبد الرؤوف المناوي في طبقاته الكبرى ما نصه: ولما قربت أيام الوحي أحب الخلوة والانفراد، فكان يختلي في جبل حراء بالذكر وزعْمُ أنه كان بالفكر لا التفات إليه لأن خلوة طلاب طريق الحق على أنواع:

الأول: أن تكون لطلب مزيد علم من الحق لا بطريق النظر والفكر، وهذا غاية مقاصد أهل الحق لأن من خاطب في خلوته كوناً من الأكوان أو فكر فيه فليس في خلوة. قال رجل لبعض الأكابر: اذكرني عند ربك في خلوتك، قال: إذا ذكرتك فلست معه في خلوة، وشرط هذه الخلوة أن يذكر بنفسه وروحه لا بنفسه ولسانه.

الثاني: أن تكون خلوتهم لصفاء الفكر ليصح نظرهم في طلب المعلومات وهذه لقوم يطلبون العلم من ميزان العقل، وذلك الميزان في غاية اللطافة وهو باد في هوى يخرج عن الاستقامة وطلاب طريق الحق لا يدخلون هذه الخلوة بل خلوتهم بالذكر وليس للفكر عليهم سلطان، ومهما وجد الفكر طريقاً إلى صاحب هذه الخلوة فليعلم أنه ليس من أهلها فيخرج منّها وأنه ليس من أهل العلم الصحيح الإلٰهي إذ لو كان من أهله حالت العناية الإلٰهية بينه وبين دوران رأسه بالفكر.

الثالث: خلوة لدفع الوحشة من مخالطة غير الجنس والشغل بما لا يعني.

الرابع: خلوة لطلب زيادة توجد فيها وخلوة حضرة الرسالة من النوع الأول، فكان بعيداً من المخالطات حتى من الأهل والمال واستغرق في بحر الأذكار القلبية فانقطع عن الأضداد بالكلية وظهَرَ له الأنس والجلوة بتذكر من له الخلوة، ولم يزل في ذلك الأنس ومرآة الوحي تزداد من الصفاء والصقال حتى بلغ أقصى درجات الكمال فظهرت تباشير صبح الدجا وأشرقت وانتشرت بروق السعادة، وتألقت فصار لا يمر بشجر ولا حجر إلاّ قال بلسان فصيح: السلام عليك يا رسول الله. فينظر يميناً وشمالاً فلا يرى شبحاً ولا خيالاً، فبينما هو كذلك وذلك عند مضي أربعين عاماً من عمره قائم على جبل حراء إذ ظهر له شخص فقال: أبشر يا محمد أنا جبريل وأنت رسول الله لهذه الأمة، ثم أخرج له قطعة نمط[1] من حرير مرصعة بجوهر فوضعها في يده وقال: اقرأ، فقال: ما أنا بقارىء، فضمه وغطه حتى بلغ منه الجهد ثم قال: اقرأ، فقال: ما أنا بقارىء. فغطه كذلك ثلاثاً ثم قال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ [العلق: الآية ١] إلى قوله: ﴿مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: الآية ٥] ثم قال: انزل من على الجبل، فنزل معه إلى الأرض فأجلسه على دُرْنُوك[2] أبيض وعليه ثوبان أخضران ثم ضرب برجله الأرض فنبعت عين ماء فتوضأ جبريل وأمره أن يفعل كفعله ثم أخذ كفاً من ماء فرشّ به وجه الرسول ثم صلّى به ركعتين وقال: الصلاة هكذا، وغاب. فرجع إلى مكة وقص على خديجة وقال: «قد خشيت على نفسي» فثبتته وصدقته فكانت أول من آمن ثم أتت به ورقة بن نوفل فقص عليه ما رأى فصدقه فكان أول رجل آمن، وقال: هذا الناموس الذي أنزل على موسى، ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك، قال: أو مخرجيّ هم، قال: نعم، ما جاء أحد بمثل ما جئت به إلاّ عودي. ثم أسلم عليّ وأبو بكر.

أقام ﷺ بمكة ثلاث عشرة سنة يدعو الناس إلى الدين وكان يستقبل في صلاته بيت المقدس، ثم بعد الهجرة حولت القبلة للكعبة اهـ ما قاله المناوي.

قال العلامة الصبان: ولما نزل عليه ﷺ ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝١﴾ [المدثر: الآية ١] صار يدعو الناس إلى الله تعالى خفية لعدم الأمر بالإظهار، وكان من أسلم إذا أراد الصلاة ذهب إلى بعض الشعاب ليستخفي بصلاته من المشركين حتى اطلع نفر من المشركين على سعد بن أبي وقاص في نفر من المسلمين وهم يصلون في بعض الشعاب فناكروهم وعابوا عليهم ما يصنعون وقاتلوهم، فضرب سعد رجلاً منهم فشجه، وهو أول دم أهريق في الإسلام، فعند ذلك دخل ﷺ هو وأصحابه في دار الأرقم مستخفين بصلاتهم

---

(١) قوله نمط بفتح النون والميم وبالطاء نوع من البسط اهـ.

(٢) قوله درنوك بضم الدال وسكون الراء وضم النون وسكون الواو بساط صغير اهـ.

وعبادتهم إلى أن أمره الله تعالى بإظهار الدين وهدي عمر بن الخطاب إلى الإسلام بعد إسلام حمزة بن عبد المطلب بثلاثة أيام سنة ست على الراجح، وكانت مدة إخفائه ثلاث سنين وفي هذه المدة كانت قريش تؤذيه ﷺ وتؤذي من آمن به حتى عذبوا جماعة من المستضعفين عذاباً شديداً كبلال وخباب بن الارت وعمار بن ياسر وأبيه وأمه سُمَيّة وأخيه عبد الله ثم مات ياسر في العذاب وطعن أبو جهل سميّة سنة خمس بحربة في فرجها فماتت، فهي أول شهيدة في الإسلام. ولكثرة إيذائهم المسلمين هاجر جمع منهم إلى الحبشة بإشارته ﷺ فأكرمهم النجاشي منهم عثمان بن عفان وزوجته رقية بنت رسول الله ﷺ وعند بلوغ خروجهم قريشاً خرجوا في أثرهم فلم يجدوا أحداً منهم وهذه هي الأولى من هجرتي الحبشة وكانت في رجب سنة خمس من النبوة.

ثم بعد مكثهم هناك دون ثلاثة أشهر رجع كثير منهم عندما بلغهم عن المشركين سجودهم مع رسول الله ﷺ عند قراءة سورة (النجم) وظنوا إسلامهم.

ولما جهر بالدعاء إلى الله تعالى وتضليل ما عليه المشركون وفشا الإسلام وكثر القرآن مشى كفار قريش إلى عمه أبي طالب يشكون ما يسمعون منه من سب آلهتهم وذم دينهم، وتكرر ذلك وهو يذب عنه. وفي آخر المرات قالوا: أعطنا محمداً نقتله وخذ بدله عمارة بن الوليد، فقال: أكفل ابنكم وأعطيكم ابني ليقتل هذا لا يكون.

ولما رأى أبو طالب من قريش ما رأى دعا بني هاشم وبني المطلب إلى ما هو عليه من الذب عنه ﷺ فأجابوه إلى ذلك غير أبي لهب فكان من المجاهرين بالظلم له ﷺ ولكل من آمن.

فلما علمت قريش أن أبا طالب لا يسلمه لهم زادوا في إيذائه وإيذاء من أسلم معه وأجمع رأيهم أن يقولوا: هو ساحر، وجلسوا في الطريق يحذرون الناس منه، وكلما شاع أمره وسار ذكره زادوا في الإيذاء والبغي. ثم اجتمعوا وقالوا لقومه: خذوا منا ديّة مضاعفة ويقتله رجل من غير قريش وتريحوننا وتريحوا أنفسكم، فأبى بنو هاشم وبنو المطلب فاجتمعت قريش على منابذتهم وإخراجهم من مكة إلى شعب أبي طالب فلما دخلوا الشعب مؤمنهم وكافرهم غير أبي لهب، وذلك سنة سبع من النبوة، أمر ﷺ من كان بمكة من المسلمين أن يخرجوا إلى أرض الحبشة، فانطلق إليها غالب المؤمنين فكانوا اثنين وثمانين رجلاً وثماني عشرة امرأة، وهذه هي الثانية من هجرتي الحبشة.

فلما بلغ ذلك قريشاً بعثوا عمارة بن الوليد وعمرو بن العاص، وكان إذ ذاك لم يسلم، بهدايا إلى النجاشي ليرد من هاجر إليه، فلم يرض وردهما بالهدايا واجتمعت قريش على أن لا يبايعوا بني هاشم وبني المطلب ولا يناكحوهم ولا يدخلوا إليهم شيئاً من الرزق ويقطعوا عنهم الأسواق ولا يقبلوا منهم صلحاً ولا تأخذهم بهم رأفة حتى

يسلموا رسول الله ﷺ للقتل، وكتبوا بذلك صحيفة وعلقوها في جوف الكعبة وتمادوا على العمل بما فيها ثلاث سنين فاشتد البلاء على من في الشعب.

فلما كان رأس الثلاث سنين بعث الله على صحيفتهم الأرضة فأكلت ما في الصحيفة من ميثاق وعهد وتركت اسم الله تعالى، وقيل بالعكس، وجمع بجواز تعدد الصحيفة فأطلع الله تعالى على ذلك رسوله ﷺ فأخبر بذلك عمه أبا طالب فانطلق أبو طالب في عصابة حتى أتوا المسجد، فلما رأتهم قريش ظنوا أنهم خرجوا من شدة البلاء ليسلموا رسول الله ﷺ، فقال أبو طالب: إنما أتيت في أمر هو نصفٌ بيننا وبينكم إن ابن أخي أخبرني بأمر فإن كان الحديث كما يقول فلا والله لا نسلمه حتى نموت من عند آخرنا وإن كان الذي يقول باطلاً دفعنا لكم صاحبنا فقتلتم أو استحييتم. وأخبرهم الخبر، فقالوا: رضينا الذي تقول. ففتحوا الصحيفة فوجدوها كما قال فقالوا: هذا سحر ابن أخيك، وزادهم ذلك بغياً، ثم مشى في نقض الصحيفة قوم وأخرجوا بني هاشم وبني المطلب من الشعب.

وروي أن يد كاتبها شلّت. ثم مات أبو طالب فخديجة في عام واحد، فتتابعت على رسول الله ﷺ مصيبتان وكان موتهما قبل الهجرة بثلاث سنين وكان ﷺ سمى ذلك العام: عام الحزن.

ولما مات أبو طالب نالت قريش من النبي ﷺ من الأذى ما لم تكن تطمع فيه في حياة أبي طالب فخرج وحده، وقيل: معه مولاه زيد بن حارثة، إلى الطائف يلتمس النصرة من ثقيف فلم يجد منهم ذلك وأغروا به عبيدهم وسفهاءهم يسبونه ويصيحون به ويضربونه بالحجارة حتى أدموا رجليه. فلما انصرف عنهم أرسل الله إليه جبريل ومعه ملك الجبال فقال له: «إن شئت أطبقت عليهم الأَخْشَبَيْن»[1] وهما جبلا مكة، أي بعد نقلهما إلى الطائف. وقيل: الضمير إلى أهل مكة لأنهم سبب ذهابه إلى ثقيف، فقال عليه الصلاة والسلام: بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله تعالى لا يشرك به شيئاً. قال له ملك الجبال: أنت كما سماك ربك رؤوف رحيم. ثم سار إلى حراء وبعث إلى المطعم بن عدي ليخبره فأجابه لذلك وتسلح هو وأهل بيته وخرجوا حتى أتوا المسجد فبعث إلى النبي ﷺ أن ادخل، فدخل عليه الصلاة والسلام فطاف بالبيت وصلى عنده ثم انصرف إلى منزله.

وفي رجوعه ﷺ من الطائف مرّ به نفر من جن نصيبين وهو يقرأ سورة (الجن) فاستمعوا له وآمنوا به ولم يشعر بهم ﷺ حتى نزل عليه ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾

(١) رواه البخاري (٣/ ١١٨٠)، ومسلم (٣/ ١٤٢٠).

[الأحقاف: الآية ٢٩] الآية، وكانوا سبعة، وقيل: أكثر. ووقع له ﷺ في مكة بعد هذه المرة مرتين أو ثلاثاً اجتماعه بالجن وقراءته القرآن عليهم وإيمانهم به، ومرّ به في ابتداء البعث أيضاً جماعة من الجن وهو يقرأ فاستمعوا له وآمنوا به ولم يشعر بهم حتى نزلت عليه سورة (الجن). وقيل: شعَرَ بهم في هذه المرة واجتمع بهم.

ثم صار ﷺ يعرض نفسه في كل موسم على قبائل العرب ويدعوهم إلى الله تعالى ويطلب منهم أن يؤْوه وينصروه ويمنعوا قريشاً من تظاهرهم عليه فيعرضون عنه. فبينما هو كذلك في بعض المواسم عند عقبة الجمرة سنة احدى عشرة من النبوة إذ لقي رهطاً من الخزرج أراد الله تعالى بهم خيراً فكلمهم ودعاهم إلى الله تعالى فأجابوه وانصرفوا راجعين إلى بلدهم من غير مبايعة، وهؤلاء أهل العقبة الأولى وكانوا ستة، وقيل: ثمانية.

فلما كان العام المقبل قدم مكة من الأنصار اثنا عشر رجلاً، اثنان من الأوس وعشرة من الخزرج منهم خمسة من أهل العقبة الأولى، فبايعهم ـ أي عاهدهم ـ رسول الله ﷺ عند العقبة على الإسلام وعلى أن يؤووه وينصروه ويمنعوه مما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم ثم انصرفوا راجعين إلى بلدهم، وهؤلاء هم أهل العقبة الثانية. وبعث ﷺ إلى المدينة عبد الله بن أم مكتوم ومصعب بن عمير يعلمان من أسلم القرآن ويدْعُوَانِ من لم يسلم إلى الإسلام، وفي بعض الروايات: الاقتصار على ذكر مصعب. وكان مصعب يؤم بهم وجمّع بهم أول جمعة في الإسلام حين بلغ المسلمون منهم أربعين رجلاً بإرساله ﷺ إليه بالتجميع. قال أبو حامد: ولم يفعلها ﷺ بمكة مع فرضها وهو بمكة لعدم التمكن من فعلها بمكة.

قال الحلبي: ولم يأمر بها مصعب عند إرساله إلى المدينة لعدم وجود شرطها من العدد المذكور حينئذ.

وفشا الإسلام بالأنصار وأسلم سعد بن معاذ سيّد الأوس، وسعد بن عبادة سيد الخزرج.

وفي هذا العام، وهو سنة اثنتي عشرة من النبوة أسري بالنبي ﷺ إلى المسجد الأقصى فأمّ بالأنبياء وعرَج به إلى السماوات فما فوق يقظة ليلة السبت لسبع وعشرين خلت من ربيع الأول، وقيل: من رجب، وعليه العمل الآن، وقيل غير ذلك. وأما مناماً فوقع له ذلك ثلاثاً وثلاثين مرة على ما ذكره سيدي عبد الوهاب الشعراني.

وفرضت عليه في تلك الليلة الصلوات الخمس، قيل: كما هي الآن في عدد الركعات وهو الأصح، وقيل: ركعتين ركعتين، ثم فرض عام الهجرة إتمام الرباعية أربعاً والثلاثية ثلاثاً في الحضر، وكانت الصلاة أول الإسلام ركعتين بالغداة. قال الحلبي: أي

قبل طلوع الشمس وركعتان بالعشي. قال الحلبي: أي قبل غروب الشمس، والأكثر على أن البداءة بصلاة ظهر اليوم التالي لتلك الليلة ولم يبدأ بصلاة صبحه لعدم العلم بكيفيتها المعلق عليه الوجوب. وقيل: بصلاة صبحه.

قال الحلبي: كانت صلاته قبل فرض الصلوات الخمس إلى الكعبة وبعده إلى البيت المقدس جاعلاً الكعبة بينه وبين بيت المقدس ليكون مستقبلاً لها أيضاً لكن لما قدم المدينة لم يمكنه هذا الجعل فشق عليه استدبار الكعبة، فهذا سبب تحويل القبلة، وسنتكلم عليه.

وشق في تلك الليلة صدره الشريف ورأى في تلك الليلة ربّه بعيني رأسه على الصحيح، وكلّمه. ورؤية الله تعالى في الدنيا من خصوصياته ﷺ وهي مستحيلة شرعاً على غيره.

ولما أصبح أخبر الناس فكذَّبه الكفار وسألوه عن صفة بيت المقدس ولم يكن رآه قبل، فرفعه جبريل حتى وصفه لهم.

ثم في سنة ثلاث عشرة من النبوة رجع مصعب بن عمير إلى مكة وخرج من خرج من مسلمي الأنصار إلى الموسم مع حجاج قومهم من أهل الشرك، فلما قدموا مكة واعدوا رسول الله ﷺ العقبة وسط أيام التشريق، فلما كانت ليلة الميعاد ذهبوا ينتظرونه، فجاءهم وبايعهم على الإسلام وعلى أن يؤووه وينصروه ويمنعوه مما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم وجعل منهم اثني عشر نقيباً، ثلاثة من الأوس وتسعة من الخزرج، وهؤلاء هم أهل العقبة الثالثة، وكانوا ثلاثة وسبعين رجلاً وامرأتين منهم أحد عشر من الأوس والباقي من الخزرج. فلما تمت بيعة هؤلاء لرسول الله ﷺ وكانت سراً عن كفار قومهم وكفار قريش صاح الشيطان: يا معشر قريش هؤلاء بنو الأوس والخزرج تحالفوا مع محمد على قتالكم فأسرع الأنصار إلى رحالهم وجاءت أشراف قريش إلى شعب الأنصار يلومونهم على ذلك، فصار مشركو الأوس والخزرج يحلفون لهم ما كان من هذا شيء، ثم نفر الناس من منى وبحثت قريش عن الخبر فلما تحققوا اقتفوا آثارهم فلم يدركوا إلّا سعد بن عبادة والمنذر بن عمرو، فأما سعد فأمسك وعذِّب ثم أنقذه الله تعالى. وأما المنذر فأفلت.

ولما قدم الأنصار المدينة أظهروا الإسلام إظهاراً كلياً وأمر عليه الصلاة والسلام من كان معه بالهجرة إلى المدينة فخرجوا أرسالاً ـ أي قطائع سراً ـ إلاّ عمر بن الخطاب فإنه أعلن بالهجرة ولم يمنعه أحد من الكفار ولا قصد، بسوء فلما قدموا المدينة أنزلهم الأنصار في دورهم وواسوهم وأقام ﷺ ينتظر أن يؤذن له في الهجرة ولم يتخلف معه بعد من حبس ومن عجز إلاّ أبو بكر وعليّ، فلما رأت قريش أن رسول الله ﷺ قد صارت له

شيع وأصحاب من غيرهم بغير بلدهم ورأوا خروج شيعة أصحابه من المهاجرين إليهم تحذروا خروجه ﷺ إليهم، فاجتمعوا في دار الندوة ليروا فيه رأياً ودخل معهم إبليس في صورة شيخ جليل متطيلساً زاعماً أنه من أهل نجد، فقال بعضهم لبعض: إن هذا الرجل قد كان من أمره ما رأيتم وإنّا والله ما نأمنه من الوثوب علينا بمن تبعه من غيرنا. فأجمعوا فيه رأياً فأشار بعضهم بحبسه في الحديد وبعضهم بإخراجه من بلادهم فلم يرض بهما إبليس. فقال أبو جهل: والله إن لي فيه رأياً ما أراكم وقعتم عليه. قالوا: وما هو يا أبا الحكم، قال: أرى أنّا نأخذ من كل قبيلة فتى شاباً جَلْداً نسيباً وسيطاً ثم نعطي كل فتى منهم سيفاً صارماً ثم يعمدوا إليه فيضربوه ضربة رجل واحد فيقتلوه فنستريح منه فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه في القبائل جميعاً، فلم تقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعاً فيرضوا منا بالفعل الذي فعلنا. فقال إبليس: هذا هو الرأي ولا أرى غيره. فتفرّق القوم على ذلك.

فأتى جبريل عليه السلام النبي ﷺ فقال له: لا تبت هذه الليلة على فراشك الذي كنت تبيت عليه. وأخبره بمكرهم وأنزل الله عليه ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [الأنفال: الآية ٣٠] الآية. فلما جن الليل اجتمعوا على بابه يرصدونه حتى ينام فيثبوا عليه، فلما رأى عليه الصلاة والسلام مكانهم قال لعلي: نم على فراشي وتسجّ بردائي فإنه لن يخلص إليك شيء تكرهه منهم. وخرج عليهم النبي ﷺ وأخذ حفنة من تراب فجعل ينثر على رؤوسهم وهو يتلو هذه الآيات ﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢﴾ [يس: الآيتان ١، ٢] إلى قوله: ﴿فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يس: الآية ٩] وأخذ الله تعالى أبصارهم عنه فلم يروه، ثم انصرف إلى بيت أبي بكر فأتاهم آت فقال: ما تنتظرون ها هنا، قالوا: محمداً، فقال: قد خيبكم الله قد والله خرج عليكم محمد ثم ما ترك منكم رجلاً إلاَّ وضع على رأسه تراباً، فوضع كل منهم يده على رأسه فإذا عليه تراب ثم جعلوا ينظرون إلى الفراش فيظنون النائم عليه محمداً ﷺ ولم يزالوا كذلك حتى أصبحوا وقام عليّ من الفراش فتيقّنوا الخبر.

ثم أذن لرسول الله ﷺ في الهجرة، فخلف علياً ليؤدي عنه الودائع وأصحب معه أبا بكر وأعدّ أبو بكر ناقتين لهجرتهما لكن أبى ﷺ أن يأخذ إحداهما إلاَّ بثمنها لتكون هجرته إلى الله تعالى بنفسه وماله وإلاَّ فقد أنفق أبو بكر أكثر ماله عليه ﷺ. وانطلقا ليلاً ماشيين حتى أتيا غاراً بثور فتواريا فيه ثلاث ليال[1].

قيل: لما دخل أبو بكر الغار صار يلتمس بيده، فكلما رأى جحراً شق قطعة من

(١) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٢٢٣).

ثوبه وسدّها حتى فعل ذلك بجميع ثوبه فبقي جحر كان به حية فوضع عقبه عليه فلما أحست بعقبه لدغته فتحدرت دموعه على رسول الله ﷺ لأن رأسه كان في حجر أبي بكر فاستيقظ فقال: مالك يا أبا بكر، فأخبره فتفل على محل اللدغة فذهب ما يجده. وفي هذه الليالي كان عبد الله بن أبي بكر يمكث نهاره مع قريش ويأتيهما ليلاً بخبر ذلك اليوم، وكانت أسماء بنت أبي بكر تأتيهما ليلاً بما يحتاجانه من الطعام والشراب، وكان عامر بن فهيرة غلام أبي بكر يغدو ويروح عليهما بغنم لأبي بكر ليشربا من لبنها ويخفي بمشيها في محل مشي عبد الله وأسماء أثر أقدامهما وكل ذلك بإشارة أبي بكر.

وتطلبتهما قريش حين فقدتهما من مكة فأعماهم الله تعالى عنهما مع كونهم انتهوا بالقائف إلى الغار وحزن عند ذلك أبو بكر خوفاً على رسول الله ﷺ فقال له عليه الصلاة والسلام: «لا تحزن إن الله معنا». وسبب عماهم أن الله تعالى أمر العنكبوت فنسجت على فم الغار نسجاً متراكماً وأمر حمامتين وحشيتين فوقفتا ببابه. وروي أنهما باضتا وفرّخ بعض البيض، فلما رأوا ذلك جزموا بأن لا أحد فيه.

قيل: وجميع حمام الحرم من هاتين الحمامتين.

وروي أن الله تعالى أمر شجرة أيضاً فنبتت في وجه الغار وسدته بفروعها وكانا قد استأجرا رجلاً يدلهما على الطريق وأوعداه أن يأتي براحلتيهما إلى الغار بعد ثلاث فأتاهما فركبا وانطلق معهما عامر بن فهيرة يعقبانه حتى مروا بخيمة أم مَعْبَد عاتكة وهي لا تعرفهم فاستسقوها لبناً فقالت: ما عندي، فنظر المصطفى ﷺ إلى شاة قد أضرّ بها الجَهْد وما بها لبن فمسح ضرعها فحلبت وشربوا وصارت هذه الشاة من حينئذ كثيرة اللبن وبقيت إلى سنة ثماني عشرة وقيل سبع عشرة من الهجرة، ثم ساروا وقد كانت قريش جعلت لكل من قتل واحداً منهما أو أسره دية، فبينما هو في الطريق إذ عرض لهم سراقة بن مالك فساخت قدما فرسه إلى ركبتيها والأرض صلبة، فناداهم بالأمان فخلصت فأتاهم وعرض عليهم الزاد والمتاع فأبوا وقالوا: اخف عنا، فرجع وصار لا يلقى أحداً إلاَّ رده، يقول: سَبَرْتُ الطريق فلم أجد أحداً.

وما مشينا عليه من تقدم المرور بخيمة أم معبد على ملاقاة سراقة هو الصحيح كما في السيرة الحلبية ولقيه أيضاً في طريقه بُرَيْدَةُ بن الحصيب الأسلمي في نحو سبعين من قومه فدعاهم إلى الإسلام فأسلموا وقد كانوا خرجوا طمعاً فيما جعلته قريش.

ثم ساروا حتى قدموا قباء يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الأول، ومن قال دخلوا المدينة في اليوم المذكور أراد بهما ما يشمل قباء كما قاله الحلبي. وكانوا قد تلقاهم المسلمون بظهر الحرّة فعدل بهم ﷺ ذات اليمين حتى نزل بهم في بني عمرو بن عوف بقباء وهم بطن من الأوس، فقام أبو بكر للناس وجلس ﷺ صامتاً فطفق من جاء

من الأنصار ممن لم يره عليه الصلاة والسلام يحييّ أبا بكر حتى أصابت الشمس رأس رسول الله ﷺ فظلل عليه أبو بكر بردائه، فعرف الناس رسول الله ﷺ عند ذلك فلبث ﷺ في بني عمرو بن عوف بضع عشرة ليلة على قول، وأسس المسجد الذي أسس على التقوى وصلى فيه ثم ركب من قباء يوم الجمعة راحلته وهي الجدعاء وقيل: العضباء، وقيل: القصواء مرخياً زمامها وصار يمشي معه الناس حتى دخل المدينة. قال جماعة: أدركته ﷺ صلاة الجمعة في مسيره من قباء إلى المدينة فصلاها وهي أول جمعة صلاها وأول خطبة خطبها في الإسلام.

قال الحلبي: كونها أول جمعة صلاها وأول خطبة خطبها واضح إن كان أقام في قباء الاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس كما هو قول، وأما على أنه أقام بضع عشرة ليلة كما تقدم أو أكثر كما قيل فبعيد إن لم يصل الجمعة في قباء في تلك المدة. والمناسب لهذا ما ذكره بعضهم أنه كان يصلي الجمعة في مسجد قباء مدة إقامته هناك.

ثم بركت ناقته بمحل مسجد الرسول ﷺ وكان مِرْبد اللتمي ـ بكسر الميم وفتح الموحدة ـ أي محلاً لجمعه وتجفيفه ليتيمين في حجر أسعد بن زرارة، فقال عليه الصلاة والسلام حين بركت ناقته: «هذا إن شاء الله تعالى المنزل». وقد كان ﷺ بعدما سار عن بني عمرو كلما مر بدار قوم عرضوا له وقالوا له: يا رسول الله أقم عندنا في العدد والعدة والمنعة، فيقول لهم: خلوا سبيلها فإنها مأمورة يعني ناقته، ثم نزل ﷺ بدار أبي أيوب ودعا بالغلامين فساومهما بالمِرْبَدِ فقالا: بل نهبه لك يا رسول الله. فأبى أن يقبله هبة وابتاعه منهما بعشرة دنانير أداها من مال أبي بكر، ثم بنى فيه مسجده وسَقَفَهُ بالجريد وجعل عمده جذوعاً وجعل ارتفاعه قدر قامة وجعل قبلته إلى بيت المقدس إلى أن حولت القبلة فجعلها إلى الكعبة ثم زاد فيه النبي ﷺ بعد فتح خيبر لكثرة الناس، فلما استخلف أبو بكر لم يحدث فيه شيئاً واستخلف عمر فوسعه وكلم العباس بن عبد المطلب في بيع داره ليزيدها فيه فوهبها العباس لله وللمسلمين، فزادها عمر في المسجد ثم بناه عثمان في خلافته بالحجارة والقصة وجعل عمده حجارة وسقفه بالساج وزاد فيه ونقل إليه الحصباء من العقيق. وبنى ﷺ في ذلك المربد حجرة زوجته حينئذ سودة وعائشة أيضاً وأما بقية حجر زوجاته فبناها بعد عند الحاجة إليها ومكث ﷺ في بيت أبي أيوب إلى أن تم بناء المسجد والحجرتين، وكان بناء ذلك في آخر ربيع الأول إلى صفر من السنة القابلة، وقيل غير ذلك. وكان في مدة مكثه في بيت أبي أيوب يأتي إليه كل ليلة الطعام من سعد بن عبادة وأسعد بن زرارة وغيرهما، واستمر طعام سعد بن عبادة بعد ذلك يأتي به كل ليلة إليه ﷺ وهو في بيوت زوجاته. وأرسل ﷺ وهو في بيت أبي أيوب زيد بن حارثة وأبا رافع فأتيا بفاطمة وأم كلثوم بنتيه وسودة زوجته وأم أيمن حاضنته زوجة زيد بن

حارثة وابنها أسامة بن زيد، وأما بنته زينب فمنعها من الهجرة زوجها ابن خالتها أبو العاص بن الربيع.

قال الحلبي ـ بكسر الموحدة وتشديد الياء مفتوحة ـ اهـ. والذي عليه غيره أنه كأمير.

ثم هاجرت وتركته على شركه. ثم لما أسلم جمع ﷺ بينهما ولم يفرق بينهما من أول البعثة لأن تحريم إنكاح المشرك للمسلمة إنما كان بعد الهجرة.

وأما بنته رقية فهاجرت مع زوجها عثمان بن عفان وجاء مع فاطمة ومن ذكر معها عيال أبي بكر فيهم زوجته أم رومان وأولاده عبد الله وعائشة وأسماء زوجة الزبير بن العوام وهي حامل بابنها عبد الله بن الزبير وولدته بقباء على ما في البخاري فكان أول مولود ولد للمهاجرين بالمدينة، وخط ﷺ للمهاجرين في أرض ليست لأحد، وفيما وهبته له الأنصار من خططها وأقام قوم منهم ممن لم يمكنه البناء بقباء عند من نزلوا عليه بها، وآخى ﷺ بين المهاجرين والأنصار على المساواة وألحق التوارث به بعد الموت دون الأقارب في دار أنس بن مالك وكانوا يتوارثون به دون القرابة، ثم نسخ وقيل لم يقع توارث به بالفعل بل الحكم نسخ قبل العمل به وقبل الهجرة آخى ﷺ بين المهاجرين بلا توارث فالإخاء وقع مرتين وكانت المدينة كثيرة الوبَاء فزال ونقل الله منها الحمّى إلى الجحفة ببركة دعائه ﷺ حتى أصابت كثيراً من المهاجرين كأبي بكر وعائشة وبلال وعامر بن فهيرة.

وقد نافق جماعة من أهل المدينة وكان رئيسهم عبد الله بن أبيّ بن سلول، وهو الذي قال: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذلّ. وفيه نزلت سورة المنافقين واشتد حسد يهود المدينة وكثر لغطهم في النبي ﷺ وامتحنوه بأشياء كثيرة فأتى بجوابها على ما يعرفون من الصواب فما يزيدهم ذلك إلاّ حسداً.

وسحره منهم لبيد بن الأعصم سنة سبع من الهجرة في مشط له ﷺ ومشاطة من شعر رأسه أعطاهما له غلام يهودي كان يخدمه ﷺ أحياناً، وعقد في وتر إحدى عشرة عقدة فيها إبر مغروزة ودفن ذلك تحت صخرة في بئر ذروان ومكث ﷺ متغير المزاج من ذلك سنة، وقيل: ستة أشهر، وقيل: أربعين يوماً. وعند اشتداد الحال نزل جبريل وأخبره الخبر فبعث علياً فاستخرج ذلك وصار كلما حُلّتْ عقدة وجد خفة حتى قام عند انحلال العقدة الأخيرة كأنما نشط من عقال وقد مسخ الله ماء تلك البئر حتى صارت كنقاعة الحناء، ثم أحضر ﷺ لبيداً فاعترف واعتذر بأن الحامل له على ذلك دنانير جعلتها له اليهود في مقابلة سحره، فعفا عنه ولم يؤثر السحر في عقله ﷺ بل في بعض جوارحه ولهذا لم يكن قادحاً في منصبه.

وأما ما في بعض الروايات من أنه ﷺ صار يُخَيَّلُ له أنه يفعل الشيء ولا يفعله، فقال أبو بكر بن العربي: لا أصل له.

وأسلم من يهود المدينة عبد الله بن سلام وكان سيدهم وحبرهم وكان إسلامه في السنة الأولى من الهجرة وفيها شرع الأذان والإقامة.

ثم بعد مكثه ﷺ بضع عشرة سنة يدعو إلى الله تعالى بغير قتال صابراً على إيذاء العرب بمكة واليهود بالمدينة له ولأصحابه لأمر الله له بالصبر ووعده له بالفتح أذن بالقتال لكن لمن قاتله بقوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟﴾ [الحج: الآية ٣٩] الآية، وهي أول آية نزلت في القتال وذلك في صفر من السنة الثانية من الهجرة، ثم أذن له في القتال لمن لم يقاتله لكن في غير الأشهر الحرم بقوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ﴾ [التوبة: الآية ٥] الآية، ثم أذن له في القتال مطلقاً بقوله تعالى: ﴿وَقَـٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً﴾ [التوبة: الآية ٣٦] الآية.

وعدد مغازيه ﷺ وهي التي غزا فيها بنفسه: تسع وعشرون على قول، وعدد سراياه وهي التي بعثها ولم يكن فيها: خمسون، على قول، أعظمها سرية مؤتة وتسمية بعضهم لها غزوة مساهلة وسرية أبنى مات عليه الصلاة والسلام بعد تهيئتها وقبل سفرها وأمضاها الصديق لما خلف، وهي سرية مؤتة كلاهما لقتال الروم.

فأول مغازيه غزوة وَدَّانَ، وهي غزوة الأبواء[1]، وكانت على رأس اثني عشر شهراً من مقدمه المدينة، وهي بمعنى قول بعضهم: خرج لها لاثنتي عشرة ليلة مضت من صفر.

ثم غزوة بُوَاطَ.

ثم غزوة العشيرة.

ثم غزوة بدر الأولى وهي غزوة صفوان.

ثم غزوة بدر الوسطى وهي الكبرى.

ثم غزوة بني سُلَيْم.

ثم غزوة بني قينُقاع.

ثم غزوة السويق.

ثم غزوة قرقرة الكدر.

ثم غزوة غطفان وهي غزوة ذي إمَّرَة.

---

(١) انظر: السيرة النبوية (٣/ ١٣٥)، وتاريخ الطبري (٢/ ١١، ١٤).

ثم غزوة نجران.

ثم غزوة أُحُد.

ثم غزوة حمراء الأسد.

ثم غزوة بني النضير.

ثم غزوة ذات الرقاع، وهي غزوة محارب وبني ثعلبة.

ثم غزوة بدر الأخيرة، وهي غزوة بدر الموعد.

ثم غزوة دُومَة الجندل.

ثم غزوة بني المصطلق، وهي غزوة المريسيع.

ثم غزوة الخندق، وهي غزوة الأحزاب.

ثم غزوة بني قريظة.

ثم غزوة بني لِحْيَان.

ثم غزوة ذي قَرَد، وهي غزوة الغابة.

ثم غزوة الحديبية، وفيها كانت بيعة الرضوان.

ثم غزوة خيبر.

ثم غزوة وادي القرى.

ثم غزوة فتح مكة شرفها الله تعالى.

ثم غزوة حنين وهي غزوة هوازن، وغزوة أوطاس.

ثم غزوة الطائف.

ثم غزوة تبوك. ولم يقع القتال إلاّ في تسع منها بناء على القول بعدم وقوع القتال في غزوة وادي القرى وهي غزوة بدر الكبرى وكانت في السنة الثانية من الهجرة، وفي هذه السنة حوّلت القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة والنبي ﷺ يصلي بأصحابه صلاة الظهر عند الأكثر فوقع نصفها إلى بيت المقدس ونصفها إلى الكعبة وفيها فرض رمضان والراجح أنه لم يجب صوم قبله وإن صومهم ثلاثة أيام من كل شهر، الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر، وهي الأيام البيض وعاشوراء كانت على الاستحباب، وفيها فرضت زكاة الفطر وشرعت صلاة عيده. وفرضت زكاة الأموال وشرعت التضحية وصلاة عيدها.

وغزوة أُحُد، وكانت في السنة الثالثة من الهجرة. وفي هذه السنة حرمت الخمر.

وغزوة بني المصطلق.

وغزوة الخندق.

وغزوة بني قريظة، وكانت الثلاثة في السنة الخامسة من الهجرة. وفي هذه السنة شرع التيمم وكانت قصة الإفك وفرض الحج.

وغزوة خيبر، وكانت في السنة السابعة من الهجرة وفي هذه السنة كان اتخاذ الخاتم وإرسال الرسل إلى الملوك وعمرة القضاء.

وغزوة فتح مكة.

وغزوة حُنَين.

وغزوة الطائف، وكانت الثلاثة في السنة الثامنة من الهجرة. وفي هذه السنة اتخذ له ﷺ منبراً من خشب ثلاث درجات بمحل الجلوس. وقيل بغيره، وكان يخطب قبله على منبر من طين ثلاث درجات أيضاً بني له لما كثر الناس، وكان يخطب قبل هذا مسنداً ظهره إلى جذع نحل من سواري المسجد، ولما تركه ﷺ حن حنين الوالدة بصوت سمعه من بالمسجد حتى ارتج المسجد وبكى الناس، فنزل ﷺ فحضنه فجعل يئن أنين الصبي الذي يسكت، فسكت وقد تقدم هذا، ولم يقتل ﷺ بيده إلاَّ أبيّ بن خلف في أُحد، وقدم غالب وفود العرب عليه ﷺ في السنة التاسعة من الهجرة وكانت تسمى سنة الوفود، وفيها توفي النجاشي وهجر ﷺ نساءه شهراً وأمر أبا بكر أن يحج بالناس. وفي العاشرة حج ﷺ حجة الوداع ونزل قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: الآية ٣]. ولم يحج بعد الهجرة غيرها. وأما بعد النبوة وقبل الهجرة فحج ثلاث حجات، وقيل: حجتين، وقيل: كان يحج كل سنة قبل أن يهاجر.

وفي كلام ابن الجوزي أنه ﷺ حجّ قبل النبوّة ووقف بعرفات وأفاض منها إلى المزدلفة مخالفاً لقريش توفيقاً من الله تعالى، فإنهم كانوا لا يخرجون من الحرم ولا يعظمون شيئاً من الحل دون بقية العرب، ويقولون: نحن أهل الحرم وولاة البيت فليس لأحد منزلتنا.

وأما عُمَرُهُ ﷺ فأربع، كلها في ذي القعدة: عمرة الحديبية، وعمرة القضاء ويقال لها: عمرة القضيّة لأنه قاضى قريشاً عليها ـ أي صالحهم ـ ومن ثم يقال لها: عمرة الصلح أيضاً، وعمرته حين قسم غنائم حنين، وعمرته مع حجة الوداع.

وأما ما في الصحيحين: اعتمر ﷺ أربع عمر كلها في ذي القعدة إلاَّ التي في حجته فمعناه أنه لم يوقع التي في حجته في ذي القعدة بل أوقعها في ذي الحجة تبعاً للحج.

وأما إحرامه بها فكان في ذي القعدة لخمس بقين منه.

وتوفي ﷺ في بيت عائشة يوم الاثنين قبيل الزوال، لليلتين مضتا من ربيع الأول،

وقيل: لليلة مضت منه، وقيل: لاثنتي عشرة ليلة مضت منه، وعليه الجمهور، سنة إحدى عشرة من الهجرة.

وعمره ثلاث وستون سنة، أربعون قبل النبوة وثلاث وعشرون بعدها، ثلاث عشرة بمكة وعشرة بالمدينة وليس في وجهه ورأسه عشرون شعرة بيضاء بل أقل، وأكثره في عنفقته وباقيه في صدغيه ورأسه.

وجمع بين نفي خضبه في روايات وإثبات خضبه بالصفرة في بعض الروايات، وبالحناء والكتم الصابغ أولهما حمرة وثانيهما سواد مائل إلى الحمرة ومجموعهما لون بين الحمرة والسواد في بعض آخر بحمل النفي على غالب الأوقات لعدم احتياج شيبه إلى الخضب لقلّته وحمل الإثبات على بعض الأوقات.

وكانت مدة شكواه ثلاثة عشر يوماً على أحد الأقوال. وقبل وفاته ﷺ بأربع ليال أمر أبا بكر أن يصلّي بالناس فصلّى بهم سبع عشرة صلاة أولاها عشاء ليلة الجمعة وأخراها صبح يوم الاثنين وكان مرضه هذا صداعاً شديداً. ولما اشتد عليه الأمر صار يدخل يده في قدح ماء ويمسح وجهه بالماء ويقول: «اللهم أعني على سكرات الموت». وإنما اشتد كربه عند الموت لتسلية أمته إذا وقع لهم شيء من ذلك عند الموت. ومن ثم قالت عائشة: «لا أزال أغبط المؤمن بشدة الموت عليه بعد شدته على رسول الله ﷺ»، وليحصل لمن شاهده من أهله وغيرهم من المسلمين مزيد الثواب لما يلحقه من المشقة عليه كما قيل بمثل ذلك في حكمة اشتداد كرب الموت على الأطفال، ولأن تشبث الحياة الإنسانية ببدنه الشريف أقوى من تشبثها ببدن غيره لأنه أصل الموجودات فيكون انتزاعها منه أصعب.

وروي أنه ﷺ لم يشتد به شكوى إلاّ سأل الله العافية حتى كان مرضه الذي مات فيه فإنه لم يكن يدعو بالشفاء وكان عنده سبعة دنانير أو ستة فأمر بالتصدّق بها.

وروي أنه أعتق في مرضه هذا أربعين نفساً.

وروي أن آخر ما تكلم به: «جلال ربي الرفيع قد بلغت».

وعند موته طاشت عقول الصحابة فخبّل عمر وأُخرسَ عثمان وأقعد عليّ.

وأما أبو بكر فجاء وعيناه تهملان فقبّله عليه الصلاة والسلام وقال: بأبي أنت وأمي طبت حياً وميتاً. ثم قام فصعد المنبر وقال كلاماً بليغاً سكّن به نفوس المسلمين وثبّت قلوبهم، ثم غسّل ﷺ وعليه ثوبه الذي مات فيه ثلاث غسلات أولاها بالماء القراح وثانيتها بالماء والسدر وثالثتها بالماء والكافور.

وكان المغسّل له علياً والماء من بئر غرس التي بقباء.

ثم كُفّن في ثلاثة أثواب بيض من القطن سَحُولِيَّة، أي من عمل سَحُولَة، قرية

باليمن ليس فيها قميص ولا عمامة، أي لم يكن في كفنه ذلك كما قاله إمامنا الشافعي وجمهور العلماء، ثم بُخِّر بالعود والندّ ثم وضع على سرير وسجّى ثم صار الناس يدخلون للصلاة عليه طائفة بعد طائفة أفذاذاً لا يؤمّهم أحد، وقيل: لم يصلِّ عليه أحد وإنما كان الناس يدخلون ليدعوا أو يتضرعوا.

وفي المواهب: أن الغسل والتكفين والصلاة كانت يوم الثلاثاء. ثم اختلفت الصحابة في الموضع الذي يدفن فيه، فقال بعضهم: يُدفن في المسجد، وبعضهم في البقيع، وبعضهم يُدفن عند إبراهيم الخليل. فقال أبو بكر: ادفنوه في الموضع الذي قُبض فيه فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يُدفن نبي إلاَّ حيث قُبض»[١]. فاتفقوا على ذلك، فحفر قبره وصُنع له لحد ووضع فيه وأطبق عليه بتسع لبنات ثم أُهيل التراب. وكان دفنه على قول الأكثر ليلة الأربعاء، فيكون مكث بعد موته بقية يوم الاثنين وليلة الثلاثاء ويوم الثلاثاء وبعض ليلة الأربعاء. والسبب في تأخير دفنه ﷺ اشتغالهم ببيعة أبي بكر حتى تمت، وقيل عدم اتفاقهم على موته ﷺ وكان آخر من طلع من قبره الشريف على الأصح قثم بن العباس رضي الله عنهما، وكان آخر الصحابة عهداً به ﷺ.

وهذا آخر ما أردنا إيراده من سيرته ﷺ، نسأل الله العظيم متوسلين إليه بوجاهة وجهه الكريم أن يفيض علينا ذرة من إقباله وبسطة من إفضاله بجاه سيد أحبابه صلّى الله عليه وعلى آله وأصحابه وأزواجه وأهل بيته كلما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون.

ذكر نبذة من شمائله الظاهرة وأخلاقه ﷺ[٢]

وأما شمائله الظاهرة ﷺ وصفات ذاته الشريفة فأشهر من أن تُذكر وأبهج من الشمس والقمر. ولنتبرَّك بذكر شيء منها فنقول:

قال العلامة المناوي في طبقاته ملخصاً ما ذكره القاضي عياض في الشفاء: كان ﷺ لا بالطويل ولا بالقصير لكنه إلى الطول أقرب، بعيد ما بين المنكبين أزهر اللون عظيم الهامة واسع الجبين أزَجَّ الحاجبين أبلج ما بينهما كأن ما بينهما الفضة المخلصة، ادْعَجَ العينين مُفلج الأسنان يفتر عن مثل حب الغمام، شعره غَيْرُ جَعْدٍ ولا قطط بل وسط أحسَن الناس عُنقاً لا ينسبُ إلى طولٍ ولا إلى قصر، ما ظهر من عنقه للشمس والريح كأنه إبريق فضة مشرب ذهباً، عريض الصدر لا يعدو لحم بعض بدنه بعضاً كالقمر في

(١) رواه أحمد في المسند (١/ ٧).
(٢) انظر في شمائله الشريفة ﷺ: الشمائل المحمدية للترمذي ـ بتحقيقنا ـ وشرحها لابن حجر الهيثمي ـ بتحقيقنا، والشفا للقاضي عياض بتحقيقنا.

بياضه موصول ما بين لبته وسرّته بشعر كالقضيب ليس في صدره ولا بطنه غيره، وله عكن ثلاث يغطي الإزار منها واحدة وتظهر اثنتان، وكان عظيم المنكبين أشعرهما ضخم رؤوس العظام واسع الصدر بين كتفيه خاتم النبوة مما يلي منكبه الأيمن، فيه شامة سوداء تضرب إلى صفرة وحولها شعرات متدلية كأنها عرف فرس عبل العضدين والذراعين طويل الزندين رَحْبَ الراحة سائل الأطراف كأن أصابعه قضبان فضة، كفه ألين من الخز كأن كف عطّار يضع يده على رأس الصبي فيعرف من بين الصبيان بريحها على رأسه، عبل أي ضخم ما تحت الإزار من الفخذ والساق معتدل الخلق في السمن بادناً أي عظيم البدن وكان لحمه متماسكاً يكاد يكون على الخلق الأول، لم يضره السمن كان يمشي كأنما يتقلّع من صخر وينحط من صبب يخطّو تكفياً ويمشي هوناً بغير تبخر إذا التفت التفت جميعاً ولا يلوي عنقه، عَرَقُه كاللؤلؤ في البياض والمسك في الريح، يقول ناعته: لم أر قبله ولا بعده مثله، ﷺ وعلى آله وأصحابه وأزواجه وذريته وأهل بيته وسلم وشرّف وكرَّم كلما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون.

وأما أخلاقه ﷺ فهي أطيب من المسك والعنبر، وأجل من أن تُحصر، ويكفيك قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القَلَم: الآية ٤] ولنروح القلب بذكر جملة منها رجاء أن تعود علينا بركاتها وأن تعمنا نفحاتها فنقول:

قال قطب الواصلين وإمام العارفين ولي نعمتي سيدي عبد الوهاب الشعراني في الباب الأول من كتاب الأخلاق المتبولية المفاضة من الحضرة المحمدية إلى سيدي إبراهيم المتبولي: كان رسول الله ﷺ أورع الناس وأزهد الناس وأعف الناس وأعلم الناس وأكرم الناس وأحلم الناس وأعبد الناس وأبعدهم عن مواطن الريب لم تمس يده يد امرأة أجنبية قط تشريعاً لأمّته واحتياطاً لهم. وكان ﷺ إذا وعظ الناس يرسل الكلام في حق كل الناس ولم يكن ينص في وعظه على أحد معيَّن خوفاً أن يخجله بين الناس فيقول: ما بال أقوام يفعلون كذا.

وكان ﷺ أقنع الناس باليسير من الدنيا وأيسرهم بلغة كان يكفيه اللعقة من الطعام والكف من الحشف.

وكان يستحي من الله إذا أراد دخول الخلاء حتى كان يتقنع بردائه من شدة حيائه ﷺ، وكانت الأرض تبتلع ما يخرج منه ﷺ.

وكان ﷺ أشفق الناس على أمّته.

وكان يقول: «اللهم لا ترني في أمتي سوءاً». وقد تقبّل الحق تعالى منه ذلك فلم يره في أمته سوءاً حتى توفاه الله عز وجل.

وكان ﷺ مغمضاً عينيه عن رؤية زينة الدنيا فلم يمد عينيه إلى زينتها قط وكان

معصوماً من خائنة الأعين.

وكان ﷺ يستتر في غسله من الجنابة وغيره ولم يغتسل عرياناً قط حياء من الله عز وجل.

وكان إذا طلب البراز يبعد عن الناس أو يتوارى بجدار ونحوه حتى لا يرى شخصه ﷺ.

وكان ﷺ يلبس ما وجد فمرة شملة ومرة برد حِبَرَة يمانياً ومرة جبة صوف، ما وجد من المباح لبس.

وكان إذا كساه أحد ثوباً لا يغيره عن هيئته من سعة أو ضيق. ولبس مرة جبة ضيقة الكمين لا يستطيع أن يخرج يده من كمها إلاً بعقر فكان إذا توضأ منها أخرج يديه من ذيلها ليغسلهما.

وكان ﷺ يردف خلفه عبده وصاحبه وتارة يردف خلفه وأمامه، وهو في الوسط، لكن في الأطفال كالحسن والحسين وأولاد جعفر رضي الله عنهم. ومن هنا تعلم أن محل جواز الإرداف ما إذا احتمله ذلك المركوب.

وكان ﷺ يركب ما وجد، مرة فرساً ومرة بعيراً ومرة حماراً ومرة بغلة ومرة يمشي حافياً راجلاً بلا رداءٍ ولا قلنسوة ليعود المرضى في أقصى المدينة، وكان ﷺ يحب الطيب ويكره الرائحة الرديئة.

وكان ﷺ يأكل مع الفقراء والمساكين والخدم، وكان يفلي للمساكين ثيابهم ولحاهم ورؤوسهم.

وكان ﷺ يكرم أهل الفضل على اختلاف طبقاتهم ويتألف أهل الشرف بالإحسان إليهم.

وكان يكرم ذوي رحمه من غير أن يؤثرهم على من هو أفضل منهم.

وكان ﷺ لا يقطع على أحد حديثه ولا يجفو على أحد بكلام ولا غيره ولو فعل معه ما يوجب الجفاء.

وكان ﷺ يقبل عذر المعتذر وإن كان مبطلاً ويقول: «من أتاه أخوه متنصلاً من ذنب فليقبل ذلك محقاً كان أو مبطلاً فإن لم يفعل لم يرد على الحوض».

وكان ﷺ يمزح مع النساء والصبيان ولا يقول إلاً حقاً كقوله للعجوز وهو متبسم: «لا يدخل الجنة عجوز» أي لأن أهل الجنة أبكار عرب.

وكان ضحكه ﷺ التبسم فقط من غير رفع صوت، وكان ﷺ يرى اللعب المباح فلا ينكره. وكان الأعراب يرفعون عليه الأصوات بالكلام الجافي فيتحمله.

وكان ﷺ لا يجزى بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويصفح ولم يكن له إناء يختص به عن خدمه وإمائه بل كان يأكل معهم في إناء واحد تواضعاً معهم وتشريعاً للمتكبرين من أمته.

وكان يجيب إلى الوليمة كل من دعاه، ويشهد جنائز المسلمين من عرفه ومن لم يعرفه.

وكان منديله ﷺ باطن قدميه إذا أكل. وكان له ﷺ إماء وخدم وكان لا يـ تفع عليهم في مأكل ولا ملبس ولا مجلس.

وكان ﷺ مقبلاً على عبادة ربه ليلاً ونهاراً لا يمضي له وقت إلاَّ في عمل طاعة الله عز وجل أو فيما لا بد له منه مما يعود نفعه عليه وعلى المسلمين، ويحتطب ثم يحمل ﷺ الحطب إلى بيته تواضعاً منه ﷺ.

وكان لا يحقر مسكيناً لفقره ولا يهاب ملِكاً لملكه، يدعو هذا وهذا إلى الله عز وجل دعاءً واحداً.

وكان ﷺ أرحم خلق الله على الإطلاق وأشفقهم على دين أمته.

وكان إذا سبق لسانه إلى شتمة لأحد قال: «اللهم اجعلها عليه طهوراً وكفارة ورحمة».

ولم يلعن ﷺ قط امرأة معينة ولا خادماً ولا بعيراً.

وكان إذا سُئل أن يدعو على أحد عدل عن الدعاء عليه ودعا له.

وما ضرب ﷺ قط امرأة ولا خادماً ولا غيرهما إلاَّ أن يكون في الجهاد أو في حد من حدود الله فيأمر الجلاد بذلك تطهيراً للمجلود.

ودعا مرة خادماً له فلم يجبه فقال: «والله لولا خشية القصاص يوم القيامة لأوجعتك بهذا السواك».

وكان ﷺ لا يأتيه أحد من حُرٍّ ولا عبد ولا أمة ولا مسكين يسأله في حاجة إلاَّ قام معه وقضى حاجته ولو في أقصى المدينة أو في القرى التي خارجها جبراً لخاطره.

وكان ﷺ لا يعيب قط مضجعاً وكانوا إن فرشوا له شيئاً جلس عليه واضطجع وإن لم يفرشوا له شيئاً جلس على الأرض واضطجع عليها.

وكان ﷺ هيناً ليناً مع جميع أصحابه ليس بفظ ولا غليظ ولا صخَّاب في الأسواق. أي صيَّاح فيها.

وكان ﷺ يبدأ كل من لقيه بالسلام من المسلمين.

وكان إذا أخذ بيده ﷺ أحد سايره حتى يكون ذلك الشخص هو الذي ينصرف.

وكان ﷺ إذا لقي أحداً من أصحابه صافحه ثم شابكه وشد قبضته على يده على عادة العرب.

وكان ﷺ لا يقوم عن مجلس ولا يجلس إلاّ على ذكر الله عز وجل.

وكان ﷺ إذا جاءه أحد وهو يصلي خفّف ﷺ صلاته ثم سلَّم منها وقال له: «ألك حاجة» فإن قال: لا، عاد إلى صلاته وإن كان له حاجة قضاها له بنفسه أو بوكيله. وكان أكثر جلوسه ﷺ أنه ينصب ساقيه جميعاً ويمسك بيديه عليهما شبه الحبوة.

وكان ﷺ يجلس حيث انتهى به المجلس حتى إنه لم يكن يعرف من بين أصحابه.

قال أنس رضي الله عنه: وما رؤي ﷺ قط مادّاً رجليه يضيق بهما على أحد ولم يكن يمدّهما إلاّ إن كان المكان واسعاً.

ولما كان ﷺ لا يعرف من بين أصحابه كان الأعرابي إذا جاء يسأل عن دينه لا يعرفه حتى يصير يسأل عنه فتكلم الصحابة في عمل شيء يميزه ﷺ حتى يصير الأعرابي يأتي إليه ويسأله ولا يحتاج إلى من يعرّفه به. فاتفق رأيهم على أن يبنوا له دكاناً من طين ثم فرشوا له عليه حصيراً من خوص النخل فكان ﷺ يجلس عليها حتى مات.

وكان ﷺ أكثر جلوسه إلى القبلة، ويقول هو سيد المجالس، وكانوا يجلسون بين يديه متحلقين.

وكان ﷺ يكرم كل داخل عليه ويؤثره بالوسادة التي تكون تحته فإن أبى أن يقبلها عزم عليه حتى يقبلها، وربما بسط ﷺ ثوبه أو رداءه لمن لم يكن بَيْنَهُ وبينه معرفة ولا قرابة ليجلسه عليه تأليفاً لقلبه.

وكان ﷺ لا يدّخر عن الضيف شيئاً بل يخرج إليه كل ما وجد. وكان ربما لم يجد له ما يكرمه به فيصير يعتذر إليه تطيبياً لخاطره.

وكان كثيراً ما يخرج إلى بيوت أصحابه من غير دعوة ويتفقدهم إذا انقطعوا عن مجلسه وإذا رأى عند أحداً منهم جفاء أرسل إليه بهدية.

وكان ﷺ يُداعِبُ الحسن والحسين وربما أركبهما على ظهره وصار يمشي على يديه ورجليه ويقول: «نِعم الحمل حملكما ونَعم العِدْلان أنتما».

وأخذ ﷺ مرة بيد الحسن بن علي ووضع رجليه على ركبتيه وهو يقول: «حُزُقَّةٌ حُزُقَّةٌ تَرقَ عَيْنَ بَقَّهْ» هكذا كان أبو هريرة رضي الله عنه يقول.

وكان ﷺ يعطي كل من جلس إليه حظه من البشاشة حتى يظن ذلك الجالس أنه أكرم عليه من جميع أصحابه.

وكان ﷺ يكني أصحابه ويبتدئهم بالكنى ويدعوهم بها إكراماً لهم واستمالة لقلوبهم.

وكان يكني النساء اللاتي ولدن واللاتي لم يلدن، ويكني الصبيان يستلين بذلك قلوبهم.

وكان ﷺ أبعد الناس غضباً وأسرعهم رضا. وكان أرق الناس بالناس وخير الناس للناس، وأنفع الناس للناس.

وكان إذا قام من مجلسه يقول: «سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلاّ أنت أستغفرك وأتوب إليك» ثم يقول: «علمنيهن جبريل عليه السلام»، وقال: «هن كفارة لما وقع في ذلك المجلس».

وكان ﷺ قليل الكلام، سمح المقالة، يعيد الكلام مرتين وأكثر ليفهمهم، وكان كلامه كخرزات النظم. وكان يكني عن الأمور المستقبحة في العرف إذا اضطره الكلام إلى ذكرها ويعرض عن كل كلام قبيح.

وكان ﷺ إذا سلم سلم ثلاث مرات وكان كثير البكاء ولم تزل عيناه تهملان من الدموع كأنه حديث عهد بمصيبة.

قال أنس رضي الله عنه: وكُسفت الشمس مرة فجعل ﷺ يبكي في الصلاة وينفخ ويقول: «يا رب ألم تعدني أن لا تعذّبهم وأنا فيهم، وأن لا تعذّبهم وهم يستغفرون، ونحن نستغفرك يا رب».

وكان ضحك أصحابه عنده التبسم من غير صوت اقتداء به ﷺ وتوقيراً له وكانوا إذا جلسوا بين يديه كأنما على رؤوسهم الطير من الهيبة والوقار.

وكان ﷺ أكثر الناس تبسماً ما لم ينزل عليه قرآن أو يذكر يوم القيامة أو يخطب بخطبة موعظة.

وكان ﷺ إذا نزل به أمر فوّض أمره فيه إلى الله عز وجل وسأله الهدى واتباعه والبعد من الضلال واجتنابه، ويتبرأ من حوله ومن قوته.

وكان أحب الطعام إليه ما كثرت عليه الأيدي.

وكان ﷺ يجلس للأكل كالعبد فيجمع بين ركبتيه وبين قدميه كما يجلس المصلي إلاّ أن الركبة تكون فوق الركبة والقدم فوق القدم.

وكان كثيراً ما يقول: «إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد».

وكان ﷺ لا يأكل الطعام الحار ويقول: «إنه غير ذي بركة فأبردوه، وإن الله لا يطعمنا ناراً».

وكان ﷺ يأكل مما يليه ويأكل بأصابعه الثلاث وربما استعان بالرابع، وكان لا يأكل قط باصبعين ويقول: «إنه فعل الشيطان».

وكان ﷺ يأكل القثاء بالرطب وبالملح وكان أحب الفواكه الرطبة إليه الرطب والعنب.

وكان ﷺ يأكل البطيخ بالخبز وبالسكر وربما أكله بالرطب ويستعين باليدين جميعاً، وكان أكثر طعامه ﷺ التمر والماء. وكان يجمع بين التمر واللبن ويسميهما الأطيبين.

وكان أحب الطعام إليه ﷺ اللحم، ويقول: «إنه يزيد في السمع وهو سيد الطعام في الدنيا والآخرة».

وكان يكره إدمان أكل اللحم ويقول: «إنه يقسي القلب».

وكان ﷺ يأكل الثريد باللحم والقرع ويحب القرع ويقول: «إنه شجرة أخي يونس». وكثيراً ما يقول لعائشة: «إذا طبخت دباء فأكثري من مرقها فإنه يشد القلب الحزين».

وكان ﷺ لا يستكبر عن إجابة الأمة والمسكين يقول له: «لبيك»، ولا يغضب لنفسه وإنما يغضب إذا انتهكت حرمات الله تعالى.

وكان ﷺ ينفذ الحق حيث كان وإن عاد ذلك عليه بالضرر أو على أصحابه.

وكان يعصب الحجر على بطنه من الجوع ويكتم ذلك عن أصحابه وأهل بيته تحملاً للمشقة عنهم إذا علموا بجوعه ﷺ.

وكان ﷺ يأكل ما وجد ولا يرد ما قدم إليه من الحلال.

وكان لا يتورع قط عن مطعم حلال بل يأكل منه توسعة على أمته.

وكان ﷺ إذا وجد تمراً دون خبز أو لحماً مشوياً أكل أو خبز برّ أكل أو خبز شعير أكل أو حلواء أو عسلاً أكل أو لبناً دون خبز أكل واكتفى به، ويقول: «ليس شيء يجزي عن الطعام والشراب غير اللبن».

وكان ﷺ يأكل البطيخ والرطب ولحم الدجاج والطير الذي يصطاد. وكان لا يشتري الصيد ولا يصيده ويحب أن يصطاد له فيؤتى به فيأكله.

وكان ﷺ إذا أكل اللحم لم يطأطىء رأسه بل يرفعه إلى فيه ثم يأكله.

وكان ﷺ يأكل الخبز والسمن.

وكان يحب من الشاة الذراع والكتف، وكانت عائشة تقول: لم يكن الذراع أحب إلى رسول الله ﷺ وإنما ذلك لكونه أعجل الأشياء نضجاً، فكان يعجل به إليه لكونه لا يجد اللحم إلاّ غباً.

وكان ﷺ يعجبه طعام الدباء ويحب من التمر العجوة. ودعا في العجوة بالبركة، وقال: «إنها من الجنة وشفاء من السم والسحر».

وكان ﷺ يحب من البقول الهندباء والشمار والرجلة. وكان يكره أكل الكليتين لمكانهما من البول. وكان لا يأكل من الشاة سبعاً الذكر والأنثيين والفرج والدم والمثانة والمرارة والغدد ويكره لغيره أكل هذه المذكورات من غير أن يحرّمها، وكان يقول: «أطيب اللحم لحم الظهر».

وكان ﷺ لا يأكل الثوم ولا البصل ولا الكراث وقال لعلي: «يا علي كل الثوم نيئاً فإنه شفاء من سبعين داء ولولا الملك يأتيني لأكلته».

وما ذمّ ﷺ قط طعاماً بل إن اشتهاه أكله وإلا تركه.

وكان له ﷺ قصعة يقال لها الغراء لها أربع حلق يحملها أربعة رجال بينهم وكان له صاع ومدّ وسرير قوائمه من ساج.

وكان له ﷺ ربعة يجعل فيها المرآة والمشط والسواك والمِقْراضَيْنِ وهما المقص والملقاط.

وكان له ﷺ سبع أعنز منائح ترعاهن له أم أيمن حاضنته ﷺ يعاف الضب والطحال ولا يحرمهما ويقول: «إن الضب لم يكن بأرض قومي فأجدني أعافه» وأما الطحال فإنما كرهه ﷺ لأنه مجمع أوساخ البدن.

وكان يلعق الصحفة بأصابعه ويقول: «آخر الطعام أكثر بركة».

وكان يلعق أصابعه حتى تحمرّ.

وكان لا يمسح أصابعه بالمنديل حتى يلعقها واحدة واحدة.

وكان يقول أنه لا يدري في أي الأصابع البركة.

وكان ﷺ إذا أكل اللحم والخبز خاصة غسل يديه بالماء غسلاً جيداً ثم يمسح بفضل الماء على وجهه.

وكان ﷺ إذا شرب لا يتنفس في الإناء وإنما ينحرف عنه. وأتوه مرة بإناء فيه لبن وعسل فأبى أن يأكله وقال: «شربتان في شربة وإدامان في إناء واحد لا حاجة لي بهما، أما إني لا أحرِّم ذلك ولكني أكره الفخر بفضول الدنيا والحساب على ذلك، وأحب التواضع لربي عز وجل في جميع أحوالي فإن من تواضع لله رفعه الله».

وكان ﷺ في بيته أكثر حياء من العاتق في خدرها، كان لا يسألهم طعاماً ولا يتشهاه عليهم إن أطعموه أكل وأطعم غيره وما أعطوه قبل ولو كان قليلاً، وكثيراً ما كان ﷺ يقوم فيأخذ ما يأكل وما يشرب بنفسه.

وكان ﷺ إذا اعتمّ أرخى عمامته بين كتفيه وفي أوقات كان لا يرخيها جملة. هكذا قال بعضهم والجمهور على أنه ﷺ لم يترك العذبة حتى مات، وكان كمه ﷺ إلى الرسغ وهو المنفصل بين الكف والساعد، ولبس ﷺ القباء والفرجية والجبة الضيقة الكمين في سفره.

وكان ﷺ إذا أهدي إليه ثوب يخالف هيئة ثيابه لا يغيّره عن هيئته بل يلبسه على هيئته توسعة على أمته ﷺ كما مر في الجبة الضيقة الكمين. وكان له رداء طوله ستة أذرع في عرض ثلاثة أذرع وشبر. وكان إزاره ﷺ أربع أذرع وشبراً في عرض ذراعين وشبر.

وكان ﷺ يلبس الأبراد التي فيها الخطوط الحمر أو الخضر، وكان ينهى عن لبس الأحمر الخالص، وكان له ﷺ سراويل ولبس النعل التي يسميها الناس الناسومة.

وكان له ﷺ بردان أخضران يصلي فيهما الجمعة والعيدين. قال بعض العلماء: ولم يلبس ﷺ البرد الأخضر الخالص الخضرة أبداً. قالوا: وكان أكثر لباسه ﷺ في الجمعة البياض. وقوله: أخضران، أي فيهما خطوط.

وكان ﷺ يلبس الخاتم ويجعل فصه مما يلي كفه.

وكان ﷺ يتقنع بردائه تارة ويتركه أخرى وهو الذي يسميه الناس الآن الطيلسان.

وكان أكثر لباسه ﷺ ولباس أصحابه ثياب القطن.

وكان له ﷺ عمامة قطوية وهي الغليظة من القطن.

وكان ﷺ يلتحي كثيراً من تحت الحنك على طريق المغاربة الآن في بلاد مصر. ولبس ﷺ مرة بردة من الصوف فوجد لها رائحة الضاني فتركها.

قال أنس: وتوفي رسول الله ﷺ وله بُرْدةٌ تنسج عند النساج.

وكان ﷺ يأكل من الكبد إذا شويت.

وكان مع أهل بيته في الخدمة كأنه واحد منهم من حسن خلقه وحسن معاشرته. وكانت عائشة رضي الله عنها تقول: لم يكن أحد أحسن خلقاً من رسول الله ﷺ كنت إذا هويت شيئاً تابعني عليه. قالت: وكنت إذا شربت من السقاء يأخذه فيضع فمه على موضع فمي ويشرب، وربما كنت حائضاً وكان ينهس فضلتي من اللحم الذي على العظم. قالت: وكان ﷺ يتكىء في حجري ويقرأ القرآن. قالت: وربما أكون حائضاً، وكان ﷺ له غنم وكان لا يحب أن تزيد الغنم على مائة فإن زادت ذبح الزائد.

وكان ﷺ يبيع ويشتري ولكن كان شراؤه أكثر من بيعه.

وآجر ﷺ نفسه قبل النبوة في رعاية الغنم وكذلك آجر نفسه لخديجة رضي الله عنها في سفره لتجارتها.

واستدان ﷺ برهن وبغير رهن واستعار وضمن ووقف أرضاً له.

وحلف ﷺ بالله تعالى في أكثر من ثمانين موضعاً توسعة بذلك على أمته مع أنه كان أكثر الخلق تعظيماً لربّه عز وجل ولولا توسعته ﷺ على أمته ما حلف بالله ﷺ قط تعظيماً له.

وكان ﷺ يستثني في يمينه تارة ويكفرها أخرى ويمضي فيها أخرى.

وكان ﷺ يثيب الشاعر على شعره إذا مدحه ومنع الثواب في حق غيره لئلا يتجرأ الشعراء على المدح ويبالغوا فيه فيؤدي إلى الكذب بغير حق.

وأمر أن يحثى في وجوه المداحين التراب وصورة ذلك أن الممدوح يأخذ تراباً بأصابعه من الأرض ثم يذريه بين يدي المادح على الأرض ويقول له: ماذا تمدح فيمن خلق من هذا، لا أنه يرمي التراب في وجه الشاعر فيؤذيه بذلك كما فهمه بعضهم.

وكان ﷺ يصارع لأجل معرفة مكايد حرب العدو وصرع ركانة كما قال بعضهم.

وكان ﷺ يفلي ثوبه من القمل الذي يصعد على ثيابه من مواضع الفقراء ولم يكن ثوبه ﷺ يقمل.

وكان ﷺ أحسن الناس مشياً وأسرعهم فيه إذا مضى للصلاة حتى كأنه ينحط من صبب من غير اكتراث ولا تعب منه ﷺ. وكان أصحابه يمشون بين يديه وهو خلفهم ويقول: «دعوا ظهري للملائكة».

وكان إذا سافر يكون ساقة أصحابه لأجل المنقطعين وأردافهم والنظر في حالهم. وكانت ثيابه ﷺ كلها مشمرة فوق الكعبين ويشد أوسطه إذا كانت طويلة وأكثر أحواله أنه كان يفصلها قصيرة فلا يحتاج إلى تشمير. وكان إزاره فوق ذلك إلى نصف الساق. وكان قميصه ﷺ مشدود الأزرار وتارة كان يتزرر بالأزرار المعهودة وتارة بشوكة أو إبرة وربما أحدث التزرر في الصلاة.

وكان له ﷺ ملحفة مصبوغة بالزعفران وربما صلى بالناس فيها وحدها وربما لبس الكساء الأسود أو المخطط وما عليه غيره. وكان يلبس الكساء المرقع ويقول: «إنما أنا عبد ألبس كما يلبس العبد». وكان له ثوبان للجمعة خاصة كما مر سوى ثيابه في غير الجمعة وربما لبس إزاراً واحداً ليس عليه غيره يعقد طرفيه بين كتفيه وربما أمّ به الناس على الجنائز وربما صلى به في بيته، ويلتحف به إذا كان واسعاً وربما كان ذلك الإزار هو الذي جامع فيه يومئذ، وربما صلى في الليل في وسطه إزار يرتدي بطرفه مما يلي هدبه ويلقي البقية على بعض نسائه لطوله ويصلي فيه وكان لا يتحرك بحركة ركوعه ولا سجوده. وكان له كساء أسود ليس عنده غيره فاستكساه شخص فكساه له.

وكان له ﷺ ملاءة مصبوغة بالزعفران كما مر وكانت تنقل معه إلى بيوت زوجاته

فترسلها المرأة التي كان نائماً عندها لصاحبة النوبة فترشها بالماء فتظهر رائحة الزعفران فينام معها فيها ﷺ.

وكان ﷺ كثيراً ما يخرج وفي أصبعه الخيط المربوط في خاتمه فيتذكر به الشيء. وكان يختم بخاتمه على الكتب ويقول: «الخاتم على الكتاب خير من التهمة».

وكان ﷺ يلبس القلانس تحت العمائم وتارة يلبسها من غير عمامة وربما نزع قلنسوته من رأسه فجعلها سترة بين يديه وصلّى إليها وكانت صوفاً وتارة كان يجعلها قطناً محشوة مضربة.

قال العلماء: وهذا يؤذن بأن طولها كان ثلثي ذراع حتى يصح كونها سترة للمصلي.

وكان له ﷺ عمامة تسمى السحاب فوهبها لعلي رضي الله عنه فربما طلع علي رضي الله عنه وهي على رأسه فيقول ﷺ: «أتاكم علي في السحاب».

وكان له ﷺ فراش من أدم حشوه ليف طوله ذراعان أو نحوهما، وعرضه ذراع وشبر ونحوه. وكان له عباءة تفرش له حيثما تنقل تثنى له طاقين فيجلس عليها وفرشتها له عائشة مرة بعد أن ثنتها أربع طاقات فنام ﷺ تلك الليلة عن الوقت الأول من ورده، فقال: «أعيدوها طاقين فإن لينها أو وطأتها كاد أن يمنعني قيام ليلتي». وكثيراً ما كان ﷺ ينام على الحصير وحده وليس فوقه شيء.

وكان له ﷺ مطهرة من فخار يتوضأ منها ويشرب، فكان الناس يرسلون أولادهم الذين لم يبلغوا الحلم فيدخلون عليه ﷺ فلا يمنعون فإذا وجدوا في المطهرة ماء شربوا منه ومسحوا منه على وجوههم وأجسامهم يبتغون بذلك البركة.

وكان ﷺ إذا صلى الغداة جلس في مجلسه فيجيء خدم المدينة بآنيتهم فيها الماء فيسألونه ﷺ أن يضع يده في أوانيهم فيفعل وربما جاؤوه في الغداة الباردة فيغمس يده في الماء لأجل خاطرهم.

وكان ﷺ إذا بصق يتسارع الناس إلى تلقي بصاقه ونخامته بأكفهم فلا يقع له ﷺ نخامة على الأرض فكانوا يدلكون بتلك النخامة وجوههم وجلودهم طلباً أن لا تمسهم النار يوم القيامة. وكانوا يقتتلون على غسالة ماء وضوئه.

وكان أصحابه يتكلمون عنده بخفض صوت مع الهيبة والإطراق وكانوا لا يحدقون النظر إليه ﷺ ولا يحدون بصرهم إليه تعظيماً له وتوقيراً.

وكان ﷺ لا يؤذي من يؤذيه ولا يتكلم فيما لا يعنيه ولا يشمت بمصيبة، وكان إذا بالغ أحد في إذائه صبر واحتمل ولم يقابله بنظيره وربما قال: «رحم الله أخي موسى لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر».

وكان ﷺ يكره من يبلغه السوء عن أصحابه ويقول: «لا تبلغوني عن أصحابي إلاَّ خيراً فإني بشر أغضب كما يغضب البشر، وإني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر». وقسم مرة قسماً بين أصحابه فلما انصرف قال شخص من القوم: هذه قسمة ما أريد بها وجه الله تعالى، فلما رجع ﷺ أخبره شخص بما قيل في حقه فقال ﷺ: «لا تبلغوني عن أصحابي إلاَّ خيراً».

وكان ﷺ إذا رأى أحداً يفعل ما لا يليق لا يبادر إلى الإنكار عليه ولكن يثبت وينظر فإن رآه جاهلاً علمه برفق ورحمة كما في قصة الأعرابي الذي دخل فبال في المسجد فإنه نهى أصحابه أن يزعجوه من بوله، وقال: «إنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين». فلما فرغ الأعرابي من بوله كلَّمه بخفض صوت وقال: «إنما جعلت المساجد للصلاة ولم تجعل للبول».

وكان ﷺ يركب الحمار مأكوفاً وعليه قطيفة وإذا مر على الصبيان سلَّم عليهم وباسطهم. وأتوه مرة برجل فأرعد من هيبته ﷺ فقال: «هوِّن عليك يا أخي فلست بملك ولا جبار إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد».

وكان من تواضعه ﷺ أنه لا يدعوه أحد من أصحابه إلاَّ قال له: «لبيك».

وكان ﷺ مع أصحابه على ما يريدون ويحبون فإن تكلموا في أمر الآخرة تكلم معهم أو في أمر الدنيا تكلم معهم أوفى طعام أو شراب تكلم معهم رفقاً بهم واستمالة لخواطرهم فكان هيناً ليناً ﷺ.

وكان لا يزجر أصحابه إلاَّ عن حرام أو مكروه.

وكان ﷺ يسابق عائشة بالعدو والهرولة فيسبقها فإذا رآه غضبت تثاقل لها حتى تسبقه. قالت عائشة رضي الله عنها: وما مات ﷺ حتى كان أكثر صلاته النفل في الليل جالساً وكان إذا تعب من القيام يجلس فيقرأ وهو جالس، فإذا قارب الركوع قام فقرأ ما كتب له ثم ركع.

وكان كثيراً ما يفتتح قيام الليل بركعتين خفيفتين ثم يطيل بعدهما ما شاء ويجعلهما كالنافلة التي قبل الفريضة ويكثر فيها من الاستغفار أدباً مع ربّه وتشريعاً لأمته ﷺ.

وكان من أخلاقه ﷺ تسمية دوابه وسلاحه ومتاعه، فكان اسم رايته ﷺ العقاب، وكانت سوداء. وكان له راية أخرى صفراء وأخرى بيضاء فيها خطوط سوداء وكان اسم جعبته ﷺ الكافور واسم خيمته الكن واسم قضيبه الممشوق واسم قدحه الريان واسم رِكوته الصادر واسم سرجه الراح واسم مقراضه الجامع واسم سيفه الذي يحضر به الحروب ذو الفقار وكان له أسياف أخر، وكان له ﷺ منطقة من أدم فيها ثلاث حلق من فضة واسم ناقته القصواء وهي التي يقال لها: العضباء، وكان اسم بغلته ﷺ دُلْدُلُ واسم

حماره يعفور واسم شاته التي كان يشرب لبنها عينة. انتهى ما ذكره القطب الشعراني في الأخلاق المتبولية. وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وأزواجه وذريته وأهل بيته كلما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون.

نبذة في ذكر أعمامه ﷺ

وعماته ومؤذنيه وخطيبه وحداته وشعرائه وآلات حروبه من أسيافه وأدراعه وأقواسه وأتراسه وأرماحه وخيله ولقاحه وحميره وشياهه.

أعمامه ﷺ

قال في المواهب وشرحها نقلاً عن ذخائر العقبى في مناقب ذوي القربى: كان له ﷺ اثنا عشر عماً بنو عبد المطلب أبوه عبد الله ثالث عشرهم الحرث، وكان أكبر ولد أبيه، وبه كان يكنى. مات في حياة أبيه ولم يدرك الإسلام. وأمه صفية بنت جندب.

وأبو طالب كني بأكبر ولده، واسمه عبد مناف.

والزبير بضم الزاي وفتح الباء على رأي الأكثر وقيل: بفتح الزاي وكسر الباء، ويكنى أبا الحارث، . وكان أسن من شقيقه عبد الله. وأبو طالب وكان شاعراً شريفاً رئيس بني هاشم والمطلب وأحد حكام قريش، وكان ذا عقل ونظر ولم يدرك الإسلام.

والحمزة والعباس وأبو لهب، واسمه عبد العزى والغيداق بغين معجمة مفتوحة فتحتية ساكنة فدال مهملة فألف فقاف، لقب بذلك لجوده والمقوَّم بضم الميم وفتح القاف وشدّ الواو ومفتوحة ومكسورة.

وضرار وكان من فتيان قريش جمالاً وسخاءً.

وقثم بضم القاف وفتح المثلثة وميم.

وعبد الكعبة وجحل بتقديم الجيم على الحاء. وقال الدارقطني: بتقديم الحاء، وبه جزم النووي. ويسمى المغيرة ومناقب حمزة والعباس أشهر من أن تذكر وقد تكفل ببسطها كتب السير.

عماته ﷺ

قال في المواهب وشرحها: وأما عماته ﷺ بنات عبد المطلب فجملتهن بلا خلاف ست: عاتكة وأميمة بضم الهمزة وفتح الميمين بينهما تحتية ساكنة ثم تاء تأنيث والبيضاء وهي أم حكيم، وبَرة بفتح الباء، وصفية وأروى.

مؤذنوه وخطيبه ﷺ وحداته وشعراؤه

قال في المواهب وشرحه: أما مؤذنوه فأربعة: اثنان بالمدينة، بلال بن رباح وأمه

حمامة مولى أبي بكر الصديق، وهو أول من أذن لرسول الله ﷺ ولم يؤذن بعده لأحد من الخلفاء إلاّ أن عمر لما قدم الشام حين فتحها أذن بلال فتذكر الناس النبي ﷺ. قال: أسلم مولى عمر بن الخطاب فلم أر باكياً أكثر من يومه.

وقيل: عبد الله بن أم مكتوم القرشي الأعمى أسلم قديماً وهاجر إلى المدينة النبي ﷺ وأذن له عليه الصلاة والسلام بقباء سعد بن عائد أو ابن عبد الرحمٰن المعروف بسعد القرظي بفتحتين وظاء، مولى عمار بن ياسر وبمكة أبو محذورة واسمه أوس الجحمي المكي. وأما زياد بن الحرث الصُّدائي ـ بضم الصاد ـ فقد أذن مرة ونظم الخمسة البرماوي، فقال:

لخير الورى خمس من الغرّ أذنوا ... بلال نديُّ الصوت بدأ يعين

وعمرو الذي أمّ لمكتوم أمّه ... وبالقرظ اذكر سعدهم إذ يبين

وأوس أبو محذورة وبمكة ... زياد الصدائي نجل حارث يعلن

وأما شعراؤه عليه الصلاة والسلام الذين يذبون عن الإسلام أي يدفعون الكفار عن الهجاء أهل الإسلام بسبب هجائهم لهم، فكعب بن مالك الأنصاري وعبد الله بن رواحة الخزرجي الأنصاري، وحسان بن ثابت بن المنذر بن عمرو بن حرام بالمهملتين الأنصاري الخزرجي دعا له عليه الصلاة والسلام فقال: «اللهم أيّده بروح القدس» فيقال: أعانه جبريل بسبعين بيتاً. وفي الحديث: أن جبريل مع حسان ما نافح عني وهو بالحاء المهملة أي دافع. والمراد هجاء المشركين ومجاوبتهم على أشعارهم ومجاوبته لهم كثيرة، فكم يقول ابن إسحٰق في السيرة قال فلان من الكفار كذا فأجابه حسان بكذا.

وقد روى أبو داود عن عائشة: أن النبي ﷺ كان يضع لحسان المنبر في المسجد يقوم عليه فإنما يهجو الذين كانوا يهجونه ﷺ، فقال ﷺ: «إن روح القدس مع حسان ما دام ينافح عن رسول الله».

عاش رضي الله عنه مائة وعشرين سنة ستين في الجاهلية وستين في الإسلام كما قاله ابن سعد. وتوفي سنة أربع وخمسين وكعب بن مالك كان كثير المناقضة للمشركين ويخوفهم بالحرب. وكان ابن رواحة يعيّرهم بالكفر.

وفي مسلم عن عائشة قال ﷺ: «اهجوا المشركين فإنه أشد عليهم من رشق النبل».

وأما خطيبه ﷺ فهو ثابت بن قيس بن شماس خزرجي شهد له ﷺ بالجنة وكان خطيبه وخطيب الأنصار، واستشهد باليمامة سنة اثنتي عشرة.

وأما حداته ﷺ فهم عبد الله بن رواحة وعامر بن الأكوع وهو عم سلمة بن عمرو بن الأكوع، واستشهد يوم خيبر، وانجَشَة العبد الأسود وهو بفتح الهمزة وسكون النون وفتح

الجيم والشين المعجمة، وكان حسن الحداء، حسن الصوت.

قال أنس: كان البراء بن مالك الأنصاري أخو أنس يحدو بالرجال وكان حسن الصوت. وأنجشة بالنساء وقد كان يحدو وينشد القريضة، أي الشعر والرجز. فقال عليه الصلاة والسلام: «عبد أي يا عبد رويدك رفقاً بالقوارير» أي النساء، فشبههن بالقوارير من الزجاج لأنه يسرع إليها الكسر، أراد أن الإبل إذا سمعت الحداء أسرعت في المشي واشتدت فأزعجت الراكب وأتعبته فنهاه عن ذلك لأن النساء يضعفن عن شدة الحركة، وقيل غير ذلك.

آلات حروبه ﷺ وغيرها

كسيوفه ودروعه وأقواسه وجعبته وأتراسه وأرماحه ومغفره وراياته وغير ذلك.

قال في المواهب: أما أسيافه عليه الصلاة والسلام فكان له تسعة أسياف: مأثور وهو أول سيف ملكه عليه الصلاة والسلام، وهو الذي يقال إنه قدم به المدينة في الهجرة. والعضب ـ بفتح العين وإسكان الضاد المعجمة وبالباء الموحدة ـ أرسله إليه سعد بن عبادة حين سار إلى بدر. وذو الفقار، وهو أشهر أسيافه ﷺ، سمي بذلك لأنه كان في وسطه مثل فقرات الظهر. ويجوز في فائه الفتح والكسر، صار إليه يوم بدر وكان للعاصي بن منبه وكان هذا السيف لا يفارقه ﷺ يكون معه في كل حرب يشهدها، وكانت قائمته ـ أي مقبضه وقبيعته ـ ما على طرف مقبضه وحلقته وذؤابته ـ أي علاقته وبكراته ـ أي حلقه التي في حليته وهي ما يكون في وسطه، ونعله حديدية التي في أسفل غمده من فضة. والقلعي ـ بضم القاف وفتح اللام ـ وهو الذي أصابه من قلع موضع بالبادية. والبتار ـ أي القاطع ـ، والحتف ـ بفتح الحاء وسكون الفوقية وبالفاء ـ وهو الموت، والمخذم ـ بكسر الميم وسكون الخاء وفتح الذال المعجمتين وبالميم ـ وهو القاطع. والرسوب ـ بفتح الراء ـ فعول من رسب يرسب إذا ثبت في أسفل الإناء أي يقطع الضريبة ويثبت في آخرها، أصابهما ﷺ ـ أي للخذم والرسوب ـ من الفلس ـ بضم الفاء وإسكان اللام ـ صنم لطيء كانا موضوعين في عنقه فبعث المصطفى علياً سنة تسعة فهدمه وأخذهما وغنم سبياً وشاءً ونعماً وفضةً. والقضيب ـ بفتح القاف وكسر المعجمة وسكون التحتية وموحدة.

وأما أدراعه ﷺ

جمع درع وهو القميص المتخذ من الزرد، فسبعة: ذات الفضول ـ بضم الفاء والمعجمة ـ سميت بذلك لطولها. أرسل بها إليه سعد بن عُبَادة حين سار إلى بدر وكانت من حديد وهي التي رهنها عند أبي الشحم اليهودي على ثلاثين صاعاً من شعير. وذات

الوشاح ـ بكسر الواو ـ. وذات الحواشي، والسعدية ـ بفتح السين وبالعين المهملة ـ ويقال: بالغين، وهي درع عكبر القينقاعيّ. قيل: وهي درع داود عليه الصلاة والسلام التي لبسها عند قتل جالوت. وفضة ـ بكسر الفاء ـ وكان قد أصابهما من بني قينُقَاع. والبتراء لقصرها، والخرنق ـ بكسر المعجمة وسكون الراء وكسر النون ـ. وكان عليه ﷺ يوم أُحدٍ درعان ذات الفضول وفضة، وكان عليه يوم حنين درعان ذات الفضول والسعدية.

وأما أقواسه ﷺ

فكانت ستة: الزوراء، وثلاث من سلاح بني قينقاع، قوس يدعى الروحاء، وقوس يدعى الصفراء، وشوحط ـ بفتح المعجمة وإسكان الواو فحاء مفتوحة فطاء مهملة ـ. والكتوم ـ بكاف مفتوحة ففوقية ـ كسرت يوم أُحد فأخذها قتادة. والسّداد ـ بفتح السين ـ.

وكانت له ﷺ جعبة ـ بفتح الجيم ـ تدعى الكافور، وكانت له منطقة ـ بكسر الميم ـ من أديم فيها ثلاث حلق من فضة. والإبزيم ـ بالكسر من فضة ـ والطرف الذي يدخل في الإبزيم من فضة.

وأما أتراسه ﷺ

فكان له ﷺ ترس اسمه الزلوق ـ بفتح الزاي وضم اللام وسكون الواو وقاف ـ يزلق عنه السلاح، وترس يقال له: الفتق ـ بضم الفاء وفتح الفوقية وقاف ـ وترس أهدي له فيه تمثال عقاب أو كبش فوضع يده عليه فأذهب الله ذلك.

وأما أرماحه عليه الصلاة والسلام

فالمثوى ـ بضم الميم وإسكان المثلثة وكسر الواو ـ. والمثنى ـ بضم الميم وسكون المثلثة وفتح النون وكسرها ـ ورمحان آخران، وقيل: ثلاثة، فالمجموع خمسة. نظمها العراقي بقوله:

كان له من الرّماح خمسة ... من قينقاع جاءه ثلاثة

ورابع له يسمى المثويا ... والخامس المثنى بذاك سُميا

وكانت له ﷺ حربة كبيرة تسمى البيضاء وحربة صغيرة دون الرمح شبه العكاز يقال لها العنزة، وكانت كما في الصحيح عن ابن عمر تركز فيصلي إليها.

وكان له عليه الصلاة والسلام مِغْفَرٌ ـ بكسر الميم ـ من حديد وهو ما نسج من زرد الدرع يلبس على الرأس يسمى السبوغ أو ذا السبوغ ـ بفتح السين وضمها ـ وآخر يسمى الموشح ـ بضم الميم وفتح الواو والشين المعجمة المشددة.

وكان له عليه الصلاة والسلام راية سوداء مربعة تسمى العقاب، وراية بيضاء الزِّينة، وراية صفراء، وروي أن لواءه أبيض مكتوب عليه: لا إله إلاَّ الله محمد رسول الله.

وكان له عليه الصلاة والسلام فسطاط يسمى الكِنّ كما تقدم عن الإمام الشعراني، ومِحْجنٌ ـ أي عصا معوجة ومخصَرة ـ وهي عصا أو غيرها يتكىء عليها تسمى العُرُجُونَ، وقضيب من الشوحط وهو نوع من شجر الجبال يسمى الممشوق كما تقدم، وقدح يسمى الريان كما تقدم، وآخر يسمى مغيثاً وآخر مضبب بسلسلة من فضة في ثلاث مواضع وآخر من عَيْدَان، والعَيْدَانَةُ النخلة السحوق، وآخر من زجاج وتور من حجارة يسمى المخضب وهو إناء يغسل فيه الثياب وغيرها، وركوة تسمى الصادرة ومخضب من نحاس ومُغتسل من صفر أي إناء يغتسل فيه الإنسان من نحاس أصفر ومُدْهُنٌ وهو ما يجعل فيه دهن يدهن به الرأس وغيره، ورَبعة وهي وعاء من جلد يجعل فيه الطيب ونحوه أهداها له المقوقس يجعل فيها المرآة ومُشطاً من عاج والمكحلة وكان يكتحل منها عند النوم ثلاثاً في كل عين، والمقراض والسواك وقصعة تسمى الغراء بأربع حلق وصاع ومد وقطينة وهي كساء له خمل وسرير قوائمه من ساج وفراش من أدم حشوه ليف، وخاتم من حديد ملوى بفضة، وخاتم فضة فصه منه منقوش عليه: محمد رسول الله، وأهدى له النجاشي خفين ساذجين فلبسهما، وثلاث جباب يلبسهن في الحرب، جبة سندس أخضر وجبة طيالِسَةٍ ولم يذكروا الثالثة. وفي ألفية العراقي:

له ثلاث من جِبَابٍ تلبس　　في الحرب إحداهن منها سندس

أخضر ثم جبة طيالسة　　تغسل للمرضى وكانت ملبسه

وعمامة يقال لها: السحاب، كما تقدم، وأخرى سوداء وغير ذلك. وفيه مباحث جليلة في لباسه ﷺ في القصيد الثالث اهـ من المواهب.

خيله ﷺ وبغاله وحميره ولقاحه وشياهه

قال في المواهب: أما خيله ﷺ فالسكب يقال: فرس سكب، أي كثير الجري، وهو أول فرس اشتراه ﷺ بعشرة أواق وكان أغرّ محجلاً طلق اليمين كميتاً ـ بضم الكاف ـ أي بين السواد والحمرة.

قال ابن الأثير: كان أدهم، أي أسود، والمرتجز ـ بضم الميم وسكون الراء وفتح التاء وكسر الجيم بعدها زاي ـ سمي به لحسن صهيله وكان أبيض، والظرب ـ بالظاء المعجمة المفتوحة وكسر الراء وبالموحدة ـ سمي به لكبره وسِمَنِهِ أهداه له فروة بن عمرٍو الجذامي واللحيف ـ بالمهملة بوزن أمير ـ أهداه له ربيعة بن أبي البراء، سمي به لكبره

وسمنه كان يُلْحِفُ الأرض أي يغطيها فعيل بمعنى فاعل، واللزار أهداه له المقوقس وكان ﷺ معجباً، والوَرْدُ ـ بفتح الواو وسكون الراء ـ قال ابن سعد: أهداه له تميم الداري فأعطاه ﷺ لعمر بن الخطاب فحمل عليه عمر في سبيل الله تعالى ثم وجده يباع برخص فقال له النبي ﷺ: «لا تشتره». وسَبْحَة بفتح السين المهملة وسكون الموحدة وحاء مهملة من قولهم: فرس سابح إذا كان حسن مدّ اليدين في الجري، وهو فرس أشقر اشتراه ﷺ من أعرابي. فهذه سبعة متفق عليها، والبحر عده الحافظ الدمياطي في خيله ﷺ قال: وكان اشتراه من تجار قدموا به من اليمن فسبق عليه مرات فجثا ﷺ على ركبتيه ومسح على وجهه وقال: «ما أنت إلا بحر» فسمي بحراً، وكان كميتاً وكان سرجه دفتاه، أي جانباه، من ليف. والسِّجل بكسر السين المهملة وسكون الجيم وذو اللمة بكسر اللام وتشديد الميم، وذو العُقَّال بضم العين المهملة وتشديد القاف وحكي تخفيفها والسرحان بكسر السين وسكون الراء والطرف بكسر الطاء المهملة وسكون الراء بعدها فاء، والمرتجل بكسر الجيم والمرواح بكسر الميم وسكون الراء آخره مهملة تسمى به لسرعته أهداه له ﷺ قوم من مذحج. ومُلاوِحٌ بضم الميم وكسر الواو فحاء مهملة. والمندوب والنجيب بوزن كريم واليعبوب والعيسوب.

وأما بغاله ﷺ

فقال في المواهب: وكان له ﷺ من البغال دلدل بدالين مهملتين وكانت شهباء أهداها له المقوقس وفضة أهداها له فروة بن عمرو الجذامي وأخرى أهداها له ابن العَلْماء بفتح العين المهملة وسكون اللام وبالمد صاحب أيلة وأخرى من دومة الجندل وآخر من عند النجاشي قيل: وأهدى له كسرى بغلة أخرى وفي ذلك نظر. أجاب عنه العلامة الزرقاني في الشرح فراجعه.

وأما حميره ﷺ

فقال في المواهب: وكان له ﷺ من الحمير: عفير أهداه له المقوقس ويعفور أهداه له فروة بن عمرو الجذامي. وقيل هما واحد. وذكر أن سعد بن عُبادة الخزرجي: أعطى للنبي ﷺ حماراً فركبه.

وأما لقاحه ﷺ

فقال في المواهب: وكان له عليه الصلاة والسلام من اللقاح جمع لقحة بكسر اللام الناقة القريبة العهد بالولادة إلى ثلاثة أشهر: القصواء بفتح القاف والمدّ وهي التي هاجر عليها، والعضباء بفتح العين وسكون الضاد، والجدعاء بفتح الجيم وسكون الدال المهملة، ولم يكن بهما عضب ولا جدَعٌ وإنما سميتا بذلك، وقيل: هما واحدة.

والعضباء هي التي كانت لا تسبق فجاء أعرابي على قعود له فسبقها فشق ذلك على المسلمين فقال عليه الصلاة والسلام: «إن حقاً على الله أن لا يرفع من الدنيا شيئاً إلّا وضعه» وغنم عليه الصلاة والسلام يوم بدر جملاً لأبي جهل في أنفه برة بضم الموحدة وتخفيف الراء حلقة صغيرة من فضة فأهداه أي نحره من جملة الهدي يوم الحديبية ليغيظ بذلك المشركين، وكان له عليه الصلاة والسلام خمسة وأربعون لقحة أرسل بها إليه سعد بن عبادة منها أطلال وأطراف وبردة والبغوم وبركة والحناء وزمزم والرياء والسعدية والسقيا بضم أوله وسكون ثانيه والسمراء والشقراء وعجرة بفتح العين وسكون الجيم والعُرَيْس بضم العين وفتح الراء وتشديد التحتية وغوثة وقيل غيثة وقمر ومروة ومهرة وورشة واليسرة.

وأما شياهه ﷺ

فقال في المواهب: وكانت له مائة شاة وكانت له سبعة أعنزٍ منائح جمع مَنِيْحَةٍ الناقة أو الشاة المعدة لشرب لبنها ترعاهن أم لهنَّ. وكان له ﷺ ديك أبيض. قال الإمام العراقي في ألفيته:

وكان ديك عنده أبيض له   كذا المحبّ الطبري نقله

نبذة من خصائصه ﷺ

قال العارف المناوي في طبقاته الكبرى: وهي أنواع، الأول: الواجبات عليه وهي الضحى والوتر وراتبة الصبح والأضحية والسواك ومشاورة العقلاء وتغيير منكر مطلقاً ومصابرة العدوّ في الحرب وإن كثر وقضاء دين مسلم معسر وطلاق كارهته وتخيير زوجاته بين الطلاق والمُقام والتهجد ثم نسخ.

الثاني: المحرمات، وهي الصدقة ولو نفلاً، والكفارة وتعلم الخط والقراءة والشعر وروايته ونزع لأمته إذا لبسها قبل القتال ومدّ عينيه لمتاع غيره والإيماء إلى فعل مباح كقتل وضرب مع إظهار خلافه وتزوج الكتابية والأمة والمن ليستكثر.

الثالث: المباحات، وهي التزوج فوق تسع وتزوجه محرماً وبلا ولي وشهود وبلفظ الهبة إيجاباً لا قبولاً وتزوجه من شاء ومن نفسه متولي الطرفين ومكثه بالمسجد جنباً وإدامة قضاء نافلة وقت الكراهة والوصال وشهادته لنفسه ولفرعه وحكمه لهما وجواز الشهادة له بما ادعاه مع عدم علم الشاهد وشهادته كاثنين وحمى الموات لنفسه وأخذ طعام وشراب احتاجه من مالكه المحتاج إليه ولا ينتقض طهره بالنوم وكذا الأنبياء.

الرابع: الإكرام، ومن ذلك تحريم زوجاته على غيره وسراريه وأنه خاتم الأنبياء وأفضلهم وأول من تنشق عنه الأرض وأول من يقرع باب الجنة ومن يدخلها ثم الأنبياء

وأول شافع ومشفع وأرسل إلى الثقلين وأقسم الله بحياته وكان لا ينام قلبه ويرى من خلفه ويبصر في الظلمة كما يبصر في الوضوء ولا فيء له في شمس ولا قمر ولا يقع الذباب على جسده وأجر تنفله في الصلاة قاعداً كقائم ويخاطبه المصلي في تشهده وتلزمه إجابته ولا تبطل، ويحرم رفع الصوت عنده ونداؤه باسمه من وراء الحجرات والتكني بكنيته ولا يُورث.

تمّ الجزء الأول ويليه الجزء الثاني وأوله

لما انتهى بنا المقال في سيرة المصطفى ﷺ وما يتعلق بها فلنوف بما وعدنا به أول الكتاب من ذكر ثلاثمائة حديث من جوامع كلمه ﷺ

النفحات الشاذلية

في

شرح البردة البوصيرية

تأليف

الإمام الشيخ حسن العدوي الحمزاوي

المتوفى ١٣٠٣هـ

خرج أحاديثه وعلق عليه

أحمد فريد المزيدي

الجزء الثاني

بسم الله الرحمن الرحيم

لمَّا انتهى بنا المقال في سيرة المصطفى ﷺ وما يتعلق به، فلنوفّ بما وعدنا به أول الكتاب من ذكر ثلاثمائة حديث من جوامع كلمه ﷺ وغيرها من أحاديث الترغيب والترهيب، ومكارم الأخلاق من الجود والسخاء والحلم والصبر والتحمل وغير ذلك مما حثَّ عليه من كمال الآداب، فلعلّ وعسى بذكر هذه الآثار وتبليغها للأمة نحظى بشفاعته ﷺ ونفوز بنضارة الوجه. وانتظامنا في سلك من يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلاّ ظله. كما وردت به الآثار عنه عليه الصلاة والسلام، مقسماً ذلك إلى ثمانية أبواب. كل باب يشتمل على فصول غالباً.

الباب الأول

فيما ورد في الحثّ على الإخلاص والتوبة والصبر والصدق والاستقامة والمبادرة إلى الخير والمحافظة على الأعمال وعلى السنّة، وفضل الذكر والاستغفار والدعاء والتسبيح والتحميد والتهليل والتكبير والأذكار التي تقال بالليل والنهار غير مختصّة بالصباح والمساء والتي تقال عقب الصلوات والصلاة والسلام على النبي ﷺ والتعاون على البر وتعظيم حرمات المسلمين والشفقة عليهم.

الباب الثاني

في الشفاعة والإصلاح بين الناس، وفضل ضعفة المسلمين، وملاطفة اليتيم والبنات وسائر المسلمين وما ناسبها. والوصية بالنساء، وفضل النفقة على العيال، وحق الجار، وبر الوالدين، وصلة الرحم، وتحريم العقوق، وقطيعة الرحم، وفضل الحبّ في الله، والتحذير من إيذاء الصالحين.

الباب الثالث

فيما ورد في الخوف والرجاء، وفضل الرجاء والجمع بينهما، وجواز الأخذ من غير مسألة، والحث على الأكل من عمل اليد، والجود والكرم والإيثار والمواساة، والنهي عن البخل والتواضع، وتحريم الكبر، وحسن الخلق والحلم والرؤيا وآداب النوم.

وروى الحافظ رزين العبدري مرفوعاً ومُرْسلاً: «من أخلص لله تعالى أربعين يوماً ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه»[١].

قال: وجميع ما ورد في فضل العلم والعمل إنما هو في حق المخلصين فيه، فإياك يا أخي والغلط، فإن الناقد بصير.

وقال العارف أيضاً في كتابه تنبيه المغترين: ثبت في الأحاديث الصحيحة أن رسول الله ﷺ قال: «لما خلق الله عز وجل جنة عدن خلق فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، فقال لها: تكلمي، فقالت: قد أفلح المؤمنون، ثلاثاً. ثم قالت: أنا حرام على كل بخيل ومراء» اهـ. وحيث قصد بعمله وجه الله لا يقدح في ذلك ثناء الناس عليه ومدحهم إياه.

وقال في رياض الصالحين في باب ما يتوهم: أنه رياء وليس برياء عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قيل لرسول الله ﷺ: أرأيت الرجل يعمل العمل من الخير ويحمده الناس عليه، قال: «تلك عاجل بشرى المؤمن»[٢] رواه مسلم.

وقال في باب الإخلاص عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية وإذا استنفرتم فانفروا»[٣] رواه الشيخان ومعناه: لا هجرة من مكة لأنها صارت دار الإسلام.

وعن أبي عبد الله جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنهما قال: كنا مع النبي ﷺ في غزاة فقال: «إن بالمدينة رجالاً ما سرتم مسيراً ولا قطعتم وادياً إلاَّ كانوا معكم حبسهم المرض»[٤].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا ينظر إلى أجسامكم وإلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم»[٥]. رواه مسلم.

فصل في التوبة

قال الإمام النووي في رياض الصالحين: قال العلماء: التوبة واجبة من كل ذنب فإن كانت المعصية بين العبد وبين الله تعالى لا تتعلق بحق آدميّ فلها ثلاثة شروط، أحدها: أن يقلع عن المعصية، والثاني: أن يندم على فعلها. والثالث: أن يعزم أن لا

(١) رواه ابن المبارك في الزهد (ص٣٥٩)، وهناد كذلك (٢/ ٣٥٧)، والقضاعي في الشهاب (١/ ٢٨٥).
(٢) رواه مسلم (٤/ ٢٠٣٤)، وابن حبان (٢/ ٨٧).
(٣) رواه البخاري (٣/ ١٠٢٥)، (٤/ ١٥٦٧)، ومسلم (٣/ ١٤٨٧).
(٤) رواه البخاري (٤/ ١٦١٠)، ومسلم (٣/ ١٥١٨).
(٥) رواه مسلم (٤/ ١٩٨٦، ١٩٨٧).

يعود إليها أبداً، فإن فقد أحد الثلاثة لم تصح توبته. وإن كانت المعصية تتعلق بآدمي فشروطها أربعة، هذه الثلاثة، وأن يبرأ من حق صاحبها فإن كانت مالاً أو نحوه رده إليه وإن كانت حد قذف ونحوه مكنه منه أو طلب عفوه وإن كانت غيبة استحله منها، ويجب أن يتوب من جميع الذنوب فإن تاب من بعضها صحت توبته عند أهل الحق من ذلك الذنب وبقي عليه الباقي. وقد تظاهرت دلائل الكتاب والسنة وإجماع الأمة على وجوب التوبة ثم قال:

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة»(١) رواه البخاري.

وعن الأغر بن يسار المزني رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أيها الناس توبوا إلى الله فإني أتوب إلى الله في اليوم مائة مرة»(٢).

وعن أبي حمزة أنس بن مالك رضي الله عنه خادم رسول الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «الله أفرح بتوبة عبده من أحدكم سقط على بعيره وقد أضله في أرض فلاة»(٣). رواه الحاكم ومسلم.

وعن أبي موسى عبد الله بن قيس الأشعري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها»(٤) رواه مسلم.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها تاب الله عليه»(٥) رواه مسلم.

وعن أبي عبد الرحمٰن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «إن الله عز وجل يقبل توبة العبد ما لم يغرغر»(٦) رواه الترمذي وقال: حديث حسن اهـ.

قال القطب الكبير العارف سيدي علي المرصفي رضي الله عنه في كتابه منهج السالك مختصر الرسالة القشيرية ما نصه: وروي أن آدم عليه السلام لما أكل من الشجرة ونزع عنه لباس الجنة ولى هارباً وجعل يستتر بورق الجنة فناداه ربه: أفراراً مني يا آدم،

---

(١) رواه البخاري (٥/ ٢٣٢٤).
(٢) رواه مسلم (٤/ ٢٠٧٥).
(٣) رواه البخاري (٥/ ٢٣٢٥)، والبيهقي (١/ ٢٣٤).
(٤) رواه مسلم (٤/ ٢١١٣).
(٥) رواه مسلم (٤/ ٢٠٧٦).
(٦) رواه الترمذي (٥/ ٥٤٧)، وابن ماجه (٢/ ١٤٢٠)، والحاكم (٤/ ٢٨٦).

فقال: بل حياءً منك يا ربّ. فقال الله تعالى: أما خلقتك بيدي، أما أسجدت لك ملائكتي، أما نفخت فيك من روحي، أما أسكنتك في جواري فلم عصيتني، اخرج من جواري فلا يجاورني من عصاني. فقال آدم: سبحانك اللهم وبحمدك لا إله إلاّ أنت ظلمت نفسي وعملت سوءاً فاغفر لي إنك خير الغافرين، سبحانك اللهم وبحمدك لا إله إلاّ أنت ظلمت نفسي وعملت سوءاً فاغفر لي وارحمني إنك أرحم الراحمين، سبحانك اللهم وبحمدك لا إله إلاّ أنت ظلمت نفسي وعملت سوءاً فتب عليّ إنك أنت الرحيم، فتاب الله عليه.

فصل في الصّبر

عن أبي مالك الحارث بن عاصم الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الطّهُورُ شَطْر الإيمان والحمد لله تملأ الميزان وسبحان الله والحمد لله تملآن أو تملأ ما بين السماوات والأرض والصلاة نور والصدقة برهان والصبر ضياء والقرآن حجة لك أو عليك كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها»[١]. رواه مسلم.

وعن أبي سعيد سعد بن مالك بن سنان الخدري رضي الله عنه: أن ناساً من الأنصار سألوا رسول الله ﷺ فأعطاهم ثم سألوه فأعطاهم حتى نَفِدَ ما عنده، فقال لهم حين أنفق كل شيء بيده: «ما يكن عندي من خير فلن أدّخره عنكم ومن يستعفف يعفه الله ومن يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ الله، ومن يتصَبّر يصبره الله، وما أعطي أحد عطاءً خيراً وأوسع من الصبر»[٢].

وعن أبي يحيى صهيب بن سنان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله له خير وليس ذلك لأحد إلاّ للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له» رواه مسلم.

وعن أبي عبد الله خبّاب بن الأرَتِ رضي الله عنه قال: «شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة فقلنا: ألا تستنصر لنا، ألا تدعو لنا، فقال: قد كان قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين ويمشط بالأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه ما يصدّه ذلك عن دينه، والله ليتَمّنَّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلاّ الله تعالى والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون»[٣]. رواه البخاري. وفي رواية: «وهو

---

(١) رواه مسلم (١/ ٢٠٣)، والدارمي (١/ ١٧٤).

(٢) رواه أبو داود (٢/ ١٢١)، والحاكم (٢/ ٤٤٩)، والبيهقي (٤/ ١٩٥)، وابن حبان (٨/ ١٩٢).

(٣) رواه البخاري (٣/ ١٣٢٢)، (٦/ ٢٥٤٦).

متوسّد بردة وقد لقينا من المشركين شدة».

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أراد الله بعبده الخير عجّل له العقوبة في الدنيا، وإذا أراد بعبده الشرّ أمسك عنه بذنبه حتى يوافى به يوم القيامة»[١].

وقال النبي ﷺ: «إن عظيم الجزاء منع عظيم البلاء، وإن الله تعالى إذا أحب قوماً ابتلاهم فمن رضي فله الرضا ومن سخط فله السخط»[٢]. رواه الترمذي، وقال: حديث حسن.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «يقول الله تعالى: ما لعبدي المؤمن عندي جزاء إذا قبضت صفيّه من أهل الدنيا ثم احتسبه إلاّ الجنة»[٣] رواه البخاري.

وعن عائشة رضي الله عنها أنها سألت رسول الله ﷺ عن الطاعون فأخبرها أنه كان عذاباً يبعثه الله تعالى على من يشاء فجعله الله تعالى رحمة للمؤمنين فليس من عبد يقع في الطاعون فيمكث في بلده صابراً محتسباً يعلم أن لا يصيبه إلاّ ما كتبه الله له إلاّ كان له مثل أجر الشهيد»[٤] رواه البخاري.

وعن أنس رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «إن الله عز وجل قال: إذا ابتليت عبدي بحبيبتيه فصبر عوضته منهما الجنة» يريد عينيه. رواه البخاري[٥].

وعن أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «ما يصيب المسلم من نَصَبٍ ولا وَصَبٍ ولا همٍّ ولا حُزن ولا أذىً ولا غمٍّ حتى الشوْكَة يشاكُها إلاَّ كَفّر الله بها من خطاياه»[٦] رواه البخاري ومسلم.

وذكر العارف الكبير سيدي عبد الغني النابلسي في كتابه الطلعة البدريّة شرح القصيدة المضرية لسلطان المحبين البوصيري ما نصه: الاصطفاء عبارة عن غاية القرب لقوله ﷺ: «إن الله إذا أحبّ عبداً ابتلاه فإن صبر اجتباه، وإن رضي اصطفاه»[٧].

---

(١) رواه الترمذي (٤/ ٦٠١).
(٢) رواه الترمذي (٤/ ٦٠١)، وابن ماجه (٢/ ١٣٣٨).
(٣) رواه البخاري (٥/ ٢٣٦١).
(٤) رواه البخاري (٣/ ١٢٨١)، (٥/ ٢١٦٥).
(٥) رواه البخاري (٥/ ٢١٤٠).
(٦) رواه البخاري (٥/ ٢١٣٧)، ومسلم (٤/ ١٩٩٠).
(٧) رواه الديلمي في الفردوس (١/ ٢٥١).

فصل في الصدق

قال في رياض الصالحين عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: «إن الصدق يهدي إلى البِّر وإن البرّ يهدي إلى الجنة، وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صدّيقاً، وإن الكذب ليهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذاباً»[١] رواه البخاري ومسلم.

وعن أبي محمد الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما قال: حفظت من رسول الله ﷺ: «دَع ما يَرِيبُكَ إلى ما لا يرِيبُك، فإن الصدق طمأنينة والكذب ريبَة»[٢] رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح. ويريبك ـ بفتح الياء وضمها ـ ومعناه: أترك ما تشك في حله واعْدِل إلى ما لا تشك في حلّه.

فصل في المراقبة

قال في رياض الصالحين رواية عن مسلم من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه في سؤال جبريل للنبي ﷺ عن الإسلام والإيمان والإحسان إلى أن قال: «فأخبرني عن الإحسان، قال: أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[٣].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كنت خلف رسول الله ﷺ يوماً فقال: «يا غلام إني أعلمك كلمات، احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إنْ سألتَ فاسأل الله وإن استَعَنْت فاستَعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلاَّ بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلاَّ بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف»[٤] رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

وفي رواية غير الترمذي: «احفظ الله تجده أمامك، تعرّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة، واعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك وما أصابك لم يكن ليخطئك، واعلم أن النصر مع الصبر وأن الفرج مع الكرب وأن مع العسْر يسراً»[٥].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن الله تعالى يغار وغيرة الله أن

---

(١) رواه البخاري (١/ ٢٢٦١)، ومسلم (٤/ ٢٠١٣).
(٢) رواه الترمذي (٤/ ٦٦٨).
(٣) رواه البخاري (١/ ٢٧)، ومسلم (١/ ٣٧).
(٤) رواه الترمذي (٤/ ٦٦٧).
(٥) رواه الحاكم (٣/ ٦٢٤)، والضياء (١٠/ ٢٣، ٢٤).

يأتي المرء ما حرَّم الله عليه»[١] متفق عليه. والغيرة ـ بفتح الغين ـ وأصلها: الأنَفَة.

وعن أبي يعلى شداد بن أوس رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «الكَيِّسُ مَنْ دانَ نفسَهُ وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتْبَع نفسَه هواها وتمنّى على الله الأماني»[٢] رواه الترمذي وقال حديث حسن. وقال الترمذي وغيره من العلماء: معنى دان نَفْسه حاسبها.

فصل في الاستقامة

في رياض الصالحين عن أبي عمرو، وقيل أبي عمْرة سفيان بن عبد الله رضي الله عنه قال: «قلت: يا رسول الله قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً غيرك، قال: قل آمنت بالله ثم استقم»[٣] رواه مسلم.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «قاربوا وسدِّدوا واعلموا أنه لن ينجو أحد منكم بعمله، قالوا: ولا أنت، قال: ولا أنا إلاَّ أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل»[٤]. رواه مسلم. والمقاربة القصد الذي لا غُلُوَّ فيه ولا تقصير. والسداد: الاستقامة والإصابة. ويتغمدني: يسترني. قال العلماء: ومعنى الاستقامة لزوم طاعة الله تعالى. قالوا: وهي من جوامع الكلم وهي من نظام الأمور وبالله التوفيق. اهـ.

قلت: وهذا منه ﷺ إرشاد لأمته في عدم اعتمادهم على العمل ولو بلغوا الدرجة القصوى فيه بل يكون محط نظرهم سعة الفضل والكرم أدباً منهم مع ربهم وإلاَّ فلا شك أن العمل من أفضل النعم والفرح يكون بالتوفيق فيه كما قال عليه الصلاة والسلام: «المؤمن من سرّته حسنته وساءته سيئته»[٥].

فصل في المبادرة إلى الخير

قال في رياض الصالحين عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «بادروا بالأعمال فتناً كقطع الليل المظلم يصبح الرجل مؤمناً ويمسي كافراً، ويمسي مؤمناً ويُصبح كافراً، يبيع دينه بعَرَضٍ من الدنيا»[٦]. رواه مسلم. وقوله: بادروا بالأعمال فتناً أي: اسبقوها بالأعمال، أي ائتوا بالأعمال قبل تعسرها عليكم بسبب الفتن.

---

(١) رواه البخاري (٥/ ٢٠٠٢)، ومسلم (٤/ ٢١١٤).
(٢) رواه الترمذي (٤/ ٦٣٨)، وابن ماجه (٢/ ١٤٢٣)، والحاكم (١/ ١٢٥)، (٤/ ٢٨٠).
(٣) رواه مسلم (١/ ٦٥)، والترمذي (٥/ ٢٦٧).
(٤) رواه مسلم (٤/ ١٩٩٣، ٢١٧٠).
(٥) رواه الحاكم (١/ ٥٩، ١٩٩)، والضياء (١/ ١٩٢).
(٦) رواه مسلم (١/ ١١٠).

وعن أبي سَرْوَعَة بكسر السين وفتحها، عقبة بن الحارث رضي الله عنه قال: صلّيت وراء النبي ﷺ بالمدينة العصر فسلّم ثم قام مسرعاً فتخطّى رقاب الناس إلى بعض حجر نسائه ففزع الناس من سرعته، فخرج عليهم فرأى أنهم قد عجبوا من سرعته قال: ذكرت شيئاً من تبر عندنا فكرهت أن يحبسني فأمرت بقسمته»[١] رواه البخاري. وفي رواية له: «كنت خلّفت في البيت تبراً من الصدقة فكرهت أن أُبَيِّتَهُ». التِّبْرُ: قِطَع ذهب أو فضة.

وعن جابر رضي الله عنه قال: قال رجل للنبي ﷺ: أرأيت إن قُتِلْتُ فأين أنا؟ قال: «في الجنة»، فألقى تمرات كنَّ في يده ثم قاتل حتى قتل[٢]. متفق عليه.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله أيّ الصدقة أعظم أجراً؟ قال: «أن تصَدَّق وأنت صحيح شحيح تخشى الفقر وتأمل الغنى ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت لفلان كذا ولفلان كذا وقد كان لفلان»[٣] متفق عليه، أي عند البخاري ومسلم. الحلقوم: مجرى النفس. والمريء: مجرى الطعام والشراب.

وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أخذ سيفاً يوم أحد فقال: «من يأخذ مني هذا» فبسطوا أيديهم كل إنسان منهم يقول: أنا أنا، قال: «فمن يأخذه بحقه؟» فأحجم القوم، فقال أبو دجانة رضي الله عنه، واسمه سِمَاكُ بن خرشة رضي الله عنه: أنا آخذه بحقه. فأخذه ففلق به هام المشركين[٤]. رواه مسلم. قوله: أحجم القوم: أي توقفوا. وفلق: أي شق به هام المشركين أي رؤوسهم.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «بادروا بالأعمال سبعاً، هل تنتظرون إلاَّ فقراً مُنْسِياً أو غِنىً مُطْغِياً أو مرضاً مفسداً أو هَرَماً مَفَنِّداً أو موتاً مُجْهزاً أو الدَّجَالَ فشرّ غائبِ يُنْتظر، أو الساعة فالساعة أدهى وأمر»[٥] رواه الترمذي وقال: حديث حسن.

فصل في الاقتصاد في العبادة

قال في رياض الصالحين، وعن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ دخل عليها وعندها امرأة قال: «من هذه؟ قالت: هذه فلانة تذكر من صلاتها، قال: مه عليكم بما

---

(١) رواه البخاري (١/ ٢٩١).

(٢) رواه البخاري (٤/ ١٤٨٧)، ومسلم (٣/ ١٥٠٩).

(٣) رواه البخاري (٢/ ٥١٥)، (٣/ ١٠٠٨)، ومسلم (٢/ ٧١٦).

(٤) رواه مسلم (٤/ ١٩١٧)، والحاكم (٣/ ٢٥٥).

(٥) رواه الترمذي (٤/ ٥٥٢).

تطيقون فوالله لا يَمَلّ الله حتى تملوا وكان أحب الدين إليه ما داوم صاحبه عليه»(١) متفق عليه. ومَهْ كلمة نهر وزجر، ومعنى لا يمل الله أي لا يقطع الله ثوابه عنكم وجزاء أعمالكم ويعاملكم معاملة المالّ حتى تملوا فتتركوا فينبغي لكم أن تأخذوا ما تطيقون الدوام عليه ليدوم ثوابه لكم وفضله عليكم.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «هلك المُتَنَطِّعون. قالها ثلاثاً»(٢) رواه مسلم. المتنطعون: المتعمقون المشددون في غير موضع التشديد.

وعن عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ قال: «إذا نَعَسَ أحدكم وهو يصلي فليرقد حتى يذهب عنه النوم فإن أحدكم إذا صلى وهو ناعس لا يدري لعله يذهب يستغفر فيسبّ نفسه»(٣) متفق عليه.

وعن أبي عبد الله جابر بن سمرة رضي الله عنه قال: كنت أصلي مع النبي ﷺ الصلوات فكانت صلاته قَصْداً وخُطْبته قَصْداً»(٤) رواه مسلم. قوله: قصداً، أي بين الطول والقصر.

فصل في المحافظة على الأعمال وعلى السُّنّة

قال في رياض الصالحين، وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من نام عن حزبه من الليل أو عن شيء منه فقرأه ما بين صلاة الفجر وصلاة الظهر كتب له كأنما قرأه من الليل»(٥) رواه مسلم.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ «يا عبد الله لا تكن مثل فلان يقوم الليل فترك قيام الليل»(٦) متفق عليه.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا فاتته الصلاة من الليل من وجع أو غيره صلّى من النهار اثنتي عشرة ركعة(٧). رواه مسلم، ومن هذا حديث: «وكان أحبّ الدين إليه ما داوم عليه صاحبه» وقد سبق.

وعن أبي نجيح العِرْباض بن سارية رضي الله عنه قال: وعظنا رسول الله ﷺ

---

(١) رواه البخاري (١/ ٢٤، ٣٨٦)، ومسلم (١/ ٥٤٢)، (٢/ ٨١١).
(٢) رواه مسلم (٤/ ٢٠٥٥).
(٣) رواه البخاري (١/ ٨٧)، ومسلم (١/ ٥٤٢).
(٤) رواه مسلم (٢/ ٥٩١).
(٥) رواه مسلم (١/ ٥١٥).
(٦) رواه البخاري (١/ ٣٨٧)، ومسلم (٢/ ٨١٤).
(٧) رواه مسلم (١/ ٥١٥).

موعظة وَجلَتْ منها القلوبُ وذرفَتْ منها العيونُ، فقلنا: يا رسول الله كأنها موعظة مودِّع فأوصنا، قال: «أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة ولو تأمَّر عليكم عبد وإنه من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً فعليكم بسنّتي وسنّة الخلفاء الراشدين المهديين عضُّوا عليها بالنواجذ وإياكم ومُحْدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة»[1] رواه أبو داود والترمذي وقال: حديث حسن صحيح. النواجذ: بالذال المعجمة، الأنياب، وقيل: الأضراس.

وفي البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى قال: من عادى لي وليّاً فقد آذنته بالحرب، وما تقرّب إليّ عبدي بشيء أحب إليّ مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرَّب إليّ بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها وإن سألني أعطيته ولئن استعاذ بي لأعيذنه»[2] قال النووي: آذنته أعلمته بأني محارب له. استعاذ بي بالنون وبالباء.

وعن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ يرويه عن ربّه تبارك وتعالى قال: «إذا تقرّب العبد إليّ شبراً تقرّبت إليه ذراعاً وإذا تقرّب إليّ ذراعاً تقرّبت إليه باعاً، وإذا أتاني يمشي أتيته هرولة»[3].

فصل في فضل الذّكر

قال الإمام البغوي في كتابه مصابيح السنّة ـ من الصحاح ـ: قال رسول الله ﷺ: «لا يقعد قوم يذكرون الله إلاَّ حفَّتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة ونزلت عليهم السكينة وذكرهم الله فيمن عنده»[4].

وقال: «سبق المفردون، قالوا: ومن المفردون يا رسول الله؟ قال: الذاكرون الله كثيراً والذاكرات»[5]. والمفردون روي بالتخفيف والتشديد.

وقال: «مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر مثل الحيّ والميت»[6].

وقال: «يقول الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا ذكرني فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم»[7]. من الحسان.

---

(١) رواه أبو داود (٤/ ٢٠٠)، والترمذي (٥/ ٤٤)، وابن ماجه (١/ ١٥).
(٢) رواه البخاري (٥/ ٢٣٨٤).
(٣) رواه البخاري (٦/ ٢٦٩٤، ٢٧٤١)، ومسلم (٤/ ٢٠٦١، ٢٠٦٧).
(٤) رواه مسلم (٤/ ٢٠٧٤).
(٥) رواه مسلم (٤/ ٢٠٦٢)، والترمذي (٥/ ٢٧٧).
(٦) رواه البخاري (٥/ ٢٣٥٣).
(٧) رواه البخاري (٦/ ٢٦٩٤)، ومسلم (٤/ ٢٠٦١).

قال رسول الله ﷺ: «ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها في درجاتكم وخير لكم من إنفاق الذهب والورق وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم، قالوا: بلى، قال: ذكر الله»[١].

وعن عبد الله بن بُسرٍ أنه قال: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: أي الناس خير؟ فقال: «طوبى لمن طال عمره وحسن عمله»، قال: يا رسول الله أيُّ الأعمال أفضل، قال: «أن تفارق الدنيا ولسانك رطب من ذكر الله»[٢].

وقال: «إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا، قالوا: وما رياض الجنة؟ قال: حِلَق الذكر»[٣].

وقال: «لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله قسوة للقلب وإن أبعد الناس من الله القلب القاسي»[٤].

وفي ثبت سيدي محمد الأمير الصغير ما نصه: وأوصى سيدي أيضاً بالمواظبة كل يوم مائة مرة على ذكر لا إلٰه إلاّ الله الملك الحق المبين، فقد ورد عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده عن علي رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «من قال في يوم مائة مرة لا إلٰه إلاّ الله الملك الحق المبين كان له أماناً من الفقر وأنساً من وحشة القبر واستجلب بها الغنى واستقرع بها باب الجنة» رواه الشيرازي في الألقاب والخطيب في تاريخه، والرافعي وابن النجار وأبو نعيم في الحلية.

قال الفضيل بن غانم: لو رحل له الإنسان إلى خراسان لكان قليلاً. وعلى ذكر أشهد أن لا إلٰه إلاّ الله وحده لا شريك له إلٰهاً واحداً أحداً صمداً لم يتخذ صاحبة ولا ولداً ولم يكن له كفواً أحد إحدى عشرة مرة في كل يوم، فقد روى الإمام أحمد والطبراني في الكبير عن تميم الداري رضي الله عنه أن سيدنا رسول الله ﷺ قال: «من قالها إحدى عشرة مرة كتب الله له أربعين ألف ألف حسنة»[٥].

قال الأستاذ أبو الحسن البكري قدس سره: والحديث حسن لا شك فيه.

فصل في الاستغفار

قال العارف الشعراني في مختصر الترغيب والترهيب: روى مسلم والترمذي

---

(١) رواه الترمذي (٥/ ٤٥٩).
(٢) رواه ابن حبان (٣/ ٩٩).
(٣) رواه الترمذي (٥/ ٥٣٢).
(٤) رواه مالك في الموطأ (٢/ ٩٨٦)، وابن أبي شيبة في المصنف (٦/ ٣٤٠)، (٧/ ٦٥).
(٥) رواه الطبراني في الكبير (٢/ ٥٧).

وحسّنه وابن ماجه والبيهقي واللفظ له مرفوعاً: يقول الله عز وجل: «يا ابن آدم كلكم مذنب إلاّ من عافيته فاستغفروني أغفر لكم»[(١)(٢)].

وروى أبو داود والنسائي وابن ماجه والحاكم والبيهقي مرفوعاً: «من لزم الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجاً ومن كل ضيق مخرجاً ورزقه من حيث لا يحتسب» زاد ابن ماجه من رواية أخرى: «طوبى لمن وجد في صحيفته استغفاراً كثيراً». وفي رواية للبيهقي مرفوعاً: «من أحبّ أن تسُرَّهُ صحيفته فليكثر فيها من الاستغفار»[(٣)].

وروى البيهقي مرفوعاً: «أن للقلوب صدأ كصدأ النحاس وجلاؤها الاستغفار»[(٤)].

وروى ابن أبي الدنيا والبيهقي والأصبهاني مرفوعاً: «ما من عبد ولا أمَة يستغفر الله في كل يوم سبعين مرّة إلاّ غفر له سبعمائة ذنب وقد خاب عبد أو أمة عمل في يوم وليلة أكثر من سبعمائة ذنب»[(٥)].

وقال في رياض الصالحين عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «من جلس في مجلس فكثر فيه لغطه فقال قبل أن يقوم من مجلسه ذلك: سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إلٰه إلاّ أنت أستغفرك وأتوب إليك إلاّ غفر له ما كان في مجلسه ذلك»[(٦)] رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة»[(٧)] رواه البخاري.

وعنه قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون ويستغفرون الله فيغفر لهم»[(٨)] رواه مسلم.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: كنا نعدّ لرسول الله ﷺ في المجلس الواحد مائة مرة: «ربّ اغفر لي وتب عليّ إنك أنت التواب الرحيم»[(٩)] رواه أبو داود والترمذي وقال: حديث صحيح.

---

(١) رواه البيهقي في الكبرى (٣/ ٣٥١)، والترمذي (٢/ ٢٥٧)، بنحوه.
(٢) رواه أبو داود (٢/ ٨٥)، وابن ماجه (٢/ ١٢٥٤)، والبيهقي (٣/ ٣٥١).
(٣) رواه البيهقي في الشعب (١/ ٤٤٠).
(٤) رواه البيهقي في الشعب (١/ ٤٤١).
(٥) رواه البيهقي في الشعب (١/ ٤٤٢)، والديلمي في الفردوس (٣/ ٦٧)، (٤/ ١٧).
(٦) رواه البيهقي في الشعب (٤/ ١٠٣)، والترمذي (٥/ ١٨٦).
(٧) تقدم تخريجه.
(٨) رواه مسلم (٤/ ٢١٠٦).
(٩) رواه أبو داود (٢/ ٨٥)، والترمذي (٥/ ٢٨).

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من قال أستغفر الله الذي لا إله إلاَّ هو الحيّ القيوم وأتوب إليه، غفرت ذنوبه وإن كان قد فر من الزحف»[١] رواه أبو داود والترمذي والحاكم وقال: حديث صحيح على شرط البخاري ومسلم.

وعن الأغرّ المُزَنِي رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «إنه ليُغان على قلبي وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة»[٢] رواه مسلم.

وعن ثوبان رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا انصرف من صلاته استغفر ثلاثاً وقال: «اللهمَّ أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام»[٣] رواه مسلم.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول قبل موته: «سبحان الله وبحمده أستغفر الله وأتوب إليه»[٤] متفق عليه.

وعن شداد بن أوس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «سيد الاستغفار أن يقول العبد: اللهم أنت ربي لا إله إلاَّ أنت خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك من شر ما صنعت أبوء لك بنعمتك عليّ وأبوء بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلاَّ أنت، من قالها في النهار موقناً بها فمات من يومه قبل أن يمسي فهو من أهل الجنة. ومن قالها من الليل وهو موقن بها فمات قبل أن يُصبح فهو من أهل الجنة»[٥] رواه البخاري. أبوء: بباء مضمومة ثم واو وهمزة ممدودة معناه أقر وأعترف.

فصل في الدعاء

قال في المصابيح ـ من الحِسَان ـ قال رسول الله ﷺ: «الدعاء هو العبادة، ثم قرأ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: الآية ٦٠]»[٦]. ويروى: «الدعاء مخ العبادة»[٧].

وقال: «ليس شيء أكرم على الله من الدعاء. وقال: «لا يرد القضاء إلاَّ الدعاء ولا يزيد في العمر إلاَّ البر»[٨].

(١) رواه أبو داود (٢/ ٨٥)، والترمذي (٥/ ٥٦٨).
(٢) رواه مسلم (٤/ ٢٠٧٥).
(٣) رواه مسلم (١/ ٤١٤).
(٤) رواه البخاري (٦/ ٢٤٥٩)، ومسلم (١/ ٣٥١) بنحوه.
(٥) رواه البخاري (٥/ ٢٣٢٣).
(٦) رواه الترمذي (٥/ ٢١١، ٣٧٤)، والحاكم (٣/ ١٧٢).
(٧) رواه الترمذي (٥/ ٤٥٦).
(٨) رواه الترمذي (٤/ ٤٤٨)، والحاكم (١/ ٦٧٠) بلفظ «القدر».

وقال: «إن الدعاء ينفع مما نزل وما لم ينزل فعليكم عباد الله بالدعاء»[١].

وقال: «ما من أحد يدعو بدعاء إلاّ آتاه الله ما سأل أو كف عنه من السوء مثله ما لم يدع بإثم أو قطيعَة رحم»[٢].

وقال: «سلوا الله من فضله فإنه يحبّ أن يُسأل»[٣].

و«أفضل العبادة انتظار الفرج»[٤].

وقال: «من سرّه أن يَسْتَجيب الله له عند الشدائد فليكثر الدعاء في الرخاء»[٥].

وقال: «ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة واعلموا أن الله لا يستجيب دعاءً من قلْبٍ غافِلٍ لاهٍ»[٦].

وقال رسول الله ﷺ: «إن أسرع الدعاء إجابة دعوة غائب لغائب»[٧].

وفي رياض الصالحين: عن أمّ المؤمنين أمّ سلمة رضي الله عنها: أن النبي ﷺ كان إذا خرج من بيته قال: «بسم الله توكلت على الله، اللهم إني أعوذ بك أن أضِلَّ أو أُضَل أو أذِلّ أو أُذَلّ أو أظْلِم أو أُظْلَم أو أجْهَل أو يُجهَل عليّ»[٨] حديث صحيح رواه أبو داود والترمذي وغيرهما بأسانيد صحيحة.

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من قال ـ يعني إذا خرج من بيته ـ بسم الله توكلت على الله ولا حول ولا قوة إلا بالله يقال له: كفيتَ وهُديتَ ووُقيتَ وتنحّى عنه الشيطان»[٩]. زاد أبو داود: «فيقول ـ يعني الشيطان ـ لشيطان آخر: كيف لك برجل قد هُديَ وكُفيَ ووُقِيَ».

وعن أبي عمارة البراء بن عازب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يا فلان إذا أوَيْتَ إلى فراشك فقل: اللهم أسلمتُ نفسي إليك ووجهت وجهي إليك وفوضت أمري إليك وألجأت ظهري إليك رغبة ورهبة إليك لا ملجأ ولا مَنْجى منك إلاّ إليك آمنت

---

(١) رواه أحمد في المسند (٥/ ٢٣٤)، والطبراني (٢/ ١٠٣).
(٢) رواه أحمد (٣/ ٣٦٠)، والترمذي (٥/ ٤٦٢)، والطبراني في الأوسط (٤/ ١٢٣).
(٣) رواه الترمذي (٥/ ٥٦٥).
(٤) رواه الترمذي (٥/ ٥٦٥).
(٥) رواه الترمذي (٥/ ٤٦٢)، والحاكم (١/ ٧٢٩).
(٦) رواه الترمذي (٥/ ٥١٧)، والحاكم (١/ ٦٧٠).
(٧) رواه الترمذي (٤/ ٣٥٢).
(٨) رواه الحاكم (١/ ٧٠٠)، وأبو داود (٤/ ٣٢٥)، والنسائي (٨/ ٢٦٨)، والبيهقي (٥/ ٢٥١)، وابن ماجه (٢/ ١٢٧٨).
(٩) رواه أبو داود (٤/ ٣٢٥)، والترمذي (٥/ ٤٩٠)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٢٦).

بكتابك الذي أنزلت ونبيِّك الذي أرسلت، فإنك إن مت من ليلتك مت على الفطرة وإن أصبحت أصبت خيراً»[١] متفق عليه.

فصل في التسبيح والتحميد والتَّهليل والتكبير

قال العارف الشعراني في مختصر الترغيب والترهيب: روى الشيخان والترمذي والنسائي وابن ماجه مرفوعاً: «كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمٰن: سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم»[٢].

وروى الحاكم مرفوعاً: «من قال سبحان الله وبحمده مائة مرة كتب الله له مائة ألف حسنة وأربعاً وعشرين ألف حسنة»[٣] الحديث.

وفي رواية لمسلم والترمذي والنسائي: «من قال سبحان الله وبحمده في يوم مائة مرة غفرت له ذنوبه وإن كانت مثل زبد البحر»[٤].

وروى النسائي واللفظ له والبزار والحاكم: أن رسول الله ﷺ قال: «قال نوح عليه السلام لابنه: أوصيك بلا إلٰه إلاَّ الله فإن السماوات والأرض لو كانت حلقة فضمتهما ولو كانتا في كفة وزنتهما وأوصيك بسبحان الله وبحمده فإنها صلاة الخلق وبها يرزق الخلق ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: الآية ٤٤] الآية[٥].

وروى الطبراني وغيره مرفوعاً: «إن في الجنة قيعاناً فأكثروا من غراسها قال: يا رسول الله وما غراسها؟ قال: سبحان الله والحمد لله ولا إلٰه إلاَّ الله والله أكبر»[٦].

وفي ثبت سيدي محمد الأمير الصغير ما نصه: وعلى سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم واستغفروا الله بواو العطف مائة مرة عقب صلاة الجمعة قبل أن يقوم من مقامه فقد ورد أن من قالها كذلك يغفر الله له مائة ألف ألف ذنب ولوالديه أربعة وعشرين ألف ذنب.

فصل في الأذكار التي تقال بالليل والنهار غير مختصة بالصباح والمساء

قال العارف الشعراني في مختصر الترغيب والترهيب:

---

(١) رواه البخاري (٥/ ٢٣٢٦)، ومسلم (٤/ ٢٠٨٢).
(٢) رواه البخاري (٥/ ٢٣٥٢)، (٦/ ٢٧٤٩)، ومسلم (٤/ ٢٠٧٢).
(٣) رواه الحاكم في المستدرك (٤/ ٢٧٩).
(٤) رواه البخاري (٥/ ٢٣٣٢)، (١/ ٤١٨)، (٤/ ٢٠٧١)، والترمذي (٢/ ٣٤١).
(٥) رواه النسائي في الكبرى (٦/ ٢٠٨)، وعبد بن حميد (١/ ٣٤٨).
(٦) رواه الطبراني في الكبير (٦/ ٢٤٠).

روى الشيخان وغيرهما مرفوعاً: «من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة كفتاه»[١].

قال الحافظ المنذري: أي أجزأتاه عن قيام تلك الليلة. وقيل: كفتاه ما يكون من الآفات تلك الليلة. وقيل: كفتاه من كل شيطان فلا يقربه ليلته. وقيل غير ذلك.

وروى الترمذي مرفوعاً: «من قرأ كل يوم مائة مرة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص: الآية ١] محي عنه ذنوب خمسين سنة إلاَّ أن يكون عليه دين»[٢].

وعن ابن مسعود مرفوعاً: «من قرأ كل ليلة سورة الواقعة لم تصبه فاقة» ذكره رزين في جامعه.

وروى سُنيد عن ابن عباس قال «سورة الملك تمنع من عذاب القبر ومن قرأها كل ليلة فقد أكثر وأطنب»[٣].

وروى الترمذي والدارقطني مرفوعاً: «من قرأ سورة الدخان في ليلة أصبح يستغفر له سبعون ألف ملك، ومن قرأ سورة يس في ليلة أصبح مغفوراً له»[٤].

فصل فيما يقال عقب الصلوات

قال في مختصر الترغيب والترهيب[٥]: روى النسائي والطبراني بإسناد على شرط البخاري مرفوعاً: «من قرأ آية الكرسي في دبر كلّ صلاة لم يمنعه من دخول الجنة إلاَّ أن يموت»[٦].

وفي ثبت سيدي محمد الأمير الصغير نقلاً عن الحافظ ابن حجر في أماليه في المجلس الحادي عشر عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن فاتحة الكتاب وآية الكرسي والآيتين من آل عمران ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١٨ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: الآيتان ١٨، ١٩] و﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ﴾ [آل عمران: الآية ٢٦] إلى قوله: ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: الآية ٢٧] معلقات بالعرش ما بينهن

---

(١) رواه البخاري (٤/ ١٤٧٢)، ومسلم (١/ ٥٥٤).
(٢) رواه الترمذي (٥/ ١٦٨).
(٣) رواه البيهقي في الشعب (٢/ ٤٩٥).
(٤) رواه الترمذي (٥/ ١٦٣).
(٥) الترغيب والترهيب للعلامة المنذري، ومختصره المقصود هنا لسيدي عبد الوهاب الشعراني قدس سره، وللحافظ اختصاراً ولغيره.
(٦) رواه النسائي في الكبرى (٦/ ٣٠).

وبين الله حجاب قلن أتهبطنا أرضك وإلى من يعصيك، قال الله عز وجل: «بي حلفت لا يقرؤكن أحد من عبادي دبر كل صلاة إلاَّ جعلت الجنة مثواه على ما كان منه وإلاَّ أسكنته حظيرة الفردوس وإلاَّ نظرت له كل يوم سبعين مرة وإلاَّ قضيت له كل يوم سبعين حاجة وإلاَّ أعذته من كل عدو ونصرته منه» اهـ.

فصل في الصلاة والتسليم على رسول الله ﷺ

الأحاديث الواردة في فضلها أكثر من أن تُحصر، وقد أتينا من ذلك في كتابنا بلوغ المسرّات بشرح دلائل الخيرات بما يكفي ويشفي، ولنذكر هنا لمعة من هذا البحر رجاء أن تعود علينا بركاتها فنقول:

قال في مختصر الترغيب والترهيب: روى مسلم وأبو داود والنسائي والترمذي وابن حبان في صحيحه: أن رسول الله ﷺ قال: «من صلى عليّ واحدة صلى الله عليه عشراً».

وفي رواية للترمذي: «من صلّى عليَّ مرة واحدة كتب له بها عشر حسنات».

وفي رواية للإمام أحمد والنسائي وابن حبان والحاكم: «من صلّى عليّ مرة صلّى الله عليه عشراً».

وفي رواية: «له عشر صلوات وحط عنه بها عشر سيئات ورفعه بها عشر درجات».

زاد في رواية للطبراني مرفوعاً: «ومن صلَّى عليَّ عشراً صلّى الله عليه مائة، ومن صلّى عليَّ مائة كتب بين عينيه براءة من النفاق وبراءة من النار وأسكنه الله يوم القيامة مع الشهداء»[1] اهـ.

وفي ثبت سيدي محمد الأمير الصغير ما نصه: «وعلى المواظبة كل ليلة جمعة على قول: اللهم صلِّ على سيِّدنا محمد النبي الأمي الحبيب العالي القدر العظيم الجاه وعلى آله وصحبه وسلم»، فقد نقل الإمام السيوطي أن من واظب عليها في كل ليلة جمعة ولو مرة يلحده في قبره النبي ﷺ اهـ.

فصل في التعاون على البر

قال في رياض الصالحين: عن أبي عبد الرحمٰن زيد بن خالد الجهني رضي الله عنه

(١) رواه مسلم (١/ ٢٨٨، ٣٠٦)، وابن خزيمة (١/ ٢١٨)، وابن حبان (٣/ ١٨٥، ١٩٥)، والحاكم (١/ ٧٣٥)، والضياء في المختارة (٤/ ٣٩٧)، والترمذي (٢/ ٣٥٤)، والدارمي (٢/ ٤٠٨)، وأبو داود (١/ ١٤٤)، (٢/ ٨٨)، والنسائي (٢/ ٢٥)، (٣/ ٥٠)، والبزار (٩/ ٢٥٩، ٢٦٨)، والطبراني في الكبير (٥/ ٩٩)، (٨/ ١٣٤)، (١٢/ ٣٣٢)، (١٨/ ٣٦٢)، وفي الأوسط (٤/ ٢٨٥)، (٥/ ١٦٢)، (٧/ ١٨٨)، وفي الصغير (١/ ٣٤٧)، وأحمد (٢/ ٣٧٥، ٤٨٥)، (٣/ ١٠٢)، وأبو يعلى (٢/ ١٥٨، ١٦٤)، (٧/ ٧٥)، (١١/ ٣٨٠).

قال: قال رسول الله ﷺ: «من جهّز غازياً في سبيل الله تعالى فقد غزا ومن خلف غازياً في أهله بخير فقد غزا»[١] رواه البخاري ومسلم.

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «الخازن المُسْلم الأمين الذي ينفذ ما أُمِرَ به فيعطيه كاملاً موفراً طيبة به نفسه فيدفعه إلى الذي أمر له به أحد المتصدقين»[٢]. رواه البخاري ومسلم.

فصل في تعظيم حرمات المسلمين والشفقة عليهم وقضاء حوائجهم ورحمتهم

قال في رياض الصالحين: وعن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من مر في شيء من مساجدنا أو أسواقنا ومعه نبل فليمسك أو ليقبض على نصالها بكفه أن يصيب أحداً من المسلمين منها بشيء»[٣] متفق عليه.

وعن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسَد بالسهر والحمى»[٤] متفق عليه.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قبّل النبي ﷺ الحسن بن علي رضي الله عنهما وعنده الأقرع بن حابس فقال الأقرع: إن لي عشرة من الأولاد ما قبّلت منهم أحداً، فنظر إليه رسول الله ﷺ فقال: «من لا يَرْحَم لا يُرْحَم»[٥] متفق عليه.

وعن جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من لا يَرحَمُ الناس لا يَرْحَمه الله»[٦] متفق عليه.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «إذا صلى أحدكم للناس فليخفف فإن منهم الضعيف والسقيم والكبير، وإذا صلى أحدكم لنفسه فليطول ما شاء»[٧] متفق عليه. وفي رواية: «وذا الحاجة».

وعن أبي قتادة الحارث بن ربعي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إني

---

(١) رواه البخاري (٣/ ١٠٤٥)، ومسلم (٣/ ١٥٠٦، ١٥٠٧).
(٢) رواه البخاري (٢/ ٥٢١)، ومسلم (٢/ ٧١٠).
(٣) رواه البخاري (٦/ ٢٥٩٢)، ومسلم (٤/ ٢٠١٩).
(٤) رواه البخاري (٥/ ٢٢٣٨)، ومسلم (٤/ ١٩٩٩).
(٥) رواه البخاري (٥/ ٢٢٣٥)، ومسلم (٤/ ١٨٠٨).
(٦) رواه البخاري (٦/ ٢٦٨٦)، ومسلم (٤/ ١٨٠٩).
(٧) رواه البخاري (١/ ٤٦)، ومسلم (١/ ٣٤١).

لأقوم إلى الصلاة وأريد أن أطول فيها فأسمع بكاء الصبي فأتجوَّز في صلاتي كراهية أن أشق على أمه»(١) رواه البخاري.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يُسْلمه من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرج عن مسلم كربة فرَّج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة»(٢) متفق عليه.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تحاسدوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا ولا تدابروا ولا يبع بعضكم على بيع بعض وكونوا عباد الله إخواناً المسلم أخو المُسلم لا يظلمُه ولا يخْذُله ولا يَحْقِرهُ، التقوى هٰهنا - ويشير إلى صدره ثلاث مرات - بحسب امْرِىءٍ من الشر أن يحْقر أخاه المسلم، كلُّ المسلم على المسلم حرام، دمه وعرضه وماله»(٣). النَجْشُ: أن يزيد في ثمن سلعة يُنادي عليها في السوق ونحوه ولا رغبة له في شرائها بل يقصد أن يغر غيره وهذا حرام. والتدابُر أن يعرض على الإنسان ويهجره ويجعله كالشيء الذي وراء الظهر والدبر.

وعن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»(٤) متفق عليه اهـ.

ومن هذا الباب الحديث المسلسل بالأوَّلِيَّة وهو ما أخذته عن شيخي وأستاذي وليّ الله العارف سيدي الشيخ علي النَّجّاري إجازة بثبت العالم الكبير خاتمة المحققين سيدي محمد الأمير الكبير، وأخذته سماعاً من الأستاذ الأوحد وعلم الفضل الشهير المفرد مولانا الشيخ مصطفى المبلط الشافعي وهو ما رواه عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: «الراحمون يرحمهُمْ الرحمٰن تبارك وتعالى، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء»(٥) أخرجه البخاري في الأدب المفرد وأحمد والحميدي في مسنديهما والبيهقي في الشعب وأبو داود والترمذي، وقال الترمذي: إنه حسن صحيح، ويرحمكم: روي بالجزم في جواب الأمر عن المتقنين، وبالرفع استئنافاً أو دعاء عن كثير من الشيوخ وجزم جماعة بأن الجزم هو الرواية فيقتصر عليه والتنزيه رواية كثيرين، وسبب تسمية هذا الحديث بالمسلسل الأولية أن كل واحد من رواته

---

(١) رواه البخاري (١/ ٢٥٠).

(٢) رواه البخاري (٢/ ٨٦٢)، ومسلم (٤/ ١٩٨٦).

(٣) رواه مسلم (٤/ ١٩٨٣، ١٩٨٥، ١٩٨٦).

(٤) رواه البخاري (١/ ١٤)، ومسلم (١/ ٦٧).

(٥) رواه الترمذي (٤/ ٣٢٣، وأبو داود (٤/ ٢٨٥)، والبيهقي في الشعب (٧/ ٤٧٦).

يقول: حدثنا به فلان، أو أخبرنا به فلان، أو سمعته من فلان، وهو أول حديث سمعته منه.

قال ابن الأنباري في المورد المسلسل: والمعنى في البداءة بهذا الحديث أن يعلم طالب العلم أن رحمة الله تعالى للرّحماء من خلقه فينصح للخاص والعام ويرحم المبتلى والمعاني ويشفق على القريب والبعيد وعلى نفسه خاصة وذلك من أصول الدين كما قال عليه الصلاة والسلام: «الدين النصيحة» وإذا استقام للعبد هذا الأصل في الدين استقام له سائره.

وأشار الملا إبراهيم قدس سره في أول مسلسلاته إلى مناسبات في الابتداء بحديث الرحمة منها حديث «سبق الرحمة الغضب»، ومنها «أولية كتابة الحق سبق الرحمة» فقد ورد «أول شيء خطه الله في الكتاب الأول: إني أنا الله لا إلٰه إلاَّ أنا سبقت رحمتي غضبي فمن شهد أن لا إلٰه إلاَّ الله وأن محمداً عبده ورسوله فله الجنة» كما رواه الديلمي عن ابن عباس، فناسب أن يكون حديث الرحمة متصفاً بأولية كتابة الحق له كما كانت الرحمة متصفة بأولية كتابة الحق تعالى لها. ومنها: أنه ﷺ سمّاه الله تعالى: رحمة للعالمين ونوره أول مخلوق فهو أول سلسلة الكائنات فناسب أن يكون حديث الرحمة أول سلسلة الأحاديث. وتمّت المناسبة بكونه مسلسلاً بالأوليّة والله أعلم.

الباب الثاني

في الشفاعة والإصلاح بين الناس، وفضل ضعفة المسلمين، وملاطفة اليتيم، والبنات، والمتكسرين، والضعفة، والمساكين، والإحسان إليهم، والشفقة عليهم، والتواضع معهم، وخفض الجناح لهم، والوصية بالنساء، وفضل النفقة على العيال، وحق الجار والوصيّة به، وبر الوالدين وصلة الأرحام، وتحريم العقوق، وقطع الرحم، وفضل الحب في الله، والتحذير من إيذاء الصالحين. وفيه فصول:

فصل في الشفاعة

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ إذا أتاه طالب حاجة أقبل على جلسائه فقال: «اشفعوا تؤجروا ويقضي الله على لسان نبيه ما أحبّ»[1] متفق عليه. وفي رواية: «ما شاء».

وعن ابن عباس رضي الله عنهما في قصة بريرة وزوجها قال: قال لها النبي ﷺ: «لو راجعتِه قالت: يا رسول الله تأمرني، قال: إنما أشفع، قالت: لا حاجة لي فيه»[2]. رواه البخاري.

فصل في الإصلاح بين الناس

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كل سُلامى من الناس عليه صدقة كل يوم تطلع فيه الشمس، يعدل بين اثنين صدقة ويعين الرجل في دابته فيحمله عليها أو يرفع له عليها متاعه صدقة، والكلمة الطيبة صدقة، وبكل خطوة يمشيها إلى الصلاة صدقة، ويميط الأذى عن الطريق صدقة»[3] رواه الشيخان. معنى يعدل بينهما: يصلح بينهما بالعدل.

وعن أم كلثوم بنت عقبة بن أبي مُعَيْط رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ

---

(١) رواه البخاري (٢/ ٥٢٠)، ومسلم (٤/ ٢٠٢٦).

(٢) رواه البخاري (٥/ ٢٠١٧، ٢٠٢٣).

(٣) رواه البخاري (٢/ ٨٧١)، ومسلم (٢/ ٦٩٩).

يقول: «ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس فينمي خيراً أو يقول خيراً»[١] رواه الشيخان. وفي رواية مسلم زيادة قالت: «ولم أسمعه يرخص في شيء مما يقوله الناس إلاّ في ثلاث: يعني الحرب والإصلاح بين الناس وحديث الرجُل امرأته وحَديث المرأة زوجها».

فصل في فضل ضعفة المسلمين

عن حارثة بن وهب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ألا أخبركم بأهل الجنة، كل ضعيف مُتَضعَّف، لو يقسم على الله لأبرَّه، ألا أخبركم بأهل النار، كل جوّاظ مستكبر عُتُلٍ»[٢] رواه الشيخان. والعُتُل الغليظ: المتجافي. والجوَّاظ ـ بفتح الجيم وتشديد الواو والظاء المعجمة ـ وهو الجموع المنوع. وقيل: الضخم المختال في مشيه. وقيل: القصير البطن.

وعن أبي العباس سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه قال: مرَّ رجل على النبي ﷺ فقال لرجُل جالس عنده: «ما رأيك في هذا؟ فقال له: رجُل من أشراف الناس هذا والله حَرِيٌّ إنْ خطب أن يُنْكح وإن شَفع أن يُشفَّع. فسكت رسول الله ﷺ. ثم مرَّ رجل آخر فقال له رسول الله ﷺ: ما رأيك في هذا؟ فقال: يا رسول الله هذا رجُل من فقراء المسلمين هذا حريّ إن خطب أن لا يُنكح وإن شفع أن لا يُشَفّع وإن قال لا يُسْمَع لقوله. فقال رسول الله ﷺ: هذا خير من ملءِ الأرض مثل هذا»[٣] رواه الشيخان. قوله: حريٌّ هو بفتح الحاء وكسر الراءِ وتشديد الياء: أي حقيق. وقوله: شفع بفتح الفاء.

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «احتجت الجنة والنار فقالت النار: فيَّ الجبارون والمتكبرون، وقالت الجنة: فيَّ ضعفاء الناس ومساكينهم. فقضى الله بينهما إنكِ الجنة رحمتي، أرحم بك من أشاء وإنك النار عذابي، أعذِّبُ بكِ من أشاء ولكلكما عليَّ ملؤُها»[٤] رواه مسلم.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة»[٥] رواه البخاري ومسلم.

---

(١) رواه البخاري (٢/ ٩٥٨)، ومسلم (٤/ ٢٠١١).
(٢) رواه البخاري (٢/ ٩٦١)، ومسلم (٣/ ١٣٠٢)، (٤/ ١٩٦٩).
(٣) رواه البخاري (٥/ ٢٣٦٩).
(٤) رواه مسلم (٤/ ٢١٨٧).
(٥) رواه البخاري (٤/ ١٧٥٩)، ومسلم (٤/ ٢١٤٧).

وعنه رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «رُبَّ أشعَثَ مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبرَّهُ»[(١)] رواه مسلم.

فصل

في ملاطفة اليتيم والبنات والمنكسرين والضعفة والمساكين والإحسان إليهم والشفقة عليهم والتواضع معهم وخفض الجناح لهم.

عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا»[(٢)] وأشار بالسبابة والوسطى وفرَّج بينهما. رواه البخاري.

كافل اليتيم: القائم بأمره.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس المسكين الذي ترده التمرة والتمرتان واللقمة واللقمتان، إنما المسكين يتعفف»[(٣)] رواه البخاري ومسلم.

وفي رواية في الصحيحين: «ليس المسكين الذي يطوف على الناس ترده اللقمة واللقمتان والتمرة والتمرتان ولكن المسكين الذي لا يجد غنى يغنيه ولا يفطن به أحد فيتصدّق عليه ولا يقوم فيسأل الناس»[(٤)].

وعنه رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «السَّاعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله»، وأحسبه قال: «وكالقائم الذي لا يفتر وكالصائم الذي لا يُفْطِر»[(٥)] رواه الشيخان.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: جاءتني مسكينة تحمل ابنتين لها فأطعمتها ثلاث تمرات فأعطت كل واحدة منهما تمرة ورفعت إلى فيها تمرة لتأكلها فاستَطْعَمَتها ابنتاها فشقت التمرة التي كانت تريد تأكلها بينهما فأعجبني شأنها فذكرت الذي صنعت لرسول الله ﷺ فقال: «إن الله قد أوجب لها بها الجنة أو أعتقها بها من النار»[(٦)] رواه مسلم.

وعن أبي الدرداء عُويمَر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ابغوني

(١) تقدم تخريجه.
(٢) رواه البخاري (٥/ ٢٠٣٢، ٢٢٣٧)، وابن حبان (٢/ ٢٠٧).
(٣) رواه البخاري (٤/ ١٦٥١)، ومسلم (٢/ ٧١٩).
(٤) رواه البخاري (٢/ ٥٣٨).
(٥) رواه البخاري (٥/ ٢٢٣٧)، ومسلم (٤/ ٢٢٨٦).
(٦) رواه مسلم (٤/ ٢٠٢٧).

الضعفاء فإنما تُرزقونَ وتُنْصَرون بضعفائكم»[١] رواه أبو داود بإسناد جيد.

فصل في الوصية بالنساء

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «استوصوا بالنساء خيراً فإنّ المرأة خُلقت من ضلع وإن أعوج ما في الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته وإن تركته لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء»[٢] رواه الشيخان.

وفي رواية في الصحيحين: «المرأة كالضّلع إن أقمتها كسرتها وإن استمتعت بها استمتعت بها وفيها عوج».

وفي رواية لمسلم: «إن المرأة خلقت من ضِلَعٍ لن تستقيم لك على طريقة، فإن استمتعت بها استمتعت بها وفيها عَوَجٍ وإن ذهبت تُقيمها كسرتها» وكَسْرها طلاقها. قوله: عوج، بفتح العين والواو. قاله النّووي.

وعن معاوية بن حيدة رضي الله عنه قال: قلت يا رسول الله ما حق زوجة أحدنا عليه، قال: «أن تطعمَها إذا طَعمْتَ وتكسُوَها إذا اكتسيت ولا تضربَ الوجه ولا تُقَبِّحَ ولا تَهْجُر إلاّ في البيت»[٣] حديث حسن رواه أبو داود. وقال: معنى لا تقبّح: أي لا تقول: قبّح الله.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خُلُقاً وخيَارهم خيارهم لنسائهم»[٤] رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: «الدنيا متاع وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة»[٥] رواه مسلم.

فصل في فضل النفقة على العيال

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «دينار أنفقته في سبيل الله ودينار أنفقته في رقبة ودينار تصدّقت به على مسكين ودينار أنفقته على أهلك أعظمها

---

(١) رواه أبو داود (٣/ ٣٠)، والترمذي (٤/ ٢٠٦)، والنسائي (٦/ ٤٥).
(٢) رواه البخاري (٣/ ١٢١٢)، (٥/ ١٩٨٧)، ومسلم (٢/ ١٠٩١).
(٣) رواه أبو داود (٢/ ٢٤٤)، والنسائي في الكبرى (٥/ ٣٧٣، ٣٧٥)، (٦/ ٣٢٣).
(٤) رواه الترمذي (٣/ ٤٦٦).
(٥) رواه مسلم (٢/ ١٠٩٠).

أجراً الذي أنفقته على أهلك»[١] رواه مسلم.

وعن أبي مسعود البدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إذا أنفق الرجل على أهله يحتسبها فهي له صدقة»[٢] رواه الشيخان.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «كفى بالمرء إثماً أن يضيّع من يقوت»[٣] حديث صحيح رواه أبو داود وغيره ورواه مسلم في صحيحه بمعناه قال: «كفى بالمرء إثماً أن يحبِسَ عمَّن يملك قوته»[٤].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «ما من يوم يصبح العباد فيه إلاّ ملكان ينزلان فيقول أحدهما: اللهمَّ أعط منفقاً خَلَفاً ويقول الآخر: اللهم اعط ممسكاً تلفاً»[٥] رواه الشيخان.

فصل في حق الجار والوصية به

عن ابن عمر وعائشة رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيُوَرِّثه»[٦] رواه البخاري ومسلم.

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أبا ذر إذا طبخت مرقة فأكثر ماءها وتعاهد جيرانك»[٧] رواه مسلم.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «والله لا يؤمن والله لا يؤمن والله لا يؤمن، قيل: مَن يا رسول الله؟ قال: الذي لا يأمن جاره بوائقه»[٨] رواه الشيخان. البواتق: الغوائل والشرور.

وعنه رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يُؤْذِ جاره ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليُكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقُل خيراً أو ليسكت»[٩] رواه البخاري ومسلم.

---

(١) رواه مسلم (٢/ ٦٩٢).
(٢) رواه البخاري (١/ ٣٠)، (٤/ ١٧٤٤).
(٣) رواه أبو داود (٢/ ١٣٢).
(٤) رواه مسلم (٢/ ٦٩٢).
(٥) رواه البخاري (٢/ ٥٢٢)، ومسلم (٢/ ٧٠٠).
(٦) رواه البخاري (٥/ ٢٢٣٩).
(٧) رواه مسلم (٤/ ٢٠٢٥).
(٨) رواه البخاري (٥/ ٢٢٤٠)، ومسلم (١/ ٦٨).
(٩) رواه البخاري (٥/ ٢٢٤٠، ٢٢٧٢، ٢٢٧٦)، ومسلم (١/ ٦٨، ٦٩).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قلت: «يا رسول الله إنّ لي جارين فإلى أيهما أهدي، قال: لأقربهما منك باباً»[١] رواه البخاري.

وعن عبد الله بن عُمَر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «خير الأصحاب عند الله تعالى خيرهم لصاحبه وخير الجيران عند الله تعالى خيرهم لجاره»[٢] رواه الترمذي وقال: حديث حسن.

فصل في بر الوالدين وصلة الرّحم

روى الشيخان عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: سألت النبي ﷺ: «أيّ العَمَل أحبّ إلى الله؟ قال: الصلاة على وقتها، قلت: ثم أي؟ قال: برّ الوالدين، قلت ثم أيٌّ؟ قال: الجهاد في سبيل الله»[٣].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يجزي وَلَدٌ والداً إلاّ أن يجده مملوكاً فيشتريه فيعتقه»[٤] رواه مسلم.

وعنه رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: «يا رسول الله من أحق الناس بحسن صحابتي، قال: أمّك، قال: ثم مَن؟ قال: أمّك، قال: ثم من؟ قال: أمك، قال: ثم من؟ قال: أبوك»[٥]. رواه البخاري ومسلم والصحابة بمعنى الصحبة.

وعنه رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضَيْفه ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليصل رحِمَهُ ومن كان يؤمن بالله اليوم الآخر فليَقل خيراً أو ليصمت»[٦] رواه البخاري ومسلم.

وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من أحبّ أن يبسط له في رزقه وينسأ له في أثَرِه فليَصِلْ رحِمَهُ»[٧] رواه الشيخان. ومعنى ينسأ له في أثره: أي يؤخر له في أجله وعمره. قاله النووي.

وعن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال: «الرحم معلقة بالعرش تقول: من وصلني وصله الله ومن قطعني قطعه الله»[٨] رواه الشيخان.

---

(١) رواه البخاري (٢/ ٧٨٨، ٩١٦)، (٥/ ٢٢٤١).
(٢) رواه الترمذي (٤/ ٣٣٣)، والدارمي (٢/ ٢٨٤).
(٣) رواه البخاري (١/ ١٩٧)، (٣/ ١٠٢٥)، ومسلم (١/ ٨٩، ٩٠).
(٤) رواه مسلم (٢/ ١١٤٨).
(٥) رواه البخاري (٥/ ٢٢٢٧)، ومسلم (٤/ ١٩٧٤).
(٦) تقدم تخريجه.
(٧) رواه البخاري (٢/ ٧٢٨)، (٥/ ٢٢٣٢)، ومسلم (٤/ ١٩٨٢).
(٨) رواه البخاري (٢/ ٩٣٩)، (٥/ ٢٢٢٩)، ومسلم (١/ ٩١، ٩٢).

فصل في تحريم العقوق وقطيعة الرحم

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «الكبائر الإشراك بالله وعقوق الوالدين وقتل النفس واليمين الغموس»[١] رواه البخاري. قال النووي: اليمين الغموس التي يحلفها كاذباً عامداً، سميت غموساً لأنها تغمس الحالف في الإثم.

وعنه رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «من الكبائر شتم الرجل والديه، قالوا: يا رسول الله وهل يشتم الرجل والديه؟ قال: نعم يسبّ أبا الرجل فيسبّ الرجل أباه ويسبّ أمه فيسبّ أمه» رواه الشيخان.

وعن أبي محمد جبير بن مطعم رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «لا يدخل الجنة قاطع» قال سفيان في رواية: «يعني قاطع رحم»[٢] رواه الشيخان.

فصل في فضل الحب في الله

عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحبّ إليه مما سواهما، وأن يحبَّ المَرْءَ لا يحبه إلاّ لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار»[٣] رواه الشيخان.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «سبعة يظلهم الله في ظلّه يوم لا ظلّ إلا ظلّه: إمام عادل، وشابٌ نشأ في عبادة الله عز وجل، ورجل قلبه معلّق بالمساجد، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرّقا عليه، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال لها: إني أخاف الله، ورجل تصدّق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه»[٤] رواه الشيخان.

وعنه رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى يقول يوم القيامة: أين المتحابون بجلالي اليوم أظلهم في ظلي يوم لا ظل إلاّ ظلّي»[٥] رواه مسلم.

وعنه رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا أفلا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم، أفشوا

---

(١) رواه البخاري (٦/ ٢٤٥٧)، والحاكم في المستدرك (٤/ ٣٢٩).
(٢) رواه مسلم (١/ ١٩٨١).
(٣) رواه البخاري (١/ ١٤)، (٦/ ٢٥٤٦)، ومسلم (١/ ٦٦).
(٤) رواه البخاري (١/ ٢٣٤)، ومسلم (٢/ ٢/ ٧١٥).
(٥) رواه البخاري (١/ ٢٣٤)، ومسلم (٢/ ٧١٥).

السلام بينكم»[١] رواه مسلم.

وعن معاذ رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله تعالى: المتحابون في جلالي لهم منابر من نور يَغْبِطُهُم النبيُّون والشهداء»[٢] رواه أبو داود والترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

وعن أبي كريمة بن معد يكرب رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إذا أحبَّ الرجل أخاه فليخبره أنه يحبه»[٣] رواه أبو داود والترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

وعن معاذ رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أخذ بيده وقال: «يا معاذ والله إني لأحبك، فقال: أُوصيك يا معاذ لا تدعَنَّ في دبر كل صلاة اللهمَّ أعِنِّي على ذكرِكَ وشُكرك وحسن عبادتك»[٤] حديث صحيح رواه أبو داود والنسائي بإسناد صحيح.

وعن أنس رضي الله عنه: أن رجلاً كان عند النبي ﷺ فمرَّ رجُل فقال: «يا رسول الله إني لأحب هذا، فقال له النبي ﷺ: أعْلَمْتَه؟ قال: لا، قال: أعْلِمْهُ. فلحِقَه فقال: إني أحبك في الله تعالى، فقال: أحبك الذي أحببتني له»[٥] رواه أبو داود.

فصل في التحذير من إيذاء الصالحين

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى قال: من عادى لي وليّاً فقد آذنته بالحرب، وما تقرّب إليَّ عبدي بشيء أحبّ إليَّ مما افترضته عليه وما يزال عبدي يتقرّب إليَّ بالنوافل حتى أحبه فإن أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها، وإن سألني أعطيته ولئن استعاذ بي لأعيذنه»[٦] رواه البخاري. قال النووي: معنى آذنته بالحرب: أعلمته بأني محارب له. واستعاذني: روي بالنون وبالباء.

ومن هذا الباب قوله ﷺ: «يا أبا بكر لئن كنت أغضبتهم لقد أغضبت ربك».

وقد سبق عن جندب بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من صلّى عليَّ صلاة الصبح فهو في ذمة الله فلا يطلبنكم الله من ذمته بشيء فإنه من يطلبه من ذمته بشيء يدركه ثم يكبّه على وجهه في نار جهنم»[٧] رواه مسلم.

---

(١) رواه مسلم (١/ ٧٤).
(٢) رواه الترمذي (٤/ ٥٩٧).
(٣) رواه أبو داود (٤/ ١٣٤).
(٤) رواه الترمذي (٥/ ٤٧٨)، وأبو داود (٢/ ٦٨، ٨٣، ٨٦)، والنسائي (٣/ ٧٠)، وابن ماجه (١/ ٢٩٩).
(٥) رواه أبو داود (٤/ ٣٣٣).
(٦) تقدم تخريجه.
(٧) رواه مسلم (١/ ٤٥٤).

الباب الثالث

فيما ورد في الخوف والرجاء وفضل الرجاء والجمع بينهما، وجواز الأخذ من غير مسألة، والحث على الأكل من عمل اليد، والجود والكرم والإيثار، والمواساة، والنهي عن البخل، والتواضع وتحريم الكبر، وحسن الخلق، والحلم، والرؤيا وآداب النوم.

فصل في الخوف

روي أن رسول الله ﷺ بلغه عن أصحابه شيء، فخطب فقال: «عرضت عليَّ الجنة والنار فلم أرَ كاليوم في الخير والشر، ولو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً». فما أتى على أصحاب رسول الله ﷺ يومٌ أشد منه غَطَّوا رؤوسهم ولهم خنين. الخنين: بالخاء المعجمة هو البكاء مع غنّة وانتشاق الصوت من الأنف.

وعن المقداد رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «تدنو الشمس يوم القيامة من الخلق حتى تكون منهم كمقدار ميل».

قال سُليم بن عامر الراوي عن المقداد: فوالله ما أدري ما يعني بالميل، أمسافة الأرض أم الميل الذي تكحل به العين فيكون الناس على قدر أعمالهم في العرق، فمنهم من يكون إلى كعبيه ومنهم من يكون إلى ركبتيه ومنهم من يكون إلى حقويه ومنهم من يلجمه العرق إلجاماً»[1] وأشار رسول الله ﷺ بيده إلى فيه. رواه مسلم.

وعن عديّ بن حاتم رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحد إلاَّ سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان فينظر أيمن منه فلا يرى إلاَّ ما قدَّم وينظر أشأم منه فلا يرى إلاَّ ما قدم وينظر بين يديه فلا يرى إلاَّ النار تلقاء وجهه فاتقوا النار ولو بشِق تمرة»[2] رواه الشيخان.

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إني لأرى ما لا ترون، أطَّتِ السماءُ وحُقَّ لها أن تَئِطَّ ما فيها موضع أربع أصابع إلاَّ وملك واضع جبهته ساجداً لله تعالى، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً، وما تلذذتم بالنساء على

---

(١) رواه مسلم (٤/ ٢١٩٦).

(٢) رواه البخاري (٢/ ٥١٢، ٥١٣، ٥١٤)، (٣/ ١٣١٦)، (٥/ ٢٢٤١)، ومسلم (٢/ ٧٠٣، ٧٠٥).

الفرش، ولخرجتم إلى الصُعُدات تَجْأرون إلى الله تعالى»[١] رواه الترمذي وقال: حديث حسن. وأطّت بفتح الهمزة وتشديد الطاء، وتَئِطُّ بفتح التاء وبعدها همزة مكسورة، والأطيط صوت الرجل والقتب وشبههما، ومعناه: أن كثرة من في السماء من الملائكة العابدين قد أثقلتها حتى أطت. والصعدات بضم الصاد والعين الطرقات، وتجأرون: تستغيثون. قاله النووي.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قرأ رسول الله ﷺ: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝﴾ [الزلزلة: الآية ٤] قال: «أتدرون ما أخبارها؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: فإن أخبارها تشهد على كل عبد أو أمة بما عمل على ظهرها تقول عمل كذا وكذا يوم كذا وكذا فهذه أخبارها»[٢] رواه الترمذي وقال: حديث حسن.

وعن عائشة رضي الله عنه قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يحشر الناس يوم القيامة حُفَاةً عُراةً غُرْلاً، قلت: يا رسول الله النساء والرجال جميعاً ينظر بعضهم إلى بعض، قال: يا عائشة الأمر أشد من أن يُهِمَّهُم ذلك» وفي رواية: «الأمر أهمّ من أنْ يَنْظر بعضهم إلى بعض»[٣] رواه البخاري ومسلم. غُرْلاً: بضم الغين المعجمة، أي غير مختونين.

فصل في الرّجاء

في مسلم: «من شهد أن لا إله إلاَّ الله وأن محمداً رسول الله ﷺ حرّم الله عليه النار»[٤].

وعن أنس رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ ومعاذ رديفه على الرحل قال: «يا معاذ، قال: لبيك يا رسول الله وسعديك، قال: يا معاذ، قال: لبيك يا رسول الله وسعديك، قال: يا معاذ، قال: لبيك يا رسول الله وسعديك، ثلاثاً. قال: ما من عبد يشهد أن لا إله إلاَّ الله وأن محمداً عبده ورسوله صدقاً من قلبه إلاَّ حرَّمه الله على النار. قال: يا رسول الله أفلاَ أُخبِرُ بها الناس فيستبشروا، قال: إذاً يتكِلُوا فأخبر بها معاذ عند موته تأثُماً»[٥] رواه الشيخان. قوله: تأثُماً: أي خوفاً من الإثم في كتم هذا العلم.

---

(١) رواه الترمذي (٤/ ٥٥٦).
(٢) رواه الترمذي (٤/ ٦١٩)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٥٢٠).
(٣) رواه البخاري (٥/ ٢٣٩١).
(٤) رواه مسلم (١/ ٥٧).
(٥) رواه مسلم (١/ ٦١)، والبخاري (١/ ٥٩).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا لذهَبَ الله بكم وجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله تعالى فيغفر لهم»[١] رواه مسلم.

فصل في الرجاء

عن جابر رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ قبل موته بثلاثة أيام يقول: «لا يموت أحدكم إلاَّ وهو يحسن الظن بالله عز وجل»[٢] رواه مسلم.

وعن أنس رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله تعالى: يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك ما كان منك ولا أبالي، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عَنَان السماء ثم استغفرتني غفرت لك، يا ابن آدم لو أتيتني بقُرَاب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً إلاَّ أتيتك بقُرَابها مغفرة»[٣] رواه الترمذي وقال: حديث حسن. عَنَان السماء بفتح العين: السحاب، وقيل غير ذلك. وقُراب الأرض بضم القاف وقيل بكسرها والضم أصحّ وأشهر: وهو ما يقارب ملئها.

فصل في الجمع بين الخوف والرجاء

قال في رياض الصالحين: اعلم أن المختار للعبد في حال صحته أن يكون خائفاً راجياً ويكون خوفه ورجاؤه سواء، وفي حال المرض يتمحض الرجاء، وقواعد الشرع من نصوص الكتاب والسنّة وغير ذلك متظاهرة على ذلك فتجد الخوف والرجاء يجتمعان في آية أو آيتين أو آيات مقترنات. ثم قال:

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «إذا وضعت الجنازة واحتملها الرجال على أعناقهم فإن كانت صالحة قالت: قدموني قدموني، وإن كانت غير صالحة قالت: يا ويلها أين تذهبون بها، يسمع صوتها كل شيء إلاَّ الإنسان ولو سمعه لصعق»[٤] رواه البخاري.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله والنار مثل ذلك»[٥] رواه البخاري.

---

(١) رواه مسلم (٤/ ٢١٠٦).
(٢) رواه مسلم (٤/ ٢٢٠٥).
(٣) رواه الترمذي (٥/ ٥٤٨)، والدارمي (٢/ ٤١٤).
(٤) رواه البخاري (١/ ٤٤٢، ٤٤٣).
(٥) رواه البخاري (٥/ ٢٣٨٠).

فصل في جواز الأخذ من غير مسألة والحث على الأكل من عمل اليد

عن سالم بن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن أبيه قال: «كان رسول الله ﷺ يعطيني العطاء فأقول: أعطه من هو أفقر مني إليه، فقال: خذه إذا جاءك من هذا المال شيء وأنت غير مشرف ولا سائل فخذه فتموّله فإن شئت كله وإن شئت تصدّق به وما لا فلا تتبعه نفسك. قال سالم: فكان عبد الله لا يسأل أحداً شيئاً ولا يرد شيئاً أعطيه»[١] رواه الشيخان. مشرف بالشين المعجمة: أي متطّلع إليه.

وعن أبي عبد الله الزبير بن العوام رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لأن يأخذ أحدكم حبله ثم يأتي الجبل فيأتي بحزمة من حطب على ظهره فيبيعها فيكف الله بها وجهه خير له من أن يسأل الناس أعطَوْه أو منعوه»[٢] رواه البخاري.

وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «كان داود عليه السلام لا يأكل إلاَّ من عمل يده»[٣] رواه البخاري.

وعنه رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «كان زكريا عليه السلام نجاراً» رواه مسلم.

وعن المقدام بن مَعْدِي كَرْب رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده»[٤] رواه البخاري.

فصل في الجود والكرم

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لا حسد إلاَّ في اثنتين: رجل آتاه الله مالاً فسلّطه على هلكته في الحق ورجل آتاه الله حكمة فهو يقضي بها ويعملها»[٥] رواه الشيخان، ومعناه: ينبغي أن لا يغبط أحد إلاَّ على أحد هاتين الخصلتين.

وعنه رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أيكم مال وارثه أحب إليه من ماله؟ قالوا: يا رسول الله ما منا أحد إلاَّ ماله أحبّ إليه، قال: فإن ماله ما قدم ومال وارثه ما

---

(١) رواه البخاري (٢/ ٥٣٦)، (٦/ ٢٦٢٠).
(٢) رواه البخاري (٢/ ٥٣٥).
(٣) رواه البخاري (٢/ ٧٣٠).
(٤) رواه البخاري (٢/ ٧٣٠)، (٣/ ١٢٥٦).
(٥) رواه البخاري (١/ ٣٩)، (٢/ ٥١٠)، ومسلم (١/ ٥٥٨، ٥٥٩).

أخر»[1] رواه البخاري.

وعن جابر رضي الله عنه قال: «ما سئل رسول الله ﷺ شيئاً قطاً فقال لا»[2] رواه البخاري ومسلم.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ: أي الإسلام خير، قال: «تطعم الطعام وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف»[3] رواه البخاري ومسلم.

وعن أنس رضي الله عنه قال: «ما سئل رسول الله ﷺ شيئاً إلاّ أعطاه، ولقد جاءه رجل فأعطاه غنماً بين جبلين فرجع إلى قومه فقال: يا قوم اسلموا فإن محمداً يعطي عطاء من لا يخشى الفقر وإن كان الرجل ليسلم ما يريد إلاّ الدنيا فما يلبث يسيراً حتى يكون الإسلام أحب إليه من الدنيا وما عليها»[4] رواه مسلم.

فصل في الإيثار والمواساة

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: إني مجهود، فأرسل إلى بعض نسائه فقالت: والذي بعثك بالحق ما عندي إلاّ الماء، ثم أرسل إلى الأخرى فقالت مثل ذلك حتى قلن كلهن مثل ذلك: والذي بعثك بالحق ما عندي إلاّ الماء. فقال: من يضيف هذا الليلة؟ فقال رجل من الأنصار: أنا أضيفه يا رسول الله. فانطلق به إلى رحله فقال لامرأته: أكرمي ضيف رسول الله ﷺ» وفي رواية قال لامرأته: «هل عندك شيء، قالت: لا إلاّ قوت صبياني، قال: فعلليهم بشيء وإذا أرادوا العشاء فنوميهم وإذا دخل ضيفنا فاطفئي السراج وأريه أنا نأكل. فقعدوا وأكل الضيف وباتا طاويين فلما أصبح غدا على رسول الله ﷺ فقال: لقد عجب الله من صنيعكما الليلة»[5] رواه الشيخان.

وعنه رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «طعام الاثنين كافي الثلاثة، وطعام الثلاثة كافي الأربعة»[6]. رواه الشيخان.

وفي رواية لمسلم عن جابر عن النبي ﷺ قال: «طعام الواحد يكفي الاثنين وطعام

---

(١) رواه البخاري (٥/ ٢٣٦٦).
(٢) رواه البخاري (٣/ ١٣٠٣)، ومسلم (١/ ٣٠)، (٤/ ١٨١٤).
(٣) رواه البخاري (١/ ١٣، ١٩)، ومسلم (١/ ٦٥).
(٤) رواه مسلم (٤/ ١٨٠٦).
(٥) رواه البخاري (٣/ ١٠٩٦)، ومسلم (٣/ ١٦٢٤).
(٦) رواه البخاري (٥/ ٢٠٦١)، ومسلم (٣/ ١٦٣٠).

الاثنين يكفي الأربعة وطعام الأربعة يكفي الثمانية».

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: «بينما نحن في سفر مع النبي ﷺ إذ جاء رجل على راحلة فجعل يصرف بصره يميناً وشمالاً فقال رسول الله ﷺ: من كان معه فضل ظهر فليَعُدْ به على من لا ظهر له، ومن كان له فضل من زاد فَليَعُدْ به على من لا زاد له. فذكر من أصناف المال ما ذكر حتى رأينا أنه لا حق لأحد منا في فضل»(١) رواه مسلم.

وعن سهل بن سعد رضي الله عنه: «أن امرأة جاءت إلى النبي ﷺ ببردة منسوجة، فقالت: نسجتها بيدي لأكسُوَكها، فأخذها النبي ﷺ محتاجاً إليها، فخرج إلينا وإنها إزاره، فقال فلان: إكْسِينَها ما أحسنها، فقال: نعم، فجلس النبي ﷺ في المجلس ثم رجع فطواها ثم أرسل بها إليه فقال له القوم: ما أحسنت، لبسها النبي ﷺ محتاجاً إليها، ثم سألته وعلمت أنه لا يرد سائلاً، فقال: إني والله ما سألته لألبسها إنما سألته لتكون كفني. قال سهل: فكانت كفنه»(٢) رواه البخاري.

فصل في النهي عن البخل والشحّ

عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «مثل البخيل والمنافق كمثل رجلين عليهما جبتان من حديد من ثُدِيِّهما إلى تراقيهما فأما المنافق فلا ينفق إلاَّ سبقت وأوفرت على جلده حتى تخفي ثيابه وتعفي أثره، وأما البخيل فلا يريد أن ينفق شيئاً إلاَّ لزقت كل حلقة مكانها فهو يوسعها فلا تتسع»(٣) رواه الشيخان.

وعن جابر رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «اتّقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم»(٤) رواه مسلم.

فصل في التواضع وتحريم الكبر

عن عياض بن حمار رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله أوحى إليَّ أن تواضعوا حتى لا يفخر أحدكم على أحد ولا يبغي أحدكم على أحد»(٥) رواه مسلم.

---

(١) رواه مسلم (٣/ ١٣٥٤)، (٥/ ٢١٨٩).
(٢) رواه البخاري (١/ ٤٢٩)، (٢/ ٧٣٧)، (٥/ ٢١٨٩، ٢٢٤٥).
(٣) رواه البخاري (٣/ ١٠٦٨)، ومسلم (٢/ ٧٠٨).
(٤) رواه مسلم (٤/ ١٩٩٦).
(٥) رواه مسلم (٤/ ٢١٩٨).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ما نقصت صدقة من مال وما زاد الله عبداً بعفو إلاَّ عزاً وما تواضع أحد لله إلاَّ رفعه الله»[١] رواه مسلم.

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر، فقال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسنة، قال: إن الله جميل يحب الجمال، الكِبر بطر الحق وغمط الناس. بطر الحق دفعه ورده على قائله وغَمْطُ الناس احتقارهم»[٢].

وعن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه: أن رجلاً أكل عند رسول الله ﷺ بشماله قال: «كل بيمينك، فقال: لا أستطيع، قال: لا استطعت، ما منعه إلاَّ الكبر. فما رفعها إلى فيه»[٣] رواه مسلم.

فصل في حسن الخلق والحلم

عن النوّاس بن سمعان رضي الله عنه قال: سألت رسول الله ﷺ عن البر والإثم، فقال: «البرّ حسن الخلق والإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس»[٤] رواه مسلم.

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من حسن الخلق، وإن الله يبغض الفاحش البذِيّ»[٥] رواه الترمذي وقال: حسن صحيح. البَذِيّ: هو الذي يتكلم بالفحش ورديء الكلام.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «لأشجِّ عبد القيس إن فيك خصلتين يحبهما الله، الحلم والأناة»[٦] رواه مسلم.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ليس الشديد بالصُّرَعة إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب»[٧] رواه الشيخان.

فصل في آداب النوم والرؤيا

عن حذيفة رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ إذا أخذ مَضْجَعَهُ من الليل وضع يده

---

(١) رواه مسلم (١/ ٩٣).
(٢) رواه مسلم (١/ ٩٣).
(٣) رواه مسلم (٣/ ١٥٩٩).
(٤) رواه مسلم (٤/ ١٩٨٠).
(٥) رواه الترمذي (٤/ ٣٦٢).
(٦) رواه مسلم (١/ ٤٨).
(٧) رواه البخاري (٥/ ٢٢٦٧)، ومسلم (٤/ ٣٠١٤).

تحت خده ثم يقول: «اللهم باسمك أحيا وأموت، وإذا استيقظ قال: الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور»[1] رواه البخاري.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لم يبق من النبوة إلاّ المبشرات، قالوا: وما المبشرات؟ قال: الرؤيا الصالحة»[2] رواه البخاري.

وعنه رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «إذا اقترب الزمان لم تكد رؤيا المؤمن تكذب ورؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة»[3] رواه الشيخان.

وفي رواية: «أصدقكم رؤيا أصدقكم حديثاً».

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: أنه سمع النبي ﷺ يقول: «إذا رأى أحدكم رؤيا يحبها فإنها من الله تعالى فليحمد الله تعالى وليُحدِّث بها» وفي رواية: «ولا يحدِّث بها إلاّ من يحب وإذا رأى غير ذلك مما يكره فإنما هي من الشيطان فليستعِذ من شرها ولا يذكرها لأحد فإنها لا تضرّه»[4] رواه الشيخان. وفي تفسير الجلال عند قوله تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [يونس: الآية ٦٤] قال الحافظ: فسرها الصادق الصدوق بالرؤيا الصالحة يراها الرجل الصالح أو ترى له. انتهى.

(١) رواه البخاري (٥/ ٢٣٢٦، ٢٣٢٧)، ومسلم (٤/ ٢٠٨٣).
(٢) رواه البخاري (٦/ ٢٥٦٤).
(٣) رواه البخاري (٦/ ٢٥٦٢)، ومسلم (٤/ ١٧٧٣).
(٤) رواه البخاري (٦/ ٢٥٦٣).

الباب الرابع

فيما ورد في فضل السلام والأمر بإفشائه وكيفيته وتشميت العاطس واستحباب المصافحة عند اللقاء وبشاشة الوجه وتقبيل الرجل الصالح ومعانقة القادم من سفر وعيادة المرضى وما يدعى به للمريض واستحباب سؤال أهل المريض عن حاله وما يقوله من أيس من حياته.

فصل في فضل السلام والأمر بإفشائه

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ: «أيّ الإسلام خير؟ قال: تطعم الطعام وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف»[1] رواه الشيخان.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لما خلق الله آدم عليه السلام قال: اذهب فسلِّم على أولئك نفرٌ من الملائكة جلوس واستمع ما يجيبونك فإنها تحيتك وتحية ذريتك، فقال: السلام عليكم، فقالوا: عليك السلام ورحمة الله فزادوه ورحمة الله»[2] رواه الشيخان.

وعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: «أمرنا رسول الله ﷺ بسبع: بعيادة المريض واتباع الجنائز وتشميت العاطس ونصر الضعيف وعون المظلوم وإفشاء السلام وإبرار القسم»[3] رواه الشيخان، وهذا لفظ إحدى روايات البخاري.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أو لا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم، أفشوا السلام بينكم»[4] رواه مسلم.

وعن أبي يوسف عبد الله بن سلام رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يا أيها الناس افشوا السلام واطعموا الطعام وصلوا الأرحام وصلُّوا والناس نيام

---

(١) رواه البخاري (١/ ١٣)، ومسلم (١/ ٦٥).

(٢) رواه البخاري (٥/ ٢٢٩٩)، ومسلم (٤/ ٢١٨٣).

(٣) رواه البخاري (١/ ٤١٧، ٤١٨)، ومسلم (٣/ ١٦٣٥)، (٤/ ١٧٠٤).

(٤) رواه مسلم (١/ ٧٤).

تدخلوا الجنة بسلام»[1] رواه الترمذي وقال: حديث صحيح.

فصل في كيفية السلام

في رياض الصالحين: يستحب أن يقول المبتدي بالسلام: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فيأتي بضمير الجمع وإن كان المسَلَّمُ عليه واحداً، ويقول المجيب: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، فيأتي بواو العطف في قوله: وعليكم.

وعن عمران بن الحصين رضي الله عنهما قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: السلام عليكم فرد عليه السلام ثم جلس فقال النبي ﷺ: «عشر» ثم جاء آخر فقال: السلام عليكم ورحمة الله، فرد عليه فجلس، فقال: «عشرون»، ثم جاء آخر فقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فرد عليه فجلس فقال: «ثلاثون»[2]. رواه أبو داود والترمذي وقال: حديث حسن.

فصل في تشميت العاطس

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن الله يحب العطاس ويكره التثاؤب فإذا عطس أحدكم وحمد الله تعالى كان حقاً على كل مسلم سمعه أن يقول له: يرحمك الله. وأما التثاؤب فإنما هو من الشيطان فإذا تثاءب أحدكم فليرده ما استطاع فإنه إذا تثاءب ضحك منه الشيطان»[3] رواه البخاري.

وعنه رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إذا عطس أحدكم فليقُل: الحمد لله، وليقل له أخوه أو صاحبه: يرحمك الله، فإن قال له يرحمك الله فليقُلْ: يهديكم الله ويصلح بالكم»[4]. رواه البخاري.

وعن أبي موسى رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا عطس أحدكم فحمد الله فشمتوه فإن لم يحمد الله فلا تشمتوه»[5] رواه مسلم.

فصل في المصافحة عند اللقاء

عن قتادة قال: قلت لأنس: أكانت المصافحة في أصحاب النبي ﷺ، قال: نعم. رواه البخاري.

---

(١) رواه الترمذي (٤/ ٢٨٧، ٦٥٢)، والدارمي (١/ ٤٠٥).
(٢) رواه أبو داود (٤/ ٣٥٠)، والترمذي (٥/ ٤٠٧).
(٣) رواه البخاري (٥/ ٢٢٩٧، ٢٢٩٨).
(٤) رواه البخاري (٥/ ٢٢٩٨)، ومسلم (٤/ ٢٢٩٢).
(٥) رواه مسلم (٤/ ٢٢٩٣).

وعن البراء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مسلمين يلتقيان فيتصافحان إلاَّ غفر لهما قبل أن يتفرقا»[١] رواه أبو داود.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قصة قال فيها: فدنونا من النبي ﷺ فقبّلنا يده»[٢] رواه أبو داود.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «قدم زيد بن حارثة المدينة ورسول الله ﷺ في بيتي فأتاه فقرع الباب فقام إليه النبي ﷺ يجر ثوبه فاعتنقه وقبّله»[٣] رواه الترمذي وقال: حديث حسن.

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق»[٤] رواه مسلم.

فصل في عيادة المرضى وما يدعى به للمريض

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «حق المسلم على المسلم خمس: رد السلام، وعيادة المريض، واتباع الجنائز، وإجابة الدعوة، وتشميت العاطس»[٥] رواه الشيخان.

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «عودوا المريض واطعموا الجائع وفكوا العاني»[٦] العاني الأسير. رواه البخاري.

وعن علي رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من مسلم يعود مسلماً غُدْوَةً إلاَّ صلّى عليه سبعون ألف مَلَك حتى يصبح وكان له خريف في الجنة»[٧] رواه الترمذي، وقال: حديث حسن. الخريف: الثمر المخروف: أي المجتنى.

وعن أبي عبد الله عثمان بن أبي العاص رضي الله عنه أنه شكا إلى رسول الله ﷺ وجعاً يجده في جسده فقال له رسول الله ﷺ: «ضع يدك على الذي يألَم من جسدك وقل بسم الله ثلاثاً وقل سبع مرات: أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر»[٨] رواه مسلم.

---

(١) رواه أبو داود (٤/ ٣٥٤)، والترمذي (٥/ ٧٤)، وابن ماجه (٢/ ١٢٢٠).
(٢) رواه أبو داود (٣/ ٤٦).
(٣) رواه الترمذي (٥/ ٧٦).
(٤) رواه مسلم (٤/ ٢٠٢٦).
(٥) تقدم تخريجه.
(٦) رواه البخاري (٣/ ١١٠٩).
(٧) رواه الترمذي (٣/ ٣٠٠).
(٨) رواه مسلم (٤/ ١٧٢٨).

وعن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان يعود بعض أهله يمسح بيده اليمنى ويقول: «اللهم رب الناس اذهب البأس اشف وأنت الشافي لا شفاء إلاَّ شفاؤك شفاءً لا يغادر سقماً»(١) رواه الشيخان.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «من عاد مريضاً لم يحضر أجله فقال عنده سبع مرات: أسأل الله العظيم رب العرش العظيم أن يشفيك إلاَّ عافاه الله من ذلك المرض»(٢) رواه أبو داود والترمذي وقال: حديث حسن. وقال الحاكم: صحيح على شرط البخاري.

فصل في استحباب سؤال أهل المريض عن حاله وما يقوله من آيس من حياته

عن ابن عباس رضي الله عنهما أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه خرج من عند رسول الله ﷺ في وجعه الذي توفي فيه فقال الناس: يا أبا حسن كيف أصبح رسول الله ﷺ؟ قال: «أصبح بحمد الله بارئاً»(٣) رواه البخاري.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت النبي ﷺ وهو مستند إليّ يقول: «اللهم اغفر لي وارحمني وألحقني بالرفيق الأعلى»(٤) رواه الشيخان.

وعنها رضي الله عنها قالت: رأيت رسول الله ﷺ وهو بالموت عنده قدح فيه ماء وهو يدخل يده في القدح ثم يمسح وجهه بالماء ثم يقول: «اللهم أعني على غمرات الموت وسكرات الموت»(٥) رواه الترمذي.

---

(١) رواه البخاري (٥/ ٢١٤٧، ٢١٦٧)، ومسلم (٤/ ١٧٢١، ١٧٢٢).

(٢) رواه الترمذي (٤/ ٤١٠)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٢٥٨)، وأبو داود (٣/ ١٨٧)، والحاكم (١/ ٤٩٣)، (٢/ ٦٣٥)، (٤/ ٢٣٦).

(٣) رواه البخاري (٤/ ١٦١٥، ٢٣١١).

(٤) رواه البخاري (٤/ ١٦١٤).

(٥) رواه الترمذي (٣/ ٣٠٨).

الباب الخامس

في تلقين المحتضر لا إله إلاَّ الله وما يقوله بعد تغميض الميت، وما يقوله من مات له ميت، وجواز البكاء على الميت من غير ندب ولا نياحة، والكف عما يُرَى في الميت من مكروه.

فصل في تلقين المحتضر لا إله إلاَّ الله

عن معاذ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من كان آخر كلامه لا إله إلاَّ الله دخل الجنة»[1] رواه أبو داود والحاكم وقال: صحيح الإسناد.

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لقنوا موتاكم لا إله إلاَّ الله»[2] رواه مسلم.

فصل فيما يقوله بعد تغميض الميت

عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: دخل رسول الله ﷺ على أبي سلمة وقد شخص بصره فأغمضه ثم قال: «إن الروح إذا قبض تبعه البصر. فضجَّ ناس من أهله فقال: لا تدعوا على أنفسكم إلاَّ بخير فإن الملائكة يُؤمنون على ما تقولون، ثم قال: اللهم اغفر لأبي سلمة وارفعْ درجته في المهديين واخلفه في عقبه في الغابرين واغفر لنا وله يا رب العالمين وافسح له في قبره ونور له فيه»[3] رواه مسلم.

فصل فيما يقوله من مات له ميت

عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من عبد تصيبه مصيبة فيقول: إنا لله وإنّا إليه راجعون اللهم أجُرْني في مصيبتي واخلف لي خيراً منها، إلاَّ آجره الله تعالى في مصيبته وأخلف له خيراً منها. قالت: فلما توفي أبو سلمة قلت

---

(١) رواه أبو داود (٣/ ١٩٠)، والترمذي (٣/ ٣٠٧)، والحاكم في المستدرك (١/ ٥٠٣، ٦٧٨).
(٢) رواه مسلم (٢/ ٦٣١).
(٣) رواه مسلم (٢/ ٦٣٤).

كما أمرني رسول الله ﷺ فأخلف الله تعالى لي خيراً منه رسول الله ﷺ»[١] رواه مسلم.

وعن أبي موسى رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إذا مات ولد العبد قال الله تعالى لملائكته: قبضتم ولد عبدي، فيقولون: نعم، فيقول: قبضتم ثمرة فؤاده، فيقولون: نعم، فيقول: ما قال عبدي، فيقولون: حمدك واسترجع، فيقول الله تعالى: ابنوا لعبدي بيتاً في الجنة وسموه بيت الحمد»[٢] رواه الترمذي وقال: حديث حسن.

فصل في جواز البكاء على الميت من غير ندب

عن ابن عمر رضي الله عنهما: أن النبي ﷺ عاد سعد بن عبادة ومعه عبد الرحمٰن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وعبد الله بن مسعود رضي الله عنهم فبكى رسول الله ﷺ فلما رأى القوم بكاء رسول الله ﷺ بكوا فقال: «ألا تسمعون أن الله لا يعذب بدمع العين ولا بحزن القلب ولكن يعذب بهذا أو يرحم» وأشار إلى لسانه[٣]. رواه الشيخان.

وعن أسامة بن زيد رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ رفع إليه ابن ابنته وهو في الموت ففاضت عينا رسول الله ﷺ فقال له سعد: ما هذا يا رسول الله، قال: «هذا رحمة جعلها الله في قلوب عباده وإنما يرحم الله من عباده الرحماء»[٤] رواه الشيخان.

وعن أنس رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ دخل على ابنه إبراهيم رضي الله عنه وهو يجود بنفسه فجعلت عينا رسول الله ﷺ تَذْرِفان، فقال له عبد الرحمٰن بن عوف: وأنت يا رسول الله، فقال: يا ابن عوف إنها رحمة، ثم أتبعها بأخرى فقال: إن العين تدمع والقلب يحزن ولا نقول إلاّ ما يرضي ربّنا وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون»[٥] رواه البخاري، وروى مسلم بعضه.

فصل في الكف عما يرى في الميت من مكروه

عن أبي رافع أسلم مولى رسول الله ﷺ: أن رسول الله ﷺ قال: «من غسل ميتاً فكتم عن مساويه غفر الله له أربعين مرةً»[٦] رواه الحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم.

---

(١) رواه مسلم (٢/ ٦٣٢).
(٢) رواه الترمذي (٣/ ٣٤١).
(٣) رواه البخاري (١/ ٤٣٩)، ومسلم (٢/ ٦٣٦).
(٤) رواه البخاري (١/ ٤٣١)، ومسلم (٢/ ٦٣٥).
(٥) رواه البخاري (١/ ٤٣٩).
(٦) رواه الحاكم في المستدرك (١/ ٥٠٥، ٥١٦، ٥٤٣).

الباب السادس

في الصلاة على الميت، وتشييعه، وحضور دفنه، وكراهة اتباع النساء الجنائز، واستحباب تكثير المصلين على الجنازة، وجعل صفوفهم ثلاثة، وبعض ما ورد في الدعاء في صلاة الجنازة، والإسراع بالجنازة، وتعجيل قضاء الدين عن الميت، والمبادرة بتجهيزه، والموعظة عند القبر، والقعود عند القبر بعد الدفن ساعة للدعاء للميت والاستغفار له، والصدقة عن الميت والدعاء له، وثناء الناس على الميت، وفضل من مات له أولاد صغار، والبكاء والخوف عند المرور بقبور الظالمين.

فصل في الصلاة على الميت وتشييعه وحضور دفنه وكراهة اتباع النساء الجنائز

روى أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من شهد الجنازة حتى يُصَلَّى عليه فله قيراط ومن شهدها حتى تُدْفن فله قيراطان، قيل: وما القيراطان، قال: مثل الجبلين العظيمين»[1] رواه الشيخان.

وعنه رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «من اتبع جنازة مسلم إيماناً واحتساباً وكان معه حتى يُصَلّى عليه ويفرغ من دفنها فإنه يرجع من الأجر بقيراطين كل قيراط مثل أحد ومن صلى عليها ثم رجع قبل أن تدفن فإنه يرجع بقيراط»[2] رواه البخاري.

وعن أم عطية رضي الله عنها قالت: «نهينا عن اتباع الجنائز ولم يُعْزَم علينا»[3] رواه الشيخان. ومعناه: لم يشدد في النهي كما يشدّد في المحرمات.

فصل في استحباب تكثير المصلين على الجنازة وجعل صفوفهم ثلاثة

عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «ما من ميت يصلي عليه أمة من المسلمين يبلغون مائة كلهم يشفعون له إلاَّ شفعوا فيه»[4] رواه مسلم.

---

(١) رواه البخاري (١/ ٤٤٥)، ومسلم (٢/ ٦٥٣).

(٢) رواه البخاري (١/ ٢٦).

(٣) رواه البخاري (١/ ٤٢٩)، (٦/ ٢٦٨١)، ومسلم (٢/ ٦٤٦).

(٤) رواه مسلم (٢/ ٦٥٤).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من رجل مسلم يموت فيقوم على جنازته أربعون رجلاً لا يشركون بالله شيئاً إلاَّ شفّعهم الله فيه»[١] رواه مسلم.

وعن مرثد بن عبد الله قال: كان مالك بن هبيرة رضي الله عنه إذا صلى على الجنازة فتَقَالَّ الناسَ عليه جزأهم ثلاثة أجزاء ثم قال: قال رسول الله ﷺ: «من صلَّى عليه ثلاثة صفوف فقد أوجب»[٢] رواه أبو داود والترمذي وقال: حديث حسن.

فصل في بعض ما ورد في الدعاء في صلاة الجنازة

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا صلّيتم على الميت فأخلصُوا له الدعاء»[٣] رواه أبو داود.

وعنه رضي الله عنه عن النبي ﷺ في الصلاة على الجنازة: «اللهمَّ أنت ربها وأنت خلقتها وأنت هديتها للإسلام وأنت قبضت روحها وأنت أعلم بسرّها وعلانيتها جئناك شفعاء له فاغفر له»[٤] رواه أبو داود.

وعن واثلة بن الأسقع رضي الله عنه قال: صلّى بنا رسول الله ﷺ على رجل من المسلمين فسمعته يقول: «اللهم إن فلان ابن فلان في ذمتك وجعل جِوَارك فَقِهِ فتنة القبر وعذاب النار وأنت أهل الوفاء والحمد، اللهم فاغفر له وارحم إنك أنت الغفور الرحيم»[٥] رواه أبو داود.

وعن عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنهما: أنه كبَّر على جنازة ابنة له أربع تكبيرات فقام بين الرابعة كقدرها بين التكبيرتين يستغفر لها ويدعو لها ثم قال: كان رسول الله ﷺ يصنع هكذا. وفي رواية: كبر أربعاً فمكث ساعة حتى ظننت أنه سيكبّر خمساً ثم سلم عن يمينه وعن شماله، فلما انصرف قلنا له: ما هذا؟ فقال: إني لا أزيدكم على ما رأيت رسول الله ﷺ يصنع. أو هكذا صنع رسول الله ﷺ» رواه الحاكم وقال: حديث صحيح.

فصل في الإسراع بالجنازة

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «أسرعوا بالجنازة فإن تك صالحة

---

(١) رواه مسلم (٢/ ٦٥٥).
(٢) رواه أبو داود (٣/ ٢٠٢).
(٣) رواه ابن ماجه (١/ ٤٨٠)، والبيهقي (٤/ ٤٠).
(٤) رواه أبو داود (٣/ ٢١٠)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٢٦٦).
(٥) رواه أبو داود (٣/ ٢١١).

فخير تقدمونها إليه وإن تك سوى ذلك فشر تضعونه عن رقابكم»[١] رواه الشيخان.

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يقول: «إذا وضعت الجنازة فاحتملها الرجال على أعناقهم، فإن كانت صالحة قالت: قدموني، وإن كانت غير صالحة قالت لأهلها: يا ويلها أين تذهبون بها، يسمع صوتها كل شيء إلاّ الإنسان ولو سمع الإنسان لصعق»[٢] رواه البخاري.

فصل في تعجيل قضاء الدين عن الميت والمبادرة بتجهيزه

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «نفس المؤمن معلقة بدينه حتى يقضى عنه»[٣] رواه الترمذي وقال: حديث حسن.

وعن حصين بن وَحْوح رضي الله عنه: أن طلحة بن البراء رضي الله عنه مرض فأتاه النبي ﷺ يعوده فقال: «إني لا أرى طلحة إلاّ قد حدث فيه الموت فآذنوني به وعجلوا به فإنه لا ينبغي لجيفة مسلم أن تُحبس بين ظَهْرَيْ أهله»[٤] رواه أبو داود.

فصل في الموعظة عند القبر

عن علي رضي الله عنه قال: كنا في جنازة في بقيع الغَرْقَدِ فأتانا رسول الله ﷺ فقعد وقعدنا حوله ومعه مخْصَرَة فَنَكَّسَ وجعل ينكث بمخصرته ثم قال: «ما منكم من أحد إلاّ قد كتب مقعده من النار ومقعده من الجنة، فقالوا: يا رسول الله أفلا نتكل على كتابنا، فقال: اعملوا فكل ميسّر لما خلق له»[٥] وذكر تمام الحديث. رواه الشيخان.

فصل في القعود عند القبر ساعة للدعاء والاستغفار للميت

عن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ إذا فُرِغَ من دفن الميت وقف عليه فقال: «استغفروا لأخيكم وسلوا له التثبيت فإنه الآن يُسأل»[٦] رواه أبو داود.

وعن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: «إذا دفنتموني فأقيموا حول قبري قدر ما تُنحر جزور ويقسم لحمها حتى أستأنس بكم وأعلم ماذا أراجع به رسل ربي»[٧] رواه مسلم.

(١) رواه البخاري (١/ ٤٤٢)، ومسلم (٢/ ٦٥١).
(٢) رواه البخاري (١/ ٤٤٣، ٤٦٤).
(٣) رواه الترمذي (٣/ ٣٨٩)، وابن ماجه (٢/ ٨٠٦).
(٤) رواه أبو داود (٣/ ٢٠٠).
(٥) رواه البخاري (٤/ ١٨٩١)، ومسلم (٤/ ٢٠٤٠، ٢٠٤١).
(٦) رواه أبو داود (٣/ ٢١٥).
(٧) رواه مسلم (١/ ١١٢).

قال الشافعي رحمه الله: ويستحب أن يقرأ عنده شيء من القرآن وإن ختموا القرآن كله كان حسناً.

فصل في الصدقة عن الميت والدعاء له

عن عائشة رضي الله عنها أن رجلاً قال للنبي ﷺ: «إن أمّي افْتُلِتَتْ نفسها وأراها لو تكلّمت تصدقت فهل لها أجر إن تصدّقت عنها، قال: نعم»[1] رواه الشيخان.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلاّ من ثلاث: صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له»[2] رواه مسلم.

فصل في ثناء الناس على الميت

عن أنس رضي الله عنه قال: مروا بجنازةٍ فأثنوا عليها خيراً فقال النبي ﷺ: «وجبت»، ثم مروا بأخرى فأثنوا عليها شراً فقال النبي ﷺ: «وجبت»، فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ما وجبت؟ قال: «هذا أثنيتم عليه خيراً فوجبت له الجنة، وهذا أثنيتم عليه شرّاً فوجبت له النار أنتم شهداء في الأرض»[3] رواه الشيخان.

فصل في فضل من مات له أولاد صغار

عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «ما من مسلم يموت له ثلاثة لم يبلغوا الحنث إلاّ أدخله الجنة بفضل رحمته إياهم»[4] رواه الشيخان.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يموت لأحد من المسلمين ثلاثة من الولد لم تمسّه النار إلاّ تحلّةَ القَسَم»[5] رواه الشيخان. وتحلّة القسم: قول الله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَاۚ﴾ [مريم: الآية ٧١] والورود: العبور على الصراط، وهو جسر منصوب على ظهر جهنم عافانا الله منها.

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله ذهب الرجال بحديثك فاجعل لنا من نفسك يوماً نأتيك فيه تعلمنا مما علمك الله، قال: «اجتمِعْنَ يوم كذا وكذا». فاجتمعن فأتاهن النبي ﷺ فعلمهنّ مما

(١) رواه البخاري (١/ ٤٦٧)، (٣/ ١٠١٩)، ومسلم (٢/ ٦٩٦)، (٣/ ١٢٥٤).

(٢) رواه مسلم (٣/ ١٢٥٥).

(٣) رواه البخاري (١/ ٤٦٠)، ومسلم (٢/ ٦٥٥).

(٤) رواه البخاري (١/ ٥٠، ٤٢١)، ومسلم (٤/ ٢٠٢٩).

(٥) رواه البخاري (١/ ٤٢١)، (٦/ ٢٤٥٢)، ومسلم (٤/ ٢٠٢٨).

علَّمه الله ثم قال: «ما منكم من امرأة تقدم ثلاثة من الولد إلاَّ كانوا حجاباً بينها وبين النار» فقالت امرأة: واثنين، فقال رسول الله ﷺ: «واثنين»[١] رواه الشيخان.

فصل في البكاء والخوف عند المرور بقبور الظالمين

عن ابن عمر رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه ـ يعني لما وصلوا الحِجْر ديار ثمود: «لا تدخلوا على هؤلاء المعذَّبين إلاَّ أن تكونوا باكين فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم لا يصيبكم ما أصابهم»[٢] رواه الشيخان.

وفي رواية قال: لما مرّ رسول الله ﷺ بالحِجْر قال: «لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم أن يصيبكم ما أصابهم إلاَّ أن تكونوا باكين» ثم قنع رأسه وأسرع السير حتى جاز الوادي.

(١) رواه البخاري (١/ ٥٠)، ومسلم (٤/ ٢٠٢٨).
(٢) رواه البخاري (١/ ١٦٧)، (٣/ ١٢٣٧)، ومسلم (٤/ ٢٢٥٨).

الباب السابع

فيما ورد في تحريم الجلوس على القبر والصلاة إليه، والنهي عن التجصيص والبناء على القبر، واستحباب زيارة القبور للرجال، وما يقوله الزائر، وبيان أن الميت يعرف زائره ويرد عليه السلام ويستأنس بمن كان يحبه في الدنيا عند زيارته إياه خصوصاً الوالدين، وما أعدّه الله للمؤمنين في الجنة.

فصل فيما ورد في تحريم الجلوس على القبر

عن أبي مرثد بن الحصين رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا تُصَلُّوا إلى القبور ولا تجلسوا عليها»[١] رواه مسلم.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لأن يجلس أحدكم على جمرة فتحرق ثيابه فتخلُصَ إلى جلده خير له من أن يجلس على قبر»[٢] رواه مسلم.

فصل في النهي عن تجصيص القبر والبناء عليه

عن جابر رضي الله عنه قال: نهى رسول الله ﷺ «أن يُجَصَّصَ القبر وأن يقعدَ عليه وأن يُبنى عليه»[٣] رواه مسلم.

فصل في استحباب زيارة القبور للرجال وما يقوله الزائر وبيان أن الميت يعرف زائره ويرد عليه السلام ويستأنس بمن كان يحبه في الدنيا عند زيارته إياه خصوصاً الوالدين

عن بريدة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها»[٤] رواه مسلم.

---

(١) رواه مسلم (٢/ ٦٦٨).
(٢) رواه مسلم (٢/ ٦٦٧).
(٣) رواه مسلم (٢/ ٦٦٧).
(٤) رواه مسلم (٢/ ٦٦٨).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ كلما كانت ليلتها منه يخرج من آخر الليل إلى البقيع فيقول: «السلام عليكم دار قوم مؤمنين وأتاكم ما توعدون وإنّا إن شاء الله بكم لاحقون، اللهم اغفر لأهل بقيع الغَرْقَدِ»[١] رواه مسلم. والغرقد بالغين المعجمة: نوع من الشجر.

وعن بريدة رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ يعلمهم إذا خرجوا إلى المقابر أن يقول قائلهم: «السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين وإنّا إن شاء الله بكم لاحقون أسأل الله لنا ولكم العافية»[٢] رواه مسلم.

وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: مرَّ رسول الله ﷺ بقبور بالمدينة فأقبل عليهم بوجهه فقال: «السلام عليكم يا أهل القبور، يغفر الله لنا ولكم، أنتم سلفنا ونحن بالأثر»[٣] رواه الترمذي. وقال: حديث حسن. وفي كتابنا مشارق الأنوار.

وفي رواية للطبراني في التفسير عن زيد بن ثابت رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «زوروا القبور ولا تقولوا هُجْراً»[٤] أي قولاً باطلاً وكلاماً لا يعني.

قال سيدي علي الأجهوري: وأخرج ابن أبي شيبة عن الحسن قال: من دخل المقابر فقال: «اللهم رب هذه الأجساد البالية والعظام النَّخِرة التي خرجَتْ من الدنيا وهي بك مؤمنة أدخل عليها روحاً منك وسلاماً مني. استغفر له كل مؤمن مات منذ خلق الله آدم»[٥]. وأخرجه ابن أبي الدنيا بلفظ: «كتب له بعدد من مات من ولد آدم حسنات».

وعن ابن عبد البر بسند صحيح: «ما من أحد يمر بقبر أخيه المؤمن كان يعرفه في الدنيا فيسلّم عليه إلاَّ عرفه ورد عليه السلام».

وأخرج ابن أبي الدنيا في كتاب القبور عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «ما من رجل يزور قبر أخيه ويجلس عليه إلاَّ استأنس به حتى يقوته».

وأخرج البيهقي في الشعب عن أبي هريرة قال: «إذا مرَّ الرجل بقبر يعرفه فسلّم عليه رد عليه السلام وعرفه، وإذا مر بقبر لا يعرفه فسلم عليه رد عليه السلام»[٦] وهي مثل رواية ابن عبد البر.

وفي الأربعين الطائية روي عن النبي ﷺ أنه قال: «آنس ما يكون الميت في قبره إذا

---

(١) رواه مسلم (٢/ ٦٦٩).
(٢) رواه مسلم (٢/ ٦٦٩).
(٣) رواه الترمذي (٣/ ٣٦٩).
(٤) رواه الطبراني في الصغير (٢/ ١١٨).
(٥) رواه ابن أبي شيبة في المصنف (٧/ ١٨٨).
(٦) رواه مسلم (١/ ٢٨٨).

زاره من كان يحبه في دار الدنيا».

وروي أن النبي ﷺ قال: «من زار أبويه كلّ جمعة غفر له وكتب باراً».

وفي تذكرة الإمام القرطبي عنه ﷺ قال: «من مرَّ على المقابر وقرأ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص: الآية ١] إحدى عشرة مرة أعطي من الأجر بعدد الأموات.

فصل فيما أعدّه الله للمؤمنين في الجنة

اعلم أن أعلى منازل الجنة وأشرفها هي الوسيلة، وهي منزل رسول الله ﷺ وداره في الجنة، وهي أقرب منازل الجنة إلى العرش، وهي التي يستحبّ لكل مسلم طلبها له ﷺ عند الأذان. ففي كتابنا المشارق عن مسلم من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: «إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ثم صلّوا عليّ فإنه من صلّى عليّ صلاة صلى الله عليه بها عشراً ثم سلوا الله لي الوسيلة فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلاّ لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لي الوسيلة حلت عليه الشفاعة»[1].

وروى أبو نعيم عن النبي ﷺ قال: «إن أهل الجنة ليغدُون في حلّة ويروحون في أخرى كغدوّ أحدكم ورواحه إلى ملك من ملوك الدنيا كذلك يغدون ويروحون إلى زيارة ربّهم عز وجل وذلك لهم بمقادير ومعالم يعلمون تلك الساعة التي يأتون فيها ربهم عز وجل».

وفي المشارق عن البدور، أخرج يحيى بن سلام عن بكر بن عبيد المزني قال: إن أهل الجنة ليزورون ربهم في مقدار كل عيد لهم كأنه يقول في كل سَبْعَة أيام مرة، فيأتون رب العزة في حلل خضر ووجوههم مشرقة وأساور من ذهب مكلّلة بالدر والزمرد ويركبون نجائبهم ويستأذنون على ربهم فيأمر لهم بالكرامة.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله تعالى: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، واقرأوا إن شئتم ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السّجدَة: الآية ١٧]»[2] رواه الشيخان.

وعنه رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أوّل زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر، ثم الذين يلونهم على أشد كوكب درّيٍّ إضاءةً ولا يبولون ولا يتغوّطون ولا يتفلون ولا يتمخّطون، أمشاطهم الذهب ورشحهم المسك ومجامرُهُم الألُوّة عود

(١) رواه البخاري (٣/ ١١٨٥)، ومسلم (٤/ ٢١٧٤).
(٢) رواه البخاري (٣/ ١١٨٥، ١١٨٦)، ومسلم (٤/ ٢١٧٨).

الطيب أزواجهم الحور العين على خلق رجل واحد على صورة أبيهم آدم ستون ذراعاً في السماء»[١] رواه الشيخان.

وفي رواية للبخاري ومسلم: آنيتهم فيها الذهب، ورشحهم المسك، ولكل واحد منهم زوجتان يرى مخ سوقهما من وراء اللحم من الحسن لا اختلاف بينهم ولا تباغض، قلوبهم قلب واحد يسبِّحون الله بكرة وعشياً.

وعن أبي موسى رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «إن للمؤمن في الجنة لخيمة من لؤلؤة مجوفة طولها في السماء ستون ميلاً للمؤمن فيها أهلون يطوف عليهم المؤمن ولا يرى بعضهم بعضاً» رواه الشيخان.

وعن أبي سعيد رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم كما تتراءون الكوكب الدرّي الغائر في الأفق من المشرق والمغرب لتفاضل ما بينهم، قالوا: يا رسول الله تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم، قال: بلى والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدّقوا المرسلين»[٢] رواه الشيخان.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «لقاب قوسين في الجنة خير مما طلعت عليه الشمس أو تغرب»[٣] رواه الشيخان.

وعن أبي سعيد رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «إن في الجنة شجرة يسير الراكبُ الجواد المضمَّر السريع مائة سنة ما يقطعها» رواه الشيخان.

وعن أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة ينادي مناد: إن لكم أن تحيوا ولا تموتوا أبداً، وإن لكم أن تشبّوا ولا تهرموا أبداً، وإن لكم أن تنعموا ولا تبأسوا أبداً»[٤] رواه مسلم.

وعن أبي سعيد رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله عز وجل يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة، فيقولون: لبيك ربنا وسعديك والخير في يديك، فيقول: هل رضيتم، فيقولون: وما لنا لا نرضى يا ربنا وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك، فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك، فيقولون: وأي شيء أفضل من ذلك، فيقول: أحِلُّ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً»[٥] رواه الشيخان.

(١) رواه البخاري (٣/ ١١٨٥)، ومسلم (٤/ ٢١٨٣).
(٢) رواه البخاري (٣/ ١١٨٨)، ومسلم (٤/ ٢١٧٧).
(٣) رواه البخاري (٣/ ١١٨٧).
(٤) رواه مسلم (٤/ ٢١٨٢).
(٥) رواه البخاري (٥/ ٢٣٩٨)، (٦/ ٢٧٣٢)، ومسلم (١/ ١٧٠).

وعن جرير رضي الله عنه قال: كنا عند رسول الله ﷺ فنظر إلى القمر ليلة البدر وقال: «إنكم سترون ربكم عِيَاناً كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته»[١] رواه الشيخان.

وعن صهيب رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة يقول الله تبارك وتعالى: تريدون شيئاً أزيدكم، فيقولون: ألم تبيض وجوهنا، ألم تدخلنا الجنة وتنجّنا من النار، فيكشف عنهم الحجاب فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم»[٢] رواه مسلم.

وفي كتابنا المشارق: قال ابن الجوزي في كتابه حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح: فسر رسول الله ﷺ الحسنى بالجنة والزيادة بالنظر إلى وجه الله الكريم. ففي صحيح مسلم من حديث حماد بن سلمة عن ثابت بن عبد الرحمٰن بن أبي ليلى عن صهيب قال: قرأ رسول الله ﷺ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: الآية ٢٦] قال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار نادى مناد: يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعداً ويريد أن يُنْجزكُموهُ، فيقولون: ما هو؟ ألم يثقل موازيننا ويبيض وجوهنا ويُدخلنا الجنة ويجرنا من النار، فيكشف الحجاب فينظرون إليه، فما أعطاهم شيئاً أحب إليهم من النظر إليه»[٣].

نسأل الله العظيم متوسلين إليه بوجاهة وجه نبيه الكريم أن يمتّعنا بالنظر إلى وجهه الكريم في معيّة سيّد العالمين وآله وأصحابه وأهل بيته الطاهرين ووالدينا وأحبابنا ومشايخنا وكلّ من له الفضل علينا، وصلّى الله على سيدنا ومولانا محمد وأزواجه وذريته وآل بيته وسلم وشرف وعظم كلما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون.

---

(١) رواه البخاري (١/ ٢٠٣)، (٤/ ١٨٣٦)، ومسلم (١/ ٤٣٩).
(٢) رواه مسلم (١/ ١٦٣).
(٣) رواه مسلم (١/ ١٦٣).

الباب الثامن

في كرامات الأولياء رضي الله عنهم ونفعنا بهم وبيان أن طريق القوم مشيّدة بالكتاب والسُّنة وأنها مبنية على سلوك أخلاق الأنبياء والأصفياء، وأن كرامات الأولياء ثابتة بالكتاب والسنة والإجماع أحياء وأمواتاً، وأن فيهم أقطاباً وأوتاداً وأبدالاً وأنجاباً وغير ذلك، وأنهم يتسترون بالأسباب ومنهم غير ذلك.

قال قطب الواصلين ولي نعمتي الإمام الشعراني في طبقاته الكبرى: اعلم يا أخي رحمك الله أن علم التصوف عبارة عن علم انقدح في قلوب الأولياء حين استنارت بالعمل بالكتاب والسنَّة، فكل من عمل بهما انقدح له من ذلك علوم وآداب وأسرار وحقائق تعجز الألسن عنها نظير ما انقدح لعلماء الشريعة من الأحكام حين عملوا بما علموا من أحكامها، فالتصوف إنما هو زبدة عمل العبد بأحكام الشريعة إذا خلا من عمله العلل وحظوظ النفس، إلى أن قال: ولذا قال الجنيد رحمه الله تعالى: علمنا هذا مشيد بالكتاب والسنة، ردّاً على من توَّهم خروجه عنهما في ذلك الزمان أو غيره، وقد أجمع القوم على أنه لا يصلح للتصدر في طريق الله عز وجل إلاَّ من تبحّر في علم الشريعة وعلم منطوقها ومفهومها وخاصها وعامها.

قال: وقد رأيت رسالة أرسلها الشيخ محيي الدين بن العربي رضي الله عنه للشيخ فخر الدين الرازي صاحب التفسير يبيِّن له فيها نقص درجته في العلم، هذا والشيخ فخر الدين الرازي مذكور في العلماء الذين انتهت إليهم الرياسة في الاطلاع على العلوم.

من جملتها، اعلم يا أخي وفقّنا الله وإياك، أن الرجل لا يكمل عندنا في مقام العلم حتى يكون علمه عن الله عز وجل بلا واسطة من نقل أو شيخ، فإن من كان علمه مستفاداً من نقل أو شيخ فما برح عن الأخذ عن المحدثات وذلك معلول عند أهل الله عز وجل، ومن قطع عمره في معرفة المحْدثات وتفاصيلها فإنه حظه من ربه عز وجل.

إلى أن قال له: وكان الشيخ الكامل أبو يزيد البسطامي رضي الله عنه يقول لعلماء عصره: أخذتم علمكم عن علماء الرسوم ميتاً عن ميت، وأخذنا علمنا عن الحي الذي لا يموت. اهـ.

قال: وكان الشيخ عز الدين بن عبد السلام رضي الله عنه يقول بعد اجتماعه على

الشيخ أبي الحسن الشاذلي وتسليمه للقوم: من أعظم الدليل على أن طائفة الصوفية قعدوا على أعظم أساس الدين ما يقع على أيديهم من الكرامات والخوارق ولا يقع شيء من ذلك قط لفقيه إلا إن سلك مسلكهم كما هو مشاهد. وكان الشيخ عز الدين رضي الله عنه قبل ذلك ينكر على القوم ويقول: هل لنا طريق غير الكتاب والسنة، فلما ذاق مذاقهم وقطع السلسلة الحديد بكراسة الورق صار يمدحهم كل المدح.

ولما اجتمع الأولياء والعلماء في وقعة الفرنج بالمنصورة قريباً من ثغر دمياط جلس الشيخ عز الدين والشيخ مكين الدين الأسمر والشيخ تقي الدين بن دقيق العيد وأضرابهم وقرئت عليهم رسالة القشيري وصار كل واحد يتكلم، فبينما هم كذلك إذ جاء الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه فقالوا له: نريد أن تسمعنا شيئاً من معاني هذا الكلام، فقال: أنتم مشايخ الإسلام وكبراء الزمان وقد تكلّمتم فما بقي لكلام مثلي موضع. فقالوا له: لا بل تكلم، فحمد الله وأثنى عليه وشرع يتكلم فصاح الشيخ عز الدين من داخل الخيمة وخرج ينادي بأعلى صوته: هلموا إلى هذا الكلام القريب العهد من الله فاسمعوه.

قال الإمام اليافعي رضي الله عنه في كتابه روض الرياحين: والعجب كل العجب ممن ينكر كرامات الأولياء وقد جاءت في الآيات الكريمات والأحاديث الصحيحات والآثار المشهورات والحكايات المستفيضات.

وفي طبقات الإمام المناوي الكبرى: الكرامة إظهار أمر خارق للعادة على يد الولي مقرون بالطاعة والعرفان بلا دعوى نبوّة وتكون للدلالة على صدقه وفضله أو لقوّة يقين صاحبها أو غيره، وهي جائزة وواقعة عند أهل السنة ولو بقصد الولي على الأصح، وإن كان الغالب خلافه ومن جنس المعجزات على الصواب لشمول القدرة الإلٰهية لها وذلك لأن وجود الممكنات مستند إلى قدرته تعالى الشاملة لكلها فلا يمتنع شيء منها على قدرته ولا يجب غرض في أفعاله ولا ريب أن الكرامة أمر ممكن إذ لا يلزم من فرض وقوعها محال لذاته فهي جائزة بل واقعة حسب ما نطق به القرآن والحديث النبوي.

أما القرآن فكقصة أهل الكهف حيث أقاموا فيه ثلاثمائة سنة وأزيد نياماً أحياءً بلا آفة ولا غذاء وليسوا بأنبياء بإجماع الفرق.

وقصة مريم حملت بلا ذكر ووجد الرزق عندها بلا سبب وتساقط عليها الرطب من شجرة يابسة بلا موجب.

وقصة آصف حيث أحضر عرش بلقيس من مسافة بعيدة في طرفة عين.

وأما الأحاديث فكثيرة منها ما نقله في رياض الصالحين من رواية البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لقد كان فيما قبلكم من الأمم ناس يُحَدَّثون فإن يك في

أمتي أحد فإنه عمر» وفي رواية مسلم: «محدثون»(١).

قال النووي: أي ملهمون.

ومنها ما في الصحيحين في قصة أبي بكر رضي الله عنه لما جاءه أضياف وكان عند رسول الله ﷺ وامتنع الأضياف من العشاء حتى حضر أبو بكر وطلب الطعام وأكل الأضياف. قال عبد الرحمٰن بن أبي بكر: وأيم الله ما كنا نأخذ من القصعة لقمة إلاّ ربا من أسفلها أكثر منها حتى شبعوا وصارت أكثر مما كانت قبل ذلك، فنظر إليها أبو بكر فقال لامرأته: يا أخت بني فراس ما هذا؟ قالت: لا وقرّة عيني لهي الآن أكثر منها قبل ذلك بثلاث مرات. فأكل منها أبو بكر ثم حملها إلى النبي ﷺ فأصبحت عنده وكان بيننا وبين قومه عهد فمضى الأجل فتفرّقنا اثني عشر رجلاً مع كل رجل منهم أناس الله أعلم كم كان مع كل رجل فأكلوا منها أجمعون».

وعن أنس رضي الله عنه: أن رجلين من أصحاب النبي ﷺ خرجا من عند النبي ﷺ في ليلة مظلمة ومعهما مثل المصباحين بين أيديهما، فلما افترقا صار مع كل واحد منهما واحد حتى أتى أهله. رواه البخاري من طرق، وفي بعضها: أن الرجلين أُسَيْد بن حضير وعباد بن بشر رضي الله عنهما.

ومنها ما في الصحيحين من حديث أبي هريرة في قصة عاصم بن ثابت لما بعثه رسول الله ﷺ مع أصحابه عيناً وكان أميراً عليهم فانطلقوا حتى إذا كانوا بالهَدأةِ بين عسفان ومكة ذُكِرُوا لحيٍّ من هُذَيْل يقال لهم: بنو لحيان، فأرسلوا إليهم قريباً من مائة رجل فاقتصّوا آثارهم فلما أحسَّ بهم عاصم وأصحابه لجأوا إلى موضع عال فأحاط بهم القوم فقالوا: انزلوا إلينا ولكم العهد والميثاق أن لا نقتل منكم أحداً. فقال عاصم: أما أنا فلا أنزل على ذمة كافر اللهمَّ أخبر عنا نبيّك ﷺ. فرموهم بالنبل فقتلوا عاصماً، وبعث ناس من قريش لما بلغهم أنه قتل من يأتيهم بشيء من بدنه وكان قتَلَ رجلاً من عظمائهم، فبعث الله لعاصم مثل الظلّة من الدَّبر نوع من الزنابير فحمته منهم فلم يقدروا أن يقطعوا منه شيئاً وقتلوا أصحاب عاصم أيضاً إلاّ ثلاثة نفر فإنهم نزلوا على العهد والميثاق منهم خُبَيْبٌ وزيد بن الدَّثِنَة ورجل آخر. فلما استمكنوا منهم أطلقوا أوتاد قسيهم فقال الرجل الثالث: هذا أول الغدر والله لا أصحبكم وإن لي بأصحابي أسوة، يعني المقتولين، فقتلوه وباعوا خبيباً بمكة لبني الحارث بن عامر بن نوفل، وكان خبيب قتل الحارث يوم بدر فمكث خبيبٌ أسيراً عندهم حتى أجمعوا على قتله. قالت بعض بنات الحارث: والله ما رأيت أسيراً خيراً من خبيب فوالله لقد وجدته يوماً يأكل قِطْعاً من عنب

(١) رواه البخاري (٣/ ١٢٧٩)، ومسلم (٤/ ١٨٦٤).

في يده وإنه لموثق بالحديد وما بمكة من ثمرة وإنه لرزق رزقه الله خبيباً. فلما خرجوا إلى الحل ليقتلوه قال لهم خبيب: دعوني أصلي ركعتين. فركع ركعتين وقال: والله لولا أن تحسبوا أن ما بي جزع لزدت. وقال: اللهمَّ احصهم عدداً واقتلهم بَدَداً ولا تبق منهم أحداً. ثم قال:

فلست أبالي حين أُقتل مسلماً على أي جنب كان للّه مَصْرعي
وذلك في ذات الإلٰه وإن يشأ يبارك على أوصال شِلوٍ مُمزَّعِ[1]

والأحاديث في ذلك كثيرة.

قال المناوي في طبقاته الكبرى نقلاً عن الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه: إنما كانت الكرامات بعد زمن الصحابة أكثر لأن قوة إيمانهم لا يحتاج معها إليها ولأن الزمن الأول كان كثير النور، فلو حصلت لم تظهر كل الظهور لاضمحلالها في نفس النبوّة بخلاف من بعدهم، ألا ترى أن القنديل لا يظهر نوره بين القناديل بخلاف الظلام والنجوم لا يظهر لها ضوء مع الشمس.

قال السبكي: وإني لأعجب كل العجب من منكر الكرامة وأخشى عليه المقت ويزداد تعجبي عند نسبة إنكارها إلى الأستاذ الإسفرايني وهو من أساطين أهل السنة والجماعة، على أن نسبة إنكارها إليه على الإطلاق كذب، والذي ذكره الرجل في كتبه أنها لا تبلغ مبلغ خرق العادة، وقال: كل ما كان معجزة لنبي لا يجوز مثله كرامة لولي وإنما غاية الكرامات إجابة دعوة أو شربة ماء في مفازة أو كسرة في منقطعة أو ما يضاهي ذلك.

وجرى على نحوه القشيري فقال: إن الكرامة لا تنتهي إلى وجود ابن بغير أبٍ وقلب جماد بهيمة، لكن الجمهور على الإطلاق وقد أنكروا التفصيل على قائله حتى ولده أبو نصر في المرشد وإمام الحرمين في الإرشاد وقال: إنه مذهب متروك. وبالغ النووي فقال: إنه غلط وإنكار للحسن وإن الصواب وقوعها بقلب الأعيان ونحوه.

وقد عدّ بعض الأئمة الأنواع الواقعة من الكرامات عشرين، وهي أكثر بكثير.

النوع الأول: إحياء الموتى وهو أعلاها، فمن ذلك أن أبا عبيدة اليسري غزا ومعه دابة فماتت، فسأل الله أن يحييها حتى يرجع إلى بلده، فقامت تنفض أذنيها فلما بلغ بلده سقطت ميتة.

ووضع الجيلاني يده على عَظْم دجاجة أكلها وقال لها: قومي بإذن الله الذي يحيي العظام، فقامت.

(١) رواه البخاري (٣/ ١١٠٨)، (٤/ ١٤٦٥).

النوع الثاني: كلام الموتى وهو أكثر مما قبله بكثير، وكان جدنا يخاطب الإمام الشافعي فيكلمه من قبره.

النوع الثالث: انفلاق البحر وجفافه والمشي عليه، وذلك كثير، وممن وقع له ذلك ابن دقيق العيد.

النوع الرابع: انقلاب الأعيان، ومنه ما ذكر عن الهتار أنه أرسل إليه بعض المستهزئين بإناءين من خمر فصب من أحدهما عسلاً ومن الآخر سمناً وأطعم الحاضرين.

النوع الخامس: انزواء الأرض لهم، حكي أن بعضهم كان بجامع طرسوس فاشتاق لزيارة الحرم فأدخل رأسه في جبته ثم أخرجها في الحرم. والقدر المشترك في هذا بالغ مبلغ التواتر ولا ينكره إلاَّ مباهت.

النوع السادس: كلام الحيوان والجماد ولا شك في كثرته، ومنه أن ابن أدهم قعد تحت شجرة رمان فقالت: يا أبا إسحٰق أكرمني بأكلك مني، فأكل منها وكان رمانها حامضاً فَحَلاَ وحملت في العام مرتين، وسميت رمانة العابدين.

النوع السابع: إبراء العلل، كما روي عن الجيلاني: قال لصبي مقعد مفلوج أعمى: قم بإذن الله تعالى، فقام لا عاهة به.

النوع الثامن: طاعة الحيوان لهم، كما نقل أن الميهي وغيره كان يركب الأسد، بل وطاعة الجماد كما في قول ابن عبد السلام في واقعة الريح: يا ريح فخذيهم فأخذتهم.

التاسع والعاشر والحادي عشر: طيّ الزمان ونشره وإجابة الدعاء، وذلك كثير. قال في الجوهر المصون، ومنها ـ أي نتائج الخلوة ـ: شهود انطواء الزمان في حقه دون غيره كما وقع لسيدي علي المرصفي رضي الله عنه وأخبرني بأنه قرأ في يوم وليلة ثلاثمائة وستين ألف ختمة كل درجة ألف ختمة بالأصوات والحروف.

وكما وقع لخادم شيخ الإسلام ابن سكينة أنه غطس في بحر النيل، فرأى أنه تزوج وأولد أولاداً مدة سبع سنين في بلاد بغداد، ثم خرج من تلك الغطسة فرأى ثيابه على شاطىء النيل والمؤذن يؤذن بالجمعة في ساحل مصر العتيقة، ثم بعد ذلك أتاه أولاده وأمهم من بغداد وعرفهم وعرفوه وأقرّهم العلماء على ذلك النكاح في عصر الشيخ عز الدين بن عبد السلام والشيخ تقي الدين بن دقيق العيد اهـ.

الثاني عشر: الإخبار ببعض المغيبات والكشف وهو درجات تخرج عن حد الحصر وذلك موجود الآن بكثرة ولا يعاد، منه قوله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ﴾ [الأنعام: الآية ٧٣] فلا يظهر على غيبه أحداً إلاَّ من ارتضى من رسول لأننا لا نسلم عموم الغيب فيجوز أن

يخص بحال القيامة بقرينة السياق.

الثالث عشر: الصبر على عدم الطعام والشراب الأمد الطويل وهو كثير مشاهد.

الرابع عشر: مقام التصريف، وهو كثير في كل زمن ولا ينكره إلاَّ معاند.

قال القطب الشعراني في كتابه الجوهر المصون والسر المرقوم فيما تنتجه الخلوة من الأسرار والعلوم، ومنها: إعطاء الكرامات والخوارق والتصرف بالهمة في الكون فيمشي على الهواء والماء ويدخل النار فلا تحرق له ثوباً ولا جسداً اهـ.

الخامس عشر: القدرة على تناول الكثير من الغذاء كما نقل عن الشيخ دمرداش أن بعض الأمراء عمل وليمة ودعاه وجماعته فتوجه إليه وحده فتشوش لعدم حضور الفقراء، وقال: من يأكل الطعام، فمدّ السماط فأكله الشيخ كله.

السادس عشر: الحفظ عن الحرام أن يدخل الجوف كما حكي عن الحارث المحاسبي أنه كان إذ أحضر إليه طعام فيه شبهة تحرَّك فيه عرق، وكان المرسي يتحرَّك منه كل عرق.

السابع عشر: رؤية الأماكن البعيدة من وراء الحجب، فمن ذلك أن الشيخ أبا إسحٰق الشيرازي كان يشاهد الكعبة وهو ببغداد.

الثامن عشر: الهيبة التي لبعضهم بحيث مات من شاهده عند رؤيته كما وقع لأبي يزيد البسطامي مع ذلك الفقير ووقع للشيخ أحمد البدوي وغيرهما.

التاسع عشر: قصم الله تعالى لمن يريد بهم سوءاً كما وقع ذلك كثيراً.

العشرون: التطوّر بأطوار مختلفة، ومنه ما وقع لقضيب البان أن فقيهاً أنكر عليه لكونه لم يره يصلي فتصور له على الفور في صور مختلفة، فقال: في أيّ صورة من هذه الصور لم ترني أصلي. قال في روض الرياحين: وقد سمعنا سماعاً محققاً أن جماعة شوهدت الكعبة تطوف بهم طوافاً محققاً، قال: ورأيت من شاهد ذلك من الثقات الأتقياء بل من السادات العلماء.

وقال ابن العربي: كنت أنا وصاحب لي بساحل البحر المحيط، فرأيت رجلاً وضع حصيراً في الهواء فصلى عليه فوقفت تحته وقلت:

شغل الحبيب عن الحبيب بسره ... في حب من خلق الهواء وسَخَّره
العارفون عقولهم معقولة ... عن كل كون ترتضيه مطهَّرة
فهم لديه مكرمون وعنده ... أسرارهم محفوظة ومحرّرَة

فأوجز في صلاته وقال: إنما فعلت ذلك لهذا المنكر الذي معك، وأنا الخضر. قال ابن العربي: ولم أكن أعلم أن صاحبي ينكر كرامات الأولياء فقلت له: أكنت تنكر؟

قال: نعم وما بعد العِيَان إلا الإذعان والأخبار في ذلك كثيرة اهـ.

قال العلامة الشيخ عبد السلام اللقاني في شرح الجوهرة: ولما كان مذهب أهل الحق إثبات كل كرامات الأولياء، أشار إلى ذلك بقوله:

وأثـبـتـن لـلأولـيـاء الـكـرامـة

جمع وليّ اهـ. قوله: أهل الحق، قال العلامة السحيمي: على حذف مضاف، أي جمهور أهل الحق فلا ينافي ما يأتي من مخالفة الإسفرايني والحَلِيمي. وقوله: كرامات الأولياء، قال العلامة السحيمي: أحياءً وأمواتاً وليس في مذهب من المذاهب الأربعة قوله بنفيها بعد الموت يلتفت إليه بل ظهورها بعد الموت أولى لأن النفس حينئذ صافية من الأكدار والمِحَنِ فلذا قيل: من لم تظهر كرامته بعد مماته كما كانت أيام حياته فليس بصادق ولأن الله هو الذي يوجد كرامة الوليّ وهو حي لا يموت اهـ.

وفي الرسالة القشيرية عن الشيخ أبي سعيد الخرَّاز قال: كنت مجاوراً بمكة فخرجت يوماً من باب بني شيبة، فرأيت شاباً حسن الصورة ميتاً، فنظر في وجهي وتبسم، فقلت: أحياة بعد موت، فقال: أما علمت أن الأحياء أحياء وإن ماتوا وإنما ينقلون من دار إلى دار.

وفيها أيضاً عن بعضهم قال: كنا في مركب فمات رجل منا فأخذنا في جهازه وهممنا أن نلقيه في البحر، فجف البحر، فنزلت السفينة على الأرض فخرجنا فحفرنا له قبراً ودفناه، فلما فرغنا جاء الماء وارتفعت السفينة وسرنا اهـ.

قال العلامة السحيمي: ويدل لوقوعها بعد الموت ما أخرجه الترمذي وقال: حسن غريب.

عن ابن العباس قال: ضرب رجل من أصحاب النبي ﷺ خباءه على قبر وهو لا يحسبُ أنه قبر، فإذا هو قبر إنسان يقرأ سورة الملك حتى ختمها، فأتى النبي ﷺ فأخبره، فقال النبي ﷺ: «هي المانعة، هي المنجية تنجيه من عذاب القبر»[1] أي فقراءته بعد الموت كرامة لأن المصطفى أقرها وتقريره دليل شرعي تثبت به الأحكام.

وما أخرج الطبراني عن ابن عباس مرفوعاً: رأيت الملائكة تغسل حمزة بن عبد المطلب وحنظلة بن الراهب، أي حين قُتلا في غزوة أُحد. وفي رواية ابن سعد وابن حبان والحاكم في صحيحيهما: إني رأيت الملائكة تغسل حنظلة بن عامر بين السماء والأرض بماء المُزْنِ ـ بضم الميم وسكون الزاي أي: السحاب في صحائف الفضة ـ فالتمسوه في القتلى فوجدوا رأسه يقطر ماءً وليس بفرجه ماء، فأرسل رسول الله ﷺ إلى

(١) رواه الترمذي (٥/ ١٦٤)، والبيهقي في الصغرى (١/ ٥٥٣).

امرأته جميلة فسألها فقالت: خرج وهو جنب حين سمع منادي رسول الله بالخروج إلى العدو وأولاده تسمى أولاد غسيل الملائكة.

وما أخرجه البيهقي وأبو نعيم كلاهما في دلائل النبوة عن عروة بن عامر بن فهيرة قال: قتل عامر بن فهيرة يوم بئر معونة فيمن قتل وأسر عمرو بن أمية الضمري، فقال له عامر بن الطفيل: هل تعرف أصحابك، قال: نعم. فطاف فيهم ـ يعني القتلى ـ وجعل يسأله عن أنسابهم ثم قال هل تفقد منهم من أحد؟ قال: أفقد مولى لأبي بكر يقال له عامر بن فهيرة، قال: كيف كان فيكم؟ قال: كان من أفضلنا، قال: ألا أخبرك خبره، هذا طعنه برمح ثم انتزع رمحه فذُهِبَ بالرجل علواً في السماء حتى والله ما أراه وكان الذي قتله رجلاً من كلاب يقال له جبار بن سلمى فأتى الضحاك بن سفيان الكلابي فأسلم فقال: دعاني إلى الإسلام ما رأيت من قتل عامر بن فهيرة ومن رفعه إلى السماء علواً. فكتب الضحاك إلى رسول الله ﷺ بإسلامه وما رأى من مقتل عامر فقال رسول الله ﷺ: «فإن الملائكة وارت جثته وأنزل في عليين» يعني غيّبته في السماء، وهذا الحديث رواه البخاري في صحيحه.

وروى البخاري أن بعض الصحابة رؤي وهو يصلي في المسجد بعد موته، وقوله: وأثبتن للأولياء الكرامة، الخ. قال العلامة السحيمي: لأن الله أوجب على المؤمنين محبة الأولياء والعلماء وذم من يبغضهم لأنهم شموس الإسلام وغيرهم كالعدم، كما قيل:

أولـئـك الـقـوم إن عُـدُوا لـمـكـرمـة ومـن سـواهـم فـلـغـو غـيـر مـعـدود
والـفـرق بـيـن الـورى جـمـعـاً وبـيـنـهـم كـالـفـرق بـيـن مـعـدوم ومـوجُـود

وقوله: جمع وليّ. قال العلامة السحيمي: قال سيدي عبد القادر الجيلي: الولاية قيل هي تولي الحق عبده بالطاعة، وقيل: إظهار آثار القدرة على يديه وهي على مراتب كثيرة ويجمعها ثلاثة أنواع: ولاية صغرى لها ألف درجة، ولها الفناء في الشهود وآخرها التحقق بالأوصاف الإلٰهية، وولاية كبرى لها ألف درجة، أولها التحقق بالأوصاف الإلٰهية وآخرها مقام العجز. وفيه يتحقق العبد بالكمال المطلق، وليس من شروط الولي أن يعلم أنه ولي بل يجوز ذلك خلافاً لقول أبي بكر بن فورك: لا يجوز أن يعلم أنه وليّ لأن ذلك يسلبه الخوف ويوجب له الأمن.

وقد ورد أنه من كان بالله أعرف كان من الله أخوف.

ثم قال الشيخ عبد السلام أيضاً: وهو ـ أي الولي ـ العارف بالله تعالى وبصفاته حسب الإمكان المواظب على الطاعات المجتنب للمعاصي، المعرض عن الانهماك في اللذات والشهوات المباحة، فهو من تولى الله سبحانه وتعالى أمره فلم يكله إلى نفسه ولا

غيره لحظة أو الذي يتولى عبادة الله وطاعته فعبادته تجري على التوالي من غير أن يتخللها عصيان، وكلا المعنيين واجب تحققه حتى يكون الوليّ عندنا ولياً في نفس الأمر اهـ.

فقوله: المجتنبُ للمعاصي، قال العلامة السحيمي في شرحه عليه: قال القشيري: المراد باجتنابها أن يحفظه الله من تماديه فيها بأن يلهمه التوبة منها فوراً فلا تقدح المعصية في ولايته ولا تزيلها فلذا قالوا: من سبقت له العناية لم تضرّه الجناية، وإنما وقع منه الذنب لئلا يأمن مكر الله، إنه لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون.

وسئل الجنيد: أيزني الولي، فأطرق ملياً ثم قال: نعم وكان أمر الله قدراً مقدوراً، كما حكي أن ولياً نام عند أبي العباس المرسي فزنى بجاريته تلك الليلة ثم اغتسل وخرج يمشي على وجه الماء في بحر إسكندرية، فقال له: يا سيدي ما هذا؟ فقال: هذا عطاؤه وذلك قضاؤه اهـ.

وقال الشيخ الأمير في حاشية عبد السلام: قالوا: لا يكذب الولي، قيل: أي بلسان حاله، بأن يظهر خلاف ما يبطن اهـ.

وقوله: المعرض عن الانهماك في اللذات والشهوات المباحة، أي لأن شأنهم في أفعالهم أنها دائرة بين الواجب والمندوب وإن فعلوا المباح فلا بد أن تصحبه نية تقلبة إلى المندوب كما هو مقرر في كتب القوم.

قال الإمام السحيمي في شرحه: كإكثار لذيذ المآكل والمشارب والملابس فلا يضر تناولها من غير إكثار ولا الإكثار بقصد التقوّي على طاعة الله تعالى، أي ونحو ذلك، وإنما كان يعرض عنها في أغلب أحواله لئلا توقعه في المكروهات والمحرمات ولأن الله ذم المتنعمين في كثير من الآيات فلهذا اشتد خوف السلف من تناول لذائذ الأطعمة وتعويد النفس عليها. وقالوا: إن ذلك علامة الشقاوة.

قال عُتْبَة الغلام لعبد الواحد بن زيدان: فلاناً يصف من قلبه منزلة ما أعرفها، قال: لأنك تأكل مع خبزك تمراً وهو لا يزيد على الخبز شيئاً، فقال: إن تركت أكل التمر عرفت تلك المنزلة؟ قال: نعم وغيرها.

وقال أبو سليمان الداراني: ترك شهوة من شهوات النفس أنفع للقلب من صيام سنة وقيامها.

وحكي أن يحيى بن يزيد النوفلي الصوفي كتب إلى الإمام مالك بن أنس: بسم الله الرحمٰن الرحيم وصلّى الله على سيِّدنا محمد في الأولين والآخرين من يحيى بن يزيد إلى مالك بن أنس، أما بعد: فقد بلغني أنك تلبس الرِّقاق وتأكل الرُّقاق وتجلس على الوطاء، وتجعل على بابك حجَاباً، وقد جلست مجلس العلم وضُرِبَت إليك آباط الإبل

وارتحل الناس إليك واتخذوك إماماً ورضوا بقولك فاتق الله يا مالك وعليك بالتواضع. كتبت إليك بالنصيحة مني كتاباً ما اطلع عليه أحد إلاَّ الله تعالى والسلام. فكتب إليه مالك: بسم الله الرحمٰن الرحيم، من مالك بن أنس إلى يحيى بن يزيد، سلام عليك أما بعد: فقد وصل كتابك فوقع مني موقع النصيحة متّعك الله بالتقوى وجزاك بالنصيحة خيراً وأسأل الله التوفيق ولا حول ولا قوّة إلاَّ بالله العلي العظيم. وما ذكرت من أني آكل الرقاق وألبس الرقاق وأنام على الوطاء فنحن نفعل ذلك ونستغفر الله العظيم، وقد قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾ [الأعراف: الآية ٣٢] وإني لأعلم أن ترك ذلك خير من الدخول فيه ولا تدعنا من كتابك فإنا لسنا ندعك من كتابنا والسلام اهـ.

قلت: إنما كان الإمام يصنع ما ذكر إظهاراً لشرف العلم وقناعة النفس والزهد عما في أيدي الملوك وإنه غني عنهم ولهذه النيّة صار المباح مطلوباً، كيف لا ومكتوب على فخذه بقلم القدرة: مالك حجة الله في أرضه.

وقوله: أي الذي يتولى عبادة الله وطاعته، قال العلامة السحيمي: أي يأتي بها فهو فعيل بمعنى فاعل.

قال أبو عثمان المغربي من ظن أنه يفتح عليه بشيء من هذه الطريقة أو يكشف له عن شيء منها بغير لزوم المجاهدة فهو في عزور وغلط اهـ.

قلت: وهذا في الولاية المكتسبة التي تنال بالرياضة بخلاف الولاية الجذبية.

وقوله: فعبادته تجري على التوالي من غير أن يتخللها عصيان. قال العلامة السحيمي: من غير توبة وهذا لا يوجد إلا بالعلم، فلذا قالوا: ما اتخذ الله من ولي جاهل ولو اتخذه لعلّمه. قال شيخنا البراوي: والمراد باشتراط كون الوليّ عالماً أن يكون عارفاً بعلم التوحيد وبما تتوقف عليه عبادته من الفقه وإن كان جاهلاً ببقية الأحكام، واشتراط العلم بجميع الشريعة إنما هو في الأقطاب.

وحكى الشعراني: أن شيخ الإسلام الحافظ ابن حجر مرّ على الشيخ الفرغل بن أحمد تحت الرميلة والخلق يقبّلون يديه، ورجليه، فأنكر ذلك عليهم وقال في سره: ما اتخذ الله من ولي جاهل ولو اتخذه لعلمه وهذا رجل جاهل بالشريعة. فقال له: قف يا قاضي، فتسمرت به البغلة فصار يضربه على وجهه ويقول له: بل اتخذني وعلمني، ثم أطلقه فعزله السلطان في ذلك اليوم بإنكاره على الشيخ. فجاء إلى الشيخ حافياً فقال له: وليتك، فذهب إلى بيته فوجد السلطان قد أرسل إليه الخلعة بالقضاء فرجع يشكر فعل الشيخ فقال له الشيخ: لولا أنه حصل فيك شفاعة من سيدي محمد الحفني لدفعتك خلف جبل قاف ونفيتك من هذه الأرض، قال تعالى: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: الآية ٨]

وأنا مما لا تعلم أنت ولا أمثالك اهـ.

واعلم أن أحوال الأولياء رضي الله عنهم وعددهم ومراتبهم كالأنبياء لا يحصيها ولا يعلمها إلاّ الله سبحانه وتعالى.

قال قطب الواصلين الإمام سيدي عبد الوهاب الشعراني رضي الله عنه في طبقاته الكبرى: وكان الشيخ محيي الدين رضي الله عنه يقول: ومن أين لعامة الناس أن يعلموا أسرار الحق تعالى في خواص عباده من الأولياء والعلماء وشروق نوره في قلوبهم، ولذلك لم يجعلهم إلاّ مستورين عن غالب خلقه لجلالتهم عنده ولو كانوا ظاهرين فيما بينهم وآذاهم إنسان لكان قد بارز الله تعالى بالمحاربة فأهلكه الله فكان سترهم عن الخلق رحمة بالخلق، ومن ظهر من الأولياء للخلق إنما يظهر لهم من حيث ظاهر علمه ووجود دلالته، وأما من حيث سرّ ولايته فهو باطن لم يزل.

وكان الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه يقول: لكل وليّ ستر أو أستار نظير السبعين حجاباً التي وردت في حق الحق تعالى حيث إنه تعالى لم يعرف إلاّ من ورائها فكذلك الولي فمنهم من يكون ستره بالأسباب.

قال السحيمي نقلاً عن الشعراني: كما كان سيدي بركات الخياط يرتزق من الخياطة بالدرب الأحمر وكان كلما وجد كلباً أو حماراً أو هراً ميتاً حمله ووضعه في دكانه فلا يمكن أحداً أن يجلس عنده من نتن رائحته. وكان أولياء مصر يحملونه حملاتهم وقد رأيت سيدي علياً المرصفي حمله حملة ابن كاتب غريب لما أراد ابن عثمان أخذه إلى الروم فقال سيدي علي: أنا ما لي تصرف، ثم جاء فوضع على دكان بركات حجراً وهو غائب فلما رآه عرف الحجر ومن وضعه والقصة فقال: الاسم لطوبة والفعل لأمشير يأكلون هدايا الناس ويجعلونهم مريدهم وإذا لحقهم بلاء أتوا إلى بركات ايش أكل بركات حتى يحمل، فقال له الشيخ أفضل الدين الأحمدي: هذا رجل عظيم وأذل نفسه وجاءك فلا تخيب ظن مريده فيه، فقال: بسم الله، وحمل الحجر فنسي السلطان وجماعته ابن كاتب ولم يذكروه للسفر مع كونه مكتوباً معهم اهـ.

ثم قال العارف الشعراني: ومنهم من يكون ستره بظهور العزة والسطوة والقهر على حسب ما يتجلى الحق سبحانه وتعالى لقلبه فيقول الناس: حاشى أن يكون هذا ولياً لله تعالى وهو في هذه النفس وذلك لأن الحق تعالى إذا تجلى على قلب العبد بصفة القهر كان قهاراً، أو بصفة الانتقام كان منتقماً، أو بصفة الرحمة والشفقة كان مشفقاً رحيماً، وهكذا. ثم لا يصحب ذلك الوليّ الذي ظهر بمظهر العز والسطوة والانتقام من المريدين إلاّ من محق الله تعالى نفسه وهواه. ولم يزل في كل عصر وأوان أولياء وعلماء تذلّ لهم ملوك الزمان ويعاملونهم بالسمع والطاعة والإذعان.

ومنهم من يكون ستره بالاشتغال بالعلم الظاهر والخمول على ظاهر النقول حتى لا تكاد تخرجه عن آحاد طلبة العلم القاصرين.

ومنهم من يكون ستره بالمزاحمة على الدنيا وتظاهره بحب الرياسة والملابس الفاخرة وهو على قدم عظيم في الباطن.

ومنهم من يكون ستره بكثرة التردد إلى الملوك والأمراء والأغنياء وسؤاله الدنيا وطلبه الوظائف من تدريس وخطابة وإمامة وعمالة ونحو ذلك، فيقوم فيها بالعدل ويتصرف في ذلك بالمعروف على الوجه الذي لا يهتدي إلى معرفته غيره من الأمراء والعمال وآحاد الفقهاء، ثم لا يأكل هو من معلومها شيئاً أو يأكل منها سد الرمق لا غير، فيقول القاصر في الفهم والإدراك: لو كان هذا وليّاً لله عز وجل ما تردد إلى هؤلاء الأمراء ولجلس في زاويته أو بيته يشتغل بالعلم وبعبادة ربّه عز وجل. ورحم الله تعالى الأولياء الذين كانوا.

ونحو ذلك من ألفاظ الجور، ولو استبرأ هذا لدينه وعرضه لتوقف وتبصّر في أمر هؤلاء الأولياء والعلماء قبل أن ينتقد عليهم، فربما كان يتردد إليهم لكشف ضر أو خلاص مظلوم من سجن أو قضاء حاجة لأحد من عباد الله العاجزين الذين لا يستطيعون توصيل حوائجهم إلى تلك الأمراء فيسألون في ذلك من يعتقد فيه من الأولياء والعلماء، فيجب عليهم الدخول لتلك المصالح ويحرم عليهم التخلف عنهم لا سيما إن رأينا ذلك المتردد من الأولياء والعلماء زاهداً فيما في أيديهم متعزز بعز الإيمان وقت مجالستهم، آمراً لهم بالمعروف ناهياً لهم عن المنكر، لا يقبل هدية ممن شفع له عندهم، فإن هذا من المحسنين، ولا يجوز لأحد الاعتراض عليه بسبب ذلك. وقد سمعت سيدي علياً الخواص رضي الله عنه يقول: إذا علم الفقير من أمراء الجور أنهم يقبلون نصحه لهم وشفاعته عندهم وجب عليه صحبتهم والدخول إليهم وصاحب النور يعرف ما يأتي وما يذر.

ومنهم رضي الله عنهم الأقطاب والأئمة والأوتاد والأبدال والأنجاب وغير ذلك، وقد أتينا من بيانهم في كتابنا التبصرة بما يكفي ويشفي، ونص عبارته:

تتميم: قال العلامة أبو البقاء في الكليات: القطب بالضم في الأصل حديدة تدور عليها الرحا، أو نجم تبنى عليه القبلة، وملاك الشيء ومداره. وسمي خيار الناس به لاجتماع خيار أوصافهم عنده وهو لا يكون في كل عصر إلاً واحداً خليفة عن رسول الله ﷺ اهـ.

وقال العلامة المناوي في التوقيف على مهمات التعاريف: والإمامان وزيران للقطب الغوث، أحدهما عن يمينه ونظره إلى الملكوت وهو مرآة ما يتوجه من الركن

القطبي إلى العالم الروحاني من الإمدادات التي هي مادة الوجود والبقاء، والآخر عن يساره نظره إلى الملك وهو مرآة ما يتوجه منه إلى المحسوسات من المادة الحيوانية وهو أعلى من صاحبه فيخلف القطب إذا مات اهـ.

وقال الإمام ابن حجر في فتاويه: الأبدال وردت في عدة أخبار، وأما القطب فورد في بعض الآثار، وأما الغوث بالوصف المشهور بين الصوفية فلم يثبت.

وقال العلامة المناوي في شرحه الكبير على الجامع الصغير: قال ابن العربي: الأوتاد الذين يحفظ الله بهم العالم أربعة، وهم أخص من الأبدال، والإمامان أخص منهم، والقطب أخص الجماعة، والأبدال لفظ مشترك يطلقونه على من تبدلت أوصافه المذمومة بمحمودة، ويطلقونه على عدد خاص، وهم أربعون، وقيل ثلاثون، وقيل سبعة اهـ.

وقال العارف الشعراني في اليواقيت والجواهر نقلاً عن الإمام ابن العربي: إن أكبر الأولياء بعد الصحابة القطب ثم الأفراد على خلاف في ذلك، ثم الإمامان ثم الأوتاد ثم الأبدال. قال: فأما القطب فقد ذكر الشيخ أنه لا يتمكن من القطبية إلاّ بعد أن يحصل معاني الحروف التي في أوائل السور مثل (ألم) ونحوها، فإذا أوقفه الله على حقائقها ومعانيها كان أهلاً للخلافة. قال: واسم القطب في كل زمان عبد الله وعبد الجامع المنعوت بالتخلق والتحقق بمعنى جميع الأسماء الإلٰهية بحكم الخلافة، وهو مرآة الحق تعالى ومحل المظاهر الإلٰهية وصاحب علم سر القدر. قال: ومن شأنه أن يكون الغالب عليه الخفاء.

قال: لا تطوى له الأرض ولا يمشي في هواء ولا على ماء ولا يأكل من غير سبب ولا يطرأ عليه شيء من خوارق العوائد إلاّ في النادر لأمر يريده الحق تعالى، فيفعله بإذن الله تعالى من غير أن يكون ذلك مطلوباً له.

قال: ومن شأنه أن يتلقى أنفاسه إذا دخلت وإذا خرجت بأحسن الأدب لأنها رسل الله إليه فترجع منه إلى ربها شاكرة له لا يتكلف لذلك.

فإن قلت: فهل يكون محل إقامة القطب بمكة دائماً كما هو المشهور.

فالجواب: هو بجسمه حيث شاء الله لا يتقيّد بالمكث في محل بخصوصه فشأنه الخفاء فتارة يكون حداداً وتارة يكون تاجراً وتارة يبيع الفول الحار وما أشبه ذلك.

قال: ولما كان نصب الإمام واجب الإقامة وجب أن يكون واحداً لدفع التنازع والتضاد، فحكم هذا الإمام في الوجود حكم القطب.

فإن قلت: فما المراد بقولهم: فلان من الأقطاب على مصطلحهم.

فالجواب: مرادهم بالقطب في عرفهم كل من جمع الأحوال والمقامات فيتوسعون

في هذا الإطلاق فيسمون بالقطب في بلادهم وفي كل بلد من دار عليه مقام من المقامات وانفرد في زمانه على أبناء جنسه، فرجل البلد قطب تلك البلد، ورجل الجماعة هو قطب تلك الجماعة. وأما الأقطاب بالمعنى الحقيقي فلا يكون منهم في الزمان إلاَّ قطب واحد وهو الغوث اهـ.

وقال العارف المذكور في طبقاته الكبرى: إنه قد يكون في وقت القطب من أهل الدلال الأكبر مَنْ هو مساو لذلك القطب أو أكبر. قال: فإن سيدي مسعوداً تلميذ سيدي عبد القادر الجيلاني قد عرضت عليه الغوثية فأعرض عنها زهداً وعرضت على شيخه المذكور رضي الله عنه فقبلها اهـ.

وقد ذكر خاتمة الحفاظ الإمام السيوطي في كتابه الخبر الدال على وجود القطب والأوتاد والنجباء والأبدال راداً فيه على من أنكر وجود ذلك بالأحاديث الشريفة والنقول المنيفة وقد أحببنا أن نذكر لك نبذة من ذلك ملخصة من كلامه تبركاً بذكر رجال الغيب فإن بذكرهم تنزل الرحمات وهم الأحبة لا يشقى لهم جليس وبذكر محاسنهم تنشرح الصدور وتنوّر القبور ويزول عنها كل كسل وفتور.

اعلم، أنار الله قلبي وقلبك بنور العرفان، أن رجال الغيب على عشر طباق:

الطبقة الأولى: طبقة القطبانيّة، وهي مقام القطب الغوث الفرد الجامع، وقد سبق لك آنفاً ما يوقفك على حقيقة حاله.

الطبقة الثانية: طبقة الإمامين، وهما شخصان فقط واحد عن يمين القطب ونظره في الملكوت والآخر عن يساره ونظره في الملك، وصاحب اليسار مقدم على صاحب اليمين لأنه هو الذي يخلف القطب بعد موته فإذا انتقل القطب صار صاحب اليسار قطباً ويدخل مكانه صاحب اليمين ويبدل مكان صاحب اليمين واحد من خيار الأربعة العمد، وهم أهل:

الطبقة الثالثة، ويسمَّونَ الأوتاد، ويقال لهم العمد موكلون بأربعة أرباع الدنيا وهم على مراكز الجهات الأربعة من العالم، أي نقطة المشرق والمغرب والشمال والجنوب. وقيل: واحد منهم باليمن وواحد بالشام وواحد في المشرق وواحد في المغرب يحفظ الله بهم الأرباع، أي جهات أرباع الدنيا الأربعة، ومسكن كل واحد منهم في ربع من أرباع الدنيا مخصوص به حافظ له يتصرف فيه بأمر الله تعالى، فإذا مات واحد من الأربعة أبدل الله مكانه واحداً من خيار السبعة الأفراد وهم أهل:

الطبقة الرابعة: موكلون بالأقاليم السبعة ومسكن كل واحد منهم في إقليمه.

قال أبو هريرة رضي الله عنه: دخلت على النبي ﷺ فقال: «يا أبا هريرة يدخل من هذا الباب الساعة رجل من أحد السبعة الذين يدفع الله عن أهل الأرض بهم». فإذا

حبشي قد طلع من ذلك الباب أقرع أجدع على رأسه جرة من ماء، فقال رسول الله ﷺ: «يا أبا هريرة هو هذا» وقال له رسول الله ﷺ ثلاث مرات: «مرحباً بيسار، مرحباً بيسار مرحباً بيسار» وكان يرش المسجد ويكنسه وكان غلاماً للمغيرة بن شعبة. وإذا مات أحد السبعة أبدل الله مكانه من خيار الأربعين الأبدال وهم أهل:

الطبقة الخامسة: ويقال لهم: الرقباء، وهم أربعون، ومسكنهم بأرض الشام. وفي الحديث عن علي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الأبدال بالشام يكونون، وهم أربعون رجلاً بهم تسقون الغيث وبهم تنصرون على أعدائكم ويصرف الله عن أهل الأرض بهم البلاء والغرق».

وفي رواية عن ابن عمر: «لا يزال أربعون رجلاً يحفظ الله بهم الأرض كلما مات منهم رجل أبدل الله مكانه آخر».

وفي رواية عن ابن مسعود: «لا يزال أربعون رجلاً من أمتي قلوبهم على قلب إبراهيم الخليل عليه السلام يدفع بهم عن أهل الأرض البلاء يقال لهم: الأبدال، إنهم لن يدركوها بصلاة ولا بصيام ولا بصدقة». قال: يا رسول الله فبم أدركوها؟ قال: «بالسخاء والنصح للمسلمين».

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث من كن فيه فهو من الأبدال الذين بهم قيام الدنيا وأهلها: الرضا بالقضاء، والصبر عن محارم الله، والغضب في ذات الله، فإذا مات واحد من الأربعين أبدل الله تعالى مكانه آخر من خيار السبعين»، وهم أهل:

الطبقة السادسة: وهم النجباء.

روى الخطيب من طريق عبد الله بن محمد العبسي قال: سمعت الكناني يقول: النجباء سبعون والبدلاء أربعون. وفي رواية: الأبدال بالشام والنجباء من أهل مصر والأخيار من أهل العراق. وفي رواية عن الحسن البصري: لن تخلو الأرض من سبعين صديقاً، فإذا مات واحد منهم أبدل الله مكانه من خيار الثلاثمائة، وهم أهل:

الطبقة السابعة: وهم النقباء متحققون بالاسم الباطن، قد أشرفوا على بواطن الناس فاستخرجوا خفايا الضمائر لانكشاف الستائر لهم عن وجوه السرائر.

ونقيب النقباء شيخ هذا المقام، ويسمى بالسليماني، وكل من ولي مقامه يسمى به ومسكنهم أرض المغرب.

وفي رواية الأسود: أن لله في الخلق ثلاثمائة قلوبهم على قلب آدم عليه السلام. وفي رواية: ثلاثمائة وستين بعدد أيام السنة. وفي رواية الإمام العبسي قال: سمعت الكناني يقول: النقباء ثلاثمائة والنجباء سبعون والبدلاء أربعون والأخيار سبعة والعمد

أربعة والغوث واحد، فمسكن النقباء أرض المغرب، ومسكن النجباء مصر، ومسكن الأبدال الشام، والأخيار سياحون في الأرض، والعمد في زوايا الأرض، ومسكن الغوث مكة، فإذا عرضت الحاجة من أمر العامة ابتهل فيها النقباء ثم النجباء ثم الأبدال ثم الأخيار ثم العمد، فإن أجيبوا وإلاَّ ابتهل الغوث فلا تتم مسألته حتى تجاب دعوته. وإذا مات واحد من النقباء أبدل الله تعالى مكانه واحد من خيار الخمسمائة، وهم أهل:

الطبقة الثامنة: من رجال الغيب، ويسمون العصائِب. وعن الزهري عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «خيار أمتي في كل قرن خمسمائة والأبدال أربعون فلا الخمسمائة ينقصون ولا الأربعون، كلما مات رجل أبدل الله مكانه من الخمسمائة». وقيل: هذه الطبقة تسمى بالأمناء، وقيل: هم الملامتية وهم الذين لا يظهر في بطونهم أثر على ظواهرهم وتلامذتهم يتقلبون في مقامات أهل الفتوة.

الطبقة التاسعة: طبقة الواصلين، ويسمون بالحكماء. ويقال لهم: المفردون، لما ورد: «سبق المفردون»، قيل: ما المفردون يا رسول الله؟ قال: «هم الذين محا الذكر عنهم أوزارهم يجيئون يوم القيامة خفافاً لا يحصرهم عدد»، ولهم وصول خاص لا يدخلون به تحت نظر القطب وهم سياحون في الأرض يسيرون في مقام يقال له: المخدع، لا يعلمه القطب ولا يطلع على مقامهم. وشيخ هذا المقام الخضر عليه السلام فلا اطلاع للقطب على شيء من أحوال الأفراد الواصلين والحكماء المفردين، يمسك الله بهم العالم وينتظم نظامه إلى أن يختم الولاية المطلقة بالنور الباهر والسر الظاهر والنجم الطالع سيِّدنا ومولانا محمد المهدي رضي الله عنه فهو خاتم الأولياء اهـ من كلام الشيخ الأكبر. ولينظر هذا مع ما سبق لك عن العارف الشعراني من أحوال القطب والله أعلم بأسرار عباده. فإن الطفيلي مثلي على موائد أهل هذا الميدان ليس له إلاَّ مجرفهم ظاهر هذا الكلام لكن قد سبق لك أن التشبث بذكرهم وأحوالهم يستوجب نزول الرحمات.

الطبقة العاشرة: يقال لهم: الرجبيون. قال سيدنا قطب الواصلين محيي الدين بن العربي في فتوحاته: لهم تصرف خاص لا يتصرفون إلاَّ في شهر رجب أفاض الله علينا من إمداداتهم. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وأزواجه وذريته وأهل بيته كلما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون.

تتميم: قد سبق لك آنفاً أن طريق القوم مشيدة بالكتاب والسنة كما قال أبو القاسم الجنيد رضي الله عنه، فلا بد فيها من اتباع الشرع والجد والاجتهاد في العبادة والعمل بالكتاب والسنّة.

قال قطب الواصلين سيدي أحمد الدردير في الخريدة البهية:

فكن له مُسَلِّماً كي تسلما　　واتبع سبيل الناسكين العلما

قال رضي الله عنه في شرحها: جمع عالم، وهو العارف بالأحكام الشرعية التي عليها مدار صحة الدين اعتقادية كانت أو عملية، والمراد بهم: السلف الصالح ومن تبعهم بإحسان. وسبيلهم منحصر في اعتقاد وعلم وعمل على طبق العلم وافترق من جاء بعدهم من أئمة الأمة الذين يجب اتباعهم على ثلاث فرق: فرقة نصبت نفسها لبيان الأحكام الشرعية العملية وهم الأئمة الأربعة، وغيرهم من المجتهدين لكن لم يستقر من المذاهب المرضية سوى مذاهب الأئمة الأربعة. وفرقة نصبت نفسها للاشتغال ببيان العقائد التي كان عليها السلف وهم الأشعري والماتريدي ومن تبعهما. وفرقة نصبت نفسها للاشتغال بالعمل والمجاهدات على طبق ما ذهب إليه الفرقتان المتقدمتان وهم الإمام أبو القاسم الجنيد ومن تبعه وكذا غيرهم من الصوفية فهؤلاء الفرق الثلاثة هم خواص الأمة المحمدية ومن عاداهم من جميع الفرق على ضلال وإن كان البعض منهم يحكم له بالإسلام فالناجي من كان في عقيدته على طبق ما بيَّنه أهل السنة وقلّد في الأحكام العملية إماماً من الأئمة الأربعة المرضية. ثم تمام النعمة والنجاة في سلوك مسلك الجنيد وأتباعه، أي ونحوهم، بعد أن أحكم دينه على طبق ما بيَّنه الفريقان المتقدمان.

وممن سلك مسلكه القطب الرباني الإمام سيدي أحمد ابن الرفاعي وأتباعه، والقطب الرباني الإمام سيدي عبد القادر الجيلاني وأتباعه، والقطب الرباني السيد أحمد البدوي وأتباعه، والقطب الرباني السيد إبراهيم الدسوقي وأتباعه، والقطب الرباني السيد علي أبو الحسن الشاذلي وأتباعه اهـ.

ولما تفضّل الرحمٰن علينا من ابتداء نشأتنا بالانتظام في سلك اتباع سيدي أحمد البدوي وأحبابه والتملق على أعتابه وصرنا ممن شملتهم نفحاته وعمّتهم بركاته، كان ذلك داعياً لنا إلى ذكر شيء من مآثره رضي الله عنه تبرُّكاً به وقياماً بواجب حقه رضي الله عنه، وكذلك القطب سيدي ووليّ نعمتي الإمام الحسن الشاذلي، وكذلك خليفته القطب أبو العباس، وكذلك خليفته الخامس بمصر القطب الحنفي، وكذلك القطب سيدي عبد الوهاب الشعراني، وكذلك القطب سيدي أحمد الدردير، وكذلك القطب سيدي أحمد الشنوان المدفون بجامعنا بين الأزهر، وسيدنا الحسين.

ونختم قبل الشروع في شرح البردة بذكر شيء من مآثر صاحبها الإمام البوصيري رضي الله عنهم ونفعنا بهم أجمعين فنقول:

أما القطب الرباني والهيكل الصمداني الإمام سيدي أحمد البدوي رضي الله عنه، فمآثره ومناقبه لا تحصى.

قال شيخ مشايخنا وليّ الله سيدي أحمد الصاوي الكبير خليفة القطب الدردير ووارث حاله في حاشيته على شرح الخريدة ما نصه: قال المناوي: هو ابن علي بن إبراهيم بن محمد بن أبي بكر البدوي الشريف الحسيب، ولد رضي الله عنه بفاس سنة ست وتسعين وخمسمائة، ونشأ بها وحفظ القرآن وقرأ شيئاً من فقه الشافعي، وحج أبوه به وبإخوته سنة تسع وستمائة، وأقاموا بمكة ومات بها أبوه سنة سبع وعشرين وستمائة، ودفن بالمَعْلَى. وعرف بالبدوي للزومه اللثام ولبس لثامين فلم يفارقهما ولم يتزوج قطّ، واشتهر بالعطاب لكثرة عطبه من يؤذيه، ثم لزمه الصمت فكان لا يتكلم إلاّ بالإشارة، وتوله ثم حصلت له جمعية على الحق فاستغرق إلى الأبد، وكان عظيم الفتوة.

قال المتبولي: قال لي رسول الله ﷺ: «ما في أولياء مصر بعد محمد بن إدريس أكبر فتوّة منه ثم نفيسة ثم شرف الدين الكردي ثم المنوفي» اهـ.

وكان يمكث أربعين يوماً لا يأكل ولا يشرب ولا ينام، وأكثر أوقاته شاخص ببصره نحو السماء وعيناه كالجمرتين، ثم سمع هاتفاً يقول ثلاثاً: قم واطلب مطلع الشمس فإذا وصلته فاطلب مغربها وسر إلى طندتا فيها مقامك أيها الفتى. فسار إلى العراق فتلقاه العارفان الكيلاني والرفاعي فقالا: يا أحمد مفاتيح العراق والهند واليمن والمشرق والمغرب بأيدينا فاختر أيها شئت، فقال: لا آخذ المفتاح إلاّ من يد الفتاح. ثم رحل إلى مصر فتلقاه الظاهر بيبرس بعسكره وأكرمه وعظّمه فدخلها سنة أربع وثلاثين وستمائة فأقام بطندتا على سطح دار لا يفارقه ليلاً ولا نهاراً اثنتي عشرة سنة وإذا عرض له الحال صاح صياحاً عظيماً وتبعه جمع منهم عبد العال وعبد المجيد. ولما دخل طندتا كان بها جمع من الأولياء فمنهم من خرج منها هيبة له كالشيخ حسن الاخناني فسكن أم خنان حتى مات وضريحه ظاهر يزار، ومنهم من مكث كالشيخ سالم المغربي، وسالم الشيخ البدوي، فأقره على حاله حتى مات بطندتا وقبره بها مشهور، ومنهم من أنكر عليه كصاحب الإيوان العظيم بطندتا المسمى بوجه القمر، كان وليّاً كبيراً فثار به الحسد فسلمه ومحله الآن بطندتا مأوى الكلاب وليس فيه رائحة صلاح ولا مدد. وكان رضي الله عنه إذا لبس ثوباً أو عمامة لا يخلعها لا لغسل ولا لغيره حتى تبلى فتبدل، وإذا أمر أحداً من أصحابه بالإقامة في مكان لا يمكنه مخالفته وكان يعرف من هو من أولاده بالكشف ولا يقبل إلاّ من علمه منهم وكان لا يكشف اللثام عن وجهه فقال له عبد المجيد: أرني وجهك، قال: كل نظرة برجل، قال: أرنيه ولو أموت. فكشفه فمات حالاً.

وله كرامات شهيرة جداً منها قصة المرأة التي أسر ولدها الإفرنج فلاذت به فأحضره في قيوده.

ومرّ به رجل يحمل قربة لبن فأشار بإصبعه إليها فانقدت فخرج منها حية انتفخت.

وأنكر عليه ابن اللبان فسلب القرآن والعلم فصار يستغيث بالأولياء حتى أغاثه ياقوت العرشي فشفع له فرد ذلك عليه.

وأنكر عليه الشيخ خليفة الأبياري وحط على من يحضر مولده فابتلي بحبة قرعت لسانه فمات.

واجتمع به ابن دقيق العيد فقال له: إنك لا تصلي ما هذا سنن الصالحين، فقال له: اسكت وإلاَّ طيرت دقيقك. ودفعه فإذا هو بجزيرة متسعة جداً فضاق ذرعه حتى كاد يهلك، فرأى الخضر فقال له: لا بأس عليك إن مثل البدوي لا يعترض عليه اذهب إلى هذه القبة وقف ببابها، فإنه سيأتيك العصر ليصلي بالناس فتعلّق بأذياله لعله أن يعفو عنك. ففعل فدفعه فإذا هو ببابه.

وكراماته أشهر من أن تذكر. مات سنة خمس وسبعين وستمائة رضي الله عنه وعنا به اهـ.

قال في الجواهر السنية: قال سيدنا ومولانا حافظ العصر وعلامة الدهر الشيخ شهاب الدين بن حجر رضي الله تعالى عنه في ترجمته للأستاذ التي رواها عنه الشيخ الإمام الفقيه الصالح شهاب الدين أحمد بن محمد المقدسي صاحب تاريخ القدس الشريف: ولما مات ـ يعني الأستاذ الأعظم سيدي أحمد البدوي ـ عمّت بركاته ثاني عشر ربيع الأول سنة خمس وسبعين وستمائة، عظموا قبره وبنوا عليه وستروه وقام بأمر اتباعه صاحبه عبد العال فسموه خليفة السيد أحمد وعمَّر بعده طويلاً حتى مات في سنة ثلاث وثلاثين وسبعمائة، واشتهر أتباعه بالسطوحية. وحدث لهم بعد مدة عمل المولد عنده، وصار يوماً مشهوداً يقصد من النواحي البعيدة. وشهرة هذا المولد في عصرنا تغني عن وصفه.

وقد قام جماعة من العلماء ومن يتدّين من الأمراء في إبطاله فلم يتهيأ لهم ذلك إلاَّ في سنة اثنتين وخمسين وثمانمائة. انتهى ما ترجمه به شيخ الإسلام ابن حجر رضي الله تعالى عنه.

وقال حافظ العصر الجلال السيوطي رحمه الله تعالى: ومن غريب كراماته ما اتفق للجماعة الذين سعوا في إبطال مولد سيدي أحمد البدوي رضي الله تعالى عنه ونفعنا به وبعلومه ومده وهذه الواقعة من جملة كراماته رضي الله تعالى عنه، وذلك أن الذين افتوا بإبطال المولد الشريف المذكور طلبوا من الشيخ الإمام العالم الرباني يحيى المناوي أن يوافقهم على الإفتاء بإبطال المولد المذكور، فامتنع ولم يكتب على الفتيا، فشكوه لمولانا السلطان الملك الظاهر چقمق رحمه الله تعالى، فأرسل خلفه فطلع إليه، وأخبرني

رفيقه الذي كان معه فقال: لما رآه السلطان نزل إليه من على الكرسي وجلس معه على الأرض وأخذ يجادله في الإفتاء بإبطال مولد سيدي أحمد البدوي رضي الله تعالى عنه، فقال له الشيخ: أما أنا فلا سبيل إلى أن أكتب على الفتيا بإبطاله أبداً بل أفتي بمنع المحرمات التي تحضر فيه، ومولانا السلطان أيده الله يرسل خاصكياً أو أميرا من جهته يمنع المحرمات التي ستحضر في المولد ويبقى المولد على حاله. فقال له السلطان: إن جماعة أفتوا بإبطاله، فقال الشيخ: ما أجترىء على الفتيا بذلك. ثم قال كلاماً حاصله أن الشيخ أحمد البدوي سيد كبير وعنده غيرة وهو لا يرجع عن هؤلاء الجماعة الذين سعوا في إبطال مولده. ويا مولانا السلطان سوف تنظر ما يحصل لهؤلاء من الضرر بسبب الشيخ أحمد البدوي.

وعجز السلطان أن يستكتب الشيخ يحيى على الإفتاء بإبطال مولد سيدي أحمد البدوي. فنزل الشيخ من عند السلطان وهو مسرور حيث لم يكتب له صحبة الجماعة الذين أفتوا بإبطال المولد. ثم بعد قليل حصل لكل واحد من المفتين والمتعصبين في إبطال المولد المذكور غاية الضرر، فبعض المفتين عزل عن منصبه وأمر السلطان بنفيه، فحصلت له شفاعة، وبعضهم هرب إلى دمياط فأحضر وعزر ووضع في الزنجير وحبس في المقشرة نصف شهر، وبعض المتعصبين وكان وجيهاً عند السلطان أخذ من مجلسه في غاية الإهانة والنكال ووضع في الحديد وضرب في مجلس الشرع خمسمائة عصا ثم أحضره السلطان في مجلسه وضربه ضرباً مبرّحاً ثم نفي إلى بلاد المغرب، وبعضهم ضرب ضرباً مبرحاً. فنسأل الله تعالى العافية والسلامة من عصبة الزور والبهتان وغضب الله تعالى وغضب رسوله ﷺ ثم غضب أوليائه ومقتهم ومعاداتهم لأن الله تعالى يقول: «من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب». وفي حديث آخر: «من آذى لي ولياً فقد استحل محاربتي». ولهذا قال الشيخ أبو العباس المرسي رضي الله تعالى عنه: ولي الله مع الله كولد اللبوة، أتراها تاركة ولدها لمن أراد اغتياله، فيبرز الحق سبحانه وتعالى بانتصاره لهم ومحاربة من عاداهم إنهم حُمَّال أسراره ومعدن أنواره وقد قال الله تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [الحج: الآية ٣٨] غير أن مقابلة الحق سبحانه وتعالى لمن آذى أولياءه ليس يلزم أن تكون معجلة.

وفائدة هذا البيان: أنّا لا نحكم لإنسان آذى ولياً من أولياء الله تعالى بالسلامة، إذا لم تر عينه محنة في نفسه وماله وولده فقد تكون هناك محنة أكبر من أنْ يطلع العباد عليها. وقد كان رجل في بني إسرائيل أقبل على الله تعالى ثم أعرض عنه فقال: يا رب كم أعصيك ولم تعاقبني، فأوحى الله تعالى إلى نبيّ ذلك الزمان: «أن قل لفلان إني قد عاقبتك ولم تشعر ألم أسلبك حلاوة ذكري ولذات مناجاتي» انتهى كلامه رضي الله تعالى عنه ونفعنا به.

ومن القصائد التي مدحه بها أكابر العلماء والأولياء ما مدحه به الإمام الحافظ الجامع بين الحقيقة والشريعة الشيخ شهاب الدين العلقمي رحمه الله تعالى بقوله:

أشْرَق الكونُ واستهلَّ الضِّياءُ ... واستنارَتْ بنُورِكَ الأرْجاءُ
وحَمَيْتَ البلاد شرقاً وغرباً ... واستظَلَّتْ بظِلِّكَ الغُرباءُ
وتداعَتْ إلى زيارَتِك النّا ... سُ كدعْوَى حجيجهم يَوْمَ جاؤوا
يا ابْنَ بنتِ النبيِّ وابْنَ عليٍّ ... نَسَبٌ تنتهي به العَلْياءُ
مِنْ مَعَدٍّ وهاشِمٍ ونزارٍ ... ولُؤَيٍّ وغالِبٍ عُظَماءُ
فلكُمْ دَوْحةُ المكارِمِ قِدْماً ... وحَديثاً آباؤكَ الآباءُ
هُمْ هُداةُ الأئمّةِ الغُرُّ مَن آ ... لِ النبيِّ الجحاجِحُ الكُبَراءُ

اذْهَبَ الله عَنْكُم الرِّجْسَ أهْلَ البَيْتِ طُهْراً فأنْتُمُ الأصْفياءُ

أنتَ بذْرٌ مُلَثّمٌ بغَمَامٍ ... بدويٌّ تَسْمُو به البَيْداءُ
يا شِهابَ السَّماءِ يا أحمَدَ الأرْ ... ضِ إليك انْتَهَى السّنا والسَّناءُ
أنْتَ قُطْبُ الأقطابِ حيّاً وميتاً ... عَظّمتْكَ الأمْواتُ والأحْياءُ
طِبْتَ في الغرْبِ مَوْلداً شرّف الغرْ ... بَ وفاحَتْ في حَيِّهِ الأشْذاءُ
وإلى مكّةٍ أتيْتَ صَغيراً ... تتباهى بسَيْرِكَ الأرْجَاءُ
وعلى وَجْهِكَ الولايَةُ تَزْهو ... وعلى كُلِّ رُتْبَةٍ شُهَداءُ

واستَنارَتْ بِكَ المنازِلُ والخيفُ وسَفْحُ اللّواءِ والدَّهْنَاءُ

وسُمِيتَ الغضبانَ إذ كنت شهماً ... فارِساً فاق عَزْمُه والمُضاءُ

ورجَالُ العراقِ لمّا توجَّهْتَ إليهِمْ وأهْلُكَ الأصْفياءُ

وأتوكُم صَرَعْتموهُم جميعاً ... وأتى قُطْبُهُمْ وقال أساؤوا
ومشى حافِياً لديكُمْ وأرْضا ... كُم عليهم قلتُمْ أفيقُوا فباؤوا
والرِّفاعي في الغَيب قال ابن عَمّي ... بِنْتُ برِى فيها على النّاسُ دَاءُ
سَلَبَتْ أكثرَ الرِّجالِ بحُسْنٍ ... كم بهِ تَفْتِنُ الرِّجالَ النِّساءُ
ما لها اليوم يا مُلَثّم إلاّ ... أنْتَ فانْهَضْ لها فَفِيكَ الرَّجاءُ

فتوَجّهْتَ نحوهَا وتوكّلْتَ على الله والبلاءُ بلاءُ

ودَخَلتَ الحِمَى بقلْبٍ وعَزْمٍ ... يَخْشى منهما الهوَى والهوَاءُ

وتَلَقَّتك في حمَاها بنَاتٌ فاتِنَاتٌ كأنّهنّ ظِباءُ
وإليها بكَ انتهَيْنَ فقالَتْ بَدَويٌّ أحشاهُ قُلْنَ مِرَاءُ
وتصامَمْتَ حين قِيلَ اتْرعى قُلتَ ارْعَى الجمال حَيْثُ الرعَاءُ
وعلى قلبها قبضْتَ مِنَ الغيبِ فلاقَتْ عَناً وعَزّ العَزَاءُ
وعلى سَرجِها أتَتْ قُلْتَ يا أرا ض ابلَعِيها فمالَ عنها اللّواءُ
وغَدَتْ في الثّرَى تَغُوصُ فنادَت آلَ بِرِّي فجَاءَها الأمْلاءُ
صِحْتَ بالعَزْمِ يا محمّدُ يا آ لَ عليٍّ يا أيُّها النّجَباءُ
يا بَني جَعْفَرٍ ويا آلَ مُوسَى يا بَنِي الباقِرِ الكِرامَ فجَاؤُوا
وتعانَتْ فوَارِسٌ وجُنُودٌ ورجالٌ فيما يُريدُ القَضاءُ
فرأى ذاكَ آلُ بِرّي فنادَوا آلُ بِرّي عَبيدُكم وإمَاءُ
أنتم أنْجُمُ الوجودِ وأنتم سادَةُ النّاس والوَرى ضُعَفاءُ
إن عَفَوْتُم فالعَفْوُ منكم قديمٌ أو أرَدْتُم خِلافَهُ فرضَاءُ
قلتَ نَعْفو عنها على شَرْطِ أن لا تَسْلُبَ النّاسَ فاسْتَقَرّ الوَفَاءُ
وإلى طَنْدَتَا أتَيْتَ فربَّيتَ رِجالاً فكلّهم أولياءُ
وخُصوصاً بَحْرَ المكارِمِ عبد العالِ مَنْ فاقَ فَضْلُه والعَلاءُ
مَنْ بشبّاكِهِ تعلَّقَ عصْفو رٌ تراه قد طَال منه الإذاءُ
وإذا اغتَاظَ يخْرجُ النّارُ للنّا سِ جِهَاراً فتُخْرَقُ الأعْداءُ
ومَجِيءُ الأسِيرِ كل زمانٍ غير خافٍ فكم أتَتْ إسِرَاءُ
وبهذا في كلّ دهْرٍ شهُودٌ بالقيودِ التي نراهَا اكتِفَاءُ
والذي مرَّ وهو يحمل وَطْباً لبناً فيه حيَّةٌ رَقْشاءُ
فإليهِ أشرْتَ فانقَدّ وانصبَّ على الأرض سمّهُ أدْوَاءُ
وسُقُوطُ القِنْديلِ في الأرض من فو قِ منارٍ لم يُطْفَ منه ضِياءُ
وهِلالُ الضريح أحيانَ يأتي يتراءى كالغُصْنِ فيه انْثِناءُ
وحدِيثُ الوقادِ إذا وَقَعَ الخا تَمُ منه في البَحْرِ أخْفاهُ مَاءُ
ورآهُ في جوفِ حُوتٍ شِراهُ إذْ دعاكُم وصَحَّ منه الدُّعاءُ
ومَتاعُ الغريبِ في ظَبْيَةٍ قد ضاعَ منه وجاءَ وهو يُساءُ

وَيُنَادِي أبا اللَّثَامَيْنِ مالي ... ومَتَاعِي قد ضاعَ وهو ثِرَاءُ
سَقَطَتْ طَبْيَةُ المَتَاعِ مِنَ السقفِ على النَّاسِ ثم حُق الهَنَاءُ
والذي خشَبُوهُ صاحَ أجِرْني ... زالَ عنهُ لَمَّا دعاكَ العَنَاءُ
قد أتيناكَ يا مُلَثَّم نرجو ... مَدَداً نَنْتَفِي به الضَّرَّاءُ
ونزلنا نرجُو قِراكَ ضُيُوفاً ... أنتَ تَدْري ما نبتَغِي ونَشاءُ
عَبْدُكَ العلقميُّ أحمد يرجو ... ما به قد وعَدْتَ منكَ الوفاءُ
أنتَ بابٌ لحضرَة المصطفى من ... أنتَ مِن فضْلِهِ عليكَ الثناءُ
أنتَ بحرٌ والبحرُ نقطَة فيْضٍ ... مِنْ نَبيٍّ سَادَتْ به الأنبياءُ
يا نبيَّ الهُدَى ويا خَيْر هادٍ ... أنتَ شمسٌ منها استعِير الضياءُ
سِرْتَ فوقَ البُرَاقِ والَّيلُ هادٍ ... ولكَ استَفْتَحت سماءٌ سَمَاءُ
وتجاوزت في العُلا كُلَّ عالٍ ... فمقامات مَنْ سِواكَ وراءُ
ورأيتَ الذي لهُ خَرَّ موسى ... صَعقاً قبلَ أن يَرَى ما يشاءُ
جئتَ والكونُ فيهِ كُلَّ عَجيب ... ليسَ يَبْدُو وكلّ بادٍ سَوَاءُ
جاءَتِ الأنبياءُ قبلَكَ فيه ... والذي قبلُ مِثلُه لا يُجاءُ
فبَدَتْ شمسُ آيةٍ فيكَ حتى ... سُتِرَتْ تحتَ نورها الأضواءُ
فعليْكَ الصَّلاةُ تُرْضِيكَ عنا ... وعليكَ السَّلامُ كيفَ تَشاءُ
وعلى الآلِ والصحابَةِ ما لا ... حَ صباحٌ وما تَلاهُ مساءُ

تمَّت، وعدَّتها سبعة وستون بيتاً.

ومن كراماته رضي الله عنه ما ذكره سيدي عبد الوهاب الشعراني رضي الله تعالى عنه، وهو قول سيدي عبد الوهاب رضي الله تعالى عنه: وأخبرني أيضاً ـ يعني الشيخ جمال الدين الكردي ـ قال: تعرّضت امرأة لحمار الشيخ ـ يعني سيدي إبراهيم المتبولي ـ وهو راكب إلى بركة الحاج وقالت: يا سيدي ابني أسير في بلاد الإفرنج وما أعرف مجيئه إلاَّ منك، فقال لها: هذه لسيدي أحمد البدوي ما هي لي.

وكان يقول: آخى رسول الله ﷺ بيني وبين سيدي أحمد البدوي رضي الله تعالى عنه وقال: يا إبراهيم قد آخيت بينك وبين رجل في الأولياء أكبر فتوة منه ولو علمت أن في الأولياء أكبر منه فتوة لآخيتُ بينك وبينه. ومن هنا كان سيدي إبراهيم المتبولي يقول: لا تكبروا خبز زاويتي على خبز سيدي أحمد البدوي اهـ. أمدنا الله من إمداداته

الربانية ونظمنا في سلك أتباعه بجاه خير البرية عليه أفضل الصلاة وأزكى التحية وعلى آله وأصحابه وأزواجه وذريته وآل بيته كلما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون.

سيدنا ومولانا أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه

قال ابن عباد في المفاخر العلية في المآثر الشاذلية: هو ابن عبد الله بن عبد الجبار بن تميم بن هرمز بن حاتم بن قصي بن يوسف بن يوشع بن ورد بن أبي بطال علي بن أحمد بن محمد بن عيسى بن إدريس بن عمر بن إدريس المبايع له ببلاد المغرب ابن عبد الله بن الحسن المثنى ابن سيد شباب أهل الجنة وسبط خير البرية أبي محمد الحسن ابن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه وابن فاطمة الزهراء بنت رسول الله ﷺ. ولد بقرية غمارة من قرى إفريقية، قرية من سبتة، وهي من المغرب الأقصى في نحو ثلاث وتسعين وخمسمائة من الهجرة، فلقّب بالشاذلي، فأتيت مبادراً إليه فلما صلّينا الجمعة نظرت إليه فلم أجده.

ومن مناقبه: أنه كان إذا ركب تمشي أكابر الفقراء وأكابر الدنيا حوله، وتنشر الأعلام على رأسه، وتضرب الكاسات بين يديه، ويأمر النقيب أن ينادي أمامه: من أراد القطب فعليه بالشاذلي.

وقال: أعطيت سجلاً مدّ البصر فيه أصحابي وأصحاب أصحابي إلى يوم القيامة عتقاً لهم من النار.

وقال: لولا لجام الشريعة على لساني لأخبرتكم بما يكون في غد وبعد غد إلى يوم القيامة.

وقال: قلت: يا رب لم سمَّيتني بالشاذلي ولست بشاذليّ، فقيل لي: يا علي ما سمَّيتك بالشاذلي إنما أنت الشاذّليّ ـ بتشديد الذال المعجمة ـ يعني المنفرد لخدمتي ومحبتي.

ومن كراماته: أنه لمَّا أتى من المغرب كتبوا للسلطان في شأنه مكاتيب شنيعة فخرج من إسكندرية وذهب إلى السلطان فاعتقده. وأرسلوا له ثانياً أنه كيماوي، فزال اعتقاده فيه ثانياً. واتفق أن خازن داره فعل أمراً يوجب القتل فخاف من السلطان وهرب إلى الشيخ بالإسكندرية فحماه منه فأرسل السلطان يغلظ عليه ويقول: تتلف مماليكي، فقال: نحن ممن يصلح ما نحن ممن يفسد. ثم أخرج المملوك من الخلوة وقال: بُل على هذا الحجر، فبال عليه فانقلب الحجر ذهباً، وكان نحو خمس قناطير، فقال الشيخ: خذوا هذا للسلطان يضعه في بيت المال. فلما وصل إليه رجع عما كان فيه من الاعتقاد الفاسد، ثم نزل لزيارته وطلب من الشيخ المملوك ليبُول على ما شاء من الحجارة، فقال

الشيخ: الأصل في ذلك الإذن من الله تعالى. ولم يزل السلطان على اعتقاده وعرض عليه الأموال لأنه قال له شيخه سيدي عبد السلام بن مشيش: يا علي ارتحل إلى إفريقية واسكن بها بلداً تسمى شاذلة فإن الله يسميك الشاذلي. وبعد ذلك تنتقل إلى تونس ويؤتى عليك بها من قبل السلطنة وبعد ذلك تنتقل إلى بلاد المشرق وترث فيها القطبانية.

قال: ولما دخلت مدينة تونس وأنا شاب صغير وجدت فيها مجاعة شديدة ووجدت الناس يموتون في الأسواق، فقلت في نفسي: لو كان عندي ما أشتري به خبزاً لهؤلاء الجياع لفعلت، فألقي في سري: خذ ما في جيبك، فحركت جيبي فإذا فيه دراهم فأتيت إلى خباز بباب المنارة فقلت له: عدّ خبزك، فعدّه عليّ فناولته الناس فتناهبوه ثم أخرجت الدراهم فناولتها الخباز فقال: أنتم معاشر المغاربة تستعملون الكيمياء، قال: فأعطيته برنسي وكرزي من على رأسي رهناً في ثمن الخبز وتوجهت إلى جهة الباب وإذا برجل واقف عند الباب، فقال لي: يا علي أين الدراهم، فأعطيتها له فهزها في يده وردها إليّ وقال: ادفعها إلى الخباز فإنها طيبة. فرجعت إلى الخباز ودفعتها له فقال: نعم هذه طيبة. وأعطاني برنسي وكرزي ثم طلبت الرجل فلم أجده فبقيت حائراً في نفسي إلى أن دخلت الجامع في يوم الجمعة وجلست عند المقصورة في الركن الشرقي، فركعت تحيّة المسجد وسلّمت وإذا بالرجل على يميني فسلّمت عليه فتبسم وقال لي: يا علي أنت تقول لو كان عندي ما أطعم به هؤلاء الجياع لفعلت تتكرَّم على الله الكريم في خلقه ولو شاء لأشبعهم وهو أعلم بمصالحهم منك، قلت له: يا سيدي بالله من أنت، قال: أحمد الخضر كنت بالصين فقيل لي: ادرك وَليي علياً بتونس والأرزاق، فأبى وقال: الذي يبُول خادمه على الحجر فيصير ذهباً بإذن الله تعالى لا يحتاج لأحد من الخلق.

ومنها أنه تكلم مرة في الزهد وكان في المجلس فقير عليه أثواب رثة، وكان على الشيخ أثواب حسان، فقال الفقير في نفسه: كيف يتكلم الشيخ في الزهد وعليه هذه الكسوة؟ أنا الزاهد في الدنيا، فالتفت إليه الشيخ وقال: ثيابك هذه ثياب الرغبة في الدنيا لأنها تنادي عليك بلسان الفقر وثيابنا تنادي بلسان الغنى والتعفف. فقام الفقير على رؤوس الناس وقال: أنا والله متكلم بهذا في سري وأستغفر الله وأتوب إليه. فكساه الشيخ كسوة جيدة ودلّه على أستاذ يقال له ابن الدهان وقال: عطّف الله عليك قلوب الأخيار وبارك لك فيما آتاك وختم لك بخير.

ومناقبه وكراماته أفردت بالتأليف.

توفي رضي الله عنه في شوال عام ست وخمسين وستمائة وكان عمره ثلاثاً وستين سنة، ودفن بحَمَيْرا ببرية عيذات في واد على طريق الصعيد رضي الله عنه وعنا به. انتهى ما قاله شيخنا الصاوي.

وفي الطبقات الكبرى لسيدي عبد الوهاب الشعراني رضي الله عنه قال: وقد أفرده سيدي الشيخ تاج الدين بن عطاء الله هو وتلميذه أبو العباس بالترجمة وها أنا أذكر لك ملخص ما ذكره فيها فأقول وبالله التوفيق: وقد ترجم رضي الله عنه في كتاب لطائف المنن سيدي الشيخ أبا الحسن رضي الله عنه بأنه قطب الزمان والحامل في وقته لواء أهل العيان، حجة الصوفية، علم المهتدين، زين العارفين، أستاذ الأكابر، زمزم الأسرار ومعدن الأنوار، القطب الغوث الجامع أبو الحسن علي الشاذلي رضي الله عنه، لم يدخل طريق القوم حتى كان يعدّ للمناظرة في العلوم الظاهرة، وشهد له الشيخ أبو عبد الله بن النعمان بالقطبانية، جاء رضي الله عنه في هذه الطريق بالعجب العجاب.

وكان الشيخ تقي الدين بن دقيق العيد رضي الله عنه يقول: ما رأيت أعرف بالله من الشيخ أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه.

ومن كلامه رضي الله عنه: عليك بالاستغفار وإن لم يكن هناك ذنب واعتبر باستغفار النبي ﷺ بعد البشارة واليقين بمغفرة ما تقدم من ذنبه وما تأخر، هذا في معصوم لم يقترف ذنباً قط وتقدّس عن ذلك، فما ظنّك بمن لا يخلو عن العيب والذنب في وقت من الأوقات.

وكان رضي الله عنه يقول: إذا عارض كشفك الكتاب والسنة فتمسك بالكتاب والسنة ودع الكشف وقل لنفسك: إن الله تعالى قد ضمن لي العصمة في الكتاب والسنة ولم يضمنها لي في جانب الكشف ولا الإلهام ولا المشاهدة مع أنهم أجمعوا على أنه لا ينبغي العمل بالكشف ولا الإلهام ولا المشاهدة إلا بعد عرضه على الكتاب والسنة.

وكان رضي الله عنه يقول: لقيت الخضر عليه السلام في صحراء عيذاب فقال لي: يا أبا الحسن أصحبك الله اللطف الجميل وكان لك صاحباً في المقام والرحيل.

وكان يقول: إذا كثرت عليك الخواطر والوساوس فقل: سبحان الملك الخلاّق إن يشأ يذهبكم ويأتِ بخلق جديد وما ذلك على الله بعزيز.

وكان رضي الله عنه يقول: أسباب القبض ثلاثة: ذنباً أحدثته، أو دنيا ذهبت عنك، أو شخص يؤذيك في نفسك أو عرضك، فإن كنت أذنبت فاستغفر، وإن كنت ذهبت عنك الدنيا فارجع إلى ربك، وإن كنت ظلمت فاصبر واحتمل، هذا دواؤك وإن لم يطلعك الله تعالى على سبب القبض فاسكن تحت جريان الأقدار فإنها سحابة سائرة.

وقيل له مرة: مَن شيخك، فقال: كنت أنتسب إلى الشيخ عبد السلام بن مشيش وأنا الآن لا أنتسب إلى أحد بل أعوم في عشرة أبحر: محمد وأبي بكر وعمر وعثمان وعلي وجبريل وميكائيل وعزرائيل وإسرافيل والروح الأكبر اهـ. وإن أردت الزيادة فعليك بلطائف المنن وفي تعطير الأنفاس.

وكان أبو عبد الله الشاطبي رحمه الله تعالى يقول: كنت أترضى عن الشيخ أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه في كل ليلة مراراً وأسأل الله تعالى به في جميع حوائجي فأجد فيها النجاح. فرأيت النبي ﷺ في المنام فقلت: يا رسول الله أترضى عن الشيخ أبي الحسن الشاذلي بعد صلاتي وأسأل الله تعالى به في جميع حوائجي فأجد فيها القبول، أترى عليَّ في ذلك شيئاً إذ تعدّيتك، فقال ﷺ: أبو الحسن ولدي حساً ومعنى والولد جزء من الوالد فمن تمسك بالجزء فقد تمسك بالكل فإذا سألت الله بأبي الحسن فقد سألته بي.

أقول: فعلم من ذلك أن من كانت له حاجة إلى الله تعالى وأراد قضاءها فوراً فليتوسل بأبي الحسن الشاذلي بعد توسله بالنبي ﷺ فإن الله تعالى يعطيه ما سأله على الفور، انتهى.

وقد قدمت في الخطبة أني أخذت طريقة الشاذلية عن شيخي وأستاذي العارف بالله تعالى سيدي محمد البَهي، قال في رسالة له في الطريقة الشاذلية: وإن الله قد منَّ على العبد الفقير المعترف بذنبه الراجي بكل حال فضل ربّه محمد بن أحمد البهي بالانتساب للطريقة الشاذلية المبنية على الأعمال الصحيحة المرضية والأحوال العظيمة السمية، والأخلاق الحسنة المحمدية، والهمم الرفيعة العلية، والحقائق الظاهرة الجلية، فعنَّ لي أن أذكر طريق اتصالي بها والتعلق بأسبابها وأساليبها وأن أبدأ بذكر بعض من لقيته من السادة وحصّلت بصحبته هداية واستفادة، ثم بمن أخذ عنهم من رجال السلسلة العلية إلى أن يتصل بسيد السادات إلى الحضرة الأحدية القائم بأوصاف العبودية مظهر السر الرباني، ومهبط التجلي الرحماني، سيدنا محمد الذي أنار السبيل بلوامع حكمه وأقام الدليل بجوامع كلمه، إذ معرفة السند من الأمور المهمة والمدد بعده تابع، وتتمة، وشأن العبد الوقوف بالباب والتمسك في الانتساب بما أمكن من الأسباب وإذ لم أكن أهلاً للانتساب والالتحاق بتلك الأسباب فهم القوم لا يشقى جليسهم ولا يفوت الغريب تأنيسهم، فعسى بمددهم يحصل جمع الشمل والوصل وإن تباين الحال وتباعد الفصل، فقد يروج بين الكمل الزائف ويجوز بين أهل الشفاعة الخائف، وقد كان الخليفة الوارث سيدي أحمد أبو العباس المرسي رضي الله عنه كثيراً ما ينشد ويقول:

لي سادة من عزهم ... أقدامهم فوق الجباه
إن لم أكن منهم فلي ... في ذكرِهم عزّ وجاه

ونحن أولى بأن نكثر إنشاده ونوالي ذكرهم إشاعة وإشادة، وهذا حين أبتدي وببركاتهم أسترشد وأهتدي.

أخذت هذه الطريقة العلية الواضحة، المنيفة الجلية، عن شيخي الفاضل الكامل

والجهبذ الألمعي اللوذعي الواصل، الشريف السيد محمد المرتضى الحسيني، وهو أخذها عن أشياخ عديدة من أجلّهم إمام العارفين وتاج الواصلين شيخ الإسلام والمسلمين سيدي الشيخ أحمد الملوي المصري الشافعي، وأخذتها أيضاً عن الشيخ الموفق الصالح الناسك العابد المشهور بالأمانة والصيانة والديانة، المبرّأ من البدع والأهواء والخيانة، سيدي الحاج عبد الرحمٰن النقراشي الغريني البحيري، وهو أخذ عن شيخه ذي الأخلاق المرضية الموافقة للكتاب والسنة المحمدية، مربي المريدين وموصل السالكين الولي الصالح المتبرّك به حيّاً وميتاً سبط آل الحسين سيدي عبد الوهاب العفيفي الأنصاري المالكي، وهو والأستاذ الملوي أخذا عن سيدي عبد الله بن محمد القصري الكنكسي المغربي، وهو أخذ عن القطب الرباني والفرد الصمداني سيدي ومولاي عبد الله بن إبراهيم الشريف العلمي، أقام في القطبانية نيفاً وثلاثين سنة ولم يقبل على الناس إلاّ بإذن من رسول الله ﷺ وكان ورده كل يوم خمسة وعشرين ألف صلاة على النبي ﷺ وهو أخذ عن سيدي أحمد الأنجري، وهو أخذ عن سيدي أبي مهدي عيسى بن أبي محمد الحسن بن عيسى المصباحي. مات شهيداً سنة سبعين ونيف وتسعمائة ودفن في روضة أبيه بالدعداعة من أعمال القصر بالمغرب وهو أخذ عن سيدي أبي عبد الله محمد بن علي بن مهدي بن عيسى بن أحمد الهراوي الزمراني المعروف بالطالب، دفن خارج باب القليعَة من داخل باب الفتوح من أبواب فاس. توفي سنة خمس وستين وتسعمائة وهو أخذ عن أبي محمد سيدي عبد الله الغزواني نزيل مراكش ودفينها، توفي عام خمس وثلاثين وتسعمائة وهو أخذ عن سيدي أبي محمد عبد العزيز بن عبد الحق الحرار المعروف بالتباع نزيل مراكش أيضاً ودفينها، توفي عام أربع عشرة وتسعمائة، وهو أخذ عن سيدي أبي عبد الله محمد بن عبد الرحمٰن بن أبي بكر بن سليمان الجزولي ثم السملالي صاحب دلائل الخيرات، سلّك رضي الله تعالى عنه اثني عشر ألفاً وستمائة وخمساً وستين مريداً، وتوفي بأفوغال من بلاد مطرازة وهو ساجد في السجدة الأولى من الركعة الثانية من صلاة الصبح يوم الأربعاء من القعدة الحرام عام تسعة وستين وثمانمائة، ثم نقل إلى مراكش بعد سبعين سنة من موته ودفن بها. ولما نقل وجد جسمه كيوم وفاته لم تعد عليه الأرض ولم يغير طول الزمان منه شيئاً، وهو رضي الله عنه أخذ عن سيدي أبي عبد الله محمد بن عبد الله أمغار المتيطي، وهو أخذ عن سيدي أبي عثمان سعيد الهرتنائي، وهو أخذ عن سيدي أبي زيد عبد الرحمٰن الرجراجي وأقام بحرم الله عشرين سنة، وهو أخذ عن الشيخ أبي الفضل الهندي، وهو أخذ عن الشيخ عينوس البدوي راعي الإبل وأوحد زمانه، وهو أخذ عن شيخ الإسلام سيدي علي البدر القرافي صاحب الذخيرة، وهو أخذ عن سيدي أبي عبد الله المغربي السائح دفين دمنهور البحيرة، وهو أخذ عن قدوة الصالحين ومجمع طرق المسلكين وخلاصة صفوة العصابة

الهاشمية، وذروة غرّة ثمرة الشجرة النبوية تاج العارفين وإمام الواصلين القطب أبي الأقطاب الذي أطلعه الله على جميع أتباعه وهم في الأصلاب، الفرد الغوث الجامع سيدي أبي الحسن الشاذلي علي بن عبد الله بن عبد الجبار بن تميم الشريف الإدريسي الحسني الفاطمي العلوي صاحب الطريق ومظهر لواء التحقيق.

ولد رضي الله عنه بالمغرب الأقصى عام ثلاث وتسعين وخمسمائة وتوفي بصحراء عَيْذاب وهو قاصد الحج عام ست وخمسين وستمائة، وهو أخذ عن أبي محمد سيدي عبد السلام بن بشيش بن منصور بن إبراهيم الحسني الإدريسي. توفي شهيداً عام اثنين وعشرين وستمائة، وهو أخذ عن سيدي أبي محمد عبد الرحمٰن بن الحسين الشريف الحسيني العطار المدني نسبة لمدينة الرسول الشهير بالزيات لسكناه بحارة الزياتين. وهو أخذ عن سيدي عبد الله التنايري وهو أخذ عن الأستاذ أبي بكر الشبلي دلف بن جحدر عن الأستاذ سيد الطائفة أبي القاسم الجنيد بن محمد القواريري. توفي عام سبع وسبعين ومائتين، وهو عن الأستاذ خاله أبي الحسن السري السقطي وهو عن أبي محفوظ معروف بن فيزون الكرخي، وهو عن أبي سليمان داود بن نصر الطائي، وهو عن سيدي حبيب العجمي، وهو عن السيد الجليل أبي سعيد الحسن البصري التابعي، وهو عن سيدنا ومولانا أبي تراب علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكرّم وجهه، وهو عن سيد الكائنات سيدنا ومولانا محمد ﷺ عن سيدنا جبريل عن سيدنا ميكائيل عن سيدنا إسرافيل عن سيدنا عزرائيل عن اللوح عن القلم عن الجليل جلّ جلاله وتقدّست صفاته وأسماؤه.

هذا هو سند السادة العلمية من فروع السادة الجزولية. انتهى ما أورده سيدنا وأستاذنا وعمدتنا وشيخنا وملاذنا الشيخ البهي في رسالته، وقد أخذت طريق الشاذلية عن شيخي هذا عليه سحائب الرحمة والرضوان فسندي في الطريق سنده رضي الله عنه، وأخذتها بعده عن الأستاذ الأوحد خليفة السادة الشاذلية في وقته بمصر الملاذ الأمجد الشيخ محمد الجوهري، وهو أخذ عن والده سيدي أحمد الجوهري من سلسلة المولى عبد الله الشريف.

وقدأجازني بهذه الطريقة شيخي وأستاذي في العلم العارف بالله تعالى سيدي الشيخ علي النجاري الشافعي في ضمن إجازته لي بثبت شيخه الشيخ الأمير الكبير كما أجازه شيخه المذكور بما احتوى عليه ثبته من علم وطريق. قال شيخنا وشيخ مشايخنا عمدة المحققين سيدنا الشيخ محمد الأمير الكبير المذكور في ثبته.

ومنهم، أي مشايخنا، شيخنا شيخ الإسلام أحمد الجوهري حضرته في الشيخ عبد السلام على الجوهرة وسمعت منه الحديث المسلسل بالأولية وتلقيت عنه طريق الشاذلية

من سلسلة مولاي عبد الله الشريف، وأجازني رحمه الله اهـ.

وقد نظَّم شيخ مشايخنا خاتمة المحققين وعمدة أهل التمكين الجامع بين الحقيقة والشريعة، العلامة سيدي محمد الأمير الكبير، رجال السلسلة متوسلاً بهم إلى الله تعالى ومستغيثاً بهم، فقال:

بسم الله الرحمٰن الرّحيم

بك يستغيث العبد بدء سُؤاله ... يا واحداً خضع الورى لجلاله

قلم ولوح ثم إسرافيل مع ... ميكال جبريل أمين مَقاله

وبأصل كل الكائنات وخيرها ... من عمَّها طرّاً هدى إرساله

وبآله وبصحبه لا سيّما ... زوج البتول من اعتلى بكماله

وبسبط أحمد نجله حسن الهدى ... من أصلح الفئتين حسن فِعَاله

يسميه البصري تابعه الذي ... زاح الضلالة والشكوك بقَاله

بحبيب العجمي بالطائيّ دا ... وُدٍ معروف سَرِيٍّ مجاله

بجنيدهم شبيلهم يا ربنا ... خلّص عبيدك من قيود عقاله

بتنا وربّهم المعظم قدره ... مولاي عبد الله قطب رجاله

وبعبد رحمٰن هو المدني من ... قطع المفاوز فاحتظى بوصاله

وكذاك بابن بشيش الليث الذي ... ربّى فأحسن في ربا أشباله

يا شاذليّ على أبي الأقطاب من ... نشر الطريقة فاحتمى بظلاله

خاطبته سرّاً بأنت الشاذلي ... أي من تفرّد لي وعزَّ بحاله

بالمغربي وبالقرافي سيدي ... نبّه فؤادي من غوى آماله

وكذاك بالبدوي عينوس الفتى ... راعي النجائب في منابت ضَاله

بالعارف الهندي أبي فضل وبالرجراجي والهنتان ذي إجلاله

بمحمد أمغار أزمُوريهم ... ثم الجزولي للدلائل واله

وبعبدك التباع والغزوان يا ... مولاي دارك حائراً بكلاله

بالطالب القطب الملاذ محمد ... والقطب عيسى أنقذه من أضلاله

بالأنجريّ علي وعبد الله مو ... لاي الشريف حليق ذخر مآله

بالواصل القصري ثم بأحمد ... الجوهري من عمنا بنواله

حاوي الشريعة والحقيقة شيخنا — من ينزل الرحمات ذكر مثاله
وكذا بعمدتنا العفيفي نعم من — قد أخلص النيات في أعماله
شيخ سما فوق السماك مقامه — وكذا سما الأتباع من إيصَاله
عبد أراد به الهدى ونها به — فوفى ووفى واستقى بحبَاله
ملاء المدائن والبوادي ذكره — إذ لم يخب يوم النداء بسُؤاله
كم مكرب لعبت به أيامه — لما نحاه محا رسوم خباله
يا سعد عرّج بالمطي لرحابه — متمثلاً يا سعد في أطلاله
والثم ثراه فإنه قد فاز من — جعل اللثام له كمثل نعاله
واستغنم اللذات في ذاك الحمى — واجنِ ثمار الأنس في أطلاله
واسأل به ما شئت تعط فإنه — فياض أمداد الندى همّاله
والزم طريقة صحبه كأسيرنا — وغريبهم ومن اقتدى بفعَاله
فبحق أشياخ لنا يا ربنا — وبأحمد المختار ثم بآله
صلِّي عليه مسلماً وعليهم — وأسألك بنا جمعاً على منواله
واختم بخير يا كريم وكن لنا — وارحم ذليلاً ضاق من أثقاله
واصرف بفضلك سيدي عنا الأذى — قد حارت الألباب من أهواله
يا ربنا يا ربنا يا ربنا — أنت المجيب لكل داع واله
فيسر آيات الكتاب وما حوى — وبما دعاك به الرسول بقاله
فرّق جميع المفسدين ونجنا — من مكرهم وامنعه من إيصاله
واسمح لناظمها بنيل مرامه — واحفظه من كيد الزمان وحاله
واسمح لقارئها بنيل مرامه — واحفظه من كيد الزمان وحاله
واسمح لسامعها بنيل مرامه — واحفظه من كيد الزمان وحاله
وأدم صلاتك والسلام مع الرضا — لنبينا وشفيعنا ولآله
ما دامت الأفلاك أو هبَّ الصبا — أو رنَّم الحادي لشد رحاله
أو تمم العبد الأمير محمد — بك يستغيث العبد بدء سؤاله

انتهى. أمدنا الله بأمدادهم الربانية، ونظمنا في سلك عقودهم الرحمانية، ومنَّ علينا بذرة من إقباله وبسطة من إفضاله بجاه سيدنا محمد وصحبه وآله صلَّى الله عليه

وعلى آله وأصحابه وأزواجه وأهل بيته كلما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون.

الشيخ سيدي الإمام أحمد أبو العباس المرسي رضي الله عنه

كان من أكابر العارفين، وكان يقال: إنه لم يرث علم الشيخ أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه غيره، وهو أجلّ من أخذ عنه الطريق رضي الله عنه، ولم يضع رضي الله عنه شيئاً من الكتب.

وكان رضي الله عنه يقول: علوم هذه الطائفة علوم تحقيق، وعلوم التحقيق لا تحملها عقول عموم الخلق.

وكذلك شيخه أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه لم يضع شيئاً، وكان يقول: كتبي أصحابي.

مات رضي الله عنه سنة ست وثمانين وستمائة.

ومن كلامه رضي الله عنه: جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام خلقوا من الرحمة ونبينا ﷺ هو عين الرحمة. اهـ من الطبقات الكبرى للعارف الشعراني.

وفي تعطير الأنفاس قال الشيخ أبو العباس رضي الله عنه: جلت في ملكوت الله فرأيت أبا مدين متعلقاً بساق العرش وهو رجل أشقر أزرق العينين فقلت له: ما علومك وما مقامك؟ فقال: أما علومي فأحد وسبعون علماً، وأما مقامي فرابع الخلفاء ورأس السبعة الأبدال، قلت له: فما تقول في شيخي أبي الحسن الشاذلي، قال: زاد عليّ بأربعين علماً هو البحر الذي لا يُحاط به. اهـ. ثم قال الشعراني في الطبقات الكبرى.

وكان ساكناً في خط المقبسي بالقاهرة، فكان كل ليلة يأتي الإسكندرية فيسمع ميعاد الشيخ أبي الحسن ثم يرجع إلى القاهرة، وكان يقرأ عليه كتاب ختم الأولياء للحكيم الترمذي.

وعمل رضي الله عنه عصيدة في يوم حار فقالوا له: العصيدة لا تعمل إلاّ في أيام الشتاء، فقال: هذه عصيدة ولدنا ياقوت، ولد اليوم ببلاد الحبشة، فلم يزل ياقوت يباع من سيد إلى سيد حتى جاء إلى سيدي أبي العباس، وحسبوا عمره فوجدوا عمره كما قال.

وكان إذا مدح بقصيدة يجيز المادح بإقباله عليه ويعطيه العطايا.

وكان رضي الله عنه يقول: والله لو علمت علماء العراق والشام ما تحت هذه الشعرات ـ وأمسك على لحيته ـ لأتوها ولو حبواً على وجوههم.

وكان يقول: والله ما نطالع كلام أهل الطريق إلاّ لنرى فضل الله تعالى علينا.

وكان رضي الله عنه يقول: إذا كمل الرجل نطق بجميع اللغات وعرف جميع الألسن إلهاماً من الله عز وجل.

وكان يقول: من صحب المشايخ على الصدق وهو عالم بالظاهر ازداد علمه ظهوراً.

وكان رضي الله عنه يقول: إن لله تعالى عباداً محق أفعالهم بأفعاله وأوصافهم بأوصافه وذاتهم بذاته وحملهم من أسراره ما يعجز عامة الأولياء عن سماعه.

وكان يقول في معنى حديث: من عرف نفسه عرف ربه. معناه: من عرف نفسه بذلها وعجزها عرف الله بعزّه وقدرته.

قلت وهذا أسلم الأجوبة والله أعلم.

وكان يقول: سمعت الشيخ أبا الحسن رضي الله عنه يقول: لو كشف عن نور المؤمن العاصي لطبق ما بين السماء والأرض، فما ظنك بنور المؤمن المطيع.

وكان يقول: لو كشف الله عن حقيقة وليّ لعُبِد لأن أوصافه من أوصافه ونعوته من نعوته.

قلت: ومعنى لعُبِدَ: أي لأطيع. قال تعالى: ﴿لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ [يس: الآية ٦٠] أي لا تطيعوه فيما أمركم به والله أعلم.

قال بعضهم: صلّيت خلف الشيخ أبي العباس فشهدت الأنوار ملأت بدنه وانبثت من وجوده حتى أني لم أستطع النظر إليه.

وكان يقول: سمعت الشيخ أبا الحسن الشاذلي رضي الله عنه يقول: من نبتت ولايته من الله تعالى لا يكره الموت وهذا ميزان للمريدين ليَزِنوا به نفوسهم إذا ادعوا ولاية الله فإن من شأن النفوس وجدان الدعوى للمراتب العالية من غير أن يسلك السبيل الموصل إليها، قال تعالى: ﴿فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة: الآية ٩٤].

وكان رضي الله عنه يقول: قد يكون العالم مشحوناً بالعلوم والمعارف والحقائق لديه مشهورة حتى إذا أعطي العبادة كان كالإذن من الله تعالى في الكلام.

ويجب أن تفهم من أن من أذن له في التعبير جلّت في مسامع الخلق إشارته.

وكان يقول: كلام المأذون له يخرج وعليه كسوة وطلاوة، وكلام الذي لم يؤذن له يخرج مكسوف الأنوار.

وكان يقول: من أحب الظهور فهو عبد الظهور، ومن أحب الخفاء فهو عبد الخفاء، ومن كان عبد الله فسواء عليه أظهره أو أخفاه.

وكان رضي الله عنه يقول: الطيّ طيّان، طيّ أصغر وطيّ أكبر. فالطيّ الأصغر

لعامة هذه الطائفة أن تطوى لهم الأرض من مشرقها إلى مغربها في نفس واحد. والطيّ الأكبر طيّ أوصاف النفوس.

وكان يقول: دخل رجل على عثمان رضي الله عنه وقد كان نظر إلى محاسن امرأة في الطريق، فقال: يدخل أحدكم وآثار الزنا بادية في وجهه.

وكان يقول: قد يطلع الله الولي على غيبه إذا ارتضاه بحكم التبع المرسل عليهم الصلاة والسلام. ومن هنا نطقوا بالمغيبات وأصابوا الحق فيها.

وكان يقول: طريقنا لا ينسب إلى المشارقة ولا إلى المغاربة، بل إلى واحد عن واحد إلى الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه وهو أول الأقطاب.

وكان يقول: إنما يلزم الإنسان تعيين المشايخ الذين استند إليهم إذا كان طريقه لبس الخرقة لأنها رواية والرواية يتعين رجال سندها وطريقنا هذه هداية وقد يجذب الله العبد إليه فلا يجعل عليه منة لأستاذ وقد يجمع شمله برسول الله ﷺ فيكون آخذاً عنه، وكفى بهذا منّة.

وكان يقول كثيراً: قال الشيخ، قال الشيخ، كلما ينقل كلاماً، فقال له إنسان: لا نراك قط تسند لنفسك كلاماً، فقال رضي الله عنه: لو أردت عدد الأنفاس أن أقول قال الله قال الله لقلت، ولو أردت عدد الأنفاس أن أقول قال رسول الله ﷺ لقلت، ولو شئت عدد الأنفاس أن أقول قلت أنا لقلت، ولكن أقول قال الشيخ وأترك ذكر نفسي تأدُّباً.

وكان يقول: لم يزل الوليّ في كل عصر لا يلقى أكثر الناس إليه بالاً حتى إذا مات قالوا: كان فلان.

وكان يقول: والله ما سار الأولياء والأبدال من قَ إلى قَ إلاَّ حتى يلتقوا مع واحد مثلنا.

وكان شيخه أبو الحسن رضي الله عنه يقول للناس: عليكم بالشيخ أبي العباس فوالله إنه ليأتيه البدوي يبُول على ساقيه فوالله لا يمشي إلاَّ وقد أوصله الله تعالى، ووالله ما من ولي لله كان أو هو كائن إلاَّ وقد أظهره الله عليه وعلى اسمه ونسبه وحسبه وحظه من الله عز وجل.

وكان يقول: قال لي الشيخ أبو الحسن: يا أبا العباس ما صحبتك إلاَّ لتكون أنت أنا وأنا أنت.

وكان رضي الله عنه يقول: لي أربعون سنة ما حجبت عن رسول الله ﷺ ولو حجبت طرفة عين ما عددت نفسي من جملة المسلمين.

وكذلك كان يقول ذلك في حق الجنة وفي حق الوقوف بعرفة كل سنة.

وكان يقول: لو كان الحق سبحانه وتعالى يرضيه خلاف السنة لكان التوجه في الصلاة إلى القطب الغوث أولى من التوجه إلى الكعبة.

وكان يقول: إذا ضاق الوليّ هلك من يؤذيه في الوقت، وإذا اتسعت معرفته احتمل أذى الثقلين ولم يحصل لأحد منهم ضرر بسببه.

وكان يقول: ما سمعتموه مني ففهمتموه فاستودعوه الله يرده عليكم وقت الحاجة، وما لم تفهموه فكلوه إلى الله يتولى الله بيانه، واسعوا في جلاء مرآةِ قلوبكم يتضح لكم كل شيء.

وكان يكرم الناس على نحو رتبهم عند الله حتى أنه ربما يدخل عليه المطيع فلا يلتفت إليه لكونه يرى عبادته ويدخل عليه العاصي فيقوم له لأنه دخل بذل نفس وانكسار.

ومناقبه رضي الله عنه وأمدنا بمدده كثيرة وكلماته وحكمه شهيرة، وفي هذا القدر كفاية، وإن أردت الزيادة فعليك بلطائف المنن.

سيدنا ومولانا شمس الدين أبو محمود محمد الحنفي رضي الله تعالى عنه

قال العارف الشعراني في طبقاته الكبرى: كان رضي الله عنه من أجلاّء مشايخ مصر وسادات العارفين، صاحب الكرامات الظاهرة والأفعال الفاخرة، والأحوال الخارقة، والمقامات السنية، والهمم العلية، صاحب الفتح المؤنق والكشف المخرق والتصدر في بواطن القدس والرقيّ في معارج المعارف والتعالي في مراقي الحقائق، كان له الباع الطويل في التصريف النافذ واليد البيضاء في أحكام الولاية والقدم الراسخ في درجات النهاية والطود السامي في الثبات والتمكين، وهو أحد من ملك أسراره وقهر أحواله وغلب على أمره وهو أحد أركان هذه الطريقة وصدور أوتادها وأكابر أئمتها وأعيان علمائها علماً وعملاً وحالاً وقالاً وزهداً وتحقيقاً ومهابةً، وهو أحد من أظهره الله تعالى إلى الوجود وصرفه في الكون ومكّنه في الأحوال وأنطقه بالمغيّبات وخرق له العوائد وقلب له الأعيان وأظهر على يديه العجائب وأجرى على لسانه الفوائد ونصبه قدوة للطالبين حتى تلمّذ له جماعة من أهل الطريق وانتمى إليه خلق من الصلحاء والأولياء واعترفوا بفضله وأقروا بمكانته وقُصد بالزيارات من سائر الأقطار وحلّ مشكلات أحوال القوم.

وكان رضي الله عنه ظريفاً جميلاً في بدنه وثيابه، وكان الغالب عليه شهود الجمال رضي الله عنه، وكان رضي الله عنه من ذرية أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

توفي رضي الله عنه سنة سبع وأربعين وثمانمائة رضي الله عنه، وقد أفرد الناس ترجمته بالتأليف منهم الشيخ نور الدين علي بن عمر البتنوني رضي الله عنه وهو مجلّدان،

والحق أنه لم يحط علماً بمقام الشيخ رضي الله عنه حتى يتكلم عليه، إنما ذكر بعض أمور على طريقة أرباب التواريخ وأهل الطبقات، بل لو رام الولي نفسه أن يتكلم على مقام نفسه لا يقدر كما هو مقرر في كلام أصحاب الدوائر الكبرى والله أعلم.

ولكن نذكر لك طرفاً صالحاً مما ذكره الإمام البتنوني لتحيط به علماً فنقول وبالله التوفيق:

اعلم أنه رضي الله عنه رُبي يتيماً من أمه وأبيه فربته خالته فكان زوجها يريد أن يعلمه الصنعة، فمضى به إلى الغرابلي فهرب إلى الكتّاب ثم مضى به إلى المناخلي فهرب إلى الكتّاب، فكف عنه فحفظ القرآن وكان الحافظ ابن حجر رفيقه في الكتّاب.

قال الشيخ أبو العباس السرسي: ولما خرج الشيخ محمد الحنفي من الكتّاب جلس يبيع الكتب في سوقها، فمر عليه بعض الرجال فقال: يا محمد ما للدنيا خلِقْتَ، فنزل من الدكان وترك جميع ما فيه من الغلّة والكتب ولم يسأل عن ذلك بعد. ثم حبِّب إليه الخلوة، ثم اختلى سبع سنين لم يخرج، في خلوة تحت الأرض ودخلها وهو ابن أربع عشرة سنة.

وكان رضي الله عنه يقول: إياكم وكرامات الأولياء أن تنكروها فإنها ثابتة بالكتاب والسنة ونقض العادة على سبيل الكرامة لأهل الولاية جائز عند أهل السنة والجماعة.

وقد دعا الإمام أبو حنيفة رضي الله عنه يوماً فنزلت عليه مائدة من السماء من حيث لا يعلم.

قال الشيخ أبو العباس: وكنت إذا جئته وهو في الخلوة أقف على بابها فإن قال لي: ادخل، دخلت، وإن سكت رجعت. فدخلت عليه يوماً بلا استئذان فوقع بصري على أسد عظيم فغشي عليّ، فلما أفقت خرجت واستغفرت الله تعالى من الدخول عليه بلا إذن.

قال الشيخ أبو العباس رضي الله عنه: ولم يخرج الشيخ رضي الله عنه من تلك الخلوة حتى سمع هاتفاً يقول: يا محمد اخرج انفع الناس ثلاث مرات. وقال له في الثالثة: إن لم تخرج وإلآهِيْهْ، فقال الشيخ: فما بعد هِيْهْ إلاَّ القطيعة.

قال الشيخ: فقمت وخرجت إلى الزاوية فرأيت على الفسقيّة جماعة يتوضؤون، فمنهم من على رأسه عمامة صفراء، ومنهم زرقاء، ومنهم من وجهه وجه قرد، ومنهم من وجهه وجه خنزير، ومنهم من وجهه كالقمر، فعلمت أن الله أطلعني على عواقب أمور الناس، فرجعت إلى خلفي وتوجهت إلى الله تعالى فستر عني ما كشف لي من أحوال الناس وصرت كآحاد الناس.

وكان في خلوة الشيخ توتة مزروعة، قال الشيخ رضي الله عنه: فخطر لي أن

أباسطها، فقلت: يا توتة حدثيني حدّوتة، فقالت بصوت جهوري: نعم، إنهم لما زرعوني سقوني فلما سقوني أسست فلما أسست فرعت فلما فرعت أورقت فلما أورقت أثمرت، فلما أثمرت أطعمت.

قال رضي الله عنه: فكان كلامها سلوكاً لي وقد حصل لي بحمد الله ما قالت التوتة.

وكان رضي الله عنه يجلس يعظ الناس على غير موعد، فيجيء الناس حتى يملؤوا زاويته بقدرة الله عز وجل.

وكان الشيخ حسن الخباز المدفون بتربة الشاذلية بالقرافة رضي الله عنه، إذا رأى سيدي محمداً وهو صغير يقول: سيكون لهذا الولد شأن عظيم في مصر. ثم يقول: وأخبرني بذلك أيضاً ابن اللبان عن ابن عطاء الله عن ياقوت العرشي عن أبي العباس المرسي عن أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه، أنه كان يقول: سيظهر بمصر رجل يعرف بمحمد الحنفي يكون فاتحاً لهذا البيت ويشتهر في زمانه ويكون له شأن عظيم.

وفي رواية أخرى عن الشاذلي رضي الله عنه: يظهر بمصر شاب يعرف بالشاب التائب، حنفي المذهب، اسمه محمد بن حسن، وعلى خده الأيمن خال وهو أبيض اللون مشرب بحمرة وفي عينيه حور ويربى يتيماً فقيراً.

أخذ رضي الله عنه الطريق بعد أن خرج من الخلوة عن الشيخ ناصر الدين بن الميلق، عن جده الشيخ شهاب الدين ابن الميلق، عن الشيخ ياقوت العرشي، عن المرسي عن الشاذلي، فلذلك كان سيدي أبو الحسن يقول: الحنفي خامس خليفة من بعدي.

قال أبو العباس رضي الله عنه: وكان سيدي محمد رضي الله عنه يأمر من يراه من أصحابه عنده شهامة نفس بالشحاتة من الأسواق وغيرها حتى تنكسر النفس ويقول: رحم الله من ساعد شيخه على نفسه.

وكان رضي الله عنه يقول: ظفرت في زماني كله بصاحبين ونصف صاحب، فأما الصاحبان فهما أبو العباس السريسي والشيخ شمس الدين بن كتيلة المحَملّي. أما الأول فإنه أنفق عليّ جميع ماله، وأما الثاني فإنه تمسّك بطريقتي واتبع سنتي. وأما نصف الصاحب فهو صهري سيدي عمر.

قال أبو العباس رضي الله عنه: قال لي سيدي محمد يوماً: أما ترضى أن تكون بدايتي نهايتك، فقلت: نعم.

وكان سيدي علي بن وفا رضي الله عنه يوماً في وليمة فقال الناس: ما تتم الوليمة إلاّ بحضور سيدي محمد الحنفي، فجاء إليه صاحب الوليمة فدعاه فأتى فقال: من هنا

من المشايخ، فقال: سيدي علي بن وفا وجماعته، فقال: ادخل واستأذنه لي فإن من أدب الفقراء إذا كان هناك رجل كبير لا يدخل عليه أحد حتى يستأذن له فإن أذن وإلاَّ رجعنا خوف السلب. فدخل صاحب الوليمة فاستأذن له فأذن سيدي علي وقام له وأجلسه إلى جانبه، فدار الكلام بينهما، فقال سيدي علي: ما تقول في رجل رحى الوجود بيده يدورها كيف شاء، فقال له سيدي محمد رضي الله عنه: فما تقول فيمن يضع يده عليها فيمنعها من أن تدور، فقال له سيدي علي: والله كنا نتركها لك ونذهب عنها، فقال سيدي محمد رضي الله عنه لجماعة سيدي علي: ودعوا صاحبكم فإنه ينتقل قريباً إلى الله تعالى. فكان الأمر كما قال.

وسمع سيدي محمد رضي الله عنه هاتفاً يقول بالليل: يا محمد ولّيناك ما كان بيد علي بن وفا زيادة على ما بيدك. فعلمت أن ذلك لا يكون إلاَّ بعد موته، فأرسلت شخصاً من الفقراء يسأل عن بيت سيدي علي بحارة عبد الباسط، فوجد الصائح أنه قد مات.

وكان الشريف النعماني رضي الله عنه أحد أصحاب سيدي محمد رضي الله عنه يقول: رأيت جدي رسول الله ﷺ في خيمة عظيمة والأولياء يجيئون فيسلمون عليه واحداً بعد واحد وقائل يقول: هذا فلان هذا فلان، فيجلسون إلى جانبه ﷺ حتى جاءت كبكبة عظيمة وخلق كثير وقائل يقول: هذا محمد الحنفي. فلما وصل إلى النبي ﷺ أجلسه بجانبه ثم التفت ﷺ إلى أبي بكر وعمر وقال لهما: «إني أحبّ هذا الرجل إلاَّ عمامته الصّماء» أو قال: «الزعراء». وأشار إلى سيدي محمد فقال له أبو بكر رضي الله عنه: أتأذن لي يا رسول الله أن أعممه، فقال: نعم. فأخذ أبو بكر رضي الله عنه عمامة نفسه وجعلها على رأس سيدي محمد وأرخى العمامة سيدي محمد عذبة عن يساره وألبسها لسيدي محمد. انتهى.

فلما قصّها على سيدي محمد بكى وبكى الناس وقال للشريف محمد: إذا رأيت جدّك ﷺ فاسأله لي في أمارة يعلمها من أعمالي. فرآه ﷺ بعد أيام وسأله الأمارة، فقال له: بأمارة الصلاة التي يصليها عليّ في الخلوة قبل غروب الشمس كل يوم، وهي: اللهم صلِّ على محمد النبيّ الأميّ وعلى آله وصحبه وسلم عدد ما علمت وزنة ما علمت وملء ما علمت. فقال سيدي محمد رضي الله عنه: صدق رسول الله ﷺ. وأخذ عمامته وأرخى لها عذبة ونزع كل من في المجلس عمامته وأرخى لها عذبة وصار سيدي محمد رضي الله عنه إذا ركب يرخي العذبة وترك الطيلسان الذي كان يركب به إلى أن مات رضي الله عنه.

رأى النبي ﷺ بعد ذلك أيضاً وقال له: إني أرسلت إلى محمد الحنفي أمارة مع

رجل من رجال الصعيد وأن يعمل لعمامته عذبة فوصل الرجل الصعيدي بعد مدة وأخبر سيدي محمداً بالرؤيا رضي الله عنه.

قال الشيخ شمس الدين بن كتيلة رضي الله عنه: وأول شهرة اشتهر بها الشيخ محمد الحنفي رضي الله عنه أن السلطان فرج بن برقوق كان يرمي الرمايا على الناس وكان الشيخ يُعارضه فأرسل وراء الشيخ وأغلظ عليه القول وقال: المملكة لي أو لك، فقال الشيخ رضي الله عنه: لا لي ولا لك المملكة لله الواحد القهار. ثم قام الشيخ متغير الخاطر فحصَل للسلطان عقب ذلك ورم في محاشمه كاد يهلك منه، فأرسل خلف الأطباء فعجزوا، فقال له بعض خواصه العقلاء: هذا من تغيّر خاطر الشيخ محمد الحنفي، فقال: ارسلوا خلفه لأطيب خاطره. فنزل الأمراء إليه فوجدوه خارج مصر نواحي مطرية فأخبروه بطلب السلطان له فلم يجب إلى الاجتماع به فلم يزالوا يترددون بينه وبين السلطان حتى رقّ له وأرسل له رغيفاً مبسوساً بزيت طيب وقال لهم: قولوا له كُل هذا تبرأ ولا تعد إلى قلة الأدب نملخ آذانك. فمن ذلك اليوم اشتهر أمر الشيخ رضي الله عنه للناس وصار الناس إذا لام بعضهم بعضاً على أمر لم يفعله يقول: يعني ينعاظ الحنفي. وشاعت هذه الكلمة بين الناس إلى الآن.

وكان الأستادار لما جاء إلى الشيخ يدعوه للسلطان أغلظ على الشيخ القول، فدعا عليه الشيخ، فأعلموا السلطان بذلك فسجنه ثم ضرب عنقه وأرسل رأسه للشيخ في طبق، فولى وجهه عنه وقال: ارفعوها وادفنوها مع جثته.

وكان سيدي الشيخ إسماعيل نجل سيدي محمد الحنفي رضي الله عنه يقول: إن الشيخ رضي الله عنه أقام في درجة القطبانية ستة وأربعين سنة وثلاثة أشهر وأياماً، وهو القطب الغوث الفرد الجامع هذه المدة.

وكان رضي الله عنه يقول: من الفقراء من يسلك على يد رجل وينفطم على يد غيره لموت الشيخ الأول أو غير ذلك.

وكان شيخ شيخه الشيخ شهاب الدين بن الميلق رحمه الله تعالى يكتب بكل مدة قلم كراساً كاملاً، فسمع بذلك الناس، فتعجبوا من ذلك واستبعدوا وقوعه فأمر الشيخ محمد الحنفي رضي الله عنه بعض مريديه أن يكتب بكل مدة كراسين فكتب والناس ينظرون، وكان أمير كبير يسمى ططر عند الملك المؤيد كلما يجيء ليزور الشيخ يقوم فيخلع ثيابه ويملأ الفسقية للناس بنفسه ويعود يلبس ثيابه وتخفيفته، ولما تسلطن بعد الملك أحمد بن المؤيد كان ينزل لزيارة الشيخ كل يومين أو ثلاثة لا يستطيع أن يتخلف عنه، فيقول له الشيخ: إنك صرت سلطاناً فالزم القلعة، فيقول: لا أستطيع. وكان يقول للشيخ: لا تقطع شفاعتك عنا ولو كان كل يوم ألف شفاعة قبلناها.

ولما عزل شيخ الإسلام ابن حجر أرسل الشيخ جاريته بركة إلى السلطان ططر، وقال لها: قولي له: رد الشيخ شهاب الدين إلى ولايته. فطلعت إليه بركة، وقالت له ذلك، فكتب لها في الحال مرسوماً بولاية شيخ الإسلام ابن حجر، وأرسل له خلعة فكان ابن حجر رحمه الله لا ينسى ذلك للشيخ.

وطلع الشيخ رضي الله عنه مرة للسلطان ططر يعوده من مرض فتسامع الناس أن الشيخ رضي الله عنه طلع للسلطان فترادف عليه أصحاب الحوائج فأمر السلطان أن لا ترد ذلك اليوم قضية. وسأل الشيخ أن يعلم للناس على قضاياهم، فعلم على خمسة وثلاثين قضية. فلما أراد الشيخ النزول أخرج السلطان له فرساً بسرج مغرق وكنبوشاً وأمر بالقبة والطيران يكونوا على رأس الشيخ وأمر الأمراء أن يركبوا معه إلى الزاوية ففعلوا ذلك وكانت القبة والطير مع أمير كبير يقال له برسباي الدقماقي ثم تولى بعد ذلك المملكة فكان هو الملك الأشرف برسباي وكان يراعي خاطر الشيخ ويخاف منه مدة مملكته إلى أن توفي رحمه الله تعالى.

وكان رضي الله عنه يقول: والله لقد مرت بنا القطبية ونحن شباب فلم نلتفت إليها دون الله عز وجل.

وكان يقول: إن القطب إذا تقطب يحمل هموم أهل الدنيا كلها كالسلطان الأعظم بل أعظم.

وكان يتطور في بعض الأوقات حتى يملأ الخلوة بجميع أركانها ثم يصغر قليلاً قليلاً حتى يعود إلى حالته المعهودة. ولما علم الناس بذلك سدوا الطاق التي كانت تشرف على الخلوة رضي الله عنه.

وكان إذا تغيظ من شخص يتمزق كل ممزّق ولو كان مستنداً لأكبر الأولياء لا يقدر أن يدفع عنه شيئاً من البلاء النازل به، كما وقع لابن التمار وغيره فإنه أغلظ على الشيخ في شفاعة وكان مستنداً لشيخ اسمه البِسْطامي من أكابر الأولياء فقال سيدي محمد: مزقنا ابن التمار كل ممزق ولو كان معه ألف بسطامي. ثم أرسل له السلطان فهدم دار ابن التمار وهي خراب إلى الآن.

وكان يتوضأ يوماً، فورد عليه وارد، فأخذ فردة قبقابه فرمى بها وهو داخل الخلوة فذهبت في الهواء وليس في الخلوة طاق تخرج منها، وقال لخادمه: خذ هذه الفردة عندك حتى تأتيها أختها. فبعد زمان جاء بها رجل من الشام مع هدية وقال: جزاك الله عني خيراً إن اللص لما جلس على صدري ليذبحني قلت في نفسي: يا سيدي محمد يا حنفي، فجاءته في صدره فانقلب مغمى عليه ونجاني الله عزَّ وجل ببركتك.

وكانت أمّ سيدي محمود زوجة الشيخ رضي الله عنه تقول: أهدت لنا امرأة أترجة

صفراء فوضعناها عندنا في طبق، فانقطع الجان الذين كانوا يقرؤون على الشيخ، فلما أكلناها جاؤوا فقال لهم سيدي: ما قطعكم عن المجيء إلينا، فقالوا لا نقدر على رائحة الأترج ولا نقدر أن ندخل بيتاً هو فيه. فكان سيدي محمد رضي الله عنه يأمر من نزل عنده الجان أن يضع في بيته الأترج ويعمل من حبه سبحاً ويحفظها عنده لمن عرض له عارض في غير أوان الأترج.

وكان الشيخ إذا لم يجد شيئاً ينفقه يقترض من أصحابه ثم يوفيهم إذا فتح الله تعالى بشيء، فاجتمع عليه ستون ألفاً فشق ذلك على الشيخ، فدخل عليه رجل بكيس عظيم وقال: من له على الشيخ دين فليحضر. فأوفى عن الشيخ رضي الله عنه جميع ما كان عليه ولم يعرف ذلك الرجل أحد من الحاضرين. فقالوا للشيخ عنه، فقال: هذا صيرفي القدرة أرسله الله تعالى يوفي عنا ديننا.

ومرضت زوجته فأشرفت على الموت فكانت تقول: يا سيدي أحمد يا بدوي خاطرك معي. فرأت سيدي أحمد رضي الله عنه في المنام وهو ضارب لثامين وعليه جبة واسعة الأكمام عريض الصدر أحمر الوجه والعينين وقال لها: كم تناديني وتستغيثي أنت لا تعلمي أنك في حماية رجل من الكبار والمتمكنين ونحن لا نجيب من دعانا وهو في موضع أحد من الرجال، قولي يا سيدي محمد يا حنفي يعافيك الله تعالى. فقالت ذلك فأصبحت كأن لم يكن بها مرض.

وكان الشيخ طلحة رضي الله عنه المدفون بالمنشية الكبرى يقول: قال لي سيدي محمد الحنفي: يا طلحة خرج من زاويتي هذه أربعمائة ولي. وفي رواية: ثلاثمائة وستون، على قدمي كلهم داعون إلى الله تعالى وأصحابنا بالمغرب كثير وبالروم والشام أكثر وأكثر وأصحابنا باليمن وسكان البراري والكهوف والمغارات.

قال الشيخ طلحة رضي الله تعالى عنه: وكان ذلك آخر اجتماعي بالشيخ رضي الله عنه.

وقال سيدي محمد رضي الله عنه في مرض موته: من كانت له حاجة فليأت إلى قبري ويطلب حاجته أقضها له فإن ما بيني وبينكم غير ذراع من تراب وكل رجل يحجبه عن أصحابه ذراع من تراب فليس برجل.

وكان رضي الله عنه يلقن الخائف من ظالم ويقول: إذا دخلت عليه فقل: بسم الله الخالق الأكبر حرز لكل خائف لا طاقة لمخلوق مع الله عز وجل، فيرجع إليه المظلوم وعليه الخلعة.

وأنكرت عليه امرأة ما يقدمه للفقراء من الطعام القليل في الصحون الرملي فقالت: قلّة هذا الطعام ولا هو. ثم ذهبت وعملت طعاماً بكثرة فيه فراخ وأوز وحملته إلى

الزاوية. فقال سيدي محمد رضي الله عنه لسيدي يوسف القطوري رحمه الله: كل طعامها كله وحدك. فأكل طعامها كلّه وحده وشكا من الجوع فأخذته إلى بيتها وقدموا له نحو ذلك الطعام أو أكثر وهو يشكو الجوع، فقال لها الشيخ: البركة في طعام الفقراء لا في أوانيهم. فاستغفرت وتابت.

وكان إذا تذكر أحداً من أصحابه الغائبين عن السماط يأكل الشيخ عنهم لقمة أو لقمتين فتنزل في بطونهم في أيّ مكان كانوا ثم يجيئون ويعترفون بذلك.

وحضره الشيخ جلال الدين البلقيني رضي الله عنه يوماً في الميعاد فسمع تفسير الشيخ رضي الله عنه للقرآن فقال: والله لقد طالعت أربعين تفسيراً للقرآن ما رأيت فيها شيئاً من هذه الفوائد التي ذكرها سيدي الشيخ محمد.

وكذلك كان يحضره شيخ الإسلام البلقيني وشيخ الإسلام العيني الحنفي وشيخ الإسلام البساطي المالكي وغيرهم.

وقبّله الشيخ سراج الدين البلقيني رحمه الله بين عينيه وقال له: أنت تعيش زماناً طويلاً، لأن الله تعالى يقول: ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الرّعد: الآية ١٧].

وجاءه رجل فقال: يا سيدي أنا ذو عيال فقير الحال، فعلمني الكيمياء، فقال الشيخ رضي الله عنه: قم عندنا سنة كاملة بشرط أنك كلما أحدثت توضأت وصلّيت ركعتين. فأقام على ذلك، فلما بقي من المدة يوم جاء إلى الشيخ فقال له: غداً تقضى حاجتك. فلما جاءه قال له: قم فاملأ من البئر ماءً للوضوء. فملأ دلواً من البئر فإذا هو مملوء ذهباً، فقال: يا سيدي ما بقي فيَّ الآن شعرة واحدة تشتهيه، فقال له الشيخ: صبه مكانه واذهب إلى بلدك فإنك قد صرت كلك كيماء. فرجع إلى بلاده ودعا الناس إلى الله تعالى وحصل به نفع كبير.

قال الشيخ شمس الدين بن كتيلة رضي الله عنه: وكان سيدي محمد رضي الله عنه إذا صلى يصلّي عن يمينه دائماً أربعة روحانية وأربعة جسمانية لا يراهم إلاّ سيدي محمد أو خواص أصحابه.

وكان سكان بحر النيل يطلعون إلى زيارته وهو في داره بالروضة والحاضرون ينظرون، قالت ابنته أم المحاسن رضي الله عنها: وزاروه مرة وعليهم الطيالسة والثياب النظيفة وصلوا معه صلاة المغرب ثم نزلوا في البحر بثيابهم، فقلت: يا سيدي أما تبتل ثيابهم من الماء، فتبسم رضي الله عنه وقال: هؤلاء مسكنهم في البحر.

وأهدى له سلطان تونس الخضراء مشطاً لتسريح اللحية فإذا فردوه صار كرسياً لمصحف، فأهداه الشيخ رضي الله عنه إلى الملك الأشرف برسباي ففرح به وأعجبه.

وأهدى له ملك الهند ثوباً بعلبكياً في قصبة وشاشاً في جوزة هند وكان رضي الله

عنه لا يشتري قط ملبوساً إنما هو هدايا من المحبين. وكان إذا كتم عنه أحد من أصحابه شيئاً من ماله يذهب ذلك المال الذي كتمه كلّه ولا يبقى معه إلاَّ المال الذي يعترف به اهـ مختصراً من الطبقات الكبرى للعارف الشعراني رضي الله عنه.

سيدي عبد الوهاب بن أحمد الشعراني رضي الله عنه

قال الإمام المناوي في طبقاته: الإمام العامل، والهمام الكامل، إنسان عين ذوي الفضائل، وعين إنسان الواصلين من ذوي الوسائل، العابد الزاهد، الفقيه المحدث الصوفي المربي المسلك، وهو من ذرية الإمام محمد بن الحنفية. ولد ببلده ونشأ بها ومات أبوه وهو طفل ومع ذلك ظهرت فيه علامات النجابة، ومخايل الولاية، فحفظ القرآن وأبا شجاع والآجرومية وهو ابن نحو سبع أو ثمان. ثم انتقل من الريف إلى مصر في غرة سنة إحدى عشرة وتسعمائة وعمره نحو اثنتي عشرة سنة، فقطن بجامع الغمري وجد واجتهد فحفظ عدة متون منها منهاج النووي والألفيتان والتوضيح والتلخيص والشاطبية وقواعد ابن هشام، بل حفظ الروض إلى القضاء على الغالب وذلك من كراماته، فقد وقفت على ما لا يحصى من الطبقات والتواريخ فلم أر في ترجمة أحد من الأعيان أنه حفظه ولا بعضه وعرض محفوظاته على مشايخ عصره ثم شرع في القراءة، فأخذ عن الشيخ أمين الدين إمام جامع الغمري شرحي المنهاج وجمع الجوامع للمحلى وحاشيته لابن أبي شريف وشرح ألفية العراقي للسخاوي وشرح ألفية ابن مالك لابن عقيل، وسمع عليه الكتب الستة وغيرها.

وقرأ على الشمس الدواخلي شرح الإرشاد والروض وشرح الألفية لابن المصنف وشرح التوضيح والمطول وشرح جمع الجوامع وشرح ألفية العراقي لابن المؤلف.

وعلى النور المحلى شرح جمع الجوامع وحاشيته وشرح المعلقات السبعة والمقاصد وغيرها.

وعلى النور الجارحي شرح ألفية العراقي والشاطبية.

وعلى مُلاَّ علي العجمي عدة كتب نحوية.

وعلى القسطلاني غالب شرحه للبخاري وقطعة من المواهب.

وعلى الأشموني قطعة من المنهاج والألفية وجمع الجوامع.

وعلى شيخ الإسلام زكريا شرح رسالة القشيري والروض والتحرير وآداب البحث وغيرها.

ثم على الشهاب الرملي ثلاثة أرباع الروضة.

وحبب إليه الحديث، فلزم الاشتغال به ومع ذلك هو صوفي المخَبْرَ فقيه المنظر له

دراية بأقوال السلف ومذاهب الخلف. ثم أقبل على الاشتغال بالطريق، فجاهد نفسه مدة وقطع العلائق الدنيوية ومكث سنين لا يضطجع على الأرض ليلاً ولا نهاراً بل اتخذ له حبلاً في سقف خلوته فيجعله في عنقه ليلاً حتى لا يسقط. وكان يطوي الأيام المتوالية ويديم الصوم ويقتصر على الفطر بأوقية من الخبز ويجمع الخرق من الكيمان فيتخذها مرقعة فيستتر بها، وكانت عمامته من شراميط الكيمان وقصاصة الجلود واستمر على ذلك حتى قويت روحانيته فصار يطير من صحن جامع الغمري إلى سطحه وكان يفتح مجلس الذكر عقب العشاء فلا يختمه إلاّ عند الفجر.

ثم أخذ عن مشايخ الطريق، فصحب الخواص والمرصفي والشناوي فتسلك بهم وكان علي الخواص فطامه. ولما مات الخواص جاءه جماعة وقالوا له: اجلس في مكانه، فقال: هو ما عملني شيخاً، قالوا: نحن نعملك شيخاً علينا، قال: أمهلوني الليلة حتى أنظر. فلما أصبح قال لهم: رأيت الليلة أني أخيط النعال العتق وكلما خطت شيئاً تفتق وعاد كما كان ولا خلاص لي في ذلك. ثم تصدّى للتأليف فألّف كتباً كثيرة منها مختصر الفتوحات، ومختصر سنن البيهقي الكبرى، ومختصر تذكرة القرطبي، والميزان، والبحر المورود في المواثيق والعهود، وكشف الغمة عن جميع الأمة، والمنهج المبين في أدلة المجتهدين، والبدر المنير في أحاديث البشير النذير، ومشارق الأنوار القدسية في العهود المحمدية، ولواقح الأنوار، واليواقيت، والجواهر في عقائد الأكابر، والجوهر المصون في علوم كتاب الله المكنون، وطبقات ثلاثة، ومفحم الأكباد في موارد الاجتهاد، ولوائح الخذلان على من لم يعمل بالقرآن، وحد الحسام على من أوجب العمل بالإلهام، والبرق الخاطف لبصر من عمل بالهواتف، ورسالة الأنوار القدسية في آداب العبودية، وكشف الحجاب والران عن أسئلة الجان، وفرائد القلائد في علم العقائد، والجواهر، والدرر، والكبريت الأحمر في علم الشيخ الأكبر، والاقتباس في القياس، وغير ذلك.

وقرظ له على بعضها علماء عصره فغلب الحسد على طائفة من الفقهاء والصوفية فدسوا عليه في بعضها كلمات يخالف ظاهرها الشريعة وعقائد زائغة ومسائل تخالف الإجماع، وأقاموا عليه القيامة وشنعوا وسبوا ورموه بكل عظيمة وبالغوا في الأذى والنميمة فخذلهم الله تعالى وأظهرَه عليهم. وكان مواظباً على السنة مجانباً للبدعة مبالغاً في الورع مؤثراً ذوي الفاقة على نفسه حتى بملبوسه متحملاً للأذى سالكاً طريق السلف موزعاً أوقاته على العبادة ما بين تأليف وتسليك وإفادة. وكان يجتمع عنده بزاويته من العميان وغيرهم نحو مائة فيقوم بهم نفقة وكسوة وكان عظيم الهيبة وافر الجاه والحرمة، يأتي إلى بابه أكابر الأمراء فتارة يجتمعون به وتارة لا، وكان يسمع لزاويته دويّ كدويّ النحل ليلاً ونهاراً ما بين ذاكر وقارىء ومتهجد ومطالع الكتب وغير ذلك. وكان يحيي

ليلة الجمعة بالصلاة على المصطفى ﷺ ويستمر جالساً من العشاء إلى الفجر لا يفتر ولا ينعس ولا يخل بالحضور مع الفقراء ولو مريضاً، ولم يزل قائماً على ذلك معظماً في صدور الصدور مبجلاً في عيون الأعيان بالخير والحبور حتى نقله الله إلى دار كرامته في سنة ثلاث وسبعين وتسعمائة ودفن بجانب زاويته بين السورين وحضر جنازته جمع حافل من العلماء والفقهاء والأمراء والفقراء، ومضى وخلف ذكراً باقياً وثناءً عطراً زاكياً، ومدداً لا ينكره إلاَّ معاند محروم، ولا يجحده إلاَّ مباهت مأثوم. اهـ باختصار كثير.

ومن غريب ما وقع له مع شيخه شيخ الإسلام ناصر الدين اللقاني من الكرامة التي تبهر العقول ما حكاه الفاضل الهمام سيدي أبو صالح المليجي الشافعي الهاشمي في كتابه تذكرة أولي الألباب في مناقب الشعراني سيدي عبد الوهاب، حيث قال: ووقع له مع شيخه شيخ الإسلام الشيخ ناصر الدين اللقاني أن بعض الحسَدة لسيدي عبد الوهاب الشعراني مشى بالنميمة بين الشيخ ناصر الدين وبين سيدي عبد الوهاب افتراءً وعدواناً. وقال للشيخ ناصر الدين إن عبد الوهاب يجمع بين الرجال والنساء والأجانب. فصدَّقه الشيخ ناصر الدين وشنّ الغارة على سيدي عبد الوهاب، فلما بلغ ذلك سيدي عبد الوهاب الشعراني سعى إلى الشيخ ناصر الدين وطلب منه كتاب مدونة سيدنا مالك بن أنس رضي الله عنه على سبيل العارية، فقال له الشيخ ناصر الدين: عسى أن تكون رجعت عما أنت فيه من المعاصي والمخالفات الشنيعة واهتديت إلى التمسك بالشريعة، فقال له سيدي عبد الوهاب: يكون ذلك إن شاء الله تعالى لسمو نظركم. فأمر الشيخ ناصر الدين نقيبه بإخراج المدونة من خزانة كتبه وحملها على حمارته وقال لنقيبه: اذهب مع الشيخ عبد الوهاب إلى داره. فجاء النقيب مع الشيخ وأعطاه المدونة وأراد الرجوع إلى شيخه فقال له سيدي عبد الوهاب: لا ترجع وبت عندنا هذه الليلة في المحيا وفي غد تتوجه إلى شيخك. فأجابه النقيب لذلك وبات عند الشيخ عبد الوهاب، وجلس عنده في المحيا إلى أن مضى ثلث الليل ثم دخل الشيخ الخلوة ومكث فيها نحو خمس عشرة درجة ثم ظهر منها وجاء إلى النقيب وأيقظه من نومه وقال له: انتبه فإن الموكب الإلهي انتصب فادركه قبل الفوات. فانتبه النقيب وتوضأ وقام يتهجد هو وسيدي عبد الوهاب إلى طلوع الفجر، ثم صلى الصبح وجلس يتلو في القرآن جماعة إلى الإسفار، ثم جلس واستفتح بقراءة حزبه إلى ارتفاع الشمس قدر رمح فصلى الضحى ثم أخذ بيد النقيب ودخل به الخلوة وفطره وقال له: اذهب إلى الشيخ بكتاب المدونة واشكر لنا فضله. فحصل عند النقيب غمّ كبير وغيظ وقال في نفسه: ما الفائدة في مجيئها وذهابها في ليلة واحدة، ولم يعلم ما فعل الشيخ فيها ومنها. فلما ذهب النقيب بالمدونة إلى الشيخ ناصر الدين شنّ عليه الغارة وزاد في إنكاره عليه ثم سئل عن مسألة فتوقف فيها فطلب المدونة يراجع المسألة فيها ففتح منها جزءاً فوجد فيه من أوله إلى آخره خط سيدي عبد الوهاب

الشعراني في قيود على النسخة فأحضر الشيخ ناصر الدين الأجزاء كلها فوجد عليها خط سيدي عبد الوهاب كلها إشارة منه إلى أنه طالع جميعها في هذه المدة القصيرة، فقال الشيخ ناصر الدين لنقيبه: كيف فعل عبد الوهاب في هذا الكتاب، فقال له النقيب: والله يا سيدي ما غاب عني من الليلة أكثر من عشرين درجة ولم يعطل شيئاً من أوراده ولا تهجداته. فجاء الشيخ ناصر الدين إلى سيدي عبد الوهاب حافياً حاسِراً رأسه مستغفراً حتى جلس بين يديه وقال له: تبت إلى الله تعالى من الاعتراض على سائر طائفة الصوفية. ثم قال له سيدي عبد الوهاب: قصدي أطلعك على هذا المختصر الذي اختصرته منها في تلك الليلة فإن كان فيه قابل فمن فضل الله وبركة إذن النبي ﷺ وإلا محوته بالماء. فاطّلع عليه الشيخ ناصر الدين اللقاني وقرظ عليه بكتابة مدح بها المختصر رضي الله عنهما. ومن المعلوم أن هذا من باب طيّ الزمن.

وكان رضي الله عنه محبباً في قلوب أهل عصره من أولياء وعلماء وأعيان وملوك وأمراء، فمن ذلك ما ذكره في تذكرة أولي الألباب حيث كان السلطان الغوري رحمه الله تعالى يحبّ الشيخ عبد الوهاب الشعراني رضي الله عنه محبة تامة شديدة ويعتقده اعتقاد جازماً في علمه وصلاحه وولايته، أهدى له سجادة وشاشاً عرضه سبعة أذرع وطوله ثلاثون ذراعاً أرسله له سلطان الهند في قشرة الجوزة فأعطى رضي الله عنه الشاش لأخيه الشيخ عبد القادر وأبقى السجادة عنده ولم يستعملها مدة حياته ولم يردها على السلطان أدباً مع ولاة الأمور.

وقال في التذكرة أيضاً قبل ذلك: وأدرك سيدي عبد الوهاب رضي الله عنه دولة الجراكسة ودولة العثمانية وآخر من اجتمع به من دولة الجراكسة مولانا السلطان قانصُوه الغوري رحمه الله تعالى، وقد كان الغوري رحمه الله تعالى عالماً فاضلاً شاعراً فصيحاً لبيباً نبيهاً أديباً صالحاً محبّاً للعلماء مكرِّماً لهم، وكان يميل إلى التصوف لكنه كان مبتلى بحاشية السوء وجور عماله وأمرائه المماليك حتى كان ذلك سبباً في خراب ملكه وخروجه من أيديهم إلى الدولة العثمانية، فجاء إليه السلطان سليم وجرى بينهما ما جرى واستولى السلطان سليم على مصر. ومن شعره رحمه الله:

جَلا الكاسَ ساقي القوم في حضرة القُدس ... فلاحت نجومُ الأنس في حضرة الشمس
فأسْكَرتِ الأرواحَ من قبل ما بدَتْ ... بها صُوَر الأشباحِ في عالَمِ الحسِّ
وهامَتْ بمَنْ تَهْوى وفازت بوَصْلِهِ ... بغير رقيب العَقْل أو حاسِدِ النَّفْس
ولمّا سرَتْ في سِرِّهم بسُرُورها ... تطَهَّرتِ الأرواحُ مِنْ دَنَسِ الرِّجْسِ
صَفَتْ فصَفَوا حين اصطفاهم حَبيبهم ... لمشْرُوبها قبلَ التَّعيّن بالغرْس
فما هي مِن حبَّاتِ عنقُودِ كَرْمَة ... تُخامِرها بالعصْرِ يوماً يدُ اللّمْسِ

ولا اختُزِنَتْ في دَنِّ دَير ولم تكن ... ولايَةُ رُهْبان عليها ولا قَسِّ
ولكنَّها الرَّاحُ التي هي روحُ مَنْ ... تناهى به بحرُ الفناءِ إلى الطَّمْسِ
ولا هي جسْمٌ من جُزْءِ عُنْصُر ... ولا هي من نوعٍ ولا هي من جِنْسِ
وليستْ تراها العينُ لُطْفاً وإنَّما ... تُذاقُ بلا طَعْم وتَعْلُو عن اللَّمْسِ
ولكنَّها نورٌ لطيفٌ فسرُّها ... تقدَّس عَنْ وَهْم تعلّق بالحَدْسِ
فتشتاقُها الأرواح والنُّور ساطِعٌ ... وفي وصْفِها أهلُ الفصاحَةِ كالخُرْسِ
فطُوبَى لِمَنْ قدْ شامَ لامِعَ بَرْقِها ... فإنَّ سناها قد محا ظُلْمَةَ اللَّبْسِ
ويعبَقُ في الأكوان مِنْ طيبِ نشْرِها ... عَبيرٌ بهِ تحيا الرِّمائمُ في الرَّمْسِ
عسَى يَظْفَرُ الغَوريُّ منها بنَهْلَةٍ ... تكونُ له أحْلَى مِنَ المُلْك والكُرسي
ويكْفِيهِ منها صِدْقُ حُبٍّ لأهلِها ... وشعرٌ له فيها يُدوِّنُ بالنَّفْسِ
ومِنْ حَظِّهِ في وَصْفِها أنّ شعرَهُ ... مُكرَّرَهُ يَحْلُو فيُحْفَظ كالدَّرْسِ
ويَعْذُبُ في الأسماعِ مَوْرِدُ لفظه ... ويجري به رِيقُ المِدادِ على الطِّرْسِ
فهذا له فخرٌ يَمُنُّ به على ... جميع مُلوكِ الغَرْبِ والتُّرْكِ والفُرْسِ
فيا ربِّ زِدْنا منك فَضْلاً ونِعْمَةً ... وكُلَّ غَدٍ نلْقَاهُ خيْراً مِنَ الأمْسِ
وصَلِّ على الهادِي البشير مُسَلِّماً ... وآلٍ وصَحْبٍ حِينَ نُصْبِحُ أو نُمْسي

ومن نظمه رحمه الله تعالى أيضاً: في فضل ليلة نصف شعبان وما يقع فيها من مزيد الغفران:

لِلَّهِ في أيامِنا نفحاتٌ ... من دَهْرِنا تزكو بها الأوقاتُ
فلها ألاَ فتعرَّضُوا وتضرَّعُوا ... فيها تُجابُ لكم بها الدّعواتُ
هَذِي مواسِمُها لنا قد أقْبَلَت ... ودَنا لموْعِدِها لنا ميقاتُ
فبِفَضْلِ شعبان وليلة نصْفه ... يَرْوِي الأحاديث الصِّحاح ثِقاتُ
وبفضلِ ليلة نِصْفه قد بشرت ... في الذِّكر مِنْ تنزيلهِ آياتُ
إذْ قِيلَ يُفرق كلَّ أمْرٍ مُحْكَم ... فيها وفيها تسْقُطُ الوَرَقاتُ
هي ليلةٌ فيها على أهلِ الهدى ... وقلوبهم قد خفّتِ الطاعاتُ
هي ليلةٌ ما زال مجتهداً لها ... مُذْ قامَ دِينَ المصطفى السّاداتُ
هي ليلةٌ هَجَرُوا مضاجعهم بها ... ممَّا تُقامُ بجُنحها الصَّلواتُ

هي ليلةٌ يتوقّعُ الدّاعي بها لِلّهِ أنْ تُقْضَى له حاجاتُ
يا رَبّنا فيها تقبَّل دَعْوَةً لي منكَ فيها تشْمَلُ الخيراتُ
أصْلِحْ لي الأمْر الذي قلّدْتَني وصلاحُه أنْ تسْعَد الحركاتُ
وتَدِرّ أرزاق البَريّة فيه في أمْنٍ وفيها تَنْزِلُ البركاتُ
واجْمَعْ قلوبُ صِحَابنا جَمْعاً به تَصْفو وتَصْلحُ منهم النِّيّاتُ
وجَميعُ مَن في قلْبِهِ غِلٌّ لنا فبِهِ تحِيطُ مِنَ الرّدَى هَلَكاتُ
واحْفَظْ لنا العُلَماء وانصرهُم فهم في الدِّينِ أرْكانٌ له وحُماةُ
وانْظُر لهمْ واشمَلْهُم بعنايَةٍ وسعادَةٍ تَعْلُو بها الدّرجاتُ
لا سيما أرْكانُ دولتِنا ففي وجْهِ الزّمانِ وجُودُهُمْ حسناتُ
ولِعَبْدِكَ الغُوريّ فانظر نظرةً منها تضيء بقلبه مِشكاةُ
وبها يَنالُ مُناهُ مِنكَ جميعَهُ وبها تفيضُ عليه منكَ هِباتُ
وعلى النبيّ وآلِهِ وصحابِهِ أبداً سلامٌ دائِمٌ وصلاةُ
يَغْشاهُ نورٌ ثمّ يَغْشى قبرَهُمْ ما دامَتِ الأفلاكُ والحركاتُ

ولمّا دخل السلطان سليم مصر، وذلك في يوم الخميس افتتاح سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة من الهجرة النبوية، وكان عمره إذ ذاك عشرين سنة، كان عمر العارف الشعراني أربعة وعشرين سنة، فلما رآه السلطان سليم أحبه حباً شديداً واعتقده اعتقاداً زائداً وقبل منه جميع شفاعاته وأهدى له شيئاً كثيراً.

ولمّا توجه إلى القسطنطينية أرسل له هدية عظيمة منها سجادة خضراء ومع الهدية كتاب يتضمن الثناء عليه رضي الله عنه بما هو قطرة من بحر فضائله، وذلك في رجب سنة خمس وعشرين وتسعمائة وصدر ذلك الكتاب شيخ الإسلام والمسلمين قطب دائرة فلك المتقين، قدوة الأولياء والعارفين، فريدة الأتقياء والواصلين، وارث علوم الأنبياء والمرسلين، المنتظم بسلسلة علماء أمّتي كأنبياء بني إسرائيل، مرشد الخلائق إلى سواء السبيل، المختص بشرائف عواطف الملك التواب، حضرة مولانا الشيخ عبد الوهاب، لا زال ظله الوريف ممدوداً على مفارق المحبين.

وفي شرح العلامة المحقق الإمام الغنيمي على الرسالة النحوية للعارف الشعراني رضي الله عنه في وصفه ما يزيد المحبين شغفاً بالتعلق بأعتاب هذا الإمام القطب الكبير والتوسل به عند الزيارة لنيل المراد من رب العباد، ونصه: سلطان العارفين، مربي

المريدين، مولانا وسيدنا وقدوتنا إلى الله تعالى العالم الرباني والعارف الصمداني، الشيخ عبد الوهاب ابن الشيخ السالك طرق الصواب، أحمد ابن العارف بالله تعالى خلاصة العلماء الزاهدين على الشعراني عمدة السالكين، المتفرد ذلك الفرع المترعرع السابق بجمع الحقائق والمعارف الربانية والعلوم الشرعية من وسّع الله تعالى له في الزمن وأفاض عليه من كمال الأسرار والمعارف تلك المنن التي لم يبلغها أحد من أهل عصره على الإطلاق، وذلك أمر مجمع عليه بالاتفاق، كيف وقد أطلعه الله سبحانه بطريق الكشف الإلهي على أمور الدنيا والآخرة، فتحدّث بها بألفاظ عذبة فائقة رائقة فاخرة، وذلك ببارق الفيض عليه والإلهام، وما كفاه ذلك حتى رسمها بأنامل يده البيضاء من غير سوء بالأقلام، ولم يعهد ذلك على هذا الوجه لأحد قبله ولا بعده فقد أكثر من تلك التصانيف العديدة الجليلة الغريبة الفريدة. والظاهر، بل اليقين، أن ذلك بعض ما كان عنده، وذلك مع المحافظة على عدم الخروج عن ظاهر الشريعة المحمدية من غير أن يقع له شيء من الشطحات كما وقع من بعض العارفين أولي الكرامات، رماهم أهل الظاهر بأنهم من الطائفة الباطنية، بل أقدم بعضهم في تصانيفه وحكم بكفرهم بالكلية.

وعلى الجملة، فماذا يقول مثلي في وصف ذلك العارف الفاخر فإنه شيء نفيس تكلّ الألسن عن حصره ولا تفي به بطون الدفاتر اهـ.

واعلم أن مشايخ العارف الشعراني كثيرون جداً، نحو المائتين، كما ذكر، إلا أن فطامه كان على يد ثلاث: سيدي علي الخواص المتصرف في مصر وقراها كما ذكره في الأخلاق المتبولية، وسيدي العارف بالله تعالى مربي المريدين الشيخ علي المرصفي، وسيدي العارف بالله تعالى الشيخ محمد الشناوي الأحمدي.

قال رضي الله عنه في الأخلاق المتبولية: ومن مشايخي سيدي وشيخي العابد الزاهد المقبل على عبادة ربه ليلاً ونهاراً، منشىء جميع مجالس الصلاة على رسول الله ﷺ في مصر وقراها واليمن والقدس والشام ومكة والمدينة، ومكث في مجلس الصلاة على رسول الله ﷺ في الجامع الأزهر وفي بلد سيدي أحمد البدوي رضي الله عنه مدة ثمانين سنة كما أخبرني عن ذلك في مرض موته، وقال: عمري الآن مائة سنة وإحدى عشر سنة. وكان من أصحاب الخطوة وكان يرونه كلّ سنة في عرفات ولو لم يكن له من المناقب إلاّ ذكره في حضرة رسول الله ﷺ صباحاً ومساء لكان في ذلك كفاية في علو شأنه، فإني لما حججت سنة ثلاث وستين وتسعمائة حضرت مجلس نائبه وتلميذه الشيخ عبد الله اليمني في الروضة الشريفة كلّما فرغ من مجلس الصلاة على رسول الله ﷺ وذكر الله بعده يقول بأعلى صوته: الفاتحة للشيخ نور الدين الشوني. فيقرؤها الحاضرون ورسول الله ﷺ يسمع، وهذه منقبة ما سمعنا بمثلها من أحد من

الأولياء إلى عصرنا هذا ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ [المائدة: الآية ٥٤] اهـ.

وهو المدفون بزاوية العارف الشعراني على يمين الداخل من باب المسجد قاصداً جهة الميضة، وهو الذي دل العارف الشعراني على حفر البئر العذب التي كان يشرب منها الفقراء والمجاورون وجميع أتباع سيدي عبد الوهاب في ذلك الوقت بعد أن حفروا ثلاثة آبار فلا تفلح ولا يحصل منها شيء وذلك بأمر رسول الله ﷺ للعارف الشوني بحفرها في موضعها ذلك، وقد نص العارف الشعراني على أن العارف الشوني ممن كان يجتمع بالنبي ﷺ يقظة كالخواص والمتبولي والسيوطي.

وكان السبب في تعلقي بحبّ سيدي عبد الوهاب وكثرة زيارتي له وتوسلي به في جميع مهماتي وملماتي وإقبالي على الاشتغال بتأليفاته ما اتفق لي بعد مجاورتي بنحو ثمان سنوات، وذلك عام أربع وأربعين بعد المائتين والألف، أني كنت جالساً في مقام قطب الأقطاب سيدي أحمد البدوي في أيام مولده، فألقى الله على قلبي غاية الحزن والتأسف على تقصيري في حق مولاي وأن اشتغالي بالعلم الظاهر حجة عليّ دون مطالعتي لكتب القوم والجري على سننهم على قدر طاقتي. وصرت باكياً حزيناً ثلاثة أيام مفرداً عن العالم في قبلة القبة. ثم توجهت إلى مصر عازماً على تحصيلي لبعض كتب القوم فحصلت ما تيسر لي في ذلك الوقت، فحضر عندي في أوضتي على بغتة الأخ الصادق والوالد الشفوق النصوح الشيخ عبد الفتاح التيجي الفرغلي وبسط فروته وجلس عليها وقال: هكذا يا ولدي أمرني سيدي أحمد البدوي أن أقيم معك ونشتغل بكتب القوم. وترك أوضته وسكن معي وأقبلنا على مطالعة كتب القوم لا سيما كتب القطب الشعراني ومكثنا على ذلك ثلاث سنوات، فحصل لي من ذلك الوقت هيام بحب العارف الشعراني وأكثرت التردد على أعتابه رضي الله عنه.

ولما توجهت بعد ذلك إلى زيارة سيدي أحمد البدوي ذهبت بعد رجوعي من المولد الأحمدي إلى بلد سيدي عبد الوهاب، وهي ساقية أبي شعرة، بقصد زيارة والده رضي الله عنه وأجداده العارفين متوسلاً بهم إليه. فبعد انتهاء الزيارة أضافني بعض الإخوان، ففي تلك الليلة بعد استغراقي في المنام رأيت نفسي في فلاة وإذا بجوهرَة تتلألأ نوراً متسعاً وتخاطبني بقولها: أنا روح الشعراني افتح فمك حتى أمتزج بلحمك ودمك. فحصل ذلك بمنّة الله وفضله وقمت من المنام فرحاً مسروراً فزاد هيامي به وأقبلت على كتبه مطالعةً وطبعاً لنشرها وكثرة النفع بها، فللّه الحمد والمنّة على هذا كله، وأسأل الله العظيم أن يمنَّ علينا بدوام الانتفاع بمحبته دنيا وأخرى.

بسم الله الرّحمٰن الرّحيم

الحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات، والصلاة والسلام على إنسان عين المخلوقات وعلى آله وصحبه الذين حازوا قصبات السبق في مضمار القربات، وبعد:

فأقول وأنا الفقير الحقير المنكسر خاطره من قلة العمل والقصور واليقين: إن حسن العدوي المالكي الحمزاوي غفر الله له ولوالديه ولمشايخه ومحبيه جميع المساوي، لما كان من أعظم المنن الربانية والمواهب الصمدانية، اكتساب ما يقرب لمحبة خير البرية عليه أفضل الصلاة وأزكى التحية، وفّق الرحمٰن وتكرّم وتمم ما به أنعم وألهمني البر الرحيم من فيض إحسانه العميم أن أتشرف بخدمة تكون في الروضة الشريفة تتلى بين يديه لعلي أن أفوز بوصلة منه لديه، فرتبت اثني عشر من أفاضل أهل العلم والصلاح لقراءة دلائل الخيرات كل ليلة اثنين وجمعة ليكون ذلك مني ومنهم تقرُّباً لحضرته البهية، ونفوز جميعاً بالفلاح. وجعلت لكل شخص منهم في السنة اثني عشر ريالاً من الريالات المصرية، وجعلت النظر في ذلك لحضرة ولدنا الفاضل والهمام الكامل الشيخ الصالح الألمعي الناجح الشيخ محمد عبد الحفيظ، أحد الأئمة المالكية بالحرم النبوي ورتبهم بمعرفته واستشارة العارف بالله تعالى الولي الصالح العالم العامل والمحبوب لحضرة الإنسان الكامل شيخ المشايخ في وقته بالحرم المدني المرحوم الشيخ محمد عزب.

وكنت في سنة إحدى وثمانين، حين تشرّفت بزيارتي لهاتيك الروضة الشريفة، تعاهدت معه وكل منا قابض على يد صاحبه بين يديه ﷺ أن الناجي منا يأخذ بيد أخيه. وبعد تلك المدة بيسير قد وفّق الرحمٰن ببركة دعائه لهذا الترتيب مع التيسير، وفي هذا العام قد تشرّفنا بحضور خطاب مشمول بختم الإخوان الاثني عشر المرتبين لتلك الوظيفة المنيفة باستعجال ما كان تأخر من المرتب وطلبوا وقفية معينة على إدامة هذه المنقبة الشريفة لا سيما أن من ضمن الاثني عشر ختم حضرة الأستاذ الأوحد والعلامة الأمجد ذي التآليف المفيدة والفضائل الحميدة السيد محمد خضير الدمياطي، فبادرنا بإرسال المطلوب، وعلمنا أن هذا علامة القبول من الحبيب المحبوب، وتصادف قبل ذلك حضور خطاب لنا من حضرة الهمام الفاضل واللوذعي الكامل السيد أمين الحلواني، أحد أعيان المدينة المشرّفة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام يذكر فيه بشرى منامية، وهي أني أُلبِسْتُ في المسْجِدِ النَّبويّ إزاراً ورِدَاءً. وهذه صورته:

من المدينة المنورة إلى مصر المحروسة في ٢٩ القعدة سنة ١٢٩٦، نهدي من السلام أتمه، ومن الثناء أعمّه، ومن التحية أكملها، ومن الأدعية أشملها، إلى حضرة

ذي المكارم التي لا تحصى والهمم التي لا تستقصى العالم العلامة، البحر الفهامة، سيدنا الشيخ حسن العدوي دام مجده، وبعد: فالباعث لتحريره هو أنه ورد إلينا جواب من الشيخ أحمد الحلبي يتضمن حوالة عشرين جنيه إنكليزي من طرف سعادتكم يسلمها إلى الشيخ محمد عبد الحفيظ إمام المالكية. وقد أسلمته العشرين جنيه المذكورة يوم ٢٤ القعدة سنة ٩٦ وأخذت منه الوصل اللازم ولهذا لزم إعلامكم بذلك، ثم إننا ننهي لسيادتكم أنه من الاتفاقيات أني رأيتك في المنام ذات ليلة وأنت في المسجد النبوي وكأنهم ألبسوك رداءً وإزاراً، فانتبهت من النوم وأنا مستبشر بهذه الرؤيا فلم ألبث أياماً إلاّ وهذه الحوالة وردت من طرفكم، فعلمت أن هذا الإلباس ما هو إلاّ رتبة من عند النبي ﷺ وأنك من المقبولين لديه، ويحتمل أن هذه الرتبة إما دنيوية أو أخروية كمشيخة المالكية في الجامع الأزهر مثلاً. وأما إن سألت عما في نيتي وضميري فأنا ما أترجى أو أسأل الله إلاّ أن تكون رتبة دنيوية لأنه لا بد وأن يصيبنا من صيبها شؤبوب، وأما إن كانت رتبة أخروية فنفعها خاص بكم. وعلى كل حال نسأل الله أن يحقق لنا فيكم ما نأمله، ولهذا ألزم تبشيركم بذلك وإن شاء الله تكون هذه أول مكاتبة بيننا وباقية على الدوام لننوب عنكم في تبليغ السلام على سيد الأنام في الإصباح والإمساء مدى الدهور والأعوام.

ثم تصادف في شهره وأنا داخل مقام وليّ نعمتي الإمام الحسين، أن حضرة العمدة الفاضل، أحد أعيان العلماء الأفاضل الشيخ عبد الله الإسكندراني قال لي على بغتة: قد سررت تلك الليلة من أجلك سروراً تاماً وهو أني رأيت أنك قد استلمت مفتاح الروضة الشريفة وأنت الذي تدخل الأمانة على سيد الأنام عليه الصلاة والسلام ومعك مساعد تابع لك. وفهمت أن لك غاية القرب من حضرته ﷺ.

فتطابقت الرؤيا الثانية مع الأولى. وبعد الزيارة رجعت إلى منزلي الذي أنشأته منذ عامين بقرب وليّ نعمتي الإمام الحسين، فتصادف أن دخل عليّ رجل من أهل الله المجذوبين المعروفين بالكرامة، فجلس معي لحيظة وقال: هذا المنزل بيت النبي والإمام الحسين. فأوقع الله في قلبي صدق الرؤيا الأولى والثانية ووقفت هذا المنزل محل سكني الآن على تلك الوظيفة المنيفة الكائنة في الروضة الشريفة وجعلت النظر في ذلك لنفسي مدة حياتي ثم من بعدي أجعله لسبطي الشيخ قاسم عبد الله والناظر الحسيني عليه شيخ القبة الحسينية.

أسأل الله بجاه خير البرية إدامة هذا التوفيق في البكرة والعشية، وأن يجعل ذلك خالصاً لوجهه الكريم ونفوز بالنظر إليه وحبيبه الأعظم في جنات النعيم.

ونص الجواب المشمول بختم الاثني عشر مكارم مولانا العلامة الشيخ حسن العدوي:

الجناب المحتشم عمدة المحققين، وخلاصة أهل العلم واليقين، حضرة الفاضل الجليل الشهير أدام الله تعالى جلاله. بعد السلام والتحية والدعاء لمكارمكم تجاه الحضرة الشريفة النبوية الباعث لتحريره سؤالنا عن شريف خاطركم العاطر ورفاهية مزاجكم الفاخر، ثم إنه منَّ الله تعالى على حضرتكم بترتيب مقدميه وتوظيفهم لقراءة دلائل الخيرات تجاه قبر حضرة سيد الكائنات بعد عصر كل جمعة واثنين بنظر محب الطرفين أحد الأئمة المالكية بمسجد حضرة خير البرية الشيخ عبد الحفيظ، وهي جارية على وفق المراد، وقد تراكم لنا استحقاق سنتين ولم يصلنا منه شيء، ومع وقوف الطرق وغلو الأسعار صار لبعض الموظفين أشدّ الفاقة وطلبوا ولو البعض من الناظر لدفع المضايقة الحاصلة لهم، فاعتذر بقوله: ما وصلني شيء، ولما نعرفه من حرص عنايتكم على بقاء الخيرات المذكورة بادرنا بهذه العريضة نسترحم المساعفة باستحقاق السنتين المذكورتين وضم شيء لسقاء ألذ وأرق، الماء اللازمة للشرب وقت القراءة والتفضل بربط ما ذكر كله إما في الرزنامة أو في جهة من خيراتكم وتكرمونا بتحرير إعلام شرعي ببيان الجهة وترسلوه إلى الناظر ليبقى تحت يده، فإنا نرجو من الله القبول وأن يثقل بذلك ميزان حسناتكم وأدام الله تعالى إجلالكم. أفندم في ١٣ شوال سنة ١٢٩٦، ثم وضع أسماء الاثني عشر وأختامهم.

القطب الرباني العارف بالله تعالى
ولي نعمتي سيدي أحمد الدردير رضي الله عنه

قال العارف بالله شيخي فقهاً وطريقة سيدي محمد السباعي في حاشيته على الخريدة: فهو الإمام العالم العلم الفرد الجامع بين المعقول والمنقول، والموضح بتحقيقاته لمباحث الفروع والأصول، مربي المريدين وناشر ألوية الإفادة على المستفيدين، ومجمل القول فيه أنه عين أرباب الفضائل وتاج مصادر العرفان وصدر الأفاضل واسطة عقد أهل قربه أستاذي بل وأستاذ كل أستاذ من منه استمدادي في جميع مسالكي شهاب الملّة والدين المكنى بأبي البركات أحمد بن محمد بن أحمد الدردير المالكي العدوي نسبة إلى بني عدي قرية عظيمة من قرى الصعيد تجاه منفلوط أصلها من بني عدّي، قبيلة من قريش.

ولد بها سنة سبعة وعشرين بعد المائة والألف، وتوفي رحمه الله تعالى سنة واحد بعد المائتين ليلة الجمعة لثمان خلت من ربيع الأول، ودفن بمسجده الكائن بالكعكيين

بجوار سيدي يحيى بن عقب، وعليه من المهابة والجلال ما لا يحصى، وقد تربى تربية حسنة لأنه اجتمع برجل من أهل الله تعالى في صغره واجتهد في إرشاده بقلبه وقالبه حتى صار يأتي بما ينعش الفؤاد بلفظ كامل السداد.

ولما أكمل قراءة القرآن شرع في طلب العلم حتى حقق الفتوى واقتبس من أنوارها وتضلّع من أنهارها فرائد الفنون. ولما تهذّب في العلوم وتحقق بالمنطوق منها والمفهوم، وكان ذلك عن أئمة أعلام منهم إمام المالكية في عصره النور المتقن الفاضل المتفنن في صنوف المعارف والفضائل علي بن أحمد الصعيدي العدوي، والشيخ الكبير العمدة الشهير سالم الطحلاوي، والأول عن سيدي محمد الصغير عن سيدي عبد الباقي الزرقاني عن سيدي علي الأجهوري، والثاني عن الشهاب أحمد النفراوي صاحب التآليف العديدة وأخذ الطريقة الخلوتية عن قطب الوقت شيخ مشايخنا شمس الدين محمد بن سالم الحفناوي الشافعي رحمه الله تعالى ونفع به وعنه. تلقى الميراث الأكبر المحمدي الأحمدي القاسمي الأبهري، ولكن كان يستر ذلك بحاله ويخفيه عن غير آله، وهو الحامل للواء الخلوتية في عصره وإمامهم المقدم على جميع أهل مصره. وما زال العارفون يعظمونه ويعترفون له بالفضيلة ويوقرونه، لا سيما شيخه المذكور ضاعف الله له الأجور.

وكان يقول: إن مجيئي للأزهر إنما هو لمشاهدة أنوار الإمام الدردير. وقد رأى بعض الصالحين رسول الله ﷺ فبشره أن الإمام الدردير أعطي ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، كيف لا وقد جمع علم الشريعة ظاهرها وباطنها.

أما الباطن فعن الشمس الحفناوي، وأما الظاهر فأخذ منه الحديث والتفسير وغيرهما عن شيخه المذكور وعن الشيخ الصعيدي المتقدم وعن الشهاب أحمد بن عبد الفتاح الملوي وعن الشمس محمد بن محمد الدفري وكل منهما أجازه إجازة عامة وأخذ أيضاً عن آخرين وأجازوه.

أما الأول: فعن الشمس محمد بن الميت من مشايخه الذين أثبتهم في ثبته، منهم النور الشبراملسي والبرهان الكوراني وغيرهم.

وأما الثاني: فعن الشمس محمد بن محمد عقيلة عن أئمته المذكورين في إسناده منهم: الشيخ الكبير محدّث الحجاز الشهير عبد الله بن سالم البصري عن أئمة منهم الشمس البابلي عن النور الزيادي عن الشهاب الرملي عن شيخ الإسلام زكريا الأنصاري وأبي الفضل جلال الدين السيوطي وغيرهم.

وأما الثالث والرابع: فعن أئمة منهم مسند الحجاز عبد الله البصري المذكور،

ولأستاذنا المتقدم التصانيف المفيدة والتآليف النافعة العديدة، منها المقصد الأسنى نظم الأسماء الحسنى، ومنها صلواته الجليلة التي على حروف المعجم، ومنها أقرب المسالك في فقه الإمام مالك، ومنها الشرح الكبير على متن سيدي خليل، ومنها شرح آداب البحث، ورسالة في المجاز وشرحها، ورسالة في متشابهات القرآن، ومقدمة في قراءة حفص، وحاشية على الهدهدي، وحاشية على قصة المعراج، وشرح ورد الخلوتي، ورسالة في آداب الطريق تسمى تحفة الأحباب، وسمعنا من شيخنا رحمه الله أن له كتاباً في التصوف يسمى منهج الصادقين يحاكي به الإحياء للغزالي، ولم أره، والمولد الشريف نحو الكراسة ومتن نثر فيه التوحيد صغير شرحه شيخنا العقباوي، ورسالة في علم الفلك، وهذه المنظومة وشرحها، وغير ذلك.

وانتفعت به خلائق في الباطن والظاهر، لا سيما في حجه، فإنه ظهر منه أشياء أذعنت لها أهل الظاهر والباطن اهـ من شرح الصلوات للشيخ العمدة الفاضل عن عبد البر الوناني الشافعي فإنه شرح صلوات المصنف بنحو عشرين كراسة مع بعض زيادة نفعنا الله بالجميع.

وكان والد المصر رضي الله عنه عالماً صالحاً من أهل الله العارفين أيضاً. ويكفيه بروز هذا الإمام من صلبه. وكان من تلامذة سيدي أحمد النفراوي شارح الرسالة والشيخ عبد العزيز القاوي وكان شاغل الزمن دائماً بقراءة العلم والقرآن، وكان من جملة من قرأ عليه القرآن كله شيخ مشايخنا الإمام العدوي، وقرأ عليه أيضاً ولده إلى سورة (الفتح). فمات رحمه الله ورحمنا به.

وبالجملة، ففضل هذا العلم الشهير والعارف الكبير مشهور في جميع الأقطار الإسلامية، وقد جربت أعتابه لمن قصدها بالإغاثة متوسلاً به إلى ربّ البرية.

وسبب تخصيصي لذكره هنا أني قد أخذت الطريقة الخلوتية في حال صغري، وسني نحو عشر سنين، عن القطب الرباني والعارف الصمداني شيخي وأستاذي وولي نعمتي السيد إبراهيم الشلقامي العمراني، وهو الذي كان سبباً في مجاورتي بالأزهر، وقد أخذ عن الولي الكبير والعالم العامل الشهير العارف بالله تعالى الشيخ عبد العليم الفيومي، وهو قد أخذ عن القطب الدردير.

ثم بعد انتقال شيخنا السيد إبراهيم المذكور بثلاث سنوات توجهت إلى الأزهر في أواخر سنة ست وثلاثين ومعي والدي وسلمني لشيخ أهل التحقيق الذي لم يكن له في عصره شقيق، السيد مصطفى الأهواوي، فأمرني بالاشتغال حالاً بحفظ متن الشيخ خليل، وكان كذلك، واشتغلت به اشتغالاً جيداً وحضرت في سنتي باقي ابن تركي على الولي المجذوب الصاحي سيدي وأستاذي الشيخ محمد السباعي، وكان يبشرني بالفتح

وتكرر منه مراراً في أيام متعددة قوله لي: والله أو وعزّة ربّي لا أدري أيهما نطق به إنك لمحبوب الدردير وذلك بحضرة جمع، فتعلّقت آمالي بمحبة هتيك الأعتاب وأكثرت زيارته والتوسل به إلى ربّ الأرباب.

وقد جددت الطريق الخلوتية عن أستاذي الشيخ السباعي المذكور، وهو قد أخذها عن والده وأستاذه الولي الشهير الشيخ صالح السباعي، وهو عن القطب الدردير. ثم بعد انتقاله جددت العهد عن شيخي وأستاذي سيد أهل عصره الإمام الأوحد العارف بالله تعالى الشيخ محمد فتح الله، وهو عن العارف الكبير والولي الشهير الشيخ أحمد الصاوي، وهو عن القطب الدردير.

فهذه أسانيدي في سلسلة الطريقة الخلوتية، وإن كنت كاسد البضاعة في اشتغالي بالأوراد إلاّ أن الحب كافيني في الانتساب.

ومن غريب ما اتفق لي ممّا يؤيد التبشير السابق أنه قد حصل معي أمر يتعلق بالحكومة المصرية وخافت عليّ الأحبة والإخوان. فبعد توسلي بهذا القطب الشهير، وهو سيدي أحمد الدردير، رأيت أني في قصر منفرد مغلق الأبواب ممتلىء من الحيات الكبار والأفاعي وصغار الثعابين، فتجاسرت على قتل الصغار ثم تفكّرت في نفسي فوجدت أني لا أستطيع الصبر في ذلك المكان لحيظة خوفاً من الكبار، ولم أجد مساغاً إلى الخروج لغلق الأبواب جميعها فإذا بشباك مفتوح في أعلى القصر فنظرت فرأيت قصراً آخر مقابلاً للقصر الذي أنا فيه يسمّى قصر الأمان، فتحيّرت في الوصول إليه لبعد المسافة التي بينه وبين الذي أنا فيه، وإذا بجوهرة يتلألأ نورها في جو السماء إلى الأرض، فخاطبتني بقولها: أنا روح الدردير افتح فمك حتى أدخل جوفك أو حتى أمتزج بلحمك ودمك. ففتحت فمي فدخلت فيه فوجدت قوة عظيمة جداً وقلت في نفسي: سر كيف شئت حينئذ ووضعت إحدى رجليّ في الهواء والأخرى في قصر الأمان قائلاً: بسم الله الذي لا يضرّ مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم، واستقريت في قصر الأمان وانتبهت فانصرف عني ما أجد وحصل لي النصر التام.

وإنما ذكرت ذلك تحدثاً بنعم الرحمٰن وترغيباً للإخوان في التوسّل في مهماتهم بهذا الإمام رضي الله تعالى عنه وأرضاه وأمدنا بمدده ونظمنا في سلك أهل مودته بجاه سيدنا محمد وآله وصحبه وذريته، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وذريته كلما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون.

العارف بالله تعالى سيدي أحمد الشنواني المدفون بمسجدنا بين الأزهر ومسجد وليّ نعمتي الإمام الحسين

وهو من أكابر الواصلين والأئمة العارفين، وبعد أن اشتغل الاشتغال الكلي في

الأزهر بالعلوم الشرعية اختطفته أيدي الجذبات الربّانية حتى صار من أهل الشهود والمقامات السنية، واشتهر على ألسنة أشياخنا الأفاضل أنه الواسطة لوليّ نعمتنا الإمام الحسين.

ومن غريب ما اشتهر عن بعض أشياخنا أن بعض الأكابر كان يقرأ الفاتحة كلما مرّ على مقامه، فمرّ يوماً فنسي قراءتها ومشى قليلاً فلم يجد عمامته على رأسه، فرجع مسرعاً وقرأ الفاتحة فوجد العمامة داخل القبة على الضريح. ومحله مشهور بالبركات الرحمانية والإمدادات الربّانية. ومعه بجانبه على ما اشتهر قبر الإمام القضاعي والخضيب القزويني وعلى قبره من النور والجلال ما لا ينكر.

قال: وكان صاحب مكاشفات باهرة وكرامات ظاهرة.

قال العلامة الإمام الكبير الجامع بين الحقيقة والشريعة، المناوي. في طبقاته الكبرى ما نصه: الشيخ أحمد الشنواني المجذوب المستغرق غالباً، كان أولاً من المجاورين بالجامع الأزهر، حفظ فيه القرآن واشتغل فيه بالعلوم الشرعية، ثم حصل له جذب قوي فتجرّد عن ذلك كله وصار هائماً مستغرقاً وقعد على مصطبة تجاه الدرب الذي يتوصل منه إلى سر الجوهرية المجاور للجامع الأزهر لا يبرح منه ليلاً ولا نهاراً ولا صيفاً ولا شتاء، وكان يقرأ القرآن في بعض الأحيان ولا يتكلم كلاماً منتظماً إلاّ قليلاً مع من يختار. وكانت الأكابر تأتي إليه وتلتمس بركته ولا يفرق بينهم وبين غيرهم بل يستمر الواحد منهم واقفاً على قدمَيْه فلا يكلمه كلمة واحدة.

وأخبرني شيخنا شيخ الإسلام الرملي أنه قصد زيارته مرة فتوجه وركب إليه فبمجرد وقوع بصره عليه نام وتغطى فما كأنه إلاّ ميت، فرجع ولم يخاطبه. قال: ووقع له مع الشيخ البكري نحو ذلك مراراً كثيرة وكان له مكاشفات كفلق الصبح لا تتخلف قط ولم يزل على ذلك حاله حتى مات قريباً من رأس الألف، ودفن بزاويته في الخط المذكور. وحصل لي منه في حياته واقعة كانت سبباً لحصول خير كثير.

وكان ما كان مما لست أذكره فظن خيراً ولا تسأل عن الخبر اهـ

ومما منَّ الله عليَّ أني قد كنت متفكّراً في شراء مكان أبنيه مسجداً لله تعالى وأجعل لي فيه قبراً، فاختار لي بعض الصالحين هذا المكان بسبب رؤيا عجيبة الشأن، وهي أنه رأى في ذلك المكان أشجاراً كثيرة الثمار وأغصانها متدلية وأصولها في السماء، فأخبرني بها، فأردت التثبت باستخارة أخرى، فأخبرت بذلك بعض الصالحين الملازمين للأعتاب الحسينية فقال: وعزّة ربّي إني رأيت الحسن والحسين وقد أذنا لك ببناء المسجد في ذلك المكان وبناء تربة لك فيه. فعزمت وجزمت بذلك بعد حصول السرور

ني بذلك وبما رأيته بنفسي مما يقوّي هذا فاشتريت ذلك المكان وكان منسوباً لزينب بنت السلطان قلاوون كما في الحجج، فلما أردنا الشروع وحفر الأساس وكان وقتئذ الطريق الموحود الآن مرسوماً جديداً، وبمقتضى رأي المهندسين يكون قبر الإمام الشنواني ومن معه في وسط الطريق، فتجاسرت وأمرت المهندس والفعلة، وكانوا كثيرين جداً، فحفروا الأساس خارجاً عن رسم المهندسين إلى وسط الطريق من غير استئذان الحكومة في ذلك. ولا يمكن أحداً أن يتجاسر على مثل هذا الأمر من أهل البلد جميعاً لا كبيراً ولا صغيراً. ولما تمّ الحفر حضر عند وضع الأساس محافظ مصر وشيخ الأزهر وجمع من الأعيان والباشا المعْمار ولم يلتفتوا إلى ما صنعنا، ووضعت الأساس بنفسي بحضرتهم وذلك يوم الاثنين ثاني عشر ربيع الأول سنة ألف ومائتين وإحدى وتسعين تبركاً بيوم عيد المؤمنين بولادة سيد المرسلين ﷺ. فلما ارتفع الأساس عن الأرض قدر ذراع أرادت الحكومة بعد أن بلغها ذلك هدم البناء ونقض الأساس، فتفضل الرحمٰن ببركة هذا الإمام بأمر الوالي حين بلغه ذلك بإبقاء ما كان على ما كان وأعاننا الله تعالى حتى تمّ على أحسن حال في عام واحد.

ولما تمّ بحمد الله تعالى التمست من الجناب الخديوي صدور الإذن بدفني في المسجد عند حلول الأجل وعدم المعارضة لنا في ذلك، فصدر أمره بذلك، فإن تمّت القسمة الإلٰهية بهذا فللّه مزيد الحمد والمنة على جوار هذا الإمام ولا سيما الأعتاب الحسينية طبقاً للمقصد الأصلي. وكان مقدار ذلك البيت الذي اشتريته ألفين وأربعمائة ذراع، فكان المسجد وما يتعلق به من ميضأة وبيوت أخلية وغير ذلك على نصف ذلك المقدار والنصف الآخر كنا عازمين على بنائه بيتاً لسكنانا حيث كنا بدون بيت.

فمن غريب ما اتفق أننا حين شرعنا في حفر بئر تكون للبيت وللمسجد ساعدت المقادير الإلٰهية فوجدنا ساقية عظيمة بوجهين من عهد السلطان قلاوون فحمدنا الله تعالى وعزمنا أن نبني بدل المنزل حماماً يُسْتَغَل للمسجد، فأعاننا الله على ذلك وجاء بحمد الله في غاية الاتقان. ثم منّ الله تعالى بعد ذلك بشراء منزل آخر خلف الحمام فبنيناه منزلاً بجوار سيدنا ووليّ نعمتنا الإمام الحسين. فالحمد لله على ذلك.

وقد نبّهنا قريباً على أننا وقّفنا هذا المنزل على قراءة الدلائل المرتبة في الروضة الشريفة على طرقنا يوم الاثنين وليلة الجمعة، وقد أوقفنا هذا الحمام على المسجد فيصرف ريعه فيما يتعلق بالمسجد، فللّه الحمد والمنّة على هذا كله ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [يونس: الآية ٥٨].

أسأل الله الكريم متوسّلاً إليه بوجاهة وجه نبيّه العظيم، أن يمنّ علينا بذرة من إقباله

وبسطة من إفضاله وأن يجعل ذلك العمل خالصاً لوجهه الكريم وسبباً للفوز لديه بجنّات النعيم، ونحظى بنضارة الوجه بالنظر إلى وجهه الكريم مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وأصحابه وأزواجه وذريته وأهل بيته كلما ذكرك الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون.

هذا ما انتهينا إليه من آخر الجزء الثاني ويليه:

الجزء الثالث، وهو شرح البردة مبتدأ بترجمة صاحبها رضي الله عنه وأمدنا بمدده آمين

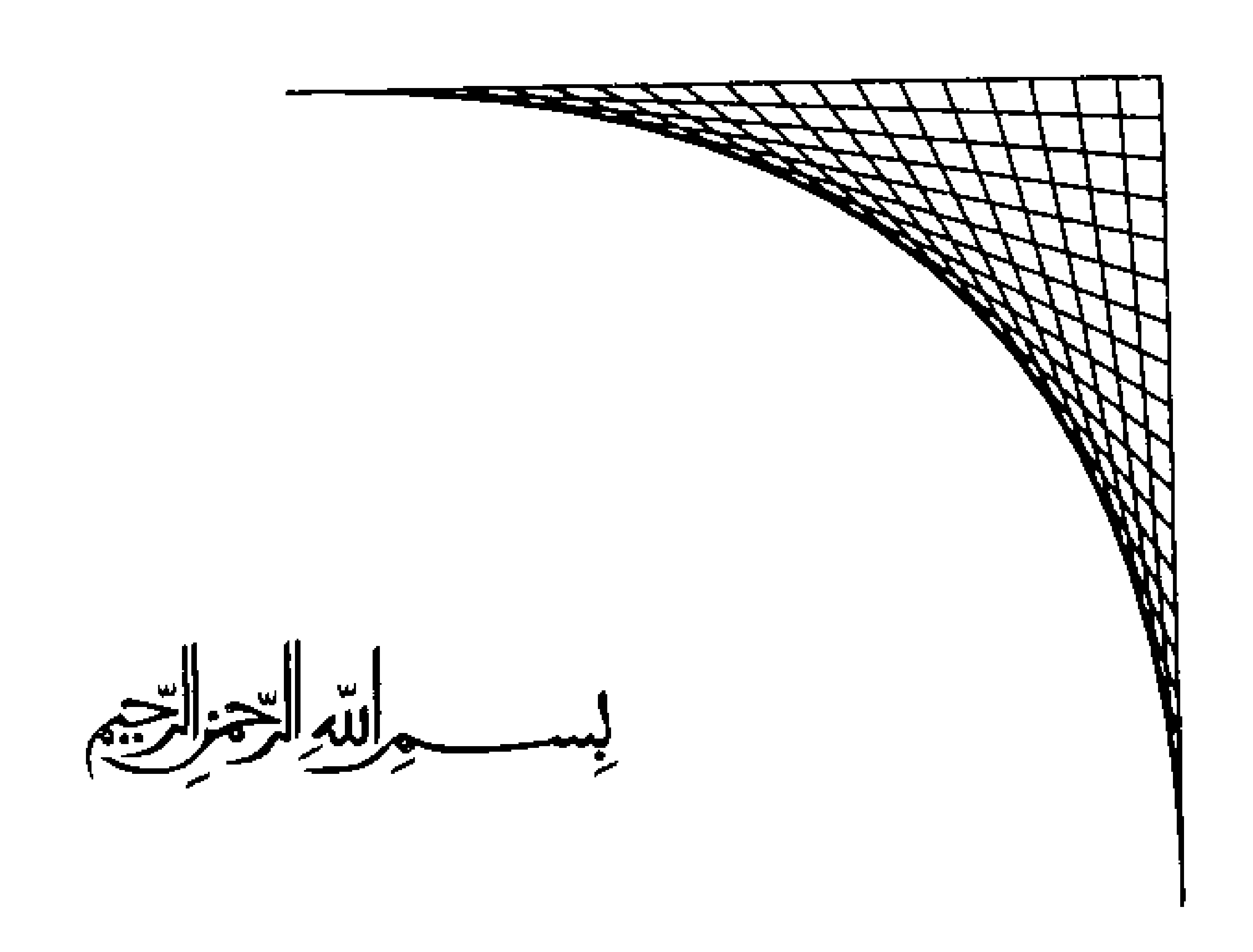


نظمها

شرف الدين أبو عبد الله محمد بن سعيد البوصيري

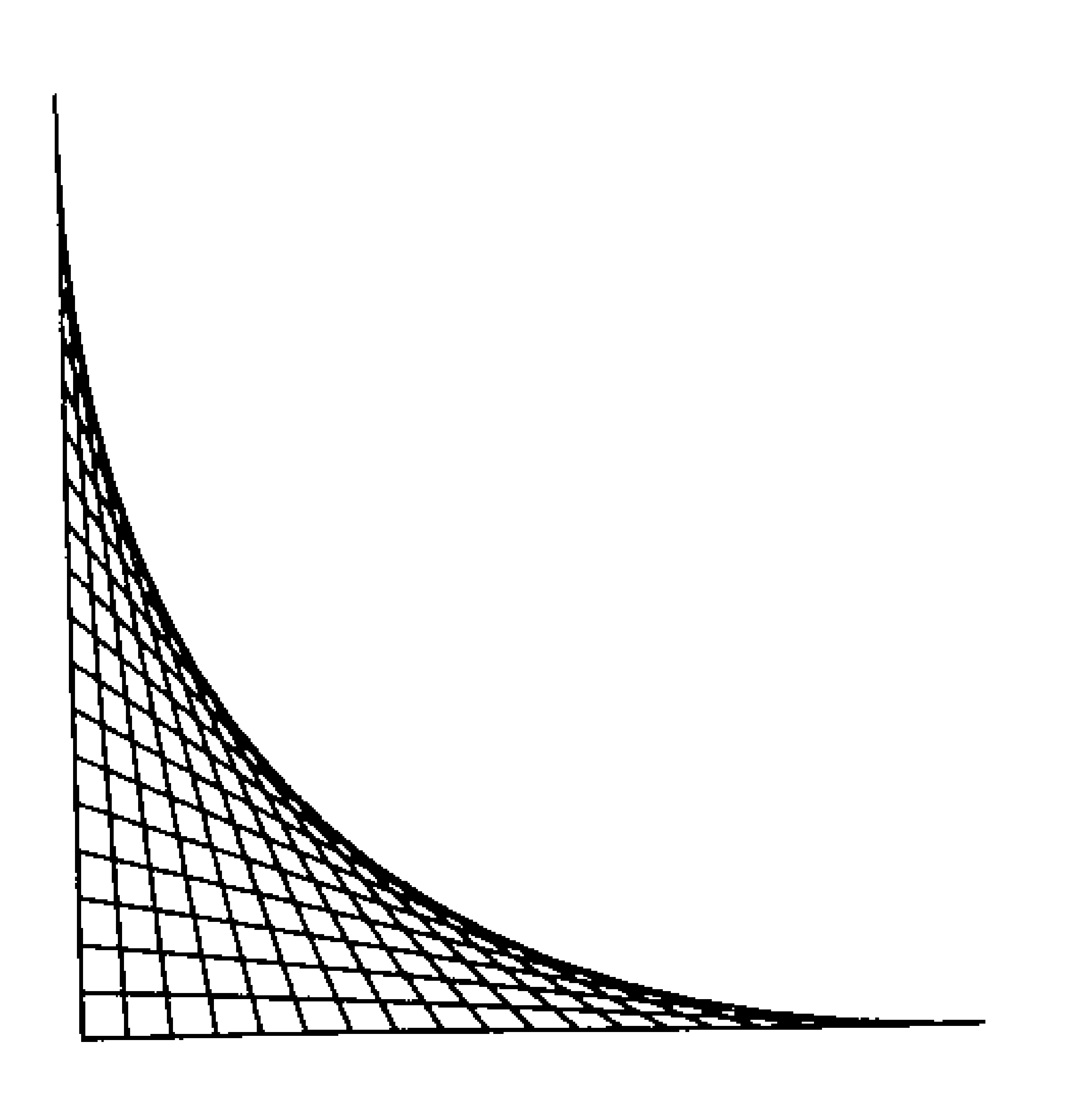
المتوفى ٦٩٦ هـ





بسم الله الرحمن الرحيم

ألحمدُ لِلَّهِ مُنشِىءِ الخَلْقِ مِن عَدَمِ
ثم الصلاةُ على المختارِ في القِدَمِ
مَولايَ صَلِّي وسلِّمْ دائماً أبداً
على حبيبِكَ خيرِ الخلقِ كلِّهِمِ



الفصل الأوّل

في الغَزَل وشكوى الغرام

أمِنْ تذكُّرِ جيرانٍ بِذي سَلَمِ — مزجْتَ دمعاً جرىٰ من مُقْلَةٍ بِدَمِ
أمْ هبَّتِ الرِّيحُ من تِلْقاءِ كاظمةٍ — وأوْمَضَ البَرْقُ في الظَّلْماء من إضَمِ
فما لعينَيْك إن قُلْتَ اكْفُفَا هَمَتَا — وما لِقَلْبِك إن قلتَ اسْتَفِقْ يَهِمِ
أيحسَبُ الصَّبُّ أنَّ الحُبَّ مُنْكَتِمٌ — ما بينَ مُنسَجِمٍ منه ومُضْطَرِمِ
لولا الهوىٰ لم تُرِقْ دمعاً على طَلَلٍ — ولا أرِقْتَ لِذكْرِ البانِ والعَلَمِ
فكيفَ تُنكِرُ حُبًّا بعدما شَهِدَتْ — بهِ عليك عُدولُ الدَّمعِ والسَّقَمِ
وأثبَتَ الوَجْدُ خطَّيْ عَبرَةٍ وضَنًى — مِثْلَ البَهارِ على خدَّيْك والعَنَمِ
نَعم سَرىٰ طيفُ مَن أهْوَىٰ فأرَّقَني — والحُبُّ يعتَرِضُ اللَّذّاتِ بالألَمِ
يا لائمي في الهَوَى العُذرِيِّ مَعذِرةً — مِنّي إليك وَلَوْ أنْصفتَ لَمْ تَلُمِ
عَدَتْكَ حاليَ لا سِرِّي بمُستَتِرٍ — عن الوُشاةِ ولا دائي بِمُنْحَسِمِ
مَحَضْتَني النُّصحَ لكنْ لستُ أسْمَعُهُ — إنَّ المُحِبَّ عن العُذّالِ في صَمَمِ
إنّي اتَّهمتُ نَصيحَ الشَّيبِ في عَذَلي — والشَّيبُ أبْعدُ في نُصحٍ عن التُّهَمِ

الفصل الثاني

في التحذير من هوى النفس

فإنَّ أمّارتي بالسُّوءِ ما اتَّعظَتْ — من جَهْلِها بنذيرِ الشَّيْبِ والهَرَمِ
ولا أعدَّتْ من الفِعْلِ الجَميلِ قِرَىٰ — ضَيفٍ ألَمَّ بِرأسي غيرَ مُحتَشِمِ
لو كنتُ أعلَمُ أنِّي ما أُوَقِّرُهُ — كتَمتُ سِرّاً بدا لي منه بالكَتَمِ
مَنْ لي بِرَدِّ جِماحٍ مِن غَوايَتِها — كما يُرَدُّ جِماحُ الخَيْلِ باللُّجُمِ
فلا تَرُمْ بالمعاصي كَسْرَ شَهْوَتِها — إنَّ الطَّعامَ يُقوِّي شَهْوَةَ النَّهِمِ
والنَّفسُ كالطِّفلِ إنْ تُهمِلْه شَبَّ علىٰ — حبِّ الرَّضاعِ وإنْ تفطِمْه يَنْفَطِمِ

فاصْرِفْ هَواها وحاذِرْ أنْ تُوَلِّيَهُ ... إنَّ الهوَىٰ ما تَوَلَّىٰ يُصْمِ أو يَصِمِ

وراعِها وهيَ في الأعْمالِ سائِمَةٌ ... وإنْ هيَ ٱسْتَحلَت المرعىٰ فلا تُسِمِ

كَمْ حسَّنَتْ لَذَّةً لِلْمرءِ قاتِلَةً ... مِن حيثُ لم يدْرِ أَنَّ السُّمَّ في الدَّسَمِ

وٱخْشَ الدَّسائِسَ من جُوعٍ ومِن شَبَعٍ ... فَرُبَّ مَخْمَصَةٍ شَرٌّ مِنَ التُّخَمِ

وٱستَفْرِغِ الدَّمعَ من عَيْنٍ قَدِ ٱمتلأَتْ ... مِنَ المَحارِمِ وٱلزَمْ حِمْيَةَ النَّدَمِ

وخالِفِ النَّفسَ والشَّيْطانَ وٱعْصِهِما ... وإنْ هُما مَحضاكَ النُّصحَ فاتَّهِمِ

ولا تُطِعْ منهما خصْماً ولا حَكَماً ... فأنتَ تعْرِفُ كَيْدَ الخَصْمِ والحَكَمِ

أستَغْفِرُ اللّهَ من قولٍ بلا عملٍ ... لقد نَسَبْتُ به نَسْلاً لِذِي عُقُمِ

أمرتُكَ الخيرَ لكن ما ٱئْتَمرتُ به ... وما ٱستَقَمْتُ فما قَوْلي لكَ ٱسْتَقِمِ

ولا تَزَوَّدتُ قبلَ الموتِ نافِلَةً ... ولم أُصلِّ سِوىٰ فرضٍ ولم أَصُمِ

الفصل الثالث

في مدح النَّبي ﷺ

ظلَمتُ سُنَّةَ من أحيَا الظَّلامَ إلىٰ ... انِ ٱشتَكَتْ قَدَمَاهُ الضُّرَّ من وَرَم

وشَدَّ من سغَبٍ أحشاءَه وطَوىٰ ... تحتَ الحِجَارَة كَشْحاً مُتَرفَ الأدَم

وراوَدتْه الجبالُ الشُّمُّ من ذهبٍ ... عن نفسِهِ فأراها أيَّما شَمَمِ

وأكَّدَت زُهدهُ فيها ضَرورتُه ... إنَّ الضَّرُورةَ لا تَعْدو على العِصَمِ

وكيفَ تَدعُو إلى الدُّنيا ضرورةُ مَنْ ... لولاهُ لم تُخْرَجِ الدُّنيا من العَدَمِ

محمَّد سيِّدُ الكَوْنَيْن والثَّقَلَيْـ ... ـنِ والفريقَيْن من عُربٍ ومن عَجَمِ

نبيُّنا الآمرُ النَّاهي فلا أحدٌ ... أبَرَّ في قولِ لاَ مِنْهُ ولا نَعَم

هو الحَبيبُ الَّذي تُرجىٰ شفاعَتُه ... لكلِّ هَولٍ من الأهْوَال مُقْتَحَم

دعا إلى اللّهِ فالمستَمْسِكُون به ... مُستَمسِكُون بحَبلٍ غيرِ مُنفَصِمِ

فاقَ النَّبِيِّينَ في خَلْقٍ وفي خُلُقٍ ... ولم يُدَانُوه في عِلْمٍ ولا كَرَمِ

وكلُّهم من رسول اللّهِ مُلتَمِسٌ ... غَرْفاً من البَحْرِ أوْ رَشْفاً من الدِّيَمِ

وواقفونَ لديه عند حدِّهم ... من نُقْطَةِ العِلْم أو من شَكْلَةِ الحِكَمِ
فَهوَ الَّذي تَمَّ مَعْناهُ وصورتُه ... ثُمَّ اصْطَفاهُ حبيباً بارِئُ النَّسَمِ
مُنَزَّهٌ عن شريكٍ في محاسِنه ... فَجَوهرُ الحُسنِ فيه غيرُ مُنقَسِمِ
دَعْ ما ادَّعتْه النَّصارىٰ في نبيِّهِم ... واحكُمْ بما شئتَ مَدْحاً فيه واحْتَكِمِ
وانسُب[1] إلىٰ ذاتِه ما شِئتَ من شَرفٍ ... وانْسُب إلىٰ قَدْره ما شِئتَ من عِظَمِ
فإنَّ فَضلَ رسول اللَّه ليس له ... حدٌّ فيُعْرِبُ عنه ناطقٌ بفَمِ
لو ناسَبَت قَدرَه آياتُه عِظَماً ... أحْيَا اسمُه حينَ يُدْعَىٰ دَارِسَ الرِّمَمِ
لم يَمتَحِنَّا بما تَعيَا العُقُولُ به ... حِرصاً علينا فلم نَرْتَبْ ولم نَهِمِ
أعْيَا الوَرَى فَهْمُ مَعْنَاهُ فلَيسَ يُرَىٰ ... في القُرْبِ والبُعْدِ فيه غيرُ مُنفَحِمِ
كالشَّمس تَظْهَر للعينَيْنِ من بُعْدٍ ... صغيرةً وتُكِلُّ الطَّرْفَ من أمَمِ
وكيف يُدرِك في الدُّنيا حقيقتَه ... قومٌ نِيَام تَسلَّوْا عنه بالحُلُمِ
فمبْلَغُ العلْم فيه أنَّه بَشرٌ ... وأنَّه خيرُ خلْقِ اللَّهِ كُلِّهِمِ
وكلُّ آيٍ أتى الرُّسلُ الكِرامُ بها ... فإنَّما اتَّصلَت من نورِهِ بِهِمِ
فإنَّه شمسُ فَضلٍ هُم كوَاكِبُهَا ... يُظهِرْنَ أنوَارَها للنَّاس في الظُّلَمِ
أكرِمْ بِخَلْقِ نبيٍّ زانَه خُلُقٌ ... بالحُسن مُشتَمِلٍ بالبِشْرِ متَّسِمِ
كالزَّهر في تَرفٍ والبدْر في شرفٍ ... والبحْر في كرَمٍ والدَّهرِ في هِمَمِ
كأنَّهُ وَهوَ فَردٌ مِنْ جَلالَتِه ... في عَسْكَرٍ حينَ تَلْقاهُ وفي حَشَمِ
كأنَّما اللُّؤلؤُ المكْنُونُ في صَدفٍ ... من مَعْدِنَيْ مَنطِقٍ منه ومُبتَسِمِ
لا طِيبَ يَعْدِلُ تُرباً ضَمَّ أعظُمَهُ ... طُوبَىٰ لِمُنتَشِقٍ منه ومُلتَثِمِ

الفصل الرابع

في مولده ﷺ

أبانَ مَولِدُهُ عن طِيبِ عُنصُرِه ... يا طِيبَ مُبتَدإٍ منه ومُختَتَمِ
يَومٌ تَفرَّس فيه الفُرسُ أنَّهمُ ... قد أُنذِروا بحُلول البُؤْسِ والنِّقَمِ
وباتَ إيوانُ كسرىٰ وهوَ مُنصَدِعٌ ... كشَملِ أصْحاب كسرىٰ غيرَ مُلتَئِمِ

(١) في نسخة أخرى: «فانسب».

والنَّار خامدةُ الأنفاس من أسَفٍ ... عليه والنَّهر ساهي العَينِ من سَدَم

وساءَ سَاوَةَ أنْ غاضَت بُحَيرتُها ... وَرُدَّ وَارِدُها بالغَيْظِ حِينَ ظَمِي

كَأنَّ بالنَّار ما بالماءِ من بَلَلٍ ... حُزناً وبالماء ما بالنَّار من ضَرَم

والجِنُّ تَهتِفُ والأنْوَار ساطِعةٌ ... والحقُّ يظْهَرُ من معنى ومن كَلِم

عَمُوا وصَمُّوا فإعْلانُ البَشائِرِ لَمْ ... تُسْمَع وبارِقةُ الإنذارِ لَمْ تُشَم

من بعدِ ما أخْبَرَ الأقوامَ كَاهِنُهُم ... بأنَّ دينَهُمُ المُعْوَجَّ لم يَقُم

وبعدما عاينوا في الأُفقِ من شُهُبٍ ... مُنقَضَّةٍ وَفْقَ ما في الأرض من صَنَم

حتَّى غَدَا عن طريق الوَحْيِ مُنْهَزِمٌ ... من الشَّياطين يَقْفُو إثْرَ مُنْهَزِم

كأنَّهُمْ هَرَباً أبطالُ أبْرَهةٍ ... أو عَسكرٌ بالحَصَىٰ من راحتَيْه رُمِي

نَبْذاً به بعد تَسبيحٍ ببطنِهِمَا ... نَبْذَ المُسَبِّحِ من أحْشَاء مُلتَقِم

الفصل الخامس

في معجزاته ﷺ

جاءتْ لِدَعْوته الأشجارُ ساجدةً ... تَمشي إليه علىٰ ساقٍ بلا قَدَم

كأنَّما سَطَرَتْ سَطراً لِمَا كَتَبَتْ ... فُروعُها من بَديع الخَطِّ بالقَلَمِ

مِثلَ الغَمامَةِ أنَّىٰ سارَ سائِرةٌ ... تقيه حرَّ وطيسٍ للهَجِير حَمِي

أقسَمتُ بالقَمَرِ المنشَقِّ إنَّ لَهُ ... مِنْ قلبه نسبةٌ مَبرورة القَسَم

وما حَوَى الغارُ من خَيرٍ ومن كَرَمٍ ... وكلُّ طَرفٍ من الكُفَّار عَنه عَمِي

فالصِّدقُ في الغار والصِّدِّيقُ لم يَرِمَا ... وهُم يقولونَ ما بالغار من أرِمِ

ظَنُّوا الحَمَامَ وظنُّوا العَنكَبُوتَ علىٰ ... خَيرِ البريَّة لم تَنسُجْ ولم تَحُم

وِقَايَةُ اللَّه أغنَتْ عن مُضاعَفَةٍ ... من الدُّروعِ وعَن عالٍ من الأُطُم

ما سامَني الدَّهر ضَيْماً واْستَجَرْتُ به ... إلاَّ ونِلْتُ جِوَاراً منه لم يُضَم

ولا اْلتَمَستُ غِنى الدَّارَيْنِ من يَدِهِ ... إلاَّ اْستَلَمتُ النَّدَىٰ من خَير مُسْتَلم

لا تُنكِرِ الوَحْيَ من رُؤيَاهُ إنَّ له ... قلباً متىٰ[1] نامتِ العَيْنَانِ لم يَنَم

---

(١) في نسخة أخرى: «إذا».

وذاكَ حينَ بُلوغٍ من نُبُوَّتِه فَلَيس يُنكَرُ فيه حالُ مُحتَلِمِ
تبارَكَ اللَّهُ ما وحْيٌ بمُكْتَسَبٍ ولا نَبيٌّ علىٰ غَيبٍ بِمُتَّهَمِ
كم أَبْرأَتْ وَصَباً باللَّمسِ راحتُه وأَطْلَقتْ إرَباً من رِبقَةِ اللَّمَمِ
وأَحْيَتِ السُّنَةَ الشَّهباءَ دَعوَتُه حتَّىٰ حكَت غُرَّةً في الأعصُرِ الدُّهُمِ
بعارِضٍ جادَ أو خِلتَ البِطاحَ بها سَيْبٌ من اليَمِّ أو سَيْلٌ من العَرِمِ

الفصل السادس

في شرف القرآن ومدحه

دَعْني ووَصْفِيَ آياتٍ له ظَهَرَتْ ظُهورَ نارِ القِرَىٰ ليلاً علىٰ علمِ
فالدُّرُّ يَزدَادُ حُسْناً وهو مُنتَظِمٌ وليس ينقُصُ قدراً غيرَ مُنْتَظِمِ
فما تَطاوُلُ آمالُ المديحِ إلىٰ ما فيه من كَرَمِ الأخلاقِ والشِّيَمِ
آياتُ حقٍّ من الرَّحمٰنِ مُحدثَةٌ قديمةٌ صِفةُ الموصُوفِ بالقِدَمِ
لم تَقتَرِنْ بِزمانٍ وهي تُخبِرُنَا عن المَعَادِ وعن عادٍ وعن إرَمِ
دامتْ لدَيْنَا ففاقَت كلَّ مُعجِزَةٍ من النبيِّينَ إذْ جاءت ولم تَدُمِ

مُحكَّماتٌ فما تُبقِينَ من شُبَهٍ لِذي شِقاقٍ وما[1] تَبْغِينَ من حَكَمِ
ما حُورِبَتْ قَطُّ إلاَّ عادَ من حَرْبٍ أعْدَى الأعادي إليها مُلقِيَ السَّلَمِ
رَدَّت بلاغَتُهَا دعْوَى مُعَارِضِها ردَّ الغَيُورِ يدَ الجاني عن الحُرَمِ
لها مَعَانٍ كَمَوْجِ البَحرِ في مَددٍ وفَوقَ جوهَرِهِ في الحُسْنِ والقِيَمِ
فما تُعَدُّ ولا تُحْصَىٰ عَجائِبُهَا ولا تُسَامُ علىٰ الإكْثار بالسَّأمِ
قَرَّتْ بها عَيْنُ قارِيها فقُلْتُ لَهُ لَقد ظَفِرتَ بحَبْلِ اللَّهِ فاعْتَصِمِ
إنْ تَتلُهَا خِيفةً من حرِّ نارِ لَظَى أطفَأْتَ حرَّ لَظَى مِنْ وِرْدِهَا الشَّبِمِ
كأَنَّها الحَوضُ تَبْيَضُّ الوُجوهُ به من العُصاةِ وقد جاؤوه كالحُمَمِ
وكالصِّراطِ وكالميزانِ مَعْدَلَةً فالقِسطُ من غَيْرِها في النَّاس لم يَقُمِ

(١) في نسخة أخرى: «ولا».

لا تَعجَبَنْ لِحَسُودٍ راحَ يُنكِرُهَا ... تَجاهُلاً وَهْوَ عَينُ الحاذِقِ الفَهِمِ
قد تُنكِرُ العينُ ضَوءَ الشَّمس من رَمَدٍ ... ويُنكِرُ الفَمُ طعْمَ الماء من سَقَمِ

الفصل السابع

في إسرائه ومعراجه ﷺ

يا خيرَ من يَمَّمَ العافُون ساحتَهُ ... سَعْياً وفوقَ مُتونِ الأَيْنُقِ الرُّسُمِ
ومَن هو الآيةُ الكُبرىٰ لِمعتبرٍ ... ومَن هُو النِّعْمَةُ العُظْمىٰ لِمُغْتَنِمِ
سَرَيْتَ من حَرَمٍ ليلاً إلىٰ حَرمٍ ... كما سَرى البَدْرُ في داجٍ من الظُّلَمِ
وبِتَّ تَرْقىٰ إلىٰ أَنْ نِلْتَ مَنزِلَةً ... من قابِ قَوْسَيْنِ لم تُدْرَكْ ولم تُرَمِ
وقدَّمتْك جميعُ الأنبياءِ بها ... والرُّسْلِ تَقْديمَ مَخْدومٍ على خَدَمِ
وأنتَ تَخترِقُ السَّبْعَ الطِّبَاقَ بهِمْ ... في مَوْكِبٍ كنتَ فيه صاحبَ العَلَمِ
حتَّىٰ إذا لم تَدَعْ شأْواً لمستَبِقٍ ... منَ الدُّنُوِّ ولا مَرْقىً لمستَنِمِ
خفَضْتَ كُلَّ مقامٍ بالإضافة إذْ ... نُودِيتَ بالرَّفْعِ مِثْلَ المُفْرَدِ العَلَمِ
كَيْما تَفُوزَ بِوَصلٍ أيِّ مُستَتِرٍ ... عنِ العُيون وسِرٍّ أيِّ مُكتَتِمِ
فَحُزْتَ كلَّ فَخَارٍ غيرِ مُشْتَرَكٍ ... وجُزتَ كلَّ مقامٍ غيرِ مُزدَحِمِ
وَجَلَّ مِقدارُ ما وُلِّيتَ من رُتَبٍ ... وعَزَّ إدْراكُ ما أُولِيتَ من نِعَمِ
بُشْرىٰ لنا مَعْشَرَ الإسْلام إنَّ لنا ... منَ العِنايَةِ رُكناً غيرَ مُنهَدِمِ
لمَّا دعا اللَّهُ داعينا لِطاعَتِه ... بأكرَمِ الرُّسلِ كُنَّا أكرمَ الأُمَمِ

الفصل الثامن

في جهاد النبي ﷺ

راعَتْ قُلوبَ العِدا أنباءُ بِعثَتِه ... كنَبأَةٍ أجفلَتْ غُفْلاً منَ الغَنَمِ
ما زال يَلقاهُمُ في كلِّ مُعترَكٍ ... حتّى حَكَوا بالقَنا لحماً علىٰ وَضَمِ
وَدُّوا الفِرَارَ فَكادُوا يَغْبِطون به ... أشلاءَ شالَت معَ العِقْبان والرَّخَمِ
تَمضي اللَّيالي ولا يَدْرون عِدَّتَها ... ما لم تكُن من لَيالي الأشهرُ الحُرُمِ
كأنَّما الدِّينُ ضيفٌ حلَّ ساحتَهُم ... بكلِّ قَرْمٍ إلىٰ لحمِ العِدا قَرِمِ

يـجُرُّ بـحـرَ خـمـيـسٍ فـوقَ سـابـحـةٍ ... يَـرْمـي بـمـوْجٍ مـن الأبـطـال مُـلْـتَـطِـمِ
مِـن كـلِّ مـنـتَـدِبٍ لـلَّـه مُـحـتَـسِـبٍ ... يَـسطُو بـمُـسـتـأصِلٍ للكُفْر مُصطَلِمِ
حـتَّـىٰ غَـدتْ مـلَّـةُ الإسْلام وهـي بِـهِـمْ ... مِـنْ بـعـدِ غُـرْبَـتِـهـا مَـوصُـولـةَ الـرَّحِـمِ
مَـكـفُـولـةً أبـداً مـنـهـم بـخَـيـرِ أبٍ ... وخَـيـرِ بَـعـلٍ فـلـم تَـيْـتَـم ولـم تَـئِـمِ
هـمُ الـجـبـالُ فـسَـل عـنـهـم مُـصـادِمَـهُـم ... مـاذا رأىٰ مـنـهُـم فـي كـلِّ مُـصـطَـدَمِ
وسَـلْ حُـنَـيـنـاً وسَـلْ بَـدْراً وسَـلْ أُحُـداً ... فُـصـولُ حـتـفٍ لـهـم أدهَـىٰ مـن الـوَخَـمِ
الـمُـصـدِرِي الـبـيـضِ حُـمْـراً بـعـدمـا وَرَدت ... مِـنَ الـعِـدا كـلَّ مُـسْـوَدٍّ مِـنَ الـلِّـمَـمِ
والـكـاتـبـيـنَ بِـسُـمْـر الـخـطِّ مـا تـركَـت ... أقـلامُـهـم حـرفَ جـسـمٍ غـيـرَ مُـنـعـجِـمِ
شـاكـي الـسِّـلاح لـهـم سِـيـمـا تُـمَـيِّـزُهـم ... والـوَرْدُ يَـمـتـازُ بـالـسِّـيـمـا عـن الـسَّـلَـمِ
تُـهـدي إلـيـكَ ريـاحُ الـنَّـصـرِ نـشـرَهـمُ ... فـتَـحْـسـبُ الـزَّهـرَ فـي الأكْـمـام كـلَّ كَـمِـي
كـأنَّـهـم فـي ظُـهـور الـخـيـلِ نَـبْـتُ رُبـاً ... مـن شِـدَّة الـحَـزم لا مِـنْ شَـدَّةِ الـحُـزُمِ
طـارتْ قـلـوبُ الـعِـدا مِـنْ بأسـهـم فَـرَقـاً ... فـمـا تُـفـرِّقُ بـيـنَ الـبَـهْـم والـبُـهَـمِ
ومَـنْ تـكُـن بـرسـول الـلَّـه نُـصـرَتُـه ... إنْ تَـلـقَـهُ الأسـدُ فـي آجـامِـهـا تَـجِـمِ
ولـن تَـرىٰ مِـنْ وَلـيٍّ غـيـرَ مُـنـتَـصِـرٍ ... بـه ولا مِـنْ عَـدُوٍّ غـيـرَ مُـنـقَـصِـمِ
أحـلَّ أُمَّـتَـهُ فـي حِـرْزِ مِـلَّـتِـهِ ... كـالـلَّـيْـثِ حـلَّ مـع الأشـبـال فـي أَجَـمِ
كـم جَـدَّلَـتْ كـلـمـاتُ الـلَّـهِ مِـنْ جَـدِلٍ ... فـيـه وكـم خَـصَـمَ الـبُـرهـانُ مـن خَـصِـمِ
كَـفـاكَ بـالـعِـلْـمِ فـي الأُمِّـيِّ مُـعـجِـزَةً ... فـي الـجـاهـلـيَّـةِ والـتَّـأديـبِ فـي الـيُـتُـمِ

الفصل التاسع

في التوسُّل بالنبي ﷺ

خَـدمـتُـه بـمـديـحٍ أسـتَـقـيـلُ بـه ... ذُنوب عُمرٍ مَضَىٰ في الشِّعر والخِدَمِ
إذ قـلَّـدانِـيَ مـا تُـخـشـىٰ عـواقـبُـه ... كـأنَّـنِـي بـهـمـا هَـدْيٌ مـن الـنَّـعَـمِ
أطعْتُ غَيَّ الصِّبَا في الحالَتَيْن وما ... حـصَـلـتُ إلاَّ عـلـى الآثـام والـنَّـدَمِ
فـيـا خـسـارةَ نـفـسٍ فـي تِـجـارتِـهـا ... لـم تَـشـتَـرِ الـدِّيـن بـالـدُّنـيـا ولـم تَـسُـمِ
ومَـنْ يَـبِـعْ آجِـلاً مـنـه بـعـاجِـلِـه ... يَـبِـنْ لـه الـغَـبْـنُ فـي بَـيْـعٍ وفـي سَـلَـمِ
إنْ آتِ ذنـبـاً فـمـا عَـهـدي بـمُـنـتَـقِـضٍ ... مِـنَ الـنَّـبِـيِّ ولا حَـبْـلِـي بِـمُـنْـصَـرِمِ

فـإنَّ لـي ذِمَّـةً مـنـه بـتـسـمِـيَـتـي ... مـحـمَّـداً وهـوَ أَوْفـى الـخـلْـق بـالـذِّمَـم
إنْ لـم يـكُـن فـي مَـعـادي آخـذاً بِـيَـدي ... فـضْــلاً وإلاَّ فَـقُـلْ يـا زلَّـةَ الـقَـدَم
حـاشـاهُ أنْ يَـحْـرُم الـرَّاجـي مـكـارِمَـه ... أو يَـرجِـعَ الـجـارُ مـنـه غـيـرَ مُـحـتَـرم
ومُـنـذُ أَلْـزَمـتُ أفـكـاري مـدائِـحَـه ... وجـدتُـه لـخَـلاصـي خَـيـرَ مُـلـتَـزِم
ولـن يَـفُـوتَ الـغِـنـىٰ مـنـهُ يـداً تَـرِبَـتْ ... إنَّ الـحَـيَـا يُـنـبِـتُ الأزْهَـارَ فـي الأكَـم
ولـم أُرِد زهـرةَ الـدُّنـيـا الَّـتـي اقـتَـطَـفَـتْ ... يـدا زُهـيـرٍ بـمـا أثْـنَـىٰ عـلـى هَـرِم

الفصل العاشر

في المناجاة وعرض الحاجات

يـا أكـرمَ الـخَـلْـق مـا لـي مَـنْ ألُـوذُ بـه ... سِـوَاكَ عـنـدَ حُـلـولِ الـحـادِث الـعَـمَـم
ولـن يَـضـيـقَ رسـولَ الـلَّـه جـاهُـك بـي ... إذا الـكـريـمُ تَـجـلَّـى بـاسْـم مُـنـتَـقِـم
فـإنَّ مِـنْ جُـودِك الـدُّنـيـا وضَـرَّتَـهـا ... وَمِـنْ عُـلـومِـك عِـلـمَ الـلَّـوْحِ والـقَـلَـم
يـا نـفسُ لا تَـقْـنَـطي مـن زَلَّـةٍ عـظُـمت ... إنَّ الـكـبـائِـر فـي الـغُـفـران كـالـلَّـمَـم
لـعـلَّ رحـمـةَ ربِّـي حـيـنَ يـقـسِـمُـهَـا ... تـأتـي علىٰ حسَبِ العِصْيان في القِسَم
يـا ربِّ واجـعَـل رجـائـي غـيـرَ مُـنـعَـكـسٍ ... لـدَيـك واجـعَـل حـسـابـي غـيـرَ مُـنـخَـرِم
والْـطُـفْ بـعَـبـدِك فـي الـدَّارَيْـن إنَّ لـه ... صَـبـراً مـتـىٰ تـدْعُـه الأهـوَالُ يـنـهَـزِم
وأْذَن لـسُـحْـبِ صـلاةٍ مـنـكَ دائـمـةٍ ... عـلـى الـنَّـبـيّ بـمُـنْـهَـلٍّ ومُـنْـسَـجِـم
والآلِ والـصَّـحْـب ثُـمَّ الـتـابـعـيـن لَـهُـم ... أهـلُ الـتُّـقـى وَالـنَّـقَـا والـحِـلْـم والـكَـرَمِ
مـا رنَّـحـتْ عَـذَبَـاتِ الـبـان ريـحُ صَـبـاً ... وأطـربَ الـعِـيـسَ حـاديَ الـعِـيـسِ بـالـنَّـغَـم
ثـم الـرِّضـا عـن أبـي بـكـرٍ وعـن عُـمرٍ ... وعـن عـلـيٍ وعـن عُـثـمـانَ ذي الـكَـرم
يـا ربِّ بـالـمـصـطـفىٰ بـلِّـغْ مـقـاصِـدَنـا ... واغْـفِـر لـنـا مـا مـضىٰ يـا واسِـعَ الـكَـرَم
واْغـفـرِ إلـهـي لـكـلِّ الـمـسـلـمـيـنَ بـمـا ... يَـتلُون في المسْجِد الأقْصىٰ وفي الحَرَم
بِـجَـاهِ مـن بـيـتُـه فـي طَـيْـبَـةٍ حَـرَمٌ ... واسـمُـه قَـسَـمٌ مِـنْ أعْـظَـمِ الـقَـسَـم
وهـذه بُـردة الـمـخـتـارِ قـد خُـتِـمَـتْ ... والـحـمـدُ لـلَّـه فـي بَـدْءٍ وفـي خَـتَـم
أبـيـاتُـهـا قـد أتَـتْ سـتِّـيـنَ مـع مِـائـةٍ ... فَـرِّجْ بـهـا كَـربَـنَـا يـا واسـعَ الـكَـرَم

النفحات الشاذلية
في
شرح البردة البوصيرية

تأليف

الإمام الشيخ حسن العدوي الحمزاوي

المتوفى ١٣٠٣هـ

خرج أحاديثه وعلق عليه

أحمد فريد المزيدي

الجزء الثالث


Marfat.com

بسم الله الرحمن الرحيم

شرح البردة

الحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات، والصلاة والسلام على إنسان عين المخلوقات سيدنا محمد وعلى آله وصحبه السادات ما دامت الأرض والسماوات، وما فاز محب بصحبة عروس أهل الحضرات.

وبعد، فلما تفضّل الرحمٰن بإتمام سيرة سيد ولد عدنان عليه الصلاة والسلام، وأهل بيته وذريته وبراهين كرامات الأولياء وأهل العرفان، شرعنا الآن في شرح ما سبق به الوعد منّا أول الكتاب من «شرح البردة» تطفلاً على موائد خدمة مديح سيد الأنام عليه وعلى آله أفضل الصلاة والسلام، لا سيما سيدهم الجامع بين الحقيقة والشريعة العارف بالله تعالى سيدي محمد البوصيري الملحوظ بعناية الملك القدسي، وبنظرة من شيخه القطب الغوث سيدي أبي العباس المرسي، أمدنا الله بمددهم. فنقول وبالله التوفيق:

ذكر نبذة من ترجمة سيد المحبين المادحين للحضرة النبوية المصطفوية سيدي محمد البوصيري رضي الله تعالى عنه ونفعنا به

قال العارف الكبير والعلم الشهير الجامع بين الحقيقة والشريعة، سيدي عبد الغني النابلسي في شرحه للقصيدة المضرية في الصلاة على خير البرية: هو الشيخ الإمام العالم العامل الهمام، بحر المعارف الإلٰهية، وجوهر الحقائق الربانيّة، إمام الشعراء، وشاعر الأئمة العلماء، الشيخ شرف الدين أبو عبد الله محمد بن سعيد بن حماد بن محسن بن عبد الله بن صنهاج بن هلال الصنهاجي، كان أحد أبويه من بوصير الصعيد والثاني من دلاص، فركبت النسبة منهما فقيل: الدلاصيري، ثم اشتهر بالبوصيري. قيل: ولعلها بلد أبيه فغلبت عليه.

ولد سنة ثمان وستمائة وأخذ عنه الإمام أبو حيان والإمام اليعمري وأبو الفتح بن سيد الناس، ومحقق عصره العز بن جماعة وغيرهم. وتوفي سنة ست أو سبع وتسعين وستمائة على ما قاله المقريزي، لكن صوّب شيخ الإسلام العسقلاني أنه توفي سنة أربع

وتسعين وستمائة، ذكره الشهاب بن حجر في شرح همزية المديح النبوي لصاحب الترجمة.

وقال السيوطي في حسن المحاضرة: شرف الدين محمد بن سعيد بن حماد الدلاصي المولد، المغربي الأصل، البوصيري المنشأ، ولد بناحية دلاص في يوم الثلاثاء أول شوال سنة ثمان وستمائة وبرع في النظم. وتوفي سنة ست وتسعين وستمائة.

وقال الشهاب بن حجر: كان رحمه الله تعالى من عجائب الله تعالى في النظم والنثر وإن لم يكن له إلا قصيدته المشهورة بالبردة لكفاه فخراً على كل من نظم وكذلك قصيدته الهمزية البديعة التي تنقاد لها النفوس الأبية مطيعة.

قال الجوجري في شرحها: له النظم الحسن الكثير الذي من جملته البردة ومن جملته قصيدة على وزن بانت سعاد، يعني قصيدة كعب بن زهير، وأول قصيدة البوصيري:

إلى متى أنت باللذات مشغول   وأنت عن كل ما قدّمت مسؤول

اهـ. وفي شرح الإمام الهمام النابغة الأديب والصمصامة البارع الألمعي الأريب، مفتي الثقلين، وعلامة المشرقين، أبي السعود العمادي على البردة ما نصه: فإن للأدب مآدب فوائد تغذي القلوب والأرواح ومشارب عوائد تهتز منها أعطاف أهل الذوق والارتياح. إلى أن قال: وإن زبدته وخلاصته وسلافته ـ أعني الكلام المقفى المخيل الموزون ـ الذي من شأنه جلب السرور وإماطة الشجون، الطباع السليمة تميل إليه، والأذهان المستقيمة تحوم حواليه، والأفكار الأنيقة وقفت عليه. إلى أن قال: وكفى شاهداً على ما ألقيته إليك ووضعته بين يديك، ما جاء به الشيخ الأديب والفاضل الأريب، شرف الدين محمد بن سعيد الدلاصي المعروف بالبوصيري المصري أفاض الله عليه شآبيب الغفران، وسقى ثراه من مزن الرضا والرضوان، في قصيدته المسماة بالبردة التي هي عدة في كل شدة، فإنك إذا أمعنت النظر فيها مع قريحة وقادة وبصيرة نقادة ألفيتها تأخذ بضبع السالك البر والطير وتلقى العابد الناسك من مهالك الضير إلى مدارك الخير، أفلا تنظر كيف افتتح بابها بالتغزل والتشبب المناسب للنفس الأمارة في عنفوان الصبا والشباب ثم انتقل منه إلى ما يكشف للنفس الأمارة عما التهت به ومالت إليه في ذلك السن فتحقق أنه كالسراب والضباب، لا يشفي عليلاً ولا يسقي غليلاً، فيسحب على ذلك المقام ذيل الإعراض ويهدم ما شاده فيه بمعول النقض والانتقاض، فتصير الأمارة لوّامة فتقبل على مقام السلامة والكرامة. ثم أقبل بعد أن استعدّ للتحلي بحسن العقيدة على الاشتغال بمدح صاحب القصيدة وآله الأبرار وصحبه الأخيار، فيرقى بحب الصالحين ومتابعة المتقين إلى مقام النفس الملهمة ويخرج من الجب المدلهمة، ثم إنه

أخذ بما يتعلق بالبدء والمعاد ويهدي إلى طريق الرشاد وسبل السداد فيصعد بذلك إلى مصعد النفس المطمئنة لتخاطب نفسه بـ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾﴾ [الفجر: الآيتان ٢٧، ٢٨]. فهل مثل هذا الترتيب للعاقل اللبيب إلا طبيب نجيب يسكن من القلوب الوجيب، ويوصل المحب إلى لقاء الحبيب.

ولما كانت هذه القصيدة الشريفة، والدرة اللطيفة، مشتملة على ما أشرت به إليك، وأمليته عليك مع كرامات ظاهرات تناسب معجزات صاحبها الباهرات، وكانت أفئدة العالمين مشغوفة بتلاوتها، وقلوب العارفين مولعة بقراءتها، وكانت قد فاقت جميع الأشعار في سائر الأمصار بمديح النبي المختار، واشتهر من كراماتها ما يغني وضوحه عن التعبير ولاح من آياتها ما يستغنى به عن التقرير والتزبير، إلى آخر ما قاله رضي الله عنه.

وقال المحقق ابن حجر الهيتمي في شرح الهمزية: وإن من أبلغ ما مدح به النبي ﷺ من النظم الرائق البديع، وأحسن ما كشف عن كثير من شمائله من الوزن الفائق المنيع، وأجمع ما حوته قصيدة من مآثره وخصائصه ومعجزاته، وأفصح ما أشارت إليه منظومة من بدائع كمالاته، ما صاغه صوغ التبر الأحمر، ونظمه نظم الدر والجوهر، الشيخ الإمام العارف العامل الهمام المتفنن المحقق البليغ الأديب المدقق، إمام الشعراء وأشعر العلماء وبليغ الفصحاء وأفصح البلغاء الحكماء، الشيخ شرف الدين أبو عبد الله محمد بن سعيد بن حماد بن محسن بن عبد الله بن صنهاج بن هلال الصنهاجي كان أحد أبويه من بوصير الصعيد والآخر من دلاص - بكسر الدال - فركبت النسبة منهما فقيل: الدلاصيري، ثم اشتهر بالبوصيري، قيل: ولعلها بلد أبيه فغلبت عليه.

ولد سنة ثمان وستمائة وأخذ عنه الإمام أبو حيان والإمام اليعمري وأبو الفتح بن سيد الناس، ومحقق عصره العز بن جماعة وغيرهم. وتوفي سنة ست أو سبع وتسعين وستمائة على ما قاله المقريزي، لكن صوّب شيخ الإسلام العسقلاني أنه توفي سنة أربع وتسعين وكان من عجائب الله تعالى في النثر والنظم ولو لم يكن له إلاَّ قصيدته المشهورة بالبردة التي تسبب نظمها عن وقوع فالج به أعيا الأطباء ففكر في إعمال قصيدة يتشفع بها إليه ﷺ ثم به إلى ربه، فأنشأها فرآه ماسحاً بيده الكريمة عليه فعوفي لوقته. ثم لما خرج من بيته لقيه رجل صالح فطلب منه سماعها فعجب إذ لم يخبر بها أحداً، فقال: سمعتها البارحة تنشد بين يديه ﷺ وهو يتمايل كتمايل القضيب، فأعطيته إياها وقيل: إنه اشتد رمده بعد نظمها فرأى النبي ﷺ في النوم فقرأ عليه شيئاً منها، فتفل في عينيه فبرىء لوقته، لكفاه ذلك شرفاً وتقدماً، كيف وقد ازدادت شهرتها إلى أن صار الناس يتدارسونها في البيوت والمساجد كالقرآن. وكان يعاني صناعة الكتابة على الجبايات وباشر بلبيس الشرقية ثم ترك ذلك وصحب القطب أبا العباس المرسي رضي الله عنه

وأرضاه، وجعل جنات المعارف متقلبه ومثواه، فعادت عليه بركته وساعده لحظه وهمته إلى أن فاق أهل زمانه ورزقه الله من الشهرة والحظ ما لم يصل إليه أحد من أقرانه، فرحمه الله ورضي عنه اهـ.

قال الأستاذ العارف الحفني في حاشيته على الشرح المذكور: قوله دلاص ـ بفتح الدال المهملة وآخره صاد مهملة ـ أيضاً كورة بصعيد مصر من الجانب الغربي، وبوصير ـ بضم الموحدة وسكون الواو وكسر الصاد المهملة وسكون التحتية وبالراء ـ بلدة بصعيد مصر كذا قيدها في اللباب كأصله. وقد اشتهر على ألسنة العامة: أبو صير بلفظ الكنية اسم للبلد، ويقولون: الأبوصيري، ولا وجه لذلك. كذا نقل من خط العجمي.

وقوله: اليعمري، بفتح الياء مع فتح الميم وضمها، نسبة إلى يعمر بن شداخ بفتح المعجمة وتشديد المهملة وآخره معجمة، من بني ليث.

وقوله: فأعطيته إياها الذي في كلام غيره، فأنشدته إياها، وهو المناسب لقوله: فطلب منه سماعها فاتفق أنها كانت معه فأعطاها له.

وقوله: اشتد رمده الذي رأيته في كلام غيره أن الذي اشتد رمده غير الناظم حيث نقل عن الناظم أنه قال: ثم بعد أن أنشدتها للرجل الصالح ودعني وانصرف ثم بعد أيام استدعاني الصاحب بهاء الدين وزير الملك الظاهر، وقال: أنشدني القصيدة التي مدحت بها النبي ﷺ. وأقسم أن لا يسمعها إلاَّ قائماً على قدميه مكشوف الرأس. فأنشدته إياها فسر بها وكتبتها له بيدي فلم تزل عنده متبركاً بها يقرؤها في المهمات حتى مات فاستمرت عند ولده فخر الدين.

ثم حصل رمد لسعد الدين الفارقي تابع فخر الدين أشرف منه على العمى، فرأى في منامه من يقول له: إما النبي أو غيره امض إلى فخر الدين ابن الصاحب واطلب منه البردة وضعها على عينيك فتبرأ. فلما انتبه حضر بين يدي فخر الدين وأخبره فأخرج له القصيدة فوضعها على عينيه فعافاه الله ببركتها. انتهى.

فالذي أصابه الرمد سعد الدين، ويمكن تعدد الواقعة بأن حصل رمد لناظمها فشفي بما ذكره الشارح، وحصل لسعد الدين فشفي بوضعها فلا منافاة ولا معارضة اهـ.

وقد أوضح هذا المقام بأتم عبارة وبلوغ مؤلفه المرام الإمام الهمام سيد أهل التحقيق بالإجماع ومظهر فنون البراعة بلا نزاع الإمام السعد التفتازاني في شرحه لهذا الكتاب ونصه: ومما أحاطت بعلمه الآراء الزاهرة وأشرقت بذكره النفوس الطاهرة أن اتباع النبي ﷺ واقتفاء آثاره والتخلق بأخلاقه والاستضاءة بأنواره إنما يتيسر بعد تبين ديادنه وتكشف أسراره وإدراك سجاياه ومعرفة أخباره، فطوبى لمن جعل مسارح الأفكار مفاخر صفاته ومطارح الأنظار مآثر سماته. وبعد ملاحظة ما جاء في الكتب الإلهية من

جميل الشيم النبوية تنبع تراكيب البلغاء وتصفح أساليب الفصحاء الذين وشحوا عزيز مقالاتهم ورشحوا درر دلالاتهم بشرح شمائل الرسول المثبت بالعصمة وذكر فضائل الحبيب المؤيد بالحكمة، الشارح الغرة الواضح التحجيل، النبي الأمي المكتوب في التوراة والإنجيل، والذين نثروا في أثناء نثرهم النثرة ببث مناقبه الفاخرة، وأدرجوا في أدراج شعرهم الشعري بكشف مراتبه في الدنيا والآخرة، ثم اختار من المدائح والأشعار ما شاهد فيه أثر قبول النبي المختار وطيران صيته في الآفاق والأقطار، وسيران ذكره إلى أقاصي البلدان والأمصار، ألا وهي القصيدة المشهورة بالبردة التي نظمها نظام عقد جواهر المعاني، مرشح نفائس الحكم الحاكية عن العرائس الغواني بجلي العبارات الأنيقة، وحلل الاستعارات الرشيقة، سمي النبي محمد البوصيري قدس الله تعالى سره في نعت الرسول وانتشر ذكر قبوله إياها انتشار آثار الصبا والقبول.

كما يحكى أن ناظمه الباذل نفسه ما بين معترك الأحداق والمهج، قد عرض له عارض الفلج، وفي هذه الحالة طلب نظمها فلج، وما كان عنده في تلك الأيام أحد يؤانسه من الأنام وكان في مغارة منقطعاً عن الخلائق متجانباً عن الديار، فأخذ يمدح ثاني اثنين إذ هما في الغار، فلما تمت هذه القصيدة التي لا تنقضي عجائبها على مر الأيام ولا تخلق غرائبها على كر الشهور والأعوام، ولا يطرأ على غصنها الطري وصمة الذبول ولا يعرض لبدرها المضي ونورها البهي آفة الأفول، بادر إلى السجود للإله متضرِّعاً بين يدي رسول الله قائلاً بدمع منسجم وقلب أوّاه:

يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به	سواك عند حلول الحادث العمم
ولن يضيق رسول اللّه جاهك بي	إذا الكريم تحلى باسم منتقم
فإن من جودك الدنيا وضرتها	ومن علومك علم اللوح والقلم

وقرأ هذه القصيدة عن آخرها طامعاً من بحار عطاياه ركوب زاخرها، ثم سلط رب العباد على عينه اليقظى هجوم الرقاد فرأى بفيضان فضل الجناب المطلق الحبيب القائل: «من رآني فقد رأى الحق»[1] ماسحاً راحته عليه الصلاة والسلام بالتلطف على أعضائه، معطياً له راحة جراحة في حوبائه. فتنبه رحمه الله سليم الأطراف من أليم دائه وتوجه بطول الأمل لعرضها إلى الروضة المقدّسة النبوية على مشرفها الصلاة والتحية، فإذا هو بالشيخ أبي الرجاء الموسوم بالصدّيق، المشهود له بالقطبية على التحقيق الذي كان منقطعاً إلى الله تعالى عن أهل طيبة الطيبة سقاها الله كالروضة الغناء باليعاليل الصيبة.

---

(١) رواه البخاري (٦/ ٢٥٦٨)، ومسلم (٤/ ١٧٧٦)، وأحمد في المسند (٢/ ٢٦١).

يقول الناظم خصه الله تعالى بمشاهدة اللقاء: قال الشيخ: يا محمد هات قصيدتك الغراء التي أعجزت فصاحتها مصاقع الخطباء، وأخرست بلاغتها شقاشق العرب العرباء. قلت: أي قصيدة تريد يا قطب قاطبة الأمم، قال: التي استهلالها:

أمن تذكر جيران بذي سلم   مزجت دمعاً جرى من مقلة بدم

قلت: من أين حفظته يا أبا الرجاء وما قرأتها على أحد ممن إليَّ جاء، قال: رأيت البارحة جناب حضرة الرسالة مع جم غفير في غاية العظمة والجلالة، إذ جئت متضرعاً إليه لعرض قصيدتك عليه فلاقاك بالفرح والسرور مظهراً لدى الحضار من مديحك الحبور، وأجازك فكنت تقرأ وهو يبدي الارتياح ويتحرك استحساناً تحرك الأغصان المثمرة من هبوب نسمات الرياح. ولما آل الأمر إلى إتمامها افتتحت بقراءة المطلع بعد اختتامها، فلتكرر قراءة المطلع وعيته وجميع الأمر كما كان رويته. ثم قصة وصول البردة من الحضرة للصلة مشهورة وحكاية ما شوهد من آثار بركاتها في الكتب مسطورة، واشتهار شأنها العجيب عند جماهير الأنام أغناني عن الإكثار في وصفها وإطالة الكلام، ومع ما فيها من مناقب يعجز القلم عن تسطيرها ومزايا تعيا الألسن عن تقريرها ما اتفق لها شرح كاشف لمشكلاتها موضح لمعضلاتها، كافل بتوضيح ما استبهم من خفاياها، شامل لتبيين ما استعجم من خباياها، بتفسير يكشف عن أسرارها وتقرير يتكفل برفع أستارها، ورأيت النفوس الطاهرة راغبة في استعلام فوائدها، وصادفت الآراء الزاهرة مائلة إلى استفهام عوائدها، ورأيتها أعز ما يرغب فيه ويعرج عليه، وأهم ما تناخ مطايا الطلب لديه، فبعد طلب جماعة من أجلاء الأكياس وثبت من أثبات حذاق الناس، شرعت في شرح لها يتضمن بسط موجزها وحل ملغزها، وتفصيل مجملها، وتبيين معضلها، وبذلت مجهودي في تصحيح ألفاظها وتنقيح معانيها، فجاء بحمد الله حرياً بأن يكتب ظاهره بالذهب على ألواح الياقوت ويرسم باطنه بالنور على خدود أهل الملكوت، والحمد لله افتتاحاً واختتاماً والصلاة والسلام على رسوله ما اتسقت عقود الشهب انتظاماً.

مقدمة الافتتاح لبداية راحة الأرواح

اعلم أن الناظم نظمه الله تعالى في سلك البررة الكرام، افتتح قبل الخوض في تيار بحار المرام، والغوص على جواهر نعوت النبي ﷺ بمخاطبة نفسه، أي ذاته على سبيل التجريد، مستفهماً عن سبب بكائه الشديد، وسائلاً عن موجب مزج دموعه بالدم السائل، فقال، ولله دره من قائل:

أمن تذكر جيران بذي سلم   مزجت دمعاً جرى من مقلة بدم

أي: ما سبب اختلاط دمعك الجاري من مقلتك بالدم، أهو من تذكر جيرانك المقيمين بذي سلم أيها المبتلى ببلاء الفراق، والمحترق بنيران لواعج الأشواق، ما بال دمعك المهراق ممزوجاً بدم حوبائك كأن سببه تذكرجيرانك وأحبائك، نعم من امتطى غارب الاغتراب، وفارق اللذة والأتراب، ثم تذكر وصل الأحباء والجيران، وتذكر في أيام مؤانسته الأصدقاء والخلان، كيف لا يجري دمعه ممزوجاً بالدم وكيف لا يحترق قلبه بنار الحسرة والألم، يا من عبراتك على وجناتك تجول كأنك في مذاكرة أيام وصلهم تقول:

سقى اللّه أياماً سعدنا بقربكم وثغر المنى في روضة الأنس ضاحك

نعمنا زماناً والعيون قريرة وأصبحت دهراً والعيون سوافك

أما ما يتعلق بالتركيب، فبيانه: أن الذكر بالضم ما يكون بالقلب، والكسر باللسان، والتذكر يكون بعد النسيان من أيهما اعتبرته.

وأصل جيران: جوران، لأنه جمع جار، وأصله: جور. وإضافة التذكر إليه إضافة المصدر إلى مفعوله.

والسلم بفتح اللام: نوع من الشجر، ويروى بالكسر وهو السماع، وبذي سلم: صفة جيران، أي كائنين بمكان ذي سلم ومن الأولى متعلقة بمزجت كالباء في بدم قدمه تنبيهاً على أن الشك ليس في نفس المزج إذ هو ثابت مشاهد، بل في سببه. ومن الثانية متعلقة بجرى، وهو صفة دمعاً، والتنوين في جيران ومقلة ودم عوض عن المضاف إليه وهو كاف الخطاب المراد به الناظم نفسه على ما سبقت الإشارة إليه. اهـ.

قال المحقق مفتي الثقلين الإمام أبو السعود في شرحه أقول:

اللغة: التذكر والتذكار، بمعنى ما يعود خطوره على البال بعد الذهول عنه، وقد يطلقان على الخطور مطلقاً. وقد يرادفان الذكر بالضم والكسر فيطلقان على الإخطار بالخاطر والإمرار باللسان. وجاء بمعنى الذكرى. قال الشاعر:

تذكرت والذكرى تهيّج زينبا

والجيران: جمع جار، وهو القريب في المنزل. ومؤنثه: الجارة. ويقال للزوجة لأنها تجاور زوجها في محل واحد. إلى أن قال:

الإعراب: الهمزة للاستفهام التقريري كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ [يس: الآية ٦٠] ومن الأولى لابتداء الغاية، ويجوز أن تكون للسببية. والجار والمجرور متعلق بـ: مزجت، وإنما أخّر العامل وإن كان حقه التقديم لإرادة الاختصاص وابتداء الاهتمام بشأن المعمول ولأن الشك والتردّد في سبب المزج، فإن

المزج مشاهد محسوس إما حقيقة أو ادعاء، فقدم ليلي أحد الأمرين المتردّد فيهما حرف الاستفهام فيحصل التعادل بينهما، ولموافقة الوضع الطبع، فإن تذكر الجيران علة مزج الدمع بالدم، والعلة مقدمة على المعلول طبعاً، فقدمت وضعاً ليوافق الوضع الطبع.

فإن قلت: ما المتقدم الطبيعي. قلت: هو أن يكون المتقدّم محتاجاً إليه المتأخر وألا يكون علة كافية في وجوده كتقدم الواحد على الاثنين وإضافة تذكر إلى الجيران من إضافة المصدر إلى المفعول، وهي بمعنى اللام. وبذي سلم: متعلق بجيران لأنه بمعنى مجاورين فإن أبيت فاتخذه متعلقاً بمقدّر، أعني حالين أو كائنين، وعلى كلا التقديرين الباء فيه بمعنى في، والجار والمجرور أعني بذي صفة للجيران، فإن قلت: لم نكّر جيران، قلت: ليفيد تنكيره التعظيم وكونهم في مرتبة من الشهرة مستغنية عن التعريف ومزجت على الخطاب والكلام من وادي التجريد كأنه جرّد من نفسه مثله متصفاً بهذه الصفة مبالغة في اتصافه بها، أو أنه أنف منها أن تكون نفسه مما اتصفت به من الجزع، أو أنها رابته بفعلها أو اضطرابها فزعم أنها ليست نفسه إذ شام منها مخالفاً لزمنها السالف، أو أنه كره أن يبث حزنه على أحد من أهل زمانه، إما لعلة عدم الوفاء منهم أو حذراً من شماتة الأعداء أو احترازاً عن توهم الشكاية من الأحباء فجرد من نفسه مخاطباً وخاطبه كما صنع امرؤ القيس في قوله:

تطاول ليلك بالأثمد ونام الخلي ولم ترقد[١]

والمتنبي في قوله:

لا خيل عندك تهديها ولا مال فليسعد النطق إن لم يسعد الحال

وإنما نكر دمعاً، الذي هو مفعول مزجت ليمكنه وصفه بالجملة، أعني جرى. ومن في من مقلة ابتدائية وإنما ذكر المقلة مع أن الدمع لا يكون إلاً من المقلة لتصوير الصورة الغريبة العجيبة المحزنة الملينة للقلوب، وإنما تنكيرها لعدم مقتضى التعريف ولقصد التحقير طلباً للترحم وتعريفاً بنفسه أن يرثى لها وتنكير دم للتنبيه والتفخيم والتنوين في هذه النكرات عوض عن المضاف إليه وهو كاف الخطاب، أي جيرانك ومقلتك ودمعك ودمك.

وفي البيت من الصناعة البديعية براعة الاستهلال والتجنيس المذيل، كقول الشاعر:

رميت بأحداق سوال سوالب وضنّ بألفاظ غوال غوالب[٢]

---

(١) قوله: الأثمد بفتح الهمزة وضم الميم، اسم مكان. اهـ مؤلفه.

(٢) قوله: سوال جمع سالية من السلي وهو الصلي أي تصلي جسم الناظر كما يصلى اللحم بالنار =

والمعنى: أنه لما رأى دموعه تحادرت من الآماق وعبراته تسابقت على الخدود من الأحداق، مبدين ما أكنه سره من لاعج الأشواق ومظهرين ما أخفاه ضميره من زاعج الأنواق، أقلقه ما رأى من نفسه من شدّة الجزع ورابه ما عاينه من صولة الهلع، مما هو خلاف صولة العقلاء المسترشدين وشعار الفضلاء المستهدين، وأنف أن يكون مثلها نفسه فخاطبها خطاب المتكبرين وكلمها بكلام المستنكفين، وقال لها: أمزجت دمعاً غزيراً جارياً من آماق العين مشوباً بالدم من تذكار سكان وادي ذي سلم أم من هبوب رياح بكاظمة أو من وميض البرق في الظلماء من إضم. وأنه من شدّة تحيره وغلبة سلطان تفكره وَلِهَ وَلَهَ المتولِهين ودخل في ربقة المترددين، وقال وهو من المتحيّرين ولم يدر أنه من الموسومين بهذه الصفات حيث وجد نفسه من الأموات:

أمزجت الدمع الهاطل من آماقك ... السائل من أحداقك بالدم

من إخطار ذكر أحبابك بذي سلم ... وتذكار أهل ودادك من سكان الحرم

أم هبت الريح من تلقاء كاظمة ... وأومض البرق في الظلماء من إضم

قال العلامة السعد: كلمة أم متصلة. هبت الريح: هاجت، ومن: لابتداء الغاية. والتلقاء: الجهة، وكاظمة: اسم موضع، وأومض: بمعنى لمع، وأضم - بكسر الهمزة -: اسم جبل، وواو العطف، إما على حقيقتها فيكون الترديد بين الشيء والشيئين أو بمعنى أو فيكون الترديد بين ثلاثة أشياء على سبيل منع الخلوّ، فإن التذكر وهبوب الريح ولمعان البرق من جانب منازل المحبوب كل منها سبب داع للبكاء ومهيج للشوق وموجب للإفراط فيه.

واعلم أن هذه المعاني التي سيق إليك بيانها بديع شأوها وعجيب شأنها، مستحسنة عند ذوي الطباع المستقيمة ومقبولة لذوي الأسماع السليمة، إذا كان المراد من المخاطب هو الناظم نفسه تغمده الله بالغفران وأسكنه فسيح الجنان.

وأريد من الجيران جيرانه في الدنيا، ومن ذي السلم والكاظمة والإضم: مساكن الأحباء. وأما إذا أريد توجيه الخطاب إلى الروح الإنساني والنور الرباني الذي خلقه الله تعالى قبل الأجساد بأربعة آلاف سنة أو بألفي سنة كما نطق به الحديث وإلى تقدم خلقه أشار الله سبحانه وتعالى حيث قال: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤﴾ [التين: الآية ٤] يعني قابلاً للفيض الإلهي ومستنفذاً لاستفادة الفضل الغير المتناهي بلا واسطة، ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥﴾ [التين: الآية ٥] أي إلى القالب الذي هو أبعد المركبات عن الحضرة فهو

= فيذوب، وسوالب جمع سالبة لأنها تسلب الناظر إليها، وغوال جمع غالية أي رفيعة المقدار ثمينة عالية بليغة، وغوالب جمع غالبة أي تغلب المجادل والمخاطب. اهـ.

أبعد الأبعدين والروح أقرب الأقربين، جمع الله بينهما ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ [المُلك: الآية ٢] فبعزّته بعد المقرب للابتلاء وبمغفرته قرب المبعد للاصطفاء والاجتباء.

فحينئذ لا بد في تقرير معنى البيت وما يلتوه من الأبيات من إيراد بعض المقاصد على طريق المقدمات وسردهات رحمة الله تعالى.

ثم قال: فالناظم يخاطب روحه الإنساني ويقول: يا من عبراته الممزوجة بالدم على وجناته تجول، أمن تذكر هؤلاء الجيران وقعت في هذه النيران أم هبت الريح من تلقاء الروضة الغناء، أعني الحضرة الغفورية المسماة بالكاظمة لغاية الأعضاء، وأومض البرق من إضم المحبة، أي جبلها الباذخ وزادت لمعاته للقلوب في غررها الشوارخ، فإن كل واحد من هذه الأمور سبب للبكاء، ورسول يروي حديث الأحباء.

واهاً لبعيدة من الأمصار تستحضرها بواعث الأفكار
في مسند عشقها أحاديث روى برق ونسيم خيال سار

يقول للروح: لا تسأل عن غصن ذوى بعد ارتقائه، ونجم هوى عند اعتلائه، ونبت ربا مسك عطره، وساری لیل غاب قمره، ولا تصغ إلى محب يذوب بنار الحرقة ولا يدري متى تنقطع حبائل الفرقة، فيقول:

مذ فرّق بينكم وبيني الدهر لم يبق على مدى نواكم صبر
قد مسّني الضرّ وضاق الصدر يا منيتي إلى متى ذا الهجر

ومع هذا يخفي الحال عن الأغيار ولا يطلع الخلي على الأسرار، إذ الفارغ لا يعرف ما فيه غيره حتى ينتهي إليه سره.

لا يعرف الحب إلاّ من يكابده ولا الصبابة إلاّ من يعانيها

فإني وإن ابتليت بجسم ناحل ولكنني من فرط الوجد على مراحل اهـ.

وقال المحقق أبو السعود: هبوب الريح هيجانها، وهب من مكانه: اندفع منه بسرعة، وهب البعير إذا نشط في سيره. قال الشاعر:

هبت نسمات عشقكم في السحر شوقاً فتراقصت غصون الشجر

إلى أن قال: الإعراب: أم: قيل إنها المتصلة نظراً إلى التقدير من وجهين، أحدهما: أن الهمزة في أمن وإن دخلت على الحرف صورة فهي داخلة على الفعل تقديراً، إذ التقدير: أمزجت الدمع من تذكر لتقدم العامل على المعمول.

وثانياً: أن أم هبت الريح، في تقدير أم من هبوب، وعلى كلا التقديرين تكون متصلة لأن المتصلة هي التي يليها أحد المتساويين.

قال: والأقوى أنها المنقطعة لعدم وقوع أحد المتساويين بعدها، والتقديران المذكوران لا يخلوان عن تعسف كما لا يخفى. فإن قلت: المنقطعة قد تكون في الكلام الاستفهامي دون إضراب كقولك: أزيد عندك أم عمرو، وقد تكون في الكلام الإضرابي كقولك: إنها لإبل أم شاء، فمن أي القبيلين هي هنا، قلت: هي من التمثيل الثاني كما يظهر لك عند أدائنا المعنى، ومن تلقاء متعلق بهبت وعطف أومض على هبت من عطف الجملة على الجملة لما بينهما من التوسط بين كمال الاتصال وكمال الانقطاع. ومن إضم، وفي الظلماء متعلقان بأومض.

وفي المعنى: من إضم، مقدّم على في الظلماء، وإن كان في اللفظ مقدماً عليه فإن التقدير أومض البرق من إضم في الظلماء يشهد به الذوق السليم والطبع المستقيم.

قال: والمعنى: إن اتخذنا أم متصلة كان المعنى أن مزج الدمع بالدم معلوم متيقن أيضاً أن سببه أحد الأمرين، إما تذكر جيران بذي سلم أو هبوب ريح كاظمة وإيماض برق إضم، وإنما الشك في التعيين، فأخبرني أيها القلب المستهام المستضام أي الأمرين الهائلين سبب لخلطك الدمع بالدم فإنه لا يتصور أن يكون السبب أمراً ثالثاً.

وإن اتخذتها منقطعة، كان المعنى: أنه لما شاهد ما أدهش باله وغيّر حاله وبلبل بلباله غلب على ظنه أن سبب مزج دمعه ذكر جيران بذي سلم ثم عدل عن ذلك من شدة تحيّره وغلبة تفكّره فغلب على ظنه أن مثل هذا المزج ينبغي أن يكون سببه تذكر المنازل والأوطان، وغلبة التشوق إلى الأهل والخلان.

ولا ينبغي إلاَّ أن يكون من إثارة شوق إلى تربة ضمت جثمان شمس برج الرسالة والنبوّة وروضة حوت زهر شجر الإيالة والعتوة، فأضرب بما يفيد الإضراب والاستفهام التقريري، أعني أم، فقال: أم سبب مزج دمعك بدمك هبوب رياح عطرة تعطر خياشيم المحبين وتحرك لوعة المشتاقين، ووميض برق يلهب خمار الاشتياق ويذكي جذوة الاحتراق إلى تقبيل تراب أعتاب من حلّ في ذلك التراب ونزل على ذلك الجناب. قال: والله أعلم بالصواب ومنه المبدأ وإليه المآب.

وقال الإمام القسطلاني في شرحه: (أمن تذكر) مصدر تذكر كتفعل من الذكر، ضد النسيان، جار ومجرور متعلق بمزجت أضيف إلى قوله: (جيران)، بكسر الجيم كفعلان جمع جار أي من أجل تذكر جيران كانوا (بذي سلم) وهو موضع بين مكة والمدينة قريب من قديد والباء فيه ظرفية وهو صفة لجيران وعامله محذوف، أي كائنين وليعلم أن الذي يلي همزة الاستفهام هو المستفهم عنه فإن استفهمت عن الفعل قلت: أضرب زيداً، وعن المفعول قلت: أزيداً ضربت.

ولما كان المستفهم عنه هنا إنما هو سبب مزج الدمع بالدم أولاه الهمزة ولم يولها

المزج لأنه ليس محققاً وأخره فقال: (مزجت) أي خلطت (دمعاً) بالنصب على المفعولية (جرى) أي سال (من مقلة بدم) جار ومجرور متعلق بجرى، والمقلة شحمة العين التي تجمع السواد والبياض وفيها الحدقة وهي السواد الذي في وسط العين وفيها الناظر والإنسان وهو موضع البصر منها الذي تراه كأنه صورة وليس بخلق مخلوق والعين كالمرآة إذا استقبلها شخص رأى شخصه فيها لشدة صفاء الناظر، والناظران عرقان في العينين والدم هو أحد الأمشاج الأربعة التي خلق منها الإنسان.

وفي قوله: جرى من مقلة بدم، احتراس، ويسمى أيضاً: تكميلاً لأنه لو اقتصر على قوله: مزجت دمعاً بدم لكان مما يحتمل الكلام أن الدمع بعد انفصاله من العين مزج بدم أجنبي وليس هذا مراده فدفعه بقوله: جرى من مقلة بدم. وهذا يرد قول من قال: إن قوله: من مقلة حشو لا فائدة فيه لأن الدمع لا يجري إلاَّ منها.

وتعريف الدمع هو الماء المالح السائل من العين مع البكاء، سخن إن كان للحزن وإلاَّ فبارد، وسببه مضاعفة الحرارة الغريزية بالحرارة الحادثة بحركه النفس الشديدة عند الفرح أو الحزن إلاَّ أنهما مع الحزن أقوى فلذلك يخرج سخناً كالماء الشديد الحرارة إذا فارق النار القوية لا يبرد إلاَّ بعد حين، فإذا كانت الحرارة ضعيفة فبنفس مفارقتها يعود إلى أصله وقلّ خروجه مع الفرح لأن النفس تنبسط معه فتتبدد الحرارة على الجسد فيضيق فعلها وكثر مع الحزن لأن النفس تنقبض فتخرج الحرارة على صوب واحد فتفر الرطوبات المائية أمامها فإذا فرغت خرج الدم لأنه أقرب من غيره لعمومه الأعضاء وسريانه في سائر العروق، فإذا كثر البكاء وطال خمدت الحرارة فجف الدم فيبيض الدمع ويقال حينئذ: شاب الدمع.

قال العلامة الدسوقي على شرح المحلي لهذا المتن: وإلى هذا المعنى يشير قول بعضهم:

غلب السرور عليَّ حتى إنه   من عظم ما قد سرّني أبكاني

يا عين صار الدمع منك سجية   تبكين من فرح ومن أحزان

ثم قال القسطلاني: وفي هذا البيت براعة الاستهلال لأنه علم منه ما قصده من مدحه ﷺ بذكر الجيران بذي سلم، فإنه من جبال الحجاز وفيه الإسناد المجازي فإن المخاطب لم يمزج الدمع بالدم بل فعل سببه وهو البكاء فهو نحو بنى الأمير المدينة. والتنكير في قوله: جيران ودمعاً ومقلة ودم، إما للتعظيم وإما للنوعية. وفيه أيضاً التجنيس الناقص في دمع ودم لاختلافهما بزيادة حرف العين.

ثم عطف على قوله: تذكر قوله: (أم هبت الريح) يعني أمن تذكر جيران مزجت أم من أجل أن هبت الريح (من تلقاء) أي ناحية أو قرب (كاظمة) موضع، قيل بقرب المدينة

الشريفة (وأومض البرق) أي لمع خفياً (في) الليلة (الظلماء من) ناحية (إضم) بكسر الهمزة: جبل، وقيل: واد.

وحقيقة البرق عند الحكماء وأهل الهيئة: نار تحدث عند شدة اصطكاك أجزاء الهواء بعضها في بعض، ولذلك أكثر ما يكون عند انتقال الزمان من البرد إلى الحر أو العكس، فيأتي البرد فيصادف الهواء حاراً أو بالعكس، فتحدث أصوات الرعد من ذلك الاصطكاك.

وأما السنيون فيقولون: إن الرعد ملك، وقيل: صوت ملك يزجر السحاب إلى الجهات التي يريد الله تعالى والبرق صورته.

واعلم أن في بكائه من أجل تذكر جيران بذي سلم تنبيهاً لك أن تبكي خوف أن لا تكون مجاوراً لأهل الجنة لأنهم الكائنون بدار السلام وهي الجنة، كما قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [يونس: الآية ٢٥] في آي كثيرة، أو أن تكون من أهل النار، وكنى عنها بكاظمة لأنها تنطبق على أهلها.

ويكون على هذا المراد بالريح: ريحها وإيماض البرق لهيبها، ولعله العنق الذي يخرج منها لالتقاط أهلها فهي أعرف بهم من الوالدة بولدها فينبغي لكل مكلف أن يبكي مخافة فوت الجنان أو خوف مقاساة النيران.

ويحتمل أن يكون أراد بالجيران: محمد ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم، فإن ذكر المحبوب يوجب بكاء المحب وقد كان كثير من الصحابة وأتباعهم يدركه مثل الموت إذا ذكر النبي ﷺ فمنهم من يضطرب ومنهم من يصفر لونه ومنهم من يغشى عليه.

وفي كلامه إشارة إلى أن الحزن والبكاء خوفاً لا ينبغي أن يفارقا المكلف. وبالجملة، فالتزام الحزن والبكاء خوفاً من نقم الله تعالى لا يسكن إلاّ قلب تقي كما قال بشر الحافي رحمه الله تعالى: الخوف ملك لا يسكن إلاّ قلب تقي.

وقال سفيان بن عيينة رحمه الله تعالى: لو أن محزوناً بكى في أمة لرحمها الله عز وجل ببركة بكائه. اهـ بلفظه رضي الله تعالى عنه وأمدنا بمدده.

واعلم أن قوله: أمن تذكر جيران، الخ، هو أول القصيدة باتفاق، وأما ما شاع على ألسنة الناس من قولهم:

الحمد للّه مُنْشِىء الخلق من عدم ... ثمّ الصلاة على المختار في القِدَم

فليس منها قطعاً.

قال العلامة الدسوقي: وهو وإن كان ثناءً حسناً في ذاته إلاّ أن ابتداء القصائد به غير مستحسن عند الأدباء لأن عادتهم افتتاح قصائدهم بذكر لوازم العشق من ذكر الأحبة

وديارهم ومقاساة الأحزان والأشواق وتحمل مكاره الفراغ، ويسمون ذلك عندهم غزلاً وتشبيباً ويعدّون ذلك من جملة لطف المطلع لاهتمامهم بشأن العشق واغتنامهم شدائده. ولذلك قال بعضهم: الشعر لا يبدأ بالبسملة والحمدلة.

ثم قال الناظم رحمه الله تعالى مستفهماً استفهاماً إنكارياً راداً على مخاطبة المنكر للأثر الناشيء عن الحب بسبب إنكاره للحب:

فما لعينيك إن قلت اكففا همتا وما لقلبك إن قلت استفق يهم

أي: إن صدقت في إنكارك نشأة ذلك البكاء عن الحب وأن الحب لا وجود له عندك فما لعينيك، أي: فأي سبب أوجب لعينيك إن قلت لهما: اكففا عن البكاء واتركاه سال دمعهما، وما لقلبك إن قلت له أفق مما أنت فيه من الوجد يتحيّر ويتوّله، وكل من هذين الأمرين من آثار الحب.

وظهر مما قلناه: أن الفاء واقعة في جواب شرط مقدّر. اهـ من المحلى والدسوقي عليه.

وقال العلامة السعد: يعني إن كنت تنكر فرط الوجد في المحبة والوداد وتظهر السلوّ عن كوامن لواعج الفؤاد فما لعينيك إن أردت منهما الإمساك عن البكاء سالتا أشد السيلان، وما لقلبك إن طلبت منه الإفاقة يهيم في أودية التحيّر غاية الهيمان.

فالفاء في: فما، فصيحة لإفصاحها عن الشرط المحذوف ويجوز أن تكون لعطف الاستفهامية على الاستفهامية والاستفهام للتعجب كما في قوله تعالى: ﴿مَالِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ﴾ [النمل: الآية ٢٠] والعامل في لعينيك محذوف، أي ما حدث وما عرض. والشرطيتان حالان جعلتا اسميتين بتقدير هما في الأولى، وهو في الثانية وكف يستعمل لازماً ومتعدياً. وهمى: سال، وإسناده إلى العينين مجاز مثل: سال الميزاب. واستفاق بمعنى أفاق، وهام: تحيّر يعني أيها الصب المتيّم الباكي أسفاً والمحترق في نار الحيرة لهفاً كيف تطمع في إخفاء حالك مع هذين الشاهدين على ما في بالك من بلبالك.

كيف يخفي المحب سرّ هواه وسقام الهوى عليه دليل اهـ

وقال العلامة أبو السعود: الفاء فصيحة، وما للاستفهام التعجبي كقوله تعالى: ﴿مَالِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ﴾ [النمل: الآية ٢٠] ولعينيك جار ومجرور متعلق بما لتضمنها معنى التعجب أو الاستفهام، أي: أي شيء حصل لعينيك، أو ما في محل رفع على الابتداء ولعينيك خبره.

والجملة الشرطية إما أن تكون في محل النصب على الحال وإما أن تكون استئنافية كأنه لما رأى أنه تعجب من عينيه قال: ما بال عيني يتعجب منهما، فقيل له: إن قلت اكففا همتا وكذا القول في المصراع الثاني.

ثم قال: والمعنى: أنه لما رأى الصب المسكين والعاشق المستكين مازجاً مما يكابد من شدّة الأشواق وشائباً مما يقاسي من ألم الفراق دمع عينيه بدم الأكباد وماء أماقيه بصديد الفؤاد ولم يظهر الشكوى مما يجده من أهل الوداد، علم أنه سينكر محبته وسيخفي محنته فخاطبه محتجاً عليه بما يثبت مدّعاه قائلاً له: ما بال عينيك إن قلت لهما اكففا الخ، وما لقلبك المستهام وفؤادك المستضام إن قلت له أفق من الغرام واصح من سكر الهيام لم يأت عما عنفته به من الملام ولم يدع ما كلّمته به من الكلام. فما هذه إلاّ شنشنة العاشقين وليس هي إلاّ ديدنة الوامقين. اهـ.

وفي قوله: اكففا وهمتا، المطابقة، ويسمى الطباق والتضاد وهو الجمع بين ضدين أو متقابلين. اهـ.

قال العلامة القسطلاني: والفاء في فما جواب شرط مقدّر، أي إن كان إنكارك حقاً فأي سبب أوجب لعينيك لما أن قلت لهما اكففا بكاءكما همتا وما لقلبك إن قلت له استفق من غمرتك. يهم: مضارع هام، والهيام كالجنون. يقال: هام في العشق، لا يدري أين هو. وخص القلب لأنه محل العقل عند أكثر السنيين، قال تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: الآية ١٧٩] وقالت طائفة: محله الدماغ، ومنهم من جمع بين القولين لما بينهما من الاتصال وهو شكل صنوبري وموضعه من الجسد وسط الصدر وهو منبع الحياة وعنصر لحرارة الجسم.

ولما لم يحر المسؤول جواباً وأفحمه السائل بالسؤال المسكت رجع في تغليطه في إنكار حالة الحب التي لا تخفى، فقال منكراً:

أيحسب الصب أن الحب منكتم ما بين منسجم منه ومضطرم

أي أيظنّ العاشق المشتاق والمستهام الذي ولهه الحب أن الحب منكتم عن الناس، اسم فاعل من الكتم، أي مستتر ما بين دمع عين منسجم بمعنى سائل منه وحر قلب مضطرم منه أي ملتهب. والطاء بدل من التاء، أصله مضترم، كمفتعل. وما في قوله: ما بين زائدة. اهـ.

قال العلامة السعد: يعني مما يقضي منه العجب ارتكاب ما لا يفضي إلى الأدب، وهو أن ينكر المحب ويظن أن حبه يبقى منكتماً مع كون دمعه منسجماً وقلبه مضطرماً.

وللمحب لسان في شمائله بما يجن من الأهواء يعترف

فلا ينبغي منك الإنكار بعدما ظهرت شواهد الآثار، فالاستفهام في: أيحسب، للتعجب والإنكار التوبيخي بمعنى: لا ينبغي أن يكون، ويحسب بالكسر والفتح من أفعال القلوب، والصب العاشق من صب الماء سكبه لأنه بكاء غالباً كما قيل:

وما في الخلق أشقى من محب وإن وجد الهوى مر المذاق

تراه باكياً في كل حال مخافة فرقة أو لاشتياق

فيبكي إن نأوا خوفاً عليهم ويبكي إن دنوا خوف الفراق

وأن مع اسمها وخبرها قام مقام المفعولين، وما بمعنى الذي، منصوب محلاً على أنه بدل من الحب أو صفة له، وصدر الصلة محذوف أي الحب الذي هو بين دمع منسجم أي منصب وقلب مضطرم أي مشتغل بنار الحب أي ملتبس بهما وملزوم لهما.

فالحاصل: أن ما استولى وظهرت آثاره لا يتأتى ستره أو إنكاره اهـ.

وعبارة المحلى: ثم قال له ملتفتاً من الخطاب إلى الغيبة: أيحسب الصب، أي العاشق، لأنه لكثرة بكائه غالباً كأنه يصب الدمع من العينين، والاستفهام للتعجب الإنكاري، أي: ما ينبغي للمحب أن يظهر انكتام حبه عن الناس في ظهوره بانسجام دمعه واضطراب قلبه.

قال العلامة الدسوقي قوله ثم قال: أي على جهة غلبة الإنكار لأن ذلك المسؤول لما لم يرد جواباً وأفحمه السائل بالسؤال المسكت والإلزام المبهت رجع إلى تغليطه في إنكاره حالة الحب التي لا تخفى، فقال له على وجه الإنكار: أيحسب الخ. وقوله: ملتفتاً الخ. لما جرت به عادة الأدباء من تغيير كلامهم من أسلوب إلى أسلوب آخر تكلماً وخطاباً وغيبة نظرية للمسموع وتنشيطاً للسامع فإنهم في قرى الأرواح يتضيفون بأساليب الإرادات كما أن الناس في قرى الأشباح يتضيفون بألوان الأطعمة اهـ.

وفي أبي السعود: الهمزة للاستفهام التقريري، وحاصله: أنه يقرر انحصار ظنه مع انكتام الحب بين هذين الأمرين. وقيل: إنه استفهام تعجبي، وقيل: توبيخي، وقيل: إنكاري ولكل وجه وحيثية. وإن: مع اسمها وخبرها مفعولان ليحسب. وبين: ظرف متعلق بمنكتم ومنسجم وكذلك مضطرم، أي قلب مضطرم.

والمعنى: أنه لما سأله عن سبب مزج الدمع بالدم وكان في سؤاله معرضاً عن عشقه وظهرت منه أمارات الإنكار وزعم أن إنكاره يجديه في الاستتار دفع ظنه بقوله: أيحسب الصب الذي ظهرت شهود عشقه وبانت بينات هواه أن اشتغال قلبه بمن يهواه وسلب لبّه بمن هو في الدنيا مناه قد يستتر عن الرائين وينكتم عن الناظرين حال كونه واقعاً بين أمرين هما كاشفان للسرائر ومكمنان ما يبرز في الضمائر، أعني: الدمع المنسكب من الآماق والقلب المضطرم بنار الأشواق. كلا فإن الأمر أبين من الأمس وأظهر من الشمس. قال الشاعر:

لي في محبتكم شهود أربع وشهود كل قضية اثنان

خفقان قلبي وارتعاش مفاصلي ونحول جسمي وارتجاج لساني

ثم إن المسؤول كأنه قال للسائل وهو المصنف: سلمنا إنكارك على الصب، ظنه خفاء حبه لكني لست بصب فما دليلك على ذلك. فقال السائل:

لولا الهوى لم ترق دمعاً على طلل ... ولا أرقت لذكر البان والعلم

أي لولا الهوى موجود لديك لم ترق، أي تصب، دمعاً على طلل، منسوب إلى الأحباب، أي في طللهم إن قدرنا أنه شاهده يبكي بين الأطلال وفيه تكلف وإن لم يقدر وقوعه على الطلل فهي للتعليل، أي من أجل أن تذكرت أو ذكرت لك أطلال الأحباب.

والطلل: ما ارتفع من آثار الديار، والجمع: أطلال وطلول، ولولا: حرف امتناع لوجود وهي تلزم الدخول على المبتدأ وهو هنا الهوى وخبره محذوف وجوباً على الصحيح. والتقدير كما قدمناه: لولا الهوى موجود ويغني عنه في الغالب جواب لولا ولم والفعل المجزوم بها وما تعلق به جواب لولا ودمعاً مفعول ترق.

ثم أردف هذا الدليل وهو إراقة الدمع على الطلل بدليل آخر فقال: ولا أرقت ـ بكسر الراء ـ: سهرت، أي ولولا الهوى لم تسهر لذكر شجر البان والعلم، وشجر البان ببلاد الأحبة والعلم جبل أو الجبل الطويل، وهو من جبال الأحبة أيضاً. ويحتمل أن يكون مراده: ولا أرقت لذكر البان والعلم المشبه بهما المحبوب في طول القامة وحسن الهيئة وطيب الرائحة، وإنما أورثه ذكرهما السهر لأن المحب تكثر حرارته فتفنى رطوبات دماغه التي هي من صعود أبخرة من المعدة إليه، وإنما يكون النوم من تلك الرطوبات إذا كثرت فتجمد هناك ويكون منها النوم والسبات أي الراحة لا الداء المعروف، ولذا تنعكس الحرارة عند النوم إلى داخل الجسد وسببها الأعظم كثرة الطعام والشراب لاشتغال الحرارة، أي الغريزية، بهضمهما فيضعف ما يصل منها إلى الدماغ ويكثر فيه ما يفر أمام الحرارة من الرطوبات الباردة فتخمد لذلك وينام، والمحب الذي ألهاه حبه عن الأكل والشرب تضاعفت حرارته الغريزية بالحرارة التي اكتسبها من لوعة الحب وحرقته فتفنى رطوباته فلا ينام، لا سيما عند تذكر معاهد الأحباب أو ما هو شبيه بالأحباب.

واللام في: لذكر البان، للتعليل، وأل: في الهوى، تحتمل الجنس، أي لولا هذه الحقيقة والعهد، أي: لولا هواك. وفي قوله: لم ترق، التفات من الغيبة إلى الخطاب، نحو: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝ إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: الآيتان ٤، ٥] اهـ من القسطلاني.

قال العلامة السعد: يعني: يا من أراق الدموع على الدمن والأطلال وأرق لذكر أماكن الوصال ومنازل مشاهدة الجمال لو لم تكن لك محبة مع أهل المنازل وسكان الطلل مالك تبكي على أطلال الكثيب والعقيق والدخول وحومل. وما بالك تسهر الليالي بذكر الشجر والجبل، ومن المعلوم أن السهر والبكاء من علامة أهل المحبة والولاء، والمحب لا يبكي إلاَّ للحبيب والمريض لا يتمنى إلاَّ لقاء الطبيب، ولهذا قيل:

سهر العيون لغير وجهك باطل   وبكاؤهنّ بعيد بعدك ضائع

وفي أبي السعود: الهوى المحبة الشديدة والميل. قال الشاعر:

هو كل نفس أين حل حبيبها

والإراقة: السكب، والطلل: رسم الديار بعد خرابها، ويجمع على أطلال. والبان: شجر ينبت في البادية تشبه به قدود الحسان، والعلم: جبل من جبال الحجاز. قال الشاعر:

إن جئت سلعاً فسل عن جيرة العلم   واقرأ السلام على عرب بذي سلم

ولولا: حرف لامتناع الشيء لوجود غيره، أي أن يكون وجود أحد الشيئين علة لعدم الآخر كقوله: لولا علي لهلك عمر، أي وجود علي سبب لانتفاء هلاك عمر، فيكون وجود الهوى في البيت سبباً لعدم نفي إراقة الدمع على الطلل، أي وجود الهوى مستلزم لإراقة الدمع فتكون إراقة الدمع دليلاً على وجود الهوى ولولا هذه لا تدخل إلاّ على المبتدأ وخبره محذوف وجوباً أي على الصحيح لدلالة لولا عليه ووقوع جوابها موضعه.

وقيل: إنما يجب حذفه إذا كان الخبر عاماً كالمثال المذكور في البيت، وأما إذا كان خاصاً فإنه يجب ذكره كقوله ﷺ: «لولا قومك حديثو عهد بكفر لأسست البيت على قواعد إبراهيم». وقول إمامنا الشافعي رضي الله عنه:

ولولا الشعر بالعلماء يزري   لكنت اليوم أشعر من لبيد

والمعنى: لولا محبة أهل هذه الديار ومن حل بها من الشموس السالبة للصبر والقرار المسعرة في القلب لهيب النار لم تصب أيها الصب الدمع المدرار على طلل لم يبق منه إلاّ الآثار. وما أحسن ما يتمثل به لحالتك من بين الأشعار:

أمر على الديار ديار ليلى   أقبّل ذا الجدار وذا الجدار

فما حب الديار شغفن قلبي   ولكن حب من سكن الديارا

ولولا أنك تذكرت من بان من بانات القدود أسيلات الخدود مرتفعات النهود ما أرقت لذكر البان والعلم ولا قلقت تذكر من أنجد وأتهم اهـ باختصار.

ثم أردف الدليل بدليل ثالث على ما في بعض النسخ التي شرح عليها بعض الشارحين لكن لم يوجد ذلك في كثير من النسخ بقوله:

ولا أعارتك لوني عبرة وضنى   ذكرى الخيام وذكرى ساكني الخيم

أي: ولولا الهوى لم تعرك، أي تعطك على سبيل العارية، ذكرى الخيام، فاعل

أعارت ومضاف إليه، والخيام جمع خيمة وهي بيت تتخذه العرب من عيدان الشجر. والمراد باللون هنا النوع، فإنه شبه نوعي العبرة والضنى بلباسين أعارتهما ذكرى الخيام وذكرى ساكنيها للصب ووجه التشبيه أن آثار الحب زينة للصب يتزين بها كما يتزين باللباس، فرقّة جسمه وصفرة لونه كثوب بديع الرقة والصبغ وذلك لون الضنى وانسجام الدموع سمطين أو أكثر على النحر بمثابة الدر المعلق عليه وذلك لون العبرة.

وفي قوله: ولا أعارتك لوني، استعارة بالكناية ويلازمها استعارة تخييلية وحقيقتها أن يضمر التشبيه في النفس ولا يذكر شيء من أركانه سوى المشبه. ويدل على التشبيه بأن يثبت المشبه بشيء مختص بالمشبه به فيسمى التشبيه استعارة بالكناية، وهو ههنا تشبيه لوني العبرة والضنى بلباسين ولم يذكرا لكن ذكر ما هو من أحوالهما وهي العارية، فتشبيه اللونين باللباسين هو الاستعارة بالكناية وإثبات العارية لهما استعارة تخييلية، وسقطت النون من ساكنين للإضافة اهـ من القسطلاني.

ولما أورد السائل على المخاطب الحجج الدالة على أنه محب وأكثر منه حتى لم يبق له عذر وصحت نتيجة المستدل أقبل عليه بالخطاب وقال منكراً عليه بصورة الاستفهام:

فكيف تنكر حباً بعدما شهدت ... به عليك عدول الدمع والسقم

أي: فكيف تجحد حباً بعد هذه الحجج وبعدما شهدت أي أخبرت به، أي بالحب عليك عدول الدمع السائل من عينيك عند ذكر الطلل والسقم القائم بجسمك لذكر ساكني الخيم وهم عدول لا ترد شهادتهم، وعدول: جمع عدل، وأصله مصدر فلا يثنى ولا يجمع وباعتبار ما صار إليه من النقل للذات يثنى ويجمع، فتقول: عدلان وعدول اهـ.

قال العلامة السعد: الفاء فصيحة على ما أشير إليه، ويحتمل أن تكون للعطف على الجملة الشرطية، وكيف حال لا مفعول فيه على ما توهم بدليل أنه يجاب بالحال مثل: راكباً، في جواب: كيف جاء زيد، وتبدل منه الحال مثل: كيف جاء زيد أراكباً أم ماشياً؟ والاستفهام للتعجب والاستبعاد بمعنى ما ينبغي أن يكون، وتنوين حباً للتعظيم، والعامل في بعد تنكر وما مصدرية وضمير به للمحب أو موصولة والضمير لها والشهادة مستعارة للدلالة الصادقة. وذكر العدول ترشيح لها وإضافته إلى الدمع والسقم للبيان أو بمعنى: من أي العدول المستفادة من جهتهما. وهي كما ذكرت خمسة، فتأمل، أو المراد تحقق الدمع والسقم في الأوقات وتواليهما قبل شاهد المحبة مع ساجم وسقم عن اللذة حاجم وميل دائم وقلب هائم فكيف تنكر حب من خلوت به في تلك المعاهد بعد ما شهدت عليك وشوهدت فيك هذه الشواهد اهـ.

وفي أبي السعود: الفاء تفريعية، أي إذا لم يرق الدمع إلاّ الهوى ولم يسلب الرقاد إلاّ الجوى، وهما لا ينفكان عنك وأنت لا تنفك عنهما فكيف تنكر الحب والتنوين في الحب للتعظيم، أي حباً عظيماً طاهراً لا يخفى على أحد وبعد ظرف لتنكر وما أما مصدرية وضمير به للحب وأما موصولة والضمير لها والمشهود به الحب والمشهود عليه المحب والمشهود له الحبيب والشاهدان العدلان الدمع والسقم والعدول وصف في الأصل غلب استعماله في الاسمية وهو جمع عدل ـ بفتح العين ـ وهو شاهد دار القضاء، وبالكسر أحد الوتيرين اللذين كالقفة يوضع فيهما المحمول على ظهر الدابة.

روى العلامة في شرحه للمفتاح: أن بعض السفالين مرّ ببغداد على محكمة دار القضاء وكان أحد العدول جالساً هناك، فضرطت بغلته فقال: في لحية العدل، كما هو دأب سفهائهم، فقال بعض الظرفاء: افتح العين فإن المولى حاضر. فإن قلت: ما وجه جمع العدول المضاف إلى الدمع والسقم مع إفراد المضاف إليه، قلت: للدلالة على كثرة الدمع والسقم، فإن قلت: لم أفرد الدمع والسقم، قلت: ليدل على جنس الدمع وجنس السقم شاهدان عليه لئلا يختص بفرد دون فرد ولذلك حلاه باللام الجنسية فهو من قبيل ﴿وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي﴾ [مريم: الآية ٤].

والمعنى: لما ظهرت عليه أمارات الإنكار وعلامات الاستتار بعد أن ظهرت منه آثار المحبة والهوى ودلائل الحرقة والجوى، خاطبه معنفاً وقال له مؤنفاً: أتنكر العشق الذي ظهرت علاماته والهوى الذي بانت بيناته بعد أن شهدت به عليك لدى حكام المحبين وقضاة العاشقين، عدول من جنس الدمع الصافي من الكدر المترقرق على صفحات الوجنات ترقرق ماء المطر والسقم الذي ألبسك ثوب النحول وردّاك بأرديّة الردى وجلببك بجلباب الصغار والذبول، فهل هذا مقام ينفع فيه الإنكار أو يتيسر فيه الاستتار اهـ. ثم عطف عليه بقوله:

وأثبت الوجد خطى عبرة وضنى مثل البهار على خديك والعنم

أي: وأثبت الوجد من جهة الحزن خطى عبرة وضنى أي مرضاً مثل البهار ـ بفتح الموحدة ـ وهو ورد أصفر، على خديك. والعنم ـ بفتح العين والنون ـ شجر له أغصان حمر. ومراده تشبيه الخطين بالعنم في الحمرة لانمزاج الدمع بالدم وأثر الضنى بالبهار في الصفرة اهـ.

قال العلامة السعد: وأثبت عطف على شهدت أي كيف تنكر حباً بعدما أثبت الوجد وهو الحزن، ويستعمل في الهم، المستولي على القلب الناشىء من الحب، على خديك صفة عبرة وهو الهزال والضعف ويلازمه عادة صفرة الوجه مثل منصوب على أنه حال أو مفعول ثان لأثبت بتضمينه معنى جعل. والبهار نوع من الورد أصفر ينبت في

الربيع، والعنم عطف عليه وهو شجر أحمر لين الأغصان يشبه به البنان، يقال: بنان معنم، أي مخضوب بالعنم. والمشبه بالبهار هو الضنى على أن المراد به لازمه. وبالعنم هو خطا عبرة وإسناد أثبت إلى الوجد مجاز عقلي من قبيل الإسناد إلى السبب كما في: سرّتني رؤيتك، فالمعنى أنه يقول: يا من مقلته العبراء يدوم انصبابها وكبده الحراء لا يزول التهابها كيف تنكر المحبة والأشواق، وكيف تواري سوأة القلب المشتاق بعد شهادة عدول الدمع والسقم بها عليك وإثبات الوجد المبرح خطين من العبرة على خديك وذبول جسمك من الضنى وذوبانه من الأوار وحمرة دمعك مثل العنم واصفرار لونك مثل البهار فلا بدّ لك من الإقرار كما أقرّ بالهوى عند شهادة هؤلاء العدول بعض أهل الأسرار حيث قال:

شوقي إليكم وصفه لا يمكن ... يا من لهم في ربع قلبي مسكن

لولا الهوى ما ذاب جسمي بالضنى ... والدمع لولا الوجد هلا يسكن

عندي غرام نحوكم وتشوّق ... عن شرح أيسره تكل الألسن

اهـ. وفي أبي السعود: الوجد في الأصل: الحذق، وفي التعارف: هو حركة النفس واضطرابها عند ذكر المعشوق والخط في اصطلاح المتكلمين ما يقبل القسمة طولاً، والعبرة الدمعة مأخوذة من العبور وهو الاجتياز من غير وقوف، وإنما سميت الدمعة بها لتجاوزها حد الخدود وعدم إقامتها عليه كأنها عابر سبيل. قال الشاعر:

عبرتي ثم حيرتي واصطباري ... يتسابقن والدموع سوابق

والضنى: الهزال من المرض. قال الشاعر:

خفيت ضنى عمن يروم عيادتي ... فلولا أنيني ما اهتدى نحوي الركب

والبهار: ورد أصفر ينبت في الربيع. والعنم: شجر لين الأغصان يشبه به بنان الجواري. وقيل: وردة حمراء تنبت في الماء، وقيل: شجر له ثمر أحمر، وهذا المعنى هو الذي وقع في لفظ البيت لرعاية التقابل بينه وبين البهار في الصفرة والحمرة.

ثم قوله: وأثبت عطف على شهدت فهو في حيز بعدما وخطي مفعول أثبت وحذف نون التثنية للإضافة، والإضافة لامية ومثل صفة خطى، وقيل: منصوب على الحال وعلى خدّيك متعلق بأثبت ويجوز أن يكون مستقراً أي كائنين على خديك وإضافة الخطين إلى العبرة والضنى يجوز أن تكون بيانية، أي خطين من العبرة والضنى مشبهين بالبهار والعنم في الصفرة والحمرة، ففي البيت لف ونشر غير مرتب وتنكير العبرة والضنى للتعظيم والتنويع وتشبيههما بالبهار والعنم ادعاء لظهورهما تحقيقاً لما ادّعاه، وفي هذا البيت والبيت السابق صنعة مراعاة النظير، فإن ذكر البهار والعنم والوجد والضنى والعبرة من النظائر كما أن ذكر الإنكار والشهادة والعدول والخط والإثبات كذلك.

والمعنى: كيف يمكنك إنكار المحبة والغرام والهوى والهيام بعد أن شهد عليك شاهدان عدلان، أعني الدمع والسقم، وسجل به حاكم الغرام الذي هو الوجد والهيام على صفحتي وجنتيك وديباجتي خديك خطين هما خط الدمع والسقم ووشي العبرة والألم، اللذين هما في ظهور كونهما من آثار العشق كنار على علم وضرام على إضم حيث إن خط الدمع من مزجك له بالدم بلغ مرتبة في حمرة شبيهة بالعنم وخط الضنى والانكسار بلغ رتبة في الاصفرار شبيهة بالبهار اهـ.

فلما كانت هذه الحجج واضحة وعلى كل شرف لائحة ولم يجد المخاطب له بدّاً من الإقرار أفصح مقراً بلسان المقال كما أقر بلسان الحال، فقال:

نعم سرى طيف من أهوى فأرقني والحب يعترض اللذات بالألم

أي: صدقت أيها السائل في كل ما نسبتني إليه فإني إنما بكيت وسقمت من تذكر الجيران الذين كنت فارقتهم وتسليت عنهم بعض التسلي، وسبب ذلك التذكر أن سرى طيف أي خيال من أهوى إلي ليلاً في النوم فانتبهت لذلك فزعاً مرعوباً لما حرّكني من الفرح بسبب لقائهم ظناً مني أن ذلك في اليقظة فلما تبيَّن لي أنه حلم عاد لي ما كنت تسليت عنه بعض التسلي فأثّر ذلك عندي فأرّقني، أي أسهرني، والحب يعترض اللذات، أي يحول دونها بالألم، ويحتمل أن يكون معنى يعترض: يغيب اللذات من قواهم، عرضته أي غيبته، واعترض الشيء: صار عارضاً كالخشبة المعترضة في النهر. واللذات: جمع لذة، قيل: هي إدراك الملائم من حيث هو ملائم والألم مقابلها وقيل: اللذة دفع الألم كالأكل لألم الجوع وردّ بأنه أحد أسبابها، وقد تتصوّر دونه كالالتذاذ برؤية وجه مليح بغتة فإنه لم يتقدم ألم لفقده حتى يدفع فكأنه قال: كان لي قبل طروق خياله التذاذ بالنوم الموجب لراحة بدني عند من يرى اللذات وجوداً بنفسها لا أنها إضافية أو لتسليني عن ألم فراقهم عند من يراها دفع الألم اهـ قسطلاني.

قال العلامة السعد: نعم حرف إيجاب لما سبق وهو الاستفهام عن تحقق الحب سرى، سرى: أي ذهب بالليل والطيف الخيال من أهوى أي أحبه، أرقه: أسهره، يعترض: من اعترض له بسهم أقبل به قبله فرماه فقتله فالألم يكون استعارة عن السهم واللذات عن الشخص المرمي.

فالحاصل: أنه لما استفهم منه على سبيل الإنكار وتليت عليه الآيات الدالة على أنه عاشق بحيث لم يجد إلى الإنكار سبيلاً ولا إلى التبري عنه دليلاً، فاعترف بعدما أصبح خده بالدموع الممزوجة بالدم منقشاً وفشا سره المكنون في الحشا، كما قال:

تدفق من عيوني ماء حزني تلظى في الجوانح منه جمر

غدا العبرات مبرزة لسري وهل يخفى مع العبرات سرّ

فقال: نعم، ما ظننتم كما ظننتم. ثم كأن سائلاً قال: كيف كان الحال، فاستأنف بقوله: سرى. وفي قوله: فأرّقني، التفات من الخطاب إلى التكلم على عكس ما كان في المطلع من التكلم إلى الخطاب على مذهب السكاكي لأن الالتفات عنده تغيير مقتضى التعبير اهـ.

وفي أبي السعود: نعم تصديق وتقرير للكلام السابق لا لمطلق الإيجاب كبلى، ولذلك قيل في جواب: أو لم تؤمن، بلى، ولم يقل: نعم، وسرى من السري: وهو السير في بعض من الليل، والطيف: الخيال مترادفان وهما في اللغة مثال الحبيب في النوم، وقيل: الخيال ما يرتسم في القوّة المخيلة سواء كان في اليقظة أو في النوم. والطيف لا يكون إلاّ في النوم، ومن أجل ذلك ينسب الطيف إلى الخيال والأرق السهر. ويعترض: أي يغيب اللذات ويزيلها بسبب الألم، فالباء سببية أو للملابسة والجار والمجرور في محل نصب على الحالية، أي: يعترض اللذات متنبساً بالألم، وطيف: فاعل سرى، ومن: موصولة في محل جر لإضافة طيف إليها، وأهوى: صلته والعائد محذوف لكونه منصوباً والواو في والحب: للحال، والجملة: أعني المبتدأ الذي هو الحب وخبره الذي هو يعترض حالية واللذات مفعول يعترض والجار والمجرور، أعني بالألم متعلق بيعترض.

والمعنى: أنه لما رأى كتمان الهوى وإخفاء الجوى بعدما أفشى الدمع ما أخفاه وأظهر النحول ما طواه لم يجد نفعاً فاعترف بالمحبة وأقر بالهوى فقال: نعم ابتليت بهذه النقم، فكأنه سئل عن سبب الأرق الذي اعتراه والقلق الذي تغشّاه هل هو طارق الخيال وطيف الحبيب، فقال: نعم سرى طيف من أهواه وخيال من أتمنى رؤياه بعدما كنت متمتعاً بالمشاهدة والوصال متلذّذاً بالمجاورة والاتصال. ولا غرو في هذا الحال، فإن الحب يعترض اللذات بالألم ويشوب النِّعم بالنِّقم.

فكنا في اجتماع كالثريا ... فصيّرنا الزمان بنات نعش

فإن قلت: لم أفرد الألم وجمع اللذات؟ قلت: إن كل فرد من أفراد اللذة الحاصلة في العشق مشبوب بجنس الألم فيكون فيه إشارة إلى شدّة الألم وأنه لم تخل لذة منه اهـ.

وفي المحلى والدسوقي: يعترض اللذات، أي: يحول دونها ويمنع منها بسبب الألم الذي ينشأ عنه، وسبب الطيف: أن النفس إذا ولعت بشيء حصل في القوّة المخيلة فيصير نصب عينيه ويراه في النوم فيحصل له نوع تسل وإن حصل له ألم حيث لم يجد من يهوى ولا خياله. ولبعضهم في هذا المعنى:

وزارني طيف من أهوى على حذر ... من الوشاة وداعي الصبح قد هتفا

فكدت أوقظ من حولي به فرحاً وكاد يهتك سر الحب بي شغفا

ثم انتبهت وآمالي تجنبني نيل المنى فاستحالت غبطتي أسفا

ثم استشعر بلائم في الحب لأن البيت السابق قد تضمن الإقرار بالمحبة والغالب أن من أقرّ به يلام، فخاطب هذا اللائم بقوله:

يا لائمي في الهوى العذري معذرة مني إليك ولو أنصفت لم تلم

أي يا من يلومني في شأن الهوى أو سبب الهوى العذري ـ بالذال المعجمة ـ أي الحب الفرط منسوب إلى بني عذرة، قبيلة يؤدّي العشق بهم إلى الموت. معذرة مني إليك: منصوب نصب المصدر بفعل مقدر، أي أعتذر إليك اعتذاراً بأني مبتلى بالحب ولو أنصفت لم تلم فيه لأنه ليس باختياري. وقوله: منسوب إلى بني عذرة يشير إلى أنه منسوب لكل قبيلة من حيث إنه مشابه لهواهم فالنسبة تشبيهية. وقيل: الهوى العذري هو الحب المفرط الذي من شأنه أن يكون صاحبه مقبول العذر عند كل أحد. وقوله: يؤدي العشق بهم إلى الموت: أي لصدقهم في الحب ورقة قلوبهم، وكان أكثر موتهم بداء العشق لأنه قلّ أن يعيش أحد منه، فمتى عشق مات، وإلى هذا المعنى أشار المتنبي حيث قال:

وعذلت أهل العشق حتى ذقته فعجبت كيف يموت من لا يعشق

فعذرتهم وعرفت ذنبي أنني عيّرتهم فلقيت منه ما لقوا

وقوله: ليس باختياري، أي ولا يلام إلاَّ على الأمر الاختياري. كما قال القائل:

وعيب الفتى فيما أتى باختياره ولا عيب فيما كان خلقاً مركبا

وقوله: لم تلم، وذلك لأن اللوم على الشيء أو الحث عليه فرع عن تصوره، فأنت لو عرفت الهوى ما هو لم تلم عليه. ولذا قال بعض الصوفية: لا ينبغي لأحد أن يتكلم على مرتبة إلاَّ إذا ذاقها. وإلى ذلك المعنى أشار العارف ابن الفارض بقوله:

دع عنك تعنيفي وذق طعم الهوى وإذا عشقت فبعد ذلك عنّف

وقال أيضاً:

يا لائماً لامني في حبّهم سفهاً كف الملام فلو أحببت لم تلم

اهـ. من المحلى، والدسوقي عليه.

قال العلامة السعد: اللوم العذل في الهوى أي في الوقوع فيه، وإنما جعل الوقوع في الهوى مستتبع للملامة لأنه سبب لها كما في قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٧٩]. والهوى العذري عبارة عن الحب الشديد المفرط.

والعذري نسبة إلى بني عذرة، وهي قبيلة مشهورة بالابتلاء بداء العشق وكثير من شبانهم يهلكون بهذا المرض كما يحكى أن واحداً سأل منهم عن سبب انهماكم في أودية المودة وموجب هلاكهم من شدة المحبة، فأجابوا بأن في قلوبنا خفة وفي نسائنا عفة.

ويجوز أن يكون الهوى العذري عبارة عن الحب المستولي على القلب الذي من حقه أن يقبل العذر من صاحبه كل أحد.

وقيل: في بني عذرة يوجد حسن مفرط أيضا كما في بني هلال، فعلى هذا يكون المعنى الهوى العذري في محبة المحبوب الجميل المفرط في الحسن والجمال.

ويحكى عن الأصمعي أنه مرّ بقبيلة بني عذرة، فأضافه بعضهم، وكانت لمضيفه بنت رشيقة القدّ صبيحة الخدّ فصيحة الكلام مليحة الملام:

وليس بها عيب سوى أن ضيفها ... يعاب بنسيان الأحبة والوطن

يقول الأصمعي: فخرجت من بيت المضيف لأتفرج في باقي حيهم النظيف. فرأيت شاباً ضعيفاً كالهلال ونحيفاً كالخلال، تلوح أسرار المحبة من أسرّته. وتجلي أنوار المودّة في صفرة وجنته، في نظره نار موقدة، وفي قلبه نار تطلع على الأفئدة. لا تنطفىء نيران قلبه لقطرات العبرات وهو يزمزم ويترنم بهذه الأبيات:

فلا عنك لي صبر ولا فيك حيلة ... ولا عنك لي بدّ ولا منك مهرب

فلو كان لي قلبان عشت بواحد ... وأفردت قلباً في هواك يعذب

ولي ألف باب قد عرفت طريقها ... ولكن بلا قلب إلى أين أذهب

فسألت الحضار عن حاله واستكشفت عن موجب بلباله، فقالوا: الحبيبة التي أنت في بيتها بنت عم المصاب ولنيران هواها في قلبه اشتعال والتهاب، وما رآها منذ سنين وله من فراقها زفرة وأنين.

يقول الأصمعي: فمضيت إلى البيت طالباً بلعل وليت، وقلت بإراحة جراحة كل قلب كئيب: أرى فيكم حرمة وذماماً لكل غريب وقد جئت إليك مستشفعاً في أمر هذا الشاب فتعطفي عليه باستمالة قلبه المصاب وزودي قرّة عينه بنور الجمال وتكلفي مسرّة قلبه بسعادة الوصال. فقالت: صلاحه في فراقنا وفوزه في الاحتراق بلواعج أشواقنا. فبعد اللتيا والتي قبلت إنجاح أمنيتي فذهبت إلى المحب وقلت: استعدّ لمشاهدة المحبوب وكن مراقباً لمواصلة المطلوب. فبينما ذلك هاج الغبار من جانب الحبائب فغشي عليه، ووقع في النار التي كانت لديه واحترق بعض أعضائه وزاد داء حوبائه، فمشيت إلى الحبيبة فقلت: يا سليم القلب إنه لم يطق مشاهدة غبار نعالنا فكيف يطيق مطالعة أنوار جمالنا.

قوله: معذرة، يجوز أن يرفع معذرة على الابتداء لتخصصها بالظرف الواقع صفة لها، ويجعل إليك خبرها ولكن السماع هو النصب ولو أنصفت جملة شرطية حالية، أي لو عدلت لما جرّعتني مر الملام ولعذرت من ابتلي بتوالي الآلام، ولو ذكرت ما جرى بين المحبين ومحبوبهم المجازى الفاني لقبلت عذر الهائمين في بوادي محبة الحبيب الحقيقي الباقي. اهـ.

وفي القسطلاني: معذرة مني إليك أي أعتذر معذرة، ويصح رفعها على أنها خبر مبتدأ محذوف، أي هذه معذرة أو على أنها مبتدأ، ومني صفة له، وإليك خبره، ولو أنصفت لم تلم، أي لكنك لمت فلم تنصف، ولو حرف امتناع لما كان سيقع لوقوع غيره، ولم تلم جوابها، وبنو عذرة قبيلة من اليمن كما قاله الجوهري إذا دخل أحداً منهم الهوى لم يزل به حتى يقتله.

قال: وفي هذا البيت إشارة إلى أنه ينبغي للعبد أن يستغرق في طاعة الله رجاء أن يكون من أوليائه ولا عليه من عَذل من عذله على ذلك، وليجتهد في إحياء سنن الهدى واتباع طريق المهتدين وإن عنفه في ذلك أحد فليعرض عن الجاهلين اهـ. وفي أبي السعود: اللوم العَذل. قال الشاعر:

لقد لامني في حب ليلى أقاربي   أخي وابن عمي وابن خالي وخاليا

والعذري: نسبة إلى بني عذرة، وهم قبيلة من عرب اليمن قد اشتهروا بغلبة العشق والمحبة.

قيل: إن غلاماً ناحل الجسم قد علت وجهه الصفرة وظهرت عليه آثار الكآبة والحزن، وقف على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال له: ممن يا فتى؟ فقال: من قوم إذا أحبوا ماتوا. فقال: عذري ورب الكعبة، فقال الغلام: نعم، فقال له: ولم ذلك؟ فقال: لرقّة في قلوبنا وعفة في نسائنا. والإنصاف هو إعطاء الحق من نفسه وعدم التجاوز في أخذه.

والمعنى: أيها اللائم في الهوى العذري والعاذل في الحب الجبلي اعذرني معذرة أو خذ مني معذرة مقبولة عند من اتصف بصفة الإنصاف وتنزّه عن طريق الجور والاعتساف، وهي أن هذه المحبة أمر ضروري وخلق جبلي ولا يلوم عاقل أحداً على ما لا اختيار له فيه ولا يعذل لبيب على ما لا سبيل إليه. وهذا قريب من قوله تعالى حكاية عن زليخا حين عنفت في حب يوسف عليه السلام بعد أن أبدت جماله للعاذلات وعرضت حسنه على اللائمات فوقعوا في الحيرة والتيه قالت: ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى﴾ [يُوسُف: الآية ٣٢] اهـ.

ثم أخذ الناظم يستعطف العاذل لعله يرق له فيقبل عذره، فقال:

عدتك حالي لا سري بمستتر عن الوشاة ولا دائي بمنحسم

أي جاوزتك حالي ـ بفتح الياء ـ وهيئتي، والحال تذكر وتؤنث، والأفصح التأنيث. ويحتمل أن يريد بقوله: عدتك حالي الاستفهام على سبيل الإنكار، أي أعدتك حالي وحذفت الهمزة للعلم بها كما قيل في قوله تعالى حكاية عن الخليل إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ [الأنعام: الآية ٧٦] وعلى هذا يكون تأكيداً لقوله: ولو أنصفت لم تلم. وكان العاذل قال حين استفهمه: نعم جاوزتني، فقال الصب: خذ علمها لا سري بمستتر أي بمنكتم عن الوشاة الذين هم أعدائي. والواشي: الكذاب النمَّام الذي يبلِّغ الحديث ويزيِّنه، ولا دائي في الحبّ: أي مرضي بمنحسم، أي ليس بمنقطع حتى يرجى زواله. ويحتمل أن تكون الجملة خبرية أي جاوزتك حالي فأنت لم تصب بمصيبتي حتى تعلم مقدار ما أنا فيه ولو أصبت بها ما عذلتني ولعذرتني. ويكون قوله: لا سري، على هذا التقدير جواب سؤال مقدّر كأنه قيل له: وما حالتك التي استعظمتها، فقال: لا سري الخ، اهـ قسطلاني.

قال العلامة السعد: عدا إليه سري وعليه ظلم وعنه تجاوز وبدون الصلة بمعنى سار سريعاً، والمراد هنا: عدت إليك، فحذف الجار كما في قوله تعالى: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ﴾ [الأعراف: الآية ١٥٥] وهو في الظاهر دعاء على اللائم المؤذي، أي ابتلاك الله بمثل ما ابتلاني به. أما في نظر من يتلذذ ببلاء العشق فيكون دعاء له. ثم كأن سائلاً قال: كيف ذلك الحال، فاستأنف بقوله: لا سري، ولا بمعنى ليس، والسر الأمر الخفي وجمعه أسرار، والوشاة جمع واش من الوشي بمعنى النم لأن النمَّام يزيِّن كلامه. حسمه قطعه فانحسم، يعني: يا من أطال اللسان في الملامة، ومن ملامته أقامت على العشاق القيامة، مكنونات ضمائري غير مستورة عن الوشاة، ومستورات سرائري غير مكنونة لدى الشكاة. ولعمري لا انحسام لدائي ولا انقطاع لرجائي، فلا تسع في هتك الأستار وتلق بالقبول للأعذار فإنك لو ابتليت بما ابتليت به من الغرام لما أطلت على الصب المتيَّم لسان الملام اهـ.

وفي أبي السعود: عدتك، أي جاوزتك، والحال الشأن، يقال: ما حال فلان، أي ما شأنه، والسر: ما يكتم، وقد يطلق على محل الكتم. قال الشاعر:

كتمت حبك في سري وفي خلدي فذاك دمعي على الخدّين للواشي

والاستتار ضد الافتضاح والانتهاك، والوشاة جمع واش من الوشي وهو النقش والتزيين والمراد به هنا النميمة وإنما سمي النمام واشياً لأنه يزيِّن كلامه وينقشه ليروج، قال الشاعر:

لقد حسَّن الواشون في العدل قولهم لتقبله الأسماع والسمع يخدع

والداء المرض، والحسم قطع الشيء استئصالاً ومنه قوله ﷺ في السارق: «اقطعوه ثم حسموه» أي اكووه لينقطع الدم.

والمعنى: يقول للائم داعياً له مستعطفاً إياه طمعاً منه في أن يريحه من إعياء الملام وأن يتركه على ما هو عليه من الغرام: جاوزتك وتعدت عنك مصيبتي فإنها لا يرتضيها مسلم لعدوّه فضلاً عن أن يرتضيها أحد لأصدقائه.

وأما إن حمل على كونه دعاء عليه فالمعنى: أيها الظالم الجافي والعاذل المتعدي الجاني، ابتلاك الله بما بليت به وسلّط عليك ما سلّط الله عليّ من حالة ليس من شأنها أن يُلام صاحبها ولا يعيّر راغبها فإن من عيّر أخاه بذنب أوشك أن يقع فيه، أما سمعت قول من قال: من أظهر الشماتة لأخيه أوشك أن يعافيه الله ويبتليه، فكأنه قال: وما حالتك، فشرحها له بكونها حالة من حقها أن لا يتعرض للوقوع فيها تحذيراً منه علّه أن يكف عنه الملام فيخلص مما هو أمرّ من ضرب الحسام ووقع السهام وطعن السمهري الذي سنانه كسنان الضرام اهـ.

ولما كان العاذل إنما أبدى عذله في صورة النصح وكان أبغض شيء إلى المحب العذل على أي حال كان، قال له:

محضتني النصح لكن لست أسمعه إن المحب عن العذال في صمم

أي: أخلصت لي النصح بزعمك وأنا لا أسلم لك ذلك سلمت أنه كما ذكرت لكن لست أسمعه منك، أي لا أقبله. ثم أبدى عذره في ذلك بقوله: إن المحب عن العذال في صمم، فلا يسمع عذلهم أي لا يقبله. وفي الحديث: حبك الشيء يعمي ويصم، وقد يتلذذ المحب بسماع ذكر حبيبه من العاذل كما قال العارف ابن الفارض:

أدر ذكر من أهوى ولو بملامي فإن أحاديث الحبيب مدامي

فلي ذكرهم يحلو على كل حالة ولو مزجوه عذلي بخصامي

قال الثعالبي في فقه اللغة: يقال في أذنه وقر، فإن زاد فهو صمم، فإن زاد فهو طرش، فإن زاد حتى لا يسمع الرعد فهو صنج، وكان ينبغي للمصنف أن يأتي بما هو أعلى من الصمم إلاّ أنه لم يستقم له الوزن إلاّ بذكر الصمم ولا محل لجملة محضتني هناك لأنها إما مستأنفة أو تفسيرية للوم اللائم المتقدم، وجملة اسمعه في محل نصب على أنها خبر ليس اهـ.

قال العلامة السعد: محضت الشيء أخلصته وصفّيته عما لا ينبغي، والمحض من

الشيء الصرف الخالص، أسمعه قبله كما في سمع الله لمن حمده ولكن للاستدراك وهو دفع توهم تولد من كلام سابق. ولما كان مظنة أن يقال: لم لا تسمع استأنف بقوله: إن المحب، وقوله: عن العذال متعلق إما بأسمعه أو بصمم، وهو أولى من جهة المعنى ولا بأس بتقديم معمول المصدر إذا كان ظرفاً إذ يكفي فيه رائحة الفعل كما نص عليه الشيخ في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ﴾ [الصَّافات: الآية ١٠٢].

وفي صمم خبران، أي كائن في صمم عن سماع كلامهم جعل الصم ظرفاً مبالغة في بيان عدم القبول، يعني أحاط بي الصمم إحاطة الظرف بالمظروف إذ حبك الشيء يصم ويعمي حديث معروف اهـ.

وفي أبي السعود: المحض الخالص من المغاير، يقال: خير محض وشر محض أي خالص أحدهما من الآخر، والنصح والنصيحة بمعنى وهو الدلالة على ما فيه الصلاح قولاً، والعذال جمع عاذل وهو اللائم.

والمعنى: لقد أخلصت النصيحة ونزَّهتها عن التهمة والريبة ولكني لم أسمعها مع أني عالم بكونها نصيحة خالية عن شوائب الريبة مبرّأة عن مخايل الغريبة لما أظهر ما هو عليه من الحال كأنّ قائلاً قال: إذا كنت عالماً بأنها نصيحة خالصة وموعظة صالحة فلم طويت عنها كشحاً ولم تلمح إلى نحوها لمحاً. فقال: إن المحب الصادق والعاشق الوامق محتجب عن عذل العاذلين متحصن عن وشي الواشين في خباء الصمم لأن سماع العذل فوق مرتبة اللمم. قال الشاعر:

عـذل الـعـواذل فـي هـواك مـضـيـع ... هـب أنـهـم عـذلـوا فـمـن ذا يـسـمـع

ثم لما اعترف له على طريق التسليم الجدلي بأنه محض النصح فلم يرجع عن اللوم اتهمه في عذله فكأن السائل قال له: كيف تتهمني في العذل، فقال له:

إني اتهمت نصيح الشيب في عذلي ... والشيب أبعد في نصح عن التهم

أي إني اتهمت الناصح الذي هو أبرأ من كل تهمة وأصدق من كل ناصح وهو الشيب فإنه دليل انهزام القالب وانهدام القلب والسعيد من يتعظ بوعظه.

قال ابن أبي شامة: والمراد بنصيحة الشيب دلالته على قرب الموت المقتضي للاستعداد وباتهامه حمل وقوعه على غير أوانه لئلا يستعد اهـ.

قال السعد: يعني: يا من بالغ في إمحاض النصح والتصدّي للملام كأنك ما ذقت جرعة من صهباء الغرام.

إذا كنت خلواً فاعذر الصب في الهوى ... فـمـا الـمـبـتـلـي والـمـسـتـريـح سـواء

لقد لمت أهل الحب مثلك في الهوى ... فـهـا أنـا أزري مـثـلـهـم وأسـاء

فما اعتقادك فيمن يحترقون بنار المحبة والتهابها، ألهم قلوب يعقلون بها أم لهم آذان يسمعون بها، أتظن أن المحب لا يتهم العذال ولا يضرب عنهم الصفح في تضييع المقال فما لك ولإضاعة الكلام، أما تدري أن البلاغة في رعاية مقتضى المقام:

والصمت أجمل بالفتى   من منطق في غير حينه

هب أنك ماحض في النصح والملام وبعيد عن مواقع الاتهام، أما تعلم أن نصيح الشيب والهرم أبعد في عذله عن مواضع التهم، وإني مع أني رأيت النسر[1] عز ابن داية وفي وكريه معششاً وربع الشباب بنزول ضيف المشيب موحشاً ولي في ذكر عهد الشباب زفرة تحرق الحشا:

فمخزون دمعي بعد فقدانه همى   ومكنون سرّي عقب هجرانه نما

مع هذا أتهم نصيح الشيب، فعليك أن لا تحوم حول العتب وحمى العيب اهـ.

وفي القسطلاني: يصح أن يكون أبعد أفعل تفضيل وهي الرواية ويصح أن يكون فعلاً ماضياً. ومعنى كون الشيب نصيحاً أنه منذر بقرب الأجل وحلول الموت الموجب لاشتغال العبد بما يقرّبه إلى مولاه زلفى ويورثه لديه حسن العقبى، وليس بعد بياض الزرع إلاَّ حصاده. وقيل في قوله تعالى: ﴿وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾ [فاطر: الآية ٣٧] أنه الشيب، وكان الشيب يقول للمحب: اترك ما أنت عليه من الهوى واشتغل بما ينفعك في أخراك، كصورة ما يبديه العاذل في نصحه. وما أحسن قول قمر الدولة:

لما رأيت المشيب في الشعر الأ   سود قد لاح قلت وا حزني

هذا وحق الإله أحسبه   أول خيط سدّى من الكفن

اهـ. وفي أبي السعود: إني اتهمت من التهمة وهو ظن ما فيه ريبة غير مطابقة للواقع ونصيح، بمعنى ناصح كفضيل وفصيل، بمعنى فاضل وفاصل، فالإضافة حينئذ من قبيل إضافة الصفة للموصوف، أي الشيب الناصح. والعذل ـ بفتح الذال وسكونها ـ الملامة، والشيب بياض الشعر، وجملة: اتهمت نصيح الشيب، في محل رفع على أنهما خبران والرابط فيها ضمير المتكلم وإضافة العذل إلى ياء المتكلم من إضافة المصدر إلى المفعول، والجملة الاسمية في محل نصب على الحالية.

---

(١) قوله: رأيت النسر عز ابن داية الخ، فيه تلميح لقول الشاعر:

ولما رأيت النسر عز ابن داية   وعشش في وكريه جاش له صدري

النسر مستعار للشيب وعزَّ غلب، وابن داية الغراب. والمراد منه: سواد الشعر والوكران الرأس واللحية. والمعنى: أن الشيب المشبه بالنسر في البياض غلب سواد الشعر المشبه بالغراب وسكن في وكريه اللذين هما الرأس واللحية. اهـ مؤلفه.

وفي البيت روايات عذل بالتنوين وعذلي بالإضافة، فعلى رواية التنوين تكون عوض المضاف إليه، ثانيها نصح بالتنوين ونصحي بالإضافة، وثالثها: من وعن وهما متقاربان معنى وإن امتاز كل منهما عن الآخر بخصوصية يختص بها.

والمعنى: إن عدم قبولي لنصحك أيها الناصح مع أنك قد أتيت بمحض النصيحة ليس ذلك ببعيد وليس ذلك أول نصيحة عصيت فيها الناصح الشفوق ولا أول موعظة لبست من مخالفتها المروق. فإني قد اتهمت ناصح الشيب الذي ليس في نصحه شك ولا ريب مع أن الشيب الناصح والبياض الفاضح أبعد في النصح عن التهمة من كل ناصح اهـ.

ولما كان قوله: إني اتهمت نصيح الشيب، يستلزم أنه لم يعطف ولم يأخذ بقوله، أخذ يبيِّن علة ما أجمله في ذلك فقال:

فإن أمارتي بالسوء ما اتعظت ... من جهلها بنذير الشيب والهرم

إن نفسي الأمارة لم تقبل موعظة الشيب من أجل أن جهلت إنذار المشيب، والهرم وهو كبر السن وضعف القوى فنذير على هذا بمعنى المصدر أو يكون مراده بالشيب النذير فيكون من باب إضافة الصفة إلى الموصوف، ويكون التقدير أيضاً: ونذير الهرم أي والهرم النذير، أو إنذار الهرم، على التقدير الأول.

فإن قيل: إضافة أمارة التي عنى بها نفسه إلى ياء المتكلم وهي أيضاً نفسه تقتضي أن تكون على هذا نفسه أمارة مأمورة والعقل يقتضي تغايرهما.

وأجيب: بأن الإنسان إن عزم على شيء تردد فيه، فتارة يشتد عزمه على فعله وتارة على تركه، فهما خاطران، فالصواب منهما النفس المطمئنة وهي المأمورة بمخالفة النفس الأمارة.

قال بعضهم: والأولى أن يقال: إن الأمارة هي النفس، والياء المضاف إليها هي البدن، وهو المأمور، فالنفس مستولية بسلطانها على البدن تصرفه في شهواتها إلى أن يزعها وازع العقل.

وذكر بعضهم: أن النفس تنقسم ثلاثة أقسام لثلاثة أحوال: أمّارة وهي التي لا يلوح لها طمع إلاَّ تعرضت له ولا تبرز لها شهوة إلاَّ اقتنصتها، لم تسلك طريق الرشاد ولا استضاءت بنور السداد ولا أحكمتها الرياضة فهي تهيم في واد من البطالة، وذلك المعبر عنه بالهوى وقد ذكرها الله تعالى في قوله: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [يوسف: الآية ٥٣].

ومطمئنة، وهي التي ثبت لها من الله العصمة وسبقت لها منه تعالى السعادة. وسمِّيت مطمئنة لاطمئنانها إلى ذكر الله تعالى، وقيل: إلى الإيمان، وقيل: إلى التصديق بوعد الله، وقيل غير ذلك. قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ﴾ [الفجر: الآيتان ٢٧، ٢٨] الآية.

ولوّامة، وذكرها الله تعالى بقوله: ﴿وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾﴾ [القيامة: الآية ٢] وهي التي إن وقعت في معصية بسابق القضاء رجعت بالملامة على ذاتها وتلك حالة حميدة، ولها إن شاء الله عاقبة جميلة.

قال جعفر الصادق رضي الله عنه: من لم يتهم نفسه على دوام الأوقات ولم يخالفها في جميع الأحوال كان مغروراً، ومن نظر إليها باستحسان شيء منها فقد أهلكها.

وقيل: النفس مجبولة على سوء الأدب والعبد مأمور بملازمة الأدب، فالنفس تجري على طبعها في ميدان المخالفة والعبد يردها بجهده عن سوء البطالة، فمن أعرض عن الجهد فقد أطلق عنان النفس وغفل عن الرعاية. اهـ قسطلاني.

قال العلامة السعد: المعنى أن نفسي الأمّارة بالسوء والعيب ما قبلت الوعظ من نذير الشيب فتمادت في غواية الجهل بعد الهرم وما كبحت[1] عنان جمع الشهوة بأيدي الندم.

واعلم أن الناظم نظمه الله سبحانه وتعالى في سلك أوليائه، قد أورد أصول الصفات النفسانية في عدة أبيات ورتبها على حوبائه اقتداء بالنبي الكريم الذي قال هضماً لنفسه: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾﴾ [يوسف: الآية ٣٥] واقتفاء لأثر الحبيب الذي سلك طريق كلام المنصف في قوله: ﴿وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [يس: الآية ٢٢].

ولسلوك هذه الطريق شأن عجيب في البلاغة لأنه يكون أكثر إيقاظاً وداعية لإصغاء السامعين، وأقوى ذريعة لإصاختهم من حيث لا يخاطبهم بما تمجه أسماعهم وتنفر عنه طباعهم، فإذا لم يضربوا في أوّل الأمر عن كلامه صفحاً ولم يطووا دون مرامه كشحاً يستدرجهم بإلقاء الحق عليهم من حيث يألفون، فالصفات المذكورة من صفات المخاطب لكن المتكلم أثبتها لنفسه لرعاية النكتة التي نبهناك عليها.

ولما آل الكلام إلى هذا، أوجب علينا تمهيد مقدمة لمعرفة ماهية النفس وطريق تزكيتها ثم سرد رحمه الله تعالى المقدمة فارجع إليها إن شئت اهـ.

---

(١) قوله: كبحت: بفتح الكاف والباء والحاء المهملة.

وفي أبي السعود: الأمّارة هي النفس التي تأمر الإنسان بالشر وإليه الإشارة في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠﴾ [النّازعات: الآية ٤٠] والسوء بالضم والفتح هو الأمر الضار أو الفاحش. والاتعاظ الموعظة والجهل معلوم، النذير من الإنذار وهو التخويف، وإضافة النذير إلى الشيب من إضافة الصفة إلى الموصوف، والتوكيد بأن ها هنا لأن عدم الاتعاظ بنذر الشيب والهرم مما فيه غرابة فكان محلاً للإنكار أو التردد فوجب أو حسن تأكيده، وهذا البيت تعليل للأول فلذلك أتى فيه بالفاء.

والمعنى: أن النفس الأمّارة التي هي بالمرء غدّارة من شدّة جهلها وفرط عتوّها لم تتعظ بمواعظ الشيب ولم تنزجر بنذير الهرم عن العيب. وكأني بها متمثلاً بقول الشاعر:

وقائلة هلاّ انتهيت عن الهوى ... فقد لاح صبح في دجاك عجيب

فقلت دعي عني الملام ولوعتي ... فإن الكرى عند الصباح يطيب

ولا أعدت من الفعل الجميل قرى ... ضيف ألمَّ برأسي غير محتشم

أي النفس الأمّارة ما اتعظت من جهلها ولا أعدت أي هيأت من الفعل الجميل أي الحسن قرى ضيف، ألمَّ بتشديد الميم أي نزل برأسي غير محتشم أي غير مستحٍ ولا منقبض لأن من آداب الضيف أن لا يكثر الإقامة عند من أضافه حتى يخرجه، فمَن لا يفعل ذلك من الضيفان كان غير محتشم. فعلى العاقل أن يستعدّ بالأعمال الصالحة لضيافة ضيف الشيب الذي إذا نزل لا يرتحل إلاّ بالموت فإنه إن أخر الاستعداد إلى نزوله قد لا يتمكن من شيء لسرعة الرحيل وضيق الوقت.

ووجه تشبيه الشيب بالضيف أن الذي كان ملازماً للإنسان قبل الشيب هو الشعر الأسود فلما تبدلت صفته كان كالضيف الأجنبي، ولما كان نذيراً بانقضاء العمر صار بلسان حاله كالطالب للمبادرة للأعمال الصالحة التي هي زاد الآخرة كما يطلب الضيف قراه تصريحاً أو حكماً، وقاف قرى مكسورة اهـ قسطلاني.

وفي شرح العلامة السعد: أعدّه: هيّأه، ومن: لابتداء الغاية متعلق بأعدّت أو لبيان القرى، والفعل الجميل هو المستحسن شرعاً أو عقلاً، وقراه: أي أضافه، قرى وهو يطلق على المصدر والحاصل به أي فهو ما يهيأ للضيف، وألمَّ: نزل وهو صفة ضيف، والاحتشام الاستحياء بالاحترام، وغير بالجر صفة ضيف وبالنصب على أنه حال من ضيف.

ثم قال رحمه الله: ولما استعار اسم الضيف للشيب رشحها بلفظ قرى ومعناه: إن نفسي ما هيأت شيئاً من الأعمال الجميلة لضيافة ضيف كريم نزل برأسي، أي ما تابت النفس عن ضلالها القديم ولم تفد من الرجوع إلى الله تعالى قرى الضيف الكريم وما

نزلت على الأشياء البرية بجذبات الألوهية اهـ.

وفي أبي السعود: الإعداد تهيئة الأسباب والفعل ها هنا أعم من فعل الجوارح والقوى النفسانية، والقرى بالكسر ما يضيف به، والاحتشام الاستحياء وضمير أعدّت عائد إلى الأمارة، ومحتشم يجوز أن يكون مبنياً للفاعل ويجوز أن يكون مبنياً للمفعول. وفي قوله: قرى ضيف ألمّ برأسي، استعارة تحقيقية تصريحية لأنه شبه الشيب بالضيف وذكر المشبه به.

والمعنى: أن النفس لم تتخذ من الفعل الحسن الجميل ما يصلح أن يجعل وليمة وضيافة لضيف نزل على رأسي واستولى على حواسي غير هتاك كما هو دأب المحتشمين بل نزل مستعجلاً أهوج كما هو هجيري المستعجلين هذا إذا كان محتشم مبنياً للفاعل، فإن كان مبنياً للمفعول كان المعنى من غير توقير له واحترام اهـ.

ولما بيّن أن نصيح الشيب لا ينبغي أن يهمل نصحه واعتذر عن عدم قبوله بالنفس الأمّارة وأنه كان يرتقب حلوله فلما لم يتم له مناه ولم يطابق فعله بعد ظهور ما نواه لغلبة النفس الأمارة، ورأى من سوء العقاب وتقبيح أفعال من الناس ما لم يكن قبل رآه ندم على أن لا يكون كتمه عند ظهوره وأخفاه، فقال:

لو كنت أعلم أني ما أوقره   كتمت سراً بدا لي منه بالكتم

أي لو كنت أعرف وأتيقن قبل نزول الشيب أني ما أوقره بعد نزوله بي، أي لو كنت أعلم أني ما أعظمه وأترك فعل القبيح استحياء منه كما نويت قبل نزوله كتمت أي أخفيت سراً بدا لي أي ظهر لي منه بالكتم خضباً أو بغيره مما يخضب به، والكتم محركة نبت يخلط بالحناء ويخضب به الشعر فينفي لونه، قاله في القاموس، وعبَّر الناظم عما بدا له أولاً من الشيب بالسر لأنه قبل ظهوره خفي كحديث النفس الذي لم يظهر أو لأنه منذر بقرب الأجل الذي كان خفياً قبل لا معنى لقوله لي لولا الوزن، فإن المستقبح منه ما يبدو لغيره في لومه لا ما يبدو له هو.

وأجيب بأنه إذا ظهر الشيب فأول ما يطلع عليه صاحبه في الغالب لاهتمامه بشأن نفسه أكثر مما يهتم به غيره، فلذا قال: لي، فليس قوله: لي، كالمستغني عنه كما زعم فقد علم أن قوله: لي، احتراس ويحتمل أن يكون من البيان بعد الإجمال وهو من باب الإطناب نحو: رب اشرح لي صدري ويسّر لي أمري، وفائدته علم الشيء إجمالاً ثم تفصيلاً اهـ.

قال العلامة السعد: المعنى لو أعلم أني ما أراعي حق الشيب وأخالف مقتضاه كنت ألتجيء إلى الاستنان بسنّة الخضاب لئلا أكون مستحقاً لمزيد الطعن ووفور العتاب اهـ.

وفي أبي السعود: التوقير الاحترام، والكتم هو الكتمان بمعنى الإخفاء. قال:

يداري هواه ثم يكتم سرّه ويخضع في كل الأمور ويخشع

والسر الأمر الذي من شأنه أن يكتم ويستر، والكتم بفتح الكاف والتاء، نبت يخضب به الرجال لحاهم والنساء رؤوسهن وحواجبهنّ، وسراً مفعول كتمت وبدا فعل ماض ومنه متعلق بكتمت لا بدا كما توهمه بعض الشراح وبالكتم متعلق به أيضاً. وفي البيت صنعة الاشتقاق.

والمعنى: لو كنت في الزمن الأول المتقدم أعلم أني لم أعظم هذا الضيف النازل الذي هو عن قريب راحل لسترت منه بالكتم سراً بدا لي منه في أيام الشباب والصبو نحو الأحبة والأحباب. هذا مقتضى ظاهر عبارته وحاصله: أني لو كنت أعلم أني لم أرتدع عن المعاصي عند أخذ الشيب بالنواصي لسترت الشيب بالخضاب عما هو مقتضى الصبوة والشباب، والمعنى على القلب. فتأمل فيه فإن المعنى دقيق اهـ.

ثم استفهم عمن يتكفل له برد جماح نفسه الأمّارة بالسوء بالمواعظ السنية والأسرار الربانية، فقال:

من لي بردّ جماح من غوايتها كما يردّ جماح الخيل باللجم

فقوله: جماح، أي قوة، وغوايتها بفتح الغين المعجمة أي ضلالتها. وقوله: باللجم أي القوية لا كعنان واعظ الشيب، وهذا يسمى استفهام تضرع واستعطاف. اهـ.

قال السعد: يعني من يتكفل لي بردّ مركوب الجماح عن طريق الغواية إلى سنن الفلاح، ومن يردع نفسي السائمة في فلوات الشهوات عن مرعى آثامها كما يردّ جماح الخيل عن الفيافي المهلكة إلى طريق القصد بلجامها.

وفي هذا البيت إشارة إلى أن رياضة النفوس المعبر عنها بالتزكية أصل جميع العلاج كما قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝﴾ [الشمس: الآية ٩] وهي لا تتيسر إلاّ برائض عالم بقوانين الرياضة فائض على الطالب سجال الإفاضة، ولا تظن أن تزكية النفس تتيسر بطريق العقل كما ظنت الفلاسفة والبراهمة وغيرهم من الجهال وشرعوا في تزكية نفوسهم بالرياضات والمجاهدات فوقعوا في الآفاق والشبهات والضلالات، فإن تزكية النفوس كمعالجة الأبدان فكما لا يجوز للمريض استعمال الأدوية إلا بنظر طبيب حاذق ذي تجربة في المعالجة كذلك تزكية النفس لا تتيسر إلاّ لنبي حاذق أو وليّ ذي تجربة في هذا الشأن، وهذا أحد أسرار بعثة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فإنهم الحذاق في تزكية النفوس، ولهذا بعثهم الله تعالى ليزكوا بعلاج الشرائع نفس كل قنوط ويؤوس.

فالناظم رحمه الله تعالى يتمنى من يضمن له هذا الشأن ويردّ جماحه عن غواية الطغيان اهـ.

وفي أبي السعود: الردّ: الإرجاع، قال تعالى: ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ﴾ [القَصَص: الآية ١٣] أي أرجعناه، والجماح إباء الدابة من صاحبها عن أن تمكنه من الركوب، والغواية سلوك طريق لا يوصل إلى المطلوب وهو ضد الهداية، والخيل اسم جمع وقيل: جمع، و للجم جمع لجام وهو الحديدة المعترضة في فم الفرس وهو من المعربات، ومن استفهامية، ولي متعلق بمقدّر أي من يتكفل وبردّ متعلق به أيضاً، ومن غوايتها متعلق برد ويجوز أن يتعلق بمقدّر، أي كائن، وهو صفة جماح والضمير في غوايتها عائد إلى الأمّارة وما في كما يرد مصدرية. والجملة في محل جر وإضافة جماح إلى الخيل إما لامية وإما بمعنى من.

والمعنى: من يتكفل لي بأن يرد النفس الغاوية عن طريق الضلالة الآبية عن طريق الهداية والاعتدال كما ترد الخيول الجامحة باللجام. وفي الاستفهام بمن إشارة إلى أن رد النفس عن طريق الارتياب إلى طريق الصواب خارج عن طوق البشر وما هو إلاّ من فعال من قدر القضاء والقدر وهذا نوع من الاعتذار وإظهار العجز والافتقار اهـ.

وهو منه رضي الله عنه رجوع لمقام الحقيقة وأن العبد في قبضة القدر يقلّبه كيف يشاء وإن نظرت إلى الشريعة فالعبد مجبور في قالب مختار، ولذا قال سلطان العارفين السيد الدسوقي: لو نظرنا للخلق بعين الحقيقة عذرناهم ولو نظرناهم بعين الشريعة مقتناهم. نسأل الله الهداية والتوفيق بمنّه وكرمه. ولذا قال بعض العارفين:

الكل تقدير مولانا وتأسيسه ... فاشكر لمن قد وجب حمده وتقديسه

وقل لقلبك إذا زادت وساويسه ... إبليس لما غوى من كان إبليسه

ولما استفهم استفهام استعطاف عمن يتكفل له برد جماح نفسه رداً عنيفاً استشعر شخصاً قال له: لا حاجة إلى ردها لأنك إذا أعطيتها ما تتمناه من المعاصي انكسرت شهوتها، فرد عليه ذلك بقوله:

فلا ترم بالمعاصي كسر شهوتها ... إن الطعام يقوّي شهوة النهم

أي لا ترج ولا تتوقع بتمكينها مما تتمناه من المعاصي دفع شهوتها إلاّ أنها إذا ألفت المعاصي قويت شهوتها. وقد استدل على ذلك بقوله: إن الطعام يقوّي شهوة النهم، أي إن الطعام يزيد في شهوة النهم بتشديد النون وكسر الهاء الذي هو شديد الشهوة إلى الطعام، فتمكينه منه يزيد في شهوته إليه بخلاف ما إذا رفع من بين يديه فإنه لا يجد ما يشتغل به فييأس منه فكذلك النفس إذا حيل بينها وبين المعاصي تيأس منها وتعود إلى الطاعة.

قيل: دليله غير ظاهر، فإن النهم إنما تقوى شهوته إلى الطعام إذا لم يشبع منه وأما إذا شبع فقد أخذ حاجته منه.

وأجيب بما حاصله: إن العرب تقول: تطعم تطعم، أي ذق تأكل، والمعدة أبداً تنفتح لما يلقى فيها من الطعام إلاَّ لمانع وقوّتها الجاذبة لا تزال وإن امتلأت لا سيما معدة النهم.

قال العلامة السعد: الروم الطلب، والباء للاستعانة وضمير شهوتها للنفس والخطاب لكل من يصلح له كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [السّجدة: الآية ١٢] والفاء فصيحة تفصح عن شرط محذوف يفهم مما سبق، أي إن كنت عرفت أن النفس الأمّارة حريصة على الشرور والقبائح فلا تطلب باستعانة المعاصي كسر شهوتها. والنهم بالتحريك إفراط الشهوة في الطعام، والنهم بكسر الهاء صفة مشبهة منه، فشبه النفس بالنهم والمعاصي بالطعام، وإنما أكد لكون الطعام مظنة التردد للنفس كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ [هُود: الآية ٣٧] يعني: يا من زيّن له حب هذه الشهوات من النساء والبنين لا تطلب كسر شهوة النفس بمعصية الله رب العالمين إذ من المقرر والمعلوم لكل عاقل فهم أن الطعام يقوّي شهوة النهم.

ثم قال: وقلع مواد الشهوة بالجوع وترك الملاذ والشهوات وملازمة الذكر بالهجوع أحد أركان المجاهدة، وللجوع اختصاص بالمشاهدة.

روي عن النبي ﷺ أنه قال: «أوحى الله تعالى إلى عيسى عليه السلام تجوّع ترني، تجرَّد تصل إليّ»، فالجوع ينبوع الحكمة ومفتاح باب العفة، فمن أراد معالجة الشهوة فعليه بالعفة، ومن أراد العفة فعليه بالجوع. ولأجل الإيماء إليه شبَّه الناظم المعاصي بالطعام وأوجب الاجتناب عنها اهـ. ومثال هذا قوله رضي الله عنه:

والنفس كالطفل إن تهمله شبَّ على ... حب الرضاع وإن تفطمه ينفطم

أي: والنفس، وهي الروح أو الدم أو الجسد، كله كالطفل، أي المولود، إن تهمله أي تتركه شبّ أي كبر على حب الرضاع لأنه قد ألفه، وإن تفطمه عنه ينفطم ولم يصر طالباً له بوجه من الوجوه، وقد كان قبل ذلك يبكي فلا يسكت حتى يرضع فلما فطم يئس منه فكذلك النفس إنما تنفطم عن مألوفها برادع قوي أو لطف خفي إلٰهي.

وسئل بعضهم عن الإسلام فقال: ذبح النفس بسيف المجاهدة ومدى المخالفة. اهـ قسطلاني.

وفي عبارة بعضهم: اعلم أن النفس لطيفة ربانية وهي الروح قبل تعلقها بالأجساد، وقد خلق الله الأرواح قبل الأجساد بألفي عام فكانت حينئذ في جوار الحق وقربه فتستفيض من حضرته بلا واسطة، فلما أمرها الحق أن تتعلق بالأجساد عرفت الغير وحجبت عن حضرة الحق بسبب بعدها عنه تعالى فلذلك احتاجت إلى مذكر قال تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٥٥﴾ [الذاريات: الآية ٥٥] فهي قبل تعلقها بالجسد تسمى

روحاً وبعد تعلقها به تسمى نفساً فالاختلاف بينهم اعتباري. اهـ.

وفي كتابنا مشارق الأنوار نقلاً عن الإمام خاتمة المحققين الأمير: أن التحقيق أن النفس والعقل والروح شيء واحد وهي اللطيفة الربانية وتختلف بالاعتبار، فمن حيث إن بها قيام البدن تسمى روحاً، ومن حيث ميلها إلى الشهوات تسمى نفساً، ومن حيث إدراك المعارف والكمالات تسمى عقلاً. اهـ.

قال العلامة السعد: يعني أن النفوس في التعوّد بالشيء والانفطام عنه كالأطفال فلا تهمله فيما يشتهيه كل الإهمال فإن الطفل إن أهمل شب على حب الرضاع واشتد التذاذه بألوان الأطعمة وضاع، وإن فصل عن الرضاع رضي بالانفصال وبلغ بالتدريج مبلغ الكمال، فالنفس إن تصرفها عن المألوفات الطبيعية واللذات الكاذبات الوهمية إلى إدراك الحقائق وذوق اللذات الروحانية تفوز بالسعادات، وإن ألقيت حبلها على غاربها وتركت سدى دامت حسراتها ولا ترجى نجاتها.

أهمل الشيء: تركه سدى وما تعهده، شب الصبي: بلغ في الشباب، وعلى إما بمعنى مع أي مقارناً معه أو على معناه متعلق بمحذوف هو حال أي حريصاً وملازماً عليه، فطمت الأم ولدها فصلته عن الرضاع. والجملة الشرطية، أعني أن تهمله تفسير وبيان للجملة السابقة، والله سبحانه وتعالى أعلم اهـ.

وفي أبي السعود: المراد بالنفس هنا الأمّارة بالسوء ويجوز أن يراد بها مطلق النفس. والإهمال الترك ومنه قولهم: الله يمهل ولا يهمل. والشبّ النهوض والالتهاب. قال الشاعر:

شبّ بين الضلوع نار هواكم وفؤادي من الهوى في التهاب

والنفس يجوز أن تقرأ منصوبة بالعطف على الطعام في البيت السابق لتكون في حيز أن داخلة على التعليل وأن تقرأ مرفوعة عطفاً على أن، والأول أولى لما عرفت. وأن شرطية وشبّ جزاؤها، والجملة الشرطية تفسير وبيان للجملة السابقة وعلى حب متعلق بشب وهو متضمن معنى النشوز.

ومن ثمة لم نحتج إلى ما ذهب إليه بعض الشراح من أن على بمعنى مع أو على معناه متعلق بمحذوف هو حال، أي حريصاً عليه.

والمعنى: لا ترم بالمعاصي كسر شهوة النفس فإنها تشبه الطفل في أنك إن تركته وأهملته ولم تردعه عن حب الرضاع نشأ حريصاً على حبه، فكلما نشأ وترعرع زاد نشاطه وميله إليه، وإن تفطمه وتمنعه عن الرضاع ينفطم ويمتنع عنه فكذا هي إن تركتها على الميل الطبيعي وتوقها الجبلي ألحت في طلب الشهوات والرغبة إلى اللذات وانغمرت في السيئات، وإن هذبتها بالرياضات ونقمتها بركوب طرق الطاعات تحلت بحلى الطائعين

وتزينت بلباس المتقين وأشرقت بلوامع أشعة أنوار العلوم اليقينية والمعارف الربانية اهـ.

ولما شبّه النفس بالطفل وكان الطفل لا يؤمر ولا ينهى لأنه لا يفهم ذلك وإن فهمه فلا يمتثل وإنما الشأن في إزاحته عنه أن لا يمكن منه أمر هنا بصرف الهوى عن النفس حتى لا تجده فتتعلق به، فقال:

فاصرف هواها وحاذر أن توليه ... إن الهوى ما تولى يصم أو يصم

فقوله: فاصرف هواها، أي قبل تمكن سلطانه وبادره حال ضعفه على حسب الطاقة ولم يقل: فاصرف النفس عن هواها لأنها لا تفهم هذا المعنى أو تفهمه ولا تمتثله كالطفل، وحاذر أي احذر وتحرز من أن توليه أي تؤمره من الإمارة التي هي الولاية، ويروى تواليه من الموالاة. وقوله: يصم بضم الياء من أصميت الصيد إذا رميته فقتلته، أو يصم بفتح الياء أي يعبه من وصمه يصمه وصماً إذا عابه، والوصم العيب والعار، وإنما عبر بحاذر دون احذر تنبيهاً على أن النفس تراقب غفلة صاحبها عنها لتقع في هواها فهي تحاذره كما يحاذرها. وفي قوله: فاصرف هواها، استعارة بالكناية فإنه شبه النفس بطالب الإمارة وحذفه وأثبت من لوازمه الأمر بصرفه عن التولية وأنه جائر ظالم لأنه إن تولى قتل أو عاب فهي ترشيحية لأنها قرنت بما يلائم المستعار منه اهـ قسطلاني.

قال السعد: الفاء إما فصيحة، أي إذا عرفت حال النفس الخ، أو للعطف، صرفه منعه، والهوى إما بمعنى المفعول أو بمعنى المصدر أي ميلها، وهوى النفس غلب في العرف على ما هو خارج عن المصلحة ولا يكون له عاقبة حميدة، وحاذر بمعنى احذر وصيغة المفاعلة للمبالغة ولاه العمل قلده حذف مفعوله لقصد التعميم مع الاختصار، وتولّى الأمر تقلّده وصار والياً عليه، أصمى الصيد قتله في مكانه الذي ضربه فيه، وصمه: أي جعله ذا عيب.

والمعنى: أنه يقول: أيها المحترق بنار الهوى، والمبتلى بمقاساة شدائد البعد والنوى، اصرف النفس عن متابعة الهوى لأن اتباعه سبب الضلال والبعد عن حضرة الإله كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [ص: الآية ٢٦] وكما بعض الصحابة عن الرسول روى: «ما عبد إله أبغض على الله تعالى من اتباع الهوى». فلا تجعل النفس خليع العذار فيما تهواه ولا تكن ممن اتخذ إلٰهه هواه وجعله ضالاً لا يرجى هداه، والله سبحانه وتعالى الهادي إلى سبيل الرشاد اهـ.

وفي أبي السعود: فإن قلت: لم قال: فاصرف هواها، ولم يقل: اصرفها عن الهوى، قلت: للمبالغة في الصرف فإنه قد يصرف الإنسان عن الهوى مع بقاء الميل والرغبة، أما إذا انصرف الهوى عن النفس دلّ على ذهابه بحذافيره اهـ.

وظاهر كلامه أن النفس تصرف عن كل ما تهواه حتى عن الطاعة إن هويتها، لكن أزال هذا الإشكال بقوله:

وراعها وهي في الأعمال سائمة وإن هي استحلّت المرعى فلا تسم

أي ولاحظها، وهي في الأعمال الصالحة سائمة أي راعية. ولما كان للنفس حظ في أفعال بعض العبادات وكان ربما يلحقها الرياء ويمدح الإنسان من أجل فعلها فهو ينهواها لذلك وهذا القصد قد يخفى على صاحبها، نبه على ذلك بقوله: وإن هي استحلت المرعى، أي وجدته حلواً فانهمكت وهمت بالعكوف عليه فلا تسم، أي فلا تخرجها إلى ذلك المرعى حتى تتفقد دسائسها، لأن النفوس البشرية إلاَّ من رحم الله لا تهوى الطاعة من حيث هي طاعة فإذا استحلتها ومالت إليها أمكن ذلك أن يكون لغرض لها في ذلك، فيعود هواها كالمكروه المأمور بصرفه عنها وتنقلب الطاعة معصية اهـ من القسطلاني.

قال السعد: المراعاة بمعنى الرعاية وصيغة المفاعلة للمبالغة، وهي في الأعمال جملة حالية. والمراد بالأعمال الصالحات. سامت الماشية رعت وأسام الماشية أخرجها إلى المرعى، واستحلى الشيء عدَّه حلواً.

فمعنى البيت: راع النفس في اشتغالها بالأعمال عما هو مفسد ومنقص للكمال من الرياء والعجب والضلال، وإن عدّت النفس بعض التطوّعات حلواً واعتادته وألفته فاجتهد في أن تقطع نفسك عنها واشتغل بما هو أشق عليها لأن اعتبار العبادة إنما هو بامتيازها عن العادة اهـ.

وفي أبي السعود: وراعها عطف للجملة الفعلية على مثلها، والضمير في راعها للنفس والواو في وهي للحال، وهي مبتدأ وسائمة خبره وفي الأعمال متعلق بسائمة.

والمعنى: احفظ النفس حال كونها راتعة في رياض الأعمال كارعة في حياض الأحوال، ومراعاتها في هذه الأحوال أن تحفظها من المفاسد والمبطلات وتصونها عن الخطيئات المرديات كالرياء والعجب وأن تلاحظ في عملها شيئاً من الحظوظ التي تبعد عن القربى وتقصي عن الزلفى، وإن استحلت بعض الطاعات والتذت ببعض العبادات من الأوراد والنوافل والمسنونات فلا تلق حبلها على غاربها في تلك العبادة ولا ترخ عنانها في تلك الطاعة بل حملها ما هو أشق منها فإن أفضل العبادة أحمزها. والنفس إذا اعتادت على أمر سهل عليها التلبس به ولم يكن لها فيه مجاهدة وخرجت بذلك عن مقام المجاهدة وفاتها الدخول في زمرة ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: الآية ٦٩] ويمكن أن يحمل استحلاء المرعى على حصول العجب بسبب الطاعة، ولذلك جاز النهي عن إسامتها في المرعى، والمرعى في كل تقدير لا يمكن حمله على الفروض والواجبات

فإنه لا يمكن جواز الزجر عنه ويدخل في هذا الاستحلاء كثير من المرديات اللاتي يغفل عنها كثير من الصلحاء، ويجب عليهم الاحتراز عنها، فإن استحلاء ذلك سم قاتل يدسه عدوّ الله في غذاء روح الناسك فيهلك ولا يدري أنه هالك، نعوذ بالمالك من مزالق هذه المهالك اهـ. ثم استشهد على هذا المعنى بقوله:

كم حسنت لذة للمرء قاتلة ... من حيث لم يدر أن السم في الدسم

أي كثيراً ما زينت النفس لذّة للمرء قاتلة له من حيث لم يعلم أن السم ـ بفتح السين وضمها ـ دسّ له في الدسم فأكله، ولم يتعقل باطنه مما دسّ فيه وخص الدسم لأنه يعلو الأشياء فيستر ما تحته كصورة العبادة الساترة لما بطن من النيّة الخبيثة أو لأن الدسم لسهولة امتزاج السم به يخفى، إلاّ على المتفقد اللبيب كخفاء النيّات في العبادات اهـ. قسطلاني.

قال السعد: يعني كثيراً من المرات زينت النفس للمرء لذّة من اللذات قاتلة للمرء كالسم والمرء لا يدري أن السم في الدسم، لا سيما إذا كان المرء من أهل المحبة والوداد فهلاكه في لذة الطعم وطيب الرقاد. وهذا البيت استئناف مضمون المصراع الثاني من البيت السابق. حسنت لذة: أي جعلتها حسناً، واللذة إدراك الملائم وتطلق على الملتذّ به أيضاً، والسم بالفتح والضم والدسم بفتح السين، أما المصدر أو المعنى الحاصل به وبكسرها شيء ذو دسم والكل هنا صحيح اهـ.

وفي أبي السعود: التحسين التزيين وهو هنا بمعنى الاستحسان، ومنه قولهم: من استحسن لنفسه ما استقبح لغيره فليصنع ما شاء، واللذة إدراك الملائم ومن حيث إما أن يتعلق بقاتلة أو بحسنت.

والمعنى: لا تترك النفس عند استحلائها مرعاها أن تستوفي في المرتع مشتهاها فإنها كثيراً ما استحسنت لذة ظاهرها أنها من اللذات وباطنها أنها من الأمور المرديات وذلك لجهلها بالأشياء حيث لم تعلم أن السم القاتل تلقاء الدسم، وكلما تلتذ وتستحلي ففيه الألم والسقم. قال الشاعر:

حلاوة دنياك مسمومة ... فما تطعم الشهد إلاّ بسمّ

ثم قال رضي الله عنه:

واخش الدسائس من جوع ومن شبع ... فربّ مخمصة شر من التخم

أي خف المكائد التي تخفيها النفس في الجوع والشبع فالدسائس من الجوع كالحدّة وسوء الخلق والدسائس من الشبع كالكسل عن العبادة، والكلام في الجوع والشبع المفرطين لأن المذموم منهما ليس إلاّ المفرط، وأما المعتدل الذي بين الإفراط والتفريط فممدوح كما يشير لذلك قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ [الأعراف: الآية ٣١] اهـ.

قال السعد: الدسائس جمع دسيسة، وهي الخبيئة، يقال: له دسائس في هذا الأمر أي مكايد خفية ومفاسد كامنة. والمراد بها الآفات الكامنة الناشئة من كل من الجوع والشبع. أما من الشبع فمثل القوة والغفلة والكسل وغلبة الشهوة وإطفاء نور اليقين وغير ذلك. وأما من الجوع فمثل الحدّة وسوء الخلق والنحول والذبول وحدوث الكلال والملال وثوران الخيالات الفاسدة وغير ذلك. والفاء للتعليل للأمر بخشية الدسائس، خمص بطنه إذا التصق على ظهره والمخمصة شدة الجوع وتنوينها للتفخيم فإن الشر هو الجوع الشديد لا اليسير، والتخمة عدم انهضام الطعام في المعدة وتعقبه فيها وإيذاؤه لصاحبه، وقد يفضي إلى المرض وإلى الموت اهـ.

وفي القسطلاني: واخش الدسائس أي اخش ما تخفيه النفس من المكر حال تلبسها بقليل العبادة وكثيرها، وكنى عن قليلها بقوله: من جوع، وعن كثيرها بقوله: ومن شبع، كأنه من باب تسمية الشيء بما يؤول إليه لأن قلة العبادة تؤول إلى الجوع في الآخرة بالنسبة إلى شبعها، وكثيرها يؤدي إلى شبعها، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ﴾ [يوسف: الآية ٣٦] فسمى العنب خمراً، فرب مخمصة، أي مجاعة شر من التخم جمع تخمة. قيل: هي فساد الطعام في المعدة والصواب فساد المعدة بالطعام. وفسرت أيضاً بأنها ضدّ المخمصة ولا يصح فإن الشبع ضدّها وإن لم يتخم.

وأصل التخمة: وخمة، فأبدلت الواو تاء، يعني أن النفس قد تزيّن لصاحبها قليل العبادة بأن تقول له: الإكثار من العبادة يضر بالبدن فيؤدي إلى العجز بالكلية والكثير منها مما يؤدي إلى الرياء فلازم القليل وداوم عليه، ويكون قصدها بذلك الراحة. وقد تزيّن له كثير العبادة بتكثير الثواب ويكون قصدها بذلك الشهرة عند الناس فتمجد وتعظم عندهم حتى لو أمرهم بأمر يتبادرون إلى امتثاله وهذا هو الغاية القصوى من مطالب النفس المهلكة وهي مفسدة عظيمة، فإنه حينئذ يقصد بعبادته غير وجه الله تعالى لكن هذه المفسدة وإن كانت عظيمة فإنها مع الاستكثار من العبادة قد يسلم له كثير منها وإن كان يقصد ببعضها الرياء كالفرائض التي لا رياء فيها وما يفعله منها خالياً.

وكان بعض المشايخ رحمه الله تعالى يقول: اجتهدوا في صلاح ظواهركم فإنكم إن فعلتم يوشك أن تصلح بواطنكم.

ويحكى أن رجلاً تعبّد سنين ليشتهر بذلك وتودع عنده الأمانات لينتفع بها فلم يودع عنده شيء، فلما طال عليه الأمر وبخ نفسه وقال: لو أن هذه العبادة لطلب ما عند الله لكان الفوز الأعظم. فعقد التوبة جزماً، فلمّا أصبح أتي بأمانة فقال لصاحبها: ما كان بيننا وبينها إلاَّ ظلام الليل اذهب بسلام.

وحاصل ما أشار إليه الناظم: أن قلّة الطعام المكنى عنها بالجوع والمخمصة شر

من كثرتها الكائن في بعضها الرياء وهي المكنى عنها بالشبع والتخم اهـ.

وفي أبي السعود: الخشية الخوف، قال تعالى: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾﴾ [الأعلى: الآية ١٠] وقال الشاعر:

فلا تغترر في الناس بالمدح والثنا ... ولا تخش غير اللّه واللّه أكبر

والدسائس: جمع دسيسة، أي المكايد الخفية، والفاء في فرب تعليل للأمر بالخشية وشر أفعل تفضيل، وإنما كانت المخمصة شراً من التخم لأن أذية الشبع غايتها التقاعد والتكاسل عن الطاعات، وهذا نوع من العصيان وأذية الجوع قد تؤدي إلى الكفر والتعرض إلى الأمور الإلٰهية بما لا يعني خصوصاً لمن لم تكن نفسه مطمئنة ولم تألف الرياضات ولم تعتد المجاهدات، فإنه ربما وقع بذلك في الكفر. وفي الحديث المصطفوي: «كاد الفقر أن يكون كفراً» وإن كان له محامل لا يسعها هذا المختصر. وللجوع محامل وآثار جلت عن الحصر وناهيك في ذلك بقوله جل ذكره: «الصوم لي وأنا أجزي به».

وإن عدم الأكل صفة مختصة به تعالى، فهو يطعم ولا يطعم، والحق أن كلاً منهما حسن إذا وقع على الحدّ الوسط متجافياً عن طرفي الإفراط والتفريط على أنه قد يختلف قوّة وضعفاً بحسب الأمزجة، فإن من غلب على مزاجه البرودة واليبوسة وكان سوداوي المزاج أو صفراويه أضر به الجوع المفرط جدّاً وعدّله الشبع المعتدل. واعتدال المزاج أمر مهم يجب على المكلف مراعاته فإنه منشأ اعتدال الأخلاق والأفعال. وإلى مثل هذا المعنى الإشارة في قوله علت كلمته: «إن من عبادي من يصلحه الجوع فإن أشبعته أفسدته، وإنّ من عبادي من يصلحه الشبع فإن جوّعته أفسدته» الحديث. فالمعيار فيهما ما لا يخرج به المزاج عن الاعتدال. والله متولي الأحوال اهـ.

ولما أمر بتخليص الأعمال من المفاسد أمر بالتوبة والندم والبكاء على ما عساه يقع منها فاسد أو على ما صدر من المعاصي، فقال:

واستفرغ الدمع من عين قد امتلأت ... من المحارم والزم حمية الندم

أي: اطلب إراقة الدمع بالبكاء من عين قد امتلأت من المآثم من أجل النظر إلى المحارم التي حرَّم الله النظر إليها، والزم حمية الندم من حميت المريض الطعام إذا منعته منه، كأنه قال: الزم منع الندم إياك من الوقوع في المعاصي وابدأ بالتنصل من تبعات العين لأنّ البكاء علامة الندم على جميع ما سلف أو لأنّ السبب الأعظم في الوقوع في المعصية هو النظر لأن الناظر ينظر فيستحسن فيقع فيما لا يحل، وقانا الله من الفتن ما ظهر منها وما بطن بمنّه وفضله.

والبكاء على الخطيئة من أفضل القرب وأسنى المراتب، قال عيسى عليه السلام:

«طوبى لمن بكى على خطيئته».

وإنما قال الناظم: استفرغ ولم يقل: أفرغ، لإفادة أنَّ ذلك لا يكون إلاّ بالطلب ومعلوم فيه من المشقة لا سيما في طلب ما يخالف هوى النفس وأل في الدمع للحقيقة أي لا تبقه فيها ما أمكن وذلك قليل في جنب ما فرطت. اهـ قسطلاني.

وفي الحديث عنه عليه الصلاة والسلام: «أنين المذنبين عند الله أفضل من زجل المسبِّحين»[١].

ولذا قال العارف ابن عطاء الله في حكمه: رب معصية أورثت ذلاً وانكساراً خير من طاعة أورثت عزّاً واستكباراً. فلذا قال: والزم حمية الندم على ما فات وأدم الحسرة وسفك العبرات، وقد قال عليه الصلاة والسلام مرغِّباً لأمّته في البكاء والأسف على ما فات: «لا يلج النار من بكى من خشية الله حتى يعود اللبن في الضرع»[٢]. وفي الحديث أيضاً عنه ﷺ أنه قال: «والذي نفسي بيده لو تعلمون ما أعلم لبكيتم كثيراً ولضحكتم قليلاً»[٣].

قال القطب الشعراني في كتابه تنبيه المغترين: ومن أخلاقهم ـ يعني السلف رضي الله تعالى عنهم ـ رقّة قلوبهم وكثرة بكائهم على تفريطهم في حقوق الله تعالى لعل الله أن يرحمهم. وكان على هذا المقام الإمام أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه وعمر بن الخطاب وأبو الدرداء رضي الله عنهما. وكان لعمر بن الخطاب رضي الله عنه خطان أسودان في وجهه من مجرى الدموع وكذلك عبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنهما، وكذلك كان لعمر بن عبد العزيز ويزيد الرقاشي والفضيل بن عياض وبشر الحافي ومعروف الكرخي رضي الله عنهم.

وكان يزيد الرقاشي رحمه الله إذا دخل بيته يبكي، وإذا قدّم إليه الطعام يبكي، وإذا جلس إليه إخوانه بكى وأبكاهم ويقول: هل خلقت النار إلاّ لمثلي.

وكان عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه طول ليله يبكي ويجول في داره ويصرخ إلى الصباح وكثيراً ما يقع مغشياً عليه. وكان يصلّي في سطح غرفته ويبكي في سجوده حتى تجري دموعه وتتقاطر من الميزاب على النائمين تحته حتى كانوا يظنون أنها سحابة مارة فأمطرت عليهم.

وقد كانت رابعة العدوية رضي الله عنها تبكي وترش دمعها حولها حتى كان يظن

---

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٥/ ٤٥٢).

(٢) رواه الحاكم في المستدرك (٤/ ٢٨٨)، وأحمد في المسند (٢/ ٥٠٥)، والترمذي (٤/ ١٧١).

(٣) رواه البخاري (٦/ ٢٤٤٥)، ومسلم (٢/ ٦١٨).

الداخل إليها أنَّ ذلك من ماء الوضوء.

وكان ابن السماك رحمه الله تعالى إذا حمى مجلسه وتباكى الناس يذكر لهم بكاء داود عليه الصلاة والسلام وبكاء سفيان الثوري وداود الطائي والفضيل بن عياض وعمر بن عبد العزيز وأضرابهم فيستصغر الناس عند ذلك بكاءهم.

وكان كعب الأحبار رضي الله عنه يقول: لأن أبكي من خشية الله حتى تخرج من عيني قطرة واحدة أحب إليّ من أن أتصدّق بجبل من ذهب وأنا غليظ القلب.

وكان علي رضي الله عنه يقول: علامة الصالحين صفرة الألوان وعمش العيون وذبول الشفاه. أي من كثرة سهرهم وبكائهم وجوعهم.

وكان الفضيل بن عياض رضي الله تعالى عنه يقول: ليس البكاء بكاء العين إنما البكاء بكاء القلب، فإن الرجل قد تبكي عيناه وقلبه قاس. اهـ.

وبالجملة، فشأن المؤمن أن يكون دائماً حزيناً كئيباً على ما فرط منه من التقصير، ولذا قال عليه الصلاة والسلام: «قلب المؤمن حزين» أي شأنه أن يكون كذلك.

وقد نقلنا في كتابنا مشارق الأنوار عن القطب الشعراني وغيره: أن أبا حنيفة النعمان مكث نحو الأربعين عاماً لا يضع جنبه على الأرض وكان في آخر تهجده يبكي ويقول:

فوا حزناً أن لا حياة هنيئة ... ولا عمل يرضى به اللَّه صالح

وإنما أطلت الكلام في ذلك تذكيراً لمثلي، نسأل الله سبحانه أن يمدّنا بأمداد الصالحين ويحشرنا في زمرة سيد المرسلين ﷺ وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين. ثم قال رضي الله عنه:

وخالف النفس والشيطان واعصهما ... وإن هما محضاك النصح فاتهم

أي لا تطعهما فيما يدعوانك إليه من التمادي على الغي أو غير ذلك، فإن مخالفة النفس رأس العبادة وترك شهواتها أول مراتب السعادة، ولذا قيل: النعمة العظمى الخروج من النفس لأنها أعظم حجاب بينك وبين الله تعالى، قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝٤١﴾ [النّازعات: الآيتان ٤٠، ٤١].

وقد سُئل المشايخ عن الإسلام فقالوا: ذبح النفوس بسيوف المخالفة.

وقال سهل بن عبد الله: ما عبد الله بشيء مثل مخالفة النفس والهوى، وأما الشيطان فعداوته لا تخفى، وكيف يقبل اللبيب نصيحته أم كيف يأمن العاقل خديعته، انظر فعله مع أبيك وقد أقسم له أنه لمن الناصحين فكيف بك وقد أقسم ليغوينك أعاذنا الله منهما.

ثم نبّه الناظم على أنه لا يكتفى بمخالفتهما، بل لا بد من عصيانهما فقال: واعصهما، لأنه قد يخالف ما أمراه به إلى غيره مما يرضيان به.

وقيل: يحتمل أن يريد خالفهما في المكروه والمحرم معاً واعصهما في المحرم فيكون من عطف الخاص على العام أو يكون من عطف التغاير أي خالفهما في المكروه واعصهما في المحرم. ثم قال: وإن هما محضاك، أي أخلصا لك النصح فيما أبدياه لك، فاتهم الناصح من كل منهما ومثل ذلك كأن تقول النفس: متّعني بهذه الشهوة لأمتلىء منها ثم أتوجه إلى الطاعة فارغة، أو تقول لمن نوى الجدّ في العبادات: إن الله غني عنك وعن عبادتك فحافظ على أصل الإيمان ويكفيك. أو تقول للمنهمك في العصيان: إنك قد احترمت أموراً عظاماً لا تقبل لك معها توبة فاربح دنياك وأتي بأن في قوله: وإن هما، لأنه أمر مشكوك فيه بل لا يفرض إلاَّ كما تفرض المحالات. فإن النصح لا يتصوّر من جهتهما. اهـ من القسطلاني.

وفي أبي السعود: المعنى خالف العدوين ولا تطع الخصمين المردبين اللذين هما النفس الأمّارة بالسوء والفحشاء والشيطان المردي الذي هو أعدى الأعداء، وإن فرضنا أنهما أخلصا لك النصح من الشوب وبرّءا نصيحتهما من كل ريب فلا تركن إلى نصيحتهما ولا ترعوين إلى ما يبديان من صداقتهما واتهمهما فإن اتهامهما هو الحزم وعدم الارتكان إليهما هو العزم فإنهما عدوّان ضاريان وعلى المضرة والشر منجبلان، فإن قلت: أيهما أشد عداوة وأعظم كيداً، قلت: النفس فإن عداوة الشيطان وكيده لطلب المتابعة وكيد النفس لقضاء وطرها من الشهوات وأربها من اللذات على أي وجه كان، فالشيطان إذا استعذت منه بالرحمٰن نكص على عقبيه وأدبر هارباً والنفس إن لم ترضها بأنواع الرياضات وتقمعها بضروب من المجهدات لم تأمن مكرها، ولذلك قيل: أعدى عدوّك نفسك التي بين جنبيك. وأيضاً أن الشيطان إنما يتمكن منك بسببها فإن هي وافقتك على طاعة مولاك لم يجد الشيطان إلى إغوائك سبيلاً ولا إلى إضلالك دليلاً حيث إنها وسيلة توصله توصيلاً وقد انقادت إلى ربها وتبتلت إليه تبتيلاً فاستعن بربك واتخذه وكيلاً واعبده حق عبادته وبجّله تبجيلاً اهـ. ثم قال رضي الله عنه:

ولا تطع منهما خصماً ولا حكماً فأنت تعرف كيد الخصم والحكم

أي ولا تطع منهما خصماً في ابتداء الأمر كما إذا أوراك أحدهما الإقدام على المعصية وهذه صورة كون أحدهما خصماً فإنه حينئذ يزيّن القدوم عليها والمأمور يدفع ذلك بما يعلم من سوء العاقبة، فهما خصمان ولا بعد الاشتغال بالمعاصي وهو مراده بقوله: ولا حكماً لأنه إذا استولى سلطان أحدهما فالمكلف يريد التنصل والنفس أو الشيطان يزيّن له البقاء والتسويف وطول الأمل ويضرب له أجلاً بعد أجل، وهذا فعل

الحكماء فيما يقطعون به الحقوق والأمراء فيما يعدون بإعطائه، فأنت تعرف كيد أي مكر الخصم والحكم أي، فأنت تعرف كيد النفس والشيطان اللذين يكون كل منهما خصماً مرة وحكماً أخرى.

وهذا البيت قريب من معنى البيت قبله. اهـ قسطلاني.

وفي أبي السعود: والتنوين في خصماً وحكماً للتفخيم، وفائدته المبالغة في الزجر عن الإطاعة.

والمعنى: لا تطع من جهتهما خصماً ولا حكماً كائناً من كان، والفاء في فأنت تعليلية وأنت مبتدأ وتعرف خبره، وفصل الضمير وتقديمه لتقوى الحكم والإضافة في كيد الخصم لامية، واللام في الخصم والحكم للعهد الخارجي، كقوله تعالى: ﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ﴾ [المُزمّل: الآية ١٦] والبيت تأكيد للبيت الأول فكان الأولى الفصل وإنما وصل لإيهام الزيادة على البيت الأول.

المعنى: لا تطع خصماً ولا حكماً كائناً من جهة النفس والشيطان، فإنك قد عرفت مكر النفس وكيد الشيطان فلا يخفى عليك حال من هو من قبلهما ومن جهتهما فلا تأمن مكرهما فإنه لا يغني عليك احتيالهما ولا يخفى عليك شرك اغتيالهما، واذكر ما عهد الله إليك في قوله: ﴿۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾﴾ [يس: الآية ٦٠]، وقوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النّازعات: الآيتان ٤٠، ٤١].

فإن قلت: كيف يتصوّر الخصم والحكم بالنسبة إلى النفس والشيطان، قلت: النفس خصم، والشيطان حكم. فإن النفس إذا مالت إلى معصية ادّعت على صاحبها أن يؤدّي حقها منه وأن يوصلها إلى ما تاقت أي مالت إليه ونصّبت الشيطان حكماً يحكم لها على صاحبها بوجوب أداء حقها وإيصالها إلى ما تتمناه وإبلاغها إلى ما تهواه، فيأخذ في نصب شركه ويجلب عليه بخيله ورجله، ويبذل جهده وطاقته في خدعه وضله. اهـ.

ولما حذّر من غوائل النفس وأمر بصرف الهوى عنها ومخالفتها ومخالفة الشيطان، خاف على نفسه الرياء فأخذ يفض عنها ويستقصرها طالباً مغفرة الله تعالى، فقال:

استغفر اللّه من قول بلا عمل   لقد نسبت به نسلاً لذي عقم

أي أطلب ستره وتغطيته من أجل قول صدر مني بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بلا عمل، أي وليس لي عمل، أو لم أتلبس بعمل موافق لما أمرت به وناهيك به قلّة حياء وأكبر زلل وفي ذكر فضل الاستغفار طول يخرج عن المقصود. وما أحسن قول القائل:

ولو أن فرعون لما طغى   وقال على اللّه إفكاً وزوراً

أناب إلى الله مستغفراً لما وجد الله إلاَّ غفوراً

والمراد من قوله: استغفر الله الإنشاء وهو يطلب مفعولين، الثاني مجرور وهو هنا من قول، ويجوز حذف جاره نحو استغفر الله ذنباً، أي من ذنب لقد نسبت أي أضفت به نسلاً أي ولداً لذي عقم بضم القاف اتباعاً لضمة العين أي لا يقبل الولد أي أن مثلي فيما تصدّيت له من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتخلّفي عن العمل كمثل الذي ينسب النسل الذي هو الولد للعقيم، فكذلك ما نسبت لنفسي من رتبة الوعظ فإنها لا تنسب إلاَّ لمن يأتمر وينتهي. اهـ قسطلاني.

وفي أبي السعود: الاستغفار طلب المغفرة، وهي في اللغة: الستر، فيجوز أن يكون معنى الاستغفار طلب الستر على الذنب ويجوز أن يكون معناه طلب المغفرة بمعنى عدم المجازاة عليه بما يستحقه من العقوبة، فهو بمعنى الصفح. ثم قال: والمعنى، أنه لما رأى نفسه في حالة وعظه للغير غير متعظ وعلم أنه قد دخل بذلك في زمرة الملومين بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٣﴾ [الصف: الآيتان ٢،٣] تشبث في الاستخلاص من بوائق ما وقع فيه بذيل الاستغفار واستمسك في النجاة من مزالقه بالاعتراف بالتقصير والعثار، فقال: أستغفر الله من قول باللسان لم يؤيد بعمل الأركان، فوالله لقد نسبت بذلك إلى نفسي الأمر الجسيم كمن نسب ولداً إلى العقيم وهذا افتراء عظيم. وقد أشار في كلامه إلى عظم ذنب العالم الذي لم يجر على مقتضى علمه والآمر بالمعروف غير مؤتمر به، والناهي عن المنكر غير منته عنه، فإنهما مخالفان قوله تعالى وقول رسول الله ﷺ: «ابدأ بنفسك»، وإنه ذنب يجب الاستغفار منه وعدم العود إليه وإلى علو مرتبة الاستغفار فإنه يأكل الذنوب كما تأكل الحطب النار. قال تعالى: ﴿ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا * يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا ۝١١ وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّٰتٖ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَٰرٗا ۝١٢﴾ [نوح: الآيات ١٠-١٢]، وقال النبي ﷺ: «من أكثر الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجاً ومن كل ضيق مخرجاً» اهـ.

قال العلامة السعد: الغفر في الأصل: الستر، والاستغفار: طلب الستر، وغفر ذهب المذنب ما جازاه بما يستحقه به أو الغفر المحو اهـ.

قلت: والذي أفاده بعض العارفين من أئمة التحقيق أن ذلك يختلف باختلاف العبيد فمنهم من يتفضل الرحمٰن عليه ويتم إحسانه إليه فيعجل محو ذنبه قبل آخرته، ومنهم من تستر ذنوبه عن الملائكة وتؤخر إلى آخرته ثم بعد أن تعدد عليه يعطف بالصفح عنه كما هو معلوم في حديث البخاري وغيره. وقوله: بلا عمل، صفة لقول: أي من قول ملتبس بترك العمل، ولقد جملة استئنافية، وجواب القسم محذوف والباء في به

للسببية والضمير يرجع إلى القول والنسل الولد.

ثم قال العلامة السعد: وعقمت المرأة عقماً وعقماً وذي عقم، هي العقيم. والمراد: التي لا تلد، والمعنى: إذا استغفر الله من قول أمر أو نهي بلا عمل فإنه أمر يستحق صاحبه الزجر والتوبيخ كما قال عز وجل: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ [البَقَرَة: الآية ٤٤] لأن في الأمر بالفضائل نوع ادعاء الاتصاف بتلك الأمور ولو كان ذلك الأمر بدون الاتصاف بها يكون كنسبة الولد إلى عقيم بالبهت والزور، ومثل هذا الكلام لا يفضي إلى إتيان المرام إذ الموعظة ما لم يتحل بمقتضاها المذكر لن تجد سمعاً يعيها ولا قلباً تلك الموعظة فيه تؤثر، كما قيل: إن القول الذي يخرج عن اللسان لم يتجاوز الآذان والذي يخرج عن الجنان وقع على الجنان اهـ. وقد سبق لك في المقدمة في فضل الاستغفار وما ورد فيه من الآثار ما فيه الكفاية والاعتبار والله أعلم.

ولما كان ما مثل به غير ظاهر لكل أحد فسره بقوله:

أمرتك الخير لكن ما ائتمرت به وما استقمت فما قولي لك استقم

الخير، بفتح الراء بنزع الخافض، تقديره بالخير، لكن ما ائتمرت به أنا وما استقمت أنا، أي ما اعتدلت فما الفائدة في قولي لك استقم استفهام للتحقير أو للتوبيخ أو للتعجب أو للإنكار، وأصل استقمت استقومت، فنقلت حركة العين التي هي الواو لأنها حرف علّة إلى الساكن الصحيح قبلها، وقلبت الواو ألفاً لسكونها وانفتاح ما قبلها، ثم سكن آخر الفعل للإسناد لضمير الرفع المتحرك فحذفت الألف لالتقاء الساكنين اهـ قسطلاني.

وفي أبي السعود: الأمر هو الطلب على سبيل الاستعلاء، ولكن للاستدراك وهو دفع توهم ناشىء من كلام سابق، والائتمار قبول الأمر، والاستقامة الثبات على الأمر المستقيم. ومنه قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ [هُود: الآية ١١٢] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ [فُصِّلَت: الآية ٣٠]، وقول النبي ﷺ: «استقيموا ولن تحصوا»[1] أي لن تقدروا على الاستقامة كما ينبغي. فيكون المراد الأمر بالاستقامة على قدر الاستطاعة لقوله عليه الصلاة والسلام: «إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم». وفصل هذه الجملة، أعني أمرتك الخير عن الجملة المتقدمة، أعني لقد نسبت لما بينهما من كمال الاتصال لكون الثانية بياناً وتفسيراً للأولى، والخير مفعول ثان لأمرتك، والكاف هو الأول. وقيل: إن هذا من قبيل الحذف والإيصال، والواو في وما استقمت

(١) رواه الدارمي (١/ ١٧٤)، والحاكم (١/ ٢٢٠)، وابن ماجه (١/ ١٠١، ١٠٢)، وأحمد في المسند (٥/ ٢٧٦)، والطيالسي (١/ ١٣٤).

لعطف الجملة المنفية على مثلها. فإن قلت: المعطوف عليه جملة خبرية والمعطوف إنشائية فكيف يصح في الكلام البليغ، قلت: قوله أمرتك الخير وإن كان خبراً من حيث اللفظ لكنه إنشاء من حيث المعنى، لأن المقصود منه التحسر والتأسف على ما صدر منه فهو من قبيل قوله تعالى: ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾ [آل عِمرَان: الآية ٣٦] والمعنى: يقول اعتباراً وبياناً لعلة الاستغفار: أمرتك بالخير الذي أنا مأمور به ولم أئتمر بما أمرت ولم أقم على الصلاح كما أمرت مع أن الآمر أجدر بالإطاعة مني ومع ذلك فإني لم أستقم على ما أمرني به، وهل يجوز لي مع مخالفة أمر مثله أن أصير آمراً، أستغفر الله من ذلك اهـ. ثم قال رضي الله عنه:

ولا تزودت قبل الموت نافلة ولم أصلِّ سوى فرض ولم أصم

أي ولا اتخذت من الزاد قبل سفر الموت المفوّت للطاعات نافلة من الأعمال الصالحة التي هي التطوّعات بعد أداء الفرائض لأن التزوّد بالفرائض لذلك السفر قد لا يكفي لاحتمال أن يكون فيها نقص، فيكمل بالنوافل، ولم أصلِّ سوى فرض وكذا لم أصم سوى الفرض أيضاً، وحذف ذلك لدلالة ما قبله عليه. اهـ قسطلاني.

وفي أبي السعود: التزوّد هو اتخاذ الزاد وإعداده للسفر، ولا عطف على ما استقمت، وهي مذكرة للنفي. وقيل: طرف متعلق بتزوّدت ولم أصلِّ مفعوله محذوف وسوى فرض استثناء مفرغ والتنوين في نافلة للتعظيم، وفي فرض للتحقير. أي لم أتزوّد نافلة عظيمة يعتد بها ولم أصلِّ ولم أصم سوى فرض حقير لا يعتد به لكونه غير مشتمل على خشوع وتوجه تام. ويجوز أن يحمل تنوين نافلة على التحقير أيضاً، أي لم أتزوّد نافلة حقيرة فضلاً عن العظيمة.

وفي البيت استعارة مكنية لأنه عبر عن الارتحال من دار الدنيا إلى دار الآخرة بالسفر وذكر ما هو من لوازم المشبه به وهو التزوّد، والمعنى يقول: إنني لم أثبت على ما أمرت به من الاستقامة ولم أتحل بملابس أهل الكرامة، ولم أتزوّد في الإقامة قبل الرحيل إلى دار القيامة من النوافل التي هي زاد المتقين والسنن التي هي متاع الصالحين، ولم أصلِّ من الصلوات إلاَّ ما كتب ولم أصم إلاَّ ما وجب.

وهذا البيت ظاهره خبر، والمراد منه التأسف والتحسُّر على ما فرّط فيه مما يحتاج إليه من زاد التقوى التي هي زاد سفر الآخرة. وعن النبي ﷺ: «ما لي وللدنيا إنما مثلي مثل راكب مار في يوم صائف فرفعت له شجرة فقام تحت ظلها ساعة ثم راح». وقال عيسى عليه السلام: «الدنيا قنطرة فاعبروها ولا تعمروها» اهـ. ثم شرع في مدح سيد المرسلين عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، بقوله:

ظلمت سنّة من أحيا الظلام إلى أن أشكت قدماه الضر من ورم

فقوله: ظلمت، أي بترك ذلك سنة سيد المرسلين عليه أفضل الصلاة والتسليم من إحياء الظلام بالصلاة إلى أن اشتكت قدماه من طول قيامه الضر من ورم وسبب تورم قدميه الشريفتين ﷺ انصباب المواد الكائنة في أعالي الجسم إليهما لسهولة الانصباب حينئذ وعدم استقرارها في الأعضاء كالماء المرسل من أعلى إلى أسفل، والاستلقاء أو الجلوس أو الحركة تمنع من كثير من ذلك، فصارت قدماه بعد ذلك كحالة الشاكي ما نزل به من ضرر ذلك الورم.

وأشار بذلك إلى ما أخبرنا به الشيخ الصالح شهاب الدين أبو العباس الجمالي قراءة عليه، قال: أخبرنا الشيخ أبو إسحٰق بن عبد الواحد المقري أذناً قال: أخبرنا أبو الحسن البندنيجي سماعاً، أخبرنا أبو منصور بن الهين سماعاً وأبو محمد الماردیني آذناً. قال الأول: أخبرنا ابن الأخضر أخبرنا أبو الفتح الكرخي وبإجازة الثاني عالياً منه أخبرنا أبو عامر الأزدي وأبو بكر التاجر قالا: أخبرنا أبو محمد المروزي أخبرنا أبو العباس المحبوبي أخبرنا أبو عيسى بن سورة الحافظ أخبرنا قتيبة وبشر بن معاذ قالا: حدّثنا أبو عوانة عن زياد بن علاثة عن المغيرة بن شعبة قال: قام رسول الله ﷺ حتى انتفخت قدماه فقيل له: أتتكلف هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، قال: «أفلا أكون عبداً شكوراً».

وقوله: ظلمت من الاستئناف البياني كأن قائلاً يقول: هل أنصفت في اقتصارك على الفرض من صلاة وصيام أو ظلمت، فقال: ظلمت، وفيه حسن التخلص.

تنبيه: السنّة في اللغة الطريقة في الخير والشر، وفي الشرع قول الرسول أو فعله أو تقريره. وهل السنة التي قالها ﷺ أو أقر عليها أو فعلها حصلت بطريق الوحي أو بطريق الإلهام والإلقاء في روعه خلاف. حكاه البيهقي في المدخل اهـ.

وفي أبي السعود: الظلم: التعدّي وتجاوز الحد، والظلام والظلمة بمعنى، وهو هنا مجاز عن الليل من ذكر اللازم وإرادة الملزوم وإحياء الليل كناية عن العبادة فيه، فإن الرجل يحيي بها قلبه، والشكوى والاشتكاء إظهار الشكاية، وهي بمعنى الشكوى. والضر شدَّة المحنة ومنه قوله تعالى حكاية عن أيوب عليه السلام: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [الأنبياء: الآية ٨٣] وإسناد الشكوى إلى القدمين مجاز والورم ازدياد اللحم في الجسم على غير اقتضاء طبيعي.

والبيت تقرير للبيت الأول وخروج للمقصود من القصيدة. فإن قلت: لم أضاف السنّة إلى الموصول ولم يصرح باسم النبي ﷺ وجاء بهذه الصفة من بين صفاته ﷺ، قلت: لما في هذا الأسلوب من شدة الملايمة لمقتضى المقام من هذا الكلام الذي ساقه ولزيادة التقريع والتوبيخ لنفسه فكأنه يقول لها: إذا كان من قد غفر الله له ما تقدَّم من ذنبه

وما تأخر هذا شأنه فأنى لك في هذا التقصير والادعاء بأنك من أمّته وعدم الاقتداء به، فإن قلت: كيف يصح منه الشكاية ﷺ لا سيما في أمر العبادة، قلت: المراد بيان شدّة الألم والوجع العائدين إلى قدميه الشريفتين من كثرة القيام في الظلام، وصوّره بصورة الاشتكاء مبالغة في تلك الشدة ولذلك أسند الاشتكاء إلى القدمين تحاشياً عن إسناده إليه ﷺ.

والمعنى: يقول: ظلمت وتعدّيت على سنّة الذي قام في ليله مصليّاً وأحياه لربه مناجياً ولا يسأم القيام في الظلام حتى اشتكت قدماه الضر والشدّة والمشقة والمحنة من الورم الطارىء عليهما من شدّة القيام والناس نيام. وفي البيت تنبيه على كثرة عبادته وغلبة طاعته. وأشار إلى الحديث الذي رواه المغيرة بن شعبة أنه قام ﷺ حتى تورمت قدماه فقيل له: لم تصنع ذلك وقد غفر لك ما تقدَّم من ذنبك وما تأخر، فقال: «ألا أحب أن أكون عبداً شكوراً» اهـ.

وإلى هذا المعنى أشار سيدنا حسان رضي الله عنه كما في البخاري الشريف نقلاً عنه بقوله:

وفينا رسول اللَّه يتلو كتابه ... إذا انشقّ معروف من الفجر ساطع

يبيت يجافي جنبه عن فراشه ... إذا ثقلت بالمشركين المضاجع

أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا ... به موقنات أن ما قال واقع

وقد سبق لك في فضل قيام الليل جملة من الآثار فلا تغفل.

ثم أخذ الناظم رحمه الله تعالى يذكر ملازمته ﷺ النهار بالصيام، فقال:

وشدّ من سغب أحشاءه وطوى ... تحت الحجارة كشحاً مترف الأدم

أي عصب ﷺ وربط من سغب، أي جوع، أحشاءه وهي ما انضمت عليه ضلوعه الشريفة. وقوله: مترف، أي ناعم، الأدم أي الجلد، يعني أنه ﷺ ثنى من جلد بطنه تحت الحجارة كشحاً وهو ما بين خاصرته وأقصر ضلع من جنبه الشريف، وإنما فعل هذا ﷺ ليسكّن بعض ألم الجوع وإنما كان هذا الفعل مسكّناً لأن كلب الجوع من شدّة حرارة المعدة الغريزية فهي إذا امتلأت من الطعام اشتغلت تلك الحرارة بالطعام فإذا لم يكن فيها طعام طلبت رطوبات الجسم وجواهره فتعلقت بها فيتألم الإنسان بتلك الحرارة ويتلف بها كثير من جواهر البدن ورطوباته، وإذا انضمت الأحشاء والجلد على المعدة خمدت نارها بعض الخمود فقلّ الألم.

وفائدة شدّ الحجر أمران، أحدهما: تثقيل الجلد ليكثر انضمامه على الأحشاء وهو المقصود بالشدّ. الثاني: ما فيه من البرودة لتسكن حرارة المعدة وتشتغل ببرودته.

فإن قيل: ثبت في الصحيح أنه ﷺ حين نهى الناس عن الوصال وقيل له: إنك تواصل، قال: «إني لست كهيئتكم إني أبيت يطعمني ربي ويسقيني»، فمن هذا حاله كيف يتألم بالجوع حتى يحتاج إلى عصب بطنه بحجر.

فالجواب: إنما نهاهم عن الوصال لئلا تضعف قواهم فلا يقدروا على الجهاد ولا على القيام بغيره من العبادات ولم ينههم لأجل تألمهم بالجوع، فإن التألم سبب الأجر وأفضل العبادات آجرها. وإذا كان كذلك فهو ﷺ ضمن الله له قوته وإنما تألمه بالجوع ليحصل له تضعيف الأجر مع حفظ قوّته ونضارة جسمه حتى إن من رآه لا يظن أن به جوعاً لأن جسمه ﷺ إنما كان يرى أشد نضارة من أجسام المترفهين بالنعم في الدنيا وهذا المعنى هو الذي قصده الناظم رحمه الله تعالى بقوله: مترف الأدم، وهو من باب الاحتراس والتكميل لأنه لما ذكر أنه شدّ من سغب خاف ممن يتوهم أن جسمه الشريف حينئذ يظهر فيه أثر الجوع فاحترس ودفع ذلك الإيهام بقوله: مترف الأدم.

وقول الجوهري: إنه يقال فلان أترفته النعمة إذا أطغته إن صح أن هذا معنى الإتراف لغة، فالأولى بالناظم أن لو قال: ناعم مكان مترف.

فإن قيل: كيف علم جابر رضي الله عنه ما به ﷺ من الجوع وأخبر بذلك امرأته وأثر الجوع لا يظهر فيه.

فالجواب: إنما عرفه بعد كشف بطنه منهياً للخصر كما ثبت في الصحيح. اهـ قسطلاني.

وفي الشفاء وعن عائشة رضي الله عنها قالت: لم يمتلىء جوف النبي ﷺ شبعاً قط ولم يبث شكوى إلى أحد وكانت الفاقة أحب إليه من الغنى وإن كان ليظل جائعاً يلتوي طول ليلته من الجوع فلا يمنعه صيام يومه ولو شاء سأل ربه جميع كنوز الأرض وثمارها ورغد عيشها، ولقد كنت أبكي رحمة له مما أرى به من الجوع وأقول: نفسي لك الفداء لو تبلغت من الدنيا بما يقوتك، فيقول: «يا عائشة ما لي وللدنيا إخواني من أولي العزم من الرسل صبروا على ما هو أشدّ من هذا فمضوا على حالهم فقدموا على ربهم فأكرم مآبهم وأجزل ثوابهم فأجدني أستحيي إن ترفّهت في معيشتي أن يقصر بي غداً دونهم وما من شيء هو أحب إليّ من اللحوق بإخواني وأخلائي». قالت: فما أقام بعد إلاّ شهراً حتى توفي صلوات الله وسلامه عليه. اهـ.

وفي شرحنا المدد الفياض على الشفاء، قوله: ورغد عيشها، الرغد بفتحتين ويسكن الثاني على ما في القاموس، قوله: فما أرى به من الجوع، أي من أثر جوعه المختص به، قوله: وأقول: نفسي الخ، أي والحال أني أقول حينئذ نفسي الفداء بالمدّ، قوله: يقوتك، بضم القاف أي لو توسعت من البلغة وتوصلت إلى المتعة بقدر ما يعينك

على الطاعة لكان أولى من هذه الحالة، قوله: ما لي وللدنيا، استفهام إنكاري، أي لا حاجة لي إلى الدنيا، قوله: فقدموا على ربهم، أي راضين بقضائه وصابرين على بلائه، قوله: أستحيي، بياءين، وفي نسخة بياء واحدة، أي فأرى نفسي مستحيية، قوله: أن يقصر بي، بتشديد الصاد المفتوحة، قوله: دونهم، أي دون مرتبتهم، قوله: وأخلائي، أي أحبائي في الملّة. اهـ.

وفي أبي السعود: الشدّ الإحكام والربط، والسغب الجوع، والأحشاء جمع حشا. قال في الصحاح: الحشا ما انضمت عليه الضلوع. وقيل: الحشا القلب، وحشا البطن أمعاؤه، والطيّ اللف، يقال طويت الثوب لففته، والكشح الخاصرة، والمترف الناعم الغض من الترف وهو النعومة المفرطة، والأدم والأديم الجلد. وقيل: إنه باطن الجلد كما أن البشرة ظاهره، وشدّ عطف على أحيا فهو في حيز صلة الموصول ومن في من سغب للسببية وأحشاءه مفعول شدّ والتنوينان في سغب وكشحاً للتعظيم وإضافة مترف للأدم لفظية فإن مترف اسم مفعول من الإتراف.

والمعنى: أنه قد ظلم سنّة من شدّ من الجوع والسغب ما ضمته أضلاعه الشريفة من الأحشاء ولف الكشح الذي أديمه مترف وبشرته ناعمة وإن لم تكن متنعمة تحت الحجارة القاسية الصماء، وظلمه للسنّة حيث لم يكن متلبساً بما كان شأنه فعله ﷺ من رفض الهجوع وملازمة السهر وحب الجوع، وإذا كان ﷺ مع زكاء عنصره وطيب نفسه وطهارة قلبه لم يقبل على شبعه في عمره مرة واحدة فما بال من كثف عنصره وأظلم جوهره وكدر قلبه لم يشبع في عمره مرة واحدة.

وروي عن بعض الكبراء: أن أوّل بدعة حدثت في الإسلام الشبع المفرط ولا شيء أهلك منه للنفس فإنه رأس كل فتنة، وإنما عطف هذه الجملة أي قوله: وشدّ على أحيا نظراً إلى قوله في البيت السابق: ولم أصم، عقيب قوله: ولم أصلِّ. وفي البيت الإشارة لما جاء في الخبر: إنَّ النبي ﷺ كان يشدّ على بطنه الحجر من شدّة الجوع.

عن جابر رضي الله عنه قال: «مكث النبي ﷺ وهم يحفرون الخندق ثلاثاً لم يذق طعاماً، فقالوا: يا رسول الله إن ها هنا كدية من الجبل قد عجزت معاولنا عنها، فقال رسول الله ﷺ: «رشوها بالماء» فرشوها ثم جاء رسول الله ﷺ فأخذ المعول ثم قال: «باسم الله» فضرب ثلاثاً فصارت كثيباً. قال جابر: فحانت مني التفاتة فإذا رسول الله ﷺ قد شدّ على بطنه حجراً»[1].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «دخلت على رسول الله ﷺ وهو يصلّي جالساً

(١) رواه أحمد في المسند (٣/ ٢١٠، ٢٥٢، ٢٨٨، ٣٠٠)، والنسائي في الكبرى (٥/ ٧٧).

فقلت: ما أصابك يا رسول الله، فقال: الجوع. فبكيت، فقال: لا تبك فإن شدة الجوع لا تصيب الجائع في القيامة إذا احتسب في دار الدنيا» اهـ.

وفي شرح المحلى: وشدّ من سغب، أي جوّع أحشاءه، أي أضلاعه وطوى تحت الحجارة كشحاً وهو الخصر مترف الأدم أي ناعم الجلد في غاية، وشدّه الحجر على بطنه من الجوع وقع له في حفر الخندق»[1] رواه البخاري عن جابر.

ومن الحكمة في ذلك أن يخفف برد الحجر حرارة الباطن.

وروى مسلم عن أنس قال: «جئت رسول الله ﷺ يوماً فوجدته جالساً مع أصحابه يحدّثهم وقد عصب نفسه بعصابة، فسألت عن ذلك، فقالوا: من الجوع»[2] اهـ.

قلت: وكفى شرفاً لهذا الوصف قوله ﷺ: «إذا جاع الرجل ملأ الله قلبه نوراً». ولذلك كان هو الركن الأكبر من الأركان الأربعة التي اتخذتها أهل الطريق موصلة إلى الله تعالى رضي الله عنهم وأمدنا من مددهم.

ولما ذكر من جوعه ﷺ ما ذكر خاف أن يتوهم سقيم القلب عند سماع ذلك أنه من فاقة وعيلة فيستبعد ذلك لأنه على خلاف قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾﴾ [الضحى: الآية ٨] فأردف ذلك بما يدفع هذا التوهم بقوله:

وراودته الجبال الشم من ذهب عن نفسه فأراها أيما شمم

أي وخادعته ﷺ الجبال الشم، أي المرتفعات الرؤوس عن نفسها أن تكون من ذهب وتسير معه حيث سار بإذن الله تعالى وأن تطاوعها نفسه على ذلك، وهذا معنى قوله: عن نفسه، وإسناد المراودة إليها يحتمل أن يكون حقيقة بأن يخلق الله تعالى فيها النطق وإدراك ذلك، ويحتمل أن يكون من مجاز التشبيه، فأراها، أي بصّرها حقيقة بأن خلق الله فيها الإدراك، أو مجازاً أي جعلها تبصر منه شمماً أيما شمم لأنها لما تاهت بارتفاعها الصوري الذهني ووثقت بأن يشم رائحتها ويضمها إليه أراها ﷺ في أنفه الشمم الدال على الإعراض عنها وعدم الالتفات إليها كما روينا في كتاب الترمذي أنه ﷺ قال: «عرض عليَّ ربي أن يجعل لي بطحاء مكة ذهباً، فقلت: لا يا رب ولكن أشبع يوماً وأجوع يوماً»[3] الحديث.

وروي أنه لما جاء جبريل عليه الصلاة والسلام بذلك قال له: «يا جبريل صف لي الدنيا، فقال: يا محمد حلالها حساب وحرامها عقاب. فاختار الفقر والدار الآخرة»[4]

---

(١) رواه البخاري (٤/ ١٥٠٥).

(٢) رواه مسلم (٣/ ١٦١٤).

(٣) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٧/ ٣١٠)، والترمذي (٤/ ٥٧٥)، وأحمد (٥/ ٢٥٤).

(٤) رواه الديلمي في الفردوس (٥٨٣٠)، (٣/ ٥٨٥) بنحوه.

والأظهر في قوله: من ذهب أن يتعلق بمحذوف أي أن تكون من ذهب كما قرّرناه ولا بد من هذا التقدير للأحاديث الواردة في ذلك لأنها لم تكن من ذهب وإنما عرض عليه أن تكون كذلك.

والذي تقتضيه الأحاديث الواردة في ذلك أن الجبال التي راودته هي جبال مكة، وليس إعراضه ﷺ عن جبال الذهب عن كثرة مال بل كان مع شدّة الحاجة والضرورة كما فهم من الحديث. اهـ قسطلاني.

وفي الشفاء: قالت عائشة رضي الله عنها: «ولقد مات ﷺ وما في بيتي شيئاً يأكله ذو كد إلاّ شطر شعير في رف لي، وقال لي: إني عرض عليّ أن تُجعل لي بطحاء مكة ذهباً فقلت: لا يا رب أجوع يوماً وأشبع يوماً، فأما اليوم الذي أجوع فيه فأتضرع إليك وأدعوك وأما اليوم الذي أشبع فيه فأحمدك وأثني عليك».

وفي حديث آخر أن جبريل عليه السلام نزل عليه فقال له: «إن الله يقرئك السلام ويقول لك: أتحب أن أجعل هذه الجبال ذهباً وتكون معك حيثما كنت. فأطرق ساعة ثم قال: يا جبريل إن الدنيا دار من لا دار له ومال من لا مال له قد يجمعها من لا عقل له. فقال له جبريل: ثبتّك الله يا محمد بالقول الثابت»[١].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: إنّا كنا آل محمد لنمكث شهراً ما نستوقد ناراً إن هو إلاّ التمر والماء. اهـ.

وفي أبي السعود: وراودته عطف على شدّ، والضمير المنصوب راجع إلى من، ومن في من ذهب بيان للجبال، والفاء في فأراها فصيحة أي فلما راودته أراها وأيّ منصوب على أنه صفة لموصوف محذوف وما زائدة أي أراها شمماً كاملاً في الشممية لا يكتنه كنهه.

والمعنى: أني ظلمت سنّة من راودته الجبال الشوامخ وخادعته الأطواد الرواسخ حيث تزيّنت له في حدّ العين وأعرض عنها إعراض المستنكفين وصدّ عنها صدّ الآنفين زهداً منه في الدنيا وعلماً منه بأن ما عند الله خير وأبقى.

روي أنه ﷺ قال: «قيل لي: اختر أن تكون نبياً ملكاً أو نبياً عبداً، فاخترت العبودية على الملكية، فمن أكب على جمعها وحرص على ضبطها واغترّ بزخارفها وانخدع بزهرتها فقد تجاوز سنّة من أعرض عنها بوجهه وطوى عنها بكشحه»[٢] اهـ. ثم

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في المصنف (٧/ ٢٤٣)، وأحمد في المسند (٦/ ٧١)، والديلمي (٢/ ٢٣٠)، موقوفاً ومرفوعاً وبنحوه عن ابن مسعود بجزء منه.

(٢) رواه أبو يعلى في مسنده (٨/ ٣١٨)، والطبراني في الكبير (١٠/ ٢٨٨)، والبيهقي (٧/ ٤٨)، وفي الزهد الكبير (٢/ ١٨٦).

قال رضي الله عنه:

وأكـدت زهـده فـيـهـا ضـرورتـه إن الـضـرورة لا تـعـدو عـلـى الـعـصـم

فقوله: ضرورته، أي إلى بعضها، وضرورته بالرفع فاعل أكدت، وقوله: إن الضرورة لا تعدو على العصم، أي على ذوي العصم لأنهم يتنزهون معها عن أشرف الأشياء وأجلّها فضلاً عن أخسها وهم الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين. فيكون مراده الجنس ويحتمل أن يكون المراد الشخص المعهود فيكون مراده محمداً ﷺ لأنه ذو عصم جمة والعصمة قوة من الله تعالى في عبده تمنعه عن ارتكاب شيء من المعاصي والمكروهات.

واعلم أن القوم تكلموا في الزهد بأقوال كثيرة وكل نطق عن وقته وأشار إلى حده.

قال الجنيد رحمه الله تعالى: الزهد خلو الأيدي من الأملاك والقلوب من الشرك.

وسئل الشبلي رحمه الله عن الزهد فقال: لا زهد في الحقيقة لأنه إما أن يزهد فيما ليس له فليس ذلك بزهد أو يزهد فيما هو له فكيف يزهد فيه وهو معه.

وقيل: من صدق في زهده أتته الدنيا وهي راغمة ولذا قيل: لو سقطت قلنسوة من السماء لما وقعت إلاَّ على رأس من لا يريدها.

وأجمع ما قيل في الزهد قول بعض العارفين: الزهد ترك ما يشغلك عن الله.

وقول الشبلي: هو أن لا ترى سوى الله. اهـ. قسطلاني.

وفي الشفاء قال ابن عباس: كان رسول الله ﷺ يبيت هو وأهله الليالي المتتابعة طاوياً لا يجدون عشاء.

وعن عبد الرحمٰن بن محمد: هلك رسول الله ﷺ ولم يشبع هو وأهل بيته من خبز الشعير.

وعن أنس قال: «ما أكل رسول الله ﷺ على خوان ولا في سكرجة ولا خبز له مرقق ولا رأى شاة سميطاً قط»[١].

وعن عائشة رضي الله تعالى عنها كما في صحيح البخاري: «إنما كان فراش رسول الله ﷺ الذي ينام عليه أدماً حشوه ليف»[٢].

وعن حفصة رضي الله عنها: كان فراش رسول الله ﷺ في بيته مسحاً نثنيه ثنيتين فينام عليه، فثنيناه ليلة بأربع، فلما أصبح قال: «ما فرشتموا لي الليلة» فذكرنا له ذلك

---

(١) رواه البخاري (٥/ ٢٠٥٩، ٢٠٦٦)، والترمذي (٤/ ٢٥٠).

(٢) رواه مسلم (٣/ ١٦٥٠)، والترمذي (٤/ ٢٣٧)، وأحمد (٦/ ١٠٨).

فقال: «ردوه بحاله فإن وطأته منعتني الليلة صلاتي» وكان ينام أحياناً على سرير مرمول بشريط حتى يؤثر في جنبه[١]. اهـ.

وفي البخاري عن سعيد القبري رضي الله عنه عن أبي هريرة رضي الله عنه: أنه مر بقوم بين أيديهم شاة مصلية[٢] بفتح الميم، أي مشوية، فدعوه فأبى أن يأكل وقال: «خرج رسول الله ﷺ من الدنيا ولم يشبع من خبز الشعير»[٣].

وفي البخاري أيضاً عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: «لم يأكل النبي ﷺ على خوان ـ بكسر الخاء ـ حتى مات، وما أكل خبزاً مرققاً حتى مات. وفي رواية: ولا رأى شاة سميطاً قط»[٤].

وعن النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال: لقد رأيت نبيكم ﷺ وما يجد من الدقل ما يملأ به بطنه. والدقل ـ بفتح الدال المهملة والقاف ـ تمر رديء. رواه مسلم.

وفي صحيح البخاري عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: ما رأى رسول الله ﷺ النقي من حين ابتعثه الله تعالى، فقيل له: هل كان لكم في عهد رسول الله ﷺ مناخل، قال: ما رأى رسول الله ﷺ منخلاً من حين ابتعثه الله تعالى حتى قبضه الله تعالى، فقيل له: كيف كنتم تأكلون الشعير غير منخول، قال: كنا نطحنه وننفخه فيطير ما طار وما بقى ثريناه»[٥]. اهـ. والنقي بفتح النون وكسر القاف وتشديد الياء: الخبز الحوّاري أي الناعم. وقوله: ثريناه بثاء مثلثة ثم راء مشددة ثم ياء مثناة من تحت ثم نون، أي بللناه وعجناه. اهـ.

وفي أبي السعود: التأكيد لغة في التوكيد وهي بمعنى الإحكام والزهد في اللغة الترك وقلة الرغبة، وفي الاصطلاح على مراتب أعلاها رفض ما سوى الله تعالى والضرورة الحاجة والمراد بها هنا اشتداد الفقر والفاقة، والعصم جمع عصمة وهو لطف يفعله الله تعالى بعبده يوفقه به لفعل الخيرات وزهده مفعول أكدت قدم على الفاعل الذي هو ضرورته للاهتمام وفيها جار ومجرور ومتعلق بزهد لأنه مصدر وضمير فيها راجع للجبال، وجملة لا تعدو على العصم استئناف كأن قائلاً قال: كيف تمكن من الإعراض عن الدنيا مع شدّة احتياجه، فقيل: إن الضرورة لا تعدو على العصم، والمعنى أنه كان

---

(١) رواه البخاري في الأدب المفرد (ص ٣٩٨)، وابن أبي عاصم في الزهد (ص ٦)، والطبراني في الكبير (٢/ ١٧٥).
(٢) رواه البخاري (٥/ ٢٠٦٦).
(٣) رواه البخاري (٥/ ٢٠٦٦).
(٤) تقدم تخريجه.
(٥) رواه البخاري (٥/ ٢٠٦٦).

مع شدّة احتياجه وافتقاره وشد أحشائه من الجوع تحت الحجارة واضطراره إلى ما يضطر إليه البشر لا يلتفت إلى الجبال الشم من الذهب، وكان ذلك مؤكداً لزهده ﷺ فإن الإعراض عن الشيء مع شدّة الاحتياج إليه دليل جلي وبرهان قطعي على الزهد في ذلك الشيء ثم بيّن عدم الالتفات مع شدّة الاحتياج مع أن الضرورات قد تبيح المحظورات بأن الضرورة والاحتياج لا يغلبان العصمة ولا يستوليان عليها لاستيلائها على كل محظور، فإن الله تعالى يخرج الذين آمنوا من الظلمات إلى النور فلا يؤثر فيهم خدع الشيطان الغرور ولا تتمكن النفس والهوى أن تجذبهم إلى مهاوي العطب والثبور لا سيما من هو مؤيد بـ ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الضحى: الآية ٤] متأيّد بـ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝٥﴾ [الضحى: الآية ٥].

عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنه لما قبض النبي ﷺ كانت درعه مرهونة عند يهودي على ثلاثين صاعاً من شعير ففكها علي رضي الله تعالى عنه بعد وفاته ﷺ. اهـ.

قلت ويجب عليك أيها المسلم أن تعتقد وتجزم بأن رهن درعه الشريف على ثلاثين صاعاً من شعير عند أبي الشحم اليهودي كما في صحيح البخاري[1]: ليس لعدم وجود شيء عنده ﷺ أو عند أصحابه الأغنياء وأحبابه، بل القصد بذلك بيان التشريع وجواز المعاملة معهم، وجواز الرهن ولذلك لما أرسل إليه قبل الرهن يطلب ذلك منه قال: حتى يأتيني برهن. فقال عند ذلك ﷺ: «أما والله إني لأمين في السماء أمين في الأرض» وأرسل درعه الشريف. رزقنا الله العمل بسنّته وحشرنا في زمرته وأصفياء أمّته وخدّام شريعته ﷺ وعلى آله وصحبه وسلم. ثم استدل الناظم رحمه الله تعالى على الحكم الذي نفاه بقوله:

وكيف تدعو إلى الدنيا ضرورة من ... لولاه لم تخرج الدنيا من العدم

أي وكيف يتصوّر أن تدعو إلى متاع الدنيا وزينتها ضرورة من لولاه لم تخرج الدنيا من العدم إلى الوجود بعد أن لم تكن، هذا مراده إلاَّ أن في لفظه تجوزاً فإن قوله: لم تخرج، يوهم أنها في العدم شيء وحقيقة وإنما انتفى عنها الخروج إلى الوجود ومذهب أهل الحق أنه لا حقيقة للمعدوم حال العدم وأنه ليس بشيء وإذا ثبت أن وجوده ﷺ علة وجود الدنيا فالدنيا بأجمعها في وجودها مفتقرة إليه لافتقار وجود المعلول إلى وجود علته فلو كانت ضرورته تدعو إلى الدنيا لكان وجوده معلولاً لوجودها وافتقر هو في وجوده إلى وجودها وهو خلف لأن فيه عكس الحقائق من صيرورة العلة معلولاً وبالعكس، لأن العلّة لا تفتقر في وجودها إلى وجود المعلول، فإن قيل: بل تفتقر العلة

(١) رواه الشافعي في مسنده (ص ١٣٩، ١٤٨، ٢٥١).

إلى معلولها إذ لا تتصور بدونه، قيل: محل ذلك في العلة العقلية أما الوضعية فلا. ثم استلزام معلولها لا من حيث إنها لا توجد إلاَّ بوجوده بل من حيث اقتضاؤها إيجاده. وبالجملة فالدليل خطابي إقناعي لا برهاني يقيني وإذا كانت ضرورة نبينا عليه الصلاة والسلام لا تدعو إلى الدنيا فينبغي لمن يكون على ملته وداخلاً في زمرة أمته أن يكون كذلك ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: الآية ٣١] فمحبته تعالى مشروطة باتباع نبيه عليه الصلاة والسلام، وكيف لا تزهد في الدنيا وهي لو كانت تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء. اهـ. قسطلاني.

وفي أبي السعود: الدنيا فعلى من الدنوّ، وهي صفة بحسب الأصل نقلت إلى معنى الاسم تطلق على هذه الدار الدنية التي نحن فيها وتوصف بما توصف به الأسماء. قال الحريري:

يا طالب الدنيا الدنية إنها ... شرك الردى وقرارة الأكدار
دار متى ما أضحكت في يومها ... أبكت غداً تباً لها من دار

وقيل: إنها مشتقة من الدناءة لدناءتها وخستها، وقيل: إنما يميل إلى الدنيا من هو دنيء مثلها فإن الجنسية علة الضم. ولقد أحسن من قال:

عتبت على الدنيا لتأخير عالم ... وتقديم ذي جهل فقالت خذ العذرا
بنو الجهل أبنائي لهذا رفعتهم ... وأهل النهى أبناء ضرتي الأخرى
أأترك أولادي يموتون جوعاً ... وأرضع أولاداً لضرتي الأخرى

وقيل: الدنيا ما يقطع على العبد طريق الوصول إلى مولاه، وكيف للاستفهام الإنكاري، أي لا تدعو. وقد يقال: إنه استبعادي وضرورة فاعل تدعو ومن موصولة وضمير لولاه عائد إلى الموصول، ولم تخرج جواب لولاه.

والمعنى: أنه لا يدعو إلى الميل إلى الدنيا والاغترار بزخارفها احتياج من لولا وجوده الشريف وخلقه المنيف لم تخرج الدنيا بما فيها من الأرضين والسماوات والعرش والكرسي واللوح والقلم والأفلاك والأملاك والعقول والنفوس والأرواح والحيوان والنبات والمعادن والجن والإنس من مكمن العدم إلى بروز الوجود، فإن ما هو متطفل على الشيء تابع له مترتب عليه يمتنع أن تلجئه الحاجة إليه ولا سيما إن كان ذلك الأصل منجبلاً على الاستغناء منطبعاً على الرفعة والاستعلاء، وكان ذلك الأمر حقيراً قليلاً بالنسبة إلى علو همته وبالإضافة إلى رفعة مقداره. اهـ.

وفي المحلى: الاستفهام بمعنى النفي، أي لا تدعو، وقوله: لولاه الخ مأخوذ من حديث: «لما اقترف آدم الخطيئة وكان قد رأى على قوائم العرش مكتوباً لا إله إلاَّ الله

محمد رسول الله، فسأل ربه بحق محمد أن يغفر له، فقال الله تعالى: إذ سألتني بحقه فقد غفرت لك ولولا محمد ما خلقتك» رواه الحاكم والبيهقي. اهـ.

وكفى شرفاً قول الباري جلَّ شأنه مخاطباً لحبيبه الأعظم ﷺ وعلى آله وصحبه وسلم: «إن كنت اتخذت إبراهيم خليلاً وموسى كليماً ونجياً فلقد اتخذتك حبيباً. وعزَّتي وجلالي ما خلقت الدنيا وأهلها والجنة وأهلها إلاَّ لأعرّفهم كرامتك ومنزلتك عندي ولولاك ما خلقت الدنيا». حشرنا الله في زمرة أخص أحبابه وخدمة سنّته. وهذا الذي لولاه لم تخرج الدنيا من العدم، هو:

محمد سيد الكونين والثقلين والفريقين من عرب ومن عجم

أي هو محمد سيد أهل السماء والأرض وأهل الدنيا والآخرة، وسيد الثقلين الإنس والجن، قيل: سمُّوا بذلك لإثقالهم الأرض، وسيد الفريقين. وقوله: محمد، فيه وجوه.

الإعراب: حيث تكون بدلاً من الضمير الفاعل في أحياء، الظلام أو من ضمير لولاه على أنه منفصل، إذا بهذا يحصل الإيضاح بعد الإبهام أو خبر مبتدأ محذوف كما قرّرناه، أي هو محمد ومبتدأ والخبر الآمر الناهي. اهـ.

وفي الشفاء: وسمي النبي ﷺ محمداً وأحمد، فمحمد بمعنى محمود وكذا وقع اسمه في زبور داود. وأحمد بمعنى أكبر من حمد وأجلَّ من حمد. وقد أشار إلى نحو من هذا حسان رضي الله عنه بقوله:

وشق له من اسمه ليجله فذو العرش محمود وهذا محمد. اهـ

ومعنى شق: أخرج له من اسمه اسماً ولذا قال: فمن أسمائه تعالى الحميد ومعناه المحمود لأنه حمد نفسه وحمده عباده ويكون أيضاً بمعنى الحامد لنفسه وللأعمال الصالحات اهـ.

وفي أبي السعود: ومحمد علم للحضرة المصطفوية والسيادة النبوية، وهي صفة مبنية للمبالغة، قيل: مشتق من الحمد لأنه ﷺ كان كثير الحمد لله تعالى، وقيل: مشتق من المحامد فإنه ﷺ كان كثير المحامد وكان الناس يحمدونه على محامده ويؤيده ما ورد في وجه تسميته محمداً أن عبد المطلب رأى في منامه سلسلة بيضاء خرجت من ظهره لها أربعة أطراف في السماء والأرض والمشرق والمغرب وأهل السماء والأرض متعلقون بها، فعبرت له بأنه يولد له مولود تكثر محامده فلما ولد ﷺ سمي بذلك فكان فوق ما رأى.

قيل: إنَّ من علامات نبوّته ﷺ أنه لم يسم باسمه أحد قبله، فلما قرب مولده وبشرت الكهنة وأهل الكتاب به سمى بعض العرب أولادهم باسمه، البعض تبركاً

والبعض رجاء لذلك المولود أن يكون إياه، ومحمد يجوز فيه أوجه ثلاثة: الجرّ على البدلية، والرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أو أنه مبتدأ، وسيد الكونين خبره والنصب بالاختصاص وذكر الثقلين والفريقين بعد ذكره الكونين من تخصيص التعميم كقوله تعالى: ﴿وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ﴾ [البقرة: الآية ٩٨] والمعنى: أن من أحيا في العبادة الظلام وشدّ من سغب أحشاءه تحت الرخام وراودته الجبال والآكام هو محمد ﷺ، أو أعني محمداً أو ظلمت سنة محمد الذي هو أمير الدارين، أعني الدنيا والآخرة، ومقدّم الثقلين، أعني الجن والإنس، وملك الفريقين، أعني العرب والعجم. وذلك لأن السيادة والرفعة إنما تكون بحسب الحسب وبحسب النسب.

عن جابر رضي الله عنه: «إن الله اختارني على جميع العالمين من النبيين والمرسلين».

وفي رواية: «إن الله فضّلني على الأنبياء وفضّل أمتي على الأمم».

وفي رواية: «أنا سيد الناس يوم القيامة» اهـ.

وأحاديث السيادة له ﷺ على جميع المخلوقات مبسوطة في الشفاء وغيره، فمن ذلك قوله ﷺ: «أنا أوّل الناس خروجاً إذا بعثوا، وأنا خطيبهم إذا وفدوا، وأنا مبشّرهم إذا أيسوا، لواء الحمد بيدي، وأنا أكرم ولد آدم على ربي ولا فخر».

وفي رواية: «أنا أول الناس خروجاً إذا بعثوا، وأنا قائدهم إذا وفدوا، وأنا خطيبهم إذا أنصتوا، وأنا شفيعهم إذا حبسوا، وأنا مبشرهم إذا أيسوا لواء الحمد بيدي وأنا أكرم ولد آدم على ربي ولا فخر، ويطوف عليّ ألف خادم كأنهم لؤلؤ مكنون».

وعن أبي هريرة: «وأكسى حلة من حلل الجنة ثم أقوم عن يمين العرش ليس أحد من الخلائق يقوم ذلك المقام غيري».

وعن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة وبيدي لواء الحمد ولا فخر، وما من نبيّ يومئذ آدم فمن سواه إلاّ تحت لوائي، وأنا أول من تنشق عنه الأرض ولا فخر»[١].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وأنا أول من ينشق عنه القبر، وأوّل شافع وأوّل مشفع».

وعن ابن عباس: «أنا حامل لواء الحمد يوم القيامة ولا فخر، وأنا أوّل مشفع ولا فخر وأنا أول من يحرّك حلق الجنة فيفتح لي فأدخلها ومن معي من فقراء المؤمنين ولا فخر وأنا أكرم الأوّلين والآخرين»[٢].

(١) رواه مسلم (٤/ ١٧٨٢)، والحاكم (٢/ ٦٦٠)، (٣/ ١٣٣)، وابن حبان (١٤/ ١٣٥، ٣٩٢، ٣٩٤).
(٢) رواه الترمذي (٥/ ٥٨٧)، والدارمي (١/ ٣٩).

وعن أنس: «أنا أول الناس يشفع في الجنة وأنا أكثر الناس تبعاً».

وعن أنس قال النبي ﷺ: «أنا سيد الناس يوم القيامة وتدرون لم ذلك، يجمع الله الأوّلين والآخرين» وذكر حديث الشفاعة اهـ من الشفاء. ثم قال رضي الله عنه:

نبيِّنا الآمر الناهي فلا أحد أبرّ في قول لا منه ولا نعم

فقوله: الآمر، أي بالمعروف والناهي عن المنكر بإرسال الله إياه إلينا. وإنما عبّر بالآمر الناهي لأنهما ملزومان للرسالة، وكلما وجد الملزوم وجد اللازم، كأنه قال: نبينا الرسول فلا أحد من البرية أبرّ في قول لا منه ولا نعم بل هو أبرّ، ويحتمل أن يكون معناه: فلا أحد أصدق منه في الخبر المنفي والمثبت، وكنى عن المثبت بنعم وعن المنفي بلا، وذلك إما باعتبار الخبر بالإطلاق أو باعتبار الخبر عن الثواب والعقاب ونفيهما، فإذا أخبر عن ثواب أو عقاب فهو أصدق الناس في خبره، ولذلك يبادر إلى الفعل أو الترك اهـ قسطلاني.

وفي أبي السعود: القول في نبينا من الإعراب ما قيل في اسمه الشريف السابق وإضافة نبينا إضافة تعظيم للمضاف إليه، والآمر الناهي صفتان أو خبران، والفاء في فلا فصيحة، أي إذا أمر ونهى فلا أحد أصدق منه، ولا بمعنى ليس أحد بالتنوين اسمها، وأبرّ خبرها، والمعنى: هو نبينا أو أعني نبينا أو ظلمت سنّة نبينا الذي هو الآمر الناهي والآمر الحقيقي والناهي الحقيقي هو الله سبحانه وتعالى وأمره ونهيه على لسان نبيه ﷺ فيكون أمره ونهيه ﷺ أمر الله ونهيه لأنه ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰٓ ۝٣﴾ [النجم: الآية ٣] وإذا كان أمره أمر الله ونهيه نهي الله وليس أصدق من الله قيلاً فلا يكون أصدق منه قيلاً.

فإن قلت: جميع الأنبياء والرسل متساوو الإقدام فما وجه صحة استغراق النفي، قلت: الحال على ما قرّرت لكن لما كان ﷺ أشرف من أولي العزم الذين هم أشرف الأنبياء والرسل وكانت شريعته أشرف الشرائع وأكملها، وكان قوله فيما يعد به ويوعد عليه أقرب إلى القبول وأحق بأن يرعوي إلى ما يقول نزل قوله منزلة الرتبة العليا والدرجة القصوى في الصدق وإن كان في أصل الصدق مساوياً لأقوال سائر الأنبياء.

وقوله: لا ونعم يحتمل وجوهاً إما أن يكونا كنايتين عن النفي والإثبات أو عن الإيجاب والتحريم والإعطاء والمنع، والإجابة والامتناع والقبول والرد والتخلي والتحلي وفي كل من المذكورات له السبق في حلبة الرهان والتقدم في ميدان البراعة على سائر الأقران. فقد حاز قصبات السبق في ميدان قرب الرحيم الرحمٰن فلا يكون أحد أصدق منه لهجة في منح العطية ولا أبرّ منه قولاً في منع البلية. هكذا ينبغي أن يقرّر قول لا كما زعم بعض الشراح أن معنى قوله: أبرّ، في قول: لا، أي في منع العطية، فإن مقام المدح يأبى ذلك. وما أحسن ما قيل في مدحه ﷺ:

ما قال لا قط إلاّ في تشهده   لولا التشهد كانت لاؤه نعما

ويجوز أن يحمل قوله: أبرّ في قول: لا منه ولا نعم، على أن المعنى نفياً وإثباتاً تحريماً وتحليلاً إجابة وامتناعاً، قبولاً ورداً، تخلية وتحلية، لأن شريعته ناسخة لجميع الشرائع وليس لها ناسخ أصلاً لكونها أتم الشرائع وأكملها وأعدل الأديان وأقومها، فلا يكون قولاً ولا فعلاً ولا اعتقاداً أحد أرسخ وأثبت وأقوى منه ﷺ في أمره ونهيه وشريعته وطريقته وحقيقته، ولا يكون أحد أبرّ قولاً منه في شيء من الإثبات والنفي والإيجاب والتحريم والرد والقبول وما أشبه ذلك. اهـ. ثم قال رضي الله عنه:

هو الحبيب الذي تُرجى شفاعته   لكل هول من الأهوال مُقتحم

أي هو المحبوب لله أو لأمّته، وقوله: مقتحم بفتح الحاء أي مدخول فيه كرهاً اسم مفعول من اقتحمت الشيء إذا رميت بنفسك فيه من غير روية، ومثله قحم في الأمر قحوماً وتقحيم النفس في الشيء إدخالها فيه من غير روية. وأراد بقوله: لكل هول، عموم ما يؤمل منه ﷺ من الشفاعات، هذا هو الظاهر من كلامه وهي كثيرة.

أحدها: العظمى وهي في الإراحة مما يصيب الخلائق من كرب الموقف الإنس والجن والمؤمن والكافر وهي مختصة به ﷺ.

والثانية: شفاعته في قوم يدخلون الجنة بغير حساب. قال النووي رحمه الله: وهي مختصة به ﷺ. وتردّد ابن دقيق العيد رحمه الله تعالى في ذلك ووافقه السبكي، قال: ولم يرد فيه شيء.

وأخرى: في إخراج أهل الكبائر من أمّته من النار وإدخالهم الجنة ويشاركه فيها الأنبياء والملائكة والمؤمنون.

وأخرى: في قوم حوسبوا واستوجبوا النار أن لا يدخلوا النار ويدخلون الجنة.

وأخرى: في زيادة درجات في الجنة. وجوّز النووي رحمه الله تعالى اختصاصها به.

وأخرى: في تخفيف عذاب بعض الكفار كأبي طالب.

وزاد بعضهم أخرى: عند الصراط وعند الميزان.

وزاد آخر شفاعة ثامنة وهي: شفاعته لمن مات بالمدينة الشريفة كما أخرجه الترمذي وصححه.

وفي العروة الوثقى للقزويني رحمه الله تعالى: أن من شفاعته شفاعته لجماعة من صلحاء المؤمنين ليتجاوز عنهم في تقصيرهم في الطاعات فتكون تسعة.

وفي قوله: نبينا الآمر الناهي، إشارة إلى أن اكتساب الشرف لمن يتبع سنّته إنما

يكون في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا يحسن ذلك حتى يصاحبه الصدق والبر، فمن حصل هذا الوصف بشروطه استحق أن ينال منه ما يشبه رتبته ﷺ فيقال فيه كما قيل في نبيه ﷺ: هو الحبيب الذي ترجى شفاعته لأن الآمرين الناهين هم العلماء وهم ورثة الأنبياء، وإنما ورثوا منهم هذا النوع ولما لم يكن ميراثهم مستغرقاً لم تكن شفاعتهم لكل هول كما هو شفاعة مورثهم.

وفي الخبر: أن الناس يدخلون الجنة فيبقى العلماء رضي الله عنهم فيسألون الدخول فيقول الله تعالى لهم: أنتم عندي كملائكتي اشفعوا ثم ادخلوا الجنة. اهـ قسطلاني.

ومما ورد في أنه ﷺ حبيب الله وأكرم الخلق على الله ما رواه في الشفاء حيث قال: وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «جلس ناس من أصحاب النبي ﷺ ينتظرونه، قال: فخرج حتى إذا دنا منهم سمعهم يتذاكرون فسمع حديثهم فقال بعضهم: عجباً إن الله اتخذ إبراهيم من خلقه خليلاً، وقال آخر: ماذا بأعجب من كلام موسى كلَّمه الله تكليماً. وقال آخر: فعيسى كلمة الله وروحه. وقال آخر: آدم اصطفاه الله. فخرج عليهم فسلَّم وقال: قد سمعت كلامكم وعجبكم أن الله اتخذ إبراهيم خليلاً وهو كذلك، وموسى نجيّ الله وهو كذلك، وعيسى روح الله وهو كذلك، وآدم اصطفاه الله وهو كذلك، ألا وأنا حبيب الله ولا فخر، وأنا حامل لواء الحمد يوم القيامة ولا فخر، وأنا أوّل شافع وأوّل مشفع ولا فخر، وأنا أوّل من يحرّك حلق الجنة فيفتح الله لي فيدخلنيها ومعي فقراء المؤمنين ولا فخر، وأنا أكرم الأوّلين والآخرين ولا فخر»(١).

وفي حديث أبي هريرة: من قول الله تعالى لنبيه ﷺ: «إني اتخذتك خليلاً فهو مكتوب في التوراة حبيب الرحمٰن».

ثم قال في الشفاء: واختلف العلماء أرباب القلوب أيهما أرفع: درجة الخلة أو درجة المحبة، فجعلهما بعضهم سواء فلا يكون الحبيب إلاَّ خليلاً ولا الخليل إلاَّ حبيباً لكنه خص إبراهيم بالخلة ومحمداً ﷺ بالمحبة. وبعضهم قال: درجة الخلة أرفع واحتج بقوله ﷺ: «لو كنت متخذاً خليلاً غير ربي» فلم يتخذه. وقد أطلق المحبة عليه السلام لفاطمة وابنيها وأسامة وغيرهم وأكثرهم جعل المحبة أرفع من الخلة لأن درجة الحبيب لنبيِّنا أرفع من درجة الخليل إبراهيم. وأصل المحبة الميل إلى ما يوافق المحب ولكن هذا في حق من يصح الميل منه والانتفاع بالوفق وهي درجة المخلوق. فأما الخالق جل جلاله فمنزه عن الأغراض فتحببه لعبده تمكينه من سعادته وعصمته وتوفيقه وتهيئة أسباب

(١) رواه الترمذي (٥/ ٥٨٧)، والدارمي (١/ ٣٩)، والطيالسي (١/ ١٢٥).

القرب وإفاضة رحمته عليه وقصواها كشف الحجب عن قلبه حتى يراه بقلبه وينظر إليه ببصيرته ليكون كما قال في الحديث: «فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به، ولسانه الذي ينطق به». ولا ينبغي أن يفهم من هذا سوى التجرّد لله والانقطاع إلى الله والإعراض عن غير الله وصفاء القلب لله وإخلاص الحركات لله، كما قالت عائشة: «كان خلقه القرآن برضاه يرضى وبسخطه يسخط». ولهذا عبّر بعضهم عن الخلة بقوله:

قد تخللت مسلك الروح مني وبذا سمي الخليل خليلا

فإذا ما نطقت كنت حديثي وإذا ما سكت كنت الدخيلا

فإذا مزية الخلة وخصوصية المحبة حاصلة لنبينا عليه الصلاة والسلام بما دلت عليه الآثار الصحيحة المنتشرة المتلقاة بالقبول من الأمة، وكفى بقوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ﴾ [آل عِمران: الآية ٣١] الآية.

حكى أهل التفسير أن هذه الآية لما نزلت قال الكفار: إنما يريد محمد أن نتخذه حناناً كما اتخذت النصارى عيسى، فأنزل الله غيظاً لهم ورغماً على مقالتهم هذه الآية ﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾ [آل عِمران: الآية ٣٢] فزاده شرفاً بأمرهم بطاعته وقرنها بطاعته، ثم توعدهم على التولي عنه بقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ [آل عِمران: الآية ٣٢].

وقد نقل الإمام أبو بكر بن فورك عن بعض المتكلمين كلاماً في الفرق بين المحبة والخلة يطول جملة إشاراته إلى تفضيل مقام المحبة على الخلة، ونحن نذكر منه طرفاً يهدي إلى ما بعده. فمن ذلك قولهم: الخليل يصل بالواسطة من قوله، ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: الآية ٧٥] والحبيب يصل إلى حبيبه به من قوله ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩﴾ [النجم: الآية ٩]. وقيل: الخليل الذي تكون مغفرته في حدّ الطمع من قوله: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى﴾ [الشُعَراء: الآية ٨٢]. والحبيب الذي مغفرته في حدّ اليقين من قوله: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ﴾ [الفتح: الآية ٢] الآية.

والخليل قال: ﴿وَلَا تُخْزِنِى﴾ [الشُعَراء: الآية ٨٧]، والحبيب قيل له: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ﴾ [التحريم: الآية ٨]، فابتدىء بالبشارة قبل السؤال، والخليل قال في المحنة: ﴿حَسْبِىَ ٱللَّهُ﴾ [التوبة: الآية ١٢٩]، والحبيب قيل له: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ﴾ [الأنفال: الآية ٦٤]، والخليل قال: ﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ﴾ [الشُعَراء: الآية ٨٤]، والحبيب قيل له: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤﴾ [الشرح: الآية ٤]، أعطي بلا سؤال، والخليل قال: ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: الآية ٣٥]، والحبيب قيل له: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ [الأحزاب: الآية ٣٣] الآية.

وفيما ذكرناه تنبيه على مقصد أصحاب هذا المقام من تفضيل المقامات والأحوال

فكل يعمل على شاكلته، فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلاً. اهـ.

وفي كتابنا النفحات النبوية في الفضائل العاشورية نقلاً عن القطب الشهير العارف الكبير ابن عطاء الله السكندري في كتابه التنوير عبارة ما ألذّها على قلوب المؤمنين وإرشاد إلى مقام التسليم، ونصها: روي أن إبراهيم عليه السلام لما قال له ربه: أسلم. قال: أسلمت لرب العالمين. فلمّا زجَّ به في المنجنيق واستغاثت الملائكة قالت: يا ربنا هذا خليلك قد نزل به ما أنت به أعلم، فقال الحق سبحانه: اذهب إليه يا جبريل فإن استغاث بك فأغثه وإلاّ فاتركني وخليلي. فلما جاء جبريل عليه السلام في أفق الهواء قال: ألك حاجة، قال: أما إليك فلا وأما إلى الله فلي، قال: سله، قال: حسبي من سؤالي علمه بحالي. فلم يستنصر بغير الله ولا جنحت همّته لما سوى الله، بل استسلم لحكم الله مكتفياً بتدبير الله عن تدبيره لنفسه وبرعاية الحق له عن رعايته لها، وبعلم الحق سبحانه عن سؤاله علماً منه أن الحق به لطيف في جميع أحواله. فأثنى عليه تعالى بقوله: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ۝٣٧﴾ [النجم: الآية ٣٧] ونجاه من النار فقال: ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ۝٦٩﴾ [الأنبياء: الآية ٦٩] قال أهل العلم: لو لم يقل الحق سبحانه وسلاماً لأهلكه بردها فخمدت تلك النار.

وقال بعض أهل العلم بأخبار الأنبياء: لم يبق في ذلك الوقت نار بمشارق الأرض ولا بمغاربها إلاّ خمدت ظانة أنها المعنية بالخطاب، فقيل: إنه لم تحرق النار منه إلاّ قيده.

وانظر إلى قول إبراهيم عليه السلام لجبريل: أما إليك فلا، ولم يقل: ليس لي حاجة، لأن مقام الرسالة والخلّة يقتضي القيام بصريح العبودية ومن لازم مقام العبودية إظهار الحاجة إلى الله والقيام بين يديه بوصف الفاقة، فناسب أن يقول: أما إليك، أي أنا محتاج إلى ربي وأما إليك فلا، فجمع في كلامه هذا إظهار الفاقة إلى الله ورفع الهمة عما سوى الله. وبهذا ظهر سر قوله سبحانه: ﴿إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: الآية ٣٠] فكان عدم استغاثة إبراهيم عليه السلام بجبريل في هذا الموطن احتجاجاً من الله على الملائكة، كأنه يقول: كيف رأيتم عبدي هذا يا من قالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ [البقرة: الآية ٣٠]، وهذا أيضاً سر قوله عليه الصلاة والسلام: «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار فيصعد الذين باتوا فيكم فيسألهم وهو أعلم: كيف تركتم عبادي، فيقولون: أتيناهم وهم يصلون وتركناهم وهم يصلون»[1].

قال العارف نقلاً عن الشاذلي: كأن الحق سبحانه يقول لهم: يا مَن قالوا أتجعل

(١) رواه البخاري (١/ ٢٠٣)، (٣/ ١١٧٨)، (٦/ ٢٧٠٢)، ومسلم (١/ ٤٣٩).

فيها من يفسد فيها كيف تركتم عبادي فكان مراد الحق سبحانه بإرسال جبريل عليه السلام إلى إبراهيم إظهار رتبة الخليل وتبيين شرف قدره وفخامة أمره. قال: وكيف يمكن إبراهيم أن يستغيث بشيء دونه وهوى لا يرى إلاَّ إياه ولا يشهد أحداً سواه، وما سمي الخليل إلاَّ لتخليل سرّه بمحبة ربه وعظمته وأحديته فلم يبق فيه متسع لغيره. وفي هذا هداية للمستبصرين وهو أن من خرج عن تدبيره لنفسه فالله سبحانه هو المتولي له بحسن تدبيره، ألا ترى أن إبراهيم لما لم يدبر لنفسه ولا اهتم بها بل ألقاها إلى الله وأسلمها إليه وتوكل في شأنه عليه، كان عاقبة الاستسلام وجود السلامة والإكرام وبقاء الثناء الحسن على ممر الليالي والأيام، وقد أمرنا الله تعالى أن لا نخرج عن ملّته وأن نرعى حق تسميته بقوله تعالى: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الحَج: الآية ٧٨] ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الحَج: الآية ٧٨] فحق على كل من كان إبراهيمياً أن يكون من تدبير نفسه برياً ومن منازعة الله خلياً ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٣٠] وملّته لازمها التفويض والاستسلام في واردات الأحكام. والمراد أن لا يكون لك مع الله مراد. قال العارف: ولنا في هذا المعنى، أي على لسان هواتف الحق:

مرادي منك نسيان المراد ... إذا رمت السبيل إلى الرشاد
وأن تدع الوجود فلا تراه ... وتصبح ماسكاً حبل اعتمادي
إلى كم غفلة عني وإني ... على حفظ الرعاية والوداد
إلى كم أنت تنظر مبدعاتي ... وتصبح هائماً في كل واد
وتترك أن تميل إلى جنابي ... لعمرك قد عدلت عن الرشاد
وودّي فيك لو تدري قديم ... ويوم ألست يشهد بانفرادي
وهل ربّ سواي فترتجيه ... غداً ينجيك من كرب شداد
فوصف العجز عم الكون طراً ... فمفتقر بمفتقر ينادي
فبي قد قامت الأكوان طراً ... وأظهرت المظاهر من مرادي
أفي داري وفي ملكي وملكي ... يوجه للسوى وجه اعتماد
فحدّق أعين الإيمان وانظر ... ترى الأكوان تؤذن بالنفاد
فمن عدم إلى عدم مصير ... وأنت إلى الفنا لا شك غاد
وها خلعي عليك فلا تزلها ... وصن وجه الرجاء عن العباد
ببابي أوقف الآمال طراً ... ولا تأتي لحضرتنا بزاد
الستر وصفك الأدنى بوصفي ... فتجزي ذاك جهلاً بالعناد

وهل شاركتني في الملك حتى غدوت منازعي والرشد باد
فإن رمت الوصول إلى جنابي فهذي النفس فاحذرها وعاد
وخض بحر القناعة كي ترانا وأعددنا إلى يوم المعاد
وكن مستمطراً منا لتلقى جميل الصنع من مولى جواد
ولا تستهد هدياً من سوانا فما أحد سوانا اليوم هاد

اهـ. وقول العارف: على لسان هواتف الحق ببابي أوقف الآمال الخ، إرشاد منه لأكمل حالات المؤمنين وأنه ينبغي للمؤمن ولو بلغ النهاية القصوى في أنواع الطاعات أن لا يتكل على ذلك العمل ولا يوقف رجاءه في كافة أحواله دنيوية وأخروية إلاّ على باب فضل سيده وإحسانه، ولا يكون له زاد إلاّ ملاحظة سعة الفضل والكرم مع أخذه في أسباب ما يوجب الرضا من الطاعات وهذا مراده نفعنا الله به ووفقنا لما فيه رضاه بجاه سيد أنبيائه عليه الصلاة والسلام اهـ. ثم قال رضي الله عنه:

دعا إلى اللّه فالمستمسكون به مستمسكون بحبل غير منفصم

أي دعا كل من بعث إليه من الإنس والجنّ إلى الله، أي إلى توحيده وطاعته والإقرار له عليه الصلاة والسلام بالرسالة، فالمستمسكون وهم المعتصمون به، أي بما دعا إليه، مستمسكون بحبل، أي بعهد غير منفصم بالفاء اسم فاعل من فصمت الشيء فانفصم فصماً إذا كسرته. قال الله تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ [البقرة: الآية ٢٥٦] لا انفصام لها ولم يقل: فالمجيبون له، لأن مجرد الإجابة بالقول ونحوه لا يكفي بل لا بدّ من الاعتصام بما جاء به. ولا شك أن حسن الخُلق غالباً تابع لحسن الخَلق، والأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين أحسن الناس خُلقاً وخَلقاً اهـ قسطلاني.

وفي أبي السعود: الدعاء إذا استعمل بإلى كان بمعنى الطلب، واستمسك بمعنى تمسك، والتمسك مبالغة في المسك. وجاء بمعنى التثبت، يقال: تمسكت بأذياله، أي تثبت بها. ومنه قول الشاعر:

تمسك بدين المصطفى تنج من لظى وتحظى بحور العين في جنة المأوى

والحبل السبب، وهو ما يتوصل به إلى شيء ويتمسك به، والانفصام مطاوع الفصم، يقال: فصمته فانفصم كما يقال: كسرته فانكسر، والفصم بالفاء الموحدة الكسر من غير فصل، والقصم الكسر مع الفصل، والضمير المستكن في دعا عائد إلى الحبيب المشفع، وحذف المفعول للتعميم، والفاء في فالمستمسكون فصيحة وبه متعلق بمستمسكون وغير منفصم صفة للحبل، وفي البيت صنعة الاقتباس نظراً إلى قوله تعالى:

﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾ [البقرة: الآية ٢٥٦] فإن الاستمساك بالنبي ﷺ استمساك بالله.

والمعنى: أنه ﷺ دعا الأنفس البشرية المغمورة في اللذات الجسمانية المرسومة في الشهوات البهيمية إلى نهج الحق وسبيل الرشاد وطريق الصواب وجادّة السداد، ليقرّبهم إلى مرضاة الله ويبعدهم عن سخطه ويخلص الأرواح الإنسانية والنفوس البشرية من شرك الشرك والإلحاد، ويأخذ بضبعهم في مزالق الغيّ والفساد، ويزكيهم من درن علائق الدنيا الدنية، وعوائق الشهوات البدنية. فمن تعلق بأذيال عنايته واستضاء بأنواء هدايته دخل تحت لواء دولته وتمسك بحبل ليس له انفصام فضلاً عن أن يكون له انقصام. ومن رغب عن ملّته فقد تمسك بأطراف الضباب وركن إلى لمعان السراب ودخل في زمرة الأخسرين أعمالاً الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا.

فإن قلت: على ماذا تحمل الحبل الغير المنفصم، قلت: يمكن حمله على النبي ﷺ إذ هو الوسيلة العظمى والسبب الموصل إلى السعادة السرمدية والدولة الأبدية. فإن من استنّ بسنّته وتخلّق بأخلاقه فقد فاز فوزاً عظيماً واستحق من ربّه جنة ونعيماً وملكاً كبيراً، ويمكن حمله على القرآن العظيم والآيات والذكر الحكيم فإنه ﷺ قال: «إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي حبلان متصلان لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض»[1].
قال الشاطبي رحمه الله تعالى:

وبعد فحبل الله فينا كتابه

وعن عليّ كرّم الله وجهه أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ألا إنها ستكون فتنة» فقلت: ما المخرج منها يا رسول الله، فقال: «كتاب الله سبحانه وتعالى فبه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله تعالى ومن ابتغى الهدى في غيره أضلّه الله تعالى، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم»، ويحسن حمله على الشرع فإنه هو الحجة البيضاء والحبل المتين والصراط المستقيم رزقنا التوفيق لخدمة سنّة نبيه وحشرنا تحت لوائه ﷺ وعلى آله وأصحابه وأزواجه وذريته وآل بيته كلما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون. ثم قال رضي الله عنه:

فاق النبيين في خلق وفي خُلق ولم يدانوه في علم ولا كرم

أي علا على النبيين عليهم الصلاة والسلام في كل خلق حسن بفتح الخاء وسكون اللام، أي الخلقة صورة وشكلاً ولوناً وغير ذلك، وفي كل خلق بضم الخاء واللام أي

(١) رواه الحاكم (١/ ١٧٢)، (٣/ ١١٨)، والترمذي (٥/ ٦٦٣).

سجية وهي ما طبع عليه من المصالح الحميدة.

فإن قيل: لا نسلم أنه يفهم من قوله خَلق وخُلق إرادة العموم حتى يقدر بكل فيهما لأنهما نكرتان في سياق الإثبات والنكرة كذلك لا تعم، وحينئذ لا يكون مدحاً تاماً لأن المعنى فافهم في بعض الخلق وبعض الخلق وكما يحتمل بعد ذلك أن يساويهم في البعض الآخر يحتمل أن يفوقوه فيه، فقد تحصل المعادلة إن كان ما فاقوه به مثل ما فاقهم به، وقد يكون ما فاقوه به أو بعضه أكثر فينعكس ما قصده من المدح.

فالجواب: أن المراد خلقهم وخُلقهم إذ لا يراد خَلق وخُلق أياً كان وإنما المراد بهما منه ومنهم وحينئذ فهما اسما جنس أضيفا نيّة لدلالة العقل على تقدير الإضافة. أو يكون المراد بهما الحقيقة، وهي واحدة، لا يقال: الإنسانية واحدة لا تفاوت فيها لأنّا نقول: المراد العارض لها إما بالتركيب الصوري وهو الخَلق، أو باعتبار الأوصاف المعنوية وهو الخُلق، لأن أصل هذه الأوصاف فيه وفي غيره خلق الله تعالى من غير اكتساب لما في صحيح مسلم أنه ﷺ قال لرجل: «إن فيك لخصلتين يحبهما الله ورسوله، الحلم والأناة»، فقال: يا رسول الله أنا أتخلّق بهما أم الله جبلني عليهما، فقال: «بل جبلك الله عليهما»[1] الحديث.

نعم، يكتسب الإنسان قوتهما بالمخالطة والاستعمال وما ذكره الناظم رحمه الله تعالى أشار به إلى ما روي عن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه أنه قال: لم يكن رسول الله ﷺ بالطويل البائن ولا بالقصير ولا بالأبيض الأمهق ولا بالآدم وليس بالجعد القطط ولا بالسبط، بعثه الله تعالى على رأس أربعين سنة فأقام بمكة عشر سنين وبالمدينة عشر سنين وتوفاه الله تعالى على رأس ستين سنة وليس في رأسه ولحيته عشرون شعرة بيضاء»[2].

قوله: البائن، أي الظاهر الطول، وقوله: الأمهق، بفتح الهمزة وسكون الميم وفتح الهاء أي شديد البياض بحيث يشبه البرص بل بياضه ﷺ كان مشرباً بحمرة، وقوله: الآدم، أي شديد الأدمة وهي شدة حمرة الجسم حتى يقرب من السواد، وقوله: الجعد بفتح الجيم وسكون العين أي الملتوي الشعر، وقوله: القطط بفتح القاف وكسر الطاء الأولى وفتحها أي شديد الجعودة، فشعره ﷺ كان يميل إلى الجعودة وهي التواء الشعر. وقوله: ولا بالسبط بفتح السين المهملة وكسر الباء الموحدة وسكونها أي شديد السبوطة، وهي استرسال الشعر وعدم التوائه.

وعن أنس رضي الله عنه قال: خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين فما قال لي: أف،

(١) رواه مسلم (١/ ٤٨).

(٢) رواه مسلم (٤/ ١٨١٩).

قط وما قال لشيء صنعته: لم صنعته، ولا لشيء تركته: لم تركته، وكان رسول الله ﷺ من أحسن الناس خلقاً وما مسست خزاً قط ولا حريراً ولا شيئاً كان ألين من كف رسول الله ﷺ ولا شممت مسكاً ولا عطراً كان أطيب من عرق رسول الله ﷺ»(١).

وقوله: ولم يدانوه ﷺ أي لم يقاربوه في علم ولا كرم، فإن قيل: العلم والكرم داخلان في الخلق فما باله خصهما بأن النبيين لم يقاربوه فيهما، فالجواب: أنه إنما خص الوصفين لأنهما كالمنبع لسائر الأوصاف الحميدة فإذا كان لا يقارب فيهما ففي غيرهما أولى، وأصل الأخلاق الحميدة كلها العقل ومنه ينبعث العلم، وقد أعطى رسول الله ﷺ من العقل ما لا يقاربه غيره فيما أعطي منه.

قال وهب بن منبه رضي الله تعالى عنه فيما حكاه عنه في الشفاء: قرأت في أحد وسبعين كتاباً أنه ﷺ أرجح الناس عقلاً وأحسنهم رأياً. وفي رواية: وجدت في جميعها أن الله تعالى لم يعط جميع الناس من بدء الدنيا إلى انقضائها من العقل في جنب عقله ﷺ إلاّ كحبة بين رمال الدنيا. اهـ قسطلاني.

وفي الشفاء عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: إن الله تعالى فضّل محمداً ﷺ على أهل السماوات والأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم قالوا: فما فضله على أهل السماء، قال: إن الله تعالى قال لأهل السماوات: ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ﴾ [الأنبياء: الآية ٢٩] الآية، وقال لمحمد: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ①﴾ [الفتح: الآية ١] الآية، قالوا: فما فضله على الأنبياء، قال: إن الله تعالى قال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: الآية ٤] الآية، وقال لمحمد: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: الآية ٢٨] الآية.

وفي رواية وهب أنه ﷺ قال: «قال الله تعالى: سل يا محمد، فقلت: يا رب ما أسأل، اتخذت إبراهيم خليلاً وكلّمت موسى تكليماً واصطفيت نوحاً وأعطيت سليمان ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده، فقال الله تعالى: ما أعطيتك خير من ذلك، أعطيتك الكوثر وجعلت اسمك مع اسمي ينادى به في جوف السماء، وجعلت الأرض طهوراً لك ولأمتك، وغفرت لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فأنت تمشي في الناس مغفوراً لك ولم أصنع ذلك لأحد قبلك، وجعلت قلوب أمّتك مصاحفاً وخبّأت لك شفاعتك ولم أخبئها لنبي غيرك».

وفي حديث آخر رواه حذيفة: «بشّرني ـ يعني ربّه ﷺ ـ أوّل من يدخل الجنة معي من أمتي سبعون ألفاً مع كل واحد سبعون ألفاً ليس عليهم حساب» اهـ.

(١) رواه الترمذي (٣٦٨/٤).

وفي شرحنا عليه نقلاً عن الإمام التلمساني: وروي سبعمائة ألف مع كل واحد سبعمائة ألف. اهـ.

وفي أبي السعود: الضمير المستكن في فاق عائد إلى الحبيب، واللام في النبيين للاستغراق، وفي خلق وفي خلق متعلقان بفاق وجعل الواو في ولم يدانوه للحال ألصق بالمقام من جعلها للعطف.

والمعنى: أن البدر المنير البهي والنور المشعشع الجلي قد فاق جميع النبيين وعلا على جميع المرسلين في حسن الصورة العنصرية وكمال الصفات الإلهية ولم يتمكن منهم أحد أن يجاريه في ميدان الكمال ولا يقاربه في نادي الجمال، والأجدر بمن هو حبيب الله وخليل الإله وخاتم النبيين وناسخ دين جميع المرسلين أن يكون ممتازاً عن جميعهم في الصورة، والمعنى فائقاً عليهم في الخلق البهي والخلق السني. ولما كانت روحه الشريفة ﷺ أشرف الأرواح وأكملها اقتضت الحكمة الإلهية والعدالة الربانية أن يكون البدن الذي تتعلق به هذه الروح أعدل الأبدان وصورته أحسن الصور وعاداته أطيب العادات، فكمال النطفة الإنسانية انتهى في صلب عبد الله وترائب آمنة.

روي عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: «كنت نوراً بين يدي الله عز وجل قبل أن يخلق آدم بألفي عام يسبّح الله ذلك النور وتسبّح الملائكة بتسبيحه، فلما خلق الله آدم ألقى ذلك النور في صلبه فأهبطني الله إلى الأرض في صلب آدم وحملني في صلب نوح في السفينة، وقذف بي في النار في صلب إبراهيم ولم يزل ينقلني من الأصلاب الكريمة إلى الأرحام الطاهرة حتى أخرجني من بين أبويّ لم يلتقيا بي على سفاح قط»[1] اهـ. ثم قال رضي الله عنه:

وكلهم من رسول اللّه ملتمس غرفاً من البحر أو رشفاً من الديم

أي وجميعهم من سيدنا محمد رسول الله ﷺ ملتمس، أي طالب، غرفاً من البحر، أي بحر علمه أو رشفاً من الديم أي ديم كرمه، فيكون قوله: من البحر والديم بدل اشتمال من رسول الله وحذف الضمير الرابط بين بدل الاشتمال والمبدل منه، وأتى بأل في البحر والديم نائبة عن ذلك الضمير كما هو رأي الكوفيين في هذا، نحو: ﴿فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝﴾ [النازعات: الآية ٤١] أي مأواه، وعلى رأي البصريين يكون التقدير من البحر له أو من الديم له أو نحو ذلك، والديم جمع ديمة وهي المطر الذي ليس فيه رعد وبرق يدوم يوماً وليلة، والرشف الأخذ بأطراف الشفة.

وقال الجوهري رحمه الله تعالى: الرشف المص، وفي ذلك التشبيه لأنه شبه علمه

(١) أورده العجلوني في كشف الخفاء (١/ ٣١٢)، (٢/ ١٧٠).

بالبحر وكرمه بالديم ومأخذ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام منهما بالغرفة والرشف، ووجه تشبيه العلم بالبحر إما لاتساعه وإما لبعد غوره، وإما لأن الغائص فيه يستخرج منه الدرر. ووجه تشبيه الكرم بالديم لما يحصل من النفع بها وإنما خص الرشف بالديم والغرف بالبحر لأنها تجري على سطح الأرض فلا يجتمع منها ما هو كالبحر حتى يغترف.

فإن قلت: أنه ﷺ متأخر الزمان عن النبيين فكيف يطلبون منه.

فالجواب: إنما طلبهم من بحر علمه وديم كرمه كما تقدم، وهذا لا يستلزم اتحاد زمان وجودهم ولا علمهم ببعثه ﷺ بعدهم ولئن سلمنا أنه لا بد لهم حال الطلب من تصور بحر علمه وديم كرمه فذلك حاصل لهم بما أعلموا به من نعته وصفاته، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ﴾ [آل عمران: الآية ٨١] الآية، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: الآية ١٥٧].

وأفرد البحر لرجوعه إلى صفة العلم وهي واحدة وجمع الديم لرجوعها إلى كرم الطبائع وهي أخلاق متعددة اهـ قسطلاني.

وعبارة أبي السعود: كل يجوز أن يكون إفرادياً، أي كل واحد منهم، أو مجموعياً أي مجموع الأنبياء من حيث المجموع، والاغتراف: أخذ الماء باليد والرشف: المص والديم: جمع ديمة وهي المطر المتصل بالليل والنهار، وكلهم مبتدأ ملتمس خبره، ومن رسول الله متعلق بملتمس قدم عليه للاختصاص ادعاء بأنهم لم يلتمسوا من غيره أو للاهتمام فإن المعنيَ في هذا المقام كونه ملتمساً منه لا كونهم ملتمسين، وغرفاً ورشفاً يجوز أن يكونا مفعولاً به لملتمس، ويجوز أن يكونا حالين من الضمير في ملتمس، والمفعول محذوف للتعميم، أي لملتمسون كل شيء من الكمالات الصورية والمعنوية عارفين راشفين وأن يكونا منصوبين على المصدر أي التماساً كالرشف والغرف ومن البحر متعلق بغرفاً ومن الديم برشفاً.

والمعنى: أن جميع النبيين وكل المرسلين غارفون من بحر علمه الزاخر، راشفون من ثدي سحاب فضله الماطر شيئاً نزراً بالنسبة إلى كمالاته، وأمراً قليلاً بالنسبة إلى مقاماته، وإن كان ذلك بالنسبة إليهم أمراً نميراً وخيراً كثيراً، فإن غرف الغارف ورشف الراشف بالنسبة إلى البحر والديم شيء قليل وإن كان ما يرشف ويغرف في حد ذاته أو بالنظر إلى الغارف والراشف كثيراً عظيماً هذا إن جعلنا البحر والديم عبارة عنه ﷺ ويكون التعبير عن أخذ بعض بالغرف من البحر وعن أخذ بعض بالرشف من الديم، أما

باعتبار حال الآخذين قرباً وبعداً من كماله فإن مراتب الأنبياء متفاوتة وكذلك مراتب المرسلين، فكان القريب منه غارفاً والآخر راشفاً. وقد يحمل على العكس لما في الرشف من التتابع والاتصال، وما في الغرف من الانقطاع والانفصال، وباعتبار حال المأخوذ بأن يكون الغرف ما يؤخذ منه من العلوم الظاهرة والرشف ما يؤخذ منه من العلوم الباطنة. فإن الغرف من الظاهر والرشف من الباطن وإن جعلنا البحر عبارة عن بحر الذات والديم عما يقطر من سحب الصفات، أو قلنا: البحر النبوّة، والديم الولاية.

فيكون المعنى أن كلاً منهم يلتمس الغرف من بحر الذات والرشف من ديم الصفات، أو من بحر النبوّة وديم الولاية بتوسطه وجعله وسيلة يتوسل بها في ذلك الغرف والرشف.

فإن قلت: ما معنى الغرف من بحر الذات والرشف من ديم الصفات، قلت: الغرف من بحر الذات هو أن يأخذ منه بحسب استعداده وبمقدار قابليته ما يمكنه من معرفة ذاته المقدسة التي هي كالبحر في الكثرة والسعة من الحظ بالاتصاف بصفاته التي هي كالديم في الصفاء والطهارة، وأما إذا حمل البحر على النبوّة والديم على الولاية فكونه ﷺ وسيلة فيهما أمره ظاهر لكونه ﷺ هو نقطة دائرة النبوّة ومركز الولاية بل هو علة الوجود، ولولاه لم تسل سحب الكرم والجود. اهـ.

وقد تقدم في بدء الخلق بالنور المحمدي في أول الكتاب من حديث جابر ما يشفي ويكفي. أسأل الله الكريم متوسلاً إليه بوجاهة وجه نبيه العظيم أن يتفضل علينا بذرة من إقباله وبسطة من إفضاله بجاه سيد أنبيائه ﷺ وعلى آله وأصحابه وأزواجه وذريته وأهل بيته كلما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون. ثم قال رضي الله عنه:

وواقفون لديه عند حدّهم   من نقطة العلم أو من شَكلة الحكم

فقوله: عند حدّهم أي غايتهم، وقوله: من نقطة العلم أو من شكلة الحكم أي لله تعالى فإن الأنبياء وسائر العلماء علمهم كنقطة من علم الله تعالى وحكمتهم كشكلة من حكمته تعالى، وناسب بالشكلة النقطة. ولزيادة التفهم بها على النقطة خصها بالحكمة وأو للتفضيل، أي وواقفون لديه ﷺ وقوف ذي الغاية عند مبدأ غيره وقد تقدّم التماسهم منه فيكون ما أوتوه مبدأ له ﷺ وما ذكره في نقطة العلم مأخوذ من قول الخضر لموسى عليهما السلام لما غمس العصفور منقاره في البحر: «ما علمك وعلمي وعلم الخلائق في علم الله إلاَّ مقدار ما يغمس أو غمس هذا منقاره

في الماء»[١] رواه البخاري.

وقال تعالى مخاطباً للمؤمنين وغيرهم من الأنبياء والمرسلين: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: الآية ٨٥] اهـ محلي.

وفي القسطلاني: وكلهم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين واقفون، أي ثابتون لديه عند حدّهم الذي حدّه لهم ولا يتعدّونه، أي منتهى مرتبتهم علماً وكرماً من نقطة العلم أو من شكلة الحكم، أي من نقطة من بحر علمه وشكلة من ديم حكمه. وخص النقطة بالعلم لأن بها تتميز ذات الحروف المشتبهة الصور والعلم خاصته التمييز كما حدّه أهل الأصول بأنه صفة توجب تمييزاً لا يحتمل النقيض وأضاف الشكلة للحكم لأن فائدة الحكمة وضع الشيء في المكان الذي يستحقه على أكمل وجه لئلا يختل النظام، وهذه فائدة الشكلة لأن بها يضاف الحكم إلى صاحبه ويزول اللبس، وفي ذلك التورية الخطية ووجه التورية الخطية أن تقول: انظر ما نسبة النقطة الواحدة التي هي من أسباب العلم إلى نفس العلم وإلى سائر أسبابه وكذا الشكلة التي هي صفة حسن إلى سائر المحاسن وصفاتها. ولدى وعند متساويان على الأصح. وقيل: عند للحاضر والغائب ولدى للحاضر اهـ.

وفي أبي السعود: الوقوف من الحيوان هو الانتصاب على الرجلين مع السكون يقابل كلاً من المشي والاضطجاع، ولدى: ظرف مكان وهو أخص من عند لأنه لا يطلق إلاَّ على ما مظروفه حاضر والحدّ: المنع ويطلق على المقام والرتبة وهو المعنيّ هنا، والنقطة: فعلة من نقطت الكتاب إذا وضعت النقط على حروفه، وقد تطلق على ما يتركب منه الخط وهو جوهر لا يقبل القسمة طولاً ولا عرضاً ولا عمقاً. والشكلة بالفتح: فعلة من شكلت الكتاب إذا قيدته بالإعراب، والحكم جمع حكمة فعلة من الحكم وفي الاصطلاح استكمال النفس الإنسانية بقوّتي العلم والعمل، والواو في وواقفون للعطف معطوف على ملتمس فهو خبر ثان لكلهم لأن المعطوف على الخبر خبر، والإفراد في الأول نظراً إلى اللفظ والجمع في الثاني نظراً إلى المعنى، والأحسن أن تجعل للحال على أن واقفون خبر لمبتدأ محذوف. والجملة حال من الضمير في ملتمس والضمير في لديه راجع إلى النبي ﷺ وفي حدهم إلى النبيين، وأو بمعنى الواو ومن نقطة العلم صفة كاشفة لحدهم أي حدهم الكائن من نقطة العلم، أو حال أي ثابتاً من نقطة العلم، والإضافة في نقطة العلم وشكلة الحكم بمعنى اللام وتخصيص النقطة بالعلم والشكلة بالحكم لكون الدقة والإغماض في الحكمة أكثر من العلم والكشف

(١) والحاكم في المستدرك (٢/ ٤٠٠).

والإعراب في الشكلة أكثر من النقطة إذ النقطة إنما ترفع الإبهام عن المعاني المتعلقة بالكلم.

والمعنى: أن كل واحد من النبيين أو مجموع النبيين ملتمسون من رسول الله ﷺ غرفاً من البحر أو رشفاً من الديم حال كونهم واقفين لدى سدّته العلية وحضرته السنية وقوف الخدم لدى السلطان والحشم عند خليفة الرحمٰن في مقامهم الذي استحقوه بحسب القوابل والاستعدادات ومراتبهم التي نالوها بالمجاهدات والرياضات من مركز العلوم الربانية ومنزل الحكم الإلٰهية لا يستطيعون من تجاوزه نقيراً ولا من التعدي عنه قطميراً، وهو ﷺ يعرج في عالم الملكوت ويصعد في مصاعد اللاهوت إلى مقام تكل عنه أجنحة الطائرين وتقف دونه أقدام السائرين.

وانظر إلى حسن المعنى حيث جعلنا الواو للحال حتى صار الوقوف قيداً لالتماسهم، وهل يحسن في مقام المدح إلاَّ مثل هذا المعنى، وإن حملت الواو على العطف كان المعنى: أن جميعهم ملتمس وواقف.

واعلم أن اللام مع العلم والحكم يجوز أن تكون للعهد الذهني، ويحمل العلم والحكم على علم الله تعالى وحكمه، فيراد بالنقطة ما منح الله به عباده من علمه الذي لا يتناهى وبالشكلة ما منَّ الله به عليهم من غامض حكمته، والتعبير عن ذينك المقدارين بالنقطة والشكلة إنما هو تقريبي لا تحقيقي فإن المتناهي ليس له إلى غير المتناهي نسبة أصلاً. ويجوز أن يكونا عوضين عن المضاف إليه.

والتقدير: من نقطة علمه وشكلة حكمه، والضمير عائد إلى النبي ﷺ. فيراد بالنقطة والشكلة العبارة التي يعبر بها عن حقيقة علمه وحكمته ويكون فيه إشارة إلى أن حدهم ومرتبتهم إنما هو بالنسبة إلى ظاهر علمه وحكمته لا إلى حقيقتهما فإن حقيقتهما ليس لأحد نسبة إليها أصلاً. اهـ.

قلت: ومن ذلك ما ذكره بعض العارفين: أن بعض الأولياء كشف له عن يسير من نور النبوّة فكاد أن يحترق ويذوب. واذكر حال جبريل حيث تعدّى مقامه ليلة المعراج بأمره ﷺ فكاد أن يحترق، وصغر حتى صار له ما صار حيث لم يؤذن له من الحضرة القدسية. وأما سيد الكائنات فمأذون له ﷺ حتى رأى ما رأى وقوّاه الله تعالى وأمدّه بالإمدادات إلى تلك الحضرات وما منا إلاَّ له مقام معلوم. ثم قال رضي الله عنه:

فهو الذي تمَّ معناه وصورته ثم اصطفاه حبيباً بارىء النسم

أي فهو الذي كمل معناه وصورته، أي خلقه وخلقه، ثم اصطفاه حبيباً بارىء النسم وآدم بين الروح والجسد أو الماء والطين، وإن جعلت ثم لترتيب الأخبار بالمدح.

فالتقدير: ثم اصطفاه بعد أن أكمل صورته، ومعناه: وهذا بعيد، لأن اختياره كان

وآدم بين الماء والطين كما تقدم، وإنما قال: باريء النسم فخص هذا الوصف من بين سائر أوصافه تعالى تنبيهاً على أن معنى محبة الله تعالى له خلقه إياه على تلك الصورة وتوفيقه لتلك الأخلاق الحميدة التي جماعها الإعراض عما سوى الله تعالى. اهـ قسطلاني.

وفي أبي السعود: المعنى مصدر عنى يعني بمعنى قصد. ويجوز أن يكون اسم مكان على أنه محل القصد باللفظ والصورة ما يحدث بعد التركيب من الهيئة والمعنى في الإنسان يطلق على أفعاله وأخلاقه وصورته على قالبه وقد تطلق الصورة بمعنى الصفة، يقال: صورة المسألة كذا، أي صفتها كذا. ومنه قوله ﷺ: «خلق الله آدم على صورته»[1]، في بعض وجوه التأويلات.

وفي البيت قد يراد بالمعنى الهوية المحمدية الجامعة لجميع الكمالات الإنسانية، وبالصورة مشخصات تلك الهوية المختصة بها التي لا تليق إلاّ أن تكون صورة لها، ولا يبعد أن تحمل الصورة على جسمانيته، والمعنى على روحانيته، أو المعنى على علمه ومعرفته. والصورة على عمله أو المعنى على طريقته وحقيقته والصورة على شريعته، أو المعنى على ولايته والصورة على نبوّته أو المعنى على جهته مع الخلق والصورة على جهته مع الخالق، أو المعنى على غيبته والصورة على شهوده، أو المعنى على بقائه والصورة على فنائه، أو بالعكس، وأنه ﷺ كامل في كل منهما. والاصطفاء: الاجتباء والباريء بمعنى الخالق من البري بمعنى النحت. قال الشاعر:

براني الهوى حتى أضرّ بي الهوى   فلم يبق لي لحماً ولم يبق لي دما

والنسم، جمع نسمة، وهي في الأصل النفس. ومنه قولهم: أعتق النسمة، والمعنى: أنه ﷺ لما كانت ذاته بحسب الفطرة والاستعداد الذاتي والقبول الجبلي مستحقة لفيض لا يصلح إلاّ لتلك الذات ولكمال لا يليق إلاّ بها، ثم إنه ترقى في مقام التكليف بحسب الرياضات والاجتهادات في العبادات والطاعات بحسب الفرائض والنوافل والواجبات في مقام قصرت عنه همم الرجال وتقاعدت أن تحوم إليه عزائم أهل الكمال، وكانت الحكمة الإلٰهية مقتضية أن يلبس هذا المعنى التام الأكمل خلعة صورة من الجمال تناسبه في الكمال. لا جرم كانت صورته أتم الصور ومعناه أكمل المعاني، فتعين لمحبوبية خالق الصور وواهب العقول لما فيه من الجمالية باعتبار الفروع والأصول، فهو ظل الله تعالى في السماوات والأرضين وخليفته في الخلافة العظمى على الملائكة والنبيين والمرسلين، وهو علة كون البشر والأملاك المخاطب بـ: لولاك لولاك

---

(١) رواه البخاري (٥/٢٢٩٩)، ومسلم (٤/٢٠١٧).

لما خلقت الأفلاك، فهو الذي تمَّ في مسطبة الحسن بدر جماله وكمل في ديوان المعالي ديوان كماله، وبعد أن اعتدل منه القوام وملح وعذب منه الكلام وفصح، اصطفاه رب العالمين حبيباً من بين الأنبياء والأولياء والمرسلين.

وعن الشيخ إبراهيم بن شيبان بن حنظلة رضي الله عنه قال: سئل أبو العباس الخضر عليه السلام عن أول ما خلق الله تبارك وتعالى فقال: خلق الله تعالى نور محمد ﷺ من نوره قبل السماوات والأرض وقبل العرش والكرسي واللوح والقلم والجنة والنار، وقبل حجاب العظمة، وقبل حجاب الهيبة وحجاب القدرة وحجاب العزة وحجاب الكبرياء وحجاب الجبروت وحجاب المنّة وحجاب المنزلة وحجاب الكرامة وحجاب الرحمة وحجاب السعادة وحجاب النبوّة بأربعمائة ألف عام فكان يلاحظه في كل يوم وليلة سبعين ألف لحظة يكسوه في كل لحظة نوراً جديداً وكرامة جديدة حتى تمّ معناه وصورته. اهـ ﷺ وعلى آله وأصحابه وأزواجه وذرّيته وأهل بيته كلما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون. ثم قال رضي الله عنه:

منزه عن شريك في محاسنه فجوهر الحسن فيه غير منقسم

أي ولا شك أنه ﷺ منزّه، أي مبعد، عن وجود شريك في محاسنه الشريفة، فجوهر الحسن فيه غير منقسم، أي حقيقة الحسن الكامل كائنة فيه لأنه الذي تمّ معناه دون غيره وهي غير منقسمة بينه وبين غيره وإلاَّ لما كان حسنه تاماً لأنه إذا انقسم لم ينله إلاَّ بعضه فلا يكون تاماً والفرض خلافه، فعلى هذا يكون قوله فيه خبراً عن قوله جوهر الحسن.

فإن قلت: إن شريك نكرة في سياق الثبوت فلا تعم كل شريك، فيكون المعنى: منزَّه عن بعض الشركاء في المحاسن.

فالجواب: أنها في سياق النفي لأن معنى منزّه عن شريك أي لا يوجد له شريك كما قدّرته بقولي عن وجود شريك فاعلمه. اهـ قسطلاني.

وفي أبي السعود: التنزيه والتقديس بمعنى واحد، وهما بمعنى التطهير وهو في الأجسام بمعنى إزالة النجاسة العينية والحكمية، وفي المعاني إزالة الأوصاف الذميمة والسمات القبيحة المضادة لصفات الكمال، والشريك بمعنى المشارك والمشاركة والشركة والاشتراك بمعنى اجتماع الاستحقاقين فصاعداً في شيء والمحاسن جمع حسن على غير قياس والجوهر هو الجسم النفيس المعدني وهو عند المتكلمين يقال له: الجزء الذي لا يتجزأ وهو ما لا يقبل القسمة أصلاً لا طولاً ولا عرضاً ولا عمقاً، والحسن في الصورة عبارة عن كيفية ناشئة من تناسب أجزاء المركب تروق في المنظر، أي تسرّ وتميل إليها الطباع السليمة، وفرق بينه وبين الجمال بأن الجمال لا يطلق إلاَّ على الكيفية

الحاصلة في الإنسان والحسن أعم. والمراد بالحسن ها هنا أعمّ من حسن الصورة والمعنى والانقسام هو التجزي إما عقلاً أو جسماً أو وهماً. وقوله: منزَّه خبر مبتدأ محذوف، أي هو منزّه عن شريك جار ومجرور ومتعلق بمنزّه وفي محاسنه متعلق بشريك. والفاء في فجوهر فصيحة، أي وإذا كان منزّهاً عن شريك في محاسنه فجوهر حسنه غير منقسم. وإضافة الجوهر إلى الحسن بيانية. وضمير فيه راجع إلى الحبيب، وغير منقسم خبر جوهر الحسن.

والمعنى: أنه ﷺ إنما انحصر تمام حسن الصورة وجمال كمال المعنى في صورته. ومعناه فهو منزه وموحد عمن يشاركه في جوهر الحسن والجمال، منفرد عن أن يماثله مثل أو يشابهه ند في الملاحة والاعتدال، وإذا عدم نظيره ولم يوجد شبيهه فجوهر حسنه مصون عن عرض الانقسام بل غير قابل للقسمة في شيء من الأنام، وكيف لا وهو سلطان سرير الملاحة وبدر أفق سماء الصباحة، ما ماس في بستان الحسن إلاّ غصن قامته ولا طلع من برج الجمال إلاّ شمس طلعته. قال الشاعر:

هو البدر إلاّ أنه غير ناقص ... هو الشمس إلاّ أنه غير منكسف

هو البحر إلاّ أنه غير هائج ... هو الطود إلاّ أنه غير منتسف

روي أن أبا طالب قال في الخطبة التي خطبها في نكاح النبي ﷺ خديجة: ثم إنّ ابن أخي هذا لا يوزن برجل إلاّ رجح عليه وإن له نبأ عظيماً وخطباً جليلاً. اهـ.

قال في الشفاء: أما الصورة وجمالها وتناسب أعضائه في حسنها، فقد جاءت الآثار الصحيحة المشهورة الكثيرة بذلك من حديث علي وأنس بن مالك وأبي هريرة والبراء بن عازب وعائشة أم المؤمنين وابن أبي هالة وأبي جحيفة وجابر بن سمرة وأم معبد وابن عباس ومعرض بن معيقيب وأبي الطفيل والعدّاء بن خالد وخزيم بن فاتك وحكيم بن خزام وغيرهم رضي الله عنهم من أنه كان ﷺ أزهر اللون، أدعج، أنجل، أشكل، أهدب الأشفار، أبلج، أزج، أقنى، أفلج، مدوّر الوجه، واسع الجبين، كث اللحية، تملأ صدره، سواء البطن والصدر، واسع الصدر، عظيم المنكبين، ضخم العظام، عبل العضدين والذراعين والأسافل، رحب الكفين والقدمين، سائل الأطراف، أنور المتجرّد، دقيق المسربة، ربعة القدّ ليس بالطويل البائن ولا القصير المتردّد، ومع ذلك فلم يكن يماشيه أحد ينسب إلى الطول إلاّ طاله ﷺ، رَجِل الشعر، إذا افترّ ضاحكاً افترّ عن مثل سنا البرق وعن مثل حب الغمام، إذا تكلم رئي كالنور يخرج من بين ثناياه، أحسن الناس عنقاً، ليس بمطهم ولا مكلثم، متماسك البدن، ضرب اللحم.

قال البراء رضي الله عنه: ما رأيت من ذي لمة سوداء في حلة حمراء أحسن من رسول الله ﷺ.

وقال أبو هريرة: ما رأيت شيئاً أحسن من رسول الله ﷺ، كأن الشمس تجري في

وجهه، وإذا ضحك يتلألأ في الجدر.

وقال جابر بن سمرة رضي الله عنه: وقال له رجل: كان وجه رسول الله ﷺ مثل السيف، فقال: لا بل مثل الشمس والقمر. وكان مستديراً.

وقالت أم معبد في بعض ما وصفته به: أجمل الناس من بعيد وأحلاه وأحسنه من قريب.

وفي حديث ابن أبي هالة: يتلألأ وجهه تلألؤ القمر ليلة البدر.

وقال علي في آخر وصفه له: من رآه بديهة هابه ومن خالطه معرفة أحبه.

يقول ناعته: لم أر قبله ولا بعده مثله ﷺ.

قوله في الحديث السابق: أزهر اللون، أي أبيض مشرباً بحمرة، وقوله: أدعج أي شديد سواد العين مع صفائها، وقوله: أنجل أي واسع العين، وقوله: أشكل أي بياض عينه مشوب بحمرة وكان هذا جمالاً فيه ومن علامته ﷺ، وقوله: أهدب الأشفار أي طويل الهدب وهو الشعر النابت على شفر أي حرف العين، وقوله: أبلج أي واسع البياض الذي بين الحاجبين، وقوله: أزج أي دقيق الحواجب ليست عريضة مع غزارة الشعر، وقوله: أقنى أي مرتفع الأنف مع الاستواء وعدم الارتفاع الزائد في وسطه. وقوله: أفلج أي مفرّق الثنايا، وهي مقدم الأسنان، وقوله: مدوّر الوجه أي مع طول يسير، وقوله: واسع الجبين أي عريض الجبهة أي اتساعاً وسطاً غير مفرط، وقوله: كث اللحية أي عظيمها، وقوله: سواء البطن والصدر أي بطنه وصدره ﷺ مستويان فليس صدره مرتفعاً ولا بطنه منخفضاً فإنّ ذلك إنما يكون لعلة، وقوله: واسع الصدر أي واسع عظامه عريضاً، وذلك يدل على عظم القلب وقوّته المستلزم للشجاعة التامة. وقوله: عظيم المنكبين، أي ضخم العظم الجامع بين الزند والكتف من الجانبين وذلك يدل على القوّة، وقوله: ضخم العظام أي غليظ رؤوس العظام يعني المفاصل وهي المراد بالكراديس في الرواية الأخرى أو العظام المستطيلة كعظم الذراع والساعد والساق ونحو ذلك مما يحسن فيه العظم، وقوله: عبل العضدين أي ممتلىء الزندين باللحم تثنية عضد وهو ما بين المرفق والكتف، وقوله: والذراعين أي ممتلىء الذراعين لحماً وهما ما بين الكفين والمرفقين، وقوله: والأسافل يعني الساقين وهما ما بين القدمين والركبتين، وقوله: رحب أي واسع الكفين والقدمين أي مع غلظهما كما في رواية: شثن الكفين والقدمين، فإن ذلك دليل الكرم والقوة، وقوله سائل الأطراف أي طويل الأصابع، وقوله: أنور المتجرد أي مضيء البدن من تحت الثياب أو خالي البدن المتجرد عن الثياب وهو الذي شأنه أن يستر بالثياب عن الشعر فيكون أنور من التنور وهو استعمال النورة لأجل إزالة الشعر أي أن بدنه الشريف خال من الشعر ما عدا السربة وأعالي

الصدر والكتفين، وقوله: دقيق المسربة أي أن المسربة وهي الشعر المتصل من الصدر إلى العانة دقيقة أي ليست عريضة، وقوله: ربعة القدّ، فسره بقوله: ليس بالطويل البائن أي الظاهر الطول أي المفرط فيه ولا بالقصير المتردّد أي شديد القصر، وقوله: رجل الشعر بسكون الجيم وكسرها أي كان شعره مرجلاً غير متجعد وملتو التواء شديداً كشعر السودان، وقوله: إذا افترّ ضاحكاً أي تبسم يظهر من فمه ضوء كضوء البرق أو تظهر ثناياه وأسنانه الشريفة التي تشبه حب الغمام أي البرد في الصفاء والبريق واللطف وحسن المنظر، وقوله: رئي كالنور أي رئي شيء مثل النور يظهر من بين أسنانه الشريفة، وقوله: ليس بمطهم أي غليظ الجسم داخلاً في بعضه، وقوله: ولا بمكلثم أي غليظ الوجه قصيره جداً، وقوله: متماسك البدن أي ليس لحمه رخواً وذلك دليل القوّة والشدّة، وقوله: ضرب اللحم أي ليس مهزولاً ولا سميناً جداً، وقوله في رواية البراء: ما رأيت من ذي لمة، أي من شخص ذي لمة، وهي الشعر الذي طال لكن لم يبلغ شحمة الأذن فإن بلغها فهو جمة فإن زاد عليها فهي وفرة. أسأل الله الكريم متوسلاً إليه بوجاهة وجه نبيه العظيم أن يمنحنا لمحة من لمحاته ونفحة من نفحاته ﷺ وعلى آله وأصحابه وأزواجه وذرّيته وآل بيته كلما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون. ثم قال رضي الله عنه:

دع ما ادعته النصارى في نبيِّهم   واحكم بما شئت مدحاً فيه واحتكم

أي اترك ما ادّعته النصارى، أي ما قالته، في نبيِّهم عيسى عليه الصلاة والسلام من نسبته إلى الإلٰهية على اختلاف آرائهم في ذلك، بل قل: هو عبد الله ورسوله واحكم بما شئت مدحاً فيه غير أن لا تدعي ما ادّعته النصارى في عيسى عليه الصلاة والسلام، كأنه قال: إن سمعت فيه مدحاً بأي شيء كان ما عدا ما ذكر فاقض بصحته ولا تكذب قائله، فعنى بما شئت أي بصحة ما شئت مما سمعت لأن مما يستدعيه الحكم محكوماً فيه، ولا بد وأن يكون غير فعل الحاكم. وأتى بقوله: واحتكم استظهاراً على أن المحكوم عليه بصحة مدحه يرضى بتحكيمك في ذلك فيجعل حيازة الحكم لك وهو احتراس عما يوهمه. احكم أن ذلك لسلطان الحاكم وقهره فزاد احتكم ليدل على أنه من الحكم الذي يرتضيه المحكوم عليه به، وفائدة الإضافة في قوله: نبيهم، الردّ عليهم فإنهم يسلمون أنه نبيهم ثم يدعون له الإلٰهية والمعهود في النبي أنه من البشر وليست الإضافة للاختصاص فإن ذلك يوهم نفي أنه ليس بنبي لنا أيضاً، وليس كذلك بل هو نبي لنا بمعنى أنا نؤمن بنبوّته لا أنه صاحب شريعتنا، وهو سيُبعث فينا إماماً، ويوهم أيضاً أن محمداً ﷺ ليس بنبي للنصارى وهو باطل اهـ قسطلاني.

وفي أبي السعود: دع بمعنى اترك، مأخوذ من يدع وليس له ماض، أما مصدره فقد جاء في الحديث: قال ﷺ: «لينتهين أناس عن ودعهم الجمعات أو ليختمنّ على

قلوبهم»، بخلاف ذر، فإنه كما لم يستعمل ماضيه لم يستعمل مصدره. والنصارى قوم عيسى عليه السلام، قيل: سموا نصارى لانتسابهم إلى ناصرة وهي قبيلة بالشأم كان ينزلها عيسى عليه السلام. وقيل: اشتقاقه من النصر لنصرتهم لنبيهم، ويؤيد ما ورد في القرآن حكاية عنه: ﴿نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ﴾ [آل عِمرَان: الآية ٥٢] والحكم جاء لمعان، منها: الأمر، يقال: نزل على حكمه أي على أمره، ومنه: الحاكم من يأمر وينهي فيمتثل أمره ونهيه. ومنها: خطاب الله المتعلق بأحكام المكلفين تعلق الاقتضاء والتخيير، والمشيئة الإرادة، والمدح هو الثناء على الفعل الجميل سواء كان اختيارياً أو غيره. يقال: مدحت اللؤلؤة على صفائها والرجل على شجاعته. قال الشاعر:

ما إن مدحت محمداً بمقالتي لكن مدحت مقالتي بمحمد

والاحتكام المبالغة في الحكم، ودع فعل أمر وهو خطاب عام، وما موصولة أو موصوفة، وادعته النصارى صلته أو صفته وإنما جيء بالموصول استهجاناً للتصريح بالمقصود وهو من قبيل ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ﴾ [يُوسُف: الآية ٢٣] وفي نبيهم متعلق بادعته.

والمعنى: يخاطب كل من قصد مدح تلك الحضرة المصطفوية والسدة المحمدية بالرخصة له في سلوك أيّ أسلوب أراده من أساليب المدح. بيد ما ادعته النصارى في عيسى عليه السلام من النبوّة موضع النبوّة فإنه لا يجوز الإقدام عليه لاستلزامه الشرك وما عداه من صفات الكمال ونعوت الجلال وسمات الجمال فإنك ذو رخصة فيه ليس عليك من حرج بل لو بذلت في ذلك جلّ طاقتك وجهدك وجدت في تحصيله بنفسك لم تحط إلاّ بالقليل من معاني كماله ونعوت جماله فإن عظمة ممدوحك عظمة قد طاعت لها أعناق الجبابرة وعلوّ شأنه مرتبة قد خضعت لها جباه القياصرة، واركب في طريق الإطراء عليه جادة الأنصار لا النصارى، واسلك في الثناء عليه مسلك المهتدين لا الحيارى.

وعنه ﷺ: «لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى وقولوا عبد الله ورسوله».

فإن قلت: ما وجه ربط هذا البيت بالأبيات السابقة، قلت: دفع ما يوشك أن يخطر ببال بعض من قصرت فطنته عن ترك شيء من كمالاته وبعض من مقاماته، إن هذا القول إفراط في مدحه ﷺ حيث مدحه بما يدل على كثرة التفاوت بين مرتبته ومرتبة سائر الأنبياء، وأن هذا من طريق الغلوّ فدفع ذلك التوهم بما تضمنه هذا البيت، وتممه بقوله:

وانسب إلى ذاته ما شئت من شرف وانسب إلى قدره ما شئت من عظم

والنسبة: العلاقة بين الشيئين، وذاته هو الهوية والحقيقة التي يكون بها ذلك الشيء شيئاً، والشرف: المجد، والمراد به النباهة وعلو الشأن. قال الشاعر:

شرفي وفخري في الوجود وعزّتي أني بترب نعالكم أتمسك

والقدر بمعنى المقدار، وقد غلب استعماله في المقدار من الشرف، ومنه قول علي رضي الله عنه: «رحم الله امرءاً عرف قدره فلم يتعدّ طوره». وقول الشاعر:

إن كان قدري ما رأيت لديكم فلقد أضعت بحبكم أوقاتي

والعظم بمعنى العظمة، وهي زيادة الرتبة في الوصف الجميل، وقوله: وانسب عطف على واحتكم، وصحح بعض الشراح رواية الفاء وما شئت موصولة والعائد محذوف، ومن شرف بيان لما، والتنوين للتفخيم.

والمعنى: أنك إذا عرفت بعض ما له من المزايا التي يقصر عنها باع البراعة ويضيق عن إحصاء بعضها نطاق الأوراق ويكل عن حمل نزر منها متون النياق، فانسب إلى ذاته الشريفة وعنصره اللطيف ما شئته واخترته من الشرف الباذخ والمجد الشامخ، وانسب إلى قدره العالي ومقداره المتعالي ما أرادته وقصدته من المنزلة العلية والمرتبة السنية ولا تقف عند حد وغاية ولا تتوقف لدى منزلة ونهاية إلاَّ عند وصف مختص بمن منه الهداية وإليه النهاية.

وناهيك في قصور الباع عن مدح ربه إياه في كتبه المنزَّلة مما يعجز لسان البشر عن إحصائه.

وعن عطاء بن يسار رضي الله عنه قال: لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه قلت أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة. قال: أجل والله إنه لموصوف في التوراة ببعض أوصافه في القرآن: «يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وحرزاً للأميين أنت عبدي ورسولي سميتك المتوكل لست بفظ ولا غليظ، ولا سخاب في الأسواق، ولا تدفع بالسيئة السيئة ولكن تعفو وتغفر، ولن أقبضك حتى تقيم الملة العوجاء بأن يقولوا لا إله إلاَّ الله محمد رسول الله، وتفتح به أعين عمي وآذان صم وقلوب غلف» اهـ.

وفي القسطلاني: وانسب أنت بنفسك إلى ذاته الشريفة ما شئت من شرف وانسب أيضاً إلى قدره العظيم ما شئت من عظم، فالأمر الأول في قوله: واحكم بصدق ما سمع من المدح، والثاني بمباشرة المدح وإنشائه، وبهذا التفسير يندفع قول من قال: وانسب إلى ذاته، البيت، لم يفد إلاَّ تفصيل ما أجمله البيت الذي قبله. اهـ.

وفي الشفاء: عن عائشة رضي الله تعالى عنها عنه عليه الصلاة والسلام: «أتاني جبريل فقال: قلبت مشارق الأرض ومغاربها فلم أر رجلاً أفضل من محمد ﷺ ولم أر بني أب أفضل من بني هاشم» اهـ.

وبالجملة، فمقامه المنيف لا يدرك له قرار ولا يدرك كنهه غير خالقه الواحد القهار، وقد سبق لك في أول الكتاب عن المحقق ابن حجر أنه قيل لسلطان العاشقين العارف ابن الفارض: لِمَ لَمْ تمدح النبي ﷺ، فقال:

أرى كل مدح في النبي مقصرا وإن بالغ المثني عليه وأكثرا
إذا اللّه أثنى بالذي هو أهله عليه فما مقدار ما تمدح الورى

ثم قال رضي الله عنه:

فإن فضل رسول اللّه ليس له حد فيعرب عنه ناطق بفم

فقوله: ليس له حد، أي ليس له نهاية، فيعرب بالنصب بإضمار إن بعد الفاء التي هي جواب النفي الذي أفادته ليس فإذا كان لا حد له فكيف يتصور أن يعرب عنه ناصق بفم. اهـ قسطلاني.

والفضل مصدر بمعنى الزيادة، وجاء بمعنى الفضيلة ضد الرذيلة، وهي عبارة عن الصفة الجميلة الزائدة على ما يجب من المحامد.

قال العارف الشعراني: وقد كان الإمام الشافعي يزور تلميذه الإمام أحمد بن حنبل كثيراً ويزوره الإمام أحمد كذلك، فقيل للشافعي في ذلك فأنشد يقول:

قالوا يزورك أحمد وتزوره قلت الفضائل لا تفارق منزله
إن زارني فبفضله أو زرته فلفضله فالفضل في الحالين له

فأجابه الإمام أحمد رضي الله عنه بقوله:

إن زرتنا فبفضل منك تمنحنا أو نحن زرنا فالفضل الذي فيكا
فلا عدمت كلا الحالين منك ولا نال الذي يتمنى فيك شانيكا

اهـ من كتابنا النفحات النبوية.

وفي أبي السعود: الفاء في فإن تعليلية والإضافة في فضل رسول الله لامية وإنما وضع الظاهر موضع المضمر استلذاذاً وتبركاً باسم رسول الله ﷺ، وحد اسم ليس وله خبره قدّم عليه للظرفية، والفاء في فيعرب ناصبة للفعل بتقدير أن لأنها بعد النفي وضمير عنه عائد إلى الحد ويتعلق بناطق أو بيعرب وبفم من قبيل قوله تعالى: ﴿وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ﴾ [الأنعام: الآية ٣٨].

والمعنى: بيان الإذن في نسبة ما يشاء المادح ويهواه الواصف لذاته الزاكي وقدره العالي من الشرف الباذخ والعظم الراسخ بأن فضائله المتوالية وفواضله المتتالية لم تبلغ في مجرى الكمال ومسلك العز والجلال إلى غاية يقف عندها الواصف ونهاية يتوقف عليها المادح، فإنه ﷺ مظهر لكمال من لا يحيط بكماله حصر ولا حدّ ولا يحصيه ضبط ولا عدّ ﴿قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا ١٠٩﴾ [الكهف: الآية ١٠٩].

وأنت خبير بأنه لما كان الكمال المعتدّ به بين الرجال إنما هو كمال المعرفة وكمال المعرفة غير متناه فكمال العارف كذلك، وأما توقف الترقي في درجات الكمال على الكسب المتوقف على الآلات البدنية من القوى والنفوس والأرواح البشرية فإنما هو مخصوص بكمال خاص مقيّد بالبدن العنصري والقالب الجثماني مع أن العارف قد اكتسب بأعماله الصالحات من العبادات والمجاهدات والرياضات وتزكية الأخلاق من دنس العادات بدناً روحانياً مماثلاً للبدن العنصري فيما له من الأعضاء، والقوى والأرواح والنفوس وتعلقت به نفسه الزكية فهو يطير به في معارج القدس إلى ما لا نهاية له ولا ولاية.

روي أنه ﷺ رأى في ليلة المعراج أفواجاً من الملائكة يطوفون حول البيت المعمور وذكرهم في طوافهم اسم محمد ﷺ وهم يقطعون في طوافهم الشوط أسرع من لمح البصر وغيرهم من الملائكة لا تستطيع قطع ذلك الشوط إلاّ في زمن طويل، فسأل النبي ﷺ جبريل عليه السلام: «من هؤلاء، فقيل له: هؤلاء أشراف الملائكة في السماء كما أن لك أشراف البشر في الأرض، فقال له: يا أخي يا جبريل بماذا استحقوا هذه المنزلة وبم تيسرت لهم هذه السرعة في الطير، فقال له: ببركة اسمك فبه نالوا ما نالوا» اهـ.

ولله در الإمام الجليل والمحدث النبيل القاضي عياض حيث قال في كتابه الشفاء: فصل: قال الفقيه القاضي رحمه الله: إذا كان خصال الكمال والجلال ما ذكرناه ووجدنا الواحد منا يشرف بواحدة منها إن اتفقت له في كل عصر إما من نسب أو جمال أو قوّة أو علم أو حلم أو شجاعة أو سماحة حتى يعظم قدره وتضرب باسمه الأمثال ويتقرر له الوصف بذلك في القلوب أثرة وعظمة وهو منذ عصور خوال رمم بوال، فما ظنك بعظيم قدر من اجتمعت فيه كل هذه الخصال إلى ما لا يأخذه عدّ ولا يعبر عنه مقال ولا ينال بكسب ولا حيلة إلاّ بتخصيص الكبير المتعال من فضيلة النبوّة والرسالة والخلة والمحبة والاصطفاء والإسراء والرؤية والقرب والدنوّ والوحي والشفاعة والوسيلة والدرجة الرفيعة والمقام المحمود والبراق والمعراج والبعث إلى الأحمر والأسود والصلاة بالأنبياء والشهادة بين الأنبياء والأمم وسيادة ولد آدم ولواء الحمد والبشارة والنذارة والمكانة عند ذي العرش والطاعة ثم الأمانة والهداية والرحمة للعالمين وإعطاء الرضا والسؤل والكوثر وسماع القول وإتمام النعمة والعفو عما تقدّم وما تأخر وشرح الصدر ووضع الوزر ورفع الذكر وعزة النصر ونزول السكينة والتأييد بالملائكة وإيتاء الكتاب والحكمة والسّبع المثاني والقرآن العظيم وتزكية الأمة والدعاء إلى الله تعالى وصلاة الله والملائكة والحكم بين الناس بما أراه الله ووضع الإصر والأغلال عنهم والقسم باسمه وإجابة دعوته وتكلم الجمادات والعجم وإحياء الموتى وإسماع الصم ونبع الماء من بين الأصابع وتكثير

القليل وانشقاق القمر وردّ الشمس وقلب الأعيان والنصر بالرعب والاطلاع على الغيب وتظليل الغمام وتسبيح الحصى وإبراء الآلام والعصمة من الناس، إلى ما لا يحويه محتفل ولا يحيط بعلمه إلاَّ مانحه ذلك ومفضِّله به لا إله غيره إلى ما أعدّ الله تعالى له في الدار الآخرة من منازل الكرامة ودرجات القدس ومراتب السعادة والحسنى والزيادة التي تقف دونها العقول ويحار دون أدانيها الوهم. اهـ.

نسأل الله الكريم أن يمنَّ علينا بذرّة من إقباله وبسطة من إفضاله ويبلّغنا الآمال بجاه النبي والصحب والآل ﷺ وعلى آله وأصحابه وأزواجه وذرّيته وآل بيته كلما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون.

ولما كان قدره ﷺ لا حدّ له لزم من ذلك أن جميع ما ظهر على يديه من الآيات لم يكن شيء منها مناسباً لقدره العظيم، كما أشار إليه رضي الله عنه بقوله:

لو ناسبتْ قدر آياته عظماً أحيا باسمه حين يدعى دارس الرمم

أي لو ما نلت قدرة آياته التي هي أعلام نبوّته ﷺ جمع آية، وأصلها عند سيبويه: أوية، فحركت الواو وقبلها فتحة فقلبت ألفاً، وقيل: آية عظماً وأحيا اسمه الشريف حين أي وقت يدعى دارس الرمم جمع رمة بالكسر وهي العظام البالية، يعني أنه لو ناسب شيء من آياته التي هي كتسبيح الحصى في كفه وانشقاق القمر له وتسليم الأحجار والغزالة عليه قدره لكان من جملتها أنه إذا دعي دارس الرمم مع ذكر اسمه الشريف أحياه الله تعالى بسبب بركة ذكر ذلك الاسم الشريف، كأن يقول مثلاً: يا ميت عش باسم محمد ﷺ، ويجوز أن يكون دارس منصوباً بأحيا، ويكون في يدعى ضمير مرفوع نائب عن الفاعل، والتقدير: أحيا بركة ذكر اسمه الشريف دارس الرمم حين يدعى هو أي دارس الرمم مصاحباً لذكر الاسم المبارك، ويحتمل أن يكون ضمن يدعى معنى يذكر أي أحيا اسمه دارس الرمم حين يذكر هو أي اسمه، ودارس على هذا مفعول أحيا فإن قيل: إن كلامه يعطي أن شيئاً من آياته ﷺ لم يناسب قدره لأن لو حرف امتناع لامتناع، أي امتنعت الخاصية المذكورة لامتناع مناسبة شيء من آياته قدره وهذا باطل لأن من آياته القرآن وهو كلام الله وكلامه صفته وشرف الصفة بشرف الموصوف، فكيف يصح أن يقال: صفة الله لم تناسب قدر النبي ﷺ.

فالجواب: أنه ليس المراد بالقرآن كلام الله الذي هو صفة ذاتية، وهذا المعنى قائم بذاته سبحانه وتعالى ولا يفارق الذات، فإطلاق القرآن عليه الذي هو بمعنى المقروء مجاز وهذا لا يكون معجزة لأن المعجزة فعل الله الخارق للعادة وهذه صفة للذات بل يراد بالقرآن الحروف والأصوات التي تنفتح بها أوداج القارىء وهذا هو المعجزة، وإطلاق القرآن عليه بمعنى القراءة. ومدلوله المعنى القديم وهو الدال عليه وهذا هو مراد

الناظم لأنه يراد بالآية المعجزة وحينئذ يمتنع أن تكون الحروف والأصوات مناسبة لقدره ﷺ. اهـ قسطلاني.

وفي أبي السعود: لو للشرط وهي لامتناع المشروط كقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: الآية ٢٢] إذ المراد انتفاء الفساد لانتفاء الآلهة الذي هو الشرط ولذلك سميت امتناعية، وقد تجيء لإثبات الثاني على تقدير إثبات الأول وعدمه كقوله ﷺ: «نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه» يعني أن عدم العصيان ثابت سواء تحقق الخوف أو لم يتحقق لأن المعنى: انتفى العصيان في حال عدم الخوف لأنه مجبول على الطاعة وعدم العصيان، فما بالك به وهو من أعظم الخائفين من الله تعالى فإنه من أجلاء الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين. وآياته فاعل ناسبت وقدره مفعوله قدم للاهتمام وعظماً تمييز وأحيا جواب الشرط، واسمه فاعل أحيا، ودارس مفعول أحيا.

والمعنى: نفي كون آياته مناسبة لعظم قدره إذ لو كانت آياته الباهرات ومعجزاته القاهرات على مقدار قدره العالي وشأنه المتعالي لأعطى مع ذكر الأعظم الموتى صفة الحياة ولصارت العظام البالية الرميمة حين يتوسل باسمه الكريم إلى محيي العظام وهي رميم حية منتعشة لكن من حيث إن آياته غير واقعة على مقدار قدره لم يحيِ الله ببركة اسمه حين يتوسل به إليه رميم العظام.

والمراد بالآيات، مجموعها لا جميعها، فلا يرد القرآن، وقد يقال: لا نسلم أن اسمه لم يحيِ الميت فلا يلزم أن لا تكون آياته مناسبة لعظم قدره بل من شأن اسمه أن يحيي الله العظام البالية عند التوسل به، وإنما التخلف من جهة الذاكر لا من جهة المذكور ولو كان التوسل باسمه ذا صلاحية للتوسل في إحياء الميت لأحياه الله سبحانه وتعالى ببركة اسمه، بل كما أن إحياء جميع القلوب الميتة بسبب مسماه كذلك إحياء جميع الموتى الذين أحياهم الله تعالى في دار الدنيا على أيدي كل الأنبياء والأولياء معجزة وكرامة إنما هو ببركة اسمه المبارك. وهل تظن أن تستجاب دعوة داع من دون أن يصدّر الدعاء بـ: اللهمَّ صلِّ على محمد وعلى آل محمد.

روى محمد بن محمد البخاري المشهور بخواجه بارسا في فصل الخطاب: أن رجلاً من بني إسرائيل عاش أربعمائة سنة لم يأت مدّة عمره بحسنة تكتب له ولم يترك سيئة من السيئات لم تكتب عليه، فلما قضى نحبه كره بنو إسرائيل أن يدفنوه في مقابرهم وقذفوه في مزبلة، فأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام: «أن اذهب وارفع عبدي من المزبلة وغسّله بيدك وحنطه وكفنه وصلِّ عليه وأمر جميع بني إسرائيل أن يصلُّوا عليه فمن صلَّى على مغفور له غفر له». فلما فعل موسى عليه السلام ذلك تعجب بنو إسرائيل

وسألوا موسى أن يسأل ربه عن سببه، فأوحى الله إليه: «إن عبدي هذا تصفح يوماً التوارة فوصل إلى صفحة فيها اسم حبيبي محمد فقبّله ووضعه على عينيه وتوسل به أن أغفر ذنوبه وأحرم جسده على النار وأدخله الجنة فآليت على نفسي إجابة دعوته وأمرت الكرام الكاتبين أن يبدلوا سيئاته حسنات» اهـ.

وإنما كانت الآيات الظاهرة على يديه لم تناسب قدره الشريف، لأنه لو أتت آياته على مناسبة قدره لأعيانا فهم ذلك لقصور قدرنا عن قدره كما أشار إليه بقوله:

لم يمتحنا بما تعيا العقول به حرصاً علينا فلم نرتب ولم نهم

أي لم يختبرنا في التكليف والتفهيم بما تعيا العقول به، أي تكل بسببه فلا تفهمه حرصاً علينا، أي لأجل حرصه على هدايتنا، فلم نرتب أي فلم نشك فيما يلقى إلينا ولم نهم فيه، أي لم نتحير في ذلك. قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء: الآية ١٠٧] ولا رحمة مع التكليف. فإن قلت: كيف قال: لم يمتحنا بما تعيا العقول به وفي القرآن المتشابه الذي لا يعلم تأويله إلاّ الله. فالجواب: إن هذه المسألة مسألة خلاف والمحققون على أن الوقف على قوله تعالى في العلم لأن الخطاب بما لا يفهم بعيد فيعلم تأويله أيضاً: الراسخون في العلم، وإذا علموه علموه غيرهم. أو يقال: لم يمتحنا بكذا باعتبار ما يرجع إلى ما كلفنا به ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: الآية ٢٨٦] ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: الآية ٧٨]. والمتشابه ليس من ذلك إذ لا يتعلق به تكليف وتمام تحقيقه في علم التفسير. اهـ قسطلاني.

وفي أبي السعود: الامتحان: الاختبار، قيل في المثل: عند الامتحان يكرم المرء أو يهان. والعيّ: الكلال، وقد يطلق على عدم الاهتداء إلى طريق الفعل، والحرص شغب النفس على نيل شيء وهو في تحصيل الكمال محمود والارتياب: التشكك والشك تساوي طرفي النفي والإثبات وإذا رجح أحد الطرفين فالراجح الظن، والهيمان الحيرة والضلال.

والمعنى: أن عدم ارتيابنا في الاعتقادات الخفية والأحكام الشرعية وثباتنا على ما جاءنا به ﷺ من الاعتقادات الدينية وما يتعلق بالنبوّة والأمور الأخروية ورسوخ القدم في الأحكام الشرعية متفرع على ما جاءنا به من الملّة الحنيفية السهلة الغراء والطريقة القويمة الجليلة الشهباء، حيث لم يكلفنا بالتكاليف الشاقة مثل ما كلفت به الأمم السابقة من قبلنا حرصاً على هدايتنا وشفقة على سلامتنا.

وهذا هو المعنى الظاهر من البيت الذي سبق إلى أفهام من قبلي من الأنام، ولا يبعد أن يحمل على أن الناظم قصد من البيت تعليل عدم إحياء اسمه ﷺ العظام الرميمة مع أن من سماته إحياء القلوب الميتة. وتحقيق ذلك أنه لو أحيا اسمه الموتى لتاهت

العقول فيه وتحيّرت الأفهام في معانيه ولربما أدّى ذلك إلى الغلو والوقوع في الضلال كما وقعت النصارى في التثليث بسبب عيسى عليه السلام وأمه، أي إنما لم يحي اسمه الموتى لئلا يمتحننا بما تكل عن دركه عقولنا وتعجز عن الإحاطة به أفهامنا لئلا نقع في الشك والارتياب وحرصاً علينا في ارتكاب طريق الصواب وذلك من كرم واهب العطايا ورأفة الرسول بالبرايا. ويؤيد هذا البيت الذي بعده حيث يقول:

أعيا الورى فهم معناه فليس يرى   في القرب والبعد منه غير منفحم

أي أعجز الخلق فهم معناه، أي فهم تفصيل أحواله السنية وصفاته العلية، وقوله: غير منفحم اسم فاعل من الفحم إذا سكت ولم يجب أي فليس يرى من الخلق المنكرين في إدراك تلك الأحوال القاصدين طلب الإحاطة بها سواء عند القرب منه أو البعد غير منقطع عن إدراك ذلك المرام ومصدود عن بلوغ ذلك المقام، وإسناد الإعياء إلى الفهم من المجاز العقلي، أي أعياهم الله تعالى عن إدراكه وفي الجمع بين الإعياء والانفحام وبين الفهم والمعنى وبين القرب والبعد مراعاة النظير، وفي القرب والبعد الطباق واللام في للقرب بمعنى عند أو مع.

وفي أبي السعود: الإعياء: الإعجاز، والعي العجز، وعي لازم وأعيا يجيء لازماً ومتعدياً، يقال: أعييت وأعياني الأمر، والورى: المخلوقات، والفهم: الإدراك، والمعنى ما يفهم من اللفظ. والمراد به هنا الحقيقة المحمدية. والانفحام العيّ والعجز عن المعارضة، والمراد بالمنفحم العاجز عن الإتيان بمثل ما أتى به، والقاصر عن بيان كمالاته وهذا هو المناسب للمقام. والورى مفعول أعيا وفهم فاعله قدم للاهتمام ونكتته العلم في أول الوهلة أن العاجز عن الفهم جميع الناس حتى ينتفي توهم أن أحداً من الناس يمكن له الإحاطة بفضائله وكمالاته فيقطع كل أحد من الناس الطمع في البلوغ في ذلك الأمر فلا يتعرض لما لا يمكنه فيكون كالراقم على الماء، واللام في الورى للاستغراق، وقد يراد من الورى العقلاء فإنهم المقصودون بالخطاب فتكون اللام للعهد الذهني كقوله تعالى: ﴿إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: الآية ١٨]، وقولك لصاحبك: ادخل السوق لسوق معهود بينك وبينه. والفاء في فليس فصيحة، والمعنى أن معرفة نفاسة جوهر هذا الرسول الكريم والنبي العظيم الذي هو مظهر لكمال المولى الرب الرحيم مقام عجز عن إدراكه والوصول إليه أفهام الأنام وقصر عن نبئه أقدام ألباب ذوي الإسلام، فلست ترى أحداً سواء كان قريب المنزلة أو بعيدها وسواء كان قريب العهد من زمانه ﷺ أو بعيده قد رام درك ماهيته وفهم حقيقته وحصر كمالاته وإحصاء مقاماته إلاّ وقد نكص على عقبيه وعجز عن تحريك ما بين لحييه قاصراً عن أن يدرك شيئاً من خصائصه أو قليلاً من فضائله لأن مرتبة النبوة فوق الولاية ومرتبة الولاية لا تدرك لقوله تعالى: «أوليائي تحت قبائي لا يعرفهم غيري» فكيف تعرف مرتبة النبوة لا سيما مرتبة

نبوّة سيد الأنبياء والمرسلين وخاتم النبوّة في الكتاب المبين.

وإلى هذا المعنى أشار ﷺ لعلي كرَّم الله وجهه بقوله: «لا يعرفك إلاَّ الله وأنا ولا يعرفني إلاَّ الله وأنت، ولا يعرف الله إلاَّ أنا وأنت»، فإن قلت: كيف يجوز حصر كل منهم في الآخر مع أن البشر مكلفون بمعرفة كل منهم، قلت: المراد المعرفة التامة التي لا يمكن حصولها لغيره والمكلف به المعرفة بوجه من الوجوه. فإن قلت: ما بيِّنة تدل عن أن النبوّة أفضل من الولاية وقد ورد في الحديث: أن الولاية أفضل من النبوّة. قلت: المراد بالولاية المفضولة الولاية المطلقة وبالولاية الفاضلة الولاية المقيدة بالنبوّة. اهـ.

ثم شبه عدم الإحاطة بكنه معناه مع القرب والبعد بالشمس، فقال:

كالشمس تظهر للعينين من بعد صغيرة وتكل الطرف من أمم

أي هو كالشمس تظهر للعينين من بعد، بضم العين اتباعاً لضم الباء، وأصلها السكون صغيرة قدر الترس، وتكل الطرف من أمم أي من قرب، وسميت الشمس شمساً لبعدها وسرعتها ومحلها الفلك الرابع. وذكر أهل الهيئة: أن جرمها كقدر الأرض مائة ونيفاً وستين مرة. وعن الثعلبي: قدر الدنيا مائة وعشرين مرة. وعن ابن عباس وعكرمة: كقدر الدنيا، ففهم معناه ﷺ كالشمس تظهر للعينين من بعد صغيرة وإن كانت في نفس الأمر أعظم من الأرض بكثير، وهي من أمم أي قرب، تكل الطرف أي تعييه، وهذا يحتمل وجهين، إما أن يكون إعياؤها الطرف عن الإحاطة بجملتها لعظم جرمها، وإما أن يكون إعياؤها الطرف عن الإحاطة بها مع القرب من أجل قوّة شعاع نورها فإنه يرد البصر خاسئاً كليلاً. ووجه التشبيه أن البعيد منه ﷺ إنما يتحصل له من أحواله النزر القليل بالوصف فهو يقف عند ذلك القدر، فقد أدركه على خلاف ما هو به كمدرك الشمس مع البعد. وأما القريب منه المشاهد لأنواره وآياته التي تبهر عينيه الباصرة والبصيرة عن الإحاطة بجملة معناه لعظم قدره فلا يمكنه الوقوف على حقيقته ﷺ، كما أن الناظر إلى الشمس لا يمكنه إمعان النظر إلى جرمها لحجب بصره بشعاعها.

واعلم أنَّ من خصَّه الله تعالى بالمعارف الإلٰهية وتخلّق بالصفات الربانية كان بالنظر إلى ذاته وخلقته قريباً من البشر، وبالنظر إلى أخلاقه وأفعاله بعيداً عن إدراك النظر لأنه بالنظر إلى أفعاله والارتقاء إلى أحواله خرج عن ظهورهم الموصوف، وإنما يحصل له ذلك بقطع العلائق التي تشغله عن ربه تعالى فإذا بلغ هذه المنزلة تحيّر الورى الراكنون إلى غير الله تعالى من المخلوقين في أمره فيقولون لما استولى على قلوبهم من الغفلة: بأيّ شيء اختص هذا عنا مع أنه بشر مثلنا ومن جنسنا، فإن نظروا إلى بشريته وهي حالة بعده باعتبار ما هو عليه رأوه صغيراً وإن تفكروا في خصائصه وهي حالة قربه رجع طرفهم خاسئاً حسيراً، وهذه صفات الواحد في الأنبياء والواحد في الأولياء، فلا الناظر

إلى البشرية رام الطريقة ولا المتفكر في الخصائص أدرك الحقيقة، وحينئذ يشبه ذلك الواحد بالشمس في الإدراكين المذكورين وفي استفاضة أنواره على من دونه ممن يشاركه في مطلق المنزلة وهم كالكواكب المستمدّ نورها من نور الشمس. اهـ قسطلاني.

وفي أبي السعود: البُعُد بضمتين لغة في البعد بسكون العين، والإكلال الإيقاع في الكلال، والكل والكلول والكلولة بمعنى العيّ. يقال: كلَّ لسانه وحسامه وطرفه إذا عيا عن الكلام وعن القطع وعن النظر والأمم جاء بمعنى التوسط بين القرب والبعد، وبمعنى المقابلة، يقال: داري أمم داره، أي مقابلتها. وقوله: كالشمس خبر مبتدأ محذوف، أي هو كالشمس وتظهر جملة حالية أو صفة تأكيدية كأمس الدابر أو استئناف وبيان لوجه الشبه والطرف مفعول تكلّ ومن أمم متعلق به، ومن ابتدائية.

والمعنى: تشبيهه ﷺ بالشمس حين يرمقها البشر من بعد فيرونها صغيرة ثم لو دنوا إليها من قرب لكلّت أبصارهم من النظر إليها لعظم حجمها وتشعشع ضيائها، كذلك حضرة الرسول ﷺ إذا تصوّرته أفهام البشر من حيث البشرية أنه فرد من أفرادها بما زعمت الواهمة أنها قد يمكنها الإحاطة بصفاته الكمالية ونعوته الجلالية وإذا ظهر لها أنه خاتم النبيين وسيد المرسلين وحبيب ربّ العالمين وأنه لولاه ما كانت الدنيا ولا كان الدين وأنه كان نبياً وآدم بين الماء والطين وتعقلت ما ظهر على يده من المعجزات الباهرات والآيات الإلٰهيات ظهر لها أن إدراك كنه حقيقته والإحاطة بفضله وفضيلته خارج عن طوق البشر وإنما هو من شأن خالق القوى والقدر.

فقوله: تظهر للعينين، بيان لوجه الشبه، وهو أن كلاً منهما قد يدرك من جهة وقد يكون ذلك الإدراك من تلك الجهة في بادىء الرأي شبهة لتوهم إدراك حقيقة كل منهما على وجه الصحة والصواب، فإذا تأمل الناظر وأمعن النظر ظهر له امتناع ذلك ورجع إليه طرفه خاسئاً وهو حسير، هذا هو الظاهر الملائم للقيد الذي قيّد به المشبّه به وإن كان الذوق السليم والطبع المستقيم بحال شاسع ومهيع واسع في الخوض في أنواع من جهة المشبه منها أن الشمس هي النير الأعظم والكوكب الأفخم وهو سلطان الكواكب السيارة وجعلها في الفلك المتوسط من أفلاكها، لهذا المدّعي قرينة وأمارة وهو ﷺ أنور الأنبياء قلباً وأطهرهم روحاً وأطيبهم سراً وهو واسطة عقد النبيين والدرّة اليتيمة وتاج المرسلين وأعلى النبيين منزلة وقدراً وأرفعهم مرتبة سراً وجهراً.

ومنها أن نور الشمس يبهر نور الكواكب فإذا ظهرت أشعتها وبدت بوارق تلألئها اختفت أنوار الكواكب وانهزم عسكر الظلام فكذلك نور نبوّته وضياء هدايته عليه الصلاة والسلام لما برز من تحت حجاب القدرة وتعلقت بظهوره الإرادة والمشيئة اختفت جميع الأديان تحت ستور النسخ والتغيير ورجمت شياطين الجهل بشهب العلم من أفق سماء

الهداية بتقدير العليم الخبير.

ومنها أن الشمس مرئية لما تحت القمر من الحيوان والنبات والمعدن، كذلك وجوده الشريف وجوده المنيف مربي الأرواح الزكية والنفوس الطيبة والملأ الأعلى والعالم الروحاني. وكما أن الشمس إذا أشرقت على المعادن تجعل الحجر الخسيس جوهراً نفيساً كذلك نور ضياء هدايته إذا أشرق على قلوب السالكين وأرفع الناسكين جلا دينهم بجلاء المعارف وحلّى أعناق معارفهم بمحاسن اللطائف. وكما أن الشمس إذا طلعت على ثمار الأشجار أفادتها حلاوة في الطعم وبهاء في اللون واعتدالاً في الطبخ، كذلك شمس شريعته وقمر طريقته وبدر حقيقته إذا بزغت من فلك ذاته وأفعاله وسنته خلت بها العبادة في مذاق المتشرّعين وطابت بها أخلاق السالكين وأشرقت بها أنوار الحقيقة في قلوب العارفين.

ومنها أن الشمس تفيض على العالم العنصري كيفية الحرارة وتحفظ المركب الجاري من نكباء صرصر البرودة، كذلك حرارة شوقه وذوقه وسخونة محبته ومحبوبيته تفيض الحرارة الروحانية على أرواح المحبين وتسقي المحبوبين أقداح أفراح جذبات المشتاقين فتتفجر في قلوب العارفين عيون المعارف وتنشرح صدورهم بمكنونات أسرار اللطائف.

وللمقال في مثل هذا المقام مجال، وكذا الإعراض عن كثير منه حذراً من الإطالة والإملال. ولا يبعد أن يحمل التشبيه في هذا البيت على التشبيه المعكوس فإنه ﷺ في جميع الوجوه المذكورة أتم وأكمل من الشمس كما لا يخفى. ثم قال رضي الله عنه:

وكيف يدرك في الدنيا حقيقته ... قوم نيام تسلوا عنه بالحلم

الحلم بضم اللام أي لا يدرك حقيقته كل قوم صفتهم ما ذكر لا يقال يتخصص على تقدير تسليم عمومه بقوله: نيام، لأنا نقول: هو وصف لازم لا مخصص.

قال رسول الله ﷺ: «الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا»، والمعنى: أن من في الدنيا لا يدرك الحقائق المتمحضة للآخرة لأن نفس أحوال الدنيا حجاب بينه وبينها كما يحجب النوم النائم عن إدراك أحوال اليقظة، وكذا هو حال جميع الورى لا يشاهدون حال تفضيل محمد ﷺ على سائر الخلق معاينة وتفصيلاً كما أدركوه بالخبر جملة إلاَّ يوم القيامة حيث يبعثه الله المقام المحمود الذي يغبطه فيه الأوّلون والآخرون وحيث يؤتى الوسيلة، وهي الدرجة التي لا ينالها عبد من عبيد الله تعالى غيره. فالمراد بكونهم نياماً أنهم أحياء في دار الدنيا وشبهوا بالنائم لما قرّرناه. اهـ قسطلاني.

وفي أبي السعود: حقيقة الشيء ما به ذلك الشيء من حق إذا ثبت والتسلي تفعل من السلوّ وهو طلب التخلص من أثر وثاق المحبة، وقد يطلق على تطييب الخاطر

والتعويض عما يحب بمثله. قال الشاعر:

تسليت عن سعدى بطيف خيالها ومن لم يجد ماء تيمم بالترب

والحلم النوم، ويجمع على أحلام، وقد يطلق على ما يرى في النوم، والفعل منه حلم جاء متعدّياً بنفسه وبحرف الجرّ يقال: حلمت بكذا وحلمته، ومصدره الحلم بضم الحاء واللام وسكونها، وكيف يدرك استفهام إنكاري، وقوم فاعل يدرك، وكيف منصوب المحل على الظرفية بيدرك، أي في أي حال يدرك وفي الدنيا متعلق به وحقيقته مفعول به، ونيام جمع نائم كقيام جمع قائم، وهو صفة لقوم، وتسلوا صفة ثانية أو حال بتقدير قد أو استئناف، والضمير في عنه راجع إلى رسول الله ﷺ، والمعنى لا يدرك حقيقة كماله صورة ومعنى قوم غافلون وهم في غفلة ساهون، قد اشتغلوا بدنياهم الدنية ورضوا لأنفسهم مقام البهيمية فهم محجوبون عن إدراك أشعة أنوار كمالاته مستورون تحت الحجب الجسمانية عن أن يشاهدوا بوارق سنا مقاماته فيفهموا معاني مفهومات مقالاته قد رضوا بالمقامات الدنية واللذات النفسانية ورفضوا المقامات العلية والفيوضات الرحمانية، فمثلهم كمثل من ترك المجاهدة في التمتع بمشاهدة جمال المحبوب وركن إلى الرقاد وتوطئة الوساد عسى أن يرى طيفه في المنام فيتلذذ بأضغاث الأحلام، وذلك منتهى سقوط الهمة.

فإن قلت: ماذا قصد الناظم بحقيقته التي أنكر أو استبعد إدراك النيام إياها، وماذا قصد بالنيام، وما عنى بالحلم والتسلي بها؟.

قلت: أنت خبير أن حمل الحقيقة على الماهية البشرية التي هي الحيوانية والنطق المشتركة بين جميع أفرادها غير ملائم للمقام، فالمراد بحقيقته التي لا يمكن إدراكها للنائم هو الهوية المختصة به ﷺ التي هو مبدأ لجميع آثارها الكمالية المختصة به التي لم يمكن لأحد من البشر مشاركته في مجموعها ولا في شيء من أفرادها على وجه المماثلة، وإن أمكن لأحد المشاركة في نوع تلك الفضيلة.

والمراد بالنوم: الغفلة الناشئة من المتعلقات الدنيوية واللذات الجسمانية التي بسببها يخيب الإنسان عن إدراك حقائق الأشياء ويمتنع عليه التحلي بحلية الأولياء والأنبياء. وما يرى في المنام هو الصور الخيالية المحاكية للماهيات الحقيقية، فمن حجب عن إدراك حقائق الموجودات ولم يدرك منها شيئاً إلا بآلة الحس من المشاعر الباطنة والظاهرة فهو إنما يرى الصور المثالية المحاكية للماهيات الحقيقية، فهو كالنائم الذي يرى في منامه الأحلام، ولذلك قال علي كرَّم الله وجهه: «الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا» وأما من تجرَّد عن التعلقات البدنية وانقطع عن اللذات الجسمانية والشهوات النفسانية وفاضت عليه أنوار العلوم العينية وظهرت في ينابيع قلبه المعارف الحقيقية فهو

يعلم الأشياء بعلم اليقين ويفهمها بحق اليقين، ويراها بعين اليقين فتظهر عليه حقائق الأشياء كما هي ويعلم أنه لا إله إلاَّ هو، وهذه هي الرتبة التي عنون عنها سيد الأولياء وخاتم الأصفياء بقوله: «لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً» فمن لم يجل مرآة بصيرته عن رين التعلقات الدنيوية ولم يحلّ عقال عاقلته بتجريدها عن العوائق البهيمية لم يدرك الكمال المخصوص بالهوية المحمدية، وليس له حظ منه إلاَّ كحظ من قنع من محبوبه بإلمام الطيف ومن تسلى عن مجاورته ومنادمته بإرسال السلام. اهـ. ثم قال رضي الله عنه:

فمبلغ العلم فيه أنه بشر وأنه خير خلق اللّه كلّهم

أي فمنتهى علم الورى فيه أنه بشر خصّه الله تعالى بالرسالة إلى خلقه. وأنه بفتح الهمزة خير خلق الله كلهم، أي خير مخلوقاته مصدر بمعنى المفعول ويفهم من قوله: كلهم، أنه أراد بالمخلوقات العقلاء لأنه ضميرهم ويدخل فيه الملائكة والإنس والجن كما هو مذهب أكثر السينين. اهـ قسطلاني.

وفي أبي السعود: مبلغ كل شيء محل بلوغه أي منتهاه، والعلم قد يطلق ويراد به المعنى المصدري، أعني الإدراك والشعور، وقد يراد به المعلوم والبشر والإنسان مترادفان، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [الكهف: الآية ١١٠] أي إنسان مماثلكم في الإنسانية والخلق هنا بمعنى المخلوق والفاء في فمبلغ للعطف وإنما حسن دخولها هنا لأن ما بعدها كالنتيجة لما قبلها. وفيه إما مجرور المحل على الوصفية أي مبلغ العلم الكائن فيه، أو حال أي كائناً فيه فيكون من قبيل قوله تعالى: ﴿مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًاۖ﴾ [البقرة: الآية ١٣٥] أو جملة أنه بشر خبراً لمبتدأ أعني مبلغ العلم.

والمعنى: لما لم يتيسر لمن لم يتجرد عن الغواشي البشرية والمواد الجسمانية الاطلاع على كمال الحضرة النبوية والحقيقة المصطفوية، وكانت الأمة التي وصفها الله تعالى في كتابه بـ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١١٠] بسبب كونها أمة خير الأنبياء وسيدهم مكلفين بمعرفته لأنهم مكلفون بمحبته ومتابعته وهما لا يمكنان بدون المعرفة ولا يجوز التكليف بما لا يمكن بين الناظم ما هو الممكن من معرفته التي يجب على كل أحد أن يعرفه من تلك الجهة فذكر أولاً القدر المشترك بينه وبين أفراد بني آدم وهو كونه بشراً، وكفى هذا النوع فضلاً وفخراً أنه ﷺ فرد منه مع أنه قد حاز أي هذا النوع من الفضل والكمال خصائص بها امتاز عن سائر المخلوقات وجميع الكائنات حتى تفرد بحمل الأمانة التي عجز عن حملها السماوات والأرض واستعد لقبول الخلافة التي قصر عن قبائها قدّ كل ذي قدّ، وذلك لما فيه من الجامعية من حيث إنه مظهر لجميع التجليات الأسمائية والصفاتية والأفعالية، وهو سرّ الله المكنون وما من مظهر من

المظاهر الجمالية والجلالية إلاَّ وهو فيه مخزون ومصون. اهـ.

وفي النفحات: قال في المواهب: إن الله لما خلق آدم ألهمه أن قال: يا رب لِمَ كنيتَني أبا محمد، قال الله تعالى: يا آدم ارفع رأسك، فرفع رأسه فرأى نور محمد في سرادق العرش فقال: يا رب ما هذا النور، قال: هذا نور نبي من ذريتك اسمه في السماء أحمد وفي الأرض محمد لولاه ما خلقتك ولا خلقت سماءً ولا أرضاً. ولله درّ القائل، أي حيث ضمَّن نظمه هذا الحديث حاكياً عن آدم فقال:

وكان لدى الفردوس في زمن الصبا ... وأثواب شمل الأنس محكمة السدى
يشاهد في عدن ضياء مشعشعاً ... يزيد على الأنوار في الضوء والهدى
فقال إلٰهي ما الضياء الذي أرى ... جنود السما تعشو إليه تردّدا
فقال نبي خير من وطىء الثرى ... وأفضل مَن في الخير راح أو اغتدى
تخيّرته من قبل خلقك سيّداً ... وألبسته قبل النبيين سؤددا
وأعددته يوم القيامة شافعاً ... مطاعاً إذا ما الغير حاد وحيدا
فيشفع في إنقاذ كل موحد ... ويدخله جنات عدن مخلدا
وأن له أسماء سمَّيته بها ... ولكنني أحببت منها محمدا
فقال إلٰهي منن عليَّ بتوبة ... تكون على غسل الخطيئة مسعدا
بحرمة هذا الاسم والزلفة التي ... خصصت بها دون الخليقة أحمدا
أقلني عثاري يا إلٰهي فإن لي ... عدواً لعيناً جار في القصد واعتدى
فتاب عليه ربه وحماه من ... جناية ما أخطأه لا متعمدا

قال شارحه الإمام الزرقاني: وضمير كان لدى الفردوس لآدم حين كان في الجنة قبل نزوله إلى الأرض حال سروره وتمام أنسه، ولذا قال: وأثواب شمل الأنس الخ، وقوله: راح أو اغتدى، بالغين والدال من الغدو مقابل الرواح، فتحصل لك من هذا كله أنه سيد المخلوقات أجمع من أنس وجن وملك بشهادة ما تقدَّم ذكره وانعقد الإجماع عليه من الأمة المحمدية ولا عبرة بما وقع من بعض أهل الاعتزال من تفضيل جبريل، فإنّ ذلك لا يقدح في الإجماع.

قال قطب العارفين الإمام الشعراني عن صفوة الأولياء المحبين والمحبوبين سيدي محمد وفى قال: وقع بيني وبين شخص من الجامع الأزهر مجادلة في قول صاحب البردة رحمه الله:

فمبلغ العلم فيه أنه بشر ... وأنه خير خلق اللّٰه كلهم

فقال لي: ليس له دليل على ذلك، فقلت: قد انعقد الإجماع على ذلك. فلم يرجع، فرأيت النبي ﷺ ومعه أبو بكر وعمر جالساً عند منبر الجامع الأزهر فقال لي: مرحباً بحبيبنا، ثم قال لأصحابه: أتدرون ما حدث اليوم، قالوا: لا يا رسول الله، فقال: إن فلاناً التعيس يعتقد أن الملائكة أفضل مني، فقالوا بأجمعهم: لا يا رسول الله ما على وجه الأرض أفضل منك، فقال لهم: فما بال التعيس الذي لا يعيش وإن عاش عاش ذليلاً خمولاً مضيقاً عليه خامل الذكر في الدنيا والآخرة يعتقد أن الإجماع لم يقع على تفضيلي، أما علم أن مخالفة المعتزلة لأهل السنَّة لا تقدح في الإجماع.

ثم قال الأستاذ عبارة ما أكملها وما أجملها عن العارف الوفائي أيضاً. قال: رأيت رسول الله ﷺ فقال لي عن نفسه الشريفة: لست بميت وإنما موتي عبارة عن تستري عمن لا يفقه عن الله وأما من يفقه عن الله فها أنا أراه ويراني. اهـ لفظه من الطبقات الكبرى. جعلنا الله بجاهه على ربه من أهل وداده الذائقين لذيذ شرابه بجاه آله وصحبه وأحبابه. ثم قال رضي الله عنه:

وكل آي أتى الرُّسل الكرام بها   فإنما اتصلت من نوره بهم

أي وكل معجزات أتى الرُّسل الكرام بها فإنما اتصلت تلك المعجزات من نوره ﷺ بهم فإن نوره ﷺ كان مخلوقاً قبل آدم عليه الصلاة والسلام وانتقل إليه ثم إلى الأصلاب إلى أن تحمل الأمهات فينتقل إليهن. ولم يقل: فإنما هي من نوره لأن قوله: اتصلت من نوره بهم يعطي أنّ نوره لم يزل قائماً به ولم ينتقص منه شيء بخلاف فإنما هي من نوره فإنه يوهم أنه وزع عليهم وقد لا يبقى له منه شيء فاحترز عنه بقوله: اتصلت من نوره بهم. اهـ قسطلاني.

وفي أبي السعود: الآي جمع آية، وهي العلامة، وإنما أطلقت الآية على الجملة التامة من القرآن لكونها علامة على صدق الآتي بها وعلى عجز المعارض عند التحدي بها، والرُّسل جمع رسول، وكل مبتدأ، وإنما مع ما في حيزه خبره، وإنما صح دخول الفاء في الخبر لأن المبتدأ متضمن لمعنى الشرط لكونه نكرة موصوفة، والباء في بها يجوز أن تكون للتعدية وأن تكون للمصاحبة كقولك: دخلت عليه بثياب السفر، فيكون الجار والمجرور في محل النصب على الحال والضمير في بها عائد إلى الآي وإنما للحصر لأنها بمعنى ما، وإلاّ كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ [المَائدة: الآية ٥٥] ومن لابتداء الغاية والجار متعلق باتصلت والضمير المستكن باتصلت عائد إلى الآي والباء في بهم صلة للاتصال فإنه لا يتعدى إلاَّ بها ويجوز أن تكون بمعنى إلى كقوله تعالى: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ﴾ [يُوسُف: الآية ١٠٠].

فيكون المعنى: إن ابتداء اتصال تلك الآي منه وانتهاءه إليهم، وظنّ بعض أنه لا

بد من حملها على معنى إلى لوجود وقوعها مقابل من الابتدائية وليس الأمر كذلك فإنها قد تجيء لمجرد الابتداء من غير ملاحظة معنى الانتهاء، كقول المستعيذ: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

والمعنى: أن جميع ما أفاضه الله سبحانه وتعالى على جميع الأنبياء والمرسلين الذين هم وسايط بين الجناب الأقدس والعالم المادّي المؤنس من أنوار المعارف الحقيقية والأضواء الإلهية من المعجزات الباهرات والدلائل البينات والأحكام والحكم والآيات إنما هو بتوسط هذا الحبيب الذي لولاه لما كانت المكونات ولم يخلق الله الموجودات، فكل فيض يفيض من المبدأ الفياض إنما هو ناشيء من دولته وحاصل بسبب حبه ومحبته فهو واسطة عقد الوجود وهو الحدّ الأوسط الواقع في طرف مقدمتي نتيجة الكرم والجود فكل موجود بجود وجوده موجود لولاه ما نجم ظهر ولا اخضر عود اهـ.

وفي كتابنا النفحات النبوية: نقلاً عن المواهب اللدنية مما يناسب هذا المقام ولنذكره تبركاً بذكر محاسن المحبوب الآخذ باليد في وقت الشدائد والخطوب ما نصه. وفي رواية: أن الله لما خلق نور نبينا ﷺ أمره أن ينظر إلى نور الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فغشيهم من نوره ما أنطقهم الله به وقالوا: يا ربنا من غشينا نوره، فقال الله تعالى: هذا نور محمد بن عبد الله إن آمنتم به جعلتكم أنبياء، قالوا: آمنا به وبنبوّته، فقال الله تعالى: أشهد عليكم، فقالوا: نعم، فذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [آل عمران: الآية ٨١] الآية.

قال سيد أهل التحقيق الشيخ تقي الدين السبكي: وفي هذه الآية الشريفة من التنويه بالنبي ﷺ وتعظيم قدره العظيم ما لا يخفى وفيه مع ذلك أنه على تقدير مجيئه في زمانهم يكون مرسلاً إليهم فتكون النبوّة والرسالة عامة لجميع الخلق من زمن آدم إلى يوم القيامة وتكون الأنبياء وأممهم كلهم من أمته. ويكون قوله: «وبعثت إلى الناس كافة»[١]، لا يختص به الناس من زمانه إلى يوم القيامة بل يتناول من قبلهم، وتبين بهذا معنى قوله ﷺ: «كنت نبياً وآدم بين الروح والجسد».

ثم قال: فإذا عرف هذا فالنبي ﷺ نبيّ الأنبياء ولهذا ظهر ذلك في الآخرة لأن جميع الأنبياء تحت لوائه وفي الدنيا كذلك ليلة الإسراء صلّى بهم إماماً ولو اتفق مجيئه في زمن آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى صلوات الله وسلامه عليهم وجب عليهم وعلى أممهم الإيمان به، وبذلك أخذ الله تعالى الميثاق عليهم اهـ.

(١) رواه مسلم (٤/ ٢١١٦)، وأبو داود (٤/ ١٦٠).

وفي رواية له أيضاً في حديث سلمان عند ابن عساكر قال: هبط جبريل على النبي ﷺ فقال: إن ربك يقول: «إن كنت اتخذت إبراهيم خليلاً فقد اتخذتك حبيباً وما خلقت خلقاً أكرم عليَّ منك، ولقد خلقت الجنة وأهلها لأعرفهم كرامتك ومنزلتك عندي ولولاك ما خلقت الدنيا».

وما أحسن قول سيدي علي وفى سلطان العارفين وقطب الواصلين تولهاً وتهنئة لنفسه ببلوغ الوصال بحضرة سيد الأنام عليه الصلاة والسلام:

سكن الفؤاد فعش هنيئاً يا جسد ... هذا النعيم هو المقيم إلى الأبد

أصبحت في كنف الحبيب ومن يكن ... جار الحبيب فعيشه العيش الرغد

عش في أمان اللّه تحت لوائه ... لا خوف في هذا الجناب ولا نكد

لا تخش من فقر وعندك بيت من ... كل المنى لك من أياديه مدد

رب الجمال ومرسل الجدوى ومن ... هو في المحاسن كلها فرد أحد

قطب النهى غيث العوالم كلها ... أعلى عليَّ فهو أحمد من حمد

روح الوجود حياة من هو واجد ... لولاه ما تمَّ الوجود لمن وجد

عيسى وآدم والصدور جميعهم ... هم أعين هو نورها لما ورد

إلى أن قال:

فابشر بمن سكن الجوانح منك يا ... أنا قد ملأت من المنى عيناً ويد

قال شارحها سيدي محمد الزرقاني: وقول العارف:

روح الوجود حياة من هو واجد

أي هو ﷺ سبب لحياة من وجدهم من الخلق، أي علمهم من الخلق موجودين. اهـ. ثم استدل رضي الله عنه على ما تقدم بقوله:

فإنه شمس فضل هم كواكبها ... يظهرن أنوارها للناس في الظلم

أي لأنه ﷺ شمس فضل هم عليه وعليهم أفضل الصلاة وأزكى السلام كواكبها، كما يظهرن، أي تلك الكواكب أنوارها، أي أنوار تلك الشمس التي هي كناية عنه ﷺ في الظلم، أي حالة غلبة عمى الجهل وظلمة الكفر. ووجه هذا التشبيه أن الكواكب على ما تقرّر في علم الهيئة أجرام غير مضيئة بذاتها ولكنها صقيلة تقبل الضوء، وجرم الشمس أكبر من الأرض، فهي إذا كانت تحتها حالة غيبة جرمها يفيض نورها عن جوانب الأرض فيطلب الصعود لكونه نورانياً يطلب مركز العلو فيصادف أجسام الكواكب الصقيلة المقابلة له فيرتسم فيها فتضيء في الظلمة وتظهر أنوار الشمس فيها للناس من غير أن

ينقص من نور الشمس شيء، فجميع أنوار الكواكب إنما هو من نور الشمس، فلذلك شبَّه نور رسول الله ﷺ بنور الشمس، وما ظهر على يدي الرسل سواه من الأنوار فإنما هو من نوره الفائض من غير أن ينقص من نوره شيء، وهذا التشبيه لعل الناظم رحمه الله تعالى أخذه من قول النابغة:

ألم تر أن اللّه أعطاك صورة ترى كل ملك دونها يتذبذب

فإنك شمس والملوك كواكب إذا طلعت لم يبد منهنَّ كوكب

فإن قيل: إنه ﷺ متأخر الوجود عنهم ونور كل منهم متقدم عليه، فكيف تكون أنوارهم من نوره؟.

فالجواب: إن نوره متقدّم وإن تأخر وجود ذاته، وكما أن الشمس إذا بدت لم يبق أثر للكواكب وإنما يظهر أثرها حال غيبتها وهو حال الظلام، فكذلك آياته ﷺ وشريعته لما بدت نسخت غيرها من سائر الشرائع.

ويزعم أهل الهيئة أن أصغر كوكب تراه بمقدار الأرض ثمان مرات وأكبرها بمقدارها عشرين مرة، وهذا مما يحتاج إلى التوقيف إذ أدلتهم في هذا الباب الحزر والتخمين والله تعالى أعلم. اهـ قسطلاني.

وفي أبي السعود: الشمس كوكب نهاري يوجد في النهار، واستعمال لفظ الشمس فيه ﷺ استعارة، أي على مذهب السعد ووجه الشبه ما أمليته عليك، والفضل لله بمعنى الإفضال، كقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ۝٤﴾ [الجُمُعَة: الآية ٤]، ولغيره بمعنى الكمال الذي لا يتعدى إلى الغير، والفاضلة والفضيلة ما يتعدى إلى الغير، والفضل يجمع على الفضائل والفاضلة تجمع على الفواضل. قال الشاعر:

إن الفضائل والفواضل بدؤها من بدنكم وإليكم ستعود

والكواكب تشمل الشمس وغيرها، والسيارة سبعة، والبواقي ثوابت، والشمس مضيئة بالذات، والقمر نوره مستفاد من ضوء الشمس، والبواقي دراري، والفاء للتعليل، والإضافة في شمس فضل بمعنى من إن كان الفضل بمعنى الكمال والتنوين في فضل للتعظيم وهم كواكبها مبتدأ وخبر، والجملة صفة للشمس أو استئناف ويظهرن أنوارها إما صفة للشمس أو استئناف، ويظهرن يجوز أن يكون بفتح الياء من الظهور فيكون الإسناد مجازياً أي يظهر الله أنوارها، ويجوز أن يكون بضمها من الإظهار فتنصب أنوارها على المفعولية ويكون الفاعل ضميراً مستتراً عائداً إلى الكواكب، والإسناد حينئذ أيضاً مجازي، وفي الظلم يجوز أن يكون متعلقاً بيظهر ويجوز أن يكون مستقرّاً في محل النصب على الحال من الناس وهو الأحسن والأولى، أي يظهرن للناس حال كون الناس في الظلم.

والمعنى: تعليل كون جميع الآيات للأنبياء والمعجزات للمرسلين مقتبسة من نوره وأنه قطب دائرة كمالهم وأصل دوحة فضلهم وإفضالهم بأنه ﷺ هو شمس فلك فضلهم وكمالهم وأنه هو الشمس الذي تفضل عليهم فأشرقت به قلوبهم وأضاءت به سرائرهم وانشرحت به صدورهم، وفاضت به عليهم المعارف الإلٰهية، وظهرت لهم الأسرار الربانية، فهم مستمدّون من نمير فضله، مقتبسون من نير نوره اقتباس الأقمار المنيرة والبدور المستنيرة من الشمس، أو بأن نسبتهم إليه ﷺ كنسبة سائر الكواكب إلى الشمس فكما أنه لم يظهر نورها إلاّ عند احتجاب الشمس تحت الأفق فإذا بزغت من تحت حجب الأستار انهزم عسكر الظلام عند تجلي ثغر النهار، أفلت الكواكب وذهب نورها. فكذلك هداية سائر الأنبياء والمرسلين وأحكام سائر الشرائع والملل من الأولين إنما كانت ظاهرة عند احتجاب شمس فلك النبوّة في علم الملك الحق المبين، فلما أشرقت أشعة أنوار حبيب رب العالمين على مشارق السماوات ومشارق الأرضين نسخت جميع الملل والأديان وعاد دور دائرة الشمس إلى ما كان.

فإن قلت: لم خص ظهور الأنوار بكونه للناس على أن فائدة الرسل عامة؟.

قلت: لما عنى من الأنوار العلوم الشرعية والأحكام الدينية والمعارف اليقينية كما أنه عنى بالظلم الجهالات الشيطانية والضلالات الوسواسية والعادات العادية والطرائق الابتداعية كانت فائدة ظهور ذلك النور بالنسبة إلى الناس أتم وأكمل وأعم وأفضل فخصوا بالذكر لمزيد اختصاصهم بتلك الفائدة، ولما كان الجهل يجعل صاحبه كمن يمشي في الظلمة فلا يأمن على نفسه من الهويّ في مهاوي الضلال والبوار ومزالق المهالك والتبار، كمن يمشي في الظلمة فإنه لا يأمن أن يسقط في الآبار وأن يُطرح في الأنهار، شبه الجهل بالظلمة، فلزم أن يشبه العلم بالنور. ومنه قول القاضي التنوخي:

وكأن النجوم بين دجاها ... سنن لاح بينهن ابتداع

ثم أخذ الناظم رحمه الله تعالى يذكر بعض ما اتصف به مما أوجب له الحكم بأنه خير خلق الله، فقال:

أكرم بخلق نبي زانه خلق ... بالحسن مشتمل بالبشر متسم

فقوله: أكرم، صيغة أمر، ومعناه: التعجب بخلق بفتح الخاء المعجمة، أي بصورة نبي موصوفة بأنها شمس فضل، زانه أي زان ذلك النبي المشبّه به أو زان ذلك الخلق خلق بالحسن مشتمل بالبشر متسم كأنه صار الحسن له كالثوب فهو مشتمل به ومتسم بالبشر أي معلم بطلاقة الوجه، قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القَلَم: الآية ٤] اهـ قسطلاني.

وفي أبي السعود: أكرم مشهور الاستعمال فيما يقابل البخل، والمراد به: صفة

باعثة على بذل المال مع بشاشة وطلاقة من غير انقباض وبه عنى من وصفه ﷺ بقوله:

له راحة لو أن معشار عشرها على البرّ صار البرّ أندى من البحر

وقد يطلق ويراد به الشرف في النسب، ومنه قوله ﷺ: «الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحٰق بن إبراهيم» ومنه قول الشاعر:

كريم متى أمدحه أمدحه والورى معي وإذا ما لمته لمته وحدي

والخلق بفتح الخاء المعجمة في الأصل مصدر، وقد يستعمل بمعنى اسم المفعول وقد يطلق ويراد به الخلقة والهيئة، ومنه قولهم: فلان سويّ الخلق، وهذا المعنى هو الملائم للمقام، وزان بمعنى زين من الزينة والحسن في الصورة تناسب الأعضاء، ومنه قوله ﷺ: «رحم الله أخي يوسف هو أحسن وأنا أملح» اهـ.

وفي كتابنا إرشاد المريد مما يناسب المقام قوله ﷺ: «أعطي يوسف شطر الحسن وأعطيت الحسن كله»، وإنما لم يفتتن بجماله عليه الصلاة والسلام وافتتن بحسن يوسف لأن جماله ﷺ كان مغطى بالجلال، ولذا قال سلطان العاشقين ابن الفارض رضي الله عنه:

بجمال سترته بجلال هام واستعذب العذاب هنا كا

وفي المواهب اللدنية نقلاً عن سلطان العارفين سيدي علي وفا:

سبحان من أنشأه من سبحاته بشراً بأسرار الغيوب يبشر

قاسوه جهلاً بالغزال تغزُّلاً هيهات يشبهه الغزال الأحور

هذا وحقك ما له من مشبَّه وأرى المشبَّه بالغزالة يكفر

يأتي عظيم الجهل في تشبيهه لولا لرب جماله يستغفر

فعلى جمالك بالجمال جلالة فيها لأهل الكشف سر مضمر

اهـ. والبشر: طلاقة الوجه وهو مأخوذ من تغير البشرة بالسرور والبشاشة، والاتسام: الاتصاف من السمة بمعنى العلامة، ومنه قوله تعالى: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم﴾ [الفتح: الآية ٢٩] وأكرم بخلق صيغة تعجب كقولك: أحسن بزيد، والمجرور فاعل في الأصل عند سيبويه فلا ضمير في أفعل وأصله أحسن زيد أي صار ذا حسن، والباء زائدة وفيه شذوذ من وجهين، زيادة الباء في الفاعل واستعمال الأمر بمعنى الماضي، فالأحسن أن يذهب فيه إلى مذهب الأخفش بأن يجعل المجرور مفعولاً في الأصل والباء للتعدية أو زائدة كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: الآية ١٩٥].

والمعنى: اجعل زيداً حسناً، وقيل: بمعنى صار ذا حسن، هكذا قيل وفيه نظر.

وإضافة الخلق إلى النبيّ من إضافة الصفة إلى الموصوف على التأويل المعلوم في كتب النحو أو من إضافة البنية إلى صاحبها، والتنوين في نبي للتعظيم وجملة زانه خلق في محل الجر على الوصفية لنبي أو خلق ومشتمل صفة بعد صفة، وبالحسن متعلق به، وكذلك قوله: بالبشر متسم وإنما قدّم معمول اسمي الفاعل عليهما طلباً لقصر القلب أي مشتمل على الحسن لا غير ومتسم بالبر وبالبُشر لا بما يقابلهما. وقوله: مشتمل بالحسن ناظر إلى الخلق بفتح الخاء ومتسم بالبشر ناظر إلى الخلق بضمها.

والمعنى: التعجب من كمال جمال حسن صورة هذا النبي الكريم ومن تزيين ذلك الحسن التام بكونه على خلق عظيم، فإن الحسن الصوري ما لم يزين بالكمال المعنوي لم يتم، والجمال العنصري إذا لم يؤيد بالإحسان الروحاني لا يكمل، كذلك مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم ما لم تتردّ برداء الحسن البهيّ وما لم تتجلبب بجلباب الجمال السوي لم تبرز على منصة الظهور ولم تصر مظهراً لتجليات النور، ولذلك اجتبى من جلّت قدرته وظهرت حكمته وعلت كلمته حبيباً قد زيِّن صورته بمكارم الأخلاق وتمّم معناه بحسن الصورة وطيب الأعراق فلم تغرس يد القدرة في بستان الخلقة على شاطىء الحكمة شجرة أعدل منه قواماً، ولم تغرز يمين الرحمٰن في حدائق العرفان على نهر التبيان دوحة ورد يترنم عليها بلبل البيان أفصح منه كلاماً، فخلقه من عنصر قد عجنت طينته بماء الملاحة ومن استقصّ قد روّح روحه ببهاء الصباحة وزيَّن ذلك العنصر بروح قد أديرت عليها كؤوس راح المحبة من راحات أيمن أرواح القدس على بساط الأنس ومن وراء حجب الزمان والمكان فكان نوراً تفيض عليه عنايات الله نور السماوات والأرض تدور مع ذلك النور كيفما وأينما كان حتى ظهر لهذه الأمة في أبهى صورة وأحسن مثال وأزكى معنى وأتم كمال قد اشتمل على جميع نكات الحسن والجمال واتسم بمجامع لطائف الفضل والكمال. اهـ. ثم قال رضي الله عنه:

كالزهر في ترف والبدر في شرف ... والبحر في كرم والدهر في همم

أي فخلقه ﷺ الذي هو ذاته الشريفة كالزهر في ترف، أي تنعم ونضارة جسم وطيب رائحة، وهذه صفة الأزهار غضة الجسم رطبة طيبة الرائحة ويزيد نور النارنج بياض اللون الذي ليس بالأمهق كما هو بياض نبينا ﷺ. وفي هذا إشارة إلى أنه لا عبرة بمجرد حسن الصورة وجمالها بدون أن يصحبها الخلق الجميل كما لا يضر قبح الصورة مع الفعل الجميل «إن الله لا ينظر صوركم ولا إلى أجسامكم إنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»، والبدر في شرف أي وذاته أيضاً في الشرف وحسن البهجة كالبدر وهذان الوصفان يرجعان إلى الصورة والخلق المشتمل على الحسن والبدر: القمر عند تمامه وهو يدور البروج الاثني عشر ويقطع الفلك كله في مدّة ثمانية وعشرين يوماً وبعض يوم، ويقيم في كل برج يومين وثلث يوم بالتقريب، ويقيم في كل منزلة من منازل القمر الثمانية

والعشرين منزلة يوماً وليلة ويظهر عند إهلاله من ناحية الغرب بعد غروب جرم الشمس ويزيد نوره في كل ليلة قدر نصف سبع الليل حتى يكمل نوره ويمتلىء في ليلة الرابع عشر من إهلاله، ثم يأخذ من الليلة الخامسة عشرة في النقصان فينقص من نوره في كل ليلة نصف سبع كما بدأ إلى أن ينمحق نوره في آخر ثمانية وعشرين يوماً من إهلاله.

والبحر في كرم، والدهر في همم جمع همة وهي الإرادة، وهذان الوصفان يرجعان إلى خلقه الكريم ولا خفاء بكرم البحر، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ [النحل: الآية ١٤] الآية. وهذا من كرم البحر، فما بالك بكرم من البحر نقطة من جوده والأحاديث الدالة على كرمه ﷺ كثيرة لا نطيل بذكرها، وحسبك قول القائل: إن محمداً ﷺ يعطي عطاء من لا يخشى الفقر.

ووجه التشبيه بالدهر أن الحادثات الدقيقة والجليلة إنما تقع في الدهر فنسبوها إليه، فالجاهل يسند الفعل إليه، والموحد المؤمن يعتقد أن المؤثر في جميع الكائنات هو الله تعالى، فإذا أسند الفعل إلى الدهر فعلى سبيل المجاز لأنه واقع فيه وهذا نحو قوله: «نهاره صائم وليله قائم» أسند الصوم إلى النهار والقيام إلى الليل مجازاً لوقوعهما فيهما.

ومن نسبة الهمَّة إلى الدهر قول معاوية رضي الله تعالى عنه: نحن الزمان من رفعناه ارتفع ومن وضعناه اتضع.

ولا همَّة أرفع من همَّة من فضَّله الله عز وجل على سائر المخلوقات على اختلاف أنواعها، فهو العالي الهمَّة في الدنيا والآخرة ﷺ وعلى آله وصحبه وسلم. اهـ قسطلاني.

وفي أبي السعود: الزهر بسكون الهاء وفتحها هو نور الشجر والزهرة بالضم البياض وبها سمي حيّ من قريش يقال لهم بنو زهرة، وهم الذين ادعوا خؤولة النبي ﷺ لأن أمه ﷺ كانت منهم لا أن أمه كان لها أخ منهم كما أفاده المسعودي.

يقال: رجل أزهر، أي أبيض مشرب اللون ذو وضاء. ومنه سميت سيدة نساء العالمين بالزهراء لزهرتها صورة ومعنى حسباً ونسباً، والترف المراد به هنا النعومة والدهر الزمان، وقيل الزمان الطويل.

وأما ما ورد «لا تسبوا الدهر فإن الدهر هو الله»، وفي رواية: «فإن الله هو الدهر» فقد قيل: إن الدهر اسم من أسماء الله تعالى، وفي بعض الأدعية: «يا دهريّ». وقيل أن العرب كانت تضيف الحوادث إلى الدهر.

قال أبو ذئب الهذلي:

أمن المنون وريبه تتوجع ... والدهر ليس بمعتب من يجزع

والمنون الدهر، فالمعنى: أن الله هو الذي يصيبكم بالمصائب ويأتيكم بالنوائب كما روى الزهري عن ابن المسيب عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «قال الله تعالى: يؤذيني ابن آدم يسب الدهر وأنا الدهر، بيدي أقلب الليل والنهار»[١].

والهمم جمع همة، وهي فعلة من الهم بمعنى القصد، وهي في الاصطلاح عبارة عن صيغة تبعث صاحبها على طلب معالي الأمور وتحجزه عن الميل إلى سفسافها مع عدم المبالاة في ارتكاب المشاق. وقوله: كالزهر خبر مبتدأ محذوف أي هو كالزهر، والجملة في محل جر صفة لنبي ويجوز أن يكون منصوباً بتقدير، أعني والأولى جعل هذا التشبيه من قبيل قول الشاعر:

وبدا الصباح كأن غرّته ... وجه الخليفة حين يمتدح

فإن وجه الشبه هنا في التشبيهات الأربع في المشبه أتم وأكمل من المشبه به، ولقد أحسن من قال في مدحه ﷺ:

له راحة لو أن معشار عشرها ... على البر كان البر أندى من البحر

له همم لا منتهى لكبارها ... وهمّته الصغرى أجلّ من الدهر

والمعنى: لما وصف خلقه وخلقه بأنهما جديران بأن يتعجب منهما لكونهما قد خرجا عن كونهما من أوصاف البشر فكانا من خوارق العادات، وجلا عن أن يتصف بمثلهما غيره من أحد من السادات، أبرز بعضاً من الصفات الخلقية والخلقية في معرض التشبيه تفهيماً لمن رام أن يرنو إلى شيء منهما بعين الاعتبار وتسهيلاً لمن قصد أن يرمق إلى بعض منهما ببصيرة الاختبار، فشبه أولاً صورته بالبدر المنير إذا كان في وسط السماء في كون كل منهما يضيء حنادس الظلماء وتشرق به دياجي الليلة البهماء، فمن نور جبينه الأزهر وضوء وجهه الأقمر انجلت غياهب دياجي الجهالات وظهرت أنوار بوارق الكمالات. وثانياً بالورد الجني، والزهر الطري في طيب الرائحة ونعومة الملمس والطهارة من كل درن ودنس وهذان التشبيهان يتعلقان ببيان بعض الأوصاف الخلقية.

ثم شرع في بعض الصفات الخلقية فشبهه في الكرم بالبحر لعموم النفع فإنه لم يرد شريعة كماله وارد إلاَّ انتفع منه الغليل وانتفع منه بالكثير الجزيل فضلاً عن القليل الضئيل، وفي علوّ الهمة بالدهر فإنه لم يدع في العلياء مقاماً إلاَّ قد صيّره وراء ظهره ولم يذر في المكارم منزلاً إلاَّ وقد نزله بأهله ورهطه.

هذا ويجوز أن يكون وجه الشبه بينه وبين البدر مركباً من حسن الطلعة ووضاءة المنظر ونباهة الشأن وارتفاع المكان، فلا يختص ذلك التشبيه ببيان شأنه في الوصف

(١) رواه البخاري (٤/ ١٨٢٥)، (٥/ ٢٢٨٦)، ومسلم (٤/ ١٧٦٢).

الخلقي بل قد يشتمل أيضاً على الوصف الخلقي من حيث يقصد أن مرتبته في الكمال متعالية عن أن يصل إليها أحد من أرباب الهمم العالية. قال الشاعر:

هي الشمس مسكنها في السماء فعز الفؤاد العزاء الجميلا

فلن تستطيع إليها الصعود ولن تستطيع إليك النزولا

اهـ. ثم قال رضي الله عنه:

كأنه وهو فرد من جلالته في عسكر حين تلقاه وفي حشم

قوله: وهو فرد أي وحده، ويروى في جلالته بفي الظرفية، فأما على رواية من فالمعنى على التعليل وعاملها العامل في كأن وهو في عسكر أو التشبيه. وقوله: وهو فرد على هذا جملة حالية، وأما على رواية في فإن جعلتها سببية نحو: لمسكم فيما أفضتم فيه. فالمعنى سواء، وإن جعلتها للظرفية وعلقتها بالتشبيه على أن يكون القصد بذكرهما وجه التشبيه فالمعنى أيضاً متحد وإن علقتها بفرد وجعلتها صفة له فالمعنى أنه منفرد بالجلالة.

وقوله: وهو فرد في جلالته، جملة اعتراض أفادت ذلك المعنى من جلالته، أي من أجل جلالته التي قامت به في عسكر، أي جيش عظيم حين تلقاه وفي حشم أي خدمته الخاصين به.

قيل: قوله: حين تلقاه، من الحشو لتمام الوزن والظاهر أنه أراد به ما رواه علي رضي الله عنه من قوله: «من رآه بديهة هابه ومن خالطه معرفة أحبه». فقوله: حين تلقاه، كقوله: من رآه بديهة. اهـ قسطلاني.

وفي أبي السعود: الفرد الوتر، إن الله وتر يحب الوتر، أي فرد. ويجمع على أفراد، والفريدة هي اللؤلؤة التي لا نظير لها من أخواتها، ويقال لها: اليتيمة، والجلالة: العظمة والجليل من أسمائه تعالى المنعوت بنعوت الجلال وهو من الصفات القدسية أي التنزيهية كالقدّوس، والحشم الخدم، وحشم الرجل: قرابته وعياله ومن يغضب له إذا أصابه أمر. قال الشاعر:

لا عيب فيهم سوى أن التنزيل بهم يسلو عن الأهل والأوطان والحشم

وفي بعض نسخ القصيدة موضع وفي حشم وفي بهم جمع بهمة وهو الفارس القوي، وفي بعض النسخ في موضع في من، فيكون حينئذ متعلقاً بكائن المقدر في في عسكر، وتكون من بمعنى الباء التي للسببية أي كأنه كائناً في عسكر حالة كونه فرداً بسبب جلالته وعظمته وفي عسكر متعلق بمقدر وهو خبر كأنّ أي كأنه كائن في عسكر.

والمعنى: بعد أن بيَّن جمال صورته وكمال معناه شرع في هذا البيت ليبيِّن كمال

مهابته ووفور أهبته، فشبهه في حالة ملاقاته وهو فرد غير محفوف بالأنصار والأعوان ولا محدودق بالفرسان والشجعان بحالة كونه قد أحدقت به ليوث المعارك واحتفّت به أسد الوقائع مشيراً إلى أن أوصافه الكمالية ونعوته الجلالية في أحداق المهابة في قلوب الخصوم والفرق في روح الأعداء قائمة مقام عسكر قد ملأ وجه الأرض وطبق طولها والعرض، ووقوع هيبته في القلوب وغناؤها غناء الخميس في الخطوب في مرتبة الوضوح والجلاء أظهر من ذكاء وأوضح انجلاء.

وقد نقل عنه ﷺ مما يؤيد هذا المعنى ما هو مشتمل على كثرة لا تحصى، منها: أنه قيل للبراء: أفررتم يوم حنين؟ فقال: لا والله ما ولّى رسول الله ﷺ ولكن خرج شبان أصحابه ليس عليهم كثير سلاح فلقوا قوماً رماة لا يكاد يسقط لهم سهم فرشقوهم رشقاً ما كادوا يخطئون فأقبلوا هناك إلى رسول الله ﷺ ورسول الله ﷺ على بغلته البيضاء وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب يقوده فنزل واستنصر وقال:

«أنا النبيّ لا كَذِب ... أنا ابن عبد المطلب»

ثم صفهم، ثم قال البراء: كنا والله إذا أحرّ البأس نتقي برسول الله ﷺ وإن الشجاع منا للذي يحاذيه ﷺ. اهـ وسيأتي تكميل هذه القصة في محلها إن شاء الله تعالى. ثم قال رضي الله عنه:

كأنما اللؤلؤ المكنون في صدف ... من معدني منطق منه ومبتسم

قوله: المكنون أي المصون، من معدني بكسر الدال وفتح النون وسكون الياء منطق منه ومبتسم بالفتح موضع الابتسام والتبسم كما قال الجوهري رحمه الله تعالى: هو دون الضحك. شبه ألفاظه ﷺ التي ينطق بها في فصاحتها وحلاوتها واحتوائها على المعاني النفيسة لكونها ألفاظ من أوتي جوامع الكلم وشبه ثغره أيضاً وهو ما يبدو من ثناياه وأسنانه عند التبسم في حسنه وتناسبه وصفائه وبياضه باللؤلؤ وهو الدر المسمى بالجوهر المصون في أصدافه وهو المحارة التي يتولّد فيها وعاء له تحفظه من التغيُّر حتى تنشقّ عنه كما أن القلب وعاء الكلام النفسي حتى يبرزه اللسان، وكما أن انضمام الشفتين على الثغر كالوعاء له، وعند التبسُّم يبرز.

ومعنى البيت: كأن اللؤلؤ الذي كان مصوناً في صدفه يخرج من معدنين من معادنه ﷺ أحدهما معدن كلماته، والثاني معدن ابتسامه. أما فصاحة لسانه وبلاغة قوله فقد كان ﷺ من ذلك بالمحل الأفضل والموضع الذي لا يجهل، وحسبك قول بعض أصحابه له: ما رأينا الذي هو أفصح منك، فقال: «وما يمنعني وإنما نزل القرآن بلسان عربي مبين».

ومن التشبيه باللؤلؤ الذي قصده الناظم ما في حديث أمّ معبد رضي الله تعالى عنها: كان ﷺ حلو المنطق فصلاً لا نزراً ولا هذراً، كأن منطقه خرزات نظمن، وكان

جهير الصوت ﷺ كثيراً».

وأما تشبيه مبسمه باللؤلؤ فمن ذلك قول بعض ناعتيه: كان إذا ضحك افترّ عن مثل سنا البرق، يعني بذلك بياض ثغره وصفاء لونه.

وقال آخر: إذا تكلم رؤي كالنور يخرج من ثناياه.

وهذه كلها صفات اللؤلؤ، وإنما كان ضحكه في غالب أمره تبسُّماً لجلالته ووقاره ﷺ. اهـ قسطلاني.

ولنتبَّرك بما ذكره الإمام قدوة المحدّثين القاضي عياض في الشفاء حيث قال: ورأينا أن نختم هذه الفصول، يعني المشتملة على خصال جلاله وجماله وكماله ﷺ، بذكر حديث الحسن عن ابن أبي هالة لجمعه من شمائله وأوصافه كثيراً وإدماجه جملة كافية من سيره وفضائله.

حدثنا القاضي أبو علي الحسين بن محمد الحافظ رحمه الله، ثم قال بعد أن ذكر السند بطوله: قال الحسن بن علي ـ واللفظ له بهذا السند ـ: سألت خالي هند بن أبي هالة عن حلية رسول الله ﷺ، وكان وصّافاً وأنا أرجو أن يصف لي منها شيئاً أتعلق به، قال: كان رسول الله ﷺ فخماً مفخماً يتلألأ وجهه تلألؤ القمر ليلة البدر، أطول من المربوع وأقصر من المشذب أي الذي طوله بائن، عظيم الهامة أي الرأس، رجل الشعر إن انفرقت عقيقته، أي شعر رأسه، فرق وإلا فلا، يجاوز شعره شحمة أذنيه إذا هو وفره، أزهر اللون، واسع الجبين، أزج الحواجب سوابغ من غير قرن بينهما عرق يدره الغضب، أقنى العرنين له نور يعلوه ويحسبه من لم يتأمله أشمّ كثّ اللحية، أدعج سهل الخدّين، ضليع الفم، أشنب، مفلج الأسنان، دقيق المسربة كأن عنقه جيد دمية في صفاء الفضة، معتدل الخلق، بادناً متماسكاً، سواء البطن والصدر، مشيج الصدر، بعيد ما بين المنكبين، ضخم الكراديس، أنور المجرّد، موصول ما بين اللبة والسرّة بشعر يجري كالخط، عاري الثديين والبطن مما سوى ذلك، أشعر الذراعين والمنكبين وأعالي الصدر، طويل الزندين، رحب الراحة، شثن الكفين والقدمين، سائل الأطراف ـ أو قال: سائن الأطراف أو سائر الأطراف ـ سبط العصب، خمصان الأخمصين، مسيح القدمين ينبو عنهما الماء إذا زال زال تقلعاً ويخطو تكفؤاً ويمشي هوناً ذريع المشية إذا مشى كأنما ينحط من صبب وإن التفت التفت جميعاً خافض الطرف نظره إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء، جلّ نظره الملاحظة، يسوق أصحابه ويبدأ من لقيه بالسلام.

قلت له: صف لي منطقه، قال: كان عليه السلام متواصل الأحزان، دائم الفكرة، ليس له راحة، ولا يتكلم في غير حاجة، طويل السكوت يفتتح الكلام ويختمه بأشداقه ويتكلم بجوامع الكلم فضلاً لا فضول فيه ولا تقصير، دمثاً ليس بالجافي ولا المهين،

يعظِّم النعمة وإن دقّت، لا يذمّ شيئاً ولم يكن يذمّ ذواقاً ولا يمدحه ولا يقام لغضبه إذا تعرّض للحق شيء حتى ينتصر له، ولا يغضب لنفسه ولا ينتصر لها، إذا أشار أشار بكفه كلها وإذا تعجب قلبها، وإذا تحدّث اتصل بها فضرب بإبهامه اليمنى راحة اليسرى، وإذا غضب أعرض وأشاح، وإذا فرح غض طرفه، جل ضحكه التبسم ويفترّ عن مثل حبّ الغمام.

قال الحسن: فكتمتها عن الحسين بن علي زماناً ثم حدّثته فوجدته قد سبقني إليه. فسأل أباه عن مدخل رسول الله ﷺ ومخرجه وملبسه ومجلسه فلم يدع منه شيئاً[(١)].

قال الحسين: سألت أبي عليه السلام عن دخول رسول الله ﷺ، فقال: كان دخوله لنفسه مأذوناً له في ذلك فكان إذا أوى إلى منزله جزّء دخوله ثلاثة أجزاء، جزء لله تعالى، وجزء لأهله، وجزء لنفسه. ثم جزء جزء بينه وبين الناس فيردّ ذلك على العامة بالخاصة ولا يدّخر عنهم شيئاً، فكان من سيرته في جزء الأمة إيثار أهل الفضل بإذنه قسمته على قدر فضلهم في الدين، منهم ذو الحاجة ومنهم ذو الحاجتين ومنهم ذو الحوائج، فيتشاغل بهم ويشغلهم فيما أصلحهم، والأمة من مسألته عنهم وإخبارهم بالذي ينبغي لهم ويقول: «ليبلغ الشاهد منكم الغائب، وأبلغوني حاجة من لا يستطيع إبلاغي حاجته فإنه من أبلغ سلطاناً حاجة من لا يستطيع إبلاغها ثبّت الله قدميه يوم القيامة لا يذكر عنده إلاّ ذلك ولا يقبل من أحد غيره».

قال في حديث سفيان بن وكيع: يدخلون روّاداً ولا يتفرّقون إلاّ عن ذواق ويخرجون أدلة ـ يعني فقهاء ـ، قلت: فأخبرني عن مخرجه كيف كان يصنع فيه؟ قال: كان رسول الله ﷺ يخزن لسانه إلاّ فيما يعينهم ويؤلفهم ولا يفرّقهم يكرم كريم كلّ قوم ويوليه عليهم ويحذِّر الناس ويحترس منهم من غير أن يطوي عن أحد بشره وخلقه ويتفقد أصحابه ويسأل الناس عما في الناس ويحسن الحسن ويصوّبه ويقبّح القبيح ويوهنه، معتدل الأمر غير مختلف لا يغفل مخافة أن يغفلوا أو يملوا لكل حال عنده عتاد لا يقصر عن الحق ولا يجاوزه إلى غيره، الذين يلونه من الناس خيارهم وأفضلهم عنده أعمهم نصيحة وأعظمهم عنده منزلة أحسنهم مواساة وموازرة.

فسألته عن مجلسه ما كان يصنع فيه، فقال: كان رسول الله ﷺ لا يجلس ولا يقوم إلاّ عن ذكر ولا يوطن الأماكن وينهى عن إيطانها وإذا انتهى إلى القوم جلس حيث ينتهي به المجلس ويأمر بذلك ويعطي كل جلسائه نصيبه حتى لا يحسب جليسه أن أحداً أكرم عليه منه، من جالسه أو قاربه لحاجة صابره حتى يكون هو المنصرف عنه، من سأله

(١) رواه الطبراني في الكبير (٢٢/١٥٦).

حاجة لم يردّه إلاّ بها أو بميسور من القول، وقد وسع الناس بسطه وخلقه فصار لهم أباً وصاروا عنده في الحق متقاربين متفاضلين فيه بالتقوى ـ وفي الرواية الأخرى: وصاروا عنده في الحق سواء ـ مجلسه مجلس حلم وحياء وصبر وأمانة لا تُرفع فيه الأصوات ولا تؤبن فيه الحرم ولا تنثني فلتاته ـ وهذه الكلمة من غير الروايتين يتعاطفون فيه بالتقوى ـ متواضعين يوقرون فيه الكبير ويرحمون الصغير ويرفدون ذا الحاجة ويرحمون الغريب.

فسألته عن سيرته ﷺ في جلسائه، فقال: كان عليه الصلاة والسلام دائم البشر، سهل الخلق، لين الجانب ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب ولا فحاش ولا عياب ولا مزّاح، يتغافل عمّا لا يشتهي ولا يؤيس منه قد ترك نفسه من ثلاث: الرياء والإكثار وما لا يعنيه، وترك الناس من ثلاث: كان لا يذم أحداً، ولا يعيّره، ولا يطلب عورته، ولا يتكلم إلاّ فيما يرجو ثوابه إذا تكلم أطرق جلساؤه كأنما على رؤوسهم الطير وإذا سكت تكلموا لا يتنازعون عنده الحديث من تكلم عنده أنصتوا له حتى يفرغ حديثهم حديث أوّلهم يضحك مما يضحكون منه ويعجب مما يتعجبون منه ويصبر للغريب على الجفوة في المنطق ويقول: «إذا رأيتم صاحب الحاجة يطلبها فارفدوه»، ولا يطلب الثناء إلاّ من مكافىء ولا يقطع على أحد حديثه حتى يتجوّزه فيقطعه بانتهاء أو قيام. هنا انتهى حديث سفيان بن وكيع ورد الآخر.

قلت: كيف كان سكوته ﷺ؟ قال: كان سكوته على أربع: على الحكم والحذر والتقدير والتفكر، فأما تقديره ففي تسوية النظر والاستماع بين الناس، وأمّا تفكره ففيما يفنى ويبقى وجمع له الحلم ﷺ في الصبر فكان لا يغضبه شيء ولا يستفزه، وجمع له في الحذر أربع أخذه بالحسن ليقتدي به وتركه القبيح لينتهي عنه واجتهاد الرأي بما أصلح أمته والقيام لهم بما جمع لهم أمر الدنيا والآخرة ﷺ ورضي عن أصحابه أجمعين وأمدّنا بمددهم وحشرنا في زمرتهم بجاه سيدنا محمد ﷺ وعلى آله وأصحابه وأزواجه وذرّيته كلما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون. ولما مدح رضي الله عنه خلقه وخُلقه بما يليق بهما حال الحياة أخذ يمدح تربته التي دفن فيها، فقال:

لا طيب يعدل ترباً ضمّ أعظمه طوبى لمنتشق منه وملتثم

أي لا طيب في الوجود يعدل ترباً ضمّ أي جمع أعظمه بل ذلك التراب أفضل وأرفع من كل طيب لكونه اشتمل على جسم المصطفى ﷺ كثيراً، طوبى لمنتشق منه وملتثم أي طوبى لمن عفر وجهه بتربه فصار له مثل اللثام أو هو من التقبيل، والأول أولى لأن تقبيل القبر الشريف مكروه بل يستحب لزائر قبره الشريف أن يقف بعيداً خارج الحجرة تعظيماً له ﷺ. ويحتمل أن يكون قوله: طوبى، إخباراً مجرّداً لأن تربه لما كان أطيب الطيب حصلت الطوبى أي التطيب به للمنتشق منه والملتثم وكأنه إشارة إلى

النوعين المستعملين في الطيب، ويحتمل أن يكون طوبى الجنة أو الشجرة التي فيها، ويحتمل أن يكون أراد الدعاء لمن استنشق من تلك التربة العظيمة والتثم، ويحتمل أن يكون أراد الإخبار أي له بذلك طوبى، والاحتمال الأول في طوبى مبني على أن المراد بأن تربته أفضل أنواع الطيب باعتبار الحقيقة الحسية وذلك إما لأنه كذلك في نفس الأمر أدركه من أدركه أم لا، وإمّا باعتبار اعتقاد المؤمن في ذلك فإن المؤمن لا يعدل بشم رائحة تربته ﷺ شيئاً من الطيب. والاحتمال الثاني مبني على أن المراد أنها أفضل أنواع الطيب حكماً، فإن قيل: لو كان المراد الحقيقة الحسية لأدرك ذلك كل أحد لأن المسك مثلاً يدرك رائحته كل أحد فالجواب لا يلزم من قيام المعنى بمحل إدراكه لكل أحد بل حتى توجد الشرائط وتنتفي الموانع وعدم الإدراك لا يدل على عدم المدرك وانتفاء الدليل لا يدل على انتفاء المدلول فالمزكوم لا يدرك رائحة المسك مع أن الرائحة قائمة بالمسك لم تنتف، ولما كانت أحوال القبر من أمور الآخرة لا يدركها من الأحياء إلاّ من كشف الله له الغطاء من الأولياء لأن متاع الآخرة باق ومن في الدنيا فان، والفاني لا يتمتع بالباقي للتضادّ.

وقد قال عليه الصلاة والسلام: «القبر أول منزل من منازل الآخرة». فإما روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار، ولا شك أن قبره ﷺ روضة من رياض الجنة بل أفضلها. وقد قال ﷺ: «ما بين قبري ومنبري روضة من رياض الجنة»[1] وما بين المبدأ والمنتهى قد يدخل في حكمه. أما القبر فللمخبر العام الذي قبل هذا وهو في قبره عليه السلام أحرى. وأما المنبر فلقوله في آخر هذا الحديث: «ومنبري على حوضي» والحوض من الجنة، وإذا تقرّر كون هذا المكان الشريف من الجنة لم يبق عند العاقل المصدق بالشريعة امتراء في أنه لا طيب من الدنيا يعدله.

فإن قيل: إن هذا مبني على أن قوله: من رياض الجنة، حقيقة وذلك متعذر لأن الجنة في السماء كما دل عليه قوله عليه الصلاة والسلام: «إنّ سقفها عرش الرحمٰن وهو فوق سبع سماوات» وكيف يكون ما هو في السماء في الأرض؟.

فالجواب: أنّ الحديثين يحتملان الحقيقة والمجاز، أما الحقيقة فبأن يكون ما أخبر عنه بأنه بين الجنة مقتطعاً منها كما أن الحجر الأسود منها، والممتنع أن تكون السماء أرضاً لا أن يؤخذ بشيء من السماء ويجعل في الأرض أو بالعكس. وأما المجاز في القبر فبأن يكون من مجاز التشبيه بأن يشبه القبر لسعته وطيب رائحته وسلامته من الآفات بمكان من الجنة وهذا شائع بأن يوصف المكان الحسن بأنه من الجنة. وأما فيما بين

(١) رواه البخاري (١/٣٩٩)، (٢/٦٦٧)، (٥/٢٤٠٨)، ومسلم (٢/١٠١١).

القبر والمنبر فبأن يكون من إطلاق المسبب على السبب فإن ملازمة ذلك المكان للصلاة والعبادة سبب لنيل الجنة. اهـ قسطلاني.

وقوله: فيما تقدم، لأن تقبيل القبر الشريف مكروه مخالف لما نص عليه شيخ الإسلام الشبراملسي في حاشيته على المواهب كما ذكرنا ذلك في كتابنا مشارق الأنوار، ونصه: وأما تقبيل القبر الشريف فمكروه.

قال في المواهب: وأما قول البوصيري في بردة المديح: لا طيب يعدل ترباً الخ، قال شارحها العلامة ابن مرزوق: وأقل ذلك بتعفير جبهته وأنفه بتربته حال السجود في مسجده عليه الصلاة والسلام، فليس المراد به تقبيل القبر الشريف فإنه مكروه.

وقال العلامة الشبراملسي في حاشية المواهب: وعبارة شيخ مشايخنا العلامة الرملي على المنهاج نصها: ويكره أن يجعل على القبر مظلة وأن يقبّل التابوت الذي يجعل فوق القبر واستلامه وتقبيل الأعتاب عند الدخول لزيارة الأولياء، نعم إن قصد بتقبيله التبرُّك لا يكره كما أفتى به الوالد رحمه الله تعالى. فقد صرحوا بأنه إذا عجز عن استلام الحجر الأسود سنّ له أن يشير بعصا وأن يقبّلها. اهـ.

ولا مرية حينئذ أن تقبيل القبر الشريف لم يكن إلاَّ للتبرك فهو أولى من جواز ذلك لقبور الأولياء عند قصد التبرُّك، فيحمل ما قاله العارف على هذا القصد لا سيما وأن قبره الشريف روضة من رياض الجنة.

قال في المواهب: ولا ريب عند من له أدنى تعلّق بشريعة الإسلام أن قبره عليه الصلاة والسلام روضة من رياض الجنة بل أفضلها، وإذا كان القبر كما ذكرناه وقد حوى جسمه الشريف عليه الصلاة والسلام الذي هو أطيب الطيب فلا مرية أنه لا طيب يعدل تربة قبره المقدّس.

قال: ويرحم الله أبا العباس حيث يقول في قصيدته التي أوّلها:

إذا ما حدا الحادي بأجمال يثرب ... فليت المطايا فوق خدّي تعنق

إلى أن قال:

فما عبق الريحان إلاَّ وتربها ... أجلّ من الريحان طيباً وأعبق

وله أيضاً:

راحت ركائبهم تبدي روائحها ... طيباً فيا طيب ذاك الوفد أشباحا

نسيم قبر النبيّ المصطفى لهم ... روض إذا نشروا من ذكره فاحا

وقد جاء في الحديث: إن المؤمن يقبر في التربة التي خلق منها، فكانت بهذا تربة المدينة أفضل الترب كما أنه عليه الصلاة والسلام أفضل البشر، فلهذا يتضاعف ريح

الطيب فيها على سائر البلدان. اهـ.

وروى أبو سعيد السمعاني عن عليّ رضي الله تعالى عنه قال: قَدِمَ علينا أعرابي بعدما دفنا رسول الله ﷺ بثلاثة أيام، فرمى بنفسه على قبره وحثى على رأسه من ترابه وقال: يا رسول الله، قلت فسمعنا قولك ووعيت عن الله ما وعينا عنك وكان فيما أنزل عليك ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ [النساء: الآية ٦٤] الآية، وقد ظلمت نفسي وجئتك تستغفر لي. فنودي من القبر: إنه قد غُفِرَ لك.

ومن ذلك المعنى ما ذكره الإمام العتبي قال: كنت جالساً عند قبر النبي ﷺ فجاء أعرابي فقال: السلام عليك يا رسول الله سمعت الله يقول: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾﴾ [النساء: الآية ٦٤] وقد جئتك مستغفراً من ذنوبي متشفعاً إلى ربي. ثم أنشد يقول:

يا خير من دفنت بالقاع أعظمه ... فطاب من طيبهنّ القاع والأكم

نفسي الفداء لقبر أنت ساكنه ... فيه العفاف وفيه الجود والكرم

قال: ثم انصرف فحملتني عيناي فرأيت النبي ﷺ في النوم، فقال: يا عتبة إلحق الأعرابي فبشّره أن الله قد غفر له. اهـ.

وفي أبي السعود: ومدينة الرسول ﷺ لشرفها به سميت طوبى وعنه ﷺ: «إن الله سمى المدينة طابة» وبها سميت الشجرة التي ورد في الحديث أن أصلها في بيت علي بن أبي طالب في الجنة. وما من بيت من بيوت الجنة إلاّ وفيه غصن من أغصانها. وقيل: إنه اسم من أسماء الجنة لقوله تعالى: ﴿طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾﴾ [الرعد: الآية ٢٩]. ويعدل من العدل بمعنى المساواة، يقال: عدله أي ساواه، وعدل الشيء بكسر العين مثله من غير جنسه والترب لغة في التراب لكنه قد يختص باستعماله في تراب المقبرة، ومنه قول النبي ﷺ في حق ولده الحسين: «الشفاء في تربته والإجابة تحت قبته، والأئمة من ذرّيته ـ أو من عترته ـ».

والضم: الجمع والاستنشاق يطلق على التصعد بالماء في الخيشوم، والملتثم اسم فاعل من الالتثام وهو التقبيل، واللثمة القبلة ولا لنفي الجنس، وطيب اسمها مبني على الفتح وتعدل خبر لا، وترباً مفعول يعدل وضم أعظمه في محل النصب على أنها صفة لترباً، وطوبى إن جعلت علماً أما لكونها اسماً من أسماء الجنة أو أنها اسم موضوع لمعنى التعجُّب. والتمني يجوز أن يكون مبتدأ ولمنتشق خبر أو خبراً لمبتدأ محذوف.

والمعنى: لما ذكر بعضاً من أوصاف جسده الشريف وبدنه اللطيف في حال حياته طفق شارعاً في أداء شيء من أوصاف ذلك الجسد المطهر والبدن المنوّر في حال وفاته،

فقال: إنه لا شيء من أنواع الطيب مسكاً كان أو عنبراً يعادل طيب ترتبه الشريفة ويماثل ريح حضرته المنيفة، فطوبى لمن استمسك باستنشاق طيب رائحة تربته الشريفة التي قد جمعت طرق الكمال وبحر الجود والإفضال، بعد أن استمسك بعروة دينه الوثقى وتشبّث بأذيال ملّته المثلى.

إلى أن قال: ويمكن أن يجعل المستنشق كناية عن الزائر، والملتثم كناية عن المجاور. وقد ورد في فضل المدينة زادها الله شرفاً من الأحاديث ما لا تسعه الأوراق ولا تحمله النياق. اهـ.

هذا وقد ذكر المحدث الكبير والإمام الجليل القاضي عياض في الشفاء: انعقاد الإجماع على أن البقعة الشريفة التي ضمّت جسمه الشريف أفضل من بقاع الأرض والسماوات والعرش والجنة وباقي الجهات. والخلاف بعد ذلك في تفضيل أحد الحرمين على الآخر مذكور في المطولات. أسأل الله أن يمنَّ علينا وعلى أحبابنا بزيارته ﷺ قبل الممات ونحظى بمشاهدة هاتيك الأعتاب مع الفوز بنيل الدرجات بجاه سيد السادات ﷺ وعلى آله وأصحابه وأزواجه وذريته وآل بيته كلما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكرك الغافلون. ثم قال رضي الله عنه:

أبان مولده عن طيب عنصره يا طيب مبتدا منه ومختتم

أي أظهر مولده ﷺ أي آيات ولادته أو آيات زمان ولادته أو آيات مكانها عن طيب عنصره وهو أصله، أي آباؤه الذين تناسل منهم، أي أبان أحوالهم وما شوهد فيهم من نوره المنتقل من واحد إلى آخر منهم إلى أبيه وغير ذلك مما ظهر عليهم من آياته مما يدل على طيب أصله وحسبه.

وأشار بقوله رحمه الله: يا طيب مبتدأ منه ومختتم، أي منه إلى قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «ليس فينا سفاح كلنا نكاح من آدم عليه الصلاة والسلام إلينا»، والنداء، في قوله: يا طيب، المراد به التعجب لأنه لا ينادي حقيقة إلاّ العاقل أو المنزل منزلته، والعرب إذا استعظمت شيئاً نادته على سبيل التعجُّب. وفي قوله: ومختتم، إيجاز الحذف إذ التقدير منه كما تقدم فهو من الحذف من الأواخر لدلالة الأوائل نحو ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ﴾ [الأحزاب: الآية ٣٥] أي الله كثيراً، وإسناد أبان إلى مولده من المجاز العقلي ولا محل لجملة أبان إلى عنصره لاستئنافها.

ومن آيات ولادته ما روي عن أمه أنها قالت: «لقد أخذني الطلق وإني لوحيدة في منزلي وعبد المطلب في طوافه يوم الاثنين فسمعت وجبة هالتني ورأيت كأن جناح طائر أبيض مسح فؤادي فذهب رعبي وكل وجع وكنت عطشى فإذا شربة بيضاء فشربتها فأصابني نور عال وإذا بنسوة كالنخل طوالاً كأنهن من بنات عبد مناف فأحدقن بي

فعجبت وقلت: يا غوثاه من أين علمتنّ بي، وأسمع الوجبة في كل ساعة أعظم فإذا بديباج أبيض مدّ بين السماء والأرض وقائل يقول: خذوه عن أعين الناس، ورجال في الهواء بأيديهم أباريق من فضة فنزل عليّ عرق كالجمان وجعلت أقول: ليت عبد المطلب عندي. وأقبلت عليّ قطعة من الطير من حيث لا أشعر كأن مناقيرها الزمرد وأجنحتها الياقوت فكشف عن بصري فرأيت مشارق الأرض ومغاربها ورأيت أعلاماً ثلاثة علماً بالمشرق وعلماً بالمغرب وعلماً بالبيت، واشتدّ بي المخاض وكأني مستندة إلى النساء فكثرن عليّ فولدت محمداً ﷺ من ساعتي فنظرت إليه فإذا هو ساجد لله عزّ وجل ثم رفع رأسه إلى السماء كالمتضرِّع المبتهل».

وروي أن الشفاء أمّ عبد الرحمٰن بن عوف قالت: لما سقط رسول الله ﷺ على يدي واستهل سمعت قائلاً ـ أي صوت قائل ـ يقول: رحمك الله، وأضاء لي ما بين المشرق والمغرب حتى نظرت إلى قصور الروم وولد ﷺ مختوناً مقطوع السرّ.

وروى الطبراني رحمه الله تعالى: أنه وقع إلى الأرض مقبوضة أصابع يده مشيراً بالسبابة كالمسبّح بها.

وروي عن عثمان بن أبي العاص عن أمه أم عثمان الثقفية واسمها فاطمة بنت عبد الله قالت: حضرت ولادة رسول الله ﷺ فرأيت البيت حين وقع قد امتلأ نوراً ورأيت النجوم قد دنوا حتى ظننت أنها ستقع عليّ.

وفي هذا البيت إشارة إلى أن السعيد من سعد في بطن أمه كما أتى في الصحيح وأنه لا يستحق أحد على الله تعالى شيئاً يختص من يشاء بما يشاء.

إن السعادة أصلها التخصيص

فمن سبقت له من الله تعالى السعادة فيا طيب مبتدأ منه ومختتم، ومن ظهر عليه الانقطاع إلى الله تعالى والركون إلى عبادة مولاه فعسى أن يطيب اختتامه. ختم الله تعالى لنا وللمسلمين بالحسنى. اهـ قسطلاني.

وفي أبي السعود: الإبانة: الكشف والإظهار، والمنادى في يا طيب محذوف، والتقدير: يا قوم أو يا أناس، وإنما يستعمل هذا الأسلوب في موضع التعجب والغرابة. والتقدير: أيها العقلاء ذوو الألباب، والأفهام والبصائر والأحلام، استحضروا أحلامكم وعقولكم واستعملوها في هذا الأمر العجيب الغريب الذي هو خروج هذا المفتتح والمختتم في أمر الطيب عن الحدّ الذي لا يمكن تجاوزه لأحد من البشر، بل ليس من المعتاد أن يحصل مثله لأحد منهم أنثى أو ذكر والضمير في منه عائد إلى النبي ﷺ وإلى عنصره.

والمعنى: إن ما ظهر في زمن ولادته ومكانها من الأمور الخارقة للعادة من

علامات النبوّة ومعجزات الرسالة، أظهر وكشف عن طيب ذلك العنصر النبوي واليقين المصطفوي والتشخص المحمدي أي دلت تلك العلامات الواضحات والدلالات البيّنات على أنه قد تعلق بذلك العنصر الشريف والجسد المنيف من الكمالات النفسانية والسعادات الأزلية ما هو جدير أن يتعجب العقلاء من كيفيته ويتفكّر الأذكياء من كميته حتى يعلموا أنه سيكون من هذا المولود من الشؤون والحالات والفضائل والكمالات ما لا عين رأت ولا أذن سمعت. وحاصله أنه ﷺ قد شهدت فاتحته بخاتمته. قال الشاعر:

إن الهلال إذا رأيت نموّه أيقنت أن سيصير بدراً كاملاً

ويجوز أن يراد بالمفتتح والمختتم جميع مدة عمره ﷺ فإنه قد يذكر طرف الشيء ويراد مجموعه كقوله تعالى: ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ [الأحزاب: الآية ٤٢]. وقد يراد بالمفتتح أحوال دنياه وبالمختتم أحوال آخرته أو أحواله في الملك والملكوت.

وروى أبو أمامة قال: قيل: يا رسول الله ما كان بدء أمرك، قال: دعوة أبي إبراهيم وبشرى عيسى ورأت أمي أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام. وروي أنه ناداها مناد من زاوية البيت: يا آمنة لا تظهريه للإنس إلاّ بعد ثلاثة أيام لأنه مشغول بسلام الملائكة.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما أدرك عبد المطلب الوفاة بعث إلى أبي طالب، فجاء ومحمد على صدره وهو في غمرات الموت، فصار يبكي ويلتفت إلى أبي طالب، ويقول: يا أبا طالب انظر أن تكون حافظاً لهذا الوحيد الذي لم يشم رائحة أبيه ولا شفقة أمه، انظر أن يكون من جسدك بمنزلة كبدك فإني قد تركت بنيّ كلهم وأوصيتك به لأنك من أم أبيه. يا أبا طالب إن أدركت أيامه فاعلم أني كنت من أبصر الناس به ومن أعلم الناس به، فإن استطعت أن تتبعه فافعل وانصره بلسانك ويدك ومالك فإنه سيسود ويملك ما لم يملكه أحد من آبائي يا أبا طالب هل قبلت وصيتي، قال: نعم والله على ذلك شاهد. قال عبد المطلب: فمد يدك إليّ، فمد يده فبايعه على ذلك، ثم قال: الآن خفف عليَّ الموت. ثم لم يزل يقبّله ويقول: أشهد أني لم أقبّل أحداً من ولدي أطيب ريحاً منك ولا أحسن وجهاً منك. ومات عبد المطلب وهو ﷺ ابن ثمان سنين. اهـ.

ومن آياته ﷺ ما ذكره رحمه الله تعالى بقوله:

يوم تفرس فيه الفرس إنهم قد أنذروا بحلول البؤس والنقم

أي هو يوم تثبت ونظر فيه الفرس أنهم قد أنذروا، أي أعلموا بحلول البؤس والنقم، جمع نقمة، أي ظهر لهم في ذلك اليوم من الأمارات التي أخبرهم بها علماؤهم وكهانهم في ظهور أمر رسول الله ﷺ أنه كائن وأن ما أنذرهم به كاهنهم من خراب

ملكهم وتشتت أمرهم وتفريق قبائلهم على يد رسول الله ﷺ ويد أصحابه القائمين بشريعته أن ذلك حال بهم وهو ما أراده بقوله: البؤس والنقم، والمراد بيوم الزمان الذي كانت فيه الفراسة لا الذي هو مقابل الليلة، وذلك البؤس وتلك النقم هو تمزيقهم كل ممزق كما دعا عليهم رسول الله ﷺ. والفرس بضم الفاء، أمّة عظيمة كان مسكنها في شمال العراق واختلف في نسبتهم، فقيل: هم من ولد بهرام بن ارفخشذ بن سام بن نوح عليه الصلاة والسلام وأنه ولد له بضعة عشر رجلاً كلهم فارس شجاع فسموا الفرس لذلك. وقيل غير ذلك مما يطول ذكره. اهـ قسطلاني.

وفي أبي السعود: اليوم: الوقت ليلاً كان أو نهاراً قصيراً كان أو طويلاً. وهو المعنى ها هنا، والتفرّس معرفة الشيء بالفراسة، وهي قوّة تدرك بها الأمور الخفية بالقرائن، ومنه قوله ﷺ: «اتقوا فراسة المؤمن فإنه يرى بنور الله». والمتفرّس هو الألمعي الذي يظن كأن قد رأى وقد سمع شبه إحاطة العالم بعلمه وشدّة تصرّفه فيه وتمكّنه منه بإحاطة الأسد بفريسته وشدّة تصرّفه فيها، والفرس اسم جمع لأهل بلاد فارس وكفاهم فضلاً كون سلمان رضي الله عنه منهم. وقول النبي ﷺ في حقهم: «لو كان الإيمان معلقاً بالثريا لناله رجال من فارس»، وفي رواية: «من قوم هذا» وأشار إلى سلمان رضي الله عنه. والإنذار هو التحذير من وقوع البلاء ومنه سمي ﷺ المنذر لإنذاره أمته، والبؤس الشدّة الورثة حزناً وهماً، والنقم جمع نقمة وهي ضد النعمة، ويوم خبر مبتدأ محذوف أي مولده يوم والأحسن أن يجعل بدلاً منه كقوله تعالى: ﴿لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ۝١٥ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ۝١٦﴾ [العَلق: الآيتان ١٥، ١٦] وتفرّس في محل الرفع صفة ليوم، والفرس فاعله، وإن مع اسمها وخبرها مفعول، وقد أنذروا خبر إن.

والمعنى: لما ذكر في البيت السابق أبانه مولده عن طيب عنصره، وعنى بذلك أنه قد ظهرت في زمن ولادته علامات تدل على ما تضمنه عنصره الشريف من الكمالات الدالة على استحقاق علوّ الشأن وارتفاع المكان وتفويض خلافة أمر الملك والملكوت، شرع في بعض تلك العلامات ونبذة من تلك الدلالات، فذكر في البيت ما هو كالمقدمة لتلك المقاصد وهي أنه لما زيّن الله سبحانه وتعالى بساط الوجود العيني بميامن شرف قدم قدومه وشرّف العالم الظلماني بأنوار جمال طلعة هجومه، هطلت سحب العناية بقطرات فيض جماله وقطرت مزن الهداية بحباب عباب بحر كماله، وتفرّست الفراس بما اقترن بذلك الظهور من سطوع النور وخمود النيران وطلوع نيّرات السعود وأفول كواكب النحوس والخذلان أن دائرة دوائر البؤس والنقم ستحل في منازلهم بعد زوال النعم، فإن النور إذا سطع على منازل الكون سلطانه اضمحلّ الظلام وتضعضع بنيانه.

روي أن سلمان الفارسي لم يزل ينتقل من عالم إلى عالم ومن قصة إلى قصة ويبحث على الأسرار ويستدل بالأخبار مدة أربعمائة سنة ينتظر قدوم سيد الأوّلين

والآخرين محمد حبيب ربّ العالمين حتى بشّر بولادته، فلما أيقن بالفرج خرج يريد تهامة فأسر في الطريق ولقي دون لقائه عرق القربة وخرط القتاد حتى ظفر بالمراد. اهـ.
ثم عطف رحمه الله تعالى على تفرّس قوله:

وبات إيوان كسرى وهو منصدع كشمل أصحاب كسرى غير ملتئم

إيوان كسرى، كناية عن ملك الفرس، وهو منصدع أي منشق، وقوله: غير ملتئم أي غير مجتمع.

وفي أبي السعود: بات من البيتوتة وهي الاقتران بالليل، ومنه التبييت وهو تدبير الأمر ليلاً. قال تعالى: ﴿إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾﴾ [النساء: الآية ١٠٨] وقال ﷺ: «من لم يبيِّت الصيام قبل الفجر فلا صيام له». والإيوان بالكسر اسم لبيت يكون سقفه محدّباً لا يكون لأحد جوانبه جدار والانصداع: الانشقاق، ومنه تصدع الناس أي تفرّقوا، والشمل من أسماء الأضداد يطلق على الاجتماع والافتراق يقال: جمع الله شملك، أي ما تفرّق. وكسرى بالفتح والكسر والفتح أفصح ملك الفرس يجمع على أكاسرة، وبات من الأفعال الناقصة، وقد يجيء تاماً كقول امرىء القيس:

وبات وباتت له ليلة

وهو منصدع، جملة حالية من اسم بات كشمل خبر وغير منصوب على أنه حال من شمل لاكتسابه التعريف من أصحاب، ويجوز رفعه على أنه خبر ثان.

وحاصل المعنى: أنّ من العلامات التي ظهرت في زمان ولادته فدلّت على علوّ نائرة نور الحق وانطفاء نار الباطل وارتفاع شأن أهل العدل والإحسان واضمحلال أمر أهل الشرك والطغيان، انصداع شرافات إيوان كسرى فإنه قد روت الثقات من الرواة أن إيوان كسرى سقطت منه أربع عشرة شرافة في ليلة ولادته عليه الصلاة والسلام من غير سبق أمارة تدل على التهيؤ للانهدام وتقدم علامة يتوقع منها وقوع ذلك الانقصام، فوقوع ذلك الأمر بغتة مع إحكام البنيان ورصّ تلك الأركان أوقع في قلوبهم الهول والأحزان وأبقى في روعهم البؤس والخذلان علماً منهم بأن هذا الحدثان لا يكون إلاّ لحدوث أمر عظيم الشأن.

وعن مخزوم بن هانيء عن أبيه قال: لما كانت الليلة التي وُلِد فيها ﷺ ارتجَّ إيوان كسرى وسقط منه أربع عشرة شرافة وخمدت نار فارس ولم تخمد قبل ذلك بألف سنة وغاضت بحيرة ساوة.

وعن عمرو بن قتيبة قال: سمعت أبي وكان من أوعية العلم قال: لما حضرت ولادة آمنة قال الله تعالى للملائكة: افتحوا أبواب السماء كلها، وأمر الملائكة

بالحضور، فنزلت يبشر بعضها بعضاً وتطاولت جبال الدنيا وارتفعت البحار وتباشر أهلها، فلم يبق ملك إلاَّ حضر وأخذ الشيطان فغلّ وألقي منكوساً في لجة البحيرة الخضراء وغلت الشياطين والمردة وألبست الشمس نوراً عظيماً وأقيم على رأسه سبعون ألف حوراء ينتظرون ولادته ﷺ.

وعنه رضي الله عنه: أنّ الأصنام نكست في تلك الليلة، وأما اللات والعزى فقد أخرجا خازنيهما وهما يقولان: ويح قريش جاءهم الأمين، جاءهم الصدوق. وأما البيت فقد سمع في جوفه صوت وهو يقول: الآن يردّ نوري الآن تجيء زوّاري الآن أطهر من رجس الجاهلية. اهـ.

نسأل الله الكريم أن يطهِّر قلوبنا من رؤية السوى والأغيار بجاه سيد الأبرار ﷺ وعلى آله وأصحابه وأزواجه وذريّته وأهل بيته الأطهار كلما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون. ثم قال رضي الله عنه:

والنار خامدة الأنفاس من أسف   عليه والنهر ساهي العين من سدم

أي وصارت النار التي يعبدونها في ذلك اليوم خامدة الأنفاس لا لهب لها تلك الليلة من أسف عليه أي من حزن على انصداع الإيوان، هذا إن كان المراد بالأسف الحزن، وإن كان المراد الغضب فالضمير عائد على النبي ﷺ لأن ولادته ﷺ سبب في ترك عبادتها وذلك أنه لما وُلِد رسول الله ﷺ ارتعد تلك الليلة إيوان كسرى أنو شروان بن قباذ بن فيروز وسقط من قصره أربع عشرة شرافة، وكتب إليه صاحب فارس يخبره بأن بيوت النيران قد خمدت تلك الليلة ولم تكن قد خمدت قبل ذلك بألف سنة، وصار النهر الذي به قيامهم ساهي العين تلك الليلة، أي سكنت جرية عينه التي هي مادته. من سدم أي من ندم وحزن، ويحتمل أن يكون سكون العين مجازاً لعدم جرية الماء لأن الماء الجاري لا يسكن بل يخلف بعضه بعضاً كالعين اليقظى فإنها تطرف المرة بعد المرة.

وفي هذين البيتين إشارة صوفية وهي أنه إذا صحت التوبة واستقامت خمدت أنفاس نار النفس الأمارة وسهت عين نارها من الشهوات التي كانت متوالية عليها مثل توالي ماء النهر فلا يرى لنار غضبها الذي كان اضطراماً ولا للماء الذي ألفت شربه انسجام حزناً منها على أعمالها فتعود مرتاضة ذلولاً ساكنة مطمئنة بعد أن كان ركوبها لا يستطاع لتلاطم أمواج بحرها الفيّاض من الشهوات. اهـ قسطلاني.

وفي أبي السعود: خمود النار انطفاؤها وسكون لهيبها، والأنفاس جمع نفس بتحريك الفاء وهو خروج هواء ودخول آخر لترويح القلب وإخراج ما احترق من الداخل بحرارته، وقد جرت عادة الله تعالى باستيفاء حياة الحيوان بدخوله وخروجه، والأسف: الحزن، والسهو: الغفلة، يقال: سها عن هذا الأمر أي غفل، والسدم: غضب معه همّ،

والواو في قوله: والنار، للعطف، والجملة معطوفة على قوله: وهو منصدع، هكذا قيل، فتكون الجملة حالاً أيضاً من الإيوان أي بات الإيوان منصدعاً حال كون النار خامدة الأنفاس، ويجوز أن تكون معطوفة على بات عطف الجملة الاسمية على الفعلية وهو جائز، ومن للتعليل، أي خامة الأنفاس بسبب الأسف وساهي العين بسبب السدم. والضمير في عليه عائد على كسرى أو إلى إيوان كسرى، والتنوين في أسف وسدم للتفخيم.

وفي البيت استعارتان مكنيتان، فإنه قد شبَّه النار بحيوان وذكر المشبه مع شيء من لوازم المشبه به، أعني الأنفاس، وثانيهما في النهر فإنه قد شبّهه بما شبّه به النار وذكر ما هو من لازم المشبه به، أعني العين، والمراد بالنار نار مجوس فارس، وبالنهر الفرات فإنه قد كان خرج من مجراه المعتاد وبدا تائهاً في ساوة.

والمعنى: أنّ نار مجوس الفرس وماء نهرهم قد لحقهما من الدهشة والحيرة والاضطراب ما يلحق ذوي العقول عند الإحساس بحلول الحوادث ونزول الكوارث، قد خمد لهيبها وسكن زفيرها من شدّة ما لحقها من الأسف على زوال ملك واقديها وحلول النقمة على مسعريها، وماء الفرات قد ضلّ السبيل فلا يهتدى إلى مجراه ولا يفقه كيف مسراه علماً منه بما سيكون مما هو جدير بما تجري عليه دموع العيون وتسيل مكان الماء الدماء عن الجفون. اهـ.

ومن آيات ولادته ﷺ ما أشار إليه المصنف رحمه الله بقوله:

وساء ساوة أن غاضت بحيرتها ... وردّ واردها بالغيظ حين ظمي

أي وأحزن أهل المدينة المدعوة ساوة، وهي بين همذان والري، أن غاضت بالضاد المعجمة، أي نقصت بحيرتها وحفت بحيث لم يبق فيها شيء، كذا قيل، حتى إن لهب النار ينبع من قعرها كأنما طبخت أرضها خزفاً وكانت هذه البحيرة بركة ماء طولها ستة أميال وعرضها مثل ذلك وكذا أحزنها أيضاً أن رد واردها الذي يأتي إليها يستسقي من مائها بالغيظ، أي مع الغيظ، حين ظمي، وغيض الماء إنما كان من ولادته ﷺ وهو الذي أحزن ساوة، وإسناد الحزن إلى نفس النار والماء مجازاً وتنزيل لهما منزلة العاقل. اهـ قسطلاني.

وفي أبي السعود: ساءه بمعنى أحزنه، وساوة اسم بلدة معروفة، وغاضت من غاض الماء، والوارد اسم فاعل من الورود، يقال: ورد الماء والبلد إذا أشرف عليها سواء دخلهما أو لم يدخلهما، والغيظ روي بالضاد، وقد مرّ، وبالظاء بمعنى شدّة الغضب، والظمآن: العطشان، وساء وإن كان لإنشاء ضد المدح وضعاً لكنه هنا مستعمل في معنى الإخبار وهو حينئذ متعدّ بقول: ساءني هذا الأمر.

والمعنى: أن أهل ساوة قد سيئت أحوالهم وشينت شؤونهم وانقطعت حبال وصلتهم إذ غاض ماء بحيرتهم.

روي أنه كان لأهل ساوة بطيحة متسعة تتلاطم أمواجها تلاطم أمواج البحر الزاخر، وقد التفت بها أنواع من الأنهار واحتفت بها أجناس من الأشجار وأحاط بها من جميع جوانبها بيع وكنائس كانت معابد ومجامع لأهل البغي والعناد، فلما منَّ الله على أهل الرشاد من العباد بميلاد سيد أهل السداد غاضت تلك البحيرة وبادت تلك البلاد، وذلك بما كسبت أيديهم وما الله يريد ظلماً للعباد.

وقد ذكر الناظم في هذه الأبيات ما صحت به الروايات من الكرامات الباهرات والعلامات الدالات على ما يعقب ميلاد تلك الحضرة العلية والسدة السنية من السعادات.

روى أبو سعيد الواعظ الزاهد بإسناد عن مخزوم بن هانىء المخزومي عن أبيه: وكان قد أتت عليه مائة وخمسون سنة، قال: لما كانت الليلة التي وُلِد فيها رسول الله ﷺ ارتج إيوان كسرى فسقط منه أربع عشرة شرافة وخمدت نار فارس ولم تخمد قبل ذلك بألف عام وغاضت بحيرة ساوة ورأى الموبذان إبلاً صعاباً تقود خيلاً عراباً قد قطعت دجلة وانتشرت في بلادها، فلما أصبح كسرى راعه ذلك الارتجاج والسقوط وأفزعه فجمع وزراءه وأخبرهم بما هاله، فبينما هم كذلك إذ أتاهم كتاب بخمود نار فارس فقال الموبذان: أنا رأيت رؤيا. وقصّ عليه رؤياه، فقال: أي شيء يكون هذا يا موبذان؟ قال: حدث يكون من ناحية العرب. فكتب كسرى إلى النعمان بن المنذر: أما بعد، فوجه إليَّ برجل عالم بما أريد أن أسأله عنه. فوجه إليه عبد المسيح بن عمرو بن نفيل الغساني، فلما قدم عليه أخبره بما رأى فقال له: علم ذلك عند خال لي يسكن مشارق الشام يقال له سطيح. فقال له: اذهب إليه واسأله وائتني بتأويل ما عنده. فنهض عبد المسيح حتى قدم على سطيح وقد أشرف على الموت، فسلّم عليه فلم يرد جواباً، فأنشأ عبد المسيح أبياتاً يذكر فيها ما أراده منه، ففتح سطيح عينيه ثم قال: عبد المسيح على جميل يسيح إلى خاله سطيح وقد أوفى على الضريح بعثك ملك بني ساسان لارتجاس الإيوان وخمود النيران ورؤيا الموبذان، رأى إبلاً صعاباً تقود خيلاً عراباً، قد قطعت دجلة وانتشرت في البلاد، يا عبد المسيح إذا كثرت التلاوة وظهر صاحب الهراوة، وفارض وادي سماوة، وغاضت بحيرة ساوة، وخمدت نار فارس فليس الشام لسطيح شاماً ولا العراق للفرس مقاماً، يملك منهم ملوك وملكات على عدد الشرافات وكل ما هو آت آت. ثم قضى على سطيح مكانه، فنهض عبد المسيح وقدم على كسرى وأخبره بما قال سطيح، فقال: إلى أين يملك منا أربعة عشر ملكاً، فملك منهم عشرة في أربع سنين والباقون إلى إمارة عثمان. ثم قال رحمه الله تعالى:

كـأنّ بـالـنـار مـا بـالـمـاء مـن بـلـل حـزنـاً وبـالـمـاء مـا بـالـنـار مـن ضـرم

أي صارت نار فارس التي خمدت كأن بها من الأوصاف التي من جملتها البلل مثل أوصاف ماء بحيرة ساوة قبل غيضه أي صارت مبلولة باردة كبلل ماء بحيرة ساوة وبرودته من الحزن، وصار هو أي ماء بحيرة ساوة التي غاض حتى جف مكانه، وصار يلتهب كأن به من الأوصاف التي منها الضرم مثل أوصاف نار فارس قبل خمودها من حزنه أيضاً.

فالحاصل أن كلاً من نار فارس وماء بحيرة ساوة انتقل إلى كل منهما أوصاف الآخر من الحزن على تغيير حال الكفر. وخص الناظم من أوصاف الماء البلل دون البرودة مثلاً ومن أوصاف النار الاضطرام دون الحرارة مثلاً، لأن النار لا تبقى حقيقتها مع الاتصال بالبلل فإنها في غاية اليبوسة، فلذا تفرق الأجزاء، والبلل يصل الأجزاء المتفرقة كما يفعل بالتراب. ووصفها بالبرد لا يخرجها عن حقيقتها، قال الله تعالى: ﴿قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ۝٦٩﴾ [الأنبياء: الآية ٦٩] فخاطب النار.

والماء أيضاً إذا اتصف بالاضطرام الذي هو غاية اليبس خرج عن حقيقته لحدوث التفريق بعد الاتصال، ووصفه بالحرارة لا يخرجه عن حقيقته، لأنه يقال: ماء حار، ولا يقال: ماء مفرق الأجزاء. اهـ قسطلاني.

وفي أبي السعود: ما موصولة والجار والمجرور مع عاملهما صلة، والموصول مع صلته اسم كأن، وبالنار خبره، ومن بلل بيان لما، وحزناً مفعول له، والقول في ما وما بعدها كما قيل فيما قبلها، وحزناً مقدّر في المصراع الثاني أو أن ذكره في المصراع الأول مغنٍ عن تقديره لدلالة المذكور عليه.

والتقدير: كأن الضرام الكائن بالنار كائن بالماء.

والمعنى: بيان تغيُّر الزمان، وحدوث الحدثان، وطلوع كواكب السعود في أفق الحق المبين، وأفول نجوم نحوس الباطل من طوالع الكفار والمشركين، وتبدُّل أحوال الفريقين من المؤمنين والكافرين بأن ما كان لنار الشرك من الحرارة والحدة والارتفاع والاستعلاء انتقل إلى أهل الدين الذين كانوا في النفع والإرواء والرفق واللين كالماء المعين. اهـ.

وفي شرح الإمام المحقق ابن العماد: كأن من أدوات التشبيه، ومن ثم جاء كأنه هو والبلل النداوة. وفي الحديث: «بلوا أرحامكم ولو بالسلام» أي بلوها بالصلة، والأرحام الأقارب، والضرم إيقاد النار.

المعنى: يقول: كأن الذي بالماء من برودة وبلل حاصل في نار فارس عند الولادة لأنها قد ذهب طبعها وانتقل إليها طبع الماء فاستحالت إلى طبع الماء، وكأن الذي بالنار

من الحرارة قد حصل في الماء وصار طبعاً له حتى ذهب طبعه من البرودة والإرواء والجريان وانتقل لطبع النار حتى ذهب وجف واحترق. وقد كثر مثل هذا الاستعمال حتى إنهم ليقولون: احترق النيل، أي ماء النيل، وانتقص على خلاف العادة. ثم قال رضي الله عنه:

والجن تهتف والأنوار ساطعة ... والحق يظهر من معنى ومن كلم

أي وصارت الجن أولاد إبليس عليه لعنة الله عند ولادته ﷺ تهتف في تلك الليلة، أي تصوّت على الجبال وفي بطون الأودية، وترفع أصواتها بالإعلام بما أظل الناس من نبوّته ﷺ. ويحتمل أن يكون معنى تهتف: أي تقول قولاً من غير تحقيق، وذلك أنها قبل ولادته ﷺ كانت غير ممنوعة من استراق السمع، وكذلك كثرت إصابة الكهان في ذلك لأنهم يستمعون من الملائكة ما يكون من الحادثات في الأرض على التحقيق فلما منعوا بعد ولادته ﷺ من استراق السمع بالشهب إلاّ من خطف الخطفة، جعلوا يتكلمون من غير تحقيق ولذلك كذبوا بعد ولادته ﷺ.

والمعنى: صارت الجن يوم ذلك تهتف، أي تقول، قولاً غير محقق شبه كلامه الذي لا محصول له بسماع صوت من غير تحقيق شخص. فإن قيل: أما حزن الجن لبعثه ﷺ فظاهر لأن أكثرهم عصاة وأما انصداع إيوان كسرى فإهانة له وذل وصغار كسائر الملوك فيما أصابهم حينئذٍ، وأما خمود النار واضطرام مكان الماء بعد غيضه فإنما يحسن ذلك إن كان لإهانتهم كانصداع الإيوان، لكن الناظم رحمه الله تعالى إنما قال ذلك فيهما من حزنهما وذلك لا يصح فإن الجمادات وكل ما لا يعقل لا يوصف بالكفر ومشاقة الله ورسوله بل كلها منقاد خاضعة لأمر الله تعالى ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: الآية ٤٤]، ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [النحل: الآية ٤٩].

فاللائق بالناظم رحمه الله أن يقول: من فرح، فالجواب: إن كان المراد أهل النار وأهل ساوة، فلا إشكال وإن كان المراد ذاتهما فيكون حزن النار على نفسها من أجل أنها لا توقد والماء من أجل أنه لا يجري وإن كانا في خير بولادته ﷺ. وأيضاً فهو إنما قال كأن فشبه حالهما بحال الحزين والأنوار المحسوسة التي ظهرت عند ولادته لأمه ساطعة أي مرتفعة، ويحتمل أن يكون المراد الآيات المذكورات وغيرها سماها أنواراً لأنها تهدي سبيل الحق كما يهدي النور سبيل الحسن والحق يظهر من معنى ومن كلم أي ألفاظه ﷺ. اهـ قسطلاني.

وفي أبي السعود: والجن خلاف الإنس والجان أبوهم، والهتف الصوت الشديد، وسطع النور إذا ارتفع في أطراف السماء، والحق الأمر الثابت وهو من أسمائه تعالى المستحق لجميع الكمالات المقدّس عن سائر النقائص، والمعنى مصدر عنى يعني بمعنى

قصد يقصد وقد يراد به اسم المفعول والكلم: جمع كلمة وهي لفظ موضوع لمعنى مفرد، فيحتمل أن يحمل الكلم على ألفاظ القرآن، والمعنى على ما تضمنه الألفاظ من الحكم والأحكام والمواعظ والقصص، والمراد بالحق حينئذ ما جاء به محمد ﷺ من الشريعة، ويحتمل أن يراد بالكلم الحوادث الكائنة المحسوسة الدالة على نبوّته وبالمعنى المدلول عليه، أعني نفاذ أمره في الخافقين ومضيّ أمره في العالمين، والواوان للعطف أو للاستئناف ولا يحسن أن تكون للحال كل الحسن ومفعول تهتف محذوف لتذهب نفس السامع كل مذهب مما يقتضيه المقام من شواهد النبوّة ودلائل صدق الرسالة، واللامان في الجن والأنوار للعهد، ومن في الموضعين للابتداء، وتنكير معنى وكلم للتفخيم والتعظيم.

والمعنى: أن من علامات استعلاء نائرة نور دينه القويم وأمارات استيلاء دائرة طريقه المستقيم، وتباشير علو شأن هذا النبي الكريم الذي أُرسل رحمة للعالمين ومبشرات هذا الرؤوف الرحيم الذي كان نبياً وآدم بين الماء والطين، ارتفاع أصوات الجن في كل مكان بالإنباء عن ظهور سيد ولد عدنان، وارتفاع بيان الإيمان، وانخفاض ما ارتفع من الشرك والطغيان، وسطوع أنوار الملة الغرّاء، وطلوع كواكب السنة الشهباء، وظهور بدر الحق المبين من مطالع صور الكلم ومكامن أسرار معاني أمور الدين. اهـ.

وللإمام المحقق ابن العماد في شرح هذا البيت: الجن أولاد إبليس لعنه الله وهو يلد كل يوم ألف ولد.

روي أنه له ذكراً في فخذه اليمنى وفرجاً في فخذه اليسرى فينكح نفسه فيلد كل يوم ألف ولد.

واختلف في إبليس، هل هو من الجن أو من الملائكة، على قولين، أحدهما، وهو قول ابن عباس وأكثر المفسرين كما نقله البغوي: أنه من الملائكة. الثاني، وهو قول الحسن: إنه من الجن ولم يكن من الملائكة لقوله تعالى: ﴿كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ [الكهف: الآية ٥٠] فهو أصل الجن كما أن آدم أصل الإنس.

والأول أصح لأن الخطاب كان مع الملائكة، وقوله تعالى: ﴿كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾ [الكهف: الآية ٥٠] أي من الملائكة الذين هم خزنة الجنة، وفي الجن مؤمنون وكافرون، واختلفوا في دخول المؤمنين منهم الجنة[١].

فحكى البغوي عن عبد الله بن ذكوان قال: إذا قضى بين الناس وأمر بأهل الجنة إلى الجنة وبأهل النار إلى النار قال لسائر الأمم ولمؤمني الجن: كونوا تراباً، فيعودون

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١/ ٢٢٦)، (١٥/ ٢٦١)، وتفسير ابن كثير (١/ ٧٨).

تراباً. وتهتف تصيح، يقال: هتف ديك الصبح إذا صاح. اهـ.

قلت: والذي عليه التحقيق أن مؤمني الجن يدخلون الجنة ويتنعمون فيها لقوله سبحانه: «أعددت لعبادي المؤمنين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر»[1]. ولا شك أن فيهم صلحاء وأصحاباً، وفي الحديث: «لهم ما لنا وعليهم ما علينا» كما نبهنا على ذلك في كتابنا مشارق الأنوار. ثم قال رضي الله عنه:

عموا وصموا فاعلان البشائر لم ... تسمع وبارقة الإنذار لم تشم

أي ولا شك أن الكفار الذين لم يؤمنوا به ﷺ بعدما عاينوا من آيات مولده ومبعثه القاطعة عموا وصموا أي هم كالعمي في كونهم لم ينتفعوا بما شاهدوا من معجزاته لأن ثمرة الإبصار الجزي على مشاكلة المبصر، وكالصم في كونهم لم ينتفعوا بما تواتر عندهم من آياته، والتواتر يقوم مقام المعاينة في إفادة العلم لأن العلم الحاصل به من الضروريات وكأنه قسمهم إلى من حضر وشاهد إلا أنه لم يقرّ بمقتضى ما رأى وهؤلاء هم الذين أخبر عنهم بأنهم عموا وإلى من لم يحضر لكن تواترت عنده الأخبار فلم يصدق، وهؤلاء هم الذين أخبر عنهم بأنوا صموا ثم قال: فإعلان، أي إظهار البشائر بصحة رسالته ﷺ وإشاعتها كسطوع الأنوار وإخبار الكهان وهتف الجان لم تسمع وبارقة الإنذار به لم تشم، أي ما لاح لهم مما أنذرهم به من انقضاء دولة الكفار وإذلال أهله الذي هو شبيه بالسيوف بضرب من لم يدخل في الطاعة بها أو كالبرق المنذر بنزول الصواعق وكانقضاض الشهب المنذر بأمر عظيم كخراب الدنيا أو غيره، وذلك كصدع الإيوان وخرب النيران وغيض الأنهار كأن حاضر ذلك لم يره، وهو معنى لم تشم أي لم ينظر إليها وبناء تسمع وتشم للمفعول تنبيه على تمكن العمى والصمم منهم حتى لم يكن منهم في الوجود من يتصف بضدّهما. اهـ قسطلاني.

وفي أبي السعود: العمى ذهاب البصر. وقيل: عدم البصر عما من شأنه أن يكون بصيراً، والصمم ذهاب القوة السامعة، وقيل: عدم السمع عما من شأنه أن يكون سميعاً، والأعلام جمع علم وهو ما ينشر على الرمح من الديباج وغيره مما يشبه المناديل، وفي أكثر النسخ: موضع الأعلام إعلان وهو الأصح وهو مصدر أعلن بمعنى أظهر من العلن المقابل للسر، والبشائر جمع بشارة وهي الإخبار بوقوع أمر سارّ، والبارقة السحابة، والإنذار: مصدر أنذر والشيم: النظر إلى البرق، يقال: شام البرق إذا نظر إليه، والضمير في عموا وصموا عائد إلى الفرس ويجوز أن يعود إلى كل منكر للنبوّة وإن لم يذكر لدلالة المقام عليه. والفاء في إعلان البشائر للسببية فإن عدم السماع لما

---

(١) رواه البخاري (٣/ ١١٨٥)، (٤/ ١٧٩٤)، ومسلم (٤/ ٢١٧٤).

أعلن من البشائر وعدم النظر إلى ما لمع من بوارق أنوار الحق إنما هو بسبب العمى والصمم، وإعلان مرفوع على الابتداء، وجملة لم تسمع مرفوعة المحل على الخبرية والتأنيث في تسمع باعتبار إضافة الإعلان إلى البشائر.

فإن قلت: كيف قدم إعلان البشائر على بارقة الإنذار مع أنه مخل بالترتيب بين اللف والنشر ولم خص البشائر بالإعلان والإنذار بالبارق ولم جمع البشائر وأفرد الإنذار، وما معنى سمع إعلان البشائر وشيم بارقة الإنذار.

قلت: أما تقديم إعلان البشائر على بارقة الإنذار فلأن في عدم ارعوائهم إلى البشائر زيادة مبالغة في التعجب من شدّة جهلهم وغباوتهم بالنسبة إلى عدم ارعوائهم إلى الإنذار، لأنه قد يتعذر لبعض الحمقى عدم التفاتهم إلى الإنذار لأنهم لم يبالوا بالحوادث. وأما عدم التفاتهم إلى المبشرات مع أنها مشتملة على رضوان من الله وهو أكبر كل نعمة فهو لا يحتمل عذراً عند أحد من الجاهلين فضلاً عن العالمين والمقام مقام التعجب من أحوالهم الشنيعة وشؤونهم القبيحة، فتقديم ما هو أهم أنسب بالمقام. وأما جمع البشائر وإفراد الإنذار فللإشارة إلى فضل النعم على النقم وغلبة التحلي باسم العفوّ على التحلي باسم المنتقم. وأما تخصيص الإعلان بالبشائر فليكون المبشر به من مقتضيات العبد الآبق. وأما تخصيص البارقة بالإنذار فلتضمن اللمعان سرعة الزوال التي هي مناسبة للمنذر بالنسبة إلى ما هو مقتضى ذات الكريم الرحيم الغفور.

والمعنى: أن بعضاً ممن بشّر بقدوم النبي ﷺ الذي أُرسل رحمة للعالمين ﷺ وعلى آله وصحبه أجمعين، وشاهد العلامة الدالة على ظهور الحق المبين لم تطرق صماخية طارقة النبأ العظيم ولم يشم ناظراه بارقة ذلك النور المتألق في ظلمة الليل البهيم، وما ذلك إلاَّ أنهم لهم أعين لا يبصرون بها وآذان لا يسمعون بها ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: الآية ٤٦] اهـ. ثم قال رضي الله عنه:

من بعدما أخبر الأقوام كاهنهم ... بأن دينهم المعوجّ لم يقم

أي وكان عماهم عما شاهدوا من الآيات وصممهم عما سمعوا منها من بعدما أخبر الأقوام العمي الصم كاهنهم بأن دينهم المعوج لم يقم. والمراد بالكاهن الجنس، وهم علماؤهم الذين كانوا يخبرونهم بالغيب حسبما يخبرهم بذلك أصحابهم من الجن الذين يسترقون السمع ومن أخبارهم إخبارهم بأمر محمد ﷺ وأنه قرب مبعثه بالحنيفية البيضاء والدين القويم، وأنه يبعث بذهاب دينهم الأسود المعوج وأنه لم يقم أي لم يثبت دين عند الله تعالى أو لم يستقم في حكمه إلاَّ هذا الدين وينخرط في سلك هؤلاء العلماء من اليهود والنصارى ومن قلدهم ممن لم يؤمن به ﷺ فإنهم يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل. اهـ قسطلاني.

وفي أبي السعود: من بعد متعلق بعموا وصموا أو بلم تشم، وما مصدرية، أي من بعد إخبار الأقوام وكاهنهم فاعله وإضافة الكاهن للقوم لما بينهم من الملابسة كشيخهم وأميرهم.

والمعنى: أن القوم الذين طبع على قلوبهم وختم على سمعهم وأبصارهم لم ينجع فيهم ما ظهر من الآيات البينات ولم ينتفعوا بما سطع من أنوار الحجج القاطعات ولم يرعووا إلى ما قرع سمعهم من الزواجر والمواعظ القارعات مع أن شياطينهم الملعونين وكهنتهم الضالين قد أنبؤوهم بأن طريقتهم العوجاء بسبب تبديلهم وتغييرهم أخذت في الاضمحلال والذهاب، وأن صاحب الشريعة الشهباء والسنّة الغراء قد سطعت أنوار تباشير طلائع دولته وطلعت كواكب السعد من أفق سماء ملّته. اهـ. ثم قال رضي الله عنه:

وبعدما عاينوا في الأفق من شهب منقضة وفق ما في الأرض من صنم

أي وهذا العمى والصمم كان بعدما عاينوا بأبصارهم في الأفق من شهب منقضة على الشياطين المسترقين للسمع من الملائكة في السماء ليلة ولادته، أي ساقطة وفق ما في الأرض من صنم، أي انقضت نحو الصنم وهو ما كان مصوّر أو الوثن ما كان غير مصوّر، وقيل: الصنم ما كان من حجر، والوثن ما كان من غيره كالنحاس. وقيل: هما بمعنى واحد. اهـ قسطلاني.

وفي ابن العماد: الأفق بضم الفاء وسكونها واحد الآفاق، والشهب جمع شهاب، وهي الكواكب، ومنقضة منحطة والوفق بكسر الواو من الموافقة بين الشيئين كالالتحام، والصنم ما يتخذ للعبادة من خشب أو نحاس أو حجر.

والمعنى: عموا فلم يؤمنوا من بعدما أخبرهم كهانهم بما سبق وبعدما عاينوا في الأفق من الشهب التي لم يشاهدوها من قبل ذلك. وأشار بذلك إلى قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْءَانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾﴾ [الجن: الآيتان ٨، ٩] وذلك أنهم كانوا قبل مبعث النبي ﷺ يقعدون إلى سماء الدنيا ويسترقون ما يذكر فيها من قول الملائكة، فلما بعث النبي ﷺ حرست السماء بالشهب فعاينوا شيئاً لم يعاينوه من قبل.

قال ابن قتيبة: إن الرجم كان قبل مبعث النبي ﷺ ولكن لم يكن كثيراً كما هو اليوم في شدّة الحراسة.

واختلفوا هل حدث رجم الشياطين بمولده عليه الصلاة والسلام.

وحكى الزمخشري في سورة الجن عن ابن عباس: أن الشياطين كانوا لا يحتجبون عن السماوات فلما ولد عيسى عليه الصلاة والسلام حجبوا عن ثلاث سماوات فلما ولد

سيدنا محمد ﷺ حجبوا من السماوات كلها.

وقوله: وفق ما في الأرض أي منحطة انحطاط الأصنام التي في الأرض، وذلك أن لنبي ﷺ لما ولد خرَّت الأصنام وسقطت فانقضت من مكانها كما يسقط الكوكب من السماء وشاهد الكفار جميع ذلك ولم يؤمنوا. اهـ. ثم قال رضي الله عنه:

حتى غدا عن طريق الوحي منهزم ... من الشياطين يقفو إثر منهزم

أي ولم تزل الشهب تنقض نحو الأصنام وهي جهة الشياطين حتى غدا أي صار عن طريق الوحي الذي يأتي به الملك إلى النبي ﷺ منهزم من الشياطين يقفو أي يتبع إثر منهزم منهم فلم يقعد بعد مبعثه ﷺ أحد منهم على طريق الوحي يسمع منه ما يتكلم به الملائكة عندما يقضي الله الأمر كأنه سلسلة على صفوان كما ورد في الصحيح. ومراده بقوله: منهزم إثر منهزم، جنس المنهزمين، والمراد بالإفراد التكثير والترتيب شيئاً بعد شيء أي فلم يزل دأبهم على تعاقب الأوقات الفرار أو الانهزام ودأب الشهب الانقضاض خلفهم والازدحام. اهـ قسطلاني.

قال ابن العماد: حتى حرف غاية وهي ها هنا للابتداء، وغدا مقابل راح الأول لما قبل الزوال. والثاني لما بعده، وطريق الوحي السماء ويقفو: يتبع وقفوت الشيء تبعته. قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: الآية ٣٦]. والانهزام انفعال من الهزيمة.

والمعنى: أن الشهب انقضت من السماء حتى صار كل من الشياطين منهزماً تابعاً انهزامه إثر منهزم آخر من الشياطين. ويجوز قراءة غدا بالغين المهملة من الغدو وهو شدة السير، يعني أن الشياطين لما رميت بالشهب هربت وصار بعضها يعدو خلف بعض. اهـ.

ثم شبَّههم في هزيمتهم وتبدد شملهم، فقال:

كأنهم هرباً أبطال أبرهة ... أو عسكر بالحصى من راحتيه رمي

أي كأنهم في حال هربهم أبطال أبرهة بالصرف ضرورة والأصل عدم صرفه للعجمة والعلمية، وهو صاحب الفيل الذي جاء لهدم الكعبة. ومعنى أبرهة بالحبشية: أبيض الوجه، وسمي البطل بطلاً لأن الدماء تبطل عنده فلا يؤخذ بثأرها أو لأنّ الشجعان تبطل هممهم وشجاعتهم عند ملاقاته. والمراد بالأبطال هنا الشجعان من فرسان أبرهة الذين جاؤوا لهدم الكعبة فأرسل الله عليهم طيراً ترميهم بحجارة من سجيل أي طين محرق فهرب أبطالهم يطلبون النجاة في سائر الجهات، ولات حين مهرب لهم بل تفرّقت عليهم الحجارة وترادفت فلا تخطىء واحد منهم فصرخ القوم وصاح بعضهم في بعض يتساقطون بكل طريق ويهلكون على كل منهل وكان الحجر لا يصيب شيئاً إلاّ هشمه وما

وقع حجر منها على رجل إلاَّ خرج من الجانب الآخر وإن وقع على رأسه خرج من دبره، قال بعضهم: كان الحجر إذا غاص في دماغ الرجل ذهب منه السمع والبصر وإذا غاص في جوفه قطع أمعاءه. نعوذ بالله من عذابه ومقته.

وأرسل الله تعالى على أبرهة داء في جسده فجعلت أنامله تتساقط وما مات حتى انشق صدره عن قلبه، عافانا الله من بلائه. هذا ملخص هذه القصة وفي بسطها طول يخرج عن المقصود.

وشبَّههم أيضاً في هربهم بقوله: أو عسكر بالحصى التي هي حجارة صغار صبية من راحتيه الشريفتين رمى، وهم الذين جاهدهم ﷺ في غزوة حنين وقد حشروا له فأخذ رسول الله ﷺ كفاً من حصى ورمى به في وجه من ذلك الجمع العظيم فلم يبق أحد منهم إلاَّ أصابه منه في عينيه وولوا هاربين، وكان الكفار يومئذ ما بين التسعمائة إلى الألف فانهزموا وتبعهم المؤمنون يقتلونهم ويأسرونهم.

فتقدير كلام الناظم: كأن الشياطين حالة كونهم هاربين من انقضاض الشهب خلفهم أبطال أبرهة حين ولوا هاربين من انقضاض الحجارة عليهم، أو كأنهم عسكران. رفعنا عسكراً عطفاً على أبطال أو كأنهم أبطال عسكران خفضناه عطفاً على أبرهة حين ولوا هاربين من رميه بالحصى من راحتيه ﷺ، وإنما قال رمي بالبناء للمفعول تنبيهاً على أن ذلك الرمي وإن باشرته كفاه ﷺ فالرامي به حقيقة هو الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: الآية ١٧] اهـ قسطلاني.

وما أفاده الإمام القسطلاني من أن ذلك الرمي كان في غزوة حنين هو رواية مسلم، ورواية البخاري أن ذلك كان في غزوة بدر، ويدل على ذلك قوله: وكان الكفار يومئذ ما بين التسعمائة إلى الألف فإن هذا العدد كان في وقعة بدر وجمع بأن الواقعة تعدّدت.

ونص عبارة الجلال المحلى: كأنهم أي الشياطين هرباً أي في حال هروبهم من الشهب أبطال أي شجعان أبرهة بفتح الهمزة والراء ملك اليمين بنى فيها كنيسة ليصرف إليها الحاج فأحدث رجل من كنانة فيها ولطخ قبلتها بالعذرة فحلف أبرهة ليهدمنّ الكعبة فجاء بالحبشة وفيل عظيم مع أفيال إلى مكة فحين تهيئوا للدخول والهدم غشي عليهم وولوا هاربين ورموا بحجارة من سجيل كما أخبر الله تعالى في القرآن العظيم في السورة أو عسكر بالرفع بالحصى من راحتيه أي النبي ﷺ رمى فهرب من رميه وذلك في غزوة بدر. رواه البخاري. وفي غزواة حنين رواه مسلم. والراحة بطن الكف. اهـ.

وفي ابن العماد: واختلفوا في عام الفيل، فقيل: قبل مولد النبي ﷺ بأربعين سنة، وقيل: بثلاث وعشرين سنة. قال الإمام البغوي: والأكثرون على أنه العام الذي ولد فيه النبي ﷺ.

قال: والمعنى: كان الشياطين الذين رموا بالشهب في شدّة هربهم شبه أبطال أبرهة في حال كونهم هاربين هرباً شديداً، فهرباً منصوب على الحال من أبطال أبرهة. وقوله: أو عسكر بالحصى من راحتيه أي راحتي رسول الله ﷺ أشار به إلى ما روي أن النبي ﷺ رمى يوم بدر بيده الكريمة الكفار بكف من حصى عليه تراب. وقال: شاهت الوجوه، أي قبحت فلم يبق مشرك إلاّ دخل في عينيه وفمه ومنخره منها شيء فانهزموا وكان الكفار يومئذ ما بين التسعمائة إلى الألف وتبعهم المؤمنون يقتلونهم ويأسرونهم.

قال قتادة: ذكر لنا رسول الله ﷺ: أخذ يوم بدر ثلاث حصيات فرمى بحصاة في ميمنة القوم وحصاة في ميسرة القوم وحصاة في وجوههم، وقال: شاهت الوجوه فانصرفوا وذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: الآية ١٧] قيل: المراد بقوله تعالى: وما رميت أي وما أوصلت الحصى إلى أعينهم بعدما رميته من يدك ولكن الله أوصله إليهم. اهـ. ثم قال رضي الله عنه:

نبذا به بعد تسبيح ببطنهما نبذ المسبح من أحشاء ملتقم

أي رميا بالحصى بعد تسبيح لله عز وجل صادر من ذلك الحصى ببطنهما، أي ببطن راحتيه الشريفتين ﷺ، ويسمى هذا عند أهل البديع الاشتباع وحقيقته أن يضمن كلام سيق لمعنى معنى كلام سيق لمعنى آخر، كقول ابن نباتة رحمه الله:

ولا بدّ لي من جهلة في وصاله فمن لي بخلّ أودع الحلم عنده

ضمّن الغزل الفخر بكونه حليماً وضمّن الفخر بذلك تغير الإخوان إذ ليس منهم من يصلح لإيداع الحلم وفيه أنه لم يعزم على ترك الحلم إلاّ إذا وجد من يردّه إليه إن أودعه إياه وهو في كلام الناظم: أن قصده تشبيه الشياطين عند هربهم من الشهب بأبطال أبرهة أو الكفار المنهزمين بقتال رسول الله ﷺ. ثم استتبع هذه المعجزة بأخرى وهي تسبيح الحصى بكفه ﷺ، ومن هذا كان في قوله نبذا استتباع وهو المدح بشيء على وجه يستتبع المدح بآخر.

وأشار بما ذكره إلى ما رويناه عن أنس رضي الله تعالى عنه أنه قال: أخذ رسول الله ﷺ كفاً من حصى فسبحن في يده حتى سمعنا التسبيح ثم صبهنّ في يد أبي بكر رضي الله تعالى عنه فسبحن في يده ثم في أيدينا فما سبحن.

فإن قيل: ظاهر النظم أن الحصى التي رمى بها الكفار هي التي سبَّحت وأن الرمي بها كان بعد تسبيحها بباطن كفه. وما روي عن أنس إنما يدل على أن الحصى سبَّح في كفه في الجملة.

فالجواب: أنه يحتمل أن يكون الناظم رحمه الله تعالى وإيانا اطلع على أنها سبَّحت في هذا الموطن فإن كان هذا فلا إشكال، وإلاّ كان قوله بعد لترتيب الإخبار كما

قال النحاة في ثم في نحو قوله:

إن من ساد ثم ساد أبوه

والمعنى عند الناظم قصد الإخبار بخرق العادة في كون حصى الكفين أصاب الجمع العظيم، ثم كأنه يقول: وهذا الإخبار الغريب كان بعد إخبار آخر غريب وقع له في الحصى خارق للعادة وهو كونه سبَّح في كفه، والتسبيح التنزيه. قال الجوهري: سبحان الله معناه التنزيه لله، وهو اسم مصدر على الصحيح وفي استيفاء الكلام على مادته طول ذكرت نبذة منه في كتاب بهجة السامع والقاري في ختم صحيح البخاري. اهـ قسطلاني.

وفي ابن العماد: النبذ: الطرح والرمي والتسبيح: التنزيه، والمسبّح يونس عليه السلام، وكان من قصته أنه دعا قومه إلى الإيمان فلم يؤمنوا فتركهم وذهب، وقيل: إنه وعدهم بنزول العذاب فأبوا فلم ينزل عليهم فخرج عنهم مغاضباً لربه آنفاً إلى أن أتى ساحل البحر فذلك قوله تعالى: ﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾﴾ [الصّافات: الآية ١٤٠] أي السفينة المملوءة وكان معه امرأته وابنان له فأركب امرأته في مركب فحال بينهما الموج وجاءت موجة فأخذت أحد ابنيه وأخذ الذئب الآخر فبقي وحيداً فركب سفينة فلما توسط البحر وقفت السفينة فقال الملاحون: هنا عبد آبق، فاقترعوا فمن خرجت القرعة عليه فألقوه في البحر فخرجت القرعة على يونس فألقوه في البحر، وقيل: رمى هو نفسه فالتقمه الحوت فذلك قوله تعالى: ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾﴾ [الصّافات: الآية ١٤١] أي المدحوضين أي المغلوبين.

روي أن الله تعالى أوحى إلى الحوت: «إنا جعلنا بطنك له سجناً ولم نجعله لك طعاماً» فبقي في بطنه سبعة أيام، وقيل أربعين يوماً، فنادى في الظلمات، أي في ظلمة البحر وظلمة بطن الحوت وظلمة الليل، وقيل: إنه ابتلع حوته حوت آخر فهو في ظلماتهم وظلمة البحر، فنادى معترفاً بذنبه أن ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: الآية ٨٧] فذلك قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنبياء: الآية ٨٨].

وروي أنه ﷺ قال: «ما من مكروب يدعو بهذا الدعاء إلاّ استجيب له»، قال في الآية الأخرى: ﴿۞ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾﴾ [الصّافات: الآية ١٤٥] ﴿وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾﴾ [الصّافات: الآية ١٤٦]. والعراء الساحل، روي أن الحوت ألقاه بعدما صار كالفرخ الممعط ثم بلي لحمه ودقّ عظمه ولم يبق له قوة وأنبت الله عليه شجرة من يقطين وهو القرع يستظل بظلها. ومن خواص اليقطين أنه لا يقربه ذباب وجاءته وعلة يشرب لبنها صباحاً ومساء فاشتد لحمه ونبت شعره فاستيقن وقد يبست

الشجرة فأصابه حر الشمس فبكى فأوحى الله تعالى إليه: «تحزن على شجرة يبست ولا تحزن على مائة ألف أو يزيدون أرسلناك إليهم فلم يتبعوك فأردت هلاكهم». والأحشاء جمع حشا وهو الجوف والملتقم الحوت.

والمعنى: طرح ﷺ الحصى بعدما سبح في كفيه طرحاً في وجوههم مثل طرح يونس بعدما سبّح في بطن الحوت شبه نبذ النبي ﷺ بنبذ الحوت وشبه تسبيح الحصى بتسبيح يونس ﷺ وعلى سائر الأنبياء والمرسلين وعلى آلهم وأصحابهم أجمعين. اهـ.

وفي كتابنا النفحات النبوية: أن قومه حين وعدهم أنهم إن لم يؤمنوا تصفّر وجوههم أول يوم ثم تحمر وجوههم ثاني يوم وفي ثالث يوم تسودّ الوجوه، وشاهدوا أول العلامة وطلبوا يونس فلم يجدوه خرجوا بأجمعهم ودوابهم وفرّقوا بين الوالدة وولدها منقادين تائبين داعين بقولهم: اللهم إن ذنوبنا عظمت وجلت يا رب وعفوك أعظم وأجل فعاملنا بما أنت أهله ولا تعاملنا بما نحن أهله. نقل ذلك عن البيضاوي. اهـ، وهذا مصداق قوله تعالى: ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ﴾ [يونس: الآية ٩٨]. ثم قال رضي الله عنه:

جاءت لدعوته الأشجار ساجدة تمشي إليه على ساق بلا قدم

أي أتت لدعوته الأشجار حال كونها ساجدة، أي خاضعة حين دعاها أن تأتيه لحاجته بها أو دعائه إياها إلى الإيمان به حال كونها تمشي إليه على ساق بلا قدم، أي لا قدم يعينها على المشي وإنما ذلك خرق للعادة وتأييد إلٰهي لا يكون إلاَّ بمثله ﷺ، ولم يقل لدعائه تنبيهاً على أنها بأول دعوة واحدة بادرت إلى الامتثال وأل في الأشجار للجنس وإطلاق السجود على الخضوع فيه خلاف، قيل: حقيقة لأنه مشترك، وقيل مجاز فيكون من الاستعارة وساجدة تمشي من الطباق. اهـ.

وفي الشفاء عن ابن عمر قال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر فدنا منه أعرابي فقال: «يا أعرابي أين تريد، قال: إلى أهلي، قال: هل لك إلى خير، قال: وما هو، قال: تشهد أن لا إلٰه إلاَّ الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله، قال: من يشهد لك بما تقول، قال: هذه الشجرة السمرة[1] وهي بشاطىء الوادي، فادعها فإنها تجيب. قال: فدعاها فأقبلت تخدّ، أي تشق الأرض، حتى قامت بين يديه فاستشهدها ثلاثاً فشهدت أنه كما قال ثم رجعت إلى مكانها».

وعن بريدة: سأل أعرابي النبي ﷺ آية فقال له: «قل لتلك الشجرة رسول الله ﷺ

(١) قوله: السمرة بفتح السين، وضم الميم من الطلح، شجر عظيم له شوك.

يدعوك. قال: فمالت الشجرة عن يمينها وشمالها وبين يديها وخلفها فقطعت عروقها ثم جاءت تخدّ الأرض تجرّ عروقها مغبرة حتى وقفت بين يدي النبي ﷺ فقالت: السلام عليك يا رسول الله، قال الأعرابي: مرها فلترجع إلى منبتها، فرجعت فدلت عروقها في ذلك الموضع فاستقرّت، فقال الأعرابي: أئذن لي أسجد لك، قال: لو أمرت أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها. قال: فائذن لي أقبِّل يديك ورجليك فأذن له» اهـ.

ثم أكد رضي الله عنه اعتدالها في مشيها القويم وسلوكها السنن المستقيم بقوله:

كأنما سطرت سطراً لما كتبت ... فروعها من بديع الخط في اللقم

أي كأن الشجرة سطّرت بمشيها إليه ﷺ أو بسجودها في الأرض سطراً لما كتبت. فروعها فاعل كتبت من بديع الخط باللقم بفتح اللام والقاف وهو وسط الطريق، أي كأنما سطّرت فروع تلك الأشجار حين جاءته سطراً من بديع الخط أي المبتدع، أما الحسنة تتميماً للاستعارة وأما لأنه خط لا يعهد مثله من مثلها. وقوله: في اللقم تتميم أي لم تنحرف بما كتبته عن وسط الطريق. وحاصله: أنه شبه تلك الآثار بكتابة كاتب أوقعها على نسبة معلومة في أسطر منظومة وأشار بما ذكره إلى حديث ابن عمر السابق.

وفي حديث ابن مسعود رضي الله عنه: أن الجن قالوا: من يشهد لك، قال: هذه الشجرة، تعالي يا شجرة، فجاءت تجرّ عروقها لها قعاقع فإذا كانت الأشجار تبادر لامتثال أمره ﷺ حتى تخرّ ساجدة فما أشدّ غفلة العاقل لعدم ملازمته السجود لربه ولو في ليلة من الليالي.

وتأمل قول الإعرابي: ائذن لي أن أسجد لك، لما رآه من سجود الشجرة، فرأى أنه أحرى بذلك حتى أعلمه ﷺ أن السجود لا يكون إلاّ لله تعالى، ومكان السجود من الدين عظيم إذ هو غاية الخضوع لأنه تعفير أشرف الأعضاء من الإنسان وهو وجهه في أذلّ الأشياء وأحقرها، ولشرف منزلته قال النبي ﷺ للذي سأله أن يكون رفيقه في الجنة: «أعنيّ على نفسك بكثرة السجود» فينبغي للخائف من ربه أن يبادر لامتثال ما دعا إليه رسول الله ﷺ فيلازم السجود ويقوم على ساق العبودية وإن لم يكن له قدم كما قامت الشجرة على ذلك. اهـ قسطلاني.

قال في الشفاء وفي الصحيح من حديث جابر بن عبد الله الطويل: ذهب رسول الله ﷺ يقضي حاجته فلم ير شيئاً يستتر به فإذا بشجرتين بشاطىء الوادي فانطلق رسول الله ﷺ إلى إحداهما فأخذ ببعض من أغصانها وقال: انقادي عليّ بإذن الله. فانقادت معه كالبعير المخشوش الذي يصانع قائده. وذكر أنه فعل بالأخرى مثل ذلك حتى إذا كان بالمنصف أي الوسط بينهما، قال: التئما عليَّ بإذن الله، فالتأمتا.

ومن ذلك حديث أنس: أن جبريل عليه السلام قال للنبي ﷺ ورآه حزيناً: «أتريد أن أريك آية، قال: نعم. فنظر رسول الله ﷺ إلى شجرة من وراء الوادي فقال: ادع تلك الشجرة، فجاءت تمشي حتى قامت بين يديه، فقال: مرها فلترجع، فعادت إلى مكانها» اهـ.

والمخشوش بميم مفتوحة وخاء ساكنة وشينين معجمتين هو الذي وضع في أنفه برة أي حلقة من حديد أو غيره فيها حبل أو يربط بأنفه عود فإن جعل في أنفه حبل من شعر فذلك الخزام.

وفي ابن العماد: سطرت يروى بتشديد الطاء وتخفيفها، وأصل كتب جمع وسميت الكتابة كتابة لما فيها من جمع الحروف، والبديع بمعنى مبدع بفتح الدال واللقم وسط الطريق. المعنى شبه فروعها عند مشيها في الأرض بالأقلام وشبه أثر مشيها على الأرض بالحروف المكتوبة، وشبهت الشجرة بالكاتب وشبه الأرض وهي اللقم باللوح فقال: كأن الأشجار في مشيها قد سطرت سطراً على الأرض، وكتبت كتابة بديعة حسنة على اللقم. اهـ. ثم قال رضي الله عنه:

مثل الغمامة أنى سار سائرة تقيه حرّ وطيس للهجير حمى

أي وهذه الآية مثل آية الغمامة في التسخير أنى سار سائرة تقيه ﷺ بتظليلها له حرّ وطيس للهجير حمى بسكون الياء وأصلها الفتح يعني: أن الأشجار في سلوكها قصده ﷺ وإتيانها إياه حيث كان أمرها بذلك مثل الغمامة في سيرها أنى سار مظلة واقية له من حرّ الهجير وهو نصف النهار الذي يشبه في حرارته حرّ الوطيس وهو التنور. ويحتمل أن يكون حمى في موضع الحال من الهجير أي وقد حمى. ويحتمل أن يكون حمى اسم فاعل. اهـ قسطلاني.

وفي الشفاء: ومن ذلك إظلال الله تعالى له بالغمام في سفره.

وفي رواية: أن خديجة ونساءها رأينه لما قدم وملكان يظلانه فذكرت ذلك لميسرة فأخبرها أنه رأى ذلك منذ خرج معه في سفره.

وقد روي أنَّ حليمة رأت غمامة تظله وهو عندها. وروي ذلك عن أخيه من الرضاعة. اهـ.

وفي أبي السعود: المثل من هو على أخص الأوصاف، والغمامة: سحاب يعم الأفق، وأنى بمعنى كيف. قال تعالى: ﴿فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٢٣] وقد تجيء بمعنى متى استفهاماً كقولك: أنى القتال، والسير: الحركة الشديدة الكثيرة، والوطيس: التنور، ومنه قولهم: كانوا ذو وطيس، والهجير: السير في الهاجرة، وحمى لازم بمعنى سخن يتعدّى بالباء وبعلى وبالهمزة، ومثل خبر لمبتدأ محذوف أي المذكور

من المعجزات أو مجيء الأشجار مماثل ومضاه لتظليل الغمام، وأنى سار متعلق بسائرة وسائرة قرىء مرفوعاً والجملة في محل النصب على الحال وتقيه استئناف أو حال وبالهجير متعلق بحمى، والجملة صفة وطيس والباء بمعنى في والأحسن أن تجعل تجريدية، وينزل الهجير بمنزلة ما يحمى به الوطيس من الحطب والفحم، وقرىء للهجير واللام للاختصاص أو أحلية.

والمعنى: أن تسخير الله سبحانه وتعالى الأشجار له ﷺ كتسخير الغمام له يظله ويسير معه الغمام كالإكليل فوق رأسه ليحفظ بدنه المطهَّر وجسمه المنوَّر من حرّ سموم الهجير بأمر من هو على كل شيء قدير، فإنه كما حفظ باطنه من الشين والرين كذلك حفظ ظاهره من أذى الملوين، وكما سخر له العالم السفلي من المياه والأشجار والأحجار فكذلك سخر له العالم العلوي من الشمس والقمر والغمام والأمطار، فهو النبي المطاع وهو الرسول الواجب الاتباع.

روى محمد بن إسحٰق بن يسار: أن أبا طالب خرج في ركب إلى الشام تاجراً، فلما تهيأ للرحل وأجمع للمسير ذهب إليه رسول الله ﷺ فأخذ بزمام ناقته وقال له: يا عم إلى من تكلني لا أب لي ولا أم. فرقّ له أبو طالب فقال: والله لأخرجن به معي ولا يفارقني ولا أفارقه أبداً. فخرج وهو يرمقه فلما نزل الركب بصرى من أرض الشام وفيها راهب يقال له بحيرى في صومعة وكان أعلم أهل النصرانية وكان كثيراً ما يمرّون به فلا يكلمهم ولا يلتفت إليهم، ولما نزلوا ذلك العام قريباً من صومعته صنع لهم طعاماً وذلك بسبب ما رآه وهو أنه رأى غمامة بيضاء تظلّ النبي ﷺ، فلما نزلوا قريباً من صومعته نظر إلى النبي ﷺ قد نزل قريباً من شجرة فنظر الغمامة قد أظلّته تحتها، فلما رأى ذلك نزل من صومعته وأرسل إليهم: إني قد صنعت لكم طعاماً يا معشر قريش وإني أحب أن تحضروا كلكم صغيركم وكبيركم حركم وعبدكم. فقال رجل منهم: يا بحيرى إنّ لك اليوم لشأناً عظيماً ما كنت تصنع هذا فيما مضى وكنا نمرّ عليك كثيراً فما بالك اليوم، فقال له: صدقت قد كان ما تقول ولكنكم ضيوف قد أحببت أن أكرمكم وأصنع لكم طعاماً. فاجتمعوا له وتخلّف رسول الله ﷺ من بين القوم لحداثة سنه في رحال القوم، فلما رأى بحيرى القوم ولم ير ما عهد فيما بينهم قال: لا يتخلّف أحد منكم عن طعامي هذا، فقالوا: ما تخلّف منا أحد ينبغي أن يأتيك إلاّ غلام هو أحدث القوم سناً تخلّف في رحالنا قال: فلا تفعلوا دعوه حتى يحضر هذا الطعام، فقال رجل من قريش: والله إن هذا للؤم منا أن يتخلف ابن عبد الله بن عبد المطلب عن الطعام من بيننا، قال: ثم قام إليه فاحتضنه ثم أقبل به فأجلسه مع القوم. فلما رآه بحيرى جعل يلحظه لحظاً شديداً وينظر إلى أشياء من جسده كان قد يجدها عنده من صفته، حتى إذا فرغ القوم من الطعام وتفرّقوا قال له بحيرى: يا غلام إني أسألك باللات والعزى إلاّ أخبرتني عما أسألك

عنه، فقال له ﷺ: لا تسألني باللات والعزى فوالله ما أبغضت شيئاً مثلهما قط، فقال: بالله إلاّ ما أخبرتني عما أسألك، فقال ﷺ: سل عما بدا لك. فجعل يسأله عن أشياء من حاله في نومه ويقظته فجعل رسول الله ﷺ يخبره فيوافق ما علمه في الإنجيل من أحواله، ثم نظر في كتفه فرأى خاتم النبوّة فأقبل على عمه أبي طالب فقال له: ما هذا الغلام منك، فقال له: ابني، فقال له بحيرى: ما هو ابنك ولا ينبغي لهذا الغلام أن يكون له أب حيّ، قال: فإنه ابن أخي، قال: فما فعل أبوه، فقال: مات وأمه حبلى به، فقال: صدقت ارجع بابن أخيك إلى بلده واحذر عليه اليهود فوالله إن رأوه وعرفوا منه ذلك ما تدري الذي يفعلونه به من الشرّ فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن، فاسرع به إلى بلده. فخرج به مسرعاً حتى أقدمه مكة وكان سنه ﷺ إذ ذاك اثنتي عشرة سنة كما تقدم أول الكتاب.

وفي الشفاء زيادة على ما تقدّم ونصه: ومن ذلك حديثه مع الراهب في ابتداء أمره إذ خرج تاجراً مع عمه أبي طالب وكان الراهب لا يخرج إلى أحد فخرج وجعل يتخللهم حتى أخذ بيد رسول الله ﷺ فقال: هذا سيد العالمين يبعثه الله رحمة للعالمين، فقال له أشياخ من قريش: ما علمك، قال: إنه لم يبق شجر ولا حجر إلاّ خرّ ساجداً له ولا تسجد إلاّ لنبي. وذكر القصة، ثم قال: وأقبل رسول الله ﷺ وعليه غمامة تظله فلما دنا من القوم وجدهم قد سبقوه إلى فيء الشجرة فلما جلس مال الفيء إليه صلوات الله وسلامه عليه. اهـ.

وقد تقدّم هذا كله في أول الكتاب عند بلوغه ﷺ اثنتي عشرة سنة، وذكر أبو طالب ذلك في قصيدته الدالية، فقال:

إنَّ ابن آمنة النبي محمدا ... عندي بمثل منازل الأولاد
لما تعلق بالذمام رحمته ... والعيس قد أقلصن بالأولاد
فأفاض من عينيّ دمعاً ذارفاً ... مثل الجمان مفرد الأفراد
راعيت منه قرابة موصولة ... وحفظت فيه وصية الأجداد
وأمرته بالسير بين عمومة ... بيض الوجوه نصالة الأنجاد
حتى إذا ما لقوا بصرى عاينوا ... لاقوا على شرف من الرصاد
حبراً فأخبرهم حديثاً صادقاً ... عنه وردّ معاشر الحساد
قوماً يهوداً قد رأوا ما قد رأوا ... ظلّ الغمام وغرّة الأكباد
ساروا لقتل محمد فنهاهمو ... عنه وأجهد غاية الإجهاد

وكما سخرت له ﷺ الجمادات الأرضية السفلية، فكذلك الجمادات السماوية

العلوية، فانشق له القمر كما أشار إليه الناظم مخبراً عن نفسه أنه أنشأ الحلف بقوله:

أقسمت بالقمر المنشق أنّ له   من قلبه نسبة مبرورة القسم

فقوله: أقسمت بالقمر المنشق، أي له ﷺ، آية اسم مفعول من شققته فانشق إذا قسمته، وأشار بهذا إلى ما رويناه عن أنس وابن عباس رضي الله عنهم: «أنّ أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ آية فأراهم انشقاق القمر مرتين»[(١)].

وعن ابن مسعود رضي الله عنهما قال: «بينما نحن مع رسول الله ﷺ بمنى إذ انشق القمر فلقتين فكانت فلقة وراء الجبل وفلقة دونه، فقال لنا رسول الله ﷺ: اشهدوا»[(٢)] وفي بعض الروايات فقال كفار مكة: هذا سحر فابعثوا إلى أهل الآفاق حتى ينظروا أرأوا مثل هذا أم لا. فأخبر أهل الآفاق أنهم رأوه منشقاً فقال كفار قريش: هذا سحر مستمر. وفي رواية قالوا: إن كان محمد سحر القمر فإنه لا يبلغ من سحره أن يسحر الأرض كلها، فاسألوا من يأتيكم من بلد آخر. فسألوهم فأخبروهم أنهم رأوا مثل ذلك. فقالوا: هذا سحر مستمر، فأنزل الله تعالى: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴿١﴾﴾ [القمر: الآية ١] الآية، وسمى القمر قمراً لبياضه أو لاستنارته أو لأنه يقمر العيون، أي يغلبها بنوره، ويسمى بذلك بعد ثلاث ليال إلى آخر الشهر[(٣)].

فائدة: ذكر التاج الفراء في كتاب التفاسير في تفسير سورة الرحمٰن: أن سعة القمر ألف فرسخ. وزعم أهل الهيئة أنه ليس في سماء الدنيا من الكواكب السيارة سوى القمر، فالله أعلم.

وهذا القسم الذي أقسم به الناظم رحمه الله إما أن يكون قسماً بالقمر على عادة الأدباء وإما أن يكون على تقدير مضاف، أي برب القمر. ويحتمل أن يكون جواب القسم قوله: بعدما سامني الدهر، إلى آخر البيتين وما بينهما جمل اعتراضية، ويحتمل أن يكون الجواب قوله: أن له، أي للقمر، من قلبه الشريف نسبة بالنصب اسم أن مبرورة أي مصدوقة القسم، ومنه اليمين بارة أي صادقة ونسبة القمر من قلبه ﷺ أن قلبه الشريف إنما شق وغسل لتتمكن فيه معارف النبوة ثم يظهر ذلك للناس بعد، فكذلك القمر إنما شقّ لتظهر النبوّة وتتقرر للمكلفين.

وأيضاً فإن القمر نوره يتلألأ وقلبه ﷺ أنور منه، ولذلك جعل الناظم النسبة للقمر من قلبه ولم يجعل النسبة لقلبه من القمر. وأيضاً فإن القمر انشق مرتين وكذلك قلبه ﷺ

---

(١) رواه مسلم (٤/ ٢١٥٩)، وأحمد في المسند (٣/ ٢٠٧، ٢٢٠).

(٢) رواه البخاري (٤/ ١٨٤٤)، ومسلم (٤/ ٢١٥٩).

(٣) انظر: الفتح (٧/ ١٨٢)، وتحفة الأحوذي (٦/ ٣٤٢).

انشق مرتين، مرة في زمن الصبا وكان ذلك لاستخراج حظ الشيطان منه وهي العلقة السوداء، ومرة عند الإسراء به للوحي. وإنما أنشأ الحلف بلفظ الماضي لا المضارع إشا ة إلى تحقيق وقوع هذا الأمر وإن اعتقاده مطوي عليه منذ عقل وقدّم من قلبه على نسبة للاهتمام به.

واختلف المعرّبون في مبرورة، فقيل: نعت لنسبة، أي إن أقسم على كينونة هذه النسبة وثبوتها بيمين فيمينها مبرورة. وقيل: خبر مبتدأ محذوف، أي يمين مبرورة القسم وحذف الموصوف للعلم به لأن صفته مختصة به.

وأشار الناظم رحمه الله بما ذكره إلى ما رواه ابن إسحٰق عن ثور بن يزيد عن بعض أهل العلم أن نفراً من الصحابة قالوا: «يا رسول الله أخبرنا عن نفسك، قال: نعم، أنا دعوة أبي إبراهيم وبشرى عيسى، ورأت أمي حين حملت بي أنها خرج منها نور أضاءت له قصور الشام، واسترضعت في بني سعد بن بكر، فبينما أنا مع أخ لي خلف بيوتنا نرعى غنماً إذ أتاني رجلان عليهما ثياب بيض بطشت من ذهب مملوء ثلجاً، فأخذاني فشقا بطني ثم استخرجا قلبي فشقاه فاستخرجا منه علقة سوداء فطرحاها ثم غسلا قلبي وبطني بذلك الثلج حتى أنقياه». ويحتمل أن يكون أشار به إلى شق قلبه ليلة الإسراء ﷺ وعلى آله وصحبه وسلم. اهـ قسطلاني.

وفي الشفاء: عن أسماء بنت عميس من طريقين أن النبي ﷺ كان يوحى إليه ورأسه في حجر علي فلم يصلِّ العصر حتى غربت الشمس، فقال رسول الله ﷺ: «أصليت يا علي، قال: لا، فقال عليه الصلاة والسلام: اللهمَّ إنه كان في طاعتك وطاعة رسولك فاردد عليه الشمس شرقها». قالت أسماء: فرأيتها غربت ثم رأيتها طلعت بعدما غربت ووقعت على الجبال والأرض وذلك بالصهباء في خيبر.

وروى يونس بن بكير بروايته عن ابن إسحٰق: لما أسري برسول الله ﷺ وأخبر قومه بالرفقة والعلامة التي في العير قالوا: متى تجيء، قال: يوم الأربعاء، قال: فلما كان ذلك اليوم أشرفت قريش ينظرون وقد ولى النهار ولم تجيء، فدعا عليه الصلاة والسلام فزيد له في النهار ساعة وحبست عليه الشمس. قال: وهذان الحديثان ثابتان ورواتهما ثقات اهـ.

وكما سخّرت له الجمادات العلوية والسفلية فكذلك سخّر له العنكبوت والحمام، وكأنهما من الأشياء التي بين السماء والأرض لأن الطير من الحمام وغيره مسخّر في جوّ السماء ويلحق به العنكبوت لأنه يسكن غالباً في السقف، وما أشبهها، وإلى هذه الآية أشار الناظم بقوله:

وما حوى الغار من خير ومن كرم ... وكل طرف من الكفار عنه عمي

أي وما جمع الغار الذي هو كالنقب بجبل ثور أسفل مكة، أي أقسمت أيضاً بما جمعه الغار الذي اختفى فيه ﷺ وأبو بكر رضي الله عنه حين هاجرا إلى المدينة من خير بكسر الخاء الكرم، كما قاله الجوهري.

وقيل: كرم النفس وعلى كل تقدير ففيه تكرار مع قوله: ومن كرم، إلاّ أن يفسر بالأخلاق الحميدة والكرم بالجود فيتغايران على التفسير الثاني تغاير الأعم والأخص. وقيل: بفتح الخاء فيكون معناه ضدّ الشر. ويحتمل أن يكون من خير ومن كرم من صفته ﷺ وصفات أبي بكر، ويكون ما واقعه على صفات من يعقل وهو أحد مواضعها نحو قوله تعالى: ﴿فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: الآية ٣] أي الطيب. ويحتمل أن يكون الأول للنبي ﷺ لأن الخير الذي هو كرم النفس يعم جميع الصفات الحميدة وكذلك الخير الذي هو ضد الشر. والثاني لأبي بكر رضي الله عنه لأنه خصصه بالكرم وهو أظهر في الجود، وإنما وصفه بالكرم لأنه آثر رسول الله ﷺ بنفسه وماله ومن ذلك أنهما لما أتيا الغار تقدم أبو بكر في الدخول مخافة أن يكون فيه ما يؤذي النبي ﷺ فيتلقاه بنفسه. فلم ير شيئاً فحمله وأدخله الغار وكان فيه خرق فيه حيات وأفاعٍ فخشي أبو بكر أن يخرج منه شيء يؤذي النبي ﷺ فألقمه قدمه فجعلت الحيات والأفاعي يضربنه ويلسعنه فجعلت دموعه تنحدر ورسول الله ﷺ يقول له: «يا أبا بكر لا تحزن إن الله معنا».

وفي رواية: «فدخل رسول الله ﷺ ووضع رأسه في حجر أبي بكر ونام، فلدغ أبو بكر في رجله من الجحر ولم يتحرك مخافة أن يتنبه رسول الله ﷺ فسقطت دموعه على رسول الله ﷺ فقال: مالك يا أبا بكر، فقال: لدغت فداك أبي وأمي، فتفل رسول الله ﷺ فذهب ما يجده ثم انتقض عليه»[1] أي عاوده، وكان سبب موته.

ومعنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: الآية ٤٠] أي بالنصر والمعونة لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [النحل: الآية ١٢٨] وقد زعمت الرافضة أن في قوله عليه الصلاة والسلام لأبي بكر: لا تحزن، غضباً من أبي بكر وذماً له فإن حزنه ذلك إن كان طاعة فالرسول لا ينهى عن الطاعة فلم يبق إلاّ أنه معصية.

قال السهيلي: يقال لهم على نيّة الجدل: قد قال الله لمحمد ﷺ: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾ [يونس: الآية ٦٥]، وقال تعالى: ﴿لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ [المائدة: الآية ٤١]، وقال لموسى: ﴿خُذْهَا وَلَا تَخَفْ﴾ [طه: الآية ٢١]، وقالت الملائكة للوط: ﴿لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ﴾ [العنكبوت: الآية ٣٣] فإن زعمتم أن الأنبياء حين قيل لهم هذا كانوا في حال معصية فقد كفرتم ونقضتم أصلكم في وجوب العصمة للأنبياء وللإمام المعصوم في

(١) رواه سعيد بن منصور في سننه (١/ ٢١٨).

زعمكم، فإن الأنبياء هم الأئمة المعصومون بإجماع.

وأما قوله: لا تحزن، وقوله عز وجل لمحمد: ﴿لَا يَحْزُنكَ﴾ [المائدة: الآية ٤١] وقوله لأنبيائه مثل ذلك فهو تسكين لجأشهم وتبشير لهم وتأنيس لا على وجه النهي الذي زعموا ولكن كما قال تعالى: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [فصلت: الآية ٣٠] وهذا القول إنما يقال لهم عند دخولهم الجنة وليس إذ ذاك أمر بطاعة ولا نهي عن معصية.

ومن معجزاته ﷺ في قصة الغار ما ذكره بقوله: وكل طرف من الكفار عنه، أي عن المحوى عمي، فلم يبصر ما فيه مع قربهم منه. اهـ قسطلاني.

وفي المحلى قال الصديق رضي الله عنه: «نظرت إلى أقدامهم فوق رؤوسنا فقلت: يا رسول الله لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لرآنا، فقال رسول الله ﷺ: ما ظنّك باثنين الله ثالثهما». رواه البخاري. اهـ.

وفي الشفاء: ومن ذلك العبرة المشهورة والكفاية التامة عندما أخافته قريش وأجمعت على قتله وبيتوه فخرج عليهم من بيته فقام على رؤوسهم وقد ضرب الله على أبصارهم وذرّ التراب على رؤوسهم وخلص منهم، وحمايته عن رؤيتهم له في الغار وبما هيأ الله تعالى له من الآيات والعنكبوت التي نسجت عليه حتى قال أمية بن خلف حين قالوا ندخل الغار: ما أربكم فيه وعليه من نسج العنكبوت ما أرى أنه قبل أن يولد محمد. ووقعت حمامتان على فم الغار فقالت قريش: لو كان فيه أحد لما كانت هناك الحمام. اهـ.

وفي كتابنا مشارق الأنوار نقلاً عن الإمام ابن حجر في كتابه الصواعق أنه قيل: إنَّ الحمام الذي في الحرم وهو الذي أكرمه الله بحرمة التعرض له من ذرية الحمامتين اللتين عششتا في باب الغار. اهـ. ثم قال رضي الله عنه:

فالصدق في الغار والصديق لم يرما ... وهم يقولون ما بالغار من أرم

أي فذو الصدق ﷺ فحذف المضاف في الغار المذكور وأبو بكر الصديق رضي الله عنه معه فيه لم يرما أي لم يبرحا منه لئلا يقال: إنما عمى عما في الغار كل طرف من الكفار بعد خروجهما منه بل ذلك كان وهماً فيه لم يبرحا منه بعد وهم يقولون: وحال الكفار حين نظرهم إليه وهما فيه قولهم: ما بالغار من أرم بفتح الهمزة وكسر الراء أي من أحد. اهـ قسطلاني.

وفي أبي السعود: الفاء في فالصدق للتعليل والصدق مبتدأ وفي الغار خبره والصديق مبتدأ ثان وخبره محذوف لدلالة خبر المبتدأ الأول عليه، أي الصديق كذلك

ولم يرما في موضع الحال ويجوز أن يكون خبراً ثانياً، والواو في وهم يقولون للحال وهم مبتدأ ويقولون خبره، والجملة الاسمية في موضع النصب على الحال وما بمعنى ليس وأرم اسمها ومن زائدة لتوكيد النفي، وبالغار خبره بمعنى في. والجملة مقول القول.

والمعنى: أن النبي الصادق الأمين الذي أرسل رحمة للعالمين وكان متصفاً بالصدق في المقال والأفعال والأحوال حتى صار معدناً للصدق ومنبعاً له يتفرع عليه صدق كل صادق وينبع منه الحق في كل ناطق، وصاحبه العتيق المتحلي منه بالصدق والتصديق حلا في الغار ولم يبرحا عن حلة الحلم والوقار بما حكم عليهما قضاء الجبار الملك القهار وجرى به قدر العزيز الغفار من استيلاء الكفار والاضطرار إلى الفرار من كثرة الأعداء وقلّة الأنصار ولم يلحقهما الغضب والهلع والخوف والفزع عند إقبال الكفار من جميع الجوانب والأقطار محدقين بباب الغار وقد أعمى الله عنهما الأبصار مع تألق الأضواء وتشعشع الأنوار فقال رائدهم: ما بالدار من أحد وذلك من وقاية الأحد الصمد. اهـ. ثم قال رضي الله عنه:

ظنوا الحمام وظنوا العنكبوت على ... خير البرية لم تنسج ولم تحم

ظنوا من الظن والذكر النفسي الذي يحتمل متعلقه النقيض احتمالاً مرجوحاً، ومعنى كلام الناظم: أن الكفار ظنوا بما أعمى الله بصائرهم الحمام وظنوا أيضاً العنكبوت الناسجة على خير البرية نبينا ﷺ لم تنسج بفتح التاء وضم السين ويجوز كسرها ولم يحم عليه لما جرت العادة أن هذين الحيوانين متوحشان لا يألفان معموراً فهما إن أحسا بالإنسان فرّا منه وهذا تسميه أهل البديع لفاً ونشراً غير مرتب لرجوع، تنسج إلى العنكبوت، وتحم إلى الحمام.

وأشار بهذا إلى ما روي عن عائشة رضي الله عنها في حديث قصة الغار قالت: ولما كان ليلة بات النبي ﷺ في الغار أمر الله تعالى شجرة فنبتت في وجه الغار وأمر حمامتين وحشيتين فوقفتا على باب الغار وأتى المشركون من كل بطن حتى إذا كانوا من النبي ﷺ على قدر أربعين ذراعاً معهم قسيهم وعصيهم تقدم رجل منهم فنظر فرأى حمامتين على فم الغار فقال لأصحابه: ليس في الغار شيء رأيت حمامتين على فم الغار فعرفت أن ليس فيه أحد. وقال رجل: ادخلوا الغار، فقال أمية بن خلف: وما أربكم إلى الغار إن فيه لعنكبوتاً أقدم من ميلاد محمد ﷺ. اهـ قسطلاني. ثم قال رضي الله عنه:

وقاية اللّه أغنت عن مضاعفة ... من الدروع وعن عال من الأطم

أي حفظ الله عبده بما شاء مما ألقى من الظن في قلوب الكفار وما أعمى من

أبصارهم، أغنت كلاً من رسول الله ﷺ وأبي بكر رضي الله عنه في التحصين عن مضاعفة من الدروع الحديد وأغنتهما أيضاً عن عال أي مرتفع من الأطم بضم الهمزة والطاء أي الحصون. وفسَّر بعضهم المضاعفة من الدروع بأن يلبس درعاً فوق آخر والصواب أن المضاعفة هي الدروع التي نسجت حلقتين حلقتين. وأجاز بعضهم أن يكون وقاية خبر مبتدأ محذوف تقديره هذا الأمر كما قدرناه، والراجح أن يكون مبتدأ خبره أغنت ومن الدروع صفة لمضاعفة من الأطم نعت لعال اهـ قسطلاني.

وفي ابن العماد: حماية الله وصيانته أغنت نبيه ﷺ عن حماية الدروع وحماية الحصون. وأشار المصنف إلى أن الحماية وقعت بأضعف الأشياء وهو بيض الحمام ونسج العنكبوت ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾ [العنكبوت: الآية ٤١] فسبحان الغالب على أمره. اهـ.

وفي المحلى: وقاية الله له ﷺ بهذا الضعيف جداً من عدوه العظيم عدداً ومدداً أغنت عن مضاعفة من الدروع أي عن الدروع المضاعفة وهي المنسوجة حلقتين حلقتين تلبس للحفظ وعن عال من الأطم بضم الهمزة والطاء أي الحصون يتحصن فيها من هذا العدوّ الذي أخرج النبي ﷺ، قال الله تعالى: ﴿فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [التوبة: الآية ٤٠] اهـ. ثم قال رضي الله عنه:

ما سامني الدهر ضيماً واستجرت به　　إلاً ونلت جواراً منه لم يضم

قد تقدم احتمال كون جواب القسم وهو ما حلف عليه في قوله: أقسمت، هو قوله: ما سامني الخ، أي ما أرادني الدهر ضيماً أي ظلماً أو ذلاً. وفي بعض النسخ ما ضامني الدهر ضيماً، واستجرت النبي ﷺ أي طلبته أن يجيرني إلاً والحال أني قد نلت جواراً بكسر الجيم في الأفصح ويجوز ضمها أي قرباً منه ﷺ لم يضم الجوار المذكور قط. اهـ قسطلاني.

وفي كتابنا مشارق الأنوار نقلاً عن المواهب اللدنية ما نصه: وينبغي للزائر له ﷺ أن يكثر من الدعاء والتضرع والاستغاثة والتشفع والتوسل به ﷺ فجدير بمن استشفع به أن يشفعه الله. واعلم أن الاستغاثة طلب الغوث فالمستغيث يطلب من المستغاث به أن يحصل له الغوث فلا فرق أن يعبر بلفظ الاستغاثة أو التوسل أو التشفع أو التوجه أو التجوه لأنهما من الجاه والوجاهة ومعناهما علوّ القدر والمنزلة ثم إن كلاً من الاستغاثة والتوسل والتشفع والتوجه بالنبي ﷺ كما ذكره في تحقيق النصرة واقع في كل حال قبل خلقه وبعد خلقه في مدة حياته في الدنيا ﷺ وبعد موته في مدة البرزخ وبعد البعث في عرصات القيامة. فأما الحالة الأولى فحسبك استشفاع آدم عليه الصلاة والسلام لما خرج من الجنة وقول الله تعالى: «يا آدم لو تشفعت إلينا بمحمد في أهل السماوات والأرض

لشفعناك». وفي رواية عند الحاكم والبيهقي: «وإذا سألتني بحقه فقد غفرت لك». ويرحم الله الإمام ابن جابر حيث قال:

بـه آدم قـدمـاً أجـيـب دعـاؤه ... بـه نـال إنـجـاء الـسـفـيـنـة نـوح

ومـا ضـرّت الـنـار الـخـلـيـل لـنـوره ... ومـن أجـلـه نـال الـفـداء ذبـيـح

ولنا التوسل به بعد خلقه في مدة حياته، فمن ذلك الاستغاثة به عند القحط وعند عدم الإمطار والاستغاثة به عند الجوع وإغاثة ذوي العاهات. قال: ومما حصل لي أنه كان بي داء أعيا الأطباء وأقمت به سنين فاستغثت به ﷺ ليلة الثامن والعشرين من جمادى الأولى سنة ثلاث وتسعين وثمانمائة بمكة زادها الله شرفاً، فبينما أنا نائم إذا رجل معه قرطاس يكتب فيه: هذا دواء داء أحمد بن القسطلاني من الحضرة الشريفة بعد الإذن الشريف النبوي. فاستيقظت فلم أجد بي والله شيئاً مما كنت أجده وحصل الشفاء ببركة النبي المصطفى ﷺ.

وأما التوسل به في البرزخ وعرصات القيامة فمما قام عليه الإجماع وتواترت به الأخبار، فعليك أيها الطالب إدراك السعادة، والمؤمل لنيل الحسنى وزيادة، بالتعلق بأذيال عطفه وكرمه والتطفل على موائد نعمه والتوسل بجاهه الشريف والتشفع بقدره المنيف، فهو الوسيلة إلى نيل المعالي واقتناص المرام والمفزع لفك الكرب عن سائر الأنام ولازم قرع أبواب السعادة وارق في مدارج حبه بكثرة الصلاة عليه تظفر بالحسنى وزيادة، ومما قيل عن لسان الحضرة النبوية للزوار:

تـمـتـع إن ظـفـرت بـنـيـل قـربـي ... وحـصـل مـا اسـتـطـعـت مـن اذخـاري

فـهـا أنـا قـد أبـحـت لـكـم عـطـائـي ... وهـا قـد صـرت عـنـدي فـي جـواري

فـخـذ مـا شـئـت مـن كـرم وجـود ... ونـل مـا شـئـت مـن نـعـم غـزار

فـقـد وسـعـت أبـواب الـتـدانـي ... وقـد قـربـت لـلـزوّار داري

فـمـتـع نـاظـريـك فـهـا جـمـالـي ... تـجـلّى لـلـقـلـوب بـلا اسـتـتـار اهـ

ثم قال رضي الله تعالى عنه:

ولا الـتـمـسـت غـنـى الـداريـن مـن يـده ... إلا اسـتـلـمـت الـنـدى مـن خـيـر مـسـتـلـم

أي ولا التمست أيضاً غنى الدارين الدنيا والآخرة من يده ﷺ إلاَّ استلمت من قولهم استلمت الحجر أي لمسته إما باليد أو بالفم وقد يتجوّز به فيقال: استلمت معروفه أي تناولته باليد منه، أي لمست وتناولت الندى وهو الجود والكرم من خير مستلم، أي مطلوب منه. وفي قوله: ما سامني إلى آخر البيتين، براعة المطلب وهو أن يلوح بالطلب بألفاظ عذبة خالية عن الإجحاف، مقترنة بتعظيم الممدوح تشعر بما في النفس دون كشفه

وقيود هذا الحد كلها موجودة فيهما وكأنه أشار إلى ما قصده من التوسل بهذه القصيدة إلى النبي ﷺ في أن يشفع فيه لربنا سبحانه وتعالى حتى يشفى من مرضه الزمن الذي أعيا الأطباء.

وبراعة المطلب استخرجها عز الدين الزنجاني في كتاب المعيار وفي قوله: ما سامني الدهر ضيماً: إشكال، فإن ما ينسب للدهر إنما فاعله هو الله تعالى فكيف يصح نسبة الظلم إليه سبحانه وتعالى ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصّلت: الآية ٤٦] والظلم: وضع الشيء في غير محله، فلا بد من تأويل كلام الناظم فإما أن يكون على حذف مضاف أي ما سامني أهل الدهر الذين يصح منهم الظلم أو أنه جرى فيه على عادة أهل الأدب ومهيع كلام العرب على نحو ما تقدم، فإن قيل: إخباره عن نيل ما التمس من النبي ﷺ من غنى الدنيا بين مشاهد بالحس فكيف تصحيح إخباره عن نيل غنى الآخرة. فالجواب: أنه أيضاً مشاهد بقوّة يقين الإيمان بمنزلته ﷺ عند ربه. وأطلق اليد في قوله: غنى الدارين من يده وأراد بها جملة الذات الكريمة لأن باليد يكون تناول ما يعظم اهـ قسطلاني.

وفي المحلى: ولا التمست أي طلبت غنى الدارين الدنيا والآخرة بالكفاية في الأولى والسلامة في الأخرى من يده، أي نعمته وإحسانه إلاَّ استملت الندى أي أخذت العطاء من خير مستلم منه أي حصل لي مطلوبي منه فإنه ﷺ لا يرد سائله وبيديه خير الدنيا والآخرة.

وفي الصحيحين عن جابر: «ما سئل رسول الله ﷺ شيئاً قط فقال لا». اهـ. ثم شرع يذكر بدء الوحي فقال:

لا تنكر الوحي من رؤياه إن له قلباً إذا نامت العينان لم ينم

قوله: لم ينم أي القلب لأنه قد شق وطهر من التعلق بغير الله وملىء حكمة وإيماناً فاليقظة الدائمة صفته، فحسن منه أن يخاطب ويتلقى الوحي لا كالقلوب التي تنام حتى تنام أعينها. ولا في قوله: لا تنكر ناهية وتنكر مجزوم بها وكسر لالتقاء الساكنين ويحتمل أن تكون من لابتداء الغاية، أي لا تنكر ابتداء الوحي من رؤياه.

فإن قلت: إنه ﷺ نام هو وأصحابه في الوادي فلم يوقظهم إلاَّ حر الشمس.

فالجواب: أن دخول أوقات الصلاة يتعلق بالنظر دون القلب لأن مشاهدة طلوع الشمس وغيرها إنما هو بالعين، والعين قد كانت أخذت حظها من النوم ونظر القلب إنما هو فيما غاب عن الشواهد. اهـ قسطلاني.

وفي المحلى: لا تنكر الوحي من رؤياه له في المنام إن له قلباً إذا نامت العينان منه

لم ينم، أي قلبه، وهو مهبط الوحي. وفي الصحيحين: «إن عينيّ تنامان ولا ينام قلبي»[1] اهـ.

وقال ابن العماد: الوحي: الإعلام بالإشارة والكتابة والرسالة وكل ما ألقيته إلى غيرك حتى يعلمه فهو وحي، والرؤيا مصدر يقال: رأى في منامه رؤيا ورأى بعينه رؤية ورأى بقلبه وعقله رأياً.

المعنى: يقول: لا تنكر أيها المخاطب الوحي الناشىء من منامه، ويروى: لا ينكر بضم الياء المثناة من تحت على البناء للمجهول فإن الذي يراه الأنبياء في النوم كله حق. ألا ترى إلى قول إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ﴾ [الصافات: الآية ١٠٢]. وكان ﷺ في صغره «لا يرى رؤيا إلاّ جاءت مثل فلق الصبح»[2]. وقال ﷺ: «رؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوّة»[3]. وفي رواية: «من خمس وأربعين»[4] وفي أخرى: «من سبعين جزءاً»[5].

قال ابن الأثير في حواشي مختصر جامع الأصول: وسر هذا الحديث أنه عاش ﷺ ثلاثاً وستين سنة على الصحيح، ومدة نبوّته ثلاث وعشرون سنة ومكث ﷺ قبل ذلك ستة أشهر يوحى إليه في المنام كما في صحيح البخاري: «أول ما بدىء به رسول الله ﷺ الرؤيا الصالحة في المنام فكان لا يرى رؤيا إلاّ جاءت مثل فلق الصبح ثم حبب إليه الخلاء» الحديث. ونسبة الستة الأشهر إلى الثلاث والعشرين سنة جزء من ستة وأربعين.

وأما من روى السبعين قال ابن الأثير: فلا أعلم له وجهاً.

قال شيخنا شمس الدين بن الصائغ: يمكن تأويله على أنه عليه الصلاة والسلام لم يقصد بالسبعين خصوصية العدد بل التكثير على حد أن يستغفر لهم سبعين مرة.

وقوله: إن له قلباً، تعليل للنهي عن إنكار الوحي الحاصل في المنام لأنه إذا كان قلبه لا ينام انتفى عنه حديث النوم فصار كالمستيقظ اهـ ببعض تغيير.

ولما كان كلامه قد يتوهم سامعه أن الوحي إليه ﷺ دائماً إنما كان في النوم، رفع ذلك الإيهام بقوله:

وذاك حين بلوغ من نبوّته فليس ينكر منه حال محتلم

(١) رواه البخاري (١/ ٣٨٥)، ومسلم (١/ ٥٠٩).
(٢) رواه البخاري (١/ ٤)، ومسلم (١/ ١٤٠).
(٣) رواه البخاري (٦/ ٢٥٦٢)، ومسلم (٤/ ١٧٧٣).
(٤) رواه مسلم (٤/ ١٧٧٣).
(٥) رواه مسلم (٤/ ١٧٧٣).

أي وذاك الوحي الثابت من رؤياه حال النوم كان أو ثبت حين بلوغ أي وصول من نبوّته إليه ﷺ فليس ينكر منه ﷺ. وفي بعض النسخ فيه بدل منه أي ليس ينكر في الزمان المذكور رؤياه الوحي حال محتلم، فإن ذلك إنما كان في ابتداء النبوّة ليتأنس بها وبملاقاة الملك فإنه لو جاءه ابتداء لأمكن أن لا يطيق ملاقاته، فلما تقوى حاله وتأنس أتاه الوحي في اليقظة. فضمير ينكر النائب عن الفاعل عائد على الوحي وضمير منه عائد عليه ﷺ وحال منصوب على الظرف، ومحتلم على حذف مضاف أي حال احتلام محتلم، وقيل في تفسيره غير هذا مما يطول ذكره. اهـ قسطلاني.

قال المحلى: وذاك، أي رؤياه الوحي في النوم حين بلوغ من نبوّته، أي وصوله إليها وقد نبىء على رأس أربعين سنة من عمره وهي حدّ مبدأ النبوّة، فليس ينكر فيه أي في الزمان المذكور حال محتلم من رؤياه الوحي في النوم. اهـ.

وفي ابن العماد: أن ذلك الوحي الحاصل من الرؤيا كان عند بلوغه ﷺ أول وقت نبوّته لأنه ﷺ أقام ستة أشهر يرى الوحي في المنام وبعد ذلك صار الملك يأتيه في اليقظة. واختلفوا هل كان الملك يتحلى بصفة البشرية حتى يأتي النبي ﷺ أو النبي ﷺ يتحلى بصفة الملائكة. اهـ.

وفي كتابنا مشارق الأنوار نقلاً عن المواهب ما نصه نقلاً عن العز بن عبد السلام: فإن قلت إذا لقي جبريل النبي ﷺ في صورة دحية الكلبي فأين تكون روح جبريل، فإن كانت في الجسد الذي له ستمائة جناح فالذي أتى حينئذ لا روح جبريل ولا جسده، وإن كانت في هذا الذي في صورة دحية فهل يموت الجسد العظيم أو يبقى خالياً من الروح المنتقلة عنه إلى الجسد المشبه جسد دحية.

قال الإمام العيني في شرحه على البخاري: أنه لا يبعد أن لا يكون انتقالها موجباً لموته فيبقى الجسد الأول حياً لا ينقص من معارفه شيء ويكون انتقال روحه للجسد الثاني كانتقال أرواح الشهداء إلى أجواف طير خضر، وموت الأجساد بمفارقة الأرواح ليس بواجب عقلاً بل بعادة أجراها الله تعالى في بني آدم فلا تلزم في غيره اهـ.

وقال سيدي محمد الزرقاني شارح المواهب عن السراج البلقيني: يجوز أن يكون الآتي هو جبريل بشكله الأول إلاّ أنه انضم فصار على قدر هيئة الرجل ومثال ذلك القطن إذا جمع بعد نفشه، وهذا على سبيل التقريب.

وقال في فتح الباري على البخاري[1]: الحق أن تمثل الملك رجلاً ليس معناه أن ذاته انقلبت رجلاً بل معناه أنه ظهر بتلك الصورة تأنيساً لمن يخاطبه، والظاهر أن القدر

(١) انظره في الفتح (١/ ٢١)، وشرح الزرقاني على الموطأ (٢/ ٢٠).

الزائد لا يزول ولا يفنى بل يخفى على الرائي فقط. اهـ.

قال سيدي محمد الزرقاني: والذي أختاره ما أجاب به الإمام القزويني بقوله: يجوز أن الله خصه بقوة ملكية بحيث تكون روحه في جسده الأصلي مدبرة له ويتصل أثرها بجسم آخر يصير حياً بما اتصل به من ذلك الأثر.

قال: وقد قيل: إنما سُمي الأبدال أبدالاً لأنهم قد يدخلون إلى مكان ويقيمون في مكانهم شبحاً آخر شبيهاً بشبحهم الأصلي بدلاً عنه. قال: وأثبت الصوفية عالماً متوسطاً بين عالم الأجساد والأرواح وسموه عالم المثال. اهـ.

أقول: وإذا أمعنت النظر وجدت ما اختاره الشارح موافقاً لما أجاب به العيني حيث قال: ويكون انتقال روحه للجسد الثاني كانتقال أرواح الشهداء الخ، لأنه لا خفاء في حياة الشهداء جسماً وروحاً لا روحاً فقط، فكونها في جوف طير خضر لا ينافي اتصالها بالجسد الأصلي، ويوافق هذا ما درجنا عليه أولاً عن العارف ابن أبي جمرة نفعنا الله به هذا تحقيق المقام اهـ.

ثم ذكر الاستدلال على صحة الوحي في النوم وعلى صدق النبي ﷺ فيما يُخبر عن الغيب، فقال:

تبارك اللّه ما وحي بمكتسب ولا نبي على غيب بمتهم

أي تعالى الله وتعاظم ما وحي وإن قل أو ما حقيقة وحي بمكتسب لأحد بسعيه فيه بل هو باختصاص الله به من يشاء من عباده فلا ينكر كونه في نوم كما لا ينكر كونه في يقظة، فإن فعل الفاعل المختار لا يتخصص بحالة دون أخرى على سبيل الوجوب وتعاظم الله تعالى عن اتهام الأنبياء بالكذب فيما أخبروا به من الغيب عن الله تعالى بل الحق اليقين أنه لا نبي من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام على إخبار غيب بمتهم على ذلك الإخبار بكذب فيه لعصمته.

قال الله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾﴾ [التكوير: الآية ٢٤] أي بمتهم، والذي عليه أهل الحق: أنّ النبوّة كرامة من الله تعالى لمن يشاء من عباده ونعمة منه على من يشاء، أهم يقسمون رحمة ربك، الله أعلم حيث يجعل رسالاته فلا تنال بمجاهدة واكتساب خلافاً لزاعمي ذلك وهو كفر صراح مبني على أصل الفلاسفة من أنَ العلة توجب معلولها إن وجد الشرط وزال المانع، وفيه إبطال قاعدة الفاعل المختار.

وأجمعت الأمة على عصمة الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين بعد الرسالة من تعمد الكذب في الأحكام والتبليغ عن الله تعالى لأن ما ظهر على أيديهم من المعجزة دل على صدقهم فلا يجوز عليهم الكذب وإلاّ ناقض مدلول المعجزة.

وأجمعوا أيضاً على عصمتهم من الكبائر والصغائر الخسيسة. واختلف في

عصمتهم من الصغائر، والذي عليه المحققون: عصمتهم منها أيضاً لأنَّا مأمورون باتباعهم في كل ما يصدر عنهم من قول أو فعل.

وحاصل ما ذكر أنهم معصومون من الصغائر والكبائر صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين. فإن قيل: قوله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ﴾ [التوبة: الآية ٤٣] و﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ﴾ [الفتح: الآية ٢] و﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢﴾ [الشرح: الآية ٢] يدل على تقدّم الذنب.

فالجواب: أن الذنب فيها محمول على ترك الأولى كما قيل: حسنات الأبرار سيئات المقربين، وترك الأولى ليس بذنب لأن الأولى ومقابله مشتركان في إباحة الفعل والعتاب منه تعالى للحث والتحضيض على فعل الأولى.

وأما واقعة آدم عليه الصلاة والسلام فيجوز أن تكون قبل نبوّته ويدل عليه أمران، أحدهما: لو كان حال الواقعة نبياً لكان له أمة لكن الاتفاق حاصل على أنه حينئذ لم يكن له أمة. ثانيهما: قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ﴾ [طه: الآية ١٢٢] الآية، يدل على أن الاختيار وهو إلباس خلعة النبوّة كان متأخراً عن الواقعة لأن كلمة ثم للتراخي وإذا كان ذلك قبل نبوّته فلا محذور. وأما قول إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿هَٰذَا رَبِّى﴾ [الأنعام: الآية ٧٦] فقد ذكره على سبيل الفرض ليبطله كالواحد منا إذا أراد أن يبطل أمراً فيفرضه ثم يلزمه محالاً فكأنه قال: لو كان رباً لما كان آفلاً، أي متغيِّراً لكنه آفل والآفل لا يكون إلٰهاً، يدل على ذلك قوله: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ﴾ [الأنعام: الآية ٧٦].

وأما نظره في النجوم فكان للاستدلال على حكمة الصانع وذلك من أعظم الطاعات، ولهذا مدح الله المتفكرين في خلق السماوات والأرض.

وأما إخفاء يوسف عليه الصلاة والسلام حريته عند بيعه فيجوز أن يكون قبل نبوّته وأنه استشعر من إخوته بقتله لو أظهر ذلك، فصبر على الرق وكتم الحرية وذلك جائز قبل النبوّة.

وأما ما صدر من إخوته، فاختلف في نبوّتهم ولو سلم فلا نسلم أنهم أنبياء حين فعلوا ذلك، وأما همّ يوسف بزليخا فجبليّ لا اختياري لأن الرغبة في النساء مركوزة في جبلة الرجال، وتلك محمودة إذ عدمها في الرجال يدل على العنة وهي نقيصة، ولم يكن ذلك اختيارياً حتى يكون مذموماً فإن الطبيعة بجبلتها اقتضت ذلك الهمَّ فمنعها يوسف عليه الصلاة والسلام. وذلك هو البرهان في قوله تعالى: ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ [يوسف: الآية ٢٤].

وأما قصة داود عليه الصلاة والسلام، وهي أن داود طمع في زوجة أخيه ليتزوجها

لما علم بحسنها فأرسل الله تعالى إليه ملكين في صورة رجلين اختصما إليه الخصومة التي ذكرها الله تعالى في سورة (صّ) فلم تثبت صحتها لأن داود طمع في نكاح زوجة أخيه لما سمع قتل أخيه، فلهذا القدر عوتب عليه لأنه دليل على أن لم يغتم لقتل أخيه وما هو مذكور في السورة يحتمل أن يكون المراد منه غير هذه القصة، حتى قال بعض المفسرين: إن جماعة تسوروا قصره ليقتلوه فلما رآهم داود خاف لما تقرر في العرف أنه لا يتسور دور الملوك من غير إذنهم إلاّ ذو ريبة، وهو المراد من قوله: ﴿فَفَزِعَ مِنْهُمْ﴾ [ص: الآية ٢٢] فلما رأوه مستيقظاً خافوا من فعلهم واخترعوا خصومة لا أصل لها زعماً منهم أنهم إنما قصدوه لأجلها دون ما توهمه، وهو المراد من قوله: ﴿لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [ص: الآية ٢٢] ثم ادعى واحد منهم على الآخر كما أخبر الله تعالى. فقال داود في جوابهم: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ﴾ [ص: الآية ٢٤] وحمل هذه الآية على هذه القصة أولى لأن الملائكة ما ظلم بعضهم على بعض فيكون كذباً، وحمله النعجة على النساء مجاز والأصل عدمه وعدم صدور الكذب عن الملائكة، وأما ها هنا فلم يلزم إلاّ ارتكاب الكذب عن تلك اللصوص وهو جائز.

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ﴾ [ص: الآية ٢٤] مناف لما ذكرتم فإن ذلك لا يقتضي الاستغفار.

فالجواب: إن المراد اختبرناه في أنه مع كمال سلطنته هل ينتقم منهم أو يعفو عنهم، والاستغفار إنما كان لهم، لا لنفسه وذلك غاية الحلم والكرم فلا يكون منافياً لما ذكر، فإن قيل قوله تعالى: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ﴾ [ص: الآية ٢٥] ينافي ما ذكر إذ لو كان الاستغفار لهم لوجب أن يقول: فغفرنا لهم. فالجواب يحتمل أن يكون المراد من له أي لحرمته أو لشفاعته فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه. اهـ قسطلاني.

وقوله ـ أي الإمام القسطلاني ـ: فالجواب أن الذنب فيهما محمول على ترك الأولى الخ، أي الأليق بمقامه في ذلك الوقت لأنه عليه الصلاة والسلام على الدوام يترقى في الكمال فما من لحظة إلاّ والثانية أكمل منها فيرى أن الأولى ذنب بالنسبة إليها فيستغفر عليه الصلاة والسلام عند انتقاله للمرتبة الثانية، ولذا قال: «إنه ليغان على قلبي فأستغفر الله في اليوم والليلة سبعين مرة».

وقد سأل الشاذلي النبي ﷺ عن ذلك الغين، فقال ﷺ: «هذه أغيان أنوار لا أغيار يا مبارك».

وفي الشفاء: لما كان ﷺ أرفع الخلق مكانة عند الله تعالى وأعلاهم درجة وأتمهم به معرفة، وكانت حاله عند خلوص قلبه وخلو همّه وتفرّده بربه وإقباله بكليته عليه ومقامه

هنالك أرفع حاليه رأى عليه الصلاة والسلام حال فترته عنها وشغله بسواها إغضاء من عليّ حاله وخفضاً من رفيع مقامه فاستغفر الله من ذلك، هذا أولى وجوه الحديث. اهـ.

وقول القسطلاني في وقعة آدم: فيجوز أن تكون قبل نبوّته الخ، تبع في ذلك الإمام البيضاوي.

وفي كتابنا النفحات النبوية قال المحقق البيضاوي: والجواب عن أكل آدم من الشجرة من وجوه:

الأول: أنه لم يكن نبيّاً حينئذ والمدعي مطالب بالبيان.

الثاني: أن النهي لم يكن للتحريم بل كان للتنزيه، وسمى الله ذلك عصياناً وظلماً لأنه ظلم نفسه بترك الأولى له.

الثالث: أنه فعله ناسياً لقوله تعالى: ﴿فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ [طه: الآية ١١٥] ولكنه عوتب بترك التحفظ عن أسباب النسيان. قال: ولعله وإن حط عن الأمة لم يحط عن الأنبياء لعظم قدرهم كما قال عليه الصلاة والسلام: «أشد الناس بلاءً الأنبياء ثم الأولياء ثم الأمثل فالأمثل».

الرابع: أنه عليه السلام قدم على الأكل مجتهداً أن الإشارة إلى عين تلك الشجرة فتناول من غيرها من نوعها وكان المراد بها الإشارة إلى النوع كما روي أنه عليه الصلاة والسلام أخذ حريراً وذهباً وقال: «هذان حرامان على ذكور أمتي حل لإناثها» وإنما جرى عليه ما جرى تفظيعاً لشأن الخطيئة ليجتنبها أولاده. اهـ.

أقول: ما أجاب به أولاً من أنه لم يكن نبيّاً حين الأكل يفيد عدم العصمة قبل النبوّة، والذي حققه التفتازاني وكذلك الخيالي في حاشية العقائد وخاتمة المحققين الأمير علي عبد السلام العصمة لهم قبل النبوّة أيضاً حتى قبل البلوغ في حال صغرهم.

وما أجاب به ثانياً من أن النهي لم يكن للتحريم بل للتنزيه، يفيد عدم العصمة من فعل المكروه لذاته وأنه يجوز لهم الإقدام على فعله مع أنه ليس كذلك لأن فعلهم دائر بين الواجب والجائز، بل الواجب والمندوب فقط. نعم يقع منهم المكروه للتشريع ولذلك قال العارف الشعراني في اليواقيت: أكل آدم من الشجرة إنما كان محض نفوذ أقدار لا غير.

قال سيدي إبراهيم المتبولي: إن أكل آدم من الشجرة لم يكن معصية حقيقية وإنما كانت صورة ليرى بنيه كيف يفعلون إذا وقعوا في محذور لأن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ترقيهم دائم فلا ينتقلون قط عن مقام وحال إلاّ لأعلى منه فكان حكم هذه الأكلة منسحباً على بنيه بالأصالة إلى يوم القيامة إلاّ من شاء الله تعالى لأن الشجرة كانت مظهراً لارتكاب بنيه النهي فعلاً أو تركاً ولا كفارة للجميع إلاّ التوبة على حسب مقامهم، إلى

أن قال: وما ورد من إطلاق اسم المعاصي في حق الأنبياء محمول على غير ظاهره وإن فعلوا مكروهاً بحسب الصورة إنما يفعلونه لبيان الجواز للأمة توسعة من الله تعالى عليهم فلهم في ذلك الأجر كما يؤجرون على بيان المباح لفعلهم له. قال: وأما معاصي الأولياء فيحفظون منها إن حفتهم العناية وإن تخلفت عنهم فقد يقع منهم الحرام، ولا يقدح في ولايتهم لعدم عصمتهم. اهـ.

والذي تميل إليه النفس وينشرح له الصدر ما نقله القطب الشعراني عن شيخه الخواص في كتابه البحر المورود في المواثيق والعهود: وكذلك ذكره العارف ابن عطاء الله في تنويره، ولفظ العارف الشعراني: قلت له: يا سيدي ما الحامل لآدم على أكله من الشجرة مع وجوب العصمة له ولسائر الرسل.

فقال لي ـ وهو الجواب الشافي ـ: يا ولدي، إن آدم لما خلقه الله وتمّم عليه نعمته بالنبوة والرسالة وعلّمه الأسماء كلها وشرّفه على ملائكته وقال لهم: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البَقَرَة: الآية ٣٠] وأمرهم بالسجود له فسجدوا وعلم آدم من اللوح المحفوظ علماً باطنياً أنه لا بد له من الهبوط إلى الأرض ويخرج من صلبه سيد العالمين وباقي الأنبياء والمرسلين ثم يعود إلى الجنة مع سيد العالمين وباقي الأنبياء وأولاده الكرام وعلم أن ذلك كله مترتب على الأكل من الشجرة، بادر إلى الأكل من الشجرة تنفيذاً لما سبق به العلم القديم فيكون آدم بالنسبة لباطن الأمر مبادراً لامتثال الأمر الباطني وإن كان بالنسبة لظاهر الأمر مخالفاً. اهـ ملخصاً مع بعض توضيح.

وقوله ـ أي القسطلاني ـ: وأما همّ يوسف بزليخا فجبليّ لا اختياري، تبع في ذلك الكشاف وبعض المفسرين والذي عليه الإمام البغوي والجلال والمحققون من أهل الحديث والتفسير: أن مقام النبوّة والرسالة لا يليق أن يصدر منه ولو بعض الميل للمعصية مطلقاً جبلياً أو اختيارياً، والمعنى في الآية: ولقد همت به مسكاً وهم بها دفعاً، بدليل قوله تعالى: ﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ﴾ [يُوسُف: الآية ٢٥]، وحكاية الله عنها ﴿وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾ [يُوسُف: الآية ٣٢] قال قطب الواصلين الإمام الشعراني: إن الذي وقع من إخوة يوسف على القول بنبوّتهم وقصة يوسف معهم منزل منزلة واقعة موسى مع الخضر عليه السلام من خرق السفينة وقتل الغلام، مما يأباه ظاهر الشرع ومأمور به باطناً من قبل الحق جلّ شأنه. اهـ.

وهذا مقام لا يسعه عقول أمثالنا، والواجب التسليم والأدب مع الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، نسأل الله تعالى أن يمدّنا بإمدادهم.

ثم عقب الناظم ما ذكره بذكر بعض ما ظهر على يده ﷺ من المعجزات الدالة على صدقه، فقال:

كم أبرأت وصباً باللمس راحته وأطلقت أرباً من ربقة اللمم

أي كثيراً ما أبرأت وصباً بكسر الصاد أي مريضاً باللمس راحته الصادر منه بها للمرض المذكور لمس، وأشار بهذا إلى نحو ما روي أن شرحبيل الجعفي كان بكفه سلعة تمنعه القبض على السيف وعنان الدابة، فشكاها للنبي ﷺ فما زال يطحنها بكفه حتى لم يبق لها أثر، وكثيراً ما أطلقت أرباً بضم الهمزة وفتح الراء أي حلت عقداً كائنة تلك العقد من ربقة اللمم أي من عقد الجنون التي يربطون بها الآدميين وهذا على سبيل الاستعارة والتشبيه لأن الجان لما كان يخنق الآدمي ومحل الخنق العنق شبه فعله ذلك بالآدميين بالحبل الذي فيه عرى يدخل في تلك العرى أعناق الغنم لئلا تذهب، فمن شفاه الله تعالى من الجنون ببركة لمس النبي ﷺ إياه براحته فقد أطلقت عنه عقد الجان.

وأشار بهذا إلى نحو ما روي: أن امرأة أتت النبي ﷺ بابن لها به جنون، فمسح بيده المباركة صدره فثع ثعة، أي قاء، فخرج من جوفه مثل الجرو الأسود. وإن فسر اللمم بالذنوب والمعاصي، فالمعنى كثيراً ما أطلقت راحته عقداً من ربقة أي حبل الكفر ثم أصبح منها محلولاً ببركة مسّه بكفه ﷺ. ويحتمل أن يكون أرباً على وزن فرحاً أي ذا حاجة وهي أعم من أن تكون إلى إعطاء أو إلى شفاء أو إلى تخلص من إثم، والمحتاج إلى الشيء قبل اتصاله بحاجته كأنه مجنون فإذا اتصل بها كأنه أطلق. اهـ قسطلاني.

وفي الشفاء: وأصيبت يوم حنين عين قتادة ـ يعني ابن النعمان ـ حتى وقعت على وجنته فردها رسول الله ﷺ وكانت أحسن عينيه وأحدّهما.

وروى النسائي عن عثمان بن حنيف: إن أعمى قال: يا رسول الله ادع الله أن يكشف عن بصري، قال: فانطلق فتوضأ ثم صل ركعتين ثم قل: اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة يا محمد إني أتوجه بك إلى ربك أن يكشف عن بصري اللهم شفعه فيّ. قال: فرجع وقد كشف الله عن بصره. وتفل في عيني عليّ يوم خيبر وكان أرمد فأصبح بارئاً، ونفث على ضربة بساق سلمة بن الأكوع يوم خيبر فبرئت[1]. وفي رجل زيد بن معاذ حين أصابها السيف فدمي الكعب، حين قتل ابن الأشرف فبرئ وقطع أبو جهل يوم بدر يد معوّذ بن عفراء فجاء يحمل يده فبصق عليها رسول الله ﷺ وألصقها فلصقت، رواه ابن وهب.

وسأله الطفيل بن عمرو آية لقومه فقال: «اللهم نوّر له» فسطع له نور بين عينيه،

(١) رواه النسائي في الكبرى (٦/ ١٦٩)، والحاكم في المستدرك (١/ ٧٠٧).

فقال: «يا رب أخاف أن يقولوا مثلة» فتحول إلى طرف سوطه فكان يضيء في الليلة المظلمة. وبصق في بئر كانت في دار أنس فلم يكن بالمدينة أعذب منها. وأعطى الحسن والحسين لسانه فمصاه وكانا يبكيان عطشاً فسكتا. ومن آياته ﷺ دفعه لعكاشة جذل حطب وقال: اضرب به، حين انكسر سيفه يوم بدر فعاد في يده سيفاً صارماً طويل القامة أبيض شديد المتن فقاتل به. ثم لم يزل عنده يشهد به المواقف إلى أن استشهد في قتال أهل الردّة وكان هذا السيف يسمى العون، ودفعه لعبد الله بن جحش يوم أحد وقد ذهب سيفه عسيب نخل فرجع في يده سيفاً. وأعطى قتادة بن النعمان وكان قد صلى معه العشاء في ليلة مظلمة مطيرة عرجوناً وقال: انطلق به فإنه سيضيء لك من بين يديك عشراً ومن خلفك عشراً فإذا دخلت بيتك فسترى سواداً فاضربه به حتى يخرج فإنه الشيطان. فانطلق فأضاء له العرجون حتى دخل بيته ووجد السواد فضربه حتى خرج. اهـ. ثم قال رضي الله عنه:

وأحيت السنة الشهباء دعوته حتى حكت غرّة في الأعصر الدهم

أي ومن معجزاته ﷺ أن أحيت أي أخصبت السنة الشهباء التي لا مطر فيها ولا نبات، وسميت بذلك لغلبة بياض الأرض فيها بعدم النبات فهي بالنسبة إلى البياض ميتة أحيتها دعوته أي دعاؤه وتضرُّعه إلى الله تعالى في أن يحيي الله تلك السنة بالمطر فاستجاب الله دعاءه وأنزل المطر وحييت السنة بتبديل حال الجدب بحال الخصب حتى حكت، أي شابهت، غرة في الأعصر الدهم بضم الدال وسكون الهاء ويجوز ضمها اتباعاً أي صارت نسبة تلك السنة لما اشتملت عليه من الخصب إلى سائر الأعصر الدهم أي إلى أزمنة الخصب نسبة الغرة من كل شيء وهو الأفضل منه. وإنما كانت أزمنة الخصب دهماً لشدّة خضرة النبات فيها والسنة مفعول أحيت، وفي هذا البيت الترشيح وهو أن يذكر في معنى المدح أو غيره ألوان القصد الكناية والتورية وهو في كلام الناظم في قوله: السنة الشهباء، إذ الشهباء كناية عن السنة المجدبة، والدهم كناية عن سني الخصب على الأصح. اهـ قسطلاني.

وفي ابن العماد: أحيت أخصبت، والإحياء يستعمل في الأرض مجازاً، قال تعالى: ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا﴾ [فصّلت: الآية ٣٩] الآية، والسنة الشهباء الجدبة التي لا خير منها، والغرّة تكون في الجبهة بياض فوق الدرهم، والأغرّ: الأبيض وغرّة الشيء خياره والأعصر جمع عصر وهو الزمان، والدهم جمع أدهم وهو الأسود، وقوله تعالى: ﴿مُدْهَآمَّتَانِ ۝٦٤﴾ [الرّحمٰن: الآية ٦٤] أي ناعمتان سوداوان لشدة الخضرة لأن الخضرة إذا اشتدّت ضربت للسواد.

والمعنى: وكم مرة أحيت دعوته السنة الجدبة فاخضرت وانتهت حياتها إلى أن

أشبهت السنين الغرّ في الأزمنة الماضية، أي أن السنين التي أحياها الله بدعوة نبيه ﷺ صارت غراء بالنسبة إلى سنين الخصب الموصوفة بالدهم لكثرة ريهنّ وخصبهنّ وسواد زرعهن من شدّة خضرته. وأشار بذلك إلى ما روي عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه: أن قريشاً لما أبطؤوا عن الإسلام دعا عليهم النبي ﷺ فقال: «اللهم أعني عليهم بسبع كسبع يوسف» فأخذتهم سنة حتى هلكوا وأكلوا الميتة والعظام ويرى الرجل ما بين السماء والأرض كهيئة الدخان، فجاء أبو سفيان فقال: يا محمد جئت تأمر بصلة الرحم وإن قومك قد هلكوا فادع الله، فدعا ربّه فكشف عنهم فعادوا إلى الكفر فانتقم الله منهم يوم بدر. اهـ. ثم قال رضي الله عنه:

بعارض جاد أو خلت البطاح به سيباً من اليم أو سيلاً من العرم

أي وهذا الإحياء الحاصل بدعوته ﷺ بعارض أرسله الله تعالى فيها حتى جاد أي كثر مطره، أو خلت البطاح أي ظنت مسايل الماء الواسعة به من كثرة ذلك المطر سيباً من اليمّ وهو البحر أو سيلاً من العرم وهو سد أهل اليمن الذي بنته بلقيس على ما ذكره أهل التفسير والتواريخ من عظمه وكيفيته وإحكام صنعته. وإنما خص ماء البحر بالجري وماء العرم بالسيل لأن البحر لعموم فيضه يجري في الأرض المسطحة وإلى أسفل وإلى فوق والعرم غالباً إنما يصنع في أعلى الأرض ليسقى به أماكن متعددة فلا يجري إلاَّ سائلاً. وأتى بأوفى أو خلت وإن كانت بمعنى الواو إما لإقامة الوزن أو ليوهم أن الناظم تشكك لكثرة الماء الكائن على سطح الأرض في اعتقاد أنه من العارض أو من البحر أو من السدّ. وفي قوله: جاد نوع احتراس لأن العارض قد يكون مهلكاً وقد يكون الاحتراس في قوله: وأحيت وأشار بهذا إلى ما روي عن أنس بن مالك، قال: أصاب الناس سنة على عهد رسول الله ﷺ فبينما رسول الله ﷺ يخطب على المنبر يوم الجمعة قام أعرابي فقال: «يا رسول الله هلك المال وجاع العيال، فادع الله لنا أن يسقينا. فرفع رسول الله ﷺ يديه وما نرى في السماء قزعة، قال: فثار السحاب أمثال الجبال ثم لم يزل على منبره حتى رأينا المطر يتحادر على لحيته»[1] الحديث. اهـ.

وفي أبي السعود زيادة على هذا وهي: فمطرنا يومنا ذلك ومن الغد ومن بعد الغد حتى الجمعة الأخرى. وقام ذلك الأعرابي أو غيره فقال: يا رسول الله تهدَّم البناء وغرق المال فادع الله لنا. فرفع يديه وقال: «اللهم حوالينا ولا علينا» فما يشير إلى ناحية من السحاب إلاَّ انفرجت وصارت المدينة مثل الجوبة وسال الوادي قناة شهراً ولم يجيء أحد من ناحية إلاَّ حدّث بالجود».

---

(١) رواه البخاري (١/ ٣١٥)، ومسلم (٢/ ٦١٤)، والنسائي (٣/ ١٦٦).

وفي رواية أخرى: «اللهم حوالينا ولا علينا» فانجاب السحاب عن المدينة حتى أحدق بها كالإكليل فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذه وقال: لو كان عمي أبو طالب حياً لقرّت عيناه، أيكم ينشدنا شعره، فقال رجل: يا رسول الله لعلك أردت قوله:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل[1]

اهـ. ثم قال رضي الله عنه:

دعني ووصفي آيات له ظهرت ظهور نار القرى ليلاً على علم

كأن الناظم رحمه الله قدر أن العدوّ الكافر الجاحد المكذب لما يسمع منه من الإخبار عن معجزاته ﷺ يقول له لتكذيبه بها: كف عنا من الأخبار التي لا نسلمها. فأجابه تقديراً بأن قال: كيف تنكر مثل آية الاستسقاء، فيا أيها الجاحد للضروريات دعني ووصفي آيات له ظهرت ظهور نار القرى التي كان الكرام من العرب يأمرون بإيقادها ليلاً على علم وهو جبل من الجبال المرتفعات التي يهتدى بها، وإنما يفعلون ذلك لتهتدي الأضياف إلى منازلهم. وكأنه يقول: إنما أضف من آياته ما لا تسع إنكاره لظهوره مثل ظهور نار القرى الكبيرة ليلاً على علم. والتنكير في الليل والجبل للنوعية أي ليلاً حالكاً وجبلاً شامخاً أو للتعظيم، وظهور مصدر مشبه به، والعامل فيه ظهرت، والأصل ظهوراً مثل ظهور فحذف الموصوف وأقيمت صفته التي هي مثل مقامه، ثم حذفت وأقيم المضاف إليه مقامها وكأن قائلاً يقول له: إذا كان ظهور آياته ﷺ ظهور نار القرى ليلاً على علم فكل الناس يشاهدها فما فائدة وصفك لها، فكأنه قال: إنها وإن كانت مدركة وحسنها ظاهراً إلاَّ أن تعرّضي لوصفها بالنظم يزيدها حسناً وإن كان قدرها لا ينقص إن لم تنظم. اهـ قسطلاني.

وفي أبي السعود: دع فعل أمر وإنما يستعمل في مثل هذا المقام إيهاماً لحصول مانع يطلب الخلاص منه فراغاً للذي هو بصدده إظهاراً لشدّة الاعتناء بتحصيله، والواو في ووصفي بمعنى مع والمراد بالوصف هنا نظم الأوصاف في كلام المخيل الموزون وآيات مفعول للمصدر ويجوز أن يكون لغواً متعلقاً بوصفي وأن يكون مستقرّاً صفة لآيات. والمراد بالآيات المعجزات الباهرة للكمالات الظاهرة والآيات القرآنية وظهرت صفة ثانية. اهـ.

وفي ابن العماد: نار القرى هي التي توقدها العرب في الليل لجلب الضيفان، والعلم الجبل، والمعنى، يقول لعاذله: اتركني أضيف آيات له ومعجزات ظهرت واتضحت وضوحاً وظهوراً مثل ظهور نار القرى التي توقد في ليل مظلم على مكان

---

(١) رواه البخاري (١/ ٢٤٢)، وابن ماجه (١/ ٤٠٥)، وأحمد (١/ ٧)، (٢/ ٩٣).

مرتفع. وأشار بذلك إلى نور الإيمان فقد اتضح في ظلمة الكفر كما اتضح نور النار في ظلمة الليل. اهـ.

ثم استدل الناظم رحمه الله على ما تقدّم بمثال محسوس يدرك فيه هذا المعنى بقوله:

فالدر يزداد حسناً وهو منتظم ... وليس ينقص قدراً غير منتظم

أي فاللؤلؤ وإن كان حسناً في نفسه لكنه يزداد حسناً بالنصب تمييز منقول من الفاعل، والأصل يزداد حسنه وهو منتظم في السلك لما يثبت له من الترتيب والتناسب وليس ينقص قدراً غير منتظم، نعم حسنه الذي يظهر للعين إن نظم ينقص بسبب ذلك الوصف فكذا ما يحصل بزيادة الالتذاذ بسماع الآيات منظومة ينقص مع الإخبار بها نثراً وقدرها من التعظيم الحاصل لها في ذاتها لا ينقص.

فإن قيل: لِمَ لَم يقتصر على قوله: يزداد حسناً، فإنه إذا أخبر أنه إنما يزداد بالنظم حسناً على أن أصل الحسن حاصل له قبل ذلك، فما فائدة قوله: وليس ينقص قدراً غير منتظم.

فالجواب: أنه من الاحتراس الرافع لما يتوهم من أنّ ازدياد الحسن بالنظم يوجب فواته نقص القدر. اهـ قسطلاني.

وفي أبي السعود: قصد بذلك دفع توهم أن تلك الأوصاف في حالة النثر ينقص قدرها وإن زادت حسناً بالنظم كأن قائلاً قال له: مالك متعرّضاً لأمر لا يظهر لسعيك فيه أثر فائدة ولا لكدّك فيه عظم عائدة. فإن اشتهار تلك الآثار وظهور أنوار تلك الأسرار لا يحتاج إلى إظهار ولا يفتقر إلى إشهار، فقال: دع عنك هذا الملام في هذا المرام فإن مثل تلك الآيات البيّنات والمعجزات الباهرات مثل الدر البهيّ الثمين والجوهر النفيس في أطواق أعناق الحور العين، فإنه وإن كان في حالة كونه منثوراً غير بخس ولا مهين فهو في حالة كونه منظوماً في سلك عقد جيد الحسان أحسن صورة وأبهى سمة في المنظر والعيان. اهـ. ثم قال رضي الله عنه:

فما تطاول آمال المديح إلى ... ما فيه من كرم الأخلاق والشيم

أي فما تطاول آمال صاحب المديح، وهو الثناء الحسن، إلى تمام ما فيه ﷺ من كرم الأخلاق التي جبله الله تعالى عليها وكرم الشيم وهي الطباع وهذا البيت من أبدع ما يمدح به لأن العجز عن درك الإدراك إدراك، ويحتمل أن تكون ما نافية وأن تكون استفهامية.

فعلى كونها نافية يكون المعنى: أن وصف الآيات بالنظم وإن كان يزيدها حسناً فلا يتوهم أن أحداً أتى من ذلك بما له نسبة إلى ما يستحقه ﷺ وإنّ آمال صاحب المديح

ما تطاولت أي ما مدت عنقها تلك الآمال لتنظر من بعيد إلى تمام ما فيه من كرم الأخلاق وكرم الشيم لعلمها باليأس من ذلك والعجز عما هنالك.

وعلى الاستفهام: يكون المقصود به الاستعارة، أي أيّ فائدة لتطاول أعناق المديح إلى تمام ما فيه من الأخلاق والشيم فإنه شيء لا يدرك، فالتشوّق لإدراكه عناء والنفي أمدح فإنه نفى التطاول من أصله للإياس من إدراك ما يتطاول إليه وعلى النفي فتطاول فعل ماض وآمال فاعل. وعلى الاستفهام فتطاول مصدر مرفوع خبر ما الاستفهامية فإنها مبتدأ وآمال مخفوض بالإضافة والفاء الداخلة على ما عاطفة ويحتمل أن المديح منصوب بنزع الخافض.

فإن قيل: كرم الشيم هو كرم الأخلاق أو أعمّ منها فلم ذكرها؟.

فالجواب: قد يكون كرم الأخلاق عن استعمال أي تكلف فرفع ذلك الإيهام بقوله: والشيم، فهو شبه احتراس، أي أن كرم أخلاقه ﷺ من كرم طباعه لا أنها بالاستعمال ولم يستغن بالثاني لأن الطبائع لا تظهر للوجود وإنما تظهر آياتها. وعطف المرادف في مقام المدح سائغ. اهـ قسطلاني مع بعض زيادة.

وقال المحلي: فما تطاول أمالي بياء المتكلم المديح منصوب بنزع الخافض إلى ما فيه ﷺ من كرم الأخلاق أي كثرة الصفات التي كل منها خلق أي طبيعة له، والشيم جمع شيمة وهي الخلق، وعطف المرادف في مقام المدح سائغ وما الأولى للاستفهام بمعنى النفي. ولا بدّ من تقدير والمعنى إن تطاولت آمالي بالمديح إلى صفاته لا تصل إليها جميعها. اهـ.

وما أحسن قول سلطان العاشقين العارف ابن الفارض لما سأله بعضهم بقوله: لِمَ لم تُكثر المدح في الحضرة النبوية، فقال:

وعلى تفنن واصفيه بوصفه يفنى الزمان وفيه ما لم يوصف

ثم قال رضي الله عنه:

آيات حق من الرحمٰن محدثة قديمة صفة الموصوف بالكرم

قوله: محدثة أي باعتبار الحروف والأصوات، وقوله: قديمة، أي باعتبار مدلولاتها ومعانيها صفة الموصوف بالقدم وهو الله تعالى.

قال المحلي: آيات حق مبتدأ خبره مقدّر قبله، أي معجزات نبينا وما بعد المبتدأ صفات له إلى قوله في البيت الثاني عشر: وكالميزان معدلة، وما يقع بين الصفات من متعلقاتها من الرحمٰن أي كائنة منه محدثة لفظاً قديمة معنى. قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ﴾ [الشعراء: الآية ٥] الآية. وفي نسخة بدل محدثة محكمة، قال

تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ [هُود: الآية ١] صفة الموصوف بالقدم وهو الله تعالى من حيث معناها. اهـ.

وقول المحلي: محدثة لفظاً قديمة معنى جرى على طريقة من يقول: إن القرآن يدل بالمطابقة على الصفة القديمة، قالوا: ألفاظ القرآن حادثة والمعبر بها عنه هو المعنى القديم القائم بذاته تعالى وهو خلاف التحرير، والتحرير كما قاله مشايخنا ما حققه الشهاب بن قاسم العبادي وحققه حواشي الكبرى: أن مدلول القرآن ونحوه من سائر الكتب السماوية دال على بعض مدلول الكلام النفسي ولا يحيط بكل مدلولاته إلاّ هو لدلالته على أقسام الحكم العقلي تفصيلاً وسائر الكتب السماوية إنما تدل على بعضها تفصيلاً وإن دلت على الكل إجمالاً.

ومعنى دلالتها على ما يدل عليه المعنى القديم: أنه لو أزيل الحجاب عن المعنى القديم القائم بالذات لفهم منه من المعاني ما يفهم من ألفاظ الكتب السماوية، مثلاً إذا سمعت قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ﴾ [الإسرَاء: الآية ٣٢] فهمت منه النهي عن قربان الزنا، ولو أزيل عنك الحجاب فهمت هذا المعنى.

قال بعض المحققين: ويُرد على القائل بأن مدلول القرآن هو المعنى القائم بالذات أنّ مدلول تلك الألفاظ منها ما هو قديم كقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٥٥] ومنها ما هو حادث، كقوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ﴾ [القَصَص: الآية ٢٠]، ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾ [البَقَرَة: الآية ٣٤] وغير ذلك مما هو في القرآن كثير ولا شيء من المعنى القائم بالذات غير قديم، فكيف يجعل مدلول تلك الألفاظ هو المعنى القائم بالذات. ولذلك قال بعض المحققين: وهذا الإشكال لا يخفى وروده وقوّته على هذا القائل ولذلك كان المتجه والمعقول ما حرّره الشهاب بن قاسم. وهذا إن أريد المعنى المطابقي كما هو ظاهر عبارة هذا القائل، أما إن أُريد الدلالة الالتزامية فلا حاجة للتأويل في عبارته لأنه يصير المعنى على الالتزام، أي عرفاً لا عقلاً، القرآن دال على الصفة القديمة أي مستلزم لها فيكون مدلوله مدلولها فمتى دل كلام زيد على معنى وكلام عمرو على ذلك المعنى فيقال: كلام زيد دال على كلام عمرو.

وقال العلامة الأمير: ولك أن تقول في وجه التلازم: إن من له كلام لفظي يلزم أن يكون له كلام نفسي لأن جميع العقلاء لا يضيفون الكلام اللفظي إلاّ لمن له كلام نفسي.

وقال العلامة أيضاً: والتحقيق جواز سماع الكلام القديم في دار الدنيا شرعاً وعقلاً دون الرؤية لغير نبينا ومن ادّعاها فهو فاسق كاذب، وكيف وقد منع منها الكليم مع جواز وقوعها له لتعليقها على الممكن ولامتناع وقوعها دون السماع. قال الأستاذ

العارف ابن الفارض قدّس سرّه:

ومني على سمعي بلن إن منعت أن أراك فـمـن قـبـلـي لـغـيـري لـذّت

ومعنى ذلك كما تقدّم: أنه رفع الحجاب عن موسى وخلق له سمعاً وقوة حتى أدرك كلامه القديم من غير حرف ولا صوت بجميع أعضائه من جميع الجهات، ثم منعه الله تعالى من السماع ورده لما كان قبل. وهذا معنى كلامه أيضاً لأهل الجنة وليس على ظاهر الماضي من ابتداء الكلام وانقطاعه وأنه كان ساكتاً ثم تكلم، بل الله متكلِّم دائماً أبداً في الأزل وفيما لا يزال.

أخرج الطبراني عن ابن جبير عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «أوحى الله إلى موسى عليه السلام إني جعلت فيك عشرة آلاف سمع حتى سمعت كلامي وعشرة آلاف لسان حتى أجبتني».

وأخرج القضاعي أن الله كلَّم موسى بمائة ألف وأربعين ألف كلمة، فأشرق وجهه بالنور. ومعنى ذلك أنه فهم منه معنى يعبر عنه بهذه العدّة بحيث كشف الحجاب لا التبعيض في الصفة ولما جاء من عند ربه ليعرف الناس صدق ما ادّعاه فما رآه أحد إلاَّ عمي، فكان يمسح الرائي وجهه مما عليه فيردّ الله عليه بصره فتبرقع لئلا تذهب أبصار الناس عند رؤيته، وكان البرقع على وجهه إلى أن مات وكان يسدّ أذنيه عند رجوعه من المناجاة لئلا يسمع كلام الناس فيموت من وحشة قبح كلامهم، وصار يسمع دبيب النملة السوداء في الليل المظلم من مسيرة عشرة فراسخ.

ونقل عن بعض الأبدال أنه سمع حوراء كلَّمته فصار لا يسمع كلام أحد إلاَّ تقايأ منه فكيف لذيذ كلام رب العالمين.

قال العلامة الأمير نقلاً عن بعض العارفين: سبب اضطراب الإنسان بالصوت الحسن أن الروح تتذكر لذيذ الخطاب يوم ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: الآية ١٧٢] حين أخرجت من صلب آدم وخوطبت بذلك فتحن لما تتذكر ذلك.

ثم التحقيق من أقوال ثلاثة في كيفية إنزال الوحي بالقرآن: أن القرآن نزل مرة واحدة ليلة القدر في سماء الدنيا في بيت العزة، ثم بعد ذلك نزل مفرّقاً على حسب الوقائع في ظرف ثلاث وعشرين سنة أو أربع وعشرين سنة على الخلاف في مدة حياته ﷺ بعد البعثة. واختلف في كيفية تلقي الوحي من الله تعالى فقيل: بإلهام من الله جلَّ شأنه، وقيل: توقيفي، وقيل: سمعه جبريل من إسرافيل وإسرافيل من الله، وقيل: تلقفه تلقفاً روحانياً والظاهر من هذا أنه يرجع للإلهام.

والتحقيق أيضاً أن جبريل نزل بالألفاظ وهو المعتمد ولا يسأل عن كيفية العلاقة بين هذه الألفاظ ومعانيها، وقد اتفق السلف على تحريم القول بخلق القرآن مراداً به

اللفظ المنزَّل على سيدنا محمد ﷺ وحرمته لئلا يتوهم الصفة القديمة. ومن قال كلام الله القائم بذاته مخلوق فقيل بالكفر، ورجح بعضهم الفسق، فلينظر. اهـ من إرشاد المريد وهو كفيل بتحقيق المقام فعض عليه بالنواجذ. ثم قال رضي الله عنه:

لم تقترن بزمان وهي تخبرنا عن المعاد وعن عاد وعن إرم

أي لم تقترن مدلولاتها بزمان لأن القديم لا أول لوجوده فليس بزماني، إذ الزمان حادث ويجوز نصب آيات على البدل من آيات في البيت قبله والرفع على الابتداء المحذوف الخبر تقديره كما تقدم ومن معجزاته آيات حق، ومراده بهذه الآيات القرآن العظيم وليس مراده أنها تتصف بهذه الأوصاف من جهة واحدة وإلاَّ أدّى إلى اجتماع الضدين وهو محال لأن الشيء لا يكون قديماً وحديثاً معاً فالحدوث كما تقدم راجع إلى الحروف المنتظمة والكلمات المسموعة، وهل يطلق على كل منهما قرآن لأن القرآن يطلق على القراءة التي هي حادثة وعلى المقروء الذي هو قديم، وهي أي الآيات التي هي ألفاظ دالة على مدلول قديم تخبرنا عن المعاد وهو الرجوع إلى الله تعالى في الدار الآخرة بعد موتنا في الدار الدنيا.

وتخبرنا أيضاً عن قبيلة عاد التي بعث إليها هود ﷺ وسميت باسم الأب وهو عاد بن عوص بن ارم بن سام بن نوح عليه الصلاة والسلام وكان عمره ألف سنة ومائتي سنة ورأى من صلبه أربعة آلاف وتزوج ألف امرأة وكان كافراً يعبد القمر.

وتخبرنا أيضاً تلك الآيات عن مدينة إرم التي بناها شدّاد بن عاد وكان وليّ الملك بعد أبيه فسمع بذكر الجنة وما فيها فقال: لا بدّ لي أن أبني مثلها. فبنى إرم في ثلاثمائة سنة وجعل قصورها من الذهب والفضة وأساطينها من الزبرجد والياقوت، وجعل فيها أنهاراً مطردة وأصنافاً من الشجر وعند كمالها رحل إليها بأهل مملكته، فلما كان منها على مسيرة يوم وليلة بعث الله تعالى عليهم صيحة من السماء فأهلكتهم. هذا خلاصة خبرها وقد أطنب المؤرخون في صفتها.

ويحتمل أن يكون فاعل تقترن ضمير الآيات التي هي ألفاظ إلاَّ أن بزمان لا يكون للعموم بل للخصوص أي لم تقترن بزمان ما أخبرت عنه لا في الماضي كما في الأخبار عن عاد وعن إرم، ولا في المستقبل كإخبارها عن المعاد. وهذا من الدليل على كونها من الله تعالى. وأل في المعاد للعهد وكرر عن معه ومع عاد ومع إرم لأن الأول زمان والثالث مكان والأوسط ذات، فهو أنواع مختلفة لا يحسن جمعها في واحد لأن كلاًّ يتعدد بأخبار تخصّه. وقيل: تكررها من الحشو لا للوزن وحسنه أن مقام المدح يحسن فيه الإطناب. اهـ قسطلاني.

وفي أبي السعود: لم تقترن في محل النصب أو الرفع على أنها نعت لآيات حق أو

مرفوعة المحل على أنها خبر مبتدأ محذوف، أي هي لم تقترن والواو في وهي تخبرنا للحال، فإن قلت: كيف يصح له نفي الاقتران عنها مع حكمه عليها بكونها حادثة، قيل: إنه كما حكم عليها بالحدوث حكم عليها بالقدم ونفى الاقتران عنها باعتبار القدم فإن القديم سابق على الزمان.

وقيل: إن المعنى أنها لم تقترن بزمان دون زمان كسائر الكتب فإن كل كتاب مخصوص بزمانه لأن نبي ذلك الزمان لم يجب على من يأتي بعده الإيمان به وكتابه وملّته منسوخان بخلاف هذا الكتاب وهذا النبي ﷺ فإنَّ الله سبحانه وتعالى أخبر عنه سائر الأنبياء وجميع الكتب السماوية مشحونة بذكره وملّته وكتابه باق على مر الدهور وكرّ الأعوام، وهذا وجه حسن جداً.

والمعنى أن هذه الآيات البيِّنات لم تختص بزمان دون زمان ولا بوقت دون وقت كسائر الكتب بل كانت في جميع الأزمنة الغابرة والأعصر الماضية وحكمها متحقق ثابت مع كل زمان مستقبل وهي منوّرة لقلوبنا بنور الإيمان مفيضة علينا معارف الحقائق والعرفان جالية أرواحنا بتجلّي اليقين والإيقان، تخبرنا عما وقع في الأزمنة الماضية وعما يقع في الأزمنة الآتية من أمر المعاد وأمارات الحشر يوم التناد، فقد أفادتنا علماً يتعلق به سعادة الدارين. اهـ. نسأل الله تحصيلها بجاه سيد الكونين. ثم قال رضي الله عنه:

دامت لدينا ففاقت كل معجزة   من النبيين إذ جاءت ولم تدم

أي وهذه الآيات التي وقع فيها الإعجاز باقية كما أشار إليه بقوله: دامت لدينا ففاقت بالشرف، والدوام كل معجزة ظهرت من النبيين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين لأن معجزاتهم انقرضت بانقراضهم بل لم تظهر على أيديهم إلاَّ مرة واحدة في مدة حياتهم، وذلك حين وقع التحدّي بها ثم لم تظهر بعد كما أشار إليه بقوله: إذ جاءت ولم تدم. وإليه أشار ﷺ بقوله: «ما من الأنبياء إلاَّ وقد أوتي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيت وحياً يُتلى وهو باق على الدوام»، وسبب ذلك أنه ﷺ لما كان خاتم النبيين جعلت معجزته مستمرة دائمة إلى يوم الدين. اهـ قسطلاني.

وفي كتابنا النفحات النبويّة قرّر لنا شيخنا أن اتصال السند من شعار هذه الأمة دون الأمم الماضية، قال: إن اليهود استأصلهم بختنصر فلم يبق منهم إلاَّ ستة رضعاء، ومعلوم أن هؤلاء لم يجدوا من يأخذون عنه حتى يتصل سندهم. وأما النصارى فقد غيروا وبدلوا والسرّ في جعل الاتصال من شعار هذه الأمة دون غيرها أن الله تعالى جعل شريعة كل نبي تنقضي بوفاته فكفى قومه في ثبوت نبوّته ليصدّقوه المعجزات المحسوسة المشاهدة لهم في زمانه ولم يحتاجوا بعد ذلك إلى معجزة مستمرة لانقضاء نبوّته بموته

وأما شريعة نبينا فإنها مستمرة إلى يوم القيامة، فلذلك جعل الله تعالى لثبوت نبوّته معجزة باقية بعد وفاته دائمة باتصال سندها، وهي القرآن. والسند عبارة عن رجال المروي واتصاله كون رجاله مذكورة شيخاً وراء شيخ من غير إسقاط اهـ.

وفي الشفاء: ومن وجوه إعجازه المعدودة كونه آية باقية لا تعدم ما بقيت الدنيا مع تكفل الله بحفظه، فقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: الآية ٩] وقال: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ [فُصّلت: الآية ٤٢]. وسائر معجزات الأنبياء انقضت بانقضاء أوقاتها فلم يبق إلاّ خبرها، والقرآن العزيز الباهرة آياته الظاهرة معجزاته على ما كان عليه اليوم مدة خمسمائة عام وخمس وثلاثين سنة لأول نزوله إلى وقتنا هذا حجة قاهرة. اهـ. ثم قال رضي الله عنه:

محكمات فما يبقين من شبه لذي شقاق ولا يبغين من حكم

أي وهذه الآيات المذكورات محكمات ألفاظها بمعنى متقنات النظم في البلاغة ونهاية الوصف مما لا يقدر البشر على الإتيان بمثله، فدل على أنها من عند الله. قال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٣] وقد كان العرب حينئذ في الغاية القصوى في الفصاحة ومالكيّ أزمّة البيان والبلاغة، وكلهم قد عجزوا عن معارضته ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ۝٨٨﴾ [الإسراء: الآية ٨٨] ومن أجل ما في الآيات المذكورة من الدلالة الواضحة على أنها من عند الله قال: فما يبقين تلك الآيات المحكمات من شبه لذي شقاق وهو الكافر لأنه شاق للدين إذ هو في شق والإسلام في شق، وإن جعلنا محكمات ذوات حكم فهنّ أيضاً لا يبقين شبهاً لذي شقاق أنهن من عند الله لأن تلك المعاني والفوائد التي تضمنتها لا يمكن أن تكون في كلام البشر، ولذا كان يسلم كثير من الكفار بمجرّد سماع ما تضمنه من المعاني الكثيرة من بعض آيات القرآن في ألفاظ قليلة كما كان كثير منهم يسلم لما يدرك من فصاحة الألفاظ وهذه الآيات في الدلالة على كونها من عند الله تعالى ما يبغين أي ما يحتجن من حكم زائد على ذاتهن. وإنما قال من شبه بنفي الجمع ولم يقل من شبهة بنفي الواحد وإن كان المقرّر أن عموم المفرد أشمل فإنه إذا نفى الواحد انتفى الجنس كله جمعه ومفرده بخلاف نفي الواحد تنبيهاً على أن طرق الباطل شتى متعددة ضد طريق الحق الذي هو واحد. فكأنه يقول: إن آيات القرآن لا تبقي شيئاً من أنواع الشبه المتعددة وإنها دافعة لجميعها على اختلاف أنواعها، وما من أحد تعرض له شبهة إلاّ ويجد شفاء منها في القرآن، فإنه الشفاء من كل داء والنجاة عند تفرّق الأدواء. اهـ قسطلاني.

وفي الشفاء: ولهذا لما سمع المغيرة من النبي ﷺ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾

[النحل: الآية ٩٠]» الآية، قال: والله إن له لحلاوة وأن عليه لطلاوة وإن أسفله لمغدق وإن أعلاه لمثمر ما يقول هذا بشر.

وذكر أبو عبيد: أن أعرابياً سمع رجلاً يقرأ ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ﴾ [الحجر: الآية ٩٤] فسجد وقال: سجدت لفصاحته.

وسمع آخر رجلاً يقرأ ﴿فَلَمَّا ٱسۡتَيۡـَٔسُواْ مِنۡهُ خَلَصُواْ نَجِيّٗاۖ﴾ [يوسف: الآية ٨٠] فقال: أشهد أن مخلوقاً لا يقدر على مثل هذا الكلام.

وحكي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يوماً نائماً في المسجد فإذا هو بقائم على رأسه يتشهد بشهادة الحق، فاستخبره فأعلمه أنه من بطارقة الروم ممن يحسن كلام العرب وغيرها، وأنه سمع رجلاً من أسرى المسلمين يقرأ آية من كتابكم فتأملتها فإذا قد جمع فيها ما أنزل الله على عيسى ابن مريم من أحوال الدنيا والآخرة وهي قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخۡشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقۡهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [النور: الآية ٥٢].

وحكى الأصمعي أنه سمع كلام جارية فقال لها: قاتلك الله ما أفصحك، فقالت: أو يعدّ هذا فصاحة بعد قول الله تعالى: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَرۡضِعِيهِۖ﴾ [القصص: الآية ٧] الآية فجمع الله في آية واحدة بين أمرين ونهيين وخبرين وبشارتين. فهذا نوع من إعجازه منفرد بذاته غير مضاف إلى غيره على التحقيق والصحيح من القولين اهـ. قال رضي الله عنه:

ما حوربت قط إلاّ عاد من حرب أعدى الأعادي إليها ملقي السلم

أي ما حورب الآتي بالآيات ﷺ فأسند المحاربة إلى ما به المحاربة مجازاً أي ما حاربه أحد في معنى النبوّة وخاصمه فيها جحداً لها ثم حاربه ﷺ بالقرآن إلاّ كان ﷺ هو الغالب وعاد من حرب أعدى الأعادي الذي قصد محاربته من أجل قيام الحجة عليه إليها ملقي السلم وهو السلاح وسلم له ﷺ إما بدخوله في الإسلام وإما بتركه المحاربة. فإن قيام الحجة عليه سلب لحجته التي هي كسلب ماله بل أقوى لأنه يخاف على حجته أن تدحض فيفتضح كما يخاف على ماله فهو إذا أحس بالحرب ألقى السلم لئلا يفتضح.

ويحتمل أن يكون المعنى: ما عارض أحد هذه الآيات وقصد أن يأتي بمثلها في ظنه إلاّ عاد من سلب قدرته على الكلام وإن كان أعدى الأعادي إليهم ملقي السلم. وقولنا: من سلب قدرته على الكلام، يتمشى على مذهب القائلين بالصرفة وهو أن العلماء اختلفوا في وجه عجز البشر عن الإتيان بمثل هذا القرآن وإن كانت حروفه من جنس الحروف التي ينطقون بها، وإلى ذلك الإشارة عند المحققين بقوله تعالى: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾﴾ [البقرة: الآية ١] ﴿الٓمٓرۚ ﴿١﴾﴾ [الرعد: الآية ١] أي أن هذا القرآن مؤلف من مثل هذه الحروف التي يؤلف منها كلامكم فأتوا بمثله وإلاّ فاعلموا أنه من عند الله.

فقيل: إن الإتيان به من جنس مقدورهم إلاَّ أن الله تعالى صرفهم عن الإتيان بمثله معجزة لنبيه ﷺ. ويعبرون عن هذا المذهب بمذهب أهل الصرفة. وقيل: إن الإتيان بمثل ليس من جنس مقدورهم لكن لما كان الآتي به بشراً مثلهم قامت الحجة عليهم في دعوى الرسالة وأنه من عند الله. والقول الأول أدخل في الإعجاز لأن عجزهم عما هو من مقدورهم أدخل في قيام الحجة مما ليس من جنس مقدورهم. اهـ قسطلاني.

وفي أبي السعود: عبر عن المعارضة بالمحاربة قصداً إلى إفادة قوتها واشتدادها، أو كنى عن محاربتها بمحاربة من جاء بها فإنه بسببها قد يعود المعادي الذي فتح الله بصيرته لإدراك ما اشتملت عليه من الهداية موالياً حميماً وقط ظرف زمان ماض وعاد فعل من العود يجيء تاماً وناقصاً بمعنى صار وحرب الرجل حرباً فهو حرب وهي كلمة تأسف وتلهب مثل: يا أسفي، ومنه قول صفية حين بارز الزبير: وا حربي، وأعدى الأعادي أفعل تفضيل من العداوة وضدّ الصداقة، والأعادي جمع أعداء وأعداء جمع عدو، وملقي اسم فاعل من الإلقاء وهو الطرح، والسلم: الاستسلام وإلقاء السلم كناية عن الصلح. اهـ. ثم قال رضي الله عنه:

ردت بلاغتها دعوى معارضها ... رد الغيور يد الجاني عن الحرم

يعني لما كانت آيات القرآن العظيم في الطرف الأعلى من البلاغة وعجز الخلائق عن معارضتها وعن الإتيان بمثلها ردت بلاغتها، أي صرفت، وأبطلت فصاحتها مع مطابقتها لمقتضيات الأحوال دعوى معارضها ردّ الغيور على النساء يد الجاني عن نسائه الحرم فإن كونه غيوراً يقتضي أن لا يسامح في ترك الجناية لالتماس النساء وإن لم تكن من محارمه بل يردّ أيديهم عنهن بمقتضى طبعه فكيف بردّه يد الجاني عن حرمه هو. وأشار بهذا إلى مسيلمة الكذاب حيث عارض القرآن لما ادعى النبوّة وأراد أن يشبه القرآن العظيم الذي جاء به نبينا ﷺ فقال يعارض سورة النازعات: والطاحنات طحناً والعاجنات عجناً والخابزات خبزاً، فافتضح لا بارك الله فيه. اهـ قسطلاني.

وفي الشفاء: وقد حكي عن غير واحد ممن رام معارضته أنه اعترته روعة وهيبة كف بها عن ذلك.

يحكى أن ابن المقفع طلب ذلك ورامه وشرع فيه فمر بصبي يقرأ ﴿وَقِيلَ يَـٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ﴾ [هُود: الآية ٤٤] فرجع ومحا ما عمل، وقال: أو شهد أن هذا لا يعارض وما هو من كلام البشر وكان أفصح أهل وقته.

وكان يحيى بن حكم الغزال بليغ الأندلس في زمانه فحكى أنه رام شيئاً من هذا فنظر في سورة الإخلاص ليحذو على مثالها وينسج بزعمه على منوالها، قال: فاعترتني

منه خشية ورقة حملتني على التوبة والإنابة. ثم قال: وقد اختلف أئمة أهل السنة في وجه عجزهم عنه، فأكثرهم يقول: أنه مما جمع في قوة جزالته ونصاعة ألفاظه وحسن نظمه وإيجازه وبديع تأليفه وأسلوبه لا يصح أن يكون في مقدور البشر وأنه من باب الخوارق الممتنعة على إقدار الخلق عليها كإحياء الموتى وقلب العصا حية وتسبيح الحصى.

وذهب الشيخ أبو الحسن إلى أنه مما يمكن أن يدخل مثله تحت مقدور البشر ويقدرهم الله تعالى عليه، ولكنه لم يكن هذا ولا يكون فمنعهم الله هذا وعجَّزهم عنه، وقال به جماعة من أصحابه وعلى الطريقين فعجز العرب عنه ثابت وإقامة الحجة عليهم بما يصح أن يكون في مقدور البشر وتحدّيهم بأن يأتوا بمثله قاطع وهو أبلغ في التعجيز وأخزى بالتقريع. اهـ. وقد تقدم بعض هذا عن القسطلاني. ثم قال رضي الله عنه:

لها معان كموج البحر في مدد ... وفوق جوهره في الحسن والقيم

أي وهذه الآيات المذكورة لها معان كثيرة لا نهاية لها فهي في كثرتها وإمداد بعضها بعضاً كموج البحر في مدد. وأشار بهذا إلى نحو قول علي رضي الله عنه: «لو شئت لأوقرت سبعين بعيراً من تفسير الفاتحة». وما حكي عن بعضهم أنه قال: لكل آية سبعون ألف فهم وما بقي من فهمها أكثر. وما قاله الآخر: أن أقل ما قيل في العلوم التي في القرآن من ظواهر العلوم المجموعة فيه أربعة وعشرون ألف علم وثمانمائة علم.

قال بعض العارفين: ويظهر بيان ما قاله الإمام علي رضي الله تعالى عنه من خمسة كنوز:

أولها: أن العبد إذا قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ [الفاتحة: الآية ٢] يحتاج إلى أن يبين معنى الحمد وما يتعلق به، والاسم الجليل الذي هو الله تعالى وما يليق به من التنزيه ثم يحتاج إلى بيان العالم وكيفيته على جميع أنواعه وأعداده، فقد قيل إن لله تعالى سبعة عشر عالماً: السماوات السبع والأرضون السبع وما فيهن عالم واحد وإن في الأرض ألف عالم أربعمائة في البر وستمائة في البحر، فيحتاج إلى بيان ذلك كله إذ هذا اللفظ المقروء يحوي ذلك كله.

ثانيها: إذا قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾ [الفاتحة: الآية ٣] يحتاج أيضاً إلى بيان هذين الاسمين الجليلين وما يليق بهما من الجلالة وما معناهما، ثم يحتاج في ضمن هذين الاسمين إلى بيان جميع الأسماء والصفات، ثم يحتاج إلى بيان الحكمة في اختصاص هذا الموضع بهذين الاسمين الجليلين دون غيرهما من الأسماء.

ثالثها: إذا قال العبد: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ [الفاتحة: الآية ٤] يحتاج إلى بيان ذلك اليوم وما فيه من المواطن والأهوال وكيفية ذلك العالم إلى غير ذلك مما يتعلق به.

ورابعها: إذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝﴾ [الفاتِحَة: الآية ٥] يحتاج إلى بيان المعبود وجلالته والعبادة وكيفيتها وصفتها وآدابها على اختلاف أنواعها، والعابد وصفته والاستعانة وآدابها وكيفيتها وصفتها.

خامسها: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝﴾ [الفاتِحَة: الآية ٦] إلى آخر السورة يحتاج إلى بيان الهداية ما هي، والصراط المستقيم وأضداده ما هي، وبيان ﴿الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتِحَة: الآية ٧] وصفاتهم وما يتعلق بهذا النوع، وبيان المرضيّ منهم وصفتهم وطريقهم. فعلى ما ذكرناه من هذه الوجوه يكون ما قاله الإمام علي رضي الله عنه، وهذه المعاني التي أشار إليها الناظم رحمه الله تعالى فوق جوهره في الحسن والقيم، أي هي في حسنها وما لها من القدر والشرف فائقة حسن جوهر البحر وهو الدر المستخرج منه، وأطلق القيمة عليه مجازاً لأن القيمة في المقوم هي مقداره.

وفي هذا البيت الجمع بين التفريق، وهو أن يدخل شيئين في معنى واحد ثم يفرق بين جهتي الإدخال، وهو في البيت قد شبه كثرة معاني القرآن وحسنها وقدرها بالبحر وفرّق بين جهتي التشبيه. فأما الكثرة فتشبه موجه في المدد وأما الحسن والقد فيزيدان على حسن جوهره وقيمته. اهـ قسطلاني.

وفي الجوهر المصون والسر المرقوم فيما تنتجه الخلوة من الأسرار والعلوم للعارف الشعراني: ومنها الاطلاع على معرفة استخراج جميع علوم القرآن وأحكامه من سورة الفاتحة ثم استخراج جميع علوم الفاتحة من البسملة، ثم استخراج جميع علوم البسملة من الباء، ثم استخراج جميع علوم الباء من النقطة، ثم استخراج جميع ذلك من حرف الألف كما وقع لأخي الشيخ أفضل الدين، قال لي مرة: استخرجت بحمد الله تعالى من علوم سورة الفاتحة مائتي ألف علم وستمائة وتسعين علماً، قال: وهي أمهات علومها، وأما فروعها فلا تنحصر لبشر.

قال العارف: وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله يقول: من دخل الخلوة بالصدق فتح عليه من العلوم اللدنية ما يرى به أن جميع ما فسر به المفسرون وشرحه الشارحون للقرآن والحديث وكتب المجتهدين ومقلديهم إلى يوم الدين لا يجيء عشر معشار معنى حرف واحد من حروف القرآن العظيم فضلاً عن الكلمة أو الآية وأن ذلك جميعه كالنقطة من البحر المحيط ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ۝﴾ [الجُمُعَة: الآية ٤] اهـ. ثم قال رضي الله عنه:

فما تعدّ ولا تحصى عجائبها ولا تسام على الإكثار بالسأم

أي وإذا كانت معاني هذه الآيات كموج البحر في مدد فما تعد ولا تحصى عجائبها لعدم تناهيها ولا تسام على الإكثار من تردادها بالسأم لها وهو الملل، ويحتمل أن يزيد

على إكثار ما جاءت به من المعاني أو إكثار ما ورد فيها من التكرار لا سيما تكرار القصص لأن شأن ما كثرت آحاده وكثر ترداده أن يملّ، فغيرها من الكلام ولو بلغ الغاية فيما يليق به من الحسن والبلاغة يملّ مع الترديد ويعادى إذا أعيد، وآيات القرآن بخلاف ذلك كما ورد في الحديث، فقارئها لا يملها وسامعها لا يمجها، الإكباب على تلاوتها يزيدها حلاوة وترديدها يوجب لها محبة وطلاوة. اهـ قسطلاني.

وفي الشفاء: قال عليه الصلاة والسلام: «إن الله أنزل هذا القرآن آمراً وزاجراً ومثلاً مضروباً فيه نبؤكم وخبر من كان قبلكم، ونبأ ما بعدكم، وحكم ما بينكم، لا يخلقه طول الرد ولا تنقضي عجائبه، هو الحق ليس بالهزل، من قال به صدق ومن حكم به عدل، ومن خاصم به فلج، ومن قسم به أقسط، ومن عمل به أجر، ومن تمسك به هدي إلى صراط مستقيم، ومن طلب الهدى من غيره أضلّه الله ومن حكم بغيره قصمه الله، هو الذكر الحكيم والنور المبيّن والصراط المستقيم وحبل الله المتين والشفاء النافع عصمة لمن تمسك به ونجاة لمن تبعه لا يعوج فيقوّم ولا يزيغ فيستعتب ولا تنقضي عجائبه ولا يخلق على كثرة الرد»[1] ونحوه عن ابن مسعود. اهـ. ثم قال رضي الله عنه:

قَرّت بها عين قارئها فقلت له لقد ظفرت بحبل الله فاعتصم

أي حصل لقارئها السرور وكأن عين الحزين مضطربة وعين المسرور ساكنة، وقيل: هو من القرّ بالضم وهو البرد، أي بردت بدمعة الفرح ولم تسخن بدمعة الحزن عين تاليها، ويحتمل أن يكون مراده تابعها أو قاصدها من قررت إليه أي تصدت. إلاّ أنه إن كان المراد القارىء ترجح عود ما أضيف إليه على الآيات التي هي الألفاظ وإن كان المراد المستمع ترجح عوده على المعاني ولما قرت عينه بقراءة ألفاظها أو باتباع معانيها فقلت له حينئذ: لقد ظفرت أيها القارىء بحبل الله، وهو عهده الذي بينه وبين خلقه، فاعتصم به، أي امتنع ببركة قراءته، من عذاب الله أو امتنع باتباع أمره واجتناب نواهيه من الوقوع في المخالفة المؤدية إلى عقاب الله تعالى. نعوذ بالله من المخالفة.

واستعارة الحبل لآيات الله تعالى قد يقال: إنها تجريدية لأن الاعتصام يناسب المستعار له، وأما فقد استمسك بالعروة الوثقى فاستعارة العروة للإيمان ترشيحية لأن الاستمساك يلائم المستعار منه، ووجه استعارة الحبل للعهد أن الحبل سبب يتوصل به إلى الأشياء وكذا عهد الله تعالى يتوصل به إلى ثوابه. اهـ قسطلاني.

---

(١) رواه الترمذي (٥/ ١٧٢)، والدارمي (٢/ ٥٢٦)، والطبراني (٢٠/ ٨٤)، والبيهقي في الشعب (٢/ ٣٢٦)، والعدني في الإيمان (ص ١٤٦)، والبزار في مسنده (٣/ ٧٢)، وابن أبي شيبة في المصنف (٦/ ١٢٥).

ولنتبرَّك بذكر بعض ما ورد من صحيح البخاري ومسلم في فضل القرآن وتلاوته، فنقول:

قال الإمام النووي في رياض الصالحين عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اقرؤوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه»(١) رواه مسلم.

وعن النوّاس بن سمعان رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يؤتى يوم القيامة بالقرآن وأهله الذين كانوا يعملون به في الدنيا تقدمه سورة البقرة وآل عمران تحاجان عن صاحبهما»(٢) رواه مسلم.

وعن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «خيركم من تعلَّم القرآن وعلَّمه» رواه البخاري.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «الذي يقرأ القرآن وهو ماهر فيه مع السفرة الكرام البررة، والذي يقرأ القرآن ويتتعتع فيه وهو عليه شاق له أجران»(٣) رواه البخاري ومسلم.

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن مثل الأترجة ريحها طيب وطعمها طيب، ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن كمثل التمرة لا ريح لها وطعمها حلو، ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن مثل الريحانة ريحها طيب وطعمها مرة، ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة ليس لها ريح وطعمها مر»(٤) رواه الشيخان.

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً ويضع به آخرين»(٥) رواه مسلم.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «لا حسد إلاَّ في اثنتين، رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار، ورجل آتاه الله مالاً فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار»(٦) رواه الشيخان. والآناء: الساعات.

وعن البراء بن عازب قال: كان رجل يقرأ سورة الكهف وعنده فرس مربوطة

---

(١) رواه مسلم (١/ ٥٥٣).
(٢) رواه مسلم (١/ ٥٥٤).
(٣) رواه البخاري (٩/ ١٢٧)، فتح ومسلم (١/ ٥٤٩).
(٤) رواه البخاري (٤/ ١٩١٧)، ومسلم (١/ ٥٤٩).
(٥) رواه مسلم (١/ ٥٥١).
(٦) رواه البخاري (١/ ٣٩)، (٢/ ٥١٠)، ومسلم (١/ ٥٥٨).

بشطنين فتغشته سحابة فجعلت تدنو وجعل فرسه ينفر، فلما أصبح أتى النبي ﷺ فذكر له ذلك فقال: «تلك السكينة تنزل للقرآن»(١) رواه الشيخان. والشطن ـ بفتح الشين المعجمة والطاء المهملة ـ الحبل.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ حرفاً من كتاب الله فله حسنة والحسنة بعشرة أمثالها لا أقول ألم حرف ألف حرف ولام حرف وميم حرف»(٢) رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الذي ليس في جوفه شيء من القرآن كالبيت الخرب»(٣) رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «يقال لصاحب القرآن: اقرأ وارتق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها»(٤) رواه أبو داود والترمذي وقال: حديث حسن صحيح. اهـ. ثم قال رضي الله عنه:

إن تتلها خيفة من حر نار لظى ... أطفأت حر لظى من وردها الشبم

أي إن تقرأها أيها القارىء خيفة من ألم حر نار لظى التي هي جهنم أطفأت حر لظى من أجل وردها الشبم ـ بفتح المعجمة وكسر الموحدة ـ البارد واستعارة الورد للآيات ترشيحية لأن الشبم مما يلائم المستعار منه ووجه التشبيه أن الماء يطفىء وروده حرارة العطش وورود الآيات يطفىء حرارة جهنم أعاذنا الله تعالى منها بمنّه وكرمه. اهـ قسطلاني.

وفي كلام المصنف الأمر بتلاوة القرآن لأن المعنى: فينبغي لك أيها المؤمن الحافظ للقرآن أن تتلوه وتتعاهده في كل وقت لأنك إن تلوته خيفة من حرّ نار لظى الخ، ولأن تركه يؤدي إلى ضياعه ونسيانه.

قال الإمام النووي في رياض الصالحين: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلاَّ نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده»(٥) رواه مسلم.

---

(١) رواه البخاري (٣/ ١٣٢٣)، ومسلم (١/ ٥٤٧).
(٢) رواه الترمذي (٥/ ١٧٥).
(٣) رواه الترمذي (٥/ ١٧٦).
(٤) رواه أبو داود (٢/ ٧٣)، والترمذي (٥/ ١٧٧).
(٥) رواه مسلم (٤/ ٢٠٧٤).

وعن أبي موسى رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «تعاهدوا هذا القرآن فوالذي نفس محمد بيده لهو أشد تفلتاً من الإبل في عقلها»[١] رواه البخاري ومسلم.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: «إنما مثل صاحب القرآن كمثل صاحب الإبل المعقلة إن عاد عليها أمسكها وإن أطلقها ذهبت»[٢] رواه البخاري ومسلم.

وينبغي أن تكون القراءة بالأدب والخشوع والترتيل وعدم التكلف بحيث لا يخرج عن حدّه المعتبر عند القراءة، وينبغي استماعه كذلك خصوصاً من الصوت الحسن، فإن استماعه من القارىء المتقن الحسن الصوت خصوصاً إن كان ذا خشية وانكسار يهيج الإيمان في قلب السامع ويبعثه على الاعتبار. وينبغي التدبر للمعاني والاعتبار بما فيه والبكاء أو التباكي والتحزن. ففي الحديث عنه عليه الصلاة والسلام: «إن أفضل القرآن قرآن يتحزن به».

وفي رياض الصالحين عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال لي النبي ﷺ: «اقرأ عليّ القرآن، فقلت: يا رسول الله أقرأ عليك وعليك أُنزل، قال: إني أحب أن أسمعه من غيري. فقرأت عليه سورة النساء حتى جئت إلى هذه الآية: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾ [النساء: الآية ٤١] قال: حسبك الآن. فالتفت إليه فإذا عيناه تذرفان»[٣] رواه البخاري ومسلم.

وعن البراء رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ قرأ في العشاء بـ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ﴿١﴾﴾ [التين: الآية ١] فما سمعت أحداً أحسن صوتاً منه»[٤] رواه البخاري ومسلم.

وعن أبي لبابة بشير بن عبد المنذر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «من لم يتغنّ بالقرآن فليس منّا»[٥] رواه أبو داود بإسناد جيد. يعني يتغنى بحسن صوته بالقرآن.

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال له: «لقد أوتيت مزماراً من مزامير آل داود»[٦] اهـ.

وفي كتابنا المشارق عن الترمذي وابن ماجه عن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ القرآن فاستظهره وأحل حلاله وحرَّم حرامه أدخله الله به الجنة

---

(١) رواه مسلم (١/ ٥٤٥)، والبخاري (٤/ ١٩٢١).
(٢) رواه البخاري (٤/ ١٩٢١)، ومسلم (١/ ٥٤٥).
(٣) رواه البخاري (١/ ٤٣٩)، ومسلم (٢/ ٦٠٩).
(٤) رواه البخاري (١/ ٢٦٦)، ومسلم (١/ ٣٣٩).
(٥) رواه الدارمي (١/ ٤١٧)، (٢/ ٥٦٣)، وأبو داود (٢/ ٧٤).
(٦) رواه الترمذي (٥/ ٦٩٣)، والنسائي (٢/ ١٨٠).

وشفّعه في عشرة من أهل بيته كلهم وجبت لهم النار»[1] اهـ. ثم قال رضي الله عنه:

كأنها الحوض تبيض الوجوه به   من العصاة وقد جاؤوه كالحمم

قوله: الوجوه به من العصاة أي الذين يخرجون من النار بشفاعته ﷺ والحال أنهم قد جاؤوه أي ذوو الوجوه كالحمم جمع حممة وهي الفحمة، أي من النار ووجه التشبيه أن آيات القرآن العزيز لما كانت تشفع في تاليها وقد جاء مسود الوجه من المعاصي فيبيض وجهه بشفاعتها كأنها الحوض الذي يغتسل فيه العصاة وقد احترقوا حتى عادوا حمماً فيعودون بيضاً كالقراطيس ثم يدخلون الجنة. ومراده بالحوض مسماه اللغوي فيحمل على نهر الحياة لأن تلك صفته ويحتمل أن يكون مراده به حوضه ﷺ لأنه يجوز أن يكون نهر الحياة أول مرتبته ومنتهاه الحوض.

وفي هذا البيت التلميح لأنه أشار به إلى ما ورد في الخبر من اغتسال الجهنميين في بحر الحياة. اهـ قسطلاني.

وفي المحلى: وعبّر بالوجوه عن الذوات وبيّنها بالعصاة، وعن الماء بالحوض لأنه محله. وفي حديث الصحيحين: «يخرجون منها فيلقون في نهر الحياة»[2]. وفي رواية: فيصب عليهم ماء الحياة فيذهب عنهم السواد ويظهر البياض. كذلك الآيات بقراءتها والعمل بها تبيّض الوجوه أي تنوّر كما في قوله تعالى: ﴿تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٠٦] أي تنوّر وتظلم. اهـ.

وفي كتابنا مشارق الأنوار: والحوض مما يجب اعتقاد وجوده ويبدّع منكره، قال الحافظ السيوطي في البدور: وقد رواه أكثر من خمسين صحابياً وسردهم رضي الله عنه، فقد بلغت أحاديثه التواتر، ففي الصحيحين قال ﷺ: «حوضي مسيرة شهر وزواياه سواء ماؤه أبيض من اللبن وريحه أطيب من المسك، وكيزانه أكثر من نجوم السماء، من شرب منه لم يظمأ أبداً».

قال العلامة الأمير في حاشية عبد السلام: وإن دخل النار عذب بغير الظمأ.

وفي المواهب اللدنية عن أنس قال: سألت رسول الله ﷺ أن يشفع لي يوم القيامة، فقال: «أنا فاعل إن شاء الله تعالى. قلت: فأين أطلبك، قال: أول ما تطلبني على الصراط. قلت: فإن لم ألقك على الصراط، قال: فاطلبني عند الميزان، قلت: فإن لم ألقك عند الميزان، قال: فاطلبني عند الحوض فإني لا أخطىء هذه الثلاثة مواطن»[3]

---

(١) رواه أبو داود (٣/ ٣٥٤).

(٢) رواه الدارمي (١/ ٤١)، والبيهقي (١٠/ ١٩١)، والبخاري (٥/ ٢٤٠٠)، ومسلم (١/ ١٧٠، ١٧٢).

(٣) والضياء في المختارة (٧/ ٢٤٦).

رواه الترمذي وقال: حسن غريب.

قال الشارح الزرقاني: لا أخطىء بضم الهمزة وكسر الطاء، أي لا أتجاوز هذه الثلاثة مواطن إلى غيرها. وظاهر هذا الحديث أن الحوض بعد الصراط وصنيع البخاري في إيراده لأحاديث الحوض بعد أحاديث الشفاعة وبعد نصب الصراط مشعر بذلك.

قال السيوطي: وبأنه يقع الشرب من الحوض قبل الصراط لقوم ويتأخر بعده لآخرين بحسب ما عليهم من الذنوب حتى يهذب منها على الصراط. قال: ولعل هذا أقوى.

ثم رأيت في الزهد للإمام أحمد بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كأني أنظر إلينا صادرين عن الحوض في الحساب، فيلقى الرجل الرجل فيقول: شربت يا فلان، فيقول: لا وا عطشاه. اهـ.

قال القرطبي: واختلف في الميزان والحوض، أيهما قبل الآخر.

قال أبو الحسن القابسي: والصحيح أن الحوض قبل الميزان.

قال الإمام القرطبي: والمعنى يقتضيه فإن الناس يخرجون من قبورهم عطاشى فيقدم لهم الحوض قبل الصراط والميزان.

قال بعض المحققين: والذي يظهر في الجمع أنهما حوضان، فبعض المؤمنين لكماله يشرب من كل والبعض الآخر إنما يشرب من الثاني بعد تهذيبه. وثبت أن لكل نبي حوضاً كما في الحديث: «إن لكل نبي حوضاً وهو قائم على حوضه بيده عصا يدعو من عرفه من أمته ألا وأنهم يتباهون أيهم أكثر تبعاً، ألا وإني لأرجو أن أكون أكثرهم تبعاً».

قال الحافظ في فتح الباري: فالمختص بنبينا ﷺ الكوثر الذي يصب من مائه في حوضه فإنه لم ينقل نظيره لغيره ووقع الامتنان به عليه في سورة ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ۝١﴾ [الكوثر: الآية ١]. اهـ. أسأل الله الكريم بوجاهة وجه نبيه العظيم أن يسقينا شربة من شراب حبه ووداده وأن يجعلنا من الواردين على الحوض مع أحبابه وصلَّى الله وسلَّم على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وأزواجه وذريته وآل بيته كلما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكرك الغافلون. ثم قال رضي الله عنه:

وكالصراط وكالميزان معدلة فالقسط من غيرها في الناس لم يقم

أي وهذه الآيات أيضاً كالصراط استقامة وهو دين الحق الذي لا اعوجاج فيه، أو يكون مراده الصراط الذي هو جسر على متن جهنم وهو أدق من الشعر يسير الناس عليه إلى الجنة على قدر أعمالهم فإنه خط مستقيم لا اعوجاج فيه وهما متلازمان فإنه لا يسير

على متن جهنم سيراً مستقيماً من غير ميل إلاَّ من كان على طريق الاستقامة في الدنيا. وهذه الآيات المذكورة كالميزان معدلة بالنصب على التمييز، أي عدلاً وحذف تمييز الصراط لدلالة المعنى عليه. ووجه التشبيه بين الآيات وبين كل من الصراط والميزان أنّ الآيات في إحكامها وإخبارها كلها ذات عدل واستقامة كاستقامة الطريق والميزان.

فالقسط بكسر القاف وهو العدل من غيرها وغير ما يرجع إليها من السنة ونحوها في الناس لم يقم. والمراد بالناس الخصوص وإلا لزم أن لا يكون في أهل التوراة وغيرهم من أهل الكتب السماوية عدل وهو باطل. اهـ قسطلاني.

وفي كتابنا مشارق الأنوار: أما الصراط فهو ثابت بالكتاب والسنّة والإجماع. قال الله تعالى: ﴿فَٱسْتَبَقُواْ ٱلصِّرَٰطَ﴾ [يس: الآية ٦٦] وقال ﷺ: «ينصب الصراط على متن جهنم فأكون أول من يجوزه وأمتي» فيجب الإيمان به والحق تفويض معرفة حقيقته إلى الله تعالى يرده الأولون والآخرون حتى من لا حساب عليهم.

قال العلامة الأمير في حاشية عبد السلام: وكلهم سكوت إلاَّ الأنبياء. وقولهم إذ ذاك: اللهم سلم سلم. كذا في الصحيح. اهـ. وهو لغة الطريق الواسع وشرعاً.

قال القطب الدردير في شرح خريدته: هو جسر ممدود على متن جهنم بين الموقف والجنة أدق من الشعرة وأحدّ من السيف.

وأنكر العز بن عبد السلام ذلك وقال: إنه متسع لما ورد مما يدل على ذلك وعلى فرض صحته يُؤول بأنه كناية عن شدّة المشقة. اهـ أمير.

قال الشيخ الدردير: والأظهر أنه يختلف في الضيق والسعة باختلاف الأعمال، فمنهم من يجوزه كالبرق الخاطف، ومنهم كالريح العاصف، ومنهم كالجواد السابق، ومنهم من يسعى سعياً، ومنهم من يمرّ عليه حبواً على قدر تفاوتهم في الأعمال الصالحة والإعراض عن المعاصي، فكل من كان أسرع إعراضاً عن المعاصي إذا مرت على خاطره كان أسرع مروراً.

وأخرج الطبراني في الأوسط: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من فرّج عن مسلم كربة جعل الله له يوم القيامة شعبتين من نور على الصراط يستضيء بضوئهما عالم لا يعلمهم ولا يحصيهم إلاَّ رب العزة».

قال العلامة الأمير: واستشكل التوصل إلى الجنة، فإنها عالية جداً وهو على متن جهنم.

قال: وأفاد الشعراني أنه لا يوصل للجنة حقيقة بل لمرجها الذي فيه الدرج الموصل لها حيث الحوض ويوضع لهم هناك مأدبة، أي وليمة، ويقوم أحدهم فيتناول مما تدلى هناك من ثمار الجنة. اهـ.

وأما الميزان فقال بعض المحققين: إن حكمته امتحان العباد بالإيمان بالغيب في الدنيا وهو قبل الصراط على الصحيح.

قال العلامة النفراوي: وقد بلغت أحاديثه مبلغ التواتر وانعقد عليه إجماع أهل الحق وإنه ميزان واحد له كفتان ولسان وتوضع فيه صحائف الأعمال أو أعيانها. وقيل: توزن ذوات الأشخاص كما في الحديث: «لرجل عبد الله بن مسعود في الميزان أثقل من جبل أحد».

وفي المواهب ذكر الحافظ أبو نعيم عن نافع عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «من قضى لأخيه المؤمن حاجة كنت واقفاً عند ميزانه فإن رجح وإلاّ شفعت له». قال الشارح الزرقاني: أيّ حاجة كانت وإنما جمع في قوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ﴾ [الأنبياء: الآية ٤٧] لعظمته.

قال في المواهب اللدنية: ثم بعد انقضاء الحساب يكون وزن الأعمال لأن الوزن للجزاء فينبغي أن يكون بعد المحاسبة، فإن المحاسبة لتقدير الأعمال والوزن لإظهار مقاديرها ليكون الجزاء بحسبها والذي عليه الأكثر وهو المعتمد أن الميزان واحد يوزن به للجميع، وإنما ورد في الآية بصيغة الجمع للتفخيم. وقد تقدم خلاف في الذي يوزن، هل هو أعيان الأعمال وإن كانت أعراضاً لأنها تجسم يوم القيامة أو صحائف الأعمال، ويشهد لذلك حديث البخاري ولفظه كما رواه الترمذي: «إن الله يستخلص رجلاً من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة فينشر عليه تسعة وتسعين سجلاً كل سجل منها مد البصر ثم يقول: أتنكر من هذا شيئاً، أظلمك كتبتي الحافظون، فيقول: لا يا رب، فيقول: ألك عذر، فيقول: لا يا رب، فيقول: بلى إن لك عندنا حسنة وإنه لا ظلم عليك اليوم، فيخرج له بطاقة فيها أشهد أن لا إله إلاّ الله وأشهد أنّ محمداً عبده ورسوله فيقول: احضر وزنك، فيقول ما هذه البطاقة مع هذه السجلات فيقال إنك لا تظلم فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة فطاشت السجلات وثقلت البطاقة فلا يثقل مع اسم الله شيء والله أعلم. اهـ. ثم قال رضي الله عنه:

لا تعجبن لحسود راح ينكرها ... تجاهلاً وهو عين الحاذق الفهم

كأنه قيل له: إذا كانت هذه الآيات بالمنزلة التي وصفت فكيف صح من كثير من الكفار إنكار كونها من عند الله تعالى، وإنكار دلالتها على صحة نبوّة الآتي بها، فقال: لا تعجبن لحسود راح ينكرها، أي ولى منكراً، وأصل راح سار بالعشيّ ثم استعمل في الذهاب مطلقاً والرواح نقيض الصباح وهو من الزوال إلى الليل. ومراده أنه أنكر ما وضحت دلالته وتبيَّن كما تبيَّنت الأشياء المحسوسة بحاسة البصر في نصف النهار وهو أول وقت الرواح، وهذا مناسب لقوله تجاهلاً أي لا حقيقة لكونه أظهره في صورة

الجهل فإنكاره ليس بجهل منه لأن ما تجاهله هو في الوضوح كالنهار لا يجهل لكونه لأجل الحسد أظهر التجاهل وكيف يوصف بالجهل وهو عين الحاذق الفهم أي الماهر في الأشياء بحيث لا يخفى عليه تمييز الحق من الباطل الذي ليس حذقه عن طول التجارب والتكرار لكونه كان بليد الطبع في حذقه ومهارته مع كونه فاهماً بالأصالة وبلا شك أنه يحصل بالتمرين مع كونه فاهماً ما لا يحصل بالتمرين مع البلادة الأصلية، فظهر بهذا التقرير أن الفاهم ليس معناه الحاذق كما زعم بعضهم. اهـ قسطلاني.

وفي أبي السعود: العجب والتعجب انفعال النفس من أمر غريب والحسد تمني زوال نعمة الغير لتصل إلى المتمني، والغبطة هي تمني وصول المثل. قال الشاعر:

إن يحسدوك على علاك فإنما ... متناقص الدرجات يحسد من علا

وراح بمعنى صار، والإنكار معروف، والتجاهل تكلف الجهل كالتباكي تكلف البكاء، وعين الشيء نفسه، والحاذق اسم فاعل من الحذاقة، وهي كمال الدراية في الصناعة، والفهم صفة مشبهة من الفهم وهو شدّة الإدراك.

والمعنى: نهي المتعجبين من إنكار الجاحدين وعدم اعتراف المعاندين بكمال القرآن الكريم وفضل الكتاب العظيم مع كونهم فرسان ميدان البلاغة وشجعان معارك البراعة وسطوع أنوار آياته البينات من مطالع البلاغة وطلوع بيناته الواضحات من طوالع الفصاحة، وما ذلك إلاّ لعناد قد خطف أنوار بصائرهم كما تخطف علة الرمد نور الإبصار، وتجاهل قد ستر حلاوة معانيه وعذوبة ألفاظه عن ذوق طبائعهم المدركة للطائف النكات البيانية اللواتي هن نتائج أبكار الأفكار، فكيف يدركون الدقائق المتعالية عن أن يماثلها شيء من سقط زند القوى البشرية، وإنما هو من شأن خالق القوى والأقدار اهـ.

وقد ورد في ذم الحسد أحاديث جمة وهو من الكبائر القاطعة عن الله تعالى كأنه غير راض بما قسم المليك. وفي كتابنا النفحات النبوية كما في صحيح مسلم عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تحاسدوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا ولا تنابزوا ولا تدابروا ولا يبغ بعضكم على بعض وكونوا عباد الله إخواناً، المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يكذبه ولا يحقره، التقوى ها هنا - ويشير إلى صدره ثلاث مرات - بحسب امرىء من الشرّ أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام، دمه وماله وعرضه»[1] اهـ. ثم استدل رضي الله عنه على ما ذكره بقوله:

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد ... وينكر الفم طعم الماء من سقم

(١) تقدم تخريجه في الجزء الثاني من هذا الكتاب.

أي قد تنكر العين ضوء الشمس من أجل ما قام بها من مانع رمد يمنع من النظر إليه، فذلك الإنكار نفور من النظر إلى الضوء مع العلم بوجوده وقد ينكر الفم طعم الماء من سقم وليس هو إلاَّ محض نفور من استعماله مع العلم بما هو عليه من حقيقة الطعم المحسوس في نفس الأمر. اهـ قسطلاني.

وقد ورد كما في الشفاء وغيره أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه سأل عبد الله بن سلام بعد إسلامه: أنشدك بالله الذي لا إله هو ألله أخبر في كتابه العزيز بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ [البقرة: الآية ١٤٦] هل كنت تعرف أن محمداً على الحق قبل إسلامك، فقال: والله يا أمير المؤمنين إني كنت قبل إسلامي أعرف أن محمداً على الحق أشد من معرفتي لابني والسنة في ذلك كثيرة.

ثم إن الناظم رضي الله عنه لما مدحه ﷺ بما مدحه به مخبراً عنه على سبيل الغيبة أقبل عليه بالخطاب، فقال:

يا خير من يمم العافون ساحته ... سعياً وفوق متون الأينق الرسم

قوله: يمم العافون، أي قصد طلاب المعروف ساحته حالة كونهم ساعين سعياً بمعنى مجدّين في المشي استعجالاً لتحقيق ما تعوّدوا منه من الظفر بالمطلوب وأمن الخيفة وحالة كونهم راكبين فوق متون الأينق الرسم أي ظهور النوق الشديدة الوطء لقوتها حتى إنها ترسم في الأرض بمشيها آثاراً ظاهرة كل ذلك لحصول البغية سريعاً والرجوع بالحاجة في أقرب وقت. والأينق جمع ناقة، وهو مقلوب، وأصله: أنوق جمع قلة استثقلوا ضمة الواو فقدموها فقالوا: أونق ثم عوضوا من الواو ياء فقالوا: أينق ثم جمعوها على أيانق. وقد تجمع الناقة على نياق جمع كثرة. اهـ قسطلاني.

وفي هذا البيت التصريح بالحث على زيارة قبره الشريف ﷺ والتوسل به والتطفل على موائد نعمه وكرمه. قال في المشارق عن المواهب: روى ابن عساكر بسند جيد عن أبي الدرداء في قصة بلال بن رباح رضي الله عنه وكان مقيماً بالشام ببيت المقدس بعد وفاة رسول الله ﷺ فرأى النبي ﷺ مناماً وهو يقول: «ما هذه الجفوة يا بلال أما آن لك أن تزورني». فبات حزيناً خائفاً وركب راحلته وقصد المدينة، فحين وصل القبر الشريف صار يبكي عنده ويمرغ وجهه عليه فأقبل الحسن والحسين فجعل يضمهما ويقبلهما فقالا له: نشتهي أن نسمع أذانك الذي كنت تؤذن به لرسول الله ﷺ في المسجد. فعلا سطح المسجد ووقف موقفه الذي يقف فيه، فلما أن قال: الله أكبر، ارتجت المدينة، فلما قال: أشهد أن لا إله إلاَّ الله، زادت رجتها، فلما أن قال: أشهد أن محمداً رسول الله، خرجت العواتق من خدورهنَّ وقلن: بعث رسول الله ﷺ. فما رأينا يوماً أكثر باكياً ولا باكية بالمدينة بعد رسول الله ﷺ من ذلك اليوم. وقد سبق لك عن القطب الرفاعي في

حال زيارته للقبر الشريف من قوله:

في حالة البعد روحي كنت أرسلها تقبّل الأرض عني وهي نائبتي
وهذه دولة الأشباح قد حضرت فامدد يمينك كي تحظى بها شفتي

فمدّ يده الشريفة ﷺ من الشباك فقبّلها.

قال الإمام القسطلاني في المواهب: وأما التوسل به ﷺ في البرزخ وعرصات القيامة فمما قام عليه الإجماع وتواترت به الأخبار، فعليك أيها الطالب إدراك السعدة والمؤمل نيل الحسنى وزيادة بالتعلق بأذيال كرمه والتوسل بجاهه الشريف والتشفع بقدره المنيف، فهو الوسيلة إلى نيل المعالي واقتناص المرام والمفزع لفك الكرب عن سائر الأنام، ولازم قرع أبواب السعادة وارق في مدارج حبه بكثرة الصلاة عليه تظفر بالحسنى وزيادة. ومما قيل على لسان الحضرة النبوية للزوار:

تمتع إن ظفرت بنيل قربي وحصّل ما استطعت من ادخاري
فها أنا قد أبحت لكم عطائي وها قد صرت عندي في جواري
فخذ ما شئت من كرم وجود ونل ما شئت من نعم غزار
فقد وسعت أبواب التداني وقد قربت للزوّار داري
فمتّع ناظريك فها جمالي تجلّى للقلوب بلا استتار

اهـ. ثم قال رضي الله عنه:

ومن هو الآية الكبرى لمعتبر ومن هو النعمة العظمى لمغتنم

أي ويا من هو الآية الكبرى لمعتبر يتأمل ويتذكر فإنه مع توفيق الله تعالى يعلم بأول نظر أنه خير خلق الله وأنه بعثه إلى الخلائق المغمورين في الضلالة فدل على الله وعرّف به وأتى بما لا ينال بتعليم واكتساب إلاَّ بتخصيص من الوهاب، وحقيق لمن بلغ في الآية إلى هذه المنزلة والدلالة على الله أن يكون نعمة عظمى لا أعظم منها كما قال: ويا من هو النعمة العظمى لمغتنم ما عند الله من السعادة الأبدية.

وأجاز بعضهم أن يكون ومن هو في الموضعين معطوفاً على من في قوله: يا خير من، فإن عطف على خير كما هو الظاهر كانت من واقعة عليه ﷺ وحده وإن عطف على من فالتقدير: ويا خير من هو النعمة، فيكون المراد بمن هو الآية جنساً متعدداً ويقتضي المعنى أنه ﷺ خير ذلك الجنس ويشمل النبيين والملائكة فيستفاد من كلام الناظم تفضيله ﷺ على الملائكة كما هو مذهب أهل السنة في تفضيل الأنبياء عليهم السلام. اهـ قسطلاني.

وفي الشفاء: روى مسلم وغيره: أن ضماداً يعني بكسر الضاد وهو ابن ثعلبة لما وفد عليه فقال له النبي ﷺ: «إن الحمد لله نحمده ونستعينه من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا إلٰه إلاَّ الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله» قال له: أعد عليّ كلماتك هؤلاء فلقد بلغن قاموس البحر، هات يدك أبايعك. ولله در حسان حيث قال:

لو لم تكن فيه آيات مبينة لكان منظره ينبيك بالخبر

وقد سبق لك أن التحقيق عند أهل السنة أن فضله ﷺ على كافة المخلوقات من إنس وجن وملك ذاتي لا لكثرة المزايا وإن كانت مزاياه ﷺ وسلم لا تبارى. وأما ما ورد من قوله ﷺ: «لا تفضلوا بين الأنبياء» وفي رواية: «لا تفضلوني على يونس بن متى»[1] فهذا من تواضعه ﷺ، أو المعنى: لا تفضلوني تفضيلاً يقتضي تنقيصاً لمقام النبوة. وقد سبق لك قول سلطان العارفين الإمام المرسي: كل الأنبياء خلقوا من الرحمة ونبينا ﷺ عين الرحمة.

وفي أبي السعود: إن قلت: ما معنى كونه ﷺ آية ونعمة، قلت: أما كونه آية فباعتبار أنه صاحب الآيات البينات ورب الحجج القاطعات أو باعتبار أن النبي ﷺ آية تدل على وجود الصانع لأنه هو الذي دل الناس على توحيده سبحانه وتعالى. وأما كونه النعمة العظمى فلأن النعمة قد تطلق على المنعم به ولم ينعم على عباده بنعمة أعظم مما أنعم به عليهم من إرسال سيد المرسلين الذي أرسله رحمة للعالمين. وتخصيص الآية بالكبرى والنعمة بالعظمى نظراً إلى قوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ۝١٨﴾ [النجم: الآية ١٨] وإلى قوله تعالى: ﴿وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: الآية ١١٣] اهـ. نسأل الله الكريم متوسلين إليه بوجاهة وجه نبيه العظيم أن ينظمنا في سلك أهل ودّه ووداده الذائقين لذيذ شرابه وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وأزواجه وذريته وأهل بيته كلما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون. ثم قال رضي الله عنه:

سريت من حرم ليلاً إلى حرم كما سرى البدر في داج من الظلم

كأنه رضي الله عنه يقول: ومن آياتك الكبرى أنك سريت من حرم وهو حرم مكة ليلاً إلى حرم، وهو حرم بيت المقدس، سرياً كما سرى البدر التام النور في داج من الظلم ووجه التشبيه أنه ﷺ نور مبين كالبدر وأتمّ وأعظم، وقد قطع مسافة عظيمة في ليل مظلم كما يسري البدر المنير في ليل مظلم، وليعلم إن سرى وأسرى بمعنى أي سار

(١) رواه البخاري (٣/ ١٢٥٤)، ومسلم (٤/ ١٨٤٣)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٤٨).

ليلاً، وأسرى لغة أهل الحجاز، وجاء القرآن بها. قال تعالى: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ [هود: الآية ٨١] و﴿أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء: الآية ١]. وقال السهيلي: سرى لازم وأسرى متعد لكن كثر حذف مفعوله فظنّ أهل اللغة أنهما بمعنى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء: الآية ١] أي أسرى البراق بعبده فحذف المفعول استغناء عنه لأن المقصود بالخبر ذكر محمد ﷺ أو حذف لقوّة الدلالة عليه.

قال: واتفق الرواة على تسمية أسرى ولم يذكر أحد منهم سرى، واتفق القراء على أسرى فإن قيل: إذا كان معنى سريت سرت ليلاً فما فائدة قوله: ليلاً، فالجواب: أن فائدته كفائدته في قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ [الإسراء: الآية ١] وهو التأكيد، أو معناه سرى ليلاً. حكاه في القاموس.

وذهب الزمخشري إلى أن فائدته تقليل المدة التي قطع فيها تلك المسافة البعيدة التي هي مسافة أربعين ليلة قطعها في بعض الليل حسبما يعطيه تنكير ليلاً فإن التنكير فيه للتقليل، أي وقع الإسراء من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى في بعض الليل ولو لم ينكر لاحتمل أن يكون ذلك في جميع الليل وليس كذلك بل كان بقية الليل لترقيه إلى فوق السبع السماوات العلا ولتلقيه من رب العزة جل وعلا ما تلقى من التكاليف والأحكام، وما اطلع عليه من أحوال الجنة والنار ومخاطبات الأنبياء وما رأى من العجائب، كل ذلك في ليلة واحدة. فسبحان القادر على ما يشاء.

قال الزمخشري: ويشهد لذلك قراءة عبد الله وحذيفة من الليل، أي من بعضه، اهـ.

قيل: إنما أسرى به ليلاً لأن الله تعالى لما محا آية الليل وجعل آية النهار مبصرة انكسر الليل فجبر بأن أسرى فيه بمحمد ﷺ.

وقيل: افتخر النهار على الليل بالشمس فقيل: لا تفتخر إن كانت الشمس تشرق فيك فسيعرج شمس الأرض في الليل إلى السماء، وقيل: لأنه سراج والسراج إنما يوقد بالليل. وقيل: لأنه سمي بدراً في قوله تعالى: ﴿طه ۝١﴾ [طه: الآية ١] فإن الطاء بتسعة والهاء بخمسة وذلك أربعة عشر فكأنه قيل: يا بدر أربعة عشر، وهذا يناسب قول الناظم: كما سرى البدر. ولله درّ القائل حيث قال:

قلت يا سيدي ولم تؤثر الليـ ـل على بهجة النهار المنير
قال لا أستطيع تغيير رسمي هكذا الرسم في طلوع البدور
إنما زدت في الظلام لكيما يشرق الليل من أشعة نوري

اهـ. وفي أبي السعود: المعنى خاطبه ﷺ بعد أن جعل نفسه بين يديه بما يدل على معجزته الباهرة وكرامته القاهرة التي نطقت بها آيات القرآن العظيم القطعية التي من

أنكرها انخرط في سلك الكافرين وخرج من ربقة المسلمين، وهو سيره ببدنه الشريف بقدرة الخبير اللطيف في بعض من الليل من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى لينال بذلك من المجد والشرف الحظ الأوفر والنصيب الأوفى، وشبه سريه بسريّ البدر وقيده بكونه في ليل داج إيماء إلى بيان وجه الشبه في كون كل من السائرين نورانياً تضيء به المكوّنات وكون سير كل منهما واقعاً في جنح ليل مظلم داج اهـ.

وفي الشفاء: ذهب معظم السلف والمسلمين إلى أن الإسراء بالجسد وفي اليقظة وهذا هو الحق، وهذا قول ابن عباس وجابر وأنس وحذيفة وعمر وأبي هريرة ومالك بن صعصعة وابن مسعود إلى أن قال خلافاً لمن جعل الإسراء بالروح فقط ولمن قال إنه مناماً فلو كان مناماً لما كانت فيه آية ولا معجزة ولا ما استبعده الكفار ولا كذبوه فيه ولا ارتدّ به ضعفاء من أسلم[١]. اهـ. ثم عطف على قوله: سريت، قوله:

وبت ترقى إلى أن نلت منزلة ... من قاب قوسين لم تدرك ولم ترم

أي وبت ليلة أُسري بك من مكة إلى بيت المقدس بعد وصولك إلى المسجد الأقصى ترقى إلى أن بلغت سماء الدنيا ثم في السموات سماء بعد سماء إلى أن نلت وبلغت منزلة شريفة محلها من المكان الذي شرّفه الله تعالى كالعرش مثلاً أو غيره مما لم يقدّر سبحانه أن يناله بشر بعد من نحو قاب قوسين حال كون تلك المنزلة التي نالها لم تدرك ولم ترم إذ لا يطلب إلا ما يمكن إدراكه وقاب قوسين أي مقدار قوسين، وقاب القوس: قدر طولها، وقيل: قدر الوتر منها. قال الجوهري: ويقال بينهما قاب قوس وقيب قوس وقاد قوس وقيد قوس أي قدر قوس. وقيل: المراد بالقوسين: قوسا الحاجب. اهـ قسطلاني.

وفي الشفاء: وعن أنس في الصحيح: «عرج بي جبريل إلى سدرة المنتهى ودنا الجبار رب العزة فتدلى حتى كان منه قاب قوسين أو أدنى، فأوحى إليه بما شاء وأوحى إليه خمسين صلاة» وذكر حديث الإسراء، قال: وعن محمد بن كعب: هو محمد دنا من ربه فكان قاب قوسين. قال: وقال جعفر بن محمد: أدناه ربه منه حتى كان منه كقاب قوسين. وقال جعفر بن محمد: والدنو من الله لا حدّ له ومن العباد بالحدود. وقال أيضاً: انقطعت الكيفية عن الدنوّ ألا ترى كيف حجب جبريل عن دنوّه ودنا محمد إلى ما أودع قلبه من المعرفة والإيمان. وتدلى بسكون قلبه إلى ما أدناه وزال عن قلبه الشك والارتياب. قال القاضي أبو الفضل رضي الله عنه: اعلم أن ما وقع من إضافة الدنوّ والقرب هنا من الله أو إلى الله فليس بدنو مكان ولا قرب مدى بل هو كما ذكرنا عن

---

(١) انظر: النور الوهاج في الإسراء والمعراج للعلامة الأجهوري ـ بتحقيقنا ـ طبع العلمية، بيروت.

جعفر الصادق: ليس بدنوّ حدّ وإنما دنوّ النبي ﷺ من ربه وقربه منه إبانة عظيم منزلته وتشريف رتبته وإشراق أنوار معرفته ومشاهدة أسرار غيبه وقدرته، ومن الله تعالى له مبرة وتأنيس وبسط وإكرام. اهـ.

وفي أبي السعود: وبت ترقى، أي صرت ترقى، من درجة إلى درجة من درجات الكمال وتقطع حجاباً بعد حجاب من حجب الكبرياء والجلال، وتصعد من سماء إلى سماء من سماوات الله الكبير المتعال، حتى انتهيت إلى مقام تقصر عنه الهمم العوال ويقف دونه أشرف الملائكة المقرّبين، أعني الروح الأمين، وصرت من القرب في المقام القدسي بعد التجرد عن المنزل الإنسي إلى المرتبة اللاهوتية والحضرة الجبروتية والمنزلة الملكوتية كقاب قوسين أو أدنى وهو ذلك المشرب الأصفى والمنزل الأسنى الذي لم يدانيه فيه ملك مقرّب ولا نبي مرسل وهو مقام الفناء الذي اختص به من سائر الأنبياء. اهـ. ثم عطف رضي الله عنه على ما تقدم قوله:

وقدّمتك جميع الأنبياء بها والرسل تقديم مخدوم على خدم

أي صيرتك مقدماً بين يديها أو التقديم في الرتبة والمكانة، والكاف مفعول، وألحق الفعل التاء لأن جميع في معنى جماعة أو لإضافته إلى جمع التكسير الذي يجوز تأنيثه. وأجازوا في نحو قطعت بعض أصابعك تأنيث المضاف لإضافته إلى مؤنث مع أن المضاف ليس في معنى المضاف إليه، فما هنا أحرى لأنه في معناه. والفاعل قوله: جميع الأنبياء بها والرسل، تقديم بالنصب مصدر مشبه به أي تقديماً مثل تقديم مخدوم وهو الرئيس على خدم. ويحتمل أن يريد بتقديم الأنبياء له ﷺ ما ورد في حديث الإسراء من أنه ﷺ أمهم في الصلاة، ولفظ الحديث صالح للعموم ولا بعد في هذا فإن تلك الحالة خارقة للعادة وضمير بها على هذا يحتمل أن يعود على المنزلة ويحتمل أن يعود على الليلة المفهومة من ليلاً أو على لفظ ليلاً باعتبار أنه ليلة أو ساعة منه، والباء على الوجهين للظرفية. وأما قوله: الرسل، فيحتمل الخفض عطفاً على الأنبياء، أي وجميع الرسل والرفع عطفاً على جميع. وعلى الأول فهو صريح في العموم، وعلى الثاني ظاهر فيه وبلا شك أن القول بإمامته لجميع الأنبياء وجميع الرسل يتوقف على دليل ظاهر من السنة لأنه لم يصرح في الأحاديث الصحيحة إلا بلقاء أنبياء مخصوصين لكن في السماوات وصلاته بهم إنما كانت في الأرض، فلا بعد في العموم. وفي قوله: والرسل على المشهور من كون الرسول أخص من النبي عطف الخاص على العام. اهـ قسطلاني.

وما ذكره القسطلاني من كونه صلى بهم في الأرض ببيت المقدس هو ما اشتهر. ورواية أنس بعد أن خطب كل من الرسل خطبته وأثنى على ربه فقال عليه الصلاة

والسلام: «كلكم أثنى على ربه وأنا مثن على ربي». وكان من قوله عليه الصلاة والسلام: «الحمد لله الذي أرسلني رحمة للعالمين بشيراً ونذيراً. فقال له أبوه الخليل: بهذا فضلتنا يا محمد تقدّم فأنت الإمام»[1].

ولغير أنس أن تلك الصلاة كانت في السماء، وذكر بعض الحفاظ تعدّد الصلاة جمعاً بين الروايتين.

وفي الشفاء: من ذكر صلاته بالأنبياء ببيت المقدس في رواية أو في السماء على ما روي وذكر مجيء جبريل له بالبراق وخبر المعراج واستفتاح السماء فيقال: ومن معك، فيقول محمد. ولقائه الأنبياء فيها وخبرهم معه وترحيبهم به وشأنه في فرض الصلاة ومراجعته مع موسى في ذلك. وفي بعض هذه الأخبار: فأخذ ـ يعني جبريل ـ بيدي فعرج بي إلى السماء، إلى قوله: ثم عرج بي حتى ظهرت بمستوى أسمع فيه صريف الأقلام وأنه وصل إلى سدرة المنتهى وأنه دخل الجنة ورأى فيها ما ذكره. قال ابن عباس: هي رؤيا عين رآها النبي ﷺ لا رؤيا منام. اهـ. ثم قال رضي الله عنه:

وأنت تخترق السبع الطباق بهم ... في موكب كنت فيه صاحب العلم

أي وقدّمتك والحال أنك تخترق بمعنى تقطع السماوات السبع الطباق التي بعضها فوق بعض طبقة بعد أخرى حال كونك ماراً بهم، أي الأنبياء الذين قدموك، والحال أيضاً أنك في موكب من الملائكة كنت أنت يا محمد ﷺ فيه صاحب العلم وهو الراية، قال ذلك على عادة العرب في إعطاء الراية لزعيم القوم ورئيسهم الذي بثبوته يثبتون وبانهزامه ينهزمون وإذا كان صاحب راية الملائكة فهو أفضل منهم. ويحتمل أن معنى كونه صاحب الراية أنها تابعة له ومتحركة بحركته تميل معه حيث مال لا أنه يمسكها بيده إذ هذه الحالة أشرف وليس استعمال القرب لها بهذا المعنى في قولهم: صاحب اللواء، كما ظن بعضهم مستدلاً بأنه لو كان معناه إمساكها لشغله ذلك عن القتال بل معناه تبعيتها له لأن الصحيح في استعمال العرب أن صاحبها إنما هو ممسكها ولا يمنعه ذلك من القتال بها بل يقاتل بها ممسكها أشد القتال ولذلك لا يليق بإمساكها كل أحد بل مثل علي رضي الله تعالى عنه لقوله ﷺ: «لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله». وأنت تعلم ثبات من له هذه المنزلة من المحبة. ولهذا قال: «يفتح الله على يده» اهـ قسطلاني.

وفي أبي السعود ما يفيد أن التقديم حقيقي لا رتبي فقط لما ورد عنه ﷺ قال: لقد رأيتني في الحجر وقريش تسألني عن مسراي، فسألتني عن أشياء في بيت المقدس لم

(١) أورده الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ٦٩).

أثبتها فكربت كرباً ما كربت مثله فرفعه الله إليَّ انظر إليه ما يسألوني عن شيء إلاَّ أنبأتهم وقد رأيتني في جماعة من الأنبياء فإذا موسى عليه الصلاة والسلام قائم يصلي، فإذا هو رجل ضرب جعد كأنه من رجال شنوءة، وإذا عيسى عليه الصلاة والسلام قائم يصلي أقرب الناس به شبهاً عروة بن مسعود الثقفي، وإذا إبراهيم عليه الصلاة والسلام قائم يصلي أشبه الناس بصاحبكم ـ يعني نفسه ﷺ ـ فحانت الصلاة فأممتهم فلما فرغت من الصلاة قال لي قائل: يا محمد هذا مالك خازن النار فسلِّم عليه، فالتفت إليه فبدأني بالسلام» اهـ.

قلت: وقد اختلف أئمة التحقيق هل كان اجتماعه ﷺ بالأنبياء والرسل ببيت المقدس وفي السماء اجتماع أرواح أو اجتماع أجساد.

والذي رجحه الإمام البيهقي ودرجنا عليه في كتابنا مشارق الأنوار تبعاً للمحقق ابن حجر في الصواعق: أنه اجتماع حقيقي بالإجسام كما هو صريح قوله عليه الصلاة والسلام» أن الأنبياء أحياء في قبورهم»[1]. ولم يكن هناك احتياج للتأويل والله أعلم.

وفي المحلي: تخترق السبع الطباق، أي السماوات مأخوذ من قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ [المُلك: الآية ٣] بعضها فوق بعض ماراً بهم، ففي حديث الإسراء من حديث مسلم: أنه مرّ في سماء الدنيا بآدم وفي الثانية بعيسى وفي الثالثة بيوسف وفي الرابعة بإدريس وفي الخامسة بهارون وفي السادسة بموسى وفي السابعة بإبراهيم ﷺ. فقول الناظم: جميع الأنبياء والرسل، أي الذين لقيتهم. اهـ.

وفي كتابنا إرشاد المريد نقلاً عن المواهب: أن السر في مراجعة موسى عليه السلام وإن كان ظاهره طلب التخفيف باطنه أنه يجتلي النور من وجهه الشريف كما أشار إلى ذلك سيدي علي وفا بقوله:

والسر في قول موسى إذ يراجعه ... ليجتلي النور منه حين يشهده
يبدو سناه على وجه الرسول فيا ... لله حسن رسول إذ يردده

اهـ. ثم قال رضي الله عنه:

حتى إذا لم تدع شأواً لمستبق ... من الدنوّ ولا مرقى لمستنم
خفضت كل مقام بالإضافة إذ ... نوديت بالرفع مثل المفرد العلم

قوله: لم تدع أي في صعودك شأواً أي غاية لمستبق كائنة تلك الغاية من الدنوّ إلى

(١) رواه أبو يعلى (٦/ ١٤٧)، والديلمي في الفردوس (١/ ١١٩)، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ٢١١).

المكان الذي لا يدركه بشراً ومخلوق، ولأمر في لمستنم وهو طالب الرفعة في الأمكنة. وقوله: من الدنوّ لبيان الشأو ولا زائدة لتأكيد النفي. وجواب إذا قوله: خفضت كل مقام لغيرك من الأنبياء بالإضافة أي بالنسبة النظرية بين مقامك المرتفع عن مقام كل مخلوق ومقامهم وإن كان ذلك المقام المنخفض مرتفعاً في نفسه وإنما انخفض بالنسبة إلى مقامك وكان ذلك الخفض منك للمقامات إذ نوديت بالرفع من قبل الله تعالى إلى مقام قاب قوسين نداء مصاحباً لرفع شأنك مثل مصاحبة الرفع نداء الاسم المفرد العلم فإنه من حيث كونه منادى شارك جميع أقسام المنادى في ذلك فإن المنادى المضاف والشبيه به والنكرة هذه الثلاثة منصوبة حالة النداء ولا يرفع إلاّ المنادى المفرد العلم فلما نودي ﷺ نداء الرفع ورفعت منزلته على سائر أبناء جنسه من النبيين والمرسلين أو من المخلوقين وتفرّد عنهم برفع منزلته وخفض منازلهم بالنسبة إلى منزلته أشبه الاسم المنادى المفرد العلم في انفراده بحركة الرفع ونصب غيره من أقسام المنادى.

فإن قيل: المفرد العلم إن نودي بني على الضم وليس بمرفوع حتى يتم التشبيه.

فالجواب: إن الضم يشير إلى المنزلة العليا، فهو رفع في المعنى، أو يقال: الكلام على حذف مضاف أي نوديت بحركة الرفع، أي مع حركة الرفع وهو الارتقاء في المنازل ولا شك أن المفرد العلم منادى بحركة الرفع وهو الضم.

وتقدير الكلام: مثل حركة نداء المفرد العلم، ومراده بالعلم المعرفة إطلاقاً للخاص وإرادة للعام مجازاً لأن النكرة المقصودة كقولك: مقبلاً على رجل لا تعرف اسمه: يا رجل، فتنبيه على الضم وهذا القسم هو من أقسام المعرفة عند المحققين وهو رتبة المشار إليه لأنه تعرف بالقصد والإقبال عليه كالمشار إليه فلم يقصد برجل في يا رجل إلا واحد معين لا الشائع في جنسه والظاهر أن التشبيه بالمفرد العلم إنما هو في النداء بالرفع خاصة لا في خفض مقامات غيره، وإذ ظرف للزمان الماضي. وقيل: حرف تعليل. اهـ قسطلاني.

وفي الشفاء: وقال جعفر بن محمد: من تمام نعمته عليه أن جعله حبيبه وأقسم بحياته ونسخ به شرائع غيره وعرج به إلى المحل الأعلى وحفظه في المعراج حتى ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧﴾ [النجم: الآية ١٧] وبعثه إلى الأحمر والأسود وأحلّ له ولأمته الغنائم وجعله شفيعاً مشفعاً وسيد ولد آدم وقرن ذكره بذكره ورضاه برضاه وجعله أحد ركني التوحيد. اهـ. ثم قال رضي الله عنه:

كيما تفوز بوصل أيّ مستتر عن العيون وسرّ أيّ مكتتم

أي خفضت كل مقام إذ نوديت بالرفع كيما تفوز أي لتظفر بوصل منه تعالى وهو المقام الذي رفعك إليه والمنزلة التي أحلكها وناداك إلى الصعود إليها وذلك الوصل

مستتر عن العيون أيّ استتار كما قال: أيّ مستتر. وسر بالخفض عطفاً على قوله بوصل أي، وكي تفوز بسر من أسرار إلٰهك الذي أوحى إليك في ذلك المقام مكتتم أيّ مكتتم عن الآذان أو عن الأسماع. أما استتار ذلك الوصل عن أعين من عاصره فلأنه إنما أسرى به ﷺ بالليل وقد نامت العيون وهدأت الأصوات، وأما استتاره عن أعين سائر الأنبياء والمرسلين والملائكة المقربين فلأنه مقام لا ينبغي لغيره الوصول إليه. ولعل هذا السر المكتتم لم يبيّنه ﷺ إذ لا يطيق حمله غيره.

قال ﷺ فيما رواه عنه ابن عباس رضي الله عنهما: «علّمني ربي ليلة الإسراء علوماً شتى، فعلم أخذ عليّ كتمانه وعلم خيّرني فيه، وعلم أمرني بتبليغه». وهذا البيت من التضمين لتعلق كي فيه بما قبله ويصح تعلق كي بخفضت كما تقدم أو بنوديت أي. ناديناك كي أو بالرفع أي رفعناك كي تفوز وما هنا مصدرية تسبك مع الفعل بعدها بمصدر هو المجرور ورأي لفوزك وتفوز على هذا مرفوع ويحتمل أن يكون منصوباً بأن مقدرة اهـ. قسطلاني.

وفي المحلى: كيما تفوز عليه غائية لقوله: «سريت وبت» الخ وتفوز منصوب بأن مضمرة بعد كي وهذا السر مأخوذ من حديث: «علّمني ربي ليلة الإسراء علوماً شتى فعلم أخذ عليّ كتمانه وعلم خيرني فيه وعلم أمرني أن أبلّغه». قال: عليّ، فكان يسر إلى أبي بكر وعمر وعثمان، وإليّ ما خير فيه قال: ذكره جمع من الشراح ولم أقف على أصل له في كتب الحديث ولا ينافي ما روى البخاري عن أبي جحيفة قال: قلت لعليّ رضي الله عنه: هل عندكم شيء من الوحي ليس في القرآن، قال: والذي فلق الحبة وبرأ النسمة إلا فهماً يعطيه الله رجلاً في القرآن. وما في هذه الصحيفة، قلت: وما في هذه الصحيفة، قال: العقل وفكاك الأسير وأن لا يقتل مسلم بكافر»[1] لأن هذا فيما يتعلق بتبليغ الناس. اهـ. ثم قال رضي الله عنه:

فحزت كل فخار غير مشترك ... وجزت كل مقام غير مزدحم

وجل مقدار ما وليت من رتب ... وعز إدراك ما أوليت من نعم

لما كانت هذه المرتبة العظيمة له ﷺ وقد بلغت الغاية القصوى في الجلال والنهاية العظمى في الكمال أردفها بقوله مخاطباً له ﷺ: فحزت بسبب ما نلت من تلك المراتب كل فخار وتعظيم يليق بالمخلوق غير مشترك بينك وبين غيرك. وجزت بمعنى قطعت، أي تجاوزت كل مقام غير مزدحم فيه، وجل مقدار ما وليت من رتب شريفة وعز إدراك ما أوليت من نعم المقامات العلية. اهـ قسطلاني.

---

(١) رواه البخاري (١/ ٥٣)، (٣/ ١١١٠)، والترمذي (٤/ ٢٥).

وفي المحلى: وحزت الأول بالحاء المهملة والزاي من الحيازة بمعنى الجمع، وجزت الثاني بالجيم والزاي من جاز المكان إذا تعداه ومشترك يجوز أن يكون اسم فاعل إن قرىء مكسوراً واسم مفعول إن قرىء مفتوحاً، وكذلك مزدحم من الازدحام بمعنى كثرة إفراد الشيء بحيث يضيق بهم المكان، وجلّ أي عظم ما وليت من رتب أي مناصب شريفة فلا يحاط بها وعز إدراك ما أوليت أي أعطيت من نعم جمع نعمة بمعنى منعم به أي امتنع واستقصى إدراك كماله. اهـ محلى.

وفي أبي السعود: والمراد بالفخار ما يفتخر به أهل الله من التجريد والتفريد وقطع العلائق والاتصال بالعالم العلوي، وإليه الإشارة بقوله ﷺ: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر، والفقر فخري» إلى أن قال: والمعنى أنك أيها السائر في فضاء الملك والملكوت، الطائر إلى عالم اللاهوت والجبروت، المترقي في سيره إلى مقام تعجز عن الوصول إليه همم السائرين والصاعد إلى مرقى يكلّ عن أن تحوم حول حماه أجنحة الطائرين فلم تدع في اختراقك السبع الطباق ذروة شرف ولا صَهوة مجد لأحد من أهل الاستباق في ميدان المحبة والأشواق إلاّ وقد تركتها وراء ظهرك على الإطلاق ولم تذر مقام كمال ولا مورد جلال ولا منهل جمال لأحد من أهل القرب والوصال إلاّ وقد تفردت في طريقه عن المصاحب والمرافق وتقدست في ميدانه عن المساير والمسابق، لتفوز بوصل قد استتر مقداره عن العيون والأعيان وليظهر عليك سرّ قد اكتتم عن العقول والأفهام، فأنت سرّ الكون وعين المكنونات، ووجه الحق وعلة الموجودات، فعليك أكمل التحيات وأفضل الصلوات ما قامت الأرضون ودامت السماوات وجرت البحار وثبتت الراسيات الشامخات فحزت يا ذا الفخر الباذخ والقدر الشامخ فخر كل ذي فخر ومقدار كل ذي مقدار وحزت في ميادين الفخار قصبات السبق فلم يشق لك غبار، وجزت في الصعود إلى ذروة الكمال فلم يلحقك في حلبة الرهان مغوار، فجلّ وعظم في منصب النبوّة ما وليته من المناصب العلية، وعز إدراك ما أوليته أي أعطيته في مرتبة الفتوة من المواهب السنية، فأنت الأوحد الذي ليس له نظير والواحد الذي هو على تخت التوحيد وسرير التفريد سلطان وأمير. اهـ. ثم قال رضي الله عنه:

بشرى لنا معشر الإسلام أن لنا ... من العناية ركناً غير منهدم

لما مدحه ﷺ بما يتضمن تفضيله على سائر الأنبياء فرع على ذلك أن أمته أفضل الأمم، فقال مخبراً عن هذه الأمة باختصاصها بالبشرى على وجه يضمن دخوله فيهم والإخبار بأنه منهم بقوله: «بشرى لنا معشر أهل الإسلام» باتباعه ﷺ إن لنا من العناية في أن جعلنا من أمة هذا النبي الكريم ركناً قويّ الأساس والبنيان غير منهدم لا يهان من لاذ به ولا يضام، فإنه حصن حصين وعز مكين أماتنا الله على سنّته واتباع ملّته وفضله ورحمته.

ومن البشرى لنا معشر الإسلام ما ذكر في بعض أخبار الإسراء أنه ﷺ لما كان من ربه قاب قوسين قال: «اللهم إنك عذّبت القوم بعضهم بالحجارة وبعضهم بالخسف وبعضهم بالمسخ فما أنت فاعل بأمتي، قال: أنزل عليهم الرحمة وأبدل سيئاتهم حسنات ومن دعاني منهم لبيته ومن سألني أعطيته ومن توكل عليّ كفيته وفي الدنيا أستر على العصاة وفي الآخرة أشفعك فيهم ولولا أن الحبيب يحب معاتبة حبيبه ما حاسبت أمتك. ولما أراد ﷺ الانصراف قال: رب لكل قادم من سفره تحفة فما تحفة أمتي. قال الله: أنا لهم ما عاشوا وأنا لهم إذا ماتوا وأنا لهم في القبور وأنا لهم في النشور». فركننا لا ينهدم حال حياتنا ولا حال مماتنا ولا في مبدئنا ولا في قبورنا ولا في سكوننا ولا في نشورنا بفضل ربنا. ويحتمل أن يكون بشرى خبر مبتدأ محذوف أي هذه المناقب الشريفة بشرى أو مبتدأ وساغ الابتداء به على مذهب من يجيزه لحصول الفائدة. اهـ قسطلاني.

وفي المحلى: أن المراد بالركن: الشريعة، ونصه بشرى من البشارة وهي الخبر السارّ معشر الإسلام أي جميع المسلمين بالنصب على الاختصاص، وبين البشرى بقوله: «إن لنا من العناية بنا في الأزل ركناً غير منهدم» أي شريعة باقية غير منسوخة وركن الشيء يعتمد عليه، والانهدام التغيير. اهـ.

وفي أبي السعود: بشرى خبر مبتدأ محذوف ويجوز أن يكون منصوباً على المفعول المطلق، ومعشر الإسلام منادى أو نصب على الاختصاص كقوله ﷺ: «نحن معاشر الأنبياء» وإن لنا جملة استئنافية، كقول الشاعر:

صرّف الهمّ ما استطعت عن القلب فحملانك الهموم جنون
إن رباً كفاك بالأمس ما كا ن سيكفيك في غد ما يكون

اهـ. ثم قال رضي الله عنه:

لما دعا الله داعينا لطاعته بأكرم الرسل كنا أكرم الأمم

لما كان في قوله من العناية إيهام أو دعوى من غير دليل فسر ذلك أو ذكر دليله بقوله: لما دعا الله، يعني لما سمى الله نبينا محمداً ﷺ الذي هو داعينا لطاعته جلّ وعلا بأكرم الرسل لزم من ذلك أن كنا نحن الذين هم أمته أكرم الأمم عنده جلّ وعلا، لأن أكرم الرسل لا يُبعث إلاّ إلى أكرم الأمم، فجميع من بعث إليهم ﷺ خير الأمم مؤمنهم خير المؤمنين وكافرهم خير الكافرين، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ۝١٠٧﴾ [الأنبياء: الآية ١٠٧] ولهذا ارتفع عنهم المسخ والخسف وغيرهما مما حلّ بالأمم قبلهم، ويجاب عن قوله تعالى: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ﴾ [القمر: الآية ٤٣] فإنه على سبيل الإنكار يرد كون كفار هذه الأمة خيراً من كفار غيرها بأن المراد كفار قريش خاصة لزيادة طغيانهم، أو المراد أن يكونوا خيراً منهم في القوة. اهـ قسطلاني.

وفي الشفاء: ثم ذكر كلام النبي ﷺ فقال: «وإن محمداً ﷺ أثنى عليه فقال: كلكم أثنى على ربه وأنا أثني على ربي الحمد لله الذي أرسلني رحمة للعالمين وكافة للناس بشيراً ونذيراً وأنزل عليّ الفرقان فيه تبيان كل شيء وجعل أمتي خير أمة أخرجت للناس وجعل أمتي أمة وسطاً وجعل أمتي هم الأوّلون وهم الآخرون وشرح لي صدري ووضع عني وزري ورفع لي ذكري وجعلني فاتحاً وخاتماً، فقال إبراهيم: بهذا فضلكم محمد»[1] اهـ.

قال بعض العارفين: وكفانا شرفاً يا أمة محمد شهادة الحق لنا في القرآن مرتين حيث قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: الآية ١١٠] الآية، وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: الآية ١٤٣] أي عدولاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم بمعنى لكم شهيداً أي مزكياً لكم لتتم شهادتكم على الأمم الماضية لا سيما علماؤها، فقد شبّههم ﷺ بأنبياء بني إسرائيل بقوله ﷺ: «علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل» وإن نص الحفاظ على وضعه فإنه صح عند أهل الباطن.

قال العارف الكبير ابن عطاء الله في لطائف منه نقلاً عن شيخه القطب الرباني أبي العباس المرسي: إن التشبيه من حيث التبليغ للأمم فإن أنبياء بني إسرائيل بعد موسى ليس لهم كتاب وإنما كانوا يبلغون أحكام التوراة لأممهم فكذلك علماء هذه الأمة. وليس التشبيه في وصف النبوّة اهـ.

وقد نقلنا في كتابنا إرشاد المريد في معنى قول سلطان العارفين أبي يزيد البسطامي: خضت بحراً وقفت الأنبياء بساحله أي بحر الأسرار التي ورثها عن حبيبه الأعظم فقد نالها بطريق الوراثة والتبعية لسيده الأعظم ﷺ لا لذاته.

ولذا قال سلطان العارفين سيدي عبد الوهاب الشعراني عن الغوث الأكبر ابن العربي في كتابه ترجمان الأشواق: إن سرّ القدر لم يطلع الله عليه نبياً مرسلاً ولا ملكاً مقرّباً إلاّ سيدنا ونبينا محمداً ﷺ، قال: وقد أطلعني الله عليه وذلك لما لنا من طريق الوراثة المحمدية ولكن لا يسعنا التكلم بذلك لغلبة المحجوبين. اهـ. أسأل الكريم متوسلاً إليه بوجاهة وجه نبيه العظيم أن يكشف عن القلب الغطا وحجاب الصدا وينوّره بالمعارف الربانية بجاه خير البرية صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أفضل الصلاة وأزكى التحية. ثم قال رضي الله عنه:

راعت قلوب العدى أنباء دعوته   كنبأة أجفلت غفلاً من النعم

قوله: راعت أي أفزعت قلوب العدا أنباء بعثته بكسر الباء بمعنى أخبار إرساله ﷺ

(١) تقدم تخريجه.

التي صدرت من الكهان والمنجمين قبل مبعثه عليه الصلاة والسلام وبعده لم كانوا يسمعون أن دينه سيظهر على كل دين وأنه يذلّ كل جبار عنيد وهذه الأخبار التي راعت قلوب العدا والحال أنهم غافلون عن دين الإسلام لكونها أتتهم على حين غفلة كنبأة أجفلت غفلاً أي كصوت ورد على غفل من الغنم لكونها راتعة في ربيعها مشتغلة في أكلها وشهواتها فأجفلها ذلك الصوت وفرقها. وإسناد الروع إلى القلوب يحتمل أن يكون من مجاز الحذف أي أصحاب قلوب، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه. ويحتمل أن يكون من تسمية الكل باسم البعض فيكون من المجاز المرسل في الوجهين سميت الذوات باسم القلوب لأنها محل المعنى المسند إليها. وأما إسناد راعت إلى الأنباء فمن المجاز العقلي لأنه إسناد الفعل إلى سببه لأن خالق الروع في القلوب هو الله تعالى. اهـ قسطلاني. وقد تقدّم في هذا المعنى من كلام الكهان والرهبان لا سيما بحيرا ما فيه كفاية. ثم قال رضي الله عنه:

ما زال يلقاهم في كل معترك ... حتى حكوا بالقنا لحماً على وضم

أي ما زال ﷺ يلقاهم فيطاعنهم فيطعنهم مع كل معترك وقع بينه ﷺ وبينهم، وذلك بنفسه تارة وبخيله ورجله من بعوثه أخرى، حتى حكوا من كثرة ما أوقع بهم من القتل والجراحة بالقنا طعناً وبالسيوف ضرباً وبالنبل رمياً لحماً مطروحاً على وضم وهو كل ما وضع عليه اللحم من خشبة أو نحوها ليقيه الأرض. ويقال للحقير الذليل على طريق الاستعارة: لحم على وضم، ويحتمل أن يكون هو المراد هنا كما يحتمل الحقيقة كأنه ﷺ جاهد الكفار حتى تركهم قتلى معدين لأن تأكل السباع والطيور لحومهم. اهـ قسطلاني.

وفي المحلى: وفي حديث الصحيحين: «نصرت بالرهب من مسيرة شهر» وروينا: ونصرت بالرعب مسيرة شهر أمامي وشهر خلفي ويقاس بذلك اليمين والشمال. فيكون المراد بالأول شهراً من أي جهة كان بها العدوّ من الجهات الأربع. اهـ. ثم قال رضي الله عنه:

ودّوا الفرار فكادوا يغبطون به ... أشلاء شالت مع العقبان والرخم

أي ولما استمر فيهم القتل وأثبتتهم الجراحات ودّوا الفرار منه ﷺ، أي تمنوا ما لا يتمنى غيرهم مما هو أقبح الخصال عند العرب وأذمها وهو الفرار من الزحف فإنه من اللئام الجبناء وما كانوا يرضونه فضلاً عن تمنيه، ومن كثرة ودادهم للفرار وصيرورته من شهواتهم المطلوبة وأنه لات حين مفرّ لهم من غضب الله تعالى الذي حل بهم على يديه ﷺ والمؤمنين تنزل هربهم منزلة المحال الذي لا ينال إلاّ بالتمني وتمنوا منه ما هو محال عادة وهو الطيران في الهواء إذ لم يروا ما يمنعهم من طلبه ﷺ إياهم إلاّ ذلك فكادوا

لتمنيهم الفرار الموصوف وشدة حرصهم عليه لو أمكنهم يغبطون به أشلاء جمع شلو بكسر الشين وسكون اللام وهو العضو من اللحم شالت أي ارتفعت في الجو مع العقبان والرخم لرفعها إياها. فكأنهم كانوا يقولون: يا ليت لنا من الارتفاع في الجو مثل ما لأعضاء اللحم التي رفعتها العقبان والرخم فارتفعت معها إلى منازلها وإنما غبطوا أعضاء اللحم دون العقبان والرخم لما حصل بينهم وبين تلك الأعضاء من المشابهة بسبب طعن القنا وغيره فحالتهم حالة أعضاء اللحم لا حركة لها إلا أن يحملها غيرها، ولو شبّههم بالعقبان والرخم لأوهم أنهم على أول أمرهم من الشدة والقوة وإنما خص هذين النوعين من الطير لإبعادهم في الارتفاع. اهـ قسطلاني.

وفي أبي السعود: والمعنى أن المشركين والكفار الذين بارزوا النبي المختار قد اسودّ في بياض أعينهم ضوء النهار وتمنوا من شدة الضر وغاية الاضطرار حين سلبوا القرار أن يتيسر لهم الفرار وتمنوا ذلك وكادوا أن يغبطوا أعضاء قتلى قد رفعها جارحات الطير فارة بها من معارك القتال. وفي هذا تصوير لشدة رغبتهم في الفرار على ألطف وجه وأحسنه. وحاصله أنهم تمنوا وحسدوا تلك الجوارح التي رفعتها تلك الجارحات، يعني أنهم اختاروا تلك الحالة على الحالة التي هم فيها فرغبوا في الفرار ولو على هذه الحالة التي لا يختارها من الأحياء إلاّ من اشتدّ به البلاء. اهـ. نسأل الله العفو والعافية في الدين والدنيا والآخرة. ثم قال رضي الله عنه:

تمضي الليالي ولا يدرون عدتها ما لم تكن من ليالي الأشهر الحرم

يعني أنهم من شدّة ما دخل في قلوبهم من الفزع وخامر بواطنهم من الهلع تمضي عليهم الليالي وكذا أيامها ولا يدرون عدّتها لما هم فيه من الكرب ما لم تكن تلك الليالي بأيامها من ليالي الأشهر الحرم، فإنهم يدرون ما مضى منها لأنهم يأمنون فيها من طلب المؤمنين إياهم فيستفيقون من سكرة الخوف وترجع إليهم عقولهم ويعود إليهم تمييزهم، فحينئذ يتفطنون لما مضى من الليالي ويدرون عدّتها وهذا كان قبل إباحة القتال في الأشهر الحرم عند من رأى أنه أبيح فيها القتال، قال الله تعالى: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ﴾ [التوبة: الآية ٥] الآية. وقال عطاء: لم تنسخ ولا ينبغي القتال في الأشهر الحرم. وهو ضعيف. اهـ قسطلاني.

وفي أبي السعود: ثم إنه بين شدة بلائهم وغاية ابتلائهم وحالة حيرتهم وكيفية دهشتهم بأن الليالي غربتهم ولا يدرون عدتها فلا يميزون بين الأسابيع والأيام ولا يفرقون بين الأشهر والأعوام إلاّ أن تكون تلك الليالي ليالي الأشهر الحرم وذلك من شدة ما لحقهم من سلب الحواس بسبب صوارم أصحاب النبي ﷺ. اهـ. ثم قال رضي الله عنه:

كأنما الدين ضيف حلّ بساحتهم بكل قرم إلى لحم العدا قرم

أي كأنما دين الإسلام ضيف حلّ بساحتهم، أي ساحة أهل الإسلام المتدينين به. فنزل على أهل الساحة بكل قرم بفتح القاف أي مع كل سيد إلى لحم العدا للإسلام، قرم بكسر الراء أي شديد الشهوة وبلا شك أن الكرام يسعون في تحصيل شهوة الضيف ولو ببذل مهجتهم فكأنهم من شدة ما حلّ بهم من القتل جزر نحرت وقطعت أعضاء لتطبخ للضيفان الذين اشتهوا لحمها وهذا الضيف الذي وقع التشبيه به سيد من السادات وكذا نزل مع سادة أمثاله. اهـ قسطلاني.

وفي المحلى: كأنما الدين، وهو الإسلام، ضيف حلّ ساحتهم، أي نزل فيها بكل قرم بفتح القاف أي سيد من الصحابة إلى لحم العدا أي الكفار، وقرم بكسر الراء أي شديدة القوة بأن يصيرهم لحوماً معدة لأكل الجوارح. اهـ.

وفي أبي السعود: لما عرفت العرب بإكرام الضيف واشتهر المضيف الكريم برعاية حق الضيف حتى عهد منه بذل المهجة والروح في الانتصار للمضيف شبّه الناظم رحمه الله تعالى الدين بالضيف ولزم منه تشبيه أهل الدين من الأنصار والمهاجرين بالضيف فقال: كان الدين القويم الذي جاء به النبي الرحيم الذي هو شفاء للقلوب وضياء للبصائر ودواء للكروب وغوث للمضطرين وصراط للسالكين ضيف كريم متضمن لمن أضافه من التكريم والتعظيم ما تقرّ به العيون وتطمئن به الخواطر قد نزل بساحة مضياف شديد القوى شديد الرأي ضيفاً يسمع ويرى متلبساً بما يحتاج إليه في دفع الأعداء وقمع الخصماء بجند الله الذين لا تأخذهم في إقامة الدين وتشييد مباني أمور المسلمين لومة لائم تتشوّق أنفسهم إلى منازلة أهل الضلال وسفك دماء أهل البغي كما تتشوق نفس القرم إلى أكل اللحوم.

ولقد مدح الناظم حيث ضمن البيت مدح المهاجرين والأنصار على أحسن وجه وألطفه وناهيك في حالهم قول الله تعالى في حق المهاجرين: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ﴾ [الحشر: الآية ٨] الآية، وفي حق الأنصار ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَانَ﴾ [الحشر: الآية ٩] الآية. وفي الحديث: «آية الإيمان حب الأنصار وآية النفاق بغض الأنصار». ولعمري أنهم رضوان الله تعالى عليهم جديرون بقول قائلهم:

وكفى بنا فضلاً على من غيرنا حب النبي محمد إيانا

اهـ. ثم قال رضي الله عنه:

يجر بحر خميس فوق سابحة يرمي بموج من الأبطال ملتطم

يعني من شأن من هو مثل هذا السيد أنه يجر بحر خميس أي يستتبع جيشاً كالبحر

في تموجه وإهلاكه الكفار، وسمي الجيش خميساً لأنه خمسة أجزاء: مقدّمة وقلب وميمنة وميسرة وساقة، وهذا السيد لكونه قائد هذا الجيش يشبه من يجر بحر خميس برسن كائن مجموع ذلك الجيش فوق خيل سابحة يرمي ذلك الجيش بموج من الأبطال ملتطم بعضه ببعض لهيجانه. والمراد به الأفعال المتواصلة للكفار بآلات الحرب للقتال من طعن وقتل وغيرهما. اهـ قسطلاني.

وفي الشيخ خالد: البحر كناية عن الكثرة، والخميس الجيش سمي بذلك لأنه خمس فرق، المقدّمة والقلب والميمنة والميسرة والساقة. قاله في القاموس، وخيل سابحة إذا مدّت يدها للجري مأخوذ من السباحة وهي العوم في الماء والأبطال جمع بطل بفتح الطاء وهو الشجاع وموج ملتطم أي دخل بعضه على بعض لكثرته. ثم قال رضي الله عنه:

من كل منتدب لله محتسب   يسطو بمستأصل للكفر مصطلم

قوله: منتدب بكسر الدال بمعنى مجيب لدعاء الله ورسوله إياه إلى قتال الكفار محتسب أجره فيما يناله من موت أو دونه على الله تعالى يسطو بمستأصل للكفر بقتل أهله فلا يوجد وكأن قوله: مصطلم تأكيد لمستأصل وهما معاً من صفات الآلة التي يقاتل بها فيكون على هذا تعرض لذكر آلة حربهم كما تعرض لذكر خيلهم. اهـ قسطلاني.

وفي الشيخ خالد: والمنتدب المجيب، يقال: ندبه لكذا فانتدب أي دعاه فأجاب، والمحتسب من يقدّم الخير ويعدّه فيما يدخر ويسطو أي يصول ومستأصل للكفر أي يقلعه من أصله، والاصطلام الاستئصال قاله في الصحاح. اهـ.

وفي أبي السعود: من كل منتدب أي مجيب لدعوة الحق من غير إمهال ملبّ لداعي الله من غير إهمال قد احتسب في إجابته القربة لمولاه وتوكل في أمره على الله يسطو على الأعداء سطوة الأسود متوكلاً على الملك المعبود متقرّباً إلى الرؤوف الودود. اهـ. ثم قال رضي الله عنه:

حتى غدت ملّة الإسلام وهي بهم   من بعد غربتها موصولة الرحم

مكفولة أبداً منهم بخير أب   وخير بعل فلم تيتم ولم تئم

أي ما زال هذا المنتدب يسطو بمستأصل لأهل الكفر حتى غدت، أي صارت ملّة الإسلام وهي مصحوبة بهم، أي بالصحابة الأبطال رضي الله تعالى عنهم أجمعين من بعد غربتها موصولةُ الرحم بكثرة من ينتمي إليها ويدخل فيها، فوصلت بذي رحمها تشبيهاً لكثرة القيام بحقها بوصل رحم ذات رحم، وموصولة في البيت منصوبة خبر لغدت وكذا قوله: مكفولة، أي محفوظة أبداً بحماية الصحابة رضي الله تعالى عنهم لقيامهم بحقها

وإعزازهم لمرتبتها ومكانتها فهي تشبه امرأة مكفولة بخير أب وخير بعل فلم تيتم من جهة الأب ولم تئم من جهة البعل، ولا شك أن المرأة التي يكفلها خير أب وخير بعل في غاية عزّة المكان ورفاهية العيش وكأن الذي ينزل من الملّة منزلة الأب هو الذي يدعو الناس إليها ويثبتها كالنبي ﷺ، ومن يتنزل منزلته من الخلفاء الراشدين والعلماء فإنهم الذين يدعون الناس إلى دين الله تعالى، والذي يتنزل منزلة البعل هو الذي يدعى إلى الدخول فيها فيستجيب. اهـ قسطلاني.

وفي المحلى: حتى غدت بالغين المعجمة أي صارت ملّة الإسلام من إضافة الأعم إلى الأخص وهي مصحوبة بهم أي بالصحابة الأبطال رضي الله عنهم من بعد غربتها موصولة الرحم بالنصب خبر غدت. وأشار بالغربة إلى حديث مسلم: بدأ الإسلام غريباً. أي جاء وظهر بين قوم لا يقومون به فهو منقطع ومقطوع الرحم حتى قام الصحابة رضي الله عنهم فوصلوا رحمه ومكفولة خبر ثان لغدت أي محفوظة أبداً منهم بخير أب وخير بعل أي زوج وهو النبي ﷺ فلم تيتم من جهة الأب ولم تئم من جهة البعل. والنبي ﷺ أشفق من الأب على أولاده وأقوم بمصالحهم من البعل على زوجاته.

وفي أبي السعود: حتى غدت، أي صارت ملّة الإسلام وهي متلبسة بهم ذات أقارب وأعوان وأنصار وإخوان وخلاّن وأخدان من بعدما كانت مبلوّة بكربة الغربة وبُعد الدار، ممتحنة بقلة الأنصار، وضيم الجوار، وغدت مكفولة أبد الآباد بخير الآباء وأكرم الأجداد مضمونة بأشرف البعول وأعز الفحول وهو النبي المختار وأصحابه الأبرار والأخيار صلّى الله عليه وسلم ما دام الفلك الدوّار وبقي الليل والنهار. اهـ. ثم قال رضي الله عنه:

هم الجبال فسل عنهم مصادمهم ... ماذا رأى منهم في كل مصطدم

أي لا تستبعد أيها الجاهل ما ذكره مما صارت إليه ملّة الإسلام فإن أولياءها هم الجبال أنفسهم، أو كالجبال التي أرسى الله بها الأرض من بعدما كانت تميل وتتكفأ حتى قالت الملائكة فيها قبل خلق الجبال: يا ربنا ما هذه بمقرة على ظهرها أحداً، فخلق الله الجبال فأرساها فثبتت وتمكّن من الانتفاع بها وتمتع بخيرها وتعيمها للأناسي والأنعام، وهذا يسميه البيانيون تشبيهاً بليغاً لا استعارة، فالصحابة رضي الله عنهم ومن دان بدينهم واستمر على شاكلتهم من عباده الصالحين وأوليائه المقربين جبال أرض ملّة الإسلام التي بهم بعد تزلزلها سكنت وبقطع دائرة من حاربها من بعد اضطرابها ثبتت، وإن ارتبت في هذا فسل عنهم مصادمهم اسم فاعل أي من صادمهم من أعدائهم، فيخبرك المصادم لهم ماذا رأى منهم من الشدّة التي لا توصف لعظمتها في كل مصطدم ووقع لهم أو حضروه. والمراد به الأماكن التي التقوا فيها مع أعدائهم، والمصادمة:

اصطكاك الصفين، ولعل مراده: فسل عنهم مؤرخ أخبار مصادمهم وإلاَّ فبين زمن مصادمهم وزمنه مئين من السنين، وكيف يتصوّر سؤال من عاد رفاتاً، ومصادمهم ومصطدم من تجنيس الاشتقاق وهو من رد الصدر على الأعجاز. اهـ. ثم قال رضي الله عنه:

وسل حنيناً وسلْ بدراً وسلْ أُحدا فصول حتف لهم أدهى من الوخم

أي سل زمن كل وقعة من هذه الوقعات، فإن تلك الأزمنة فصول حتف لهم، أي أزمنة موت الكفار أدهى عليهم لما يصيبهم فيها من الوخم فإن ما يموت منهم في زمن الوباء مع تطاوله لا يبلغ كثرة فيهم مبلغه زمن مقاتلتهم المؤمنين في الساعة الواحدة وهذا التفسير أولى وأقرب لأن قوله: فصول حتف بدل من حنين وما عطف عليه بدل مجمل من مفصل، والفصول جمع فصل وهو من أسماء الزمان.

ويحتمل أن يكون مراده: وسل أهل حنين وأهل بدر وأهل أُحد أو مؤرخي وقعة حنين أو بدر أو أحد، وكانت غزوة حنين بعد فتح مكة سنة ثمان وهو واد بين مكة والطائف وفيه التقى رسول الله ﷺ والمسلمون مع المشركين من هوازن وثقيف، فانهزم الكفار وقتل منهم كثير وسبيت أموالهم ونساؤهم. وكانت غزوة بدر من غير قصد من المسلمين إليها ولا ميعاد: يوم الجمعة لسبع عشرة خلت من رمضان سنة ثنتين، وبدر اسم ماء بينه وبين المدينة ثمانية وعشرون فرسخاً على طريق مكة وعنده كانت وقعة بدر الكبرى وقتل فيها من صناديد قريش سبعون وأسر منهم سبعون وكان عددهم نحو الألف والمسلمون نحو ثلاثمائة. ويروى أنه نزل جبريل عليه الصلاة والسلام في خمسمائة وميكائيل في خمسمائة في صورة الرجال على خيل بلق عليهم ثياب بيض على رؤوسهم عمائم بيض وقد أرخوا أطراف عمائمهم بين أكتافهم.

وقال ابن عباس: كانت سيما الملائكة يوم بدر عمائم بيض ويوم حنين عمائم خضر ولم تقاتل الملائكة في يوم سوى يوم بدر، وكانوا يكونون فيما سواه عدداً ومدداً وكانت غزوة أُحد في شوّال سنة ثلاث، وهو جبل بالمدينة كانت الوقعة فيه واستشهد فيها من المسلمين سبعون منهم حمزة، وقتل من المشركين اثنان وعشرون رجلاً وكان جميع المشركين ثلاثة آلاف والمسلمون سبعمائة. اهـ قسطلاني.

وفي الشفاء في وقعة حنين عن أبي إسحٰق: سمع البراء وسأله رجل: أفررتم يوم حنين عن رسول الله ﷺ، قال: نعم لكن رسول الله ﷺ لم يفر. ثم قال: لقد رأيته على بغلته البيضاء وأبو سفيان آخذ بلجامها والنبي ﷺ يقول:

أنا النبي لا كذب

وزاد غيره:

أنا ابن عبد المطلب

قيل: فما رؤي يومئذ أحد كان أشد منه. وقال غيره: نزل النبي ﷺ عن بغلته، وذكره مسلم، وعن العباس: فلما التقى المسلمون والكفار ولّى المسلمون مدبرين وطفق رسول الله ﷺ يركض بغلته نحو الكفار وأنا آخذ بلجامها أكفها إرادة أن لا تسرع وأبو سفيان آخذ بركابه ثم نادى: يا للمسلمين. اهـ.

وسبب انهزام المسلمين أن بعضهم وكان من الطلقاء أهل مكة، قال: لن تغلب اثنا عشر ألفاً من كثرة وهذا مصداق قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ [التوبة: الآية ٢٥] أي مع اتساعها وليتم مدبرين، ﴿ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: الآية ٢٦] الآية فأخذ ﷺ كفاً من حصى وتراب ورمى به في وجوه المشركين وقال: «شاهت الوجوه» أي قبحت، فما بقي منهم أحد إلاً دخل في عينيه من ذلك التراب كما قال تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: الآية ١٧] أي وما أوصلت التراب إلى أعينهم إذ رميتهم ولكن الله أوصله إليهم وهزمهم الله شر هزيمة وانتصر المؤمنون انتصاراً عظيماً كما قال تعالى: ﴿وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [التوبة: الآية ٢٦] أي بالقتل والأسر والسبي وبلغت الغنائم والسبايا في هذه الوقعة مبلغاً عظيماً وأمسك ﷺ عن قسم الغنيمة ثلاثة عشر يوماً ثم بعد قسمها جاءت هوازن منقادين طائعين يؤمهم زهير شاعرهم، فوقف بين يديه ﷺ وأنشده قصيدة مطلعها، كما في المواهب:

امنن علينا رسول اللّه في كرم فإنك المرء نرجوه وندّخر
أمنن على بيضة قد عاقها قدر مشتت شملها في دهرها غير
إن لم تداركهم نعماء تنشرها يا أرجح الناس حلماً حين يختبر

إلى آخرها، فقال ﷺ: «إن أحسن الحديث أصدقه، اختاروا، إما السبي وإما المال»، ثم قال: «أمّا ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم وأما ما كان للمسلمين فأمره إليهم» فطابت نفوس المسلمين جميعاً برد السبايا وأسلم كثير من هوازن بعد ذلك. وبالجملة فوقعة حنين وبدر وأُحد أعظم الوقائع التي شهدها رسول الله ﷺ، وأول عزّ أعزّ الله الإسلام كان بوقعة بدر حيث قُتل فيها صناديد قريش كأبي جهل وأضرابه وقد أفردت هذه الوقائع بالتآليف، والله أعلم. ثم قال رضي الله عنه:

المصدري البيض سمراً بعدما وردت من العدى كل مسود من اللمم

لما وصف رحمه الله تعالى الصحابة رضي الله عنهم بما وصفه أردف ذلك بقوله: المصدري البيض، بالإضافة والمضاف منصوب بإضمار امدح أو اذكر، والأصل المصدرين، وحذفت النون للإضافة أو للتخفيف، يعني أن الصحابة يرجعون صفائح السيوف البيض حمراً بعدما وردت تلك الصفائح من دماء أعضاء العدا كل مسودّ من

اللمم، فشبه السيوف بإبل بيض أوردت ينبوعاً أسود يجري بماء أحمر ثم صدرت وقد عادت بعد بياضها حمراً من تلبسها بذلك الماء الذي وردته. وفي قوله: كل مسود، دليل على شجاعة الصحابة رضي الله عنهم وارتفاع همتهم، فإنهم لا يرضون إلاَّ بقتل سود اللمم وهم الشبان في الغالب. اهـ قسطلاني.

وفي أبي السعود: الصدر الخروج من المنهل بعد قضاء الوطر من الشرب والعلل من الماء والورود الدخول فيه، لذلك قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ﴾ [القَصَص: الآية ٢٣] واللمم بالكسر جمع لمّة وهي دون الجمة، وهي ما ألمّ من شعر الرأس، واللمم بفتحتين جنون خفيف، ويقال أيضاً على ما دون الفاحشة من صغار الذنوب ومنه قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ [النَّجم: الآية ٣٢]، والبيض جمع أبيض وهو السيف الصقيل. اهـ.

وكفى شرفاً في وصف شجاعتهم وصلابتهم وحملهم مع إخوانهم شهادة الله تعالى بقوله جلّ ذكره: ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفَتْح: الآية ٢٩] وقد كانت عزائمهم متوجهة إلى نصرة الدين وإعلاء كلمة الحق واليقين، وكانوا يشاهدون الجنة تحت ظلال السيوف فكانوا عند ذلك يبذلون أرواحهم ومهجهم. وقد وقع ذلك من بعض صغارهم كما في صحيح البخاري من قصة معوّذ ومعاذ ابني عفراء حيث وقف أحدهم على يمين سيدنا عبد الرحمٰن بن عوف والآخر عن يساره، فقال الذي عن اليمين يخاطب سيدنا عبد الرحمٰن: يا عم بلغني أن رجلاً في صف الكفر هذا سبّ رسول الله ﷺ فوالله لا يفارق سوادي سواده حتى أقتل أنا أو هو. فما قالها الذي عن يمينه إلاَّ قال مثلها الذي عن يساره، قال عبد الرحمٰن بن عوف: فما سررت بشيء من الدنيا مثل ما سررت بكلام هذين. ثم أشار إلى أبي جهل وقال: هذا صاحبكما الذي أمام صف المشركين، فتسابقا إليه كالصقرين فابتدراه بضربتين فأثخناه ثم ذفف عليه عبد الله بن مسعود رضوان الله عليهم أجمعين وقد ثبت أن أبا جهل قطع كف معوذ فأتى النبي ﷺ فتفل عليها فعادت كما كانت ببركته ﷺ. ثم عطف رضي الله عنه على المصدري قوله:

والكاتبين بسمر الخط ما تركت ... أقلامهم حرف جسم غير منعجم

فقوله: والكاتبين أي الطاعنين بسمر الخط التي هي شبيهة بأقلام الكتاب وهي الرماح الخطية ما تركت أقلامهم حرف أي طرف جسم من أجسام الكفار غير منعجم بل طعنته. وفي هذا البيت لطائف، منها أن تشبيههم بالكتاب والسمر بالأقلام دليل على غاية إحكامهم للطعن بها حتى إنها في أيديهم كالأقلام في يد الكتبة لا كبير مشقة عليهم في التصرف بها. ومنها أنهم لا يطعنون طعنة إلاَّ في محلها كما لا ينتقط حرف إلاَّ بما يستحق. ومنها أنهم أعجموا حروف أجسام الكفار أي أزالوا المعجمة عنهم بالنقط

المبين ليتميزوا من المؤمنين، فإن الأمر مختلط في الحروب فيتميز الكافر بنقطه والمؤمن بسلامته. اهـ قسطلاني.

وعبارة بعضهم في شرحه: والكاتبين بسمر الخط. عطف على قوله: المصدري البيض، وأراد من الكاتبين الطاعنين، فيكون قد شبه الطعن بالكتابة بجامع التأثير في كل واستعار الكتابة للطعن، واشتق من الكتابة بمعنى الطعن الكاتبين بمعنى الطاعنين على طريق الاستعارة التصريحية التبعية، والمراد بسمر الخط الرماح الخطية فالسمر جمع أسمر وهو الرمح والخط شجر تتخذ منه تلك الرماح. وقيل: موضع باليمامة تجلب إليه تلك الرماح من الهند. وقوله: ما تركت أقلامهم حرف جسم غير منعجم. أي لم تترك أسنة رماحهم طرف جسم من أجسام الكفار غير مزال عجمته بل أزالت عجمته. أي خفاءه بالطعن بأن طعنته ليتميز الكفار من المؤمنين، فإن الأمر مختلط في الحروب فيتميز الكافر بطعنه والمؤمن بسلامته كما يتميز الحرف المعجم بنقطه والمهمل بخلوه عن النقط. فالمراد بأقلامهم أسنة رماحهم فيكون قد شبّه أسنة رماحهم بالأقلام واستعار اسم المشبه به للمشبه على طريق الاستعارة التصريحية الأصلية، والحرف بمعنى الطرف. ومنه قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٍۖ﴾ [الحج: الآية ١١] أي على طرف وجانب من الدين. اهـ. ثم إنه يوجد في بعض النسخ بيت نصه:

إن قام في جامع الهيجاء خاطبهم تصاممت عنه أذناً صمة الصمم

قوله: خاطبهم، أي خاطب المؤمنين، وصمة الصمم بكسر الصاد في الأولى أي أشدّهم شجاعة. قال العلامة ابن مرزوق: وهذا البيت لم يثبت في روايتي وإنما هو في بعض النسخ، والظاهر أنه ليس من كلامه ولذا وقع الاضطراب في تفسيره وهذا شأن كثير مما أدخل في هذه القصيدة مما ليس من كلامه، وفي ذلك دلالة على خلوص نيّته وصدق محبته. ومما يدل على كونه دخيلاً قوله: شاكي السلاح، فإنه ظاهر الاتصال بقوله: غير منعجم، لأنه لما أخبر أن الصحابة رضي الله عنهم قطعوا حروف أجسام الكفار وأزالوا الإعجام عن أجسامهم حتى تميزوا بما حصل فيهم من الطعن عن المؤمنين أراد أن يخبر عن علامة المؤمنين التي تميزهم في أنفسهم لأن سلامتهم من الطعن وإن كانت مميزة لهم عن الكفار لكن تلك علامة إضافية تميّز من اقتتل منهم مع الكفار فيبقى ما يميزهم بالإطلاق عن الكفار، فوصفهم بما يميزهم فقال:

شاكي السلاح لهم سيما تميّزهم والورد يمتاز بالسيما عن السلم

أي هم شاكي أي تامي السلاح، وحادّيه لهم سيما تميّزهم عن غيرهم، وتلك السيما إما كونهم أشدّاء على الكفار رحماء بينهم وإما كونهم يرون ركعاً سجداً سيماهم في وجوههم من أثر السجود.

قال شهر بن حوشب: تكون مواضع السجود من وجوههم كالقمر ليلة البدر، وكأنه قيل له: الفرق الذي ذكرت بين الفريقين في شاكي السلاح معنوي خفي لا يفطن له إلاَّ الأذكياء فلا يحسن جعله سيما لكل أحد وإنما يرى الأكثر تساويهم في لبس السلاح الحسي. فأجاب بقوله: والورد يمتاز بالسما عن السلم، يعني أن شجر السلم والورد وإن كانا شجرين مورقين بورق ذي شوك إلاَّ أن ذلك لا يمنع إدراك الفرق لكل ذي بصر فإن الورد ممتنع عن الحيوانات الخسيسة كامتناع الشجاع من الأعداء الأنذال سهل التناول على الأحباء، وطيب رائحة الورد وحسن خلقه وشرف منزلته وبهاء منظره لا يخفى فكأنه يقول: كما لا يخفى امتياز الورد بسيماه من السلم كذلك لا يخفى امتياز الصحابة رضي الله تعالى عنهم بسيماهم من غيرهم. اهـ قسطلاني.

ثم إن تركيب شاكي السلاح كتركيب المصدري البيض فأصله شاكين السلاح لكن حذفت منه النون للإضافة أو للتخفيف، وأصل شاكي: شاوك، فهو من الشوكة التي هي الحدة فدخله القلب المكاني فصار شاكو، ثم دخله القلب الذاتي فصار شاكي.

قال ابن العماد: والسيما: العلامة، وهي السمت الحسن والخشوع. وقيل: سيماهم صفرة الوجوه من السهر إذا رأيتهم حسبتهم مرضى وما هم بمرضى.

وقيل: سيماهم أثر التراب على وجوههم كانوا يسجدون على التراب لا على الأثواب رضي الله تعالى عنهم وحشرنا في زمرتهم، والسلم شجر له شوك والسلام شجر عظام الواحدة سلامة، وسمي بذلك لسلامته مما يلحق ما دق من الشجر من الكسر والدق. اهـ. ثم لما ذكر رضي الله عنه ما تقدم أتبعه بما يزيد بياناً وتثبيتاً، فقال:

تهدى إليك رياح النصر نشرهم فتحسب الزهر في الأكمام كل كمي

تهدى بضم التاء مضارع أهدى إليك، رياح النصر نشرهم الطيب الذي يمتازون به كامتياز الورد برائحته عن السلم فتحسب الزهر حال كونه في الأكمام كل كمي أي كل شجاع متكنِّف في سلاحه كالزهر في أكمامه وهي غلافاته التي يكون فيها شبه أجسامهم الطاهرة الطيبة حالة كونهم متقنعين في السلاح بالأزهار في أكمامها قبل أن تتفتق عنها فهم رضي الله تعالى عنهم من لم يميزهم بسيماهم الظاهرة التي هي كسيما الورد في بهاء المنظر وطيب الرائحة، وذلك لمن شافههم، فإنه يميزهم بما توصله إليه رياح النصر من طيب الثناء عليهم وصدق الخبر عنهم لتواتره بأنهم المنصورون. وأصل كمي كميّ بالتشديد على وزن فعيل حذفت الياء الساكنة وسكنت المتحركة لثقل الكسرة على حرف العلة. اهـ قسطلاني.

وفي كلام بعضهم: والمراد برياح النصر، الرياح التي حصل بها النصر، فالإضافة لأدنى ملابسة ويحتمل أن المراد بها بركات النصر وتراثه، وقد يراد بالرياح الدولات،

كما في قول الشاعر:

إذا هبَّت رياحك فاغتنمها فعقبى كل عاصفة سكون

والمراد بالنشر الخبر السار مجازاً عن الرائحة الطيبة. وقوله: فتحسب الزهر في الأكمام كل كمي، كان حق الكلام أن يقول: فتحسب كل كمي الزهر في الأكمام، لكن المصنف قد جعله من باب التشبيه المقلوب على حد قوله:

ومهمه مغبرّة أرجاؤه كأن لون أرضه سماؤه

وقوله:

وبدا الصباح كأنه غرّته وجه الخليفة حين يمتدح

كأنهم في ظهور الخيل نبت ربا من شدّة الحزم لا من شدّم الحزم

طارت قلوب العدا من بأسهم فرقا فما تفرق بين البَهم والبُهم

شبَّههم تشبيهاً مطلقاً بقوله: كأنهم حال كونهم في ظهور الخيل نبت ربا في بهاء المنظر وحسن المخبر وطيب الرائحة والثبات والاستقرار وأنهم وإن تحركوا عليها لم يتحركوا بما يقلعهم من أصل ظهورها بل إنما يتحركون للطعن والاتقاء مع ثبوت أصلهم كما يتحرك النبات على ظهرِ الربا بحركة الرياح، ثم ثبات أصلهم على ظهور خيلهم إنما هو من أجل شدة الحزم الذي أوتوه وهو بفتح الحاء لا من أجل شدة الحزم بضم الحاء والزاي وهي سروج الخيل أو غيرها مما يشدّ به على ظهر الدابة ولا من أجل شدهم أنفسهم عليها بحزمهم وشبههم بنبت الربا ولم يشبههم بالشجر لأن الشجر يشبه به العظام من الكفار. وأما النبت فإن الرياح تنسفه يميناً وشمالاً ومثله المؤمن في المحن الدنيوية كما في الحديث: «المؤمن كالخامة من الزرع» وخصص نبت الربا لأنه أحسن النبات لأنه يأخذ حظه من الماء ثم يسيل عنه ويأخذ حظه من الشمس والرياح على اختلاف أنواعها، فتجده أخضر يانعاً غضّاً يروق الناظرين ويعجب حسنه المتأملين. وأما نبت المنخفض من الأرض فقد يستقر فيه الماء فيقتله ويصفر لونه لأن التلال التي أحاطت به تمنعه الشمس والرياح. وتأمل قوله ﷺ: «كالحبة في حميل السيل»، وفي قوله: «من شدّة الحزم احتراس حسن». وفي ظهور الخيل للظرفية، وبمعنى على عند بعضهم، والوجهان في قوله تعالى: ﴿فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ [طه: الآية ٧١]. ولما ثبت من وصف الصحابة رضي الله عنهم ما ثبت من الشجاعة والتأييد الإلهي بالنصر طارت قلوب العدا من أجل بأسهم فرقاً فما تفرق بين البهم وهي أولاد الضأن وبين البهم وهم شجعان الفرسان، فالأول بفتح الباء والثاني بضمها، وهذا من شدّة الفزع والرعب الذي حلّ بهم حتى صاروا من الدهش لا يميزون بينهما وهذا أحسن ما يفسر به البيت. اهـ قسطلاني.

وفي المحلى: نبت ربا جمع ربوة مثلث الراء وهو ما ارتفع من الأرض ونبتها أثبت في الأرض من نبت غيرها لطول عروقه حتى يصل إلى الماء بخلاف نبت غيرها، فهم في ظهور الخيل أثبت من غيرهم بكثير من شدّة الحزم بكسر الشين وفتح الحاء أي قوّة اثبات لا من شدة الحزم بفتح الشين وضم الحاء والزاي جمع حزام وهو ما يشدّ به السرج أو غيره على ظهر الدابة. وقوله: طارت قلوب العدا أي اضطربت من بأسهم أي من أجل شدتهم في الحرب فرقاً أي فزعاً فما تفرّق بين البَهم بفتح الباء وسكون الهاء جمع بهمة بزيادة الهاء وهي السخلة، والبُهم بضم الباء وفتح الهاء وهم الشجعان جمع بهمة بسكون الهاء. والمعنى: أن الفزع اشتد بالقلوب إلى أن صارت لا تميز بين البَهم والبُهم اهـ.

ثم لما ذكر أنه حصل للعدا الفزع الشديد من بأس الصحابة رضي الله عنهم أشار إلى أن ذلك إنما هو بسر رسول الله ﷺ، حيث قال:

ومن تكن برسول الله نصرته إن تلقه الأسد في آجامها تجم

أي ومن تكن نصرته برسول الله ﷺ كالصحابة ومن حذا حذوهم إن تلقه الأسد في آجامها التي تستتر فيها بالأشجار الملتفة فإن أحداً لا يقدر على الدخول فيها عليها حرصاً وإن انتزع منه أعزّ ما يكون عليه فإنه لا يتبعها الشدّة الخوف فهي في آجامها ممتنعة فإنها إذا زارت على من يريدها في ذلك المكان فرق ولو كان معه من الجمع ما يمكن أن يوجد خوفاً من هيبة صوتها لكن إن لقيت من ينتصر برسول الله ﷺ انعكس الحال فتصير الأسد إن أحست بذلك المنتصر تجم من هيبته أي تسكن، ولم يسمع لها صوت خوفاً من أن يكون صوتها دالاً على مكانها فيأتيها المنتصر برسول الله ﷺ فيقبض عليها. ويحتمل أن يراد بالأسد الشجعان وبالآجام الحصون.

ويناسب حمل الأسد على الحقيقة قصة سفينة مولى رسول الله ﷺ مع الأسد ولا تكون النصرة برسول الله ﷺ إلاّ باتباع سنّته وترك كل ما جاء على خلاف شريعته، فمن حصلت له هذه المرتبة طارت قلوب العدا من بأسه وسلم من أعدائه فإن لقيه الأسد في أجمته استخفى ووجم واتباع السنّة عين تقوى الله والحامل عليها عين خوف الله فمن خاف الله أخاف منه كل شيء. اهـ قسطلاني.

وفي الشفاء: ومن هذا الباب، أي باب المعجزات، ما روي من تسخير الأسد لسفينة مولى رسول الله ﷺ إذ وجهه إلى معاذ باليمن فلقي الأسد فعرفه أنه مولى رسول الله ﷺ ومعه كتابه فهمهم وتنحى عن الطريق وذكر في منصرفه مثل ذلك. وفي رواية أخرى عنه: أن سفينة تكسرت به فخرج إلى جزيرة فإذا الأسد قال: فقلت: أنا مولى رسول الله ﷺ، فجعل يغمزني بمنكبه حتى أقامني على الطريق. اهـ.

ومن باب الانتصار به ﷺ انتصار الظبية به وشكوى الجمل إليه، ففي الشفاء عن أم سلمة: كان النبي ﷺ في صحراء فنادته ظبية: يا رسول الله، قال: ما حاجتك، قالت: صادني هذا الأعرابي ولي خشفان بكسر الخاء وسكون الشين المعجمتين، أي ولدان في ذلك الجبل فأطلقني حتى أذهب فأرضعهما وأرجع، قال: وتفعلين، قالت: نعم. فأطلقها فذهبت ورجعت فأوثقها فانتبه الأعرابي وقال: يا رسول الله ألك حاجة، قال تطلق هذه الظبية، فأطلقها فخرجت تعدو في الصحراء وتقول: أشهد أن لا إلٰه إلاّ الله وأشهد أن محمداً رسول الله. اهـ.

وفي أبي السعود: والآجام جمع أجمة وهي غاب الأسد، ومن: شرطية، وتكن يجوز أن تكون تامة وأن تكون ناقصة فنصرته إما فاعل أو اسم، والباء للسببية أو للاستعانة، وبرسول الله إما خبر أو متعلق بنصرته والجملة الشرطية، أعني أن تلقه جزء الشرط والضمير في تلقه عائد إلى من وفي آجامها حال من الأسد. وفائدة التقييد به المبالغة والتوكيد في حصول الهيبة والسطوة لمن كان منتصراً برسول الله ﷺ، فإن الأسد في آجامها أشد بأساً منها في غيرها، فإذا وجمت هنالك عند ملاقاة من هو منتصر به ﷺ كانت هيبته وسطوته أشد وأقوى. وتجم بكسر الجيم جواب الشرط.

والمعنى: أن من كان ناصراً لدين الله وشريعته أو كان منصوراً بسبب رسول الله ﷺ أو باستعانته من متابعته واقتفاء سنّته فقد شملته العزّة القاهرة وأحاطت به السطوة الباهرة وتجلبب بجلباب القدرة الربانية وتردى برداء العظمة السلطانية فهو محفوف بالألطاف السبحانية في كنف العناية المهيمنية منصور نصر من عزت كلمته، محفوف بكلاءة من جلّت قدرته، فلا يلاقيه شجاع من شجعان ميدان فرسان النزال، أي القتال والحرب، ولا يصادمه صنديد من صناديد معارك القتال إلاّ تراه رعدت فرائصه تيقناً منه بنزول الهلاك والبوار ولحوق العار ودخول النار، فترى الأسود في آجامها بعد زئيرها على آكامها قد وجمت من وجوم من استولت عليه الهموم والأحزان وأطرقت إطراق من استغلبت عليه الغموم والأشجان. اهـ. نسأل الله العفو والعافية والمعافاة الدائمة في الدين والدنيا والآخرة. ثم قال رضي الله عنه:

ولن ترى من وليّ غير منتصر ... به ولا من عدوّ غير منقصم

لما ذكر ما تقدم عقبه بقوله: ولن ترى من ولي من أوليائه ﷺ غير منتصر به على عدوّه وأولياؤه هم من آمن به ﷺ وكان على هديه وطريقته، ولا ترى من عدوّ له غير منقصم أي به فيكون من الحذف من الأواخر لدلالة الأوائل عليه، ولفظ منقصم بالقاف. وفي بعض النسخ: بالفاء.

فإن قيل: إذا أخبر أن الولي منتصر علم أن العدوّ منقصم لأنه من المعلوم أن أحد

المتقابلين إذا انتصر فمقابله مخذول فما حكمة قوله: ولا من عدوّ.

فالجواب: لا نسلم دلالة الشطر الأول على انقصام العدو كما ذكر السائل بل إنما يدل على أنه غير منصور وذلك أعمّ من كونه منقصماً لجواز أن يغلب بالهزيمة ويسلم مع ذلك. والأعمّ لا إشعار له بالأخص المعين سلمنا دلالة الشطر الأول على ذلك لكن دلالته على انقصام العدوّ باللزوم ودلالة الثاني بالمطابقة. ولما كان سياق هذا المدح فيما نال الأعداء من المهالك ناسب الإطناب في الإخبار عن أحوالهم بدلالة المطابقة والالتزام. اهـ قسطلاني.

وفي أبي السعود: الولي فعيل من الولي بمعنى القرب، يقال: وليه بمعنى قرب منه. والمصدر منه الولي ووليه أحبه ومصدره الولاء. قال الشاعر:

ولائي لكم يا آل أحمد جنة ... تقيني يوم الحشر هولاً ونيرانا

والولاية بالفتح النصر، وولي أمره قام به، ومصدره الولاية بالكسر. وقوله ﷺ في حق علي رضي الله عنه: «اللهمَّ والِ من والاه» يحتمل الفتح والكسر. والوليّ من أسماء الله تعالى بمعنى القريب الودود والانقصام بالقاف الكسر مع فصل وبالفاء بدونه ولن لتأكيد النفي والرؤيا إما بمعنى العلم المتعدّي إلى مفعولين أو بمعنى الإبصار المتعدّي إلى مفعول واحد ومن زائدة في المفعول أي ولن ترى ولياً وغير يجوز فيه الجر على أنه نعت لوليّ والرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف والنصب على أنه مفعول ثان لترى إن كان من أفعال القلوب أو على الحال إن كان بمعنى الرؤية البصرية. اهـ. والكلام على الولي بأقسامه وكراماته وأنواعه سبق لك مستوفى فلا تغفل. ثم قال رضي الله عنه:

أحلّ أمته في حرز ملّته ... كالليث حلّ مع الأشبال في أجم

هذا البيت كالتعليل للبيت قبله، فكأنه قال: لأنه أحلّ أمته في حرز ملّته وشريعته التي هي كأعظم الحصون المنيعة التي لا تنال ولا يدخلها إلاّ من هو من أهلها كالليث وهو الأسد حل مع الأشبال في أجم، فإنه لا يستطيع الدخول عليه في ذلك المكان إلاّ واحد من أشباله أي أولاده وأبناء جنسه، فهو ﷺ بمثابة الليث وأمته بمثابة الأشبال ودين الإسلام بمثابة الأجم، وهذا التشبيه إما لأن ما حصل لهم من اليقين بصحة الإسلام في قلوبهم يهوّن عليهم بذل نفوسهم في ذات الله تعالى فيشتدّ لذلك قتالهم لأن موتهم في سبيل الله أشهر عندهم من الحياة وهذا هو الحصن الحقيقي. وإما لأن ما حصل لهم من الإيمان في القلوب بمثابة من حلّ في حصن حصين فمن أراد أن يدخل عليهم فيه شيئاً مما يخالفه لم يجد إلى ذلك سبيلاً، وتشبيهه ﷺ بالأسد وأمته بالأشبال لأن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كالآباء لأممهم. اهـ قسطلاني.

قال العلامة السعد: أحله: أنزله، والأمة نوعان: أمة الدعوة وهي كل من بلغه

دعوة النبي ﷺ، وأمة الإجابة وهي كل من آمن به، والحرز ما يحرز به الشيء أي يحفظ، والملّة: الدين الذي أملي من السماء، والشبل ولد الأسد، والأجمة والأجم كالنمرة والنمر. وقوله: كالليث حال من ضمير أحلّ وحلّ إما صفة على طريقة:

ولقد أمرّ على اللئيم يسبّني

أو حال على طريقة قوله تعالى: ﴿حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ﴾ [النساء: الآية ٩٠] شبه النبي ﷺ بالأسد في السلطنة وكمال الشجاعة والهيبة وشدّة البطش وحمايته لأشباله وجعل أمته أشباله وأولاده لأنه عليه السلام سبب نجاتهم الأبدية، وشبَّه الملة التي سماها حرزاً بالأجم في أن كلاً منهما سبب للحفظ ومنع ضرر الغير، وفي تسميتها حرزاً إشارة إلى قوله تعالى: «لا إله إلا الله حصني ومن دخل حصني أمن من عذابي» وإلى قوله عليه الصلاة والسلام: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلاَّ الله فإذا قالوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم» الحديث. اهـ.

ثم إن انتصار دين الإسلام يكون بالسيف تارة وبالحجج أخرى وأقوى تلك الحجج حجج القرآن كما أفهمه قوله:

كم جدّلت كلمات اللّه من جدل فيه وكم خصم البرهان من خصم

أي كثيراً ما جدّلت بتشديد الدال، يقال: جدّله أي صرعه، ويجوز تخفيف الدال إلاَّ أن المشدد يفيد التكثير. ويحتمل أن يكون معناه: كم قطعت كلمات الله من جدل بكسر الدال اسم فاعل من جدل جدلاً أي أحكم الخصومة، وجادله أي خاصمه مجادلة وجدالاً، والاسم الجدل وهو شديد الخصومة فيه أي أمر النبي ﷺ أو في دينه وكم أي كثيراً ما خصم البرهان أي الحق بأدلته القاطعة وبراهينه الساطعة من خصم، أي شديد الخصومة فيه فهو من الحذف من الأواخر لدلالة الأوائل عليه. اهـ قسطلاني.

وفي الدسوقي على المحلى، قوله: وكم خبرية، أي والمجرور في الموضعين تمييز لها، ومعنى البيت: كم أزال القرآن جدال المجادل الأشدّ وكثيراً ما أزالت الخصومة حجة النبي ومعجزته من الخصم الألدّ. فالأول إشارة إلى ما وقع في القرآن من جواب المعاندين السائلين، ومنه ما روي أن اليهود قالوا لقريش: سلوه عن الروح وعن أصحاب الكهف وعن ذي القرنين فإن أجاب عن الكل أو سكت عن الكل فليس بنبيّ، وإن أجاب عن البعض وسكت عن البعض فهو نبي. فنزلت قصة أصحاب الكهف وقصة ذي القرنين ونزل ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: الآية ٨٥] فأحال علمه إلى ربه.

ومنه أيضاً ما روي أن اليهود قالوا لكبراء المشركين: اسألوا محمداً لم انتقل يعقوب من الشام إلى مصر، وعن قصة يوسف. فلما نزل القرآن بذلك قالوا: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾ [المائدة: الآية ١١٠]، والثاني إشارة إلى ما وقع منه ﷺ إجابة لأسئلتهم

على وجه الامتحان كسؤالهم له إراءة آية كآية انشقاق القمر وغيرها، وعطف الثاني على الأول من عطف العام على الخاص. اهـ. ثم قال رضي الله عنه:

كفاك بالعلم في الأميّ معجزة   في الجاهلية والتأديب في اليتم

أي يكفيك العلم في النبيّ الأميّ وهو الذي لا يكتب ولا يعلم من معلم معجزة دالة على صدقه فيما جاء به في زمن الجاهلية وفي أهلها وكفاك أيضاً ما فيه من التأديب معجزة في اليتم بضم التاء اتباعاً لضم الياء لضرورة الوزن، وهو في الناس فقد الأب، وفي البهائم فقد الأمّ. فهو ﷺ قد مات أبوه وهو في بطن أمه، وشأن اليتيم في الأغلب أن لا يكون فيه من الآداب ما يكون في ذي الأب لأن الأب يحتفل بتأديب ابنه ويسعى في تكميله باكتساب الصفات الحميدة وغير الأب لا يكون منه ذلك، فلما وجد منه ﷺ من العلوم ما لا يبلغ بتعليم لمن تصدّى لها فكيف بمن لم يتصدّ، ومن الآداب ما لا ينال بإرشاد لمن له مؤدّب فكيف بمن عدمه، دلّ على أنه رسول الله ﷺ. اهـ قسطلاني.

وكفى شرفاً قول الباري جلَّ شأنه في مقام الامتنان وخطاباً لحبيبه الأكرم: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۝٧﴾ [الضحى: الآيتان ٦، ٧] أي ألم يجدك يتيماً فآواك إليه وتولى تربيتك لديه ولم يجعل لمخلوق عليك منّة ووجدك ضالاً تائهاً عن طريق أبيك إبراهيم فهداك إليها بالوحي.

وفي أبي السعود: كفاك في ثبوت حججه وسطوع بيناته ووضوح براهينه وإفحام معجزاته عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام إحاطته بعلوم الأوّلين والآخرين مع كونه أميّاً لم يمارس ما خط في الكتب والرسائل ولم يدارس أهل العلم وأصحاب الحجج والدلائل، وتحليه بحليّ جميع الآداب باطناً وظاهراً وتزكيته من رجس الأدناس ونشئه طيباً طاهراً وقد تربى يتيماً بين أجلاف الجاهلية الذين كانوا عراة من ملابس الآداب عزلاً عن سلاح يقمع الخطأ في السؤال والجواب، وما ذلك إلاَّ بتأييدات سبحانية ومدامات ربانية خارجة عن طوق البشرية داخلة في حومة القدرة الإلٰهية. اهـ.

ثم عقب الناظم تلك بالإقرار بما ارتكبه والتوسل إلى الله تعالى في غفران ذلك، فقال:

خدمته بمديح أستقيل به   ذنوب عمر مضى في الشعر والخدم

أي خدمته ﷺ بمديح، وهو هذا، وكأنه يخاطب الله تعالى بقول: يا رب خدمت رسولك عليه الصلاة والسلام بمديح حال كوني أستقيل أي أطلب منك أن تقيلني به من ذنوب عمر مضى في نظم الشعر مدحاً في الناس والخدم لهم مما ليس في طاعة الله جل وعلا، هذا وإن كان إلاَّ أنه قد يخرج فيه إلى المحرم. اهـ قسطلاني.

وفي أبي السعود: الخدمة أداء حوائج الشخص، والاستقالة طلب الإقالة وهي في

الأصل الأخذ باليد عند العثار، ومنه ما جاء في الدعاء: «اللهمَّ أقلّ عثرتي». والشعر هو الكلام المقفّى الموزون المخيّل وفي الأصل العلم، ومنه قول بلال رضي الله عنه:

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة   بمكة حولي اذخر وجليل

والضمير في خدمته راجع إلى النبي ﷺ والمعنى: بيان علاج مرضه القلبي من داء ذنبه القوي، فإنه لما كان قد ابتلي بذنبين عظيمين وإثمين شديدين أحدهما يتعلق باشتغال البال عن ذكر الكبير المتعال، وترتيب الأقوال واللغو في المقال وتوجه الخاطر بكل كله إلى ما لا يعني من الشعر، الذي أشار إليه الحكيم الحاذق بالحقائق والعارف المطلع على النكت واللطائف عليه من الصلوات أزكاها ومن التحيات أنماها بقوله: «لأن يمتلىء جوف أحدكم قيحاً خير من أن يمتلىء شعراً». وثانيهما يتعلق بالأعضاء والجوارح كما يتعلق بما تحويه الضلوع والجوانح وهو خدمة الأمراء والسلاطين التي هي أشد هلاكاً من سم الأفعى والتنين، ولقد أحسن في معالجة هذين الداءين العضالين بملازمة تركهما قطعاً وعدم الالتفات إليهما طبعاً وجبر ما فات من تضييع الأوقات بخدمة من خدمته خدمة الإله وإطاعته إطاعة الله فخدمته خدمة الحق ومدحته كفارة لما جرى من اللغو في النطق، فلذلك تستقال العثرات وتغفر الزلات. اهـ. ثم قال رضي الله عنه:

إذ قلداني ما تخشى عواقبه   كأنني بهما هدي من النعم

إذ قلداني أي الشعر الذي قلته في الناس والخدم التي صدرت مني لهم، أي جعلا في عنقي من الآثام ما هو كالقلادة وذلك الذي قلداني هو ما تخشى عواقبه إذ هو إن لم يغفره الله مؤدّ إلى الهلاك الدنيويّ والخسران الأخروي حتى كأنني بهما هدي من النعم فكما لا يخفى الهدي من النعم على رائيه بما قلّد في عنقه من تعليق نعل أو غيرها فكذلك أنا لا يخفى استحقاقي العقاب بما اكتسبته من الآثام بسبب مدحي غيره ﷺ من أهل الدنيا وخدمتي إياهم على من رآني وعرف حالي. اهـ قسطلاني.

وفي أبي السعود: وإذ تعليل لأستقيل، ويجوز أن يكون تعليلاً لخدمته والضمير في قلداني عائد إلى الشعر والخدم وما موصولة منصوبة بقلداني على أنها مفعول ثان له أي قلداني الأمر الذي تخشى عواقبه، وتخشى مبني للمفعول وعواقبه مرفوع به أقيم مقام الفاعل.

قال العلامة السعد: لأني رأيت أن خدمة المخلوق والركون إليه ونظم الأشعار في مدائح كل أحد وعرضها عليه، هما قلداني عملاً تخاف عواقبه وأملاً تخشى معاطبه وإنني وإن تنزلت عن مدارج الملكوت وتخلّفت عن التدرُّج في معارج الجبروت وابتليت بالحزن الدائم والقلب الهائم بل انخرطت في سلك البهائم ولكن لم يحوّل وجه قلبي عن قبلة الإقبال وما زاغ بصر همّتي عن مشاهدة كعبة حضرة ذي الجلال والجمال، بل ما

أقبلت على غير حضرة الإله على مقتضى قوله تعالى: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [البقرة: الآية ١١٥] اهـ. ثم قال رضي الله عنه:

أطعت غيّ الصبا في الحالتين وما حصلت إلاّ على الآثام والندم

أي أطعت غيّ زمن الصبا، وهو زمان الجهل والبطالة الداعي إلى الهلاك في الحالتين، حالة مدحي لغيره وخدمتي له، وما حصلت منهما إلاّ على الآثام والندم على ما صدر مني ولو صحبني التوفيق من أول الأمر لكان ما صدر مني من شعر وخدمة له ﷺ خاصة لكن التوفيق بيد الله تعالى يمنّ به متى شاء. اهـ قسطلاني.

وفي أبي السعود: والناظم تجاوز الله عنه وعن سائر المؤمنين والمؤمنات لما كان في عنفوان شبابه مشغولاً بهذين العملين أعني العمل الديواني المشتمل على ديوان الوزارة وديوان الشعر ولم يكن من اشتغل بشيء منهما خالياً عن سنّة الغفلة وسكر الهوى وكانت قد أخذت بضبعيه العناية الأزلية في آخر العمر الذي هو محل الإنابة والاستغفار فانتبه من سنة الغفلة وأفاق من سكر الهوى ظاهر التحزن والندامة على ما ضيعه من رأس ماله الذي برّه به مولاه وجعل سفرته هذه من المبدأ إلى المعاد مناطاً لربح تجارته ومحلاً لكسب معاملته فقال منتدباً: إني أطعت داعي الضلال الذي هو غيّ الصبا ومقتضى سنّ الشباب من الميل إلى اللذات والتقمص بالشهوات، والرغبة في الفانيات عن الباقيات الصالحات في حالتي الوزارة التي وزرها يكلّ عن استقلاله كلاكل الجبال والشعر الذي يعجز عن حمله قوي الرجال أو في حالة الشباب والكهولة، فإن الشباب شعبة من الجنون وقد يصدر من المجنون ما يخل بالنظام ثم يستمر على ذلك الاستيلاء العادي إلى سنّ الكهولة فيعسر إزالته في سنّ الشيخوخة، نعوذ بالله تعالى من شرور أنفسنا وسوء أعمالنا. اهـ. ثم قال رضي الله عنه:

فيا خسارة نفس في تجارتها لم تشتر الدين بالدنيا ولم تسم

قوله: لم تشتر الخ، في معنى التعليل لما قبله فكأنه قال: لأنها لم تشتر الدين بالدنيا ولم تسم، فما أعظم خسارة من عدل عن العظيم القدر الباقي إلى الحقير الخسيس الفاني. اهـ. قسطلاني.

وفي أبي السعود: ولما أعانته يد التوفيق وأزالته العناية عن طريق علائق التعويق، استنجد قومه وعشيرته وأهله وقبيلته لإعانته على ما نزل به وإغاثته على ما دهمه فناداهم مستغيثاً بهم قائلاً: يا قوم احضروا وانظروا خسارة نفس دنية جاهلة بما يصلحها في تجارتها ومعاملتها في رأس مالها التي آتاها إياه مولاها فلم تشتر ما هو عند الله خير وأبقى بما في يدها والحب يصرفها عن الحول والقوة والمال وما أشبه ذلك مما هو فان لا يبقى، بل لم تتعرّض لذلك ولم تطلب تلك السلعة الشريفة بذلك الثمن البخس بل

كانت في معزل عن تلك التجارة ولم تحضر تلك المعاملة أصلاً في بالنها، أو يكون المعنى: يا خسارة احضري وانظري ما أنا فيه من الحالة التي ترثي لها الأعداء وترق لها الخصوم فهذا أوان حضورك وأبان حصولك فعسى أن ترقي كما يرق العدوّ لعدوّه عند مشاهدة سوء حاله وتكدر باله وتغير آماله. اهـ. ثم قال رضي الله عنه:

ومن يبع آجلاً منه بعاجله يبن له الغبن في بيع وفي سلم

أي ولا شك أنه من يبع آجلاً منه، وهو نعيم الآخرة الباقي أبد الآباد الذي لا يفنى طول الآماد بعاجله، وهو متاع الدنيا الفاني بين له الغبن في بيع وفي سلم، أي يظهر له الغبن في بيعه العاجل وفي سلمه وهو بيعه الآجل. ويحتمل أن يكون في كلامه حذف معطوف وحذف قيد، أي ومن يبع آجلاً من متاع الآخرة بعاجله من متاع الدنيا أو يشتر عاجله من متاع الدنيا بآجله من متاع الآخرة يبن له الغبن في بيع، وهي الحالة الأولى المصرح بها في كلام الناظم وفي سلم وهي الحالة الثانية المقدرة، والظاهر أن ضمير منه عائد على قوله: الدين، في البيت قبله. اهـ. قسطلاني.

وفي أبي السعود: ثم إنه لما قال ما قال وظهرت عليه مخايل الجزع وأمارات الفزع في الحال والمآل، قال إن هذا الحال ليس مخصوصاً بي بين الرجال بل كل من بلي بمثل ما بليت به ووقع فيما وقعت فيه من اختيار العاجل على الآجل وإيثار الفاني على الباقي والتوجه إلى الفانيات الدنية الدنيوية والإعراض عن الباقيات الصالحات العلية الأخروية يظهر له الغبن في تجارته والغين في فكرته فلا غرو يقع فيما وقعت فيه من الحسرة والندامة فالسعيد من يحصل له ذلك قبل يوم القيامة يوم يعض الظالم على يديه يقول: ﴿يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: الآية ٢٧]، فلم يغن عنه في ذلك اليوم نقيراً ولا فتيلاً. اللهم إنّا نسألك بحسن عنايتك أن تلبسنا ملابس هدايتك وتجعل لنا إلى متابعة الرسول سبيلاً، ولا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين فإنّا لا نجد سواك في هذا الطريق دليلاً وليس لنا غيرك حسيباً ولا كفيلاً. اهـ. ثم قال رضي الله عنه:

إن آت ذنباً فما عهدي بمنتقض من النبيّ ولا حبلي بمنصرم

أي إن أفعل ذنباً بعدما تقدم من التوبة والندم على الشعر والخدم بأن عدت إليهما فما عهدي الذي التزمته من دين الإسلام الذي جاء به النبي ﷺ بمنتقض من النبي لأن نقض التوبة بارتكاب الذنب لا ينقض الإيمان ولا حبلي بمنصرم منه أي من دينه. اهـ قسطلاني.

وفي أبي السعود: لما جزعت نفسه مما قدمت يداه وفزعت كل الفزع مما فرطت في جنب الله، أخذ في تسكينها من ذلك الاضطراب بما هو عدّة للمؤمن يوم الحساب، فقال: إن حصل لي الخلل في الأعمال والزلل في الأقوال فإن عهدي، أعني الدين

القويم والاعتقاد الصحيح المستقيم الذي أخذه الله مني في الأزل أو على رسوله ﷺ في قوله تعالى: ﴿۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾﴾ [يس: الآية ٦٠] غير منتقض وجل رجائي الذي هو محبتي وولائي له ﷺ ولآله وأصحابه ومتابعيه ومحبيه وكتابه المجيد وقرآنه العظيم الذي أشار إليهما ﷺ في قوله: «إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي حبلان متصلان لن ينقطعا حتى يردا عليّ الحوض ليس بمنصرم ولا منقطع»[١]. ولنعم ما توسل به الناظم رحمه الله تعالى فإنه العروة الوثقى التي لا انصرام لها والحبل المتين الذي لا انقطاع له، وكفاه في ذلك حجة قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: الآية ٤٨] وقوله ﷺ: «لو لم تذنبوا لجاء الله بقوم يذنبون فيغفر لهم»[٢] اهـ. ثم علل رضي الله عنه ما ذكره بقوله:

فإن لي ذمة منه بتسميتي محمداً وهو أوفى الخلق بالذمم

أي لأن لي ذمة منه ﷺ ﷺ بتسميتي محمداً كتسميته ﷺ بذلك فاختياري التسمية باسمه دليل على محبتي فيه فإنّ أحداً لا يتسمى باسم إلاّ وهو يحبه أو يحب من يتسمى به وإذا ثبت لي منه ذلك مع عظيم جاهه وعلوّ مكانته عند ربه فلا أخاف، وكيف أخاف أو أبالي وهو ﷺ أوفى الخلق بالذمم لأنه عليه الصلاة والسلام قادر على تخليصه بالشفاعة التي أذن له أن يشفع بها في محبته المؤمنين وفي كلامه دليل على الترغيب في التسمية باسمه ﷺ وقد جاء في ذلك أحاديث، فمنها ما أخبرتنا به الشيخة الأصلية عزيزة المصرية أذناً إن لم يكن سماعاً عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يوقف عبدان بين يدي الله عز وجل فيأمر بهما إلى الجنة فيقولان: ربنا بمَ استأهلنا الجنة ولم نعمل عملاً تجازينا به الجنة، فيقول الله عز وجل: عبداي ادخلا الجنة فإني آليت على نفسي أن لا يدخل النار من اسمه أحمد ولا محمد»[٣].

وعن نبيط بن شريط قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله عز وجل: وعزتي وجلالي لا أعذبن أحداً تسمى باسمك في النار» رواه أبو نعيم وعنه أبو يعلى الحداد وعنه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس بسنده مرفوعاً وقال: متصل الإسناد[٤].

وروي عن جعفر بن محمد: «إذا كان يوم القيامة نادى مناد ألا ليقومنّ من اسمه

---

(١) تقدم تخريجه بنحوه ولم أقف عليه بنفس هذا اللفظ.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) رواه الديلمي في الفردوس (٥/ ٤٨٥)، وأبو نعيم في الحلية (٦/ ١٧، ٣٤)، وأورده ابن قيم في المنار المنيف (ص ٦١)، ونقد المنقول (ص ٥١)، وقد صححه السادة الصوفية.

(٤) أورده العجلوني في كشف الخفاء (١/ ٤٦٨)، ورواه نبيط في جزء الموضوعات (ص ١٢).

محمد فيدخل الجنة لكرامة اسمه ﷺ. وفي لفظ آخر: ينادى يوم القيامة يا محمد فيرفع رأسه في الموقف من اسمه محمد، فيقول الله جلَّ جلاله: أشهدكم أني قد غفرت لكل من اسمه محمد على اسم محمد نبيّي»[١].

وعن أبي أمامة رضي الله عنه قال: من ولد له مولود فسماه محمداً تبرّكاً كان هو ومولوده في الجنة. رواه صاحب الفردوس وابنه أبو منصور.

وروينا أيضاً عن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه قال: «ما من مائدة وضعت فحضر عليها من اسمه أحمد أو محمد إلاَّ قدس الله ذلك المنزل كل يوم مرتين»[٢].

قلت: وأنا ولله الحمد لي منه ﷺ ذمة بتسميتي أحمد كاسمه الشريف وأسأله من فضله كما منَّ عليَّ بذلك أن ينظمني في سلك محبيه وورثته بمنّه وفضله ورحمته. اهـ قسطلاني.

وفي أبي السعود: ثم إنه رحمه الله تعالى أكد قواعد رجائه وشيّد بنيان أمله بما يشدّ أزر ذلك الرجاء والأمل ويقوّي تلك الأمنية ولو تعرّت من صالح العمل وهو أنه ساعده التوفيق الأزلي والعناية الربانية بأن وافق اسمه اسمه عليه الصلاة والسلام وإن لم يقرب مسماه من مسماه فإنه قد دخل بذلك في ذمام لا تتطرق إليه يد الخذلان وحل في جوار لا تصل إليه أنامل العدوان كما نطقت به الأحاديث الصحيحة الصريحة التي في إيرادها برمتها في هذا المختصر نوع من التعسر لكن لا يسعنا أن نترك جيد كتابنا عاطلاً عن التحلي بشيء منها.

فمنها ما روي عنه ﷺ أنه قال: أتاني جبريل فقال: «يا محمد إن الله يقرأ عليك السلام ويقول لك: وعزتي وجلالي لا أعذب من سمي باسمك النار».

وعنه ﷺ: «إذا كان يوم القيامة ينادي مناد في الأفق: ألا من كان اسمه محمد فليدخل الجنة بلا حساب لكرامة سميه».

وعنه ﷺ: «إن الله ليوقف عبداً بين يديه اسمه أحمد أو محمد فيقول له: عبدي ما استحيتني وأنت تعصيني واسمك باسم حبيبي محمد، فينكس رأسه ثم يقول: اللهم إني قد فعلت، فيقول الله عزَّ وجل: خذوا بيد عبدي فأدخلوه الجنة فأني أستحي أن أعذب بالنار من اسمه باسم حبيبي».

وجاء عنه ﷺ أنه سأل جبريل عليه السلام عن خوفه ورجائه فقال جبريل عليه

(١) انظر: المنار المنيف (ص ٥٧)، ونقد المنقول (ص ٤٨).
(٢) انظر: المنار المنيف (ص ٥٧)، ونقد المنقول (ص ٤٨).

السلام: إنهما كانا متساويين حتى رأيت ما وقع على عزرائيل بعد قربه فغلب خوفي على رجائي بعثت يا محمد ودعيت بمحمد الأمين وكنت قد دعيت جبريل الأمين فحيث منحت بهذه المنحة، أعني مطابقة اسمي اسمك، غلب رجائي خوفي. اللهم إنَّا نسألك يا أمان الخائفين ويا أنيس المستوحشين ويا صريخ المستصرخين أن ترزقنا الأمن والأمان إذا أزلفت الجنة للمتقين وبرّزت الجحيم للغاوين ببركة محمد الأمين الذي أرسل رحمة للعالمين وأن تميتنا على دينه ومحبته ومحبة آله الطاهرين برحمتك يا أرحم الراحمين. اهـ. ثم قال رضي الله عنه:

إن لم يكن في معادي آخذاً بيدي   فضلاً وإلا فقل يا زلّة القدم

أي إن لم يكن ﷺ في معادي آخذاً بيدي أي في يوم حشري مع سائر المخلوقات بأن يشفع فيَّ فضلاً منه لا لسابقة مني استحق بها أخذه بيدي فإن المنَّة والفضل لله ولرسوله وإلا بالتنوين أي فضلاً وعهداً، فقل أنت يا من يصلح منه الخطاب يا زلّة القدم في تلك المداحض أو يكون وإلاً شرطاً حذف فعله وجوابه لدلالة السياق والعقل عليه، أي وإن كان آخذاً بيدي في معادي فقل: يا ثبوت قدمي، وعلى هذين لا إشكال في فهم قوله وإلا فإنه لم يزل يستشكل، ووجه الإشكال أن أصل الكلمة إن لا فأدغمت النون في اللام ومعناه: إن لا يكن ما ذكر فهي لرفع ما تقدم، فإن وقعت بعد الثبوت فهي للنفي وإن وقعت بعد النفي كما هنا فهي للإيجاب. ثم قوله: فقل، جعله هذا المستشكل جواب قوله: وإلا، وقد كان الأخذ باليد في قوله: إن لم يكن منفياً فيجب أن يكون في قوله وإلاً مثبتاً أي وإن يكن آخذاً بيدي فقل: يا زلّة القدم. وهذا لا يشك في استحالته. وقيل: الرواية، فإن يكن في معادي وهذا بين لا إشكال فيه إن صحت. اهـ. قسطلاني.

وقال العلامة السعد: المراد من المعاد حالة الموت وما بعده، وأخذ اليد عبارة عن النصر والإمداد والإدراك بالمعونة والرفع عند الحاجة والباء في بيدي زائدة فضلاً تمييز عن نسبة آخذاً إلى فاعله، وزلّة القدم عبارة عن الهلاك والشقاء وسوء الحال. أما جواب إن لم يكن، فيحتمل وجهين:

أحدهما: أن يكون قوله: فقل يا زلّة القدم، وجواب أن التي أدغم نونه في لام لا محذوف أي وإن كان آخذاً بيدي لأن نفي النفي إثبات فقل يا سعادة أمرك ويا طيب حالك.

والثاني: أن يكون محذوفاً، أي فقل: يا شدّة الحال ويا سوء المآل. ويكون قوله: وإلاً مع الشرط والجزاء تكرار للشرط والجزاء السابق بالعطف وذلك لمزيد بيان تأكيد الحال والمآل. ويحتمل وجهاً آخر وهو أن يكون قوله: وإلاً تكراراً للشرط السابق ويكون لمجرد تأكيد الشرط فقط لمزيد تقرر الفرض المذكور بكلمة إن لأنّ هذا الفرض

مستبعد عنده لقوّة حسن ظنه بالنبي الرؤوف الرحيم ﷺ فعلى هذا لا يحتاج إلى الجوابين لكون الشرط واحداً وهذا الوجه ألطف من الوجهين السابقين ولو قرىء إلاً بالتنوين والإلّ هو العهد يكون سبكاً مليحاً ومعنى صحيحاً.

ويكون المعنى: إن لم يدركني على مقتضى الفضل والعهد ولكن السماع والرواية بدون التنوين وأيضاً فيه فرض ما يمتنع فرضه في حق النبي ﷺ من ترك مقتضى العهد. ومعنى: يا زلة القدم، أي يا قوم انظروا زلة القدم، أو يا زلة القدم تعالي فهذا أوانك ويقصد بهذا تقرر الأمر وتحققه. اهـ. ثم قال رضي الله عنه:

حاشاه أن يحرم الراجي مكارمه   أو يرجع الجار منه غير محترم

أي أنزّه محمداً ﷺ تنزيهاً من أن يحرم الراجي فيه مكارمه أو يرجع الجار منه غير محترم. فإن قيل: ما إعراب قوله: حاشاه أن يحرم الراجي، فالجواب: أن حاشا وحاشاه وحاشا له وقد تحذف منه الألف فيقال: حاش له اسم بمعنى المحاشاة وأما حاشا المستعمل في الاستثناء فهو حرف وقد يستعمل فعلاً فالحرف يجر المستثنى والفعل ينصبه، فإن جعلنا حاشا في البيت اسماً فيكون منصوباً بفعل مضمر وهو اسم واقع موقع المصدر، أي يحاشيه حاشاه والهاء في موضع خفض بإضافة حاشا إليها وأن يحرم أصله من أن يحرم كما تقدم تقديره وحذف من ومحله بعد حذفها قيل: نصب، وقيل: جر. وعلى كل تقدير فعامله إما حاشا أو العامل فيه المقدر، وإن جعل حاشى فعلاً فهو فعل ماض والهاء مفعوله وأن يحرم فاعله والراجي مفعول يحرم إن بني للفاعل، وقدر نصب يائه ضرورة وإن بني يحرم للمفعول فالراجي مفعول لم يسم فاعله وهو مرفوع وفاعل يحرم هو الله تعالى وعلى بنائه للفاعل ففاعله ضمير يعود على النبي ﷺ. اهـ قسطلاني.

وفي أبي السعود: وهذا أي المعنى السابق في قوله: يا زلة القدم، وهو الندامة حيث لا يجدي الندم، حال لا يحسن أن يرضاه المستجير من أحقر ذوي الجوار فضلاً عمن هو حامي الديار رفيع المقدار عزيز الجار متحاش أن يذر نزيله مضاماً متعال عن أن يترك جاره مستهاماً، قد فاق سائر أهل الآفاق في مكارم الأخلاق وأذاق كل من لسعته حية الذنوب شفاء الترياق، فهو رحمة العالمين جار المستجيرين لن يضام من استجار بعلاه ولا يخيب من نزل بفناه، فلا يمكن أن يرجع من أمل صيب سحاب عنايته خائباً ولا يتصوّر أن يؤوب من توجه إلى ماء مدين جوده ظامياً، وكيف يخيب من أمل سيد الكرام أو يضام من نزل بحمى سيد الأنام عليه أفضل الصلاة وأكمل السلام على التواتر والتوالي والدوام في جميع الأوقات والأيام والشهور والأعوام من هنا إلى يوم القيام.

أصبحت في جارك يا سيدي   والله قد أوصى بحفظ الجوار

إنّ كليباً قد حمى جاره   فكيف لا تحمي الأسودُ الكبار

ثم استدل الناظم رحمه الله على قوّة رجائه وأنه لا يخيب في ظنه بقوله:

ومنذ ألزمت أفكاري مدائحه وجدته لخلاصي خير ملتزم

أي ومنذ زمان ألزمت ذات أفكاري مدائحه في الدنيا متوسلاً بها في مطالبي العظيمة كطلبي الخلاص من الداء الذي لا يقدر على رفعه إلاّ الله ببركة محمد ﷺ وجدته ﷺ لخلاصي من جميع الشدائد التي تصيبني خير ملتزم بكسر الزاي وهذا الداء الذي أشير إليه هو سبب إنشائه لهذه القصيدة فإنه أصيب بفالج أبطل نصفه فعمل هذه القصيدة واستشفع بها، ثم رآه ﷺ في النوم فمسح بيده الشريفة عليه فعوفي، فلما استيقظ قال له بعض الصالحين: أسمعني هذه القصيدة التي مدحته بها ﷺ التي أولها: أمن تذكر جيران، فلقد سمعتها تنشد بين يديه ﷺ وهو يتمايل كالقضيب. وفي قوله: ألزمت أفكاري جواز الحذف. والتقدير كما تقدم ذات أفكاري أي نفسي ومنذ مبني على الضم ومذ على السكون ويكونان حرفي جر بمعنى في فيجرّ ما بعدهما ولا يكون إلاّ زماناً أنت فيه نحو: ما رأيته منذ الليلة ومذ الليلة ويكونان اسمين فيرفع ما بعدهما على التاريخ نحو: ما رأيته منذ يوم الجمعة، أي أول انقطاع الرؤية يوم الجمعة، أو على التوقيت نحو: ما رأيته منذ سنة أي أمد ذلك سنة، ولا تقول: منذ سنة كذا لأنه لا يقع هنا إلاّ نكرة.

وقال سيبويه: منذ للزمان نظيرة من للمكان، فقول الناظم رحمه الله تعالى: ومنذ ألزمت فيه حذف اسم زمان مضاف للجملة الفعلية والعامل في منذ وجدت فهو متقدم في التقدير، أي وجدته ﷺ لخلاصي خير ملتزم منذ زمان ألزمت أفكاري مدائحه وهي لابتداء الغاية لأنها مع الزمن المعين غير المعدود تكون كذلك، وإن قدرت منذ حرفاً فالزمان المقدّر مخفوض بها وهي متعلقة بوجدت وإن قدّرته اسماً كان مبتدأ وخبره اسم الزمان المحذوف. اهـ قسطلاني.

وفي أبي السعود: الإلزام جعل الشيء لازماً غير منفك والأفكار جمع الفكر وهو إعمال القوّة المفكرة لتدبير أمر من الأمور ووجدته من الوجدان وهو أن يرى الرجل ضالته بعد طلبها والخلاص مصدر خلص يخلص بفتح اللام في الماضي وضمها في المضارع وهو أن يخرج الإنسان من شيء تقيد به وخير ملتزم بكسر الزاي وهو الرواية كما قاله بعض الشراح: أي خير من التزم بخلاص من التجأ إليه ولاذ في الشدائد به. ثم قال: المعنى أن جنابه الشريف وحماه المنيف ﷺ متحاش عن أن يرجع من أمل كرمه محروفاً متجاف عن أن يؤوب من رجا نواله ممنوعاً متعال عن أن يعود جاره محروماً من الاحترام مقدّس عن أن يرجع من نيله صفر اليدين من الإعزاز والإكرام استشهد على تحقق هذا المعنى واستدل على صدق هذه الدعوى بأصدق شاهد وأوضح دليل وهو عدم

خيبة رجائه مع استحقاقه للنوال وظفره بمطلوبه مع عدم استعداده لإصلاح الحال. فقال: إني وجدته في جميع المدة التي ألزمت أفكاري فيها نظم لآلىء أوصافه الحميدة وفي جميع الأوقات التي صرفتها في نقد جواهر سماته السعيدة خير ملتزم التزم بحال اعتصامه للخلاص من الأهوال وأوثق مستمسك استمسك بأذيال كرمه للنجاة من بوائق الأعمال. اهـ. ثم قال رضي الله عنه:

ولن يفوت الغنى منه يداً تربت إن الحيا ينبت الأزهار في الأكم

قوله: تربت أي افتقرت أو خسرت ما كان بيدها إما من الأموال في الدنيا وإما من الثواب، لاقتراف المعاصي، فهو يشفع فيه ويدخله الجنة. إنَّ الحيا وهو المطر ينبت الأزهار حتى في الأكم التي يقال أنها لا تقبل استقرار الماء لارتفاعها وسرعة انحداره عنها، أي كما أن الحيا ينبت الأزهار في المواضع التي لا يظن نبته فيها كالأكم لعموم بركته فكذا هو ﷺ لعلوّ منزلته وشرف قدره عند ربه تعالى ينيل الغنى من يظن أن لا يستغني لشدّة فقره وفاقته. وهذا التشبيه إنما هو على سبيل التقريب للأفهام.

وفي أبي السعود: والغنى عدم الاحتياج، وقد يطلق بمعنى الثروة واليد الجارحة وقد تطلق ويراد بها النفس، وتربت بمعنى اشتدّ بها الفقر والفاقة والحيا بالقصر الغيث والأزهار جمع زهر بسكون الهاء وفتحها وهو النور والأكم جمع أكمة وهي ما ارتفع من الأرض. ثم قال: فهو الكريم الذي لا يحرم سائله عن سيب سحاب نواله في عام الجدب ولو خلت راحتاه من أسباب الاستجابة عند الاستسقاء وهو الجواد الذي لا يخيب قاصده ولو أقفرت يمينه من يمن الوسيلة عند رفعها في الدعاء، ففيض جود جوده ليس مقصوراً على من أصلح العمل واستعدّ لقبول الفيوضات وسحّ سحاب ديمة كرمه غير محصور على من تعرض لعارض وابله بالاستعداد لقبول الفتوحات فإني مع خوضي في بحر الخطايا لم أحرم العطايا ومع اشتغالي عن التأهب لنيل إفضاله لم أمنع من سيب نواله، قال:

صدفت عنه ولم تصدف مواهبه عني وعاوده ظني فلم يخب

كالغيث إن جئته وافاك رائقه وإن ترحلت عنه لجّ في الطلب

ولا غرو أن يشملني بره العام ويصل إليّ إحسانه التام مع كوني جديراً بالحرمان حقيقاً بالنسيان فإن الحيا إذا نزل بأرض قوم أنبت الأزهار في الآكام وإن لم تمسك الماء كما ينبته في الآجام التي هي مقر لما نزل من السماء كما أن ريح المسك قد ينشقه من يمر عليه غير مستقر فيه، وضوء السراج قد يستضيء به من رام إطفاءه بفيه. اهـ. ثم قال رضي الله عنه:

ولم أرد زهرة الدنيا التي اقتطفت يدا زهير بما أثنى على هرم

كأنه رضي الله عنه قال: إني لم أرد بمدحي له عليه الصلاة والسلام إلا ثواب الآخرة ولم أرد بذلك زهرة الدنيا ونضارتها من المال وغيره التي اقتطفت يدا زهير الشاعر المشهور بما أثنى على هرم أحد أجواد العرب وهو زهير بن أبي سلمى بضم السين بن ربيعة بن رياح المزني الشاعر المجيد من فحول شعراء العرب وهو أحد الشعراء الستة، وهو أبو كعب وبجير ابني زهير الصحابيين وابنه كعب هو القائل يمدحه ﷺ: «بانت سعاد» القصيدة المشهورة والشعر فيهم وراثة. وكان زهير يمدح هرم بكسر الراء بن سنان بن حارثة المرّي وكان هرم يصله بالصلات الجزيلة الخارقة للعادات اهـ قسطلاني.

وفي أبي السعود: الزهرة بفتح الزاي من كل شيء ما يروق الناظر وتعجب النفس منه، وزهرة الدنيا مشتهياتها ولذاتها والاقتطاف الجني. وزهير هو ابن أبي سلمى الشاعر المشهور وهرم هو ابن سنان سيد غطفان، ماتت أمه وهي حامل به وكانت أوصت في نزعها أن شقوا بطني وأخرجوا منها سيد غطفان. قيل: إنه سمي هرماً لأنه مكث في بطن أمه أربع سنين. ثم قال: ولما اعترف بعد استحقاقه لما نال بواسطته ﷺ من الفوائد الدنيوية وكان ذلك موهماً أن غرضه من نظم فرائد كمالاته وقصده من كتب قصائد صفاته اقتطاف زهرة الحياة الدنيا التي هي مطمح نظر مداح أهلها زال ذلك التوهم بقوله: لم أرد بمدحي تلك الحضرة العلية والسدة السنية حطام الدنيا الدنية كما هو دأب الشعراء والأدباء من الإطراء على أهل الثروة والغناء كثناء زهير على هرم بن سنان لأجل ما كان يسدي إليه من الإحسان، فإن ذلك غبن في المعاملات وخسارة في التجارات، فإن الذكر الجميل نفع على مر الدهور وهو تجارة لن تبور وحطام الدنيا وإن جل يمرّ مرّ الرياح، وقلب اللبيب إلى ما هو فان وإن رقّ ولطف وشف لا يرتاح، كما قال:

تاللَّه لا تشتهي نفسي وإن تربت ... فضول عيش إليها مالت البهم

وإنما تبتغي فضلاً ومرحمة ... تبقى إذا زالت الأموال والنعم

وروي أن ابنتي زهير وهرم اجتمعتا بعد موت أبيهما فقالت بنت زهير: إنّ لك عليَّ فضلاً كفضل أبيك على أبي، فقالت ابنة هرم: إنما الفضل لأبيك والعقل لأبي فإن أباك منَّ على أبي بما هو باق على مرور الأزمنة والدهور وأبي أسدى إلى أبيك ما يمرّ كمرّ الحرور، فأبي قد اشترى الباقي بالفاني وأبوك قد باع الباقي بالفاني فالفضل لأبيك والعقل لأبي والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير عقبى. اهـ.

ثم قال الناظم رحمه الله بعد المدح على سبيل الالتفات عن الإخبار عن الغائب إلى المواجهة له ﷺ وأقبل بالخطاب عليه فقال: إياك عني وأنت أدرت.

يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به ... سواك عند حلول الحادث العمم

ولن يضيق رسول الله جاهك بي إذا الكريم تحلى باسم منتقم

قوله: العمم أي الطويل كربه، الشديد مشقته وخطبه، وقوله: رسول الله منادى أي ولن يضيق يا رسول الله جاهك بي أي عني أو بسببي في كوني التجأت إليك في التوسل بك لاستنقاذي مما أستحقه من العقاب وذلك إذا الكريم سبحانه وتعالى تحلّى بالحاء المهملة، أي اتصف باسم أي بمسمى منتقم وذلك حين يقع الانتقام من العصاة ويستشفع إلى المرسلين فكل يقول نفسي وأنت ﷺ تقول: أمتي أمتي، فإن قيل: في كلامه إشكال كبير وقلق عسير لأن قوله: إذا الكريم تحلّى، يقتضي أن الكريم يتصف في الزمن المستقبل بمنتقم لأن إذا للاستقبال ولأن تحلى في حيزها والماضي الذي في سياق الشرط مستقبل المعنى، فمعناه: يتصف بالمستقبل وصفات الله تعالى قديمة لم تزل ولا تزال هذا هو الإشكال.

وأما القلق ففي قوله: باسم منتقم فإن الاسم عند أهل السنة هو المسمى نحو ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾ [الأعلى: الآية ١] أي ذاته، فالكريم في البيت بمعنى المسمى واسم بمعنى المسمى أيضاً ومنتقم أيضاً بمعنى المسمى، فيكون التقدير: إذا اتصف المسمى الذي هو الكريم بالمسمى الذي هو اسم المسمى الذي هو منتقم وهذا قلق كما ترى وأيضاً يؤذن كلامه باجتماع صفتي الفعل المتضادتين في قول واحد فإن المراد بالكرم التجاوز أو ما يتضمنه، والمراد بالانتقام المؤاخذة بالذنب. ولا يتأتى اجتماعهما في الوقت الواحد في المحل الواحد.

فالجواب: إذا تقرّر أن الكريم في وجه والمنتقم صفتان فعليتان فالكريم من له الكرم والمنتقم من له الانتقام كما أن الخالق من له الخلق والصفة الفعلية لا يرجع من معناها إلى الفاعل معنى قائم به. هذا هو الصحيح من مذهب أهل السنة وهو مذهب الشيخ أبي الحسن الأشعري، ولذا قال أئمتنا رحمهم الله: لا يتصف الباري تعالى بكونه خالقاً في الأزل إلاّ مجازاً.

وقال الشيخ أبو الحسن: من أسمائه تعالى ما يقال إنه غيره وهو كل ما دلت التسمية به على فعل الخالق.

وذهب بعض أئمة أهل السنة إلى أن كل اسم هو المسمى بعينه، فالخالق هو الاسم وهو الرب تعالى وليس الخالق اسماً للخلق ولا الخلق اسماً للخالق.

والمرضي طريقة الشيخ أبي الحسن، نقل القولين الإمام أبو المعالي في الإرشاد وغيره، فكلام الناظم على طريق الشيخ لا إشكال فيه، نعم يبقى النظر في قوله: تحلى فإن معناه كما تقدم: اتصف، وقد سبق أنه لا يرجع من الصفة الفعلية إلى الفاعل معنى فيكون ضمن تحلى معنى دعي أي يدعى في ذلك المقام باسم منتقم، وأما القلق فيزول

إذا قلنا: ضمن تحلى معنى دعي، وبالجملة لو بدل هذه الألفاظ بغيرها لكان أولى فإن المقام ضيق ويحتمل أن يكون المراد بالكريم والمنتقم جنس من اتصف ممن شأنه الكرم والتجاوز عن الهفوات بمدلول اسم منتقم أي تبدل صفاته من الكرم إلى الانتقام والأخذ بالجرائم، وذلك لما يرى من أهل الموقف فكل أحد في ذلك اليوم يشتهي أن يدور له الحق ولو على أبيه وابنه وأقرب الناس إليه ليستكثر به في استجلاب الثواب ودفع العقاب. وعلى هذا الوجه يندفع الاعتراض الوارد على الوجه الأول. اهـ قسطلاني.

وفي أبي السعود: المعنى الاستغاثة بالغوث الذي هو غيّاث المستغيثين الذي أُرسل رحمة للعالمين والمتوسل به المتأهب ليوم يؤخذ فيه بالنواصي والأقدام ولا خلاص ولا مناص فيه من أطواق الآثام إلا بعفو ذي الجلال والإكرام وشفاعة النبي عليه الصلاة والسلام والمناداة له ﷺ على سبيل التضرُّع والابتهال كما ينادى المستغاث عند حلول المكاره ونزول الأهوال بوصف يفيد تعليل صحة الالتجاء في المحن إليه وإباحة الاعتماد في الإحن عليه، وهو كونه ﷺ أكرم الخلق على الله فإن الشفاعة لا بدّ من وقوعها، وعلى هذا لا بدّ من شافع مشفَّع يؤذن له فيشفع وهذا المنصب مشروط بالكرامة منوط بالقرب والسلامة من الندامة يوم القيامة، وهذا الشرط لا شك في تحققه فيمن هو أكرم الأكرمين وأشرف الأنبياء والمرسلين ﷺ هو الجدير بهذا المقام المحمود واللواء المعقود والحقيق بهذا المنصب الأسنى والدرجة العليا.

أتــتــه الــشــفــاعــة مــنــقــادة إلــيــه تــجــرجــر أذيــالــهــا

فــلــم تــك تــصــلــح إلاَّ لــه ولــم يــك يــصــلــح إلاَّ لــهــا

ومن توسل به في هذا الأمر الذي هو له وهو له فقد أعطى القوس باريها وأسكن الدار بانيها، ومن التجأ إليه في أمر هو متعين له ومهم لا يكتفي إلاَّ منه فلا يسعه عقلاً وشرعاً وعرفاً أن يحرم من رجاه ويخيِّب من أمله في بلوغ مناه، لا سيما إذا كان ذلك المقصد منح من تحلى بصفات كمالية ونعوت جمالية لم تجتمع لأحد غيره في مقام قد طم فيه يمّ البلاء وعمَّ وكمل فيه أمر النشأة الأولى وتمَّ، وانتصب من لا تخفى عليه خافية وهو يعلم السر وأخفى وهو على كل شيء قدير لما وعد وأوعد من الثواب والعقاب في الكتاب والحساب وليس لأحد من دونه من ولي ولا نصير بصفة الانتقام من العاصين متحلياً بحلية الإثابة للمطيعين.

وفي هذه المقدمات التي أوردناها والتعليلات التي زبرناها ما يبرُد غليل المذنبين ويسكِّن جزع الخاطئين عند التهاب نار الجزع بما قدمته الأيدي من اكتساب السيئات وأسلفته الجوارح من احتطاب الخطيئات. اهـ. ثم قال رضي الله عنه:

فــإن مــن جــودك الــدنــيــا وضــرّتــهــا ومــن عــلــومــك عــلــم الــلــوح والــقــلــم

هو تعليل لما تقدم أي لأن من بعض جودك الدنيا وكذا ضرتها وهي الآخرة. والمراد: نعيمها ومن بعض علومك علم اللوح والقلم قيل: اللوح المحفوظ درة بيضاء طولها ما بين السماء والأرض وعرضها ما بين المشرق والمغرب، وحافتاه الدر والياقوت وقلبه نور. فإن قلت: قولك إن من بعض علومه علم اللوح والقلم مشكل لأن الله تعالى كتب في اللوح علم الكائنات التي من جملتها الخمس التي استأثر الله تعالى بعلمها كما في الصحيح من قوله ﷺ: «خمس لا يعلمهن إلاَّ الله تعالى»[1]. فالنبي ﷺ وغيره من المخلوقين لا يعلم هذه الخمس فكيف يتضمنها بعض علومه. فيتعين أن يكون المراد باللوح والقلم في كلامه جنسهما من الألواح والأقلام التي تكتب فيها الخلائق علومهم.

فالجواب: لا نسلم أن هذه الخمس مما كتب في اللوح المحفوظ إذ لو كانت مما كتب فيه لاطلع عليه بعض الملائكة المقربين عليهم الصلاة والسلام ممن شأنه أن يطلع على اللوح المحفوظ. ولئن سلم أنها فيه وأن الله لم يطلع عليها أحداً وإن كانت فيه. فالمعنى: وبعض علومك علم اللوح والقلم الذي يطلع عليه المخلوق. اهـ قسطلاني.

قلت: والتحقيق أنه عليه الصلاة والسلام لم يفارق الدنيا حتى أعلمه الله بسائر المغيبات التي يليق علمها بالبشر، ومن جملتها هذه الخمس، فقوله: فالنبي ﷺ وغيره من المخلوقين لا يعلم هذه الخمس محمول على أول أمره ﷺ كما نبّه على ذلك أئمة التحقيق وقد نبهنا في أغلب كتبنا نقلاً عن محققي الأئمة على أن اللوح والقلم والعرش والكرسي والسماوات الأولى تفويض الأمر في حقيقتها إلى العليم الخبير لعدم نص صريح في تعيينها فنؤمن بثبوتها ووجودها ونفوض معرفة حقيقتها إلى الله تعالى.

وفي أبي السعود: والمعنى: كيف يضيق جاهك يا رسول الله بمثل هذا الفقير الحقير الذي قد خلت يداه من نفس العمل والتطهير مع أن الدنيا وما فيها والآخرة وما احتوت عليه من العل مما أعدّ للمتقين هي بعض من جودك العميم وشيء من عميم كرمك يا كريم، وعلمك قد أحاط باستحقاقي الشفاعة فإن الصدقة والإحسان يتفاوت موقعهما بحسب شدّة الفقر وقوّة الحرمان، فإن المضطر المسكين أولى بإحسان المحسنين وكيف لا تعلم حالي وتعرف فقري وقلّة نوالي وعلم اللوح والقلم، بمعنى ما هو مسطور في اللوح مما جرى به القلم، بعض مما جرى فيه علمك وأحاطت به معرفتك. وإنما خص هذين الوصفين بالذكر لأن إغاثة المضطر المستكين وإعانة البائس المسكين موقوفة على هذين الوصفين، فإن المانع من الإغاثة والإعانة، إما البخل وإما

(١) رواه البخاري (١/٢٧/٣٥١)، (٤/ ١٧٩٣)، ومسلم (١/ ٣٩).

عدم العلم بحال المستحق، فإذا زال المانع وحصل المقتضى وجب صدور الفعل.

ثم قال: ولا يبعد أنه سبحانه وتعالى قد أطلع حبيبه ﷺ على جميع ما هو مسطور في اللوح وقد جرى القلم به، ولا شك أنه ﷺ قد تحلى بحلى المعارف الإلهية من الصفات الربانية والأحوال القدسية مما لم يحط به اللوح ولم يجر عليه قلم ولا يعلم به ملك ولا يخطر بقلب أحد من بني آدم، فيكون علم اللوح والقلم بعضاً من علومه ﷺ. اهـ.

ولا يخفاك ما سبق غير مرة أنه لولاه لما وجد لوح ولا قلم كما في الحديث القدسي: «لولاك لولاك لما خلقت الأفلاك». لا سيما وقد خلق اللوح والقلم وسائر الأفلاك من نوره ﷺ فيكون علم اللوح والقلم من ضمن علومه ﷺ.

ثم أقبل الناظم رحمه الله على نفسه يخاطبها بتحقيق رجائه ويؤنسها لئلا يؤول بها شدّة الخوف إلى القنوط من رحمة الله تعالى، فقال:

يا نفس لا تقنطي من زلّة عظمت إن الكبائر في الغفران كاللمم

قوله: من زلّة أي من عفو زلّة عظمت، فإن فضله تعالى عظيم وحلمه وعفوه عن الذنب عميم وإن الكبائر العظام كالذي ارتكبته أنت أيتها النفس في جانب الغفران منه سبحانه وتعالى كاللمم وهي صغائر الذنوب فإنه ورد أنه تعالى يغفر الصغائر باجتناب الكبائر، فلذلك يعفو عن الكبائر إن شاء الله تعالى بفضله وكرمه وشفاعة نبيه عليه الصلاة والسلام.

وما ذكره الناظم من أن الكبائر في جواز العفو عنها كاللمم هو مذهب أهل السنّة وهو الموافق للقرآن والحديث والدليل اللفظي، لأنه تعالى لا يجب عليه ثواب ولا يتحتم عليه عقاب، فالثواب منه فضل والعقاب منه عدل ﴿لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء: الآية ٢٣] والأصل: يا نفسي مضافاً إلى ياء المتكلم وحذفت استغناء عنها بالكسرة. اهـ قسطلاني.

وفي أبي السعود: النفس تنقسم بانقسام المراتب إلى مطمئنة وملهمة ولوامة وأمارة بالسوء، وقد سلف القول فيها، والقنوط هو اليأس من الرحمة، والزلة: الذنب صغيراً أو كبيراً، واللمم: ما دون الفاحشة من صغار الذنوب.

والمعنى: يخاطب النفس اللوامة في مقام الحسرة والندامة على ما فرطت في جنب الله بارتكابها المعاصي واستهتارها بتبعات ما اقترفته في يوم يؤخذ فيه بالنواصي حتى أشرفت على مقام اليأس من رحمة رب العالمين وأوشكت أن تقع في مهاوي القنوط من عفو رب العالمين نظراً إلى عظم الخطيئات وشدة السيئات قائلاً لها: يا أيتها النفس المغمورة في بحر العصيان المنهمكة في جدول الطغيان الكارعة من شراب الغفلة والسهو

والنسيان المتقاعدة عن إطاعة الملك السلطان، لا تقنطي من رحمة البرّ الرحيم ولا تجزعي مما دهاك من بوائق الذنب العظيم، ولا تيأسي من روح رحمة أرحم الراحمين فإنه لا ييأس من روح الله إلاَّ القوم الكافرون، وأن ذنوبك وإن عظمت وجمت وخطاياك وإن كثرت وطمت فرحمة ربك أعظم وأوسع وعفوه أكبر وأرفع وعظائم الآثام وكبائر الذنوب بالنسبة إلى الرحمة وسعة المغفرة مساوية لصغار الذنوب ومماثلة للمم من الخطايا فإنه كما لا يعسر على قدرته وكرمه غفران الصغائر لا يعسر عليه التجاوز عن الكبائر. اهـ.

وكأن الناظم رحمه الله تعالى لما نهى نفسه عن القنوط قدر كأنها قالت له: أن لا أقنط من رحمة الله تعالى فإن ذلك كفر ولكنني أخشى أن يكون حظي الذي أعطاه من الرحمة لا يفي بتبعات ذنوبي لعظمها، فأجابها بقوله:

لـعـل رحـمـة ربـي حـيـن يـقـسّـمـهـا تأتي على حسب العصيان في القسم

أي لعل رحمة ربي التي تنال العصاة للستر على ذنوبهم حين يقسمها جلّ وعلا إذا وزعت عليهم تأتي أقسامها في العظم والصغر على حسب أي قدر العصيان في القسم. فمن حمل من آثام المعاصي حملاً كبيراً يناله من أقسام الرحمة التي هي الستر شيئاً كثيراً.

وقد اشتملت هذه القصيدة على أنواع التغزل وتوبيخ النفس والوعظ ومدحه ﷺ وذكر بعض معجزاته ﷺ على اختلاف أنواعها، ومدح القرآن ومدح الصحابة وذم الكفار وتوبيخ النفس أيضاً والإقرار بالذنب، وذكر معتصمه في الخلاص من الآثام. اهـ قسطلاني.

وفي أبي السعود: والقسمة جعل الشيء أنصباء، كل نصيب لفرد من المقسوم عليهم، وقد يراد التمييز بين الأنصباء من غير إعطاء وحسب بفتح الحاء المقدار ومنه قولهم: أحسنت إلى فلان حسب الطاقة، وأصله من حسب المال عده وحسب الرجل مآثر آبائه لأنه يحسب به من المناقب.

وقوله ﷺ: «الحسب المال والكرم التقوى» معناه: أن الغني يعظم كما يعظم الحسيب، وأن المتقي هو الكريم لا من يجود بماله ويبذره ويخاطر بنفسه ليعدّ جواداً، والقسم جمع قسمة، والمعنى: وما يدريك أيتها النفس لعل رحمة ربي عند القسمة يكون منها نصيب العاصي الذي هو صفر اليدين من الحسنات أكثر لأن احتياجه إليها أوفر وعادة الكريم أن يبر شديد الاحتياج بالإحسان ويخصه بمزيد من المنح بالنسبة إلى سائر الإخوان، والحكيم الذي لا يُسئل عما يفعل جدير بأن يكون فيضه بقدر الاحتياج حقيق بكرمه أن يخص المضطر المسكين. وقد تقرر أن الرتقى على قدر الفتق، والحكيم

الحاذق يضع الهناء موضع النقب، والراكب الحازم يشد الحزام موضع الحقب. اهـ.

ثم إن الناظم رحمه الله ختم بالدعاء ثم الصلاة على سيدنا محمد رسول الله ﷺ، فقال.

يا رب واجعل رجائي غير منعكس لديك واجعل حسابي غير منخرم

أي يا رب حقق ظني واسمع دعائي واجعل رجائي غير منعكس لديك يوم القيامة حيث يكون الثواب والعقاب، واجعل حسابي وهو ظني الجميل فيك أن تعفو عني زلاتي وتنيلني من فضلك ما أملته من كراماتك التي تكرمني بها، غير منخرم ذلك الظن أي غير ناقص لديك بل أجده حسبما قدرته كما قال الآخر الذي غلب عليه الرجاء:

وإني لأرجو الله حتى كأنني أرى بجميل اللطف ما الله صانع

اهـ قسطلاني. وفي أبي السعود: يا رب يجوز فيه الكسر على حذف ياء الإضافة كقوله تعالى: ﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي﴾ [مريم: الآية ٤] فيكون منادى مضافاً أو الرفع على أنه منادى مفرد. وقوله: فاجعل، يروى بالفاء فيكون الكلام متفرعاً على قوله: إن الكبائر في الغفران كاللمم أو على ما أظهره من الرجاء وطيب النفس في قوله: يا نفس لا تقنطي ولعل رحمة ربي بالواو فيكون معطوفاً على محذوف كما في قوله تعالى: ﴿وَإِيَّٰيَ فَٱرْهَبُونِ﴾ [البقرة: الآية ٤٠]. وهذا إنما يكون للمبالغة وإظهار المغالبة في نيل المطلوب.

والتقدير حينئذ: يا رب اسمع دعائي واجعل رجائي غير منعكس. والمعنى: لما عنى نفسه المسيئة بما من شأنه أن يجعل ذريعة إلى نيل المطالب ووسيلة لاقتطاف ثمار المآرب وهو الطمع في نوال الجواد الكريم وحسن الظن بعفو العفوّ الرحيم عقّبه بالنداء والاستغاثة بأن لا يرده خائباً غير مقضي المرام، ولا يعكس رجاءه في اقتحام المضايق وازدحام الأقدام في يوم القيام، بقوله: يا ربي وسيدي وسندي وذخري ومعتمدي استجب دعائي وبلّغني منائي ولا تجعل رجائي عندك معكوساً ولا تمنيّ رحمتك منكوساً واجعل ظني الحسن في جناب رحمتك غير منقطع وما أرتقبه من المغفرة والتجاوز غير ممتنع. اهـ. ثم قال رضي الله عنه:

والطف بعبدك في الدارين إن له صبراً متى تدعه الأهوال ينهزم

قوله: في الدارين، أي الدنيا والآخرة، إن له أي لعبدك ويعني نفسه صبراً متى تدعه الأهوال ينهزم، أي متى تطلبه الأمور المهولة ينهزم صبره ولا يثبت فيهلك وباللطف يندفع الهلاك. اهـ قسطلاني.

وفي أبي السعود: اللطف فعل الأصلح، واللطافة ضد الكثافة، واللطيف جاء منهما، والأهوال جمع هول وهو الأمر المخيف. يقال: هالني هذا الأمر راعني وأخافني وهزمه أي حمله على الهزيمة وانهزم مطاوعه.

والمعنى: والطف بي في الدنيا والآخرة فإني أنا عبدك الذي لا يقاوم صبره الأهوال ولا يثبت قدمه عند تغير الأحوال وتبلبل البال فإنك عالم بضعف صبره عند قوة الشدائد وبانهزامه إذا دعته الأهوال بمقاومة المكايد، وجدير بالكريم المنان الحنان أن يقيل عثرة من عيل صبره في مقام الجزع وأن يؤمن روعة من اشتد خوفه في حالة الفزع فإنك كريم حليم رؤوف عطوف. اهـ. عطّف الله علينا قلوب أحبابه بجاه النبي وآله وأصحابه ﷺ وعلى آله وأصحابه كلما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون. ثم قال رضي الله عنه:

وائذن لسحب صلاة منك دائمة على النبي بمنهل ومنسجم

قوله: دائمة بالجر صفة لصلاة أي وسلام دائم على النبي ﷺ بمنهل أي وأمر يا رب سحائب الصلوات أن تمطر بنوع منهلّ من الصلوات أي منصب ومنسجم منها أي سائل. وإنما شبه الصلاة على النبي ﷺ بالمطر لأن الصلاة من الله على نبيه رحمة والمطر رحمة، وأدخل بعضهم هنا بيتاً حسناً لا بأس بإدخاله، وهو:

وآله الغرّ والصحب الذين علوا أهل الصفا والوفا والجود والكرم

اهـ قسطلاني. وفي أبي السعود: الإيذان الإعلام، والسحب بضم السين وسكون الحاء جمع سحاب والصلاة الرحمة المقرونة بالتعظيم وسبق الكلام عليها مستوفى، وانهلت السماء صبت واستهلت ارتفع صوت وقعها، وانهلت العين جرى دمعها، وانسجم سال.

والمعنى: أنه لما سأل ربه الكريم وطلب من مولاه البر الرحيم أن لا يعكس رجاءه فيما حسن ظنه فيه من غفر الذنوب وستر العيوب وأن يجعل انصباب رحمته بالنسبة للعاصين على حسب مراتب العصيان. ومن المعلوم أن الدعاء موقوف حتى يشفع بالصلاة على النبي ﷺ وآله وصحبه الكرام، فختم دعاءه وقصيدته بالصلاة عليه، عليه من الصلوات أزكاها ومن التحيات أنماها، فقال: أسألك يا داحي الأرضين وماسكها بلا وتد وباسط السماوات ورافعها بلا عمد أن تأمر سحب الصلاة التامات وتأذن لمزن التحيات أن تفيض شآبيب الروح والرضوان وأن تسبل أنابيب النور والمعرفة والعرفان على القلب الأنور والقالب الأزهر والجسد المطهر ﷺ وعلى آله وصحبه وسلم. اهـ. ثم قال رضي الله عنه:

ما رنحت عذبات البان ريح صبا وأطرب العيس حادي العيس بالنغم

ما رنحت أي أمالت عذبات شجر البان ريح صبا، وهي الشرقية سميت بذلك لأنها تقابل بهبوبها باب الكعبة فكأنها تصبو إليها، وأطرب العيس حادي العيس بالنغم أي ائذن يا رب لهذه السحب أو أدمها ما بقيت الإبل تساق فيحدوها الحادي وتطرب

بحدائه. ومعلوم أن هذين الأمرين لا ينقطعان ما بقيت الدنيا وللإبل خاصية عظيمة في حصول الطرب لها عند سماعها صوت الحادي وذلك معلوم بالأخبار ومشاهد بالأبصار، وكلما كان الصوت أحسن كان طربها أكثر حتى إنها لتقطع المسافة الكثيرة في الزمن القليل بسبب ما يحصل لها من النشاط عند سماع الصوت الحسن حكمة العزيز القادر. والعيس، كما قال الجوهري رحمه الله تعالى، بكسر العين الإبل البيض يخالط بياضها شيء من الشقرة وإنما خص البان والعيس لأنهما من مألوفات الأحبة وهم العرب. وتخصيص ريح الصبا أظهر في ذلك لصبوّها إلى باب الكعبة أعظم مكان في البلد الذي هو مسقط رأس حبيبه وحبيب كل مؤمن ﷺ كما خص بالذكر في أول بيت من هذه القصيدة جبل الأحبة ليتطابق حسن الابتداء وحسن الاختتام في الدلالة على أن القلب مغمور بذكر الأحبة أولاً وآخراً ووسطاً.

وفي هذا البيت والذي قبله براعة الختام، وسماها بعضهم: حسن المقطع، وبعضهم: حسن الخاتمة، وهو في الشعر عبارة عن ختم القصيدة بأجود بيت يحسن السكوت عليه لأنه آخر ما يبقى في الأسماع وربما حفظ دون غيره لقرب العهد به، فإن كان مختاراً جبر ما عسى أن يقع قبله من التقصير والأعمال بخواتيمها، ختم الله تعالى لي ولوالديّ ولمشايخي ولأحبائي وللمسلمين بخاتمة السعداء بمنّه وكرمه. والحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم وحسبي الله ونعم الوكيل، وأستودع الله نفسي وديني وخواتيم عملي وأحبائي وما أنعم به عليَّ وعلى المسلمين، فإنه سبحانه وتعالى إذا استودع شيئاً حفظه ونعم الحفيظ.

وفي أبي السعود: ورنحه فترنح أي أطربه فهز عطفيه طرباً، وعذبات جمع عذبة بفتح الذال وهو الطرف اللطيف من الشيء الممتد، والبان شجر لطيفة أغصانه.

والمراد: بعذبات البان أغصانه، وريح الصبا مهبها مطلع الشمس عند استواء الليل والنهار ويقابلها الدبور والطرب الخفة الحاصلة من الفرح المقتضي للحركة والاهتزاز وأكثره عند شدّة الميل إلى نيل المطلوب، ولقاء المحبوب، والعيس بالفتح بياض البطن من الإبل وبالكسر قيل كرائم الإبل، والنغم جمع نغمة وهي في العرف مدة في الصوت يقصد بها الإطراب، وفي الأصل: الكلام الخفي، يقال: نغم ينغم مكسوراً ومفتوحاً أي تكلم كلاماً خفياً.

والمعنى: فأدم اللهمّ تلك الصلوات وأبق تلك التحيات ما هزت الصبا غصون البان وأطرب حادي الركائب بحداه الركبان. يعني: ما حركت المحبة الإلٰهية والإرادة الربانية أفئدة عشاق النور الجمالي وقلوب محبي الجمال الإلٰهي، وما أطرب بلبل بستان

النبوّة وخطيب نادي الفتوة جمال ركب السائرين إلى الله، وعيس سفر السالكين في معرفة الله. اهـ.

ولما منَّ المولى القدير على عبده الذليل الحقير من فيض ساحة الكرم الربانية بإتمام النفحات الشاذليّة، انهلت سحائب معانيها على أرض رياض مبانيها وأينعت بنفائس العلوم ثمارها وفاحت لمنتشق عبير الحقائق أزهارها وتدفقت حياض بدائع ألفاظها العذاب، فتلا لسان حالها ما فرطنا في الكتاب لجمعها ما تشتت في غيرها من بدائع التحقيق وما حوى غيرها من المحاسن المصطفوية من نصوص أهل التحرير والتدقيق.

فإذا بدا لا تستقلُّوا حجمه وحياتكم فيه الكثير الطيب

أسأل الله العظيم متوسلاً إليه بوجاهة وجه نبيه الفخيم أن يجعلها خالصة لوجهه الكريم وأن ينفع بها النفع العميم شافعة في ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشُّعَراء: الآيتان ٨٨، ٨٩] اللهمَّ إنَّك قد قسَّمت لنا قسمة أنت موصلها لنا فوصلنا إليها بالهنا والسلامة من العنا نشهدها منك فنكون من الشاكرين ونضيفها لك دون أحد من العالمين، اللهمّ اجعلنا من المختارين لك لا عليك إذ الأمر كله منك وإليك، اللهمَّ إنَّا إليك محتاجون فأكرمنا وعن القيام بشكرك عاجزون فألهمنا وهب لنا قدرة على طاعتك وعجزاً عن معصيتك واستسلاماً لربوبيتك وصبراً على أحكام ألوهيتك وعزاً بالانتساب إليك، وراحة في قلوبنا بحسن التوكل عليك، واجعلنا ممن دخل مدائن الرضا وكرع من تسنيم التسليم للقضا، وألبس خلع التخصيص وذاق حلاوة الوصل بغير تنغيص مواظبين على خدمتك محققين بمعرفتك، وارثين لسنّة رسولك مقتبسين من نور بهجة خليلك الذي رقى من مدارج معارج رتب الكمال أعلاه وارتقى بشرفه الذاتي فوق العرش فنال من الدنوّ والمشاهدة والكمال ما لم ينله مخلوق سواه ﷺ وعلى آله وأصحابه وأزواجه وذريته وأهل بيته كلما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون وشرف وكرم وعظم.

قال مؤلفه: وكان الفراغ من تعليقه ظهر يوم الاثنين السابع والعشرين من شهر رجب الفرد سنة سبع وتسعين بعد المائتين والألف من هجرة من خلق الله على أكمل وصف ﷺ وعلى آله وصحبه وسلم سلام على جميع الأنبياء والمرسلين والحمد لله رب العالمين.

فهرس المحتويات

الجزء الأول من النفحات الشاذلية في شرح البردة البوصيرية
سيرة المصطفى ﷺ وما يتعلق بها

الجزء الثاني من النفحات الشاذلية في شرح البردة البوصيرية
ذكر ثلاثمائة حديث من جوامع كلمه ﷺ

قصيدة البردة

الجزء الثالث من النّفحات الشاذلية

في شرح البردة البوصيرية



AN-NAFAḤĀT AŠ-ŠĀḎILIYAH FĪ ŠARḤ AL-BURDAH AL-BŪṢĪRIYAH

by
Aš-Šayḫ Ḥasan Al- ᶜAdawi Al- Ḥamzāwi

Edited by
Aḥmad Farīd Al-Miziyadi

DAR AL-KOTOB AL-ILMIYAH
Beirut-Lebanon





١-٣





Mohamad Ali Baydoun Publications Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah



http://www.al-ilmiyah.com
e-mail: sales@al-ilmiyah.com